

نصوير
أحمد ياسين



جندي أمريكي

«سيرة حياة القائد العام للجيش الأمريكي
مع اهتمام بتكوين الجيش وتدريبه ومعاركه الأخيرة»

الجنرال

تومي فرانكس

القائد العام - القيادة المركزية الأمريكية

نقله إلى العربية

محمد محمود التوبة

مع مالكولم ماك كونييل

العبيكان
Obekkan
Publishers & Booksellers



نصوير
أحمد ياسين

جندي أمريكي



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

جندي أمريكي

الجنرال
تومي فرانكس

القائد العام. القيادة المركزية الأمريكية
مع مالكولم ماك كونييل

نقله إلى العربية
محمد محمود التوبة

نصوير
أحمد ياسين


Original Title:
AMERICAN SOLDIER

by:
Tommy Franks

Copyright © 2004 by Tommy Franks
ISBN 0 - 06 - 073158 - 3

HarperCollins Publishers Inc, 10 East 53 rd Street, New York, NY 10022

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعيكان بالتعاقد مع هاربر كولينز ببلشرز

© 1427 هـ - 2006 م 

المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص. ب. 62807 الرياض 11595

Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1427 هـ - 2006 م

ISBN 4 - 032 - 54 - 9960

نصوير
أحمد ياسين

ح) مكتبة العيكان، 1427 هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فرانكس، تومي

جندي أمريكي: صورة عن الحياة والتدريب والحرب في الجيش الأمريكي. / تومي فرانكس؛ التوبة

محمد محمود. - الرياض 1427 هـ

750 ص؛ 16.5 × 24 سم

ردمك: 4 - 032 - 54 - 9960

1 - الولايات المتحدة - الجيش

ب. العنوان

أ. التوبة محمد محمود (مترجم)

1427 / 2949

ديوي: 355.0973

رقم الإيداع: 1427 / 2949

ردمك: 4 - 032 - 54 - 9960

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission of the publishers.





نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

إلى كل الذين يخدمون ...
والى أولئك الذين يحبونهم

نصوير
أحمد ياسين



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

المحتويات

الصفحة	الموضوع
١٣	الكلمة الأولى: اليوم ي، يوم بدء العملية
	القسم الأول
٢١	الجنود العميقة
٢٣	1. بذر البذور
٥٣	2. امدد لهم يد العون
٩٩	3. المحنة
	القسم الثاني
١٦١	الجندي المحترف
١٦٣	4. جيش جديد
٢٠٣	5. رتبة ترفع علمها
	القسم الثالث
٢٥٧	القائد العام
٢٥٩	6. الجوار الخطر
٣١٥	7. النوع الجديد من الحرب
٣٧١	8. النصر التاريخي
	القسم الرابع
٤١٧	ثورة في الحرب
٤١٩	9. تصور القائد
٤٩٥	10. الخططة
٥٥٧	11. عملية حرية العراق
٦١٥	12. حملة لا كغيرها من الحملات
٦٨٩	خاتمة



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

فن الحرب ذو أهمية حيوية للدولة.

إنه مسألة حياة أو موت، وهو طريق إلى السلامة أو الدمار.

ومن هنا لم يمكن إهماله تحت أي الظروف.

- صن تزو



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الكلمة الأولى

اليوم ي، يوم بدء العملية

الساعة 1634، 19 آذار/مارس 2003

قاعدة الأمير سلطان الجوية، المملكة العربية السعودية

انحنيت إلى الأمام في الكرسي الجلدي، وأنا أشاهد شاشة عرض الفيديو الفارغة. وبعد ذبذبة تشويش تطابقت صورة غرفة الموقف مع مركز الشاشة، وهي غرفة في البيت الأبيض مكسوة بالخشب.

جلس الرئيس جورج دبليو. بوش بين نائب الرئيس ديك تشيني وبين وزير الخارجية كولن باول على رأس طاولة من خشب الماهوغاني. وجلس الأعضاء الخمسة الآخرون من مجلس الأمن القومي على جانبي الطاولة، وهم يواجهون الشاشة التي ظهرت عليها صورتنا مثلما كانت صورتهم تعرض هنا تماماً.

كانت البدلات السوداء التي ارتداها الرجال جميلة التفصيل. وارتدت الدكتورة كوندوليزا رايس سترة أنيقة مفصلة على قدها. كان يمكن لهؤلاء الجلوس على الطاولة أن يكونوا مجلس إدارة لشركة، غير أن موضوع هذا الاجتماع المعقود من خلال الاتصال من بعد لم يكن الربح أو الخسارة، كان الموضوع هو الحرب.

إذا أصدر لي الرئيس الأمر، فإن آلافاً من جنود التحالف ومشاة البحرية كانوا سينطلقون في هجوم عبر الحدود العراقية في مدى ساعات. وستقوم مئات من الطائرات الحربية الأمريكية، والبريطانية، والأسترالية بتقديم الدعم للقوات الأرضية.

وسألت: "هل تستطيع أن تسمعني، سيدي الرئيس؟"

"نعم نستطيع، يا تومي. نستطيع أن نسمعك بوضوح. معك هنا مجلس الأمن القومي."

وبدأت: "سيدي، أود أن أعطي مقدمة وجيزة عن قادة عناصرنا ثم أترك لهم

أن يعطوكم تقريراً سريعاً عن الموقف. وسنذهب بعيداً. سأبدأ بالفريق بز موسلي.

حنيت رأسي بإيماءة إلى يساري. كان بز يرتدي بدلة الطيران الصحراوية اللون الخاصة بالقوات الجوية الأمريكية، ويضع على كتفيه النجوم الثلاث الخاصة برتبته. وإلى جانب بز على طاولتنا البيضاء كان يجلس نائب ماريشال الجو غلين توربي من القوات الجوية الملكية الذي كان قائد الطيارين البريطانيين في التحالف، وجلس إلى يميني جيوف براون، قبطان المجموعة، قائد العنصر الجوي الأسترالي.

وأبلغ بز الرئيس بالقول: "سيدي الرئيس، قيادتنا وسيطرتنا تامة، وقوات تحالفنا في الموقع. والعنصر الجوي محمول جواً، وهو الآن فوق العراق. سيدي الرئيس، نحن نمتلك أفضل الناس تدريباً، وأفضلهم تجهيزاً، وأفضلهم حافزاً في العالم، ونحن متأهبون جيداً لتنفيذ هذه المهمة."

بدا الناس في واشنطن جادين بوقار. كان كولن متعباً تعباً واضحاً. بل لعله كان متعباً حتى الحد الذي كنت أنا عليه من التعب. وكان رئيسي المباشر، وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، هادئاً، مستغرقاً في التفكير. وإلى جانبه جلس جنرال القوات الجوية ديك مايرز رئيس الهيئة المشتركة لرؤساء الأركان، وبدا متجهماً. وجلس مدير الاستخبارات المركزية جورج تيننت في الجهة المقابلة من الطاولة، وهو ينصت باهتمام كامل. لقد أدرك الجميع خطورة اللحظة وأهميتها.

كان الهدف النهائي لقواتنا المسلحة هو بغداد. وكانت مهمتها هي أن تكتسح العدو وتسقط واحدة من أخطر ديكتاتوريات العالم وأكثرها قمعاً، وهي النظام البعثي لصادام حسين.

بعدئذ، وأنا أنظر إلى الشاشة، كنت أستطيع أن أرى الرئيس بوش وهو يتحدث، ولكني الآن لم أستطع أن أسمع كلماته. وعلى ما يبدو، فإن الصوت في وصلة الفيديو في القمر الآمن قد أصيب بعطل في الحال. آمل ألا يكون هذا نذيراً. وتحدث الرئيس ثانية، ولكن الصورة بقيت صامتة. ولوح دون رامسفيلد، مشيراً بأصبعه نحو أذنه وهو يتفوه ببعض الكلام. وعند ذلك انحنى بز نحوي ونقر خفيفاً على مفتاح في خزانتي السوداء الخاصة بالجهاز.

كنت قد أسكت الصوت من غير قصد. وقلت بلهجة مبالغة في الندم: "سيدي الوزير، وجدت هذا العطل في جهازني هنا. وأستطيع الآن أن أتحدث إليكم بصوت عال وبوضوح".

هفوتي بددت التوتر. وترددت في غرفة الموقف في البيت الأبيض أصدااء الضحك. وقال الرئيس وهو يبتسم: "لا تقلق يا تومي، لم نفقد الثقة. فمن حسن الحظ أننا نتعامل مع طيارين يجلسون إلى جوارك".

تغيرت لهجة الرئيس. وكانت كلماته دقيقة، وسأل بز موسلي: "أيها الجنرال، هل لديك كل شيء تحتاج إليه لتتصرف؟"

"بكل تأكيد، سيدي"

وتابع الرئيس السؤال: "هل أنت راض عن الإستراتيجية؟"

وأجاب بز: "تماماً".

وكانت إستراتيجيتنا الموضوعية لهزيمة القوات العسكرية لصدام ولتحرير العراق متضمنة في خطة عمليات معقدة وطموحة توصلت إلى تشكيلها هيئة أركانها وأنا بعد جهد كبير طوال شهور مع دون رامسفيلد، وهي خطة عمليات فريدة من نوعها في التاريخ العسكري. ففي أثناء عملية عاصفة الصحراء، وهي التي أخرجت العراقيين من الكويت، نشر التحالف 560.000 من الجند في أربع عشرة فرقة. ولم تبدأ الأيام الأربعة من الحرب البرية حتى كانت حملة جوية مكثفة قد دكت العدو طوال خمسة أسابيع. وفي عملية حرية العراق سوف أقود قوات هي أقل من نصف عدد القوات التي هزمت الجيش العراقي في العام 1991، فهي في خمس فرق فقط، وهي مجهزة بأقل من نصف الدروع والمدفعية التي كانت لتلك القوات. ولكننا لن نتوقف عند نهر الفرات. لقد خططنا أن نسير الطريق كله إلى بغداد وإلى ما وراءها. وبمقتضى إستراتيجيتنا سوف تبدأ عمليات الجو الحاسمة بعد أن تكون الوحدات البرية قد دخلت في القتال.

وهذا ما كان مخاطرة محسوبة. ولكنني في ثمانية وثلاثين عاماً من عملي جندياً، كنت قد تعلمت الفرق بين المخاطرة والمغامرة.

ثم قدمت الفريق ديفيد ماككيرنان من الجيش الأمريكي، وهو قائد عنصرنا البري في الكويت. وقال: "سيدي الرئيس، لدينا 170.000 من الجنود ومشاة البحرية الأمريكيين، والبريطانيين والأستراليين المدربين والجاهزين هنا."

وقال الرئيس: "نحن فخورون بالبريطانيين والأستراليين."

وتابع ديفيد: "وبينما نتحدث الآن، فإننا نتحرك إلى مواقع هجوم أمامية على طول الحدود الكويتية. إمداداتنا وتمويناتنا في الموقع اللازم لدعم عملياتنا إلى أبعد حد شمالاً نحتاج إلى الذهاب إليه وإلى أطول وقت نحتاج إليه."

وسأله الرئيس بوش: "أيها الجنرال، هل لديك كل شيء تحتاج إليه لتتصرف؟"

"نعم سيدي."

"وهل أنت راض عن الإستراتيجية؟"

"نعم، سيدي."

ثم جاء دور قائدي للعنصر البحري، نائب الأدميرال، اللواء البحري، تم كيتنغ في البحرين. فوصف سفنه وهي 149 سفينة، ومنها ستون من الحلفاء المشاركين في التحالف، والسفن منتشرة في البحر الأبيض المتوسط الشرقي، وفي البحر الأحمر، وفي الخليج العربي، وهو أسطول ضم خمس حاملات طائرات.

وقال كيتنغ: "سيدي الرئيس، نحن جاهزون للتنفيذ."

وسأل جورج بوش مرة أخرى: "هل لديكم كل شيء تحتاجون إليه؟"

"لدينا، سيدي."

مال الرئيس إلى الخلف في كرسيه وتبسم وقال: "سأتوقف عن سؤالكم عن الخطة لأنكم أنتم أيها الرجال من طورها."

وسمعت ضحكاً حول حلقة الاجتماع بالاتصال من بعد. فالرئيس يمتلك قدرة القائد الطبيعي على إشاعة السكينة في مرؤوسيه.

وانتقلت إلى قائد عنصر مشاة البحرية معنا الفريق إيرل هيلستون، وهو أيضاً

في البحرين، وهو الذي قاد معنا قوة المهام الخاصة لإدارة العواقب، إن استخدمت أسلحة التدمير الشامل. فأكد أن "المعنويات عالية." ثم أضاف أن قواته كانت "جاهزة للرد على أي حادثة" تتعلق بالأسلحة الحيوية والكيميائية.

على امتداد كل مسرح الحرب كان شبابنا وشاباتنا يرتدون بدلاتهم الواقية الحارة وغير المريحة من نوع بدلة الوضع الوقائي المكيف حسب المهمة، وذلك قبل أن "يضعوا السرج" ويحملوا بقية معدات القتال الخاصة بهم. وكانت آخر تقاريرنا الاستخباراتية قد أوحى أن وحدات الخط الأمامي العراقية وفرق الحرس الجمهوري كانت مسلحة بغاز الأعصاب وغاز الخردل، وربما تكون مسلحة بسموم جراثيم الجمرة الخبيثة وجراثيم الباتشولانيم(*).

ولم يستطع إيرل هيلستون ولا أنا أن نؤكد صحة هذه المعلومات الاستخباراتية إلى أن دخل الجند العراق. ولكننا رأينا العراقيين يتدربون للعمل في بيئة أسلحة الدمار الشامل، وأشارت اعتراضات التنصت على الاتصالات إلى اهتمام العراقيين "بالكيماويات والسموم." ونظراً إلى أن العراقيين يعرفون أننا لن نستخدم أسلحة الدمار الشامل، فأنا أعتقد، أن تحضيراتهم يجب أن تعني أنهم سيستخدمونها. ولم يساورني أي شك في أن أسلحة الدمار الشامل سوف تستخدم ضد قواتنا في الأيام الآتية في المستقبل. فالعدو امتلك المدفعية والصواريخ اللازمة لتوصيل أسلحة الدمار الشامل هذه. وكان من واجبي بصفتي قائداً للقيادة المركزية الأمريكية أن أستيقن أن قوات التحالف التي سأمورها أن تسير في طريق الخطر كانت محمية ضد أي تهديد يستطيع العدو أن يبديه.

وفي الحقيقة، كنت سعيداً من أننا شكلنا قوة مهام بإمرة إيرل هيلستون لتتولى الرد على أي تهديدات من أسلحة الدمار الشامل قد نواجهها.

كانت حماية الرجال العاملين في قيادتي إلى أقصى درجة ممكنة من الحماية، وهم ينفذون المهمة، مسؤولية توليتها بشكل جاد جداً. ومع ذلك ففي الساعات

(*) من الجراثيم اللاهوائية التي تفرز سمّاً يؤثر على الجملة العصبية المركزية. (الهوامش من صنع المترجم).

القادمة، وبغض النظر عن مستوى جودة الإعداد الذي أعد به قادتي وحداتهم، فإن بعض هؤلاء الناس الشباب الشجعان سيموت ويجرح، وهذا مظهر من الحرب ثابت ينسأه في الغالب أولئك الذين لم يخبروا القتال قط.

تعلمت دروسي الأولى عن الواقع القاسي للحرب بصفتي راصداً أمامياً للمدفعية في مستنقعات حقول شتلات الرز وأشجار القرم في دلتا الميكونغ في فيتنام قبل خمسة وثلاثين عاماً. وفي هذه الليلة عندما يتحرك جنودنا ومشاتنا البحرية بالجرافات الآلية (البلدوزر) عبر حواف السلاسل الرملية الكثيفة على الحدود العراقية ويدرجون شمالاً في الحقول السوداء من الألغام الأرضية، سيكونون على استعداد لسفك دمائهم منفيين للأوامر التي سأرسلها إلى قادتهم.

وحتى بعد كل هذه السنوات في البزة العسكرية، ما زال هذا الأمر يدهشني. سأكون جالساً في مركز قيادتي المكيف الهواء في قطر، أتفرس في جدار من الخرائط الرقمية تنبض بالرموز اللامعة، ولكنني سأكون أيضاً راكباً في تلك الدبابات من أبرامز التي تصلصل وفي العربات المقاتلة من نوع برادلي. في ذهني، سوف أختنق في الغبار وفي أدخنة الديزل السخامية وأشتّم عرق الخوف المرير.

تابعت تقديم قادتي، متقللاً بالاجتماع حول المنطقة.

ومن موقع ميدان صحراوي قرب حدود المملكة العربية السعودية مع العراق، أخبر اللواء في الجيش الأمريكي ديل ديلي، الذي قاد النخبة من وحدات المهام الخاصة من قوات المهام 20 النخبوية، أخبر الرئيس أن رجاله كانوا "جاهزين للذهاب إلى الحرب مرة ثانية".

كانت قيادة العمليات الخاصة المشتركة، قيادة ديل، قد شكلت رأس الحربة للقتال الأرضي في أفغانستان في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2001، في غضون أقل من شهر بعد الهجمات الإرهابية في 9/11. وفي عملية الحرية الدائمة، هزمت القيادة المركزية وحلفاؤها الأفغان نظام حكم طالبان ودمرت الملاذ الإرهابي لقاعدة أسامة بن لادن في ستة وسبعين يوماً. والآن ستذهب قيادتي للحرب للمرة الثانية في أقل من عامين.

وفي الوقت الذي كان فيه قادة العناصر يقدمون تقاريرهم عن جاهزيتهم نظرت إلى شعار القيادة المركزية على جدار غرفة الاجتماع. خريطة منطقة مسؤوليتنا غطت خمساً وعشرين دولة، ممتدة من إفريقيا عبر شبه الجزيرة العربية، والعراق، وإيران، وأفغانستان، وباكستان، ثم يستمر امتدادها عبر آسيا الوسطى السوفيتية سابقاً، حتى أقصى الحدود الجليدية لقيرغيزستان مع الصين تماماً، نصف بليون من البشر، معظمهم شباب، وفقراء، وغاضبون من محنتهم، عاشوا في هذه المنطقة المضطربة. وطوال عقود، أصابت الحرب بلعنتها هذه المنطقة التي تمتلك 65 بالمائة من الاحتياطات الثابتة من الزيت والغاز الطبيعي في العالم.

وتذكرت النصيحة التي أسداها إلي سلفي الجنرال البحري توني زيني قبل أن أتولى القيادة في شهر تموز/ يوليو 2000.

كان قد قال لي: "يا توم، ستكون مهمتك أن ترعى السلام، والاستقرار، والأمن. ولكن المنطقة تغلي بالبغضاء القبلية، والعرقية، والدينية المزعزعة للاستقرار، وهي أرض خصبة للإرهاب. وإذا وصلت أمريكا إلى التورط في حرب كبيرة في السنوات القليلة القادمة، فسوف تكون على الأرجح في هذا الجزء من العالم. إنها جوار خطر."

عندما انتهت تقارير القادة، تكلمت أنا ثانية ببطء وتأن، واعيأ لهذه اللحظة التاريخية.

وقلت: "سيدي الرئيس، هذه القوة جاهزة. اليوم ي المحدد، الساعة س الصفر هي الساعة 2100 هذه الليلة بتوقيت العراق، و1800 بتوقيت غرينتش المتوسط، و1300 بتوقيت الساحل الشرقي."

وأوماً الرئيس بوش لمجلس الأمن القومي، ثم استدار نحوي. "حسناً، من أجل السلام في العالم والأمن لبلادنا ولبقية العالم الحر..." وتوقف ونحن ننصت باهتمام مركز.... "ومن أجل حرية الشعب العراقي، واعتباراً من هذه اللحظة فإني سأعطي إلى الوزير رامسفيلد الأمر اللازم لتنفيذ عملية حرية العراق."

وأضاف الرئيس وصوته حازم: "يا تومي، بارك الله الجند." واضمحلّت سبعة آلاف ميل تفصلني عن البيت الأبيض. وشعرت بتأثير دعاء الرئيس.

وأجبت: "سيدي الرئيس، بارك الله أمريكا."

أديت التحية ورد لي التحية القائد العام.

هدرت الفسحة المعبدة أمام حظيرة الطائرات بأصوات محركات صهاريج التموين بالوقود وبطائرات الاستطلاع النفثة وهي تقلع.

توقفت، وأنا أتسلق الدرج إلى طائرتي. لقد أمرني الرئيس قبل قليل أن أذهب إلى الحرب. الجند كانوا جاهزين. وكان السؤال الذي دار في ذهني، هل أنا جاهز؟ شعرت وأنا أراقب طائرة نفثة ضخمة رمادية، وهي تتحرك متناقلة على المدرج وتتسلق إلى سماء الصحراء بمصدر عميق من الثقة. ولكني، وبشكل غريب، لم أفكر في خبرتي في القتال، أو في سنواتي ضابطاً قائداً أو في التربية العسكرية التي كنت قد تلقيتها في مساري في السلك العسكري.

وبدلاً من ذلك، رجعت أفكاري منطلقة إلى المدن الصغيرة من الجنوب الشرقي الأمريكي حيث ترعرعت. لقد كانت هذه البيئة، وأسرتي، وأصدقائي، وإيماني هي التي شكلت قيمتي، وشخصيتي. وكانت هذه العوامل هي التي صنعت مني من كنت، قبل سنوات من ارتدائي بزة الجندي.

النجاح في الحملة الآتية مع المستقبل سوف يتوقف على الشخصية، وعلى الإحساس بالقصد، وعلى القيم، المتصلة كلها بالامة، وبالرئيس، وبني شخصياً، وبالجنود أكثر مما سوف يتوقف على القدرة العسكرية الصرفة.

القسم الأول

الجنود العميقة

كل إنسان وصل إلى المكان الذي هو فيه

عليه أن يبدأ في المكان الذي كان فيه

- روبرت لويس ستيفنسون



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل الأول

بذر البذور

واينوود، أو كلاهما

حزيران/ يونيو 1950

بدأ فهمي للعالم ونتائج هذا الفهم، عن الصواب والخطأ، والخير والشر، عندما كنت في الخامسة من عمري في أو كلاهما الوسطى. وقد يكون ذلك صعب التصديق، ولكنه هو الصدق.

كان والدي، ري فرانكس، هو الذي علمني تلك الدروس. قال لي أبي: "يا تومي ري، اسحب إلى الأعلى بالقوة نفسها تماماً التي تدفع بها إلى الأسفل." كان يشذب لوحَي خشب بقياس اثنين في أربعة لسقف حظيرتنا بمنشار يدوي على الباب الخلفي لشاحنة فورد القديمة. واشتبك نصل المنشار نازلاً عبر اللوح وشقه بصوت أخف. وانتفخت يده اليمنى، التي تلونت باللون البني. مثل الجلد تحت الكم القصير لقميصٍ تغير لونه، وهو يحنى جسمه الثقيل المربع الممتلئ باتجاه المنشار.

كان الفصل صيفاً، وجميلاً في ظلال أشجار الحور الأمريكي قرب الحظيرة. وكنت حافي القدمين، ألبس صدرية على لباس عمل بدأ البنطلون فيه يقصر عن الساقين، وكنت أجلس في التراب الوسخ، أراقب والدي وهو يعمل، وأنصت بانتباه، كما هو الحال دائماً، لكلماته التي يتلفظ بها برفق. كان يبتسم كثيراً، ويحب أن يمزح مع من حوله. ولكن أبي، عندما كنا نبقي وحيدين معاً، كان كثيراً ما يغتتم اللحظة ليشرح لي الأشياء التي تعلمها في حياته.

قال لي أبي، وهو يقذف إلي بقطعتين من شظايا الخشب: "هاك، يا تومي ري، تستطيع أن تلعب بهذه القطع."

"ولكنها، يا أبي، ليست لعباً حقيقية." قلت ذلك بلهجة عامية.

صحح لي اللهجة العامية، ونطق الجملة بالشكل الصحيح، وهو ينقف لي بظفره قطعة أخرى من لوح الخشب. ويقول: "ولكنها حقيقية، ألا ترى؟ قبل سنوات قليلة، كان يتعين على الصغار أن يقنعوا بألعاب صنعها لهم آباؤهم. ما كانوا يستطيعون أن يقوموا بمجرد قيادة سياراتهم إلى متجر لبيع السلع الخفيفة بخمسة سنتات في المدينة ويشتروا ألعاباً جاهزة الصنع."

لمست الخشب بأصابعي، وما يزال ساخناً من نصل المنشار. وقلت: "شيء عجيب! كيف حدث مثل ذلك؟"

مسح وجهه بمنديل، ومدد لوحاً خشبياً آخر على عرض الباب الخلفي للسيارة، ووضع المنشار على خط مستقيم. وقال: "حسناً، يا تومي ري، كانت عندنا حرب. ومعظم البلدان في العالم كانت تقاتل. وكان يتعين على أمريكا أن تقاتل الألمان واليابانيين. ملايين وملايين من الرجال الذين كانوا في عمري وأصغر مني كانوا جنوداً وبحارة وطيارين وكان يتعين عليهم أن يذهبوا للقتال."

وفكرت، القتال! كان ذلك مثل ما تفعل الدجاجات في ساحة حظيرتنا عندما تتمرغ وهي تدرج وتقاقي، أو مثل ما يفعل الأولاد الكبار وهم يمشون إلى المدرسة في الشتاء عندما يرمي بعضهم بعضاً بكرات الثلج. ولكن ما الذي يجعل ملايين الجنود والبحارة يتقاتلون؟

"عجيب! كيف حدث مثل ذلك، يا أبي؟"

"الناس الأشرار، يا تومي ري، اليابانيون هاجمونا في مكان يدعى بيرل هاربر. واستمرت الحرب لسنوات، وكثيرون من أبنائنا لم يعودوا للوطن."

"إلى أين ذهبوا؟"

وضع والدي المنشار وابتسم ابتسامته اللطيفة العريضة التي كانت له عندما كان يحتاج إلى أن يشرح شيئاً محزناً، مثل ما فعل عندما أصيب القط جنجر بضربة

من الشاحنة، وقال: "إيه . أولئك الشباب قتلوا . لقد ماتوا من أجل أمريكا، يا تومي ري."

قالت أمي إن الناس يذهبون إلى السماء عندما يموتون . وأولئك الشباب ذهبوا ليقاتلوا واستمروا ذاهبين تماماً حتى وصلوا إلى السماء .
"وهل ذهبت للقتال، يا أبي؟"

"كنت في القوات الجوية للجيش، يا تومي ري . كنت أصلح الطائرات للشباب ليطيروا بها . لم يكن يتعين علي أن أطيّر، ولكني أعتقد أن عملي كان مهماً ."
في مخيلتي، كنت أستطيع أن أرى والدي وهو يصلح الطائرات ذات المراوح المتألّثة . كان يستطيع أن يصلح كل شيء، السخان الكهربائي للماء للحمام، والشاحنة، والجرّار، وكل المحاريث المختلفة والحاصدات . كان الناس دائماً يحضرون أدواتهم المتعطلة إلى المزرعة ليقوم ري فرانكس بإصلاحها . قالت لي أمي إن أبي لم يكن يستطيع أن يقول لا إذا احتاج الناس إلى مساعدته .
"وهل ذهبت إلى بيرل هاربر؟"

وهز أبي رأسه مبتسماً . "لا، يا تومي ري، ذهبت إلى مكان يدعى منطقة قناة بنما . لديهم أشجار نخيل هناك، وطيور جميلة حقاً تسمى البيغاوات ."
"لم يكن على أمي أن تقاتل، أليس كذلك؟"

"السيدات مكثن في البيوت وعملن بجدية فعلاً، يا بني . وكثيرون من الرجال كذلك بقوا في الوطن . البلاد كلها ذهبت إلى العمل . وزرع الناس حدائق النصر من أجل طعامهم . والأولاد في جماعة كشافتي جمعوا علب الصفيح والصحف . كانت الأشياء نادرة . وهذا هو السبب الذي لم يستطع الأطفال من أجله أن يمتلكوا الألعاب الجديدة دائماً، وكان يتعين على آبائهم أو أعمامهم أن يصنعوا لهم مكعبات وبيوت الدمى ."

كان أبي يشرح لي الأشياء دائماً بشكل أستطيع معه أن أرى صورة . وهكذا وبعد

سنوات عديدة لاحقة، أستذكر ذلك الأصيل بوضوح. وكان هذا هو أول تقدير لي للحرب. ما تعلمته كان واضحاً: الناس الأشرار بدؤوا الحروب، وكان يتعين على الأمريكيين أن يذهبوا إلى الحرب. لقد كنت قد فهمت من قبل أن القنطاط تدهس. وأن العجول المخصية تذهب إلى المسلخ. ورأيت الآن أن بعض الأولاد لم يعودوا إلى الوطن عندما ابتدأت الحروب.

"هل سيكون علي أن أذهب إلى الحرب؟"

كدس أبي الألواح الخشبية المشذبة على الرفرف وتهد. وقال: "تومي ري، آمل ألا يكون ذلك. ولكنك اعتدت على أن تلعب بتلك المكعبات التي قطعناها قبل قليل، لأن هناك المزيد من الناس الأشرار الذين يبدؤون الاضطراب في مكان يدعى كوريا. وأعتقد أن أمريكا سوف تتورط بزمن شاق آخر، يا بني."

وضعت مكعباتي في مربع وانحنيت بعدئذ إلى الأمام لأنبش في التراب الوسخ بين كاحلي، معجباً بالبق المتلون كلون الصدا والمندفع حشوداً من الأرض. كان البق يبدو غاضباً مثل مليون جندي. وعومت، "أوه، هيه...أبي." كان البق يزحف صاعداً على ساقي ويقرصني.

خطفني أبي للأعلى بذراع واحدة وهز رجلي بنطلوني الخافقتين. "تومي ري، كنت جالساً على قرية نمل. تلك الشياطين الصغيرة نمل أحمر، يا ولدي. إنها كريهة."

كنا الآن على سداة حنفيه الحديقة، وأدار والدي الماء على كل كاحلي. شعرت بها باردة. ولكنني في عقلي تصورت حشوداً من الجنود ومعهم بنادق مثل بندقية الصيد التي يملكها والدي من عيار 12، يفوزون خارجين من الأرض مثل النمل تماماً.

تلك الليلة، استحمت، وتلوت صلواتي. وغطتني أمي لأنام، ولكنني لم أستطع النوم مباشرة. لقد تعلمت معلومات هامة جديدة تحت ظلال أشجار الحور

الأمريكي. عندما تنشب الحروب، يذهب الأولاد ليقاتلوا، وتعمل الأمهات بجد، ويبقى الصبية مثلي بدون ألعاب.

كان أبي رئيس فريق كشافة طوال ما أستطيع أن أذكر من الوقت. وأحد الأشياء الرائعة حول ذلك الأمر هو أنه كان علي أن ألتحق معه في رحلات ميدانية ومعسكرات تخييم، وهي مغامرات كبيرة في أماكن مثل كهف اللصوص في حديقة الولاية (روبرز كيف ستيت بارك) وشلالات تيرنر (تيرنر فولز).

في يوم سبت، من تشرين الثاني/ نوفمبر، أركبَ أبي فرقة كشافة واينوود في حافلة ركاب قديمة صفراء مدرسية، وسارت بنا زهاء ساعتين باتجاه الشرق إلى سجن الولاية في ماك أليستر. كان يوماً قارس البرد غائم الجو، وبدت تلك الجدران الإسمنتية العالية سوداء باردة عندما كان صريف سيارتنا يصل إلى التوقف في منطقة مواقف السيارات.

ونادى والدي من مقدمة السيارة: "حسناً، يا أولاد، لا ممازحة ولا مخاشنة معاً اليوم. أنصتوا وافعلوا ما يقوله لكم الضباط"

وأجاب الأولاد معاً كالنشيد: "نعم، يا ري". فلم يكن الأولاد ينادون والدي "سيد ري، قط". ولكنهم كانوا دائماً يفعلون ما يطلبه والدي منهم.

وعندما اصطفق الباب الفولاذي وأوصد خلفنا بعنف رجَّع النفق الضيق عبر الجدار أصداء مثل أصداء كهف. وأمسكت بيد أبي ونحن نمشي إلى الداخل. كان هناك المزيد من الأبواب التي تصطك والقضبان المعدنية بالدهان الرمادي على شكل أصابع. كانت رائحة شمع الأرض محمّضة. وقادنا رجل طويل، على رأسه قبعة الشرطة وعليه حزام جلدي لامع للمسدس، إلى داخل حجرة فيها مقاعد مدرسية. كانت هناك لافتات فيها كلمات كبيرة طويلة في حروف سوداء وتحتها خط بالأحمر. وكاد الضابط يصرخ تقريباً وهو يقرأ قواعد السجن. ولم أفهم أي شيء مما قاله، ولكنني عرفت كلمات هي "العقوبة"، "خبز وماء"، وحتى "عزل انفرادي"، من برنامج غرين هورنت في الراديو. كان الأولاد هادئين.

وقال الضابط ذو الحزام اللامع: "نستطيع الآن أن نبدأ جولتنا، يا سيد فرانكس."
ومشينا على طول قاعة فرشت أرضها بالمشمع وكان يصدر عنه صرير عند
المشي، وعبرنا مزيداً من البوابات ذات القضبان المعدنية. بعدئذ انفتح باب فولاذي
على حجرة كبيرة فيها أضواء تتلألأ وتتدلى من السقف.

وأعلن الضابط: "قاعة الطعام."

ووقفنا على طول الجدار نراقب. كان رجال يلبسون لباساً موحداً مخططاً
بالأبيض والأسود، مثل ملابس النوم المخططة جانبياً يُنقلون بلا نظام من باب آخر.
وكانت شعورهم مقصوفة لتكون قصيرة جداً حتى بدت رؤوسهم بيضاً. وأبقوا
أيديهم مشبكة خلف ظهورهم حتى وصلوا إلى خط الطعام. وكان ضباط يحملون
عصياً خشبية طويلة سوداء يراقبون من عند أركان القاعة. وكانت تسمع طقطقة
الحذاء الجلدي على الأرض، ولكن لم يكن يسمع صوت إنسان واحد. وقف كل رجل
منهم، وتناول صينية معدنية، ثم تحرك إلى الأمام ليحصل على طعامه من زملاء
سجناء يلبسون القبعات البيضاء الخاصة بالطهارة ويقفون خلف المنضدة التي
يتصاعد منها البخار.

وقال الضابط: "الغداء اليوم لحم عجل مطبوخ، وخبز وزبدة نباتية، وكعك
بالسكر، ويستطيعون تناول الماء، وكوباً من الحليب، أو فنجاناً من القهوة."

وظهر لي من المكان الذي كنت أقف فيه أن اللحم الذي يجري غرفه إلى
الصواني كان رقيقاً ومصفراً.

وسأل والدي: "أي نوع من الأحكام يقضي هؤلاء الأشخاص؟"

وقطب الضابط وجهه وقال: "إنهم في معظمهم يقضون مدة طويلة، ياسيد
فرانكس. ممثلون شريريون... لصوص مصارف، خاطفون، وعدد من القتلة خطأ من
غير قصد، والأحكام بالقتل العمد. وأظن أن متوسط الحكم على هذه المجموعة هي
في حدود عشرين عاماً."

وقال والدي: "عشرون عاماً في السجن يا أولاد. إذا انتهكتم القانون فإن هذا ما سيحدث."

لم أفهم في البداية. ثم استوعبتها بعدئذ. انهب مصرفاً، وهذا هو المكان الذي يرسلونك إليه.

وقال والدي ونحن نغادر قاعة الطعام: "هذا هو ما يسمى عاقبة أعمالكم، أيها الأولاد."

وأخذ أبي يدي ثانية وقال: "حسناً، نحن صرنا جادين، وهكذا، فإذا كان هناك أي واحد منكم يشعر أنه متعالِم مفرور يعرف كل شيء، فمن الأفضل له أن يتخلف وينتظرنا هنا."

دهليز آخر قاد إلى باب فولاذي أخضر. وقال الضابط: "هذه غرفة تنفيذ حكم الإعدام. في يوم التنفيذ نأخذ المحكوم عبر هذا الباب."

وفتح الباب الأخضر، ورمشت أعيننا من الأضواء الساطعة في الداخل وملاً الحجرة كرسي كبير. وكنت أستطيع أن أشم رائحة الجلد.

وقال: "حسناً، يا أولاد، اصطفوا."

وتراصف الأولاد في خط مستقيم وصل إلى خارج الباب الأخضر، وبعدئذ، تحركوا إلى الأمام، واحداً في كل مرة، ليجلس في الكرسي الخشبي الكبير.

وشرح لي والدي: "هذا هو الكرسي الكهربائي، يا تومي ري، إنه المكان الذي يعدم فيه القتلة عمداً عن سبق إصرار."

ودنا الأولاد ببطء إلى الأمام. بعضهم جلس في الكرسي مدة أطول من الآخرين. المنفذ فيه حكم الإعدام عنى لي أنه مقتول، ذلك هو الحد الذي عرفته.

وأخبر والدي فرقة الكشفافة: "هذه هي العاقبة النهائية للفعل النهائي من الشر." وعندما كان جميع الأولاد قد جلسوا في الكرسي، جاء دوري. فوصلت

للأعلى وأحسست باللمس الناعم للخشب، وسيور الجلد ذات الإبزيم المعدني البارد. وكان هناك قبعة فولاذية سوداء تتدلى للأسفل مثل مصباح بدون لمبة.

قال والدي: "للأعلى وهيا، يا توم ري" وهو يرفعني إلى الكرسي. كان الأولاد يحدقون بي. ولكنني لم أكن خائفاً ولا أقل الخوف. وقد وقف أبي إلى جانبي تماماً. وكنت أستطيع أن أشعر بيده الدافئة إلى جانب الإبزيم المعدني البارد.

وعندما كانت الحافلة المدرسية تدمدم خارجة من موقف سيارات السجن في ذلك الأصيل، حدقت إلى الخلف في تلك الجدران العالية. لقد تعلمت درساً مهماً آخر. كانت العاقبة هي ما يتلو الفعل الذي تفعله، إذا فعلت أشياء خيرة، فسوف تجازي بأشياء خيرة أخرى. وإذا انتهكت القانون فسيتعين عليك أن تدفع الثمن. ولم أنس قط ذلك الدرس.

عندما كنت في السادسة من عمري، انتقلنا إلى المدينة الصغيرة ستراتفورد، وهي على بعد خمسة عشر ميلاً تقريباً إلى الشمال الشرقي من واينوود. لقد عمل والدي مصرفياً، ومزارع حبوب، ورجل إصلاح، وميكانيكياً. وكان الآن جاهزاً لمهنة جديدة.

عندما كنت صغيراً بدت لي نزعتي القلقة طبيعية بشكل كامل. وبعد بضع سنوات أدركت أنه كان متفائلاً، حالمًا، مقتنعًا، أن العمل التالي أو المهنة التالية ستجعلنا أغنياء.

والحقيقة أن والدي كان جيداً في كل شيء يضطلع به. ربما كان جيداً أكثر مما ينبغي. لم تكن هناك ثلاجة، أو محرك مثبت، أو محرك بنزين أو ديزل لم يكن يستطيع إصلاحه. وإذا جاء شخص ما وهو يسوق جراراً من نوع جون دير طراز 60 ذي الاشتعال الخلفي ليجعل ري فرانكس "يلقي نظرة صغيرة على سلسلة التوقيت الملعونة هذه" فإن والدي كان يعيد بناء المحرك. وإذا كان قد اتفق مع صاحب الآلة وصفق يده بيده على سعر من عشرة دولارات مقابل الإصلاح فإنه لم يكن ليقبل

زيادة على ذلك نيكلأ من خمسة سنتات ولو كان قد صرف خمسة عشر دولارأ على قطع الغيار!!

أحببت العيش في مدينة، وأن أكون مع الأولاد الذين في مثل عمري. وكان بيتنا ذو الإطار الخشبي يبعد مسافة مجمع سكني عن مدرسة ستراتفورد. عندما ذهبنا لنعيش في ستراتفورد كان أبي متيقناً أنه قد وجد العمل الذي سيرفعنا لنعيش في ترف. اشترى حصة غيره في شركة صغيرة لحفر آبار الماء وانطلق في العمل ليجعل المهنة رابحة.

وكانت أمي تساند أبي دائماً في أي مشروع جديد كان يختاره. كانت أكبر منه بثلاث سنوات، ولدت لعائلة من مزارعي القطن الفقراء في أوكلاهوما الشرقية في العام 1911. ومع أنها كانت معمدة باسم لورين، فإن أسرتها نادتها باسم الدلع بيت، ربما كان ذلك هو النسخة الريفية من كلمة بتيت لمعنى "الصغيرة"، لأنها لم تصل في طولها لأكثر من أربعة أقدام وأحد عشر إنشاً في أطول يوم لها. ولكنها اشتملت على الكثير من القوة، والقلب الشجاع، والدأب في ذلك القالب الصغير. لقد أحببت أبي وأحببتي حباً شديداً كان بادياً حتى للغرباء. فأني عمل، أو مشروع، أو تحول مفاجئ في الحياة اختاره ري فرانكس كانت هي تسانده فيه.

ووفقاً لتقاليد الزمن، فكرت أمي في نفسها بصفتها زوجة وسيدة بيت حافظت على بيت شديد النظافة، وأرسلت أبي إلى عمله في الصباح في ملابس عمل منظمة ومكوية بيدها، وأرسلتني إلى المدرسة في قمصان وجينز بثنيات مكوية. وكانت أمي طاهية رائعة بذلت الكثير من العناية في الوجبات، حتى ونحن في الغالب لم نكن نملك المال لشراء الطعام المتنوع. وكانت تجلب الفواكه من الحديقة وتعبئ الأوعية الزجاجية المانعة للهواء من نوع ميسون بالفاكهة. وكانت الفطائر واحدة من تخصصاتها. وكانت تجد دائماً أدسم دهن خنزيري أبيض في سوق المزارعين لخبزها المحمص الرقائقي. وفازت فطائرها من الكرز والتفاح بجوائز في المعارض المحلية، مثلما فازت كعكات الشوكولاته الرخامية الشكل التي كانت

تصنعها. ومؤخراً، عندما قسا الزمان باعت أُمي مخبوزاتها للحصول على نقود إضافية.

كانت مهنة أبي الجديدة مركزة على حفار مستدق الطرف يصلصل وهو محمول على الشاحنة وهو من نوع بيوسايروس- إيرى طراز 22. كان الطرف العامل من الحفار يُرفع ثم يُسقط بنظام كبلي يخرج من محرك ديزل هادر مثبت على حوض الشاحنة. وشرح لي والدي بأن ذلك يشبه مدق الخوازيق وله رأس مستدق فولاذي مصلد بالتغليف يستطيع أن يقطع من خلال الطين، والصلصال، وطبقات الصخر اللين ليجد الماء. وبعد أن كسب والدي القليل من المال في ذلك العام الأول، استثمر في حفار دوار حديث. وفي بعض الأحيان كان يشغل كلا الجهازين في أعمال مختلفة ويتنقل بينهما في السيارة، ليتأكد أن عمودي الحفارين يغوصان على النحو الصحيح.

وعلى الرغم من أنني كنت ولداً صغيراً فقد كان أبي يشرح لي بصبر وأناة النواحي الجميلة من المعدات. في عمر السابعة، كنت أعرف عن محرك الديزل بقدر ما كنت أعرف عن القراءة والحساب. طوال أيام الأسبوع بعد المدرسة وفي أيام السبت، كنت ألتحق بأبي في سقيفة العمل أو في مزرعة حيث كان يحفر بئراً، وكنت أساعد عندما أستطيع، ولكنني كنت بشكل رئيسي أراقب، وأنصت لأبي، وأتعلم لا غير.

ربما كان ذلك هو الوقت الذي أدركت فيه أن هناك شيئاً ما خطأ في اليد اليسرى لوالدي. وكبرت إلى أن صرت شاباً في واينوود وأنا أقبل بالحقيقة التي رأيت من خلالها أن أصابعه في تلك اليد كانت مختلفة عن أصابع اليد اليمنى. والآن درست يده وهو يدير بمهارة مفاتيح الربط الصندوقية ويضبط توترات السلسلة. كانت السلامى الأولى من أصبعه الإبهام مقطوعة، وينتهي الأصبع بمفصل لامع. وكان الأصبع الأوسط أيضاً يفتقد السلامى الأخيرة. وأدركت الآن أيضاً أن هناك شيئاً ما غريباً بشأن عينه اليسرى كان جفنها مرتخياً قليلاً، وكان بياض العين غائماً، والعين نفسها لم تكن تتحرك.

لسبب ما لم أسأله قط عن هذا . وهو لم يختار قط أن يناقش إصاباته . وبعد سنوات لاحقة ، عندما عشنا في ميدلاند في تكساس قص علي خالي بوب مايرز القصة . قال خالي بوب وهو يشرح لي : "إن والدك أصيب بهذه الإصابات عندما كان في حوالي العاشرة من عمره . " عندما كانت أسرة والدي تعيش في مدينة حقول الزيت سيمينول في أوكلاهوما ، كان هو وبعض الأولاد الآخرين يمشون على مسارات خط السكة الحديدية في عصر يوم من أيام الصيف . وجدوا بعض الكبسولات المتفجرة النحاسية الالامعة ، وهي من النوع الذي كان يضعه رجال التحويل على الخطوط لتحذير مهندسي القاطرات للتوقف بسبب عائق أمامهم . خطف والدي كبسولتين وأخذهما إلى البيت . وأمسك بمطرقة من صندوق عدة والده وأهوى بعنف يضرب على كبسولة منهما ليرى ما سيحدث . فمزق الانفجار يده اليسرى وتطايرت الشظايا إلى عينه اليسرى وتركته نصف أعمى .

ولكنني طوال كل السنوات التي أمضيتها أراقب والدي وهو يؤدي بعض أكثر أعمال إصلاح المحركات براعة أو إحباطاً ، وهو مستلق على ظهره تحت سيارة أو شاحنة ، ويتحسس ليستبدل لبوساً لمنع التسرب في مضخة ماء أو سدادة زيت ، لم أسمع منه قط كلمة تشكُّ حول إعاقته . كان يعمل عمله وحسب . وتطوع في الحرب العالمية الثانية على الرغم من أن إعاقته كان يمكن أن تستثنيه من الخدمة العسكرية ، وخدم بمهارة في عمل ميكانيكي في القوات الجوية في الجيش .

ترعرعت في ظل والدي ، فتعلمت الكثير عن المثابرة والاعتماد على الذات .

في أحد أيام الربيع بعد المدرسة عندما كنت في المرحلة الثانية ، رجعت إلى البيت وشربت كوباً من الحليب من الثلاجة . كانت أُمي خارج البيت في الحديقة تثبت الخيطان من أجل الفاصوليا المتعرشة التي بدأت تفرع براعمها . وتحولت خارجاً من المطبخ إلى غرفة الجلوس الباردة وجلست على واحد من الكراسي الجيدة . شمس الأصيل المتسللة من خلال النافذة ركزت الإضاءة على الغطاء الجلدي المهترئ لإنجيل الأسرة الموضوع على طاولة من خشب شجرة الكرز كان أبي

قد أعاد تلميغها. وكانت معلمتي السيدة بيرنيت قد ذكرت أننا نستطيع أن نتعلم الكثير عن أسرنا من قراءتنا للكتابات المدونة، على الإنجيل عن الميلاد والموت.

وضعت كوبي الفارغ من الحليب وفتحت الكتاب الثقيل في حضني. كانت هناك تواريخ مكتوبة بضربات أنيقة من قلم حبر، تواريخ ميلاد أمي وأخواتها وتواريخ وفيات أجدادي. ولكن كانت هناك ورقة صلبة مطوية قمت بفتحها.

وقرأت بصوت عال: "شهادة ميلاد. تومي ري بنتلي. ولد في 17 حزيران/ يونيو 1945." ذلك كان يوم ميلادي. وكنت أنا تومي ري فرانكس. فلماذا تقول هذه الورقة "بنتلي؟"

وسمعت الباب الساتر للمطبخ يُصفق مغلقاً. وناديت "أمي، هل تستطيعين المجيء إلى هنا من فضلك؟"

وقفت في مدخل الباب، ونصفها مغطى بمريلتها الزرقاء الكالحة الخاصة بالحديقة. وقالت، وكان صوتها ناعماً: "أوه، تومي ري، ما هذا الذي تحمله؟" ورفعت شهادة الميلاد: "إنها تقول بنتلي، يا أمي، وأنا لست بنتلي. أنا توم ري فرانكس."

ولست شعرها بالطريقة التي كانت تلمسه فيه أحياناً عندما تكون قلقة مضطربة. "طبعاً أنت كذلك. أنت تومي ري." واقتربت أمي مني ورفعت الإنجيل وشهادة الميلاد بلطف من يدي. "عندما ولدت، ارتكبوا غلطة في المستشفى، وأبوك وأنا كان يتعين علينا أن نغير الأوراق. وقد احتفظنا بهذه الشهادة القديمة تذكراً فقط." وأعادت أمي وضع الإنجيل على الطاولة.

وتعجبت أين يمكن أن تكون الشهادة الصحيحة لميلادي. وبدأت أسأل وقد عبست قليلاً.

قالت أمي، وهي تصل إلي لتضمني إلى صدرها: "تومي ري، أنت طفلي الصغير، وأنا أحبك أكثر من كل شيء. وكذلك يحبك أبوك."

وأنا كنت عرفت ذلك. وأدركت أيضاً أن شيئاً ما حدث ليَجعل أُمي حزينة. وقلت وأنا أعانقها: "بالتأكيد، وأنا أيضاً أحبك وأحب أبي".

واستمر هذا الأمر كذلك ولم يخبرني أهلي إلى أن صرت طالباً في المرحلة الثانوية في مدرسة لي الثانوية في ميدلاند في تكساس، وعندها أخبرني أقاربي أخيراً أنني كنت ابناً بالتبني. ولكنني كنت قد عرفت الحقيقة سرّاً طوال سنوات قبل ذلك. ولم يراودني أدنى شك لدقيقة واحدة في أنهم كانوا والدي، وكانوا أسرتي.

والحب الخاص من الوالدين المتبنين لم يمنعهما من تأديبي عندما احتجت إلى ذلك. وعندما أنظر إلى الخلف، أرى أنني احتجت إليه مرات عديدة تماماً. واليوم، أظن، أنكم ستقولون إنني تعلمت أن "أضغط الغلاف" أي محاولة أن أتوصل إلى الحد الأقصى للأمور لأعرف الممكن من غير الممكن، وكان ذلك عندما كنت طالباً متميزاً في المدرسة في ستراتفورد، في أوكلاهوما.

ومثل معظم أولاد المدن الصغيرة، قضيت معظم أوقات الطقس الحار في الخارج، أتجول عادة في قيعان الجداول التي ترفد نهر واشيتا. وكان شركائي في هذه المغامرات الإخوة من آل بيلز الذين كانوا يسكنون في البيت الذي يلينا. وفي يوم صيفي نموذجي، كنا نصرّ شطيرة أو اثنتين بزبدة الفول السوداني ونخرج متوجهين إلى برك الماشية في المزارع المجاورة لنا لنصطاد الضفادع. وبالنسبة إلي، مثل هذا العمل أكثر من مجرد الدناءة الطبيعية لولد في التاسعة من عمره. فمهنة والدي امتصت معظم نقودنا المتيسرة، ولذلك كان الغداء في الغالب مكوناً من الفاصولياء وخبز الذرة. ولذلك كانت أوراق الضفادع المغبرة بالدقيق والمقلية لتكون هشة، متعة وموضع ترحيب.

والأسلوب الأساسي لصيد الضفادع يتضمن النخس بطرف حربة متشعبة مربوطة إلى يد مكنسة. وتتجمع الضفادع الكبيرة قرب السدود الترابية للبركة والتي تكون مكسوة بالطحالب في الأيام الحارة بعد العصر. فإذا استطعنا أن نتحرك بصمت ولم نجفلها بظلالنا فإننا نتمكن عادة من نخس ثلاثة أو أربعة قبل أن تغوص الضفادع الباقية.

كانت هواية غير مؤذية بالنسبة إلى مجموعة من أولاد الريف باستثناء أن الإخوة بيلز وأنا كسرنا القواعد في كثير من المرات. فقواعد السلوك في أوكلاهوما الريفية كانت تتطلب منك أن تطلب الإذن دائماً للسماح لك بالدخول إلى أرض أحد من الناس. ونحن اتبعنا القاعدة، ولكننا لم نكن دائماً نعلن عن نوايانا الحقيقية. وفي إحدى المرات طلبنا من سيدة في مزرعة أن تسمح لنا أن نجمع جوز البكان أملس القشرة المتساقط من الأشجار المجاورة لبيتها.

وقالت السيدة: "مؤكد، يا أولاد. ولكن لا تقربوا بركة المشية. فهي عميقة وزلقة."

وقلنا في صوت واحد: "نعم، سيدتي."

بعد نصف ساعة، ومعنا اثنا عشرية من الضفادع في كيسنا، قررت والإخوة بيلز، أن الجو في الأصل كان حاراً إلى الدرجة التي لا ينبغي معها أن نرفض السباحة. وكنا بجلودنا نغطس، ونصرخ، ونغنى، عندما ظهرت السيدة على حافة البركة.

"اخرجوا من هناك مباشرة الآن."

لم يسبق أبداً أن رأيتي امرأة غير أُمي عارياً تماماً. ولم يكن مفرحاً أن نزحف في الطين إلى أعلى حافة البركة وتلك السيدة تحملق فينا.

كما لم يكن مفرحاً أن أصل إلى البيت لأجد أنها اتصلت بأُمي لتشتكي "انتظر إلى أن يصل أبوك إلى البيت."

دخلت إلى غرفتي، غير مسرور أبداً بنفسي. والكذب كان شيئاً سيئاً فعلاً. لم أعرف أبداً أن أبي كذب على أحد.

كان مؤمناً حازماً بأن العقوبة يجب أن تتناسب مع الجريمة. كان علي أن أمشي كل الطريق راجعاً إلى تلك المزرعة وأعتذر. وبعد أن فعلت ذلك واستدرت راجعاً إلى البيت ساق أبي سيارته.

"اقفز للداخل، يا ابني لقد كذبت على تلك السيدة، يا تومي ري. هل تعلمت درسك؟"

قلت: "نعم، يا سيدي"، وأنا تعلمت أيضاً.

عندما يكون العمل جيداً كان أهلي يدللوني. ففي الصيف الذي كنت فيه في الثامنة من عمري اشتروا لي فرساً ربعية، لسباق ربع ميل، مرقطة وعلموني أن أركب الخيل. لقد أحببت غراي المسنة. كانت فرساً صبورة ولطيفة. وكنت عندما أركبها أستطيع أن ألعب دور بوب ستيل، مثل مسلسلات رعاة البقر تماماً في النهار بعد الظهر من أيام السبت.

وكان الحرج الذي يزعجني، هو أن كل راعي بقر حقيقي يملك مسدساً. وكان أبي يعلمني الرماية على بندقية نفخ قديمة مسدسة السبطانة من نوع وينشستر عيار 0.22 وبندقية صيد من نوع ريمنغتون عيار 0.410. ولكني لم أكن بعدُ مخولاً أن آخذ البنادق وأخرج بها وحدي. وهكذا ففي عصر يوم ممل من تموز/ يوليو، قررت أن أستعير ثمانية دولارات فضية من الكيس المخملي في صندوق الأسرة المصنوع من خشب الأرز. وقدرت أنني أستطيع أن أكسب ذلك المبلغ في بضعة أسابيع من سرقة جوز البكان وبيعه إلى السيد هيربرت في مخزن مواد بيورينا.

وفي مركز المدينة في المخزن العام، دفعت تلك الدولارات الفضية مقابل مسدس بي بي نفخ هوائي من نوع ديزي رد رايدر.

وبعدئذ، بعد أن تسلحت مثل يد مجرية حقيقية، ركبت غراي إلى أرض الروديو لاختبار مهارتي في الرماية. كان ذلك اليوم هو منتصف الأسبوع، ولم يكن يوجد أحد في المكان. وكانت أفضل الأهداف هي المصابيح الكهربائية المركبة تحت العاكسات الصفحية حول المدرج. أول طلقة لي أخطأت، وأصدرت صوتاً حاداً من الارتطام بالمعدن. والطلقة الثانية أصابت المركز تماماً مع صوت "بوب" مرضٍ. وواحدة بعد أخرى أطلقت النار على اثني عشر مصباحاً. ووقفت غراي ساكنة تحت سرجي، وانحنت رقبتها القوية وهي تقضم العشب الجاف.

كنت أغسل يدي لتناول الغداء عندما طرق شرطي المدينة على الباب الأمامي لبيتنا. وخرج أبي للخارج ليتحدث معه. وفكرت: حسناً، لا يمكن لهذا أن يكون له علاقة معي، ثم توجهت نحو المطبخ للغداء.

لم أفعلها.

وقال أبي وهو حزين أكثر مما هو غاضب: "تومي ري، تعال إلى هنا الآن فوراً." كان الشرطي يسوق سيارته مبتعداً، وهكذا فعلى الأقل لم يكن يتعين علي أن أواجهه. "حسناً يا بني، هل ستخبرني بما حدث؟"

"نعم سيدي."

لم تكن قصة لطيفة. سرقة وتخريب الممتلكات العامة.

وهذا تطلب أكثر من الاعتذار. أخذني أبي خارج باب المطبخ ونزع حزامه. لم يكن قد ضربني من قبل إلا بضع مرات فقط، ولم يضربني أبداً في الحقيقة ليقع بي عقوبة جسدية، وكان القصد في الأكثر هو التشديد على حقيقة أنني كنت ولداً سيئاً. اليوم تلقيت ثلاث ضربات قوية سريعة على المؤخرة.

في المطبخ علمت بقية عقوبتي. سوف يتوقف مصروفي المخصص إلى أن يتم إعادة المال المسروق ودفع تكاليف الأضواء الأرضية لمدرج الروديو. وتقيدت حركتي في الفناء - إلى أجل غير محدود. وكان هذا أشد إيلاماً من الحزام. ولا ذهاب إلى عروض السينما أيام السبت بعد الظهر في ستراتفورد لزمن طويل جداً. وفي مقابل خمسة وعشرين سنتاً من مخصصاتي المعتادة وهي دولار في الأسبوع، كنت قادراً على استخدام عشرة سنتات لشراء تذكرة، ثم أصرف الباقي على كازوزة مياه غازية وكيس بوشار ذرة، ومخلل بخمسة سنتات لكل منهما. وبعد أن أكون قد تزودت بشكل مناسب، كنت أستطيع أن أجلس في ظلام السينما مع الأخوة بيلز ونشاهد آخر حلقة من أفلام فلاش غوردون أو الرقيب بريستون من الشرطة الملكية المحمولة. والآن علي أن أبقى في البيت لمدة شهرين على الأقل.

في يوم سبت مطير في شهر آب/ أغسطس، وأنا أتسكع مكتئباً في حجرتي أفكر بأولاد بيلز وهم يقرشون المخلل في العرض السينمائي، تذكرت ذلك الصف الساكن من المحكومين في اللباس الموحد المخطط، وهم يدخلون متناقلين إلى قاعة الطعام في السجن.

الفضل والعاقبة. الدرس الحقيقي لتلك الرحلة الميدانية للكشافة جاء فجأة ليكون محط التركيز.

لم يكن أبي راضياً عن عمله في حفر الآبار. ولم تبق أمي قادرة على أن تستمتع بالعيش في المدينة الصغيرة، أو كلاهما. وفي الصيف بين مرحلتي الرابعة والخامسة انتقلنا 350 ميلاً جنوب غرب إلى ميدلاند في تكساس. كان لأمي عائلة هناك، وكنا دائماً نذهب في السيارة إلى ميدلاند لقضاء عيد الميلاد. كان عظيماً هذا التوجه بعيداً إلى مدينة كبيرة.

في أثناء انتظارنا للبيت الجديد الذي كانت عائلتي تبنيه في الضواحي لينتهي، عشنا مع أخت أمي ميلدرد، ومع خالي بوب مايرز، في بيتهم الكبير المريح في 1205 شارع وست وول. كان هذا الجوار ثرياً، وليس بعيداً من مركز المدينة. وكنت أمشي كل يوم ما يقارب نصف ميل إلى مدرسة وست الابتدائية من خلال قطاع المدينة المسمى "ميدلاند القديمة" وهي مساحة من بيوت من آجر من دورين أو ثلاثة بنيت في أثناء ازدهار صناعة الزيت في العشرينيات من 1920.

في أواسط الخمسينيات من 1950، كانت ميدلاند واحدة من أغنى مدن أمريكا. كانت حقول الزيت في بيرميان بيسن تنتج أكثر من 20 بالمائة من نفط أمريكا. وهذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها 65.000 نسمة كان فيها أكبر وكالة للرولز رويس في البلاد. وبعد سنوات قليلة لاحقة كانت تفخر بأكبر وكالة عن شركة النفط الخاصة ليرجت كذلك. كانت مجتمع ازدهار اقتصادي وأزمة اقتصادية، ثم أزمة وازدهار. المنقبون المغامرون الذين استطاعوا بالحظ، وبالمهارة، وبالمكر وأحياناً بممارسات تجارية هي موضع الشكوك، أن يكسبوا عقود زيت منتجة، كانوا من بين

نخبة المدينة مع كبار المهندسين والمديرين التنفيذيين لشركة همبل للزيت التي ستصير شركة إكسيون. وهم معاً شكلوا عضوية نوادي ميدلاند ورائشلاند هيلز كنتري، ونادي النفط.

وخالي بوب جمع نقوده من الزيت، بادئاً في الحقل وعاملاً على شق طريقه صعوداً في سلم الشركة لينال تقاعداً مبكراً قبل بلوغه سن الستين. كان رجلاً مرحاً ودوداً يحب أن يوجد معه شاب في محيط البيت في كل صباح ساق خالي بوب سيارته إلى مركز المدينة لتناول القهوة والفطائر في مقهى آغنيس كافيه، حيث كان يجتمع فيها المبذرون الجدد المسرفون في الترفيه، ووجهاء المال القدامى. وكان بوب يصر دائماً على تقديمي، مع وقفة للمصافحة، إلى هؤلاء السادة الأثرياء.

المنقبون المغامرون الذين قابلتهم بدوا مثل شيء خارج من فيلم سينما. كانوا يلبسون قبعات رمادية ذات رفراف عريض وبدلات رمادية من طراز ستيتسون غربي بـسترة ذات فتحتين في الخلف. وأحذيتهم، أحذية رعاية البقر، مصنوعة باليد من الجلود المدبوغة الغربية. وكثيرون من هؤلاء الرجال كانوا يغادرون مقهى آغنيس في أواخر الصباح، وشرح ذلك خالي بوب بأنه للتلاقي في بار الساعة 007، حيث سيرفعون أول شراب مارتيني لهم بحلول منتصف النهار. وقال لي: "ذلك هو المكان الذي يديرون فيه أعمالهم التجارية الحقيقية، يا تومي ري." فهم يعقدون صفقات الزيت، ويبيعون ويشتررون عقود الإيجار التعدينية، ويستدينون ويقرضون المال، ويقيمون حفلات ضخمة، عندما تكون الصفقات قد تجاوزت الخط إلى شركات الزيت الكبيرة.

وحتى في أوقات الازدهار الاقتصادي، كان هناك، مع ذلك، دائماً أزمات اقتصادية من حين إلى آخر. في أحد أعياد الميلاد كان أحد المنقبين المغامرين قد دفع نقداً من أجل سيارتين من كاديلاك، من نوع كوبيه دوفيل، إحداهما زهرية لزوجته والأخرى زرقاء لنفسه. بعد ثلاثة أشهر، بعد أن أفلس تماماً، جاء يزحف، إلى جماعة الضغط في البنك الوطني لميدلاند بحثاً عن ائتمان جديد.

خالتي ميلدرد امتلكت وأدارت محل تجميل في مركز المدينة في عمارة البترول. لقد عملت بجهد طوال حياتها وعانت من ألم الطلاق عندما كان ذلك وصمة عار حقيقية، ولكنها حافظت دائماً على كرامتها... وحافظت دائماً على الابتسامة تعلو وجهها. وربما أحببت بوب بقدر ما أحببت أمي والدي. ومثل بوب، عاملتني خالتي ميلدرد مثل واحد من أولادها، واهتمت اهتماماً نشطاً بحياتي، وكانت دائماً مصدراً للتشجيع.

إحدى بناتها بيتي، كانت متزوجة من ليلاند "دوسي" فوستر، وهو مصرفي محترم في ميدلاند. وكان دوسي مثل أبي، قد خدم متطوعاً في سلاح طيران الجيش في أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد ملنا أحداً إلى الآخر من البداية. وكانت متعة كبيرة أن أذهب لزيارته في المصرف. وكان يرافقني إلى غرفة اجتماع مجلس الإدارة وكأني رجل زيت ثري، وتقوم سكرتيرة بإحضار مشروب غازي وفضائز دونت لنا. وإذا وصلت عند وقت الغداء، كان دوسي يأخذني دائماً لأتناول معه لحم صدر البقر أو الدجاج في مطعم جوني باربيكيو وهو معلّم محلي بارز. وأحد الأشياء التي تعلمتها من دوسي فوستر هو أن أعامل الناس باحترام، مهما تكن طبقتهم الاجتماعية أو حجم حساباتهم المصرفية. وطبع في نفسي كذلك أن الأعضاء في جيل والده وجيل والدي هم، مثل الروماني سينسيناتوس(*) من قبلهم، قد تركوا العالم المدني ليخدموا بلادهم في زمن الحرب، ثم عادوا بعدئذ ليتابعوا التقدم في حياتهم.

والابنة الأخرى لميلدرد، دوريس جين، كانت متزوجة من جوني باودن، الذي كان يطير بطائرات شحن القوات الجوية في أثناء الحرب العالمية الثانية ومكث في العمل حتى صار ضابطاً عسكرياً في السلك العسكري. ونظراً إلى أن جوني عاش في ما وراء البحار لسنوات، فقد كان مهذباً عالمياً بأمور الدنيا. وعندما رجع هو

(*) لوشيسوس كوينشيوس سنسيناتوس (٩٥١٩-٤٣٨) قبل الميلاد سياسي من روما استدعي مرتين من مزرعته ليتولى ديكتاتورية روما، فكان يصلح الأحوال ثم يتخلى عن السلطة ويعود إلى مزرعته.

ودوريس جين إلى ميدلاند كانت هناك دائماً سيارة أولدزموبيل أو بويك جديدة. وعندما كان يلتحق برجال الأسرة ليذهبوا إلى صيد السمّان، كان يطلق النار دائماً من بنادق صيد أوروبية مصنوعة صناعة يدوية. وبعد أن تأثرت تأثراً كبيراً بأبي، وبدوسي فوستر، وبجونى باودن، في الثانية عشرة من عمري، كنت أفكر في أن المصير إلى أن أكون ضابطاً عسكرياً ربما يكون عملية جيدة مناسبة.

وجد أبي عملاً كتابياً في إدارة السلع الرياضية في شركة بيسن سبلاي. وهذا المخزن الضخم الموجود على الجانب الغربي الأدنى كان مؤسسة ميدلاندية بدأ بها رجل زيت في أثناء سنوات الازدهار الاقتصادي. شركة بيسن سبلاي ما زالت تباع حاجيات الحفر ومعدات أخرى لحقول الزيت، ولكن ميدلاند نمت، وبدأت الشركة بتوريد أثاثات البيوت والأدوات الغالية الثمن. وقدموا كذلك سلعاً من التلفازات عالية الجودة والمسجلات عالية الوثاقة، وتتويعة مختارة من السلع الرياضية.

ولأول مرة منذ أن كان قد عمل في المصرف في واينوود لبس أبي قميصاً أبيض وربطة للعمل ثم بعد ذلك، وبعد مدة، ذهب "تكسانيا" وبدأ يلبس ربطات بولو رقيقة مع صنادل فضية فيروزية. وكان زبائنه يشترون سترات من نوع باربور. وبنادق صيد من قمة السلع من نوع براوننغ، ووينشيستر وريمفغتون من عيار 12.0، وهي بنادق صيد السمّان كما كنا نسميها.

صيد السمّان كان وهو ما يزال، طريقة حياة في ميدلاند. بين خالي بوب وروسى فوستر امتلكت الأسرة الوصول إلى بعض أفضل صيدٍ للطيور في أي مكان في المزارع وفي مدينة عقود إيجار الزيت المحيطة. كان بيت بوب هو المقر. كنا نذهب في الصباح الباكر للصيد، ثم نرجع لنلعب البليارد في غرفة الألعاب لدى بوب أو لنشاهد كرة القدم في الكلية في التلفاز. وفي أوقات عيد الميلاد، عندما كان يقدم شراب البيض مع الكحول فإن قليلاً من ويسكي جاك دانييل كانت تجد طريقها دائماً إلى فنانجين البالغين. كان صيد السمّان والتردد على مصرف ميدلاند الوطني أمتع بكثير من نخس الضفادع في أوكلاهوما.

عند المشي في الذهاب إلى المدرسة والإياب منها كنت اجتاز قصر تيرنر، وهو أكبر وأغنى بيت في المدينة. الأجر الأحمر، والمروج الخضراء المتدرجة برشاشات الماء الآلية، وفي البيت حوض سباحة وملاعب كرة المضرب. وكنت أعرف في المدرسة أولاداً كانت أسرهم تسكن في بيوت بالضخامة نفسها.

كانت ميدلاند مدينة مثيرة للاهتمام. كان فيها بضع مدارس خاصة، وبالنسبة إلى الجزء الأكبر من أطفال الأسر الثرية فهم لم يكونوا مفصولين عن بقية العالم. قد لا يختلط أبائنا بالضرورة اجتماعياً، ولكننا نحن الصغار لم نعط كبير اهتمام للمال. وفي الحقيقة كنت جاهلاً جهلاً مطلقاً. وأتذكر أنني فكرت في أنه سيكون جميلاً لو التحق أبي بنادي البلد كي أستطيع بذلك أن أركب دراجتي هناك وأن أسبح في حوض السباحة. وبعض الأولاد من عمري كانوا يتعلمون أن يلعبوا الغولف، وذلك قد يكون متعة أيضاً.

لم يكن لدي أي فكرة عن أن أبي كان يكافح في سبيل راتب متواضع، ويساعد في دفع الرهن الموضوع على البيت الجديد عن طريق العمل في نهاية الأسبوع بصفة ميكانيكي تحت الأشجار الكبيرة من أجل توفير الظل. لو لم أكن أقصر اهتمامي على نفسي، لأدركت أن أسرتي كانت ينقصها المال. ونحن لم نكن "فقراء معوزين" كما يقول المثل المحلي، ولكن كانت هناك أوقات يكون فيها المال النقدي نادراً.

سوف أتذكر دائماً في أحد أيام الجمعة مساءً بين موعدي الراتب عندما طلبت من أبي بعض نقود المصروف. كنا نسوق السيارة إلى بيت خالي بوب، واستدار والدي ووقف أمام مخزن بقالة صغير على الركن في الجانب الغربي من شارع أندروز العام. كنت أعرف أن أمي كانت تتسوق هنا أحياناً، وهو أمر بدا لي مضحكاً لأن المخزن كان نائياً.

قال أبي: "تومي ري، ادخل وأخبر الرجل الواقف خلف سجل النقود من أنت واطلب منه خمسة دولارات إلى يوم دفع الراتب التالي."

جلست في المقعد الأمامي عابساً. كان ذلك نوعاً من شيء تفعله الطبقة الدنيا، كما فكرت، وهو محرج تماماً أيضاً "لا، يا سيدي. أفضل ألا أفعل".

وسألني: "لماذا؟"

وقلت أخيراً: "أنا لست فخوراً باسمي".

قال أبي: "حسناً، يا بني." وهو يشغل محرك سيارة الميركوري ويغير إلى الغيار الأول في تعشيق المسننات. ودس يده في جيبه وأخرج منها عدة أرباع وورقة دولار مجمعة. وهو ما دعتة أمي "نقود قهوة أبيك." ووضع الفكة والدولار في يدي. وقال: "هذا سيكفيك لنهاية الأسبوع."

أخذت النقود، بدون أن أفكر في ذلك الوقت كيف سيدفع أبي لقهوته وتبغه في الأسبوع القادم. وعندما ذهبت إلى السينما في تلك الليلة واشترت كيساً كبيراً من بوشار الذرة بالزبدة فكرت في أنه سيكون جميلاً لو لم نكن أناساً فقراء. وأعدت تشغيل هذا المنظر بذهني ألف مرة طوال مسيرة خمسين عاماً تقريباً، وإني لآسف أن أقول هذه الكلمات: "لست فخوراً جداً باسمي" حتى هذا اليوم.

كان يوجد ناس من الفقراء في ميدلاند. وكان خالي بوب قد بدأ عملاً تجارياً صغيراً ليكون بصفة عمل تقاعدي له وسماه شركة البناء بيف بانغ. ولم تكن الشركة تدر المال الكثير، ولكن بوب لم يكن يأبه لذلك. كانت أحياء السود والهسبان، الذين كنا نسميهم آنئذ بالزئوج والمكسيكيين، جنوب خط السكك الحديدية لشركة يونيون باسيفك، أحياء مرهقة ومهملة. كان بوب يشتري البيوت هناك ويعيد تجديدها وإصلاحها وبيعها وفق رهنيات ذات فوائد منخفضة لعائلات لم تكن تستطيع أن تتأهل لأخذ قرض من المصرف.

وبدأت أعمل معه في أثناء الصيف وبعد المدرسة. وكنت أعرف طبعاً أن المدينة كانت مفصولة، وأن الزئوج والمكسيكيين كانوا يذهبون إلى مدارس مختلفة. وافترضت أن السبب في هذا الفصل هو أنهم كانوا مختلفين، وهم نوعاً ما ليسوا

جيدتين بالقدر الذي عليه الناس البيض. والجماعة الوحيدة التي سبق لي أن قابلتها كانت من البيض. وعندما كنت أقطع وأعلق العلامة التجارية مع خالي بوب أتيحت لي الفرصة أن أقابل أولادا من الزوج والمكسيكيين. وقد أصبت بالدهشة عندما اكتشفت أنهم كانوا يتحدثون اللغة الإنجليزية بالجودة نفسها التي كنت أتحدث بها، وأنهم كانوا لطفاء الصحبة، وأن أمهاتهم كن يطبخن طعاماً عظيماً مثل ما كانت تفعل أمي. ولم يكن بوب رئيساً قاسياً، ولذلك، فربما أمضيت في قذف كرة القدم مع أولاد هذه الأحياء في المساحات الفارغة بقدر ما كنت ألوح بالمطرقة وأهوي بها. في إحدى الأمسيات رجعت إلى البيت وأخبرت أمي، "لقد قابلت أروع ولد في البيت الجديد لخالي بوب في شارع كامب ستريت. اسمه ليروي وهو بالتأكيد يستطيع أن يقذف كرة القدم."

قالت: "هذا جميل. وهل يذهب إلى مدرستك؟"

"لا يا أمي. إنه زنجي."

وفي أصيل اليوم التالي، رفعت رأسها عن درجة عجينة الفطيرة وسألت بلطف: "هل رأيت صديقك الزنجي الصغير اليوم؟"

لقد سمعت تلك الكلمة طوال حياتي، ولم يخطر لي قط أن والدي كانا متعصبين كانت تلك كلمة ترعرعوا معها وبدا طبيعياً أن أسمعهم يقولونها.

وقلت: "حسناً، ليروي زنجي وربما سيلعب في موقع الظهير الخلفي في العام القادم في مدرسة بوكرتي. واشنطن الثانوية."

"ذلك جميل يا تومي ري."

لم تكن أمي شخصية خبيثة. ولقد أدركت فيما بعد، أنها وأبي، كانا جاهلين، ولم يكونا شريرين. لقد اخترت في ذلك اليوم بهدوء أن أنظر إلى الناس على نحو مختلف.

التحقت بالكشافة في حيننا الجديد. وكان ارتداء اللباس الموحد يعطيني

إحساساً بالكبرياء، ولا سيما أن أمي كانت دائماً تكوي اللباس حتى درجة الكمال الخاصة بساحة العرض وكان أبي يرتب كل شيء قبل اجتماع كل فرقة كشافة. لقد أحببت تحدي القيام بالدراسة والعمل في مشاريع لكسب شارات التقدير المميزة. والوصول إلى الرتبة كان سهلاً في ذلك الوقت، فقد كان أبي يصرف الكثير من الوقت ليعلمني شخصياً. وطوال سنتين كان وصولي إلى أن أكون أفضل كشاف ممكن، غاية تستحق العمل.

ثم جاءت مدرسة الأملو الإعدادية. فالبينات في صفي بدوّنَ مختلفات تماماً عن الأولاد، ولا شك في ذلك، وكن أكثر إثارة للاهتمام بكثير. كانت الكشافة ما تزال متعة، ولكن جاذبية كسب شارات التقدير في الرماية وفي إنقاذ الحياة بدأت تتلاشى سريعاً.

وفي المرحلة التاسعة، صارت الكشافة أولوية منخفضة في حياتي. وكانت الدراجة البخارية هي أهدأ الممتلكات التي كان أي ولد يستطيع أن يمتلكها، وهي من نوع كश्مان إيغل قوة خمسة أحصنة، مع مقودها العالي من طراز هارلي دافيدسون وخزان بنزين بشكل الدمعة المنسكبة. كان أبي يدلّني دائماً. ولذلك، ففي شهر نيسان/ إبريل 1959، قبل شهرين من بلوغي السنة الرابعة عشرة من عمري لأستطيع أن أقود دراجة بخارية بشكل قانوني، ساعدني أبي على أن أشتري دراجة من نوع إيغل حمراء من طراز 1952. كنت أعمل مع أبي بعد المدرسة بصفة مساعد ميكانيكي، وهكذا، فالنقود التي أضافها إلى مدخراتي القليلة كانت من الناحية الفنية، راتباً مدفوعاً مقدماً. وكان أهلي قد سبق أن أعطوني سترة سوداء من جلد حصان من نوع سترة الممثل جيمس دين. وكنت الآن مستعداً لأتسبب في خلق اضطراب في المدرسة الإعدادية.

تلك الدراجة كانت هادئة بشكل محدد. وعلى الطرق العامة قرب المدينة إذا وجدت منحدرًا كنت أستطيع أن أدير المقود حتى أسجل سرعة 50 ميلاً في الساعة والصمام الخائق مفتوح باتساعه الكامل. ولكن الدراجة كانت صعبة في بدء

التشغيل، وهو أمر محرج أن أعرض على أحد أن أركبه للبيت من المدرسة، وأدعس على بادئ التشغيل الرفاس، فيرفض المحرك أن يدور! وكان مسنن البدء ينقص سناً، فإذا لم يتراصف ذلك المسنن على نحو سليم تستطيع أن ترفض طوال اليوم ولكن دولاب تنظيم السرعة لن يدور.

في مرات مثل هذه كنت أرجع إلى البيت وأستدعي أبي. "الإيغل (النسر) رفض أن يشتغل." بعد عشر دقائق يكون أبي هناك. وكان يهزهز دواسة البدء، ويؤرجح الدراجة للخلف وللأمام، ثم يعطيها رفسة، فيعود المحرك إلى الحياة، مع صوت مثل هدير جزاة العشب من نوع برغز وستراتون. كان أبي دائماً هناك عندما أستدعيه.

وفي العام التالي، وبمساعدة أبي مرة أخرى، اشتريت دراجة بخارية من نوع كश्مان إيغل طراز 58، بلون أسود وكروم جميل. واحتفظ أبي بالدراجة القديمة وجعلها تعمل بشكل أفضل مما كنت أفعل. كان يحب الدراجات. وعندما كان شاباً في الثلاثينيات من 1930، تجول في رحلة في البلاد هو وصديق له على دراجة نارية هندية، وكانا يعملان في حصاد المزارع عندما كانا يستطيعان، وكانا ينامان في غابات متشردي الكساد الكبير، ويتعلمان عن الإنسانية.

كان أولاد آخرون في المدرسة يملكون دراجات بخارية أيضاً. وفي أمسيات الصيف بعد العمل، كان أبي يلتحق بأصدقائي وبي للقيام برحلات على الدراجات إلى محل المهلبية المتجمدة، ثم نتابع إلى ملعب عصبة تكساس ميدلاند بريفز. ونشاهد الألعاب مع خالي بوب في مقصورته خلف قاعدة البيسبول تماماً. فكما يقولون، العيش عالياً، ليس مثل نصفه.

عمل والدي دائماً في دراجات أصدقائي، وكان يحل أي مشكلة، وصرف في الأغلب من ماله الخاص، وكان يرسل بالبريد إلى دلس طلباً لقطع الغيار. والأولاد كلهم أحبوا أبي. وبطريقته الصبورة، والكلام اللطيف، علمهم عن الحياة أكثر مما علمهم عن مجرد فجوات شمعات الاشتعال وأوضاع المفحم.

هذا الزمان كان من أسعد الأوقات في طفولة سعيدة. لعبت كرة القدم في المدرسة الإعدادية، وكان ذلك بسبب طولي أكثر مما هو بسبب موهبتي، وكنت أرمي الرمية فتوضع في النابض. ولكن تركيزي لم يكن على الألعاب الرياضية. كان أكثر ما يكون على المتعة بقطع الوقت سدى بالدراجات، وصيد الأرانب، والسَّمَان، والتزلج على الماء على بحيرة توماس. وكانت البحيرة على بعد يقارب سبعين ميلاً عن ميدلاند، ولكن أبي مع ذلك كان يأخذنا مراراً لنخرج يوم السبت بعد أن يكون قد أنهى عمله. وكان قد أعاد بناء محرك فايرستون خارجي بقوة 16 حصاناً بحيث نركّبه على ظهر قارب ألنيوم مستأجر. وكما كان أبي دائماً، فهو معلم صبور وكان يتأكد من أن كل واحد منا تعلم أن يقف على الزلاجات، بدون اعتبار لعدد المرات التي كنا نسقط فيها.

ومن خلال العمل الشاق ترفع أبي إلى مدير السلع الرياضية في شركة بيسن سبلاي. كان يكسب 400 دولار تقريباً في الشهر، وهي كافية لدفع الرهن في وقته وأن نضع لحماً على الطاولة في كل ليلة. كانت الأيام طيبة.

في العام 1960 دخلت المدرسة الثانوية في ميدلاند، وكانت في مركز المدينة. وكان علي أن أبقى فيها سنة ريثما تنتهي مدرسة (روبرت ئي. لي) التي كانت قيد البناء، في الجانب الغربي. وكرة القدم في المدرسة الثانوية، هي عملياً في تكساس مثل الدين، ولذلك، نافست وعملت فريق الجامعة الأصغر. ولكنني متأكد أنني لم أمتلك موهبتكم الأساسية التي منحها لكم الله. وفكرت أنني قد أكون مستملاً لائقاً، ولكن ركض أنماط المناولات تلك مرة بعد مرة في التمرين كان مللاً واضحاً. وإلى جانب ذلك، فقد كنت أكثر اهتماماً بالسباحة والصيد، وبالبنات.

وأفضل شيء كان بالمدرسة الثانوية في ميدلاند هو مركز الشباب عبر الشارع. فقد كان بلا أدنى شك أفضل مكان يتردد عليه المراهقون في المدينة. فقد كنتُ تستطيع أن تتطلق في حوض السباحة، وتستمتع لألفيس في المسجل. والبنات، بالتناير التي رسمت عليها صورة كلب كثيف الشعر (البودل) وتسريحات ذيل

الفرس، كن يدخلن ويقفن وينتظرن شخصاً ما ليطلب منهن الرقص. وكانت مواهبي في الرقص على درجة التهذيب والصقل التي كانت عليها مهارتي في كرة القدم... ولكنني كنت أملك حافظاً أكبر بكثير للتمرين هنا.

أمضيت سنوات المدرسة الثانوية الأولى والعالية في مدرسة روبرت ثي. لي حيث كنت في الصف الثاني للتخرج. واكتشفت بعد سنوات لاحقة أنه كانت هناك بنت بعدي بسنة واحدة اسمها لورا ويلش. لم أعرفها في ذلك الوقت، ولكنني عندما قابلتها منذ سنوات قليلة بوصفها السيدة الأولى لورا بوش تجاذبنا أطراف الحديث عن ميدلاند في البيت الأبيض.

في أواخر سنتي الإعدادية، زاد اهتمامي بالسيارات على اهتمامي بالدراجات. وكانت ميدلاند ثرية بما فيه الكفاية ليكون فيها الكثير من الشباب ممن ملكوا سيارات شيفي مكشوفة، حتى أن بعضهم امتلك سيارات كورفيت جديدة. وفي هذا الوقت كنت رأسمالياً صغيراً، أبيع فطيرة دونت البطاطا بالمكسرات من بيت إلى بيت بعد المدرسة، وأعمل مع أبي أيضاً. كان أبي قد ترك شركة بيسن سبلاي وفتح محلاً باسم ميدلاند مارين، وهو متجر زوارق ومحركات خارجية يقع في منتصف الطريق بين ميدلاند وأوديسا، على مسافة عشرين ميلاً غربي المدينة. لقد كان ميكانيكياً عظيماً إلى الحد الذي كان الناس معه يأتون من كل أنحاء المنطقة ليصلحوا محركاتهم من نوع إيفينرود وجونسون. ولكن بحيرة توماس كانت على بعد سبعين ميلاً، ولذلك فإن موقع المحل كان أبعد ما يكون عن المثالي.

كنت بحاجة ماسة إلى سيارة. وأخيراً وجدنا صفقة في سيارة ام جي ايه رودستر طراز 1958.

وعندما ذهبنا لرؤية صاحبها قال أبي: "إنها تحتاج إلى قليل من العمل، يا تومي ري، ولكنني أعتقد أنها ستكون سيارة جميلة لك."

وقلت: "نعم، يا سيدي." وعملياً كان لعابي يسيل عليها. وفي أسابيع قليلة زالت كل بقع الصدأ التي كانت تعلوها، وكان الشبك المصنوع من الكروم يبرق ويخطف

الأبصار. ثم انتقلنا للعمل في المحرك ذي الأسطوانات الأربع وصندوق المسننات. وعندما انتهينا كانت سيارة رودستر من أسرع السيارات على الطريق.

وبدأت أخذها وأخرج إلى ساحات سباق السيارات في سان أنجلو في تكساس، وهوبز في نيومكسيكو. وكان سباق السيارات لربع ميل منظماً تنظيمياً عالياً، وكان نوعاً من الإدمان الرياضي، وأقرب إلى أن يكون عملاً شعائرياً منه إلى الهواية. وبعد أداء مخيب للآمال لمرات قليلة، تعلمت أن أربح. كانت السيارات تقارن بالنسبة إلى قوة الحصان، وحجم الدولاب، والوزن، ولذلك لم أتسابق قط مع أي سيارة هي في الأصل أقوى من سيارتي. وتكمن المهارات في التكتيكات. معظم الأولاد كانوا متيمين بالضجة وبطاقة المحرك عالي التسارع والدوران، ولم يكونوا قادرين على الانتظار ليدفعوا الفاصل (الكلتش) عندما تبدأ أضواء شجرة الميلاد تومض من الأحمر إلى الأصفر إلى الأخضر. ولكنهم كانوا يديرون دواليبهم في سحابة رمادية من المطاط المحترق قبل أن يكون عزم دوران المحرك قد انتقل انتقالاً كاملاً إلى الأسفلت. كانوا يفقدون ثانية أو اثنتين، وهو وقت كبير في سباق ربع الميل.

وقعت في هذه الغلطة في البداية. والآن تعلمت أن أراقب طريقة عملي، محافظاً على دورات المحرك تحت الخط الأحمر كثيراً، وبقوة أُطلق أعصاباً "فتحة الطلقة" مع دوي أنابيب نفث الغازات الهادرة من سيارات الأولاد الآخرين. وعندما يلمع الضوء الأخضر أقوم برفع التسارع بسلاسة مراعيًا الحصول على أمثل دورات في الدقيقة من كل تعشيق في مسنن ناقل الحركة. وبدأت أفوز بتذكارات.

وكانت قيادة تلك السيارة أم جي ايه التي تكسب السباقات إلى المدرسة هي أفضل شيء. ففي الخارج في ساحات السباق، كان الرسميون يخربشون فئة سيارتك ورقم السباق على النوافذ بالمادة البيضاء الملمعة للأحذية. ومن الطبيعي أنني كنت أنسى أن أمسح المادة الملمعة قبل أن أتوقف في منطقة موقف السيارات في مدرسة لي.

اجتذبني التسكع في ساحات السباق إلى "السيارات الحقيقية". ومرة أخرى، وجدت، بمساعدة أبي، ما أردت. لقد كانت سيارة سوداء من طراز 1957، من نوع شيفي بل إير بياوين صلبة السطح وبثمانية صمامات على شكل حرف (V) وكل شيء في هذه السيارة حكى عن القوة، والفئة، والسرعة. كانت الزعانف الخلفية منسقة بالكروم، مثلما كانت كذلك الأنوار الأمامية المغطاة المائلة للأمام. وكانت الشبكية الأمامية، غطاء واجهة المحرك، توشي إحياء جنسياً خالصاً، ومصنوعة من حوالي 300 رطل من الفولاذ عالي الكروم. ومع أربع غيارات سرعة على أرضيتها، كانت السيارة تتوق إلى أن تكون آلة سباق.

معاً، أبي وأنا جعلنا ذلك يحدث. في إحدى أمسيات الربيع في محل أبي، راقبته مندهشاً، وهو يرفع المحرك القديم ويخرجه بمرفاع سلسلة ثم ينزل ببراعة المحرك 327 ذا الصمامات الثمانية بشكل حرف (V) الذي أعدنا تعميمه وعززناه بشحان مزاد الشحن. وفتحنا ثقباً في الغطاء من أجل مأخذ هواء الكروم، وبذلك كنت في قلب العمل.

ولتوفير دواليب السباق قطرنا هذه السيارة الجديدة على ناقلة إلى ساحات السباق. وطبقت الدروس التي تعلمتها في السيارة ام جي ايه الصغيرة على السيارة شيفي الكبيرة. وحافظت على كسب التذكارات. ولكنني تعلمت أيضاً ألا أربح كثيراً جداً، وإلا فإن السائقين الآخرين يمكن أن يسجلوا تحدياً رسمياً. ففي ساحات السباق في الجنوب الغربي، كانت تلك قضية جادة. كانوا يقولون إنك لم تهزمننا بالعدل، ولكن لديك بعض التقوية غير المشروعة في المحرك. ويقوم المسؤولون عن السباق بحجز سيارتك ويفكون المحرك قطعاً، ومقاييس المعايير بأيديهم، ليقيسوا الجوف والشوط، لم يربح أحد في تحد. وأنا استخدمت تكتيكات أخرى لأكسب. أدر سباقك الخاص بك، وليس سباق الشخص الآخر. اعرف سيارتك، واعرف نفسك.

مرت سنة دراستي الثانوية العليا سريعاً جداً، وكنت أعيش الحلم الأمريكي بلا

ريب. صيد السمّان مع رجال من العائلة، وارتداء اللباس الموحد لفريق كرة القدم لمدرسة لي، وسباق السيارات، والاستعداد لدخول الكلية.

كانت معي فتاة متزنة، هي شيل دورتي، فتاة جميلة طويلة بنية العينين قابلتها في ثانوية ميدلاند، لقد أحببتي، وأنا كنت متأكداً أننا كنا يليق أحدها بالآخر.

وطوال سنوات عديدة، كنت قد افترضت أن الكلية سوف تتبع المدرسة الثانوية تلقائياً: وجميع أصدقائي فكروا بالطريقة نفسها. وشيل وأنا كنا نحلم بالدراسة في المدرسة نفسها، بعيداً عن والدينا. ولكن أهلنا تأمروا وسادت الحصافة الأبوية. فعائلة شيل قامت بإرسالها بعيداً إلى جامعة تكساس الفنية، وأنا قبلت في جامعة تكساس في أوستن. وكان المقصود بذلك في نهاية الأمر أن يكون هناك فترة تبريد، وقد نجحت: فشيل تزوجت طالب قانون بعد سنوات قليلة، وأنا تزوجت كاثرين جين كارلي، وهو أفضل قرار مفرد سبق لي أن اتخذته مطلقاً، في الخدمة العسكرية وفي خارجها.

في مساء حار من شهر حزيران/يونيو 1963، وجدت نفسي أمشي عبر مسرح مدرسة لي الثانوية في قبعة ورداء أمد يدي لأصافح يد الدكتور ليزلي هندز وأستلم شهادتي. وفكرت، أليست هذه بلاداً عظيمة، وأنا ألوح بقبضتي للأعلى وللأسفل، وهو ما أبهج أصدقائي.

وذهبت إلى جامعة تكساس في أوستن من أجل بعض المتعة الحقيقية، أو هكذا ظننت، في صيف العام 1963م.



الفصل الثاني

"امدد لهم يد العون"

أوستن في تكساس

آب/ أغسطس 1963

كل من سبق له أن كان مبتدئاً في الصف الأول في مدرسة كبيرة عانى على الأرجح خبرة مشابهة. ففي أثناء أيامي القليلة الأولى في جامعة تكساس شعرت أنني معزول، حتى على الرغم من أنني كنت محاطاً بعشرين ألف طالب. وقد شغل الحرم الجامعي قطعة كبيرة من مركز مدينة أوستن. كانت هناك المروج الواسعة، ومتاهة من مباني الصفوف الدراسية، وملعب كرة قدم تستطيع مقاعده أن تتسع لسكان ميدلاند، وكان هناك برج الجامعة يطل هائلاً فوق المكان كله. في أثناء التسجيل في ذلك الأسبوع الرطب الحار في آب/ أغسطس 1963، مع الشباب المسرعين في كل طريق نسأل عنها لنحصل على التسجيل في الفصول، ربما كنت نملة من تلك التي تفور خارجة من الوسخ في مزرعة أهلي التي تركتها خلفي في واينوود.

كانت غايتي في الكلية أن أخرج مهندساً كيميائياً. لقد أحببت العلوم في المدرسة الثانوية حباً كبيراً بما فيه الكفاية، وأحرزت علامات جيدة. ولكنني في هذه الأيام الأولى في الحرم الجامعي، لا أكاد أستطيع حتى قراءة الخريطة لتحديد موقع فصولي.

ومع ذلك، ففي وقت سريع بما يكفي، وجدت بيتاً جديداً، وكان في بيت منظمة أخوة دلتا أبسيلون. وكان بيت دلتا أبسيلون مكوناً من أربعة طوابق بشكل مكعب من الألمنيوم الأزرق والزجاج، وكان مطلاً على ممر دائري للسيارات في شارع ليون. وعندما مشيت واقتربت من ذلك الممر وأنا أرتدي معطفي الرياضي القطني من نوع المدارس وقميصاً أبيض منشئ في أثناء أسبوع الهجمة على التسجيل، بدا لي البيت وكأنه شيء خارج من سينما الخيال العلمي. وفكرت أنه بارد لدرجة حسنة.

وإضافة إلى أن دلتا أبسيلون معروفة بمستوياتها الأكاديمية العالية، فهي منظمة الأخوة للعضو داريل رويال، المدرب الأسطوري لكرة القدم في فرق لونج هورن، كما تلقب فرق جامعة تكساس. وسمعة دلتا أبسيلون بصفتها بيت حفلات كانت أيضاً مصدر جذب معين. وقد انسجمت انسجاماً طيباً مع الإخوة وانتقلت إلى البيت بصفة مبدئية في شهر أيلول/ سبتمبر ذاك.

لم تكن توجد أي هواتف في الحجرات، ولكن كل طابق من المبنى احتوى على هاتف وآلة صرف نقود. وبالنسبة إلى طالب مبتدئ في الثامنة عشرة من عمره ويبتعد عن بيته لأول مرة، كانت تلك الهواتف الصفراء النيكوتينية اللون إغراء حقيقياً. لقد كانت متعة عظيمة أن أتحرك باسترخاء في القاعة نهائياً أو ليلاً بقميص حرف تي وبنطلون قصير، أشغل خطوط الهاتف مع البنات ومع الشباب الآخرين الذين أكون قد قابلتهم في الحرم الجامعي. وكان الدخول في محادثة لا طائل تحتها عن الحفلة القادمة أو برنامج كرة القدم القادم أفضل بكثير من الرسم التخطيطي للجمل من أجل إنشاء اللغة الإنجليزية أو استذكار الجدول الدوري للعناصر. والأمر الغريب كما يبدو لي الآن، هو أن عاداتي السيئة في الدراسة بدأت على الأرجح في أثناء المكالمات الهاذرة التي كنت أقوم بها في هواتف الطابق الثاني في بيت دلتا أبسيلون.

كان أحد المشاريع التي أخذها فصلي المؤقت على عاتقه هو بناء حديقة تقديم كحول وبيرة على الفناء الخلفي المنحدر خلف البيت. وكان هذا المكان هو الذي تعرفت فيه على مايك كورلي، وجيمي سيويل، وتيري مارلات وجاك سليتون. وعلى الرغم من أننا كنا من أجزاء مختلفة من تكساس، فإننا اشتركنا باهتمام مشترك بالبنات والحفلات، وكانت المهمة عملاً مشتركاً من الحب.

ولم يكن العمل كذلك إنجازاً قليلاً من هندسة الهواة. فقد كان علينا أن نحفر في جانب التل بالمعاول والمجارف لتمهيد منصة من الوسخ لتكون أفقية من أجل أرضية مجموعة الاحتراق والآجر. وبسبب زاوية الميل فقد عانينا طويلاً في بعض

الحسابات الثقيلة لنقدر الارتفاع الصحيح للعوارض القائمة التي تمسك السطح المشبك. ومن حسن الحظ أنني كنت أستطيع أن أذهب إلى الهواتف الموثوقة وأكلم أبي في ميدلاند عندما كنا نواجه مشكلة.

وكان الجمال في حديقة البيرة هذه هو موقعها على قمة التلة. كنا نجلس ونستند في الظل نشرب ونشاهد السيارات في الشارع أسفل منا. وكانت الحديقة أيضاً تشرف على مهجع فتاتين، وهكذا فقد كان لنا مكان مثالي للتجسس على الموهبة المحلية. وكان هذا أفضل بكثير جداً جداً من الدراسة.

أذكر أنني بعد عصر يوم من الخريف في الفصل الدراسي الأول ذاك قمت أنا وجيمي سيويل، وتيري مارلات بدعوة بعض الإخوة ممن هم أكبر منا سنناً إلى علبة باردة من بيرة تكساس لون ستار.

أحد الشباب، وكان يدرس الجيولوجيا، عرض أن يلقي على أسماعنا جدول معدل الصلابة المعدنية لموه، والذي كان يبدأ هكذا، "تالك، جبس، كلس، فلور..." وينتهي "توباز، كورونديوم، ماس." وحسب تقاليد تكساس لونغ هورن^(*)، فقد حفظ التسلسل غيباً باستخدام الأسلوب القديم المحترم وهو حفظ الحرف الأول من كل اسم مثل (TGCFAOQTCD) بحيث يأتي حرف تي عن تالك، وجي عن جبس... إلخ. ولكن هذه الحروف الأولى من كل معدن يمكن أن تقرأ حسب تفسير آخر لكل حرف مثل تي عن تكساس، وجي عن فتاة، وسي عن تستطيع، واف عن تفازل وهكذا، وتكون هناك بالتالي قراءة ممكنة أخرى لهذا الصف من الحروف وتعني "فتيات تكساس يستطعن المغازلة ويعملن أشياء غريبة أخرى" ولكن ذلك الطالب استبدل كلمة تفازل ووضع كلمة أخرى أكثر إيماء بالعلاقة بين الرجل والمرأة وتبدأ بحرف اف. كنت أتعلم طرق العالم الحديثة.

(*) لونغ هورن، لقب تكساس التقليدي، نسبة إلى ثيران عرفت بالقرن الطويل وكانت تربي هناك.

وتحول الموضوع باختصار من البنات إلى السيارات، وهو موضوع مثير دائماً
لاهتمام شباب تكساس.

قال جيمي وهو يؤشر بزجاجته إلى سيارة زرقاء 88: "تلك الأولدز لها بالتأكيد
أنايب مجموعة زجاجية كاتمة للصوت."

وحاججت: "لا. تلك سيارة عادية سيدان أصلية من الوكيل مباشرة. وربما كان
يمتلئها واعظ ما."

كان الحكم بدقة على مميزات السيارات مهارة محترمة احتراماً عالياً بين
الإخوة في دلتا أبسيلون. ولكن ذلك الاحترام أيضاً كان للمهارة في تقدير مفاتن
الطالبات اللواتي يمشين على مهل في التعليم المختلط.

وأعلن فيل روزيكا: "البنت التي تلبس التنورة المتشّية هي فعلاً ممثلة النهدين."
وأوماً إلى فتاتين كانتا تمشيان على رصيف جانبي أسفل منا.
وعارض تييري: "ربما حشوة داخل الحمالة."

وقال فيل وهو يرتشف البيرة: "أستطيع أن أقرر حقيقة هي أنهما ليسا كذلك."
وصحنا نعبر عن تقديرنا واحترامنا. وكان فيل طالباً مبتدئاً خبيراً خبرة جيدة.
وراقبت أنا الفتاة الأخرى، وكانت شقراء منحنية بشعر مسرح تسريحة ذنب الحصان
وعليها كنزة صوف كشميري مزررة بشكل قائم مع سلسلة ذهبية صغيرة في عنقها.
كان اسمها جانيت، ودعوتهما إلى حفلة أقامتها الأخوة في ليل يوم الجمعة. وخططت
أن أقوم بحركة التقرب إليها بعد أن نكون قد تناولنا قدحين من البيرة.

كان أحد الدروس التي كنت أتعلمها في جامعة تكساس هو أن الثورة الجنسية
لم تكن مجرد شيء تقرأ عنه في مجلة بلاي بوي. ففي أثناء السنتين الأخيرتين
اللتين قضيتهما في مدرسة لي الثانوية في ميدلاند، كنت أنا وشيل دورتي قد ذهبنا
معاً بثبات. وكنت أكتشف الآن حرية إعطاء المواعيد مع فتاتين أو ثلاث مختلفات في
الأسبوع، بعيداً عن إشراف والديهم، ووالدي. وتبين أن الكلية أمتع بكثير مما تخيلت
سابقاً.

ولم تكن البنات هن الإغراء الوحيد. ففي الكثير جداً من ليالي الأسبوع عندما كان يجب أن أدرس، كنا نكدس مجموعة من الشباب ونحشرهم في سيارة والذي تيري مارلات العادية، ونخبئ ثلاثة منهم في صندوق الأمتعة مع حمولة من صندوق سعة ستة زجاجات، ونتجه إلى مشاهدة فيلم سينمائي ونحن في السيارة. فإذا لم نخرج إلى السينما، فقد كنا قادرين دائماً على الذهاب لتناول بيرغر الجبنة في محلات درتي، ثم نتجول صعوداً ونزولاً في الشارع الرئيسي لأوستن، وهو شارع غوادالوب التي تُتطق غوادالوب حسب اللهجة الإنجليزية في تكساس.

ولكن الكلية لم تكن لذة خالصة بلا توقف. فنحن جميعاً تلقينا خبر اغتيال الرئيس جون كينيدي بألم شديد جداً. وألغت الجامعة الدروس بعد ظهر يوم الجمعة ذاك، والتحقّت أنا بنحو خمسة آلاف آخرين من الطلاب الواجمين، والدموع في عيونهم وهم محشورون في الاتحاد، لمشاهدة وولتر كرونكايت على شاشة كبيرة لتلفاز أبيض وأسود. كان هذا اليوم حزيناً لتكساس. لقد ألهم الرئيس كينيدي جيلي، وكنا جميعاً نستطيع أن نلقي ذلك الجزء من خطاب تنصيبه: "لا تسألوا ماذا تستطيع بلادكم أن تفعل من أجلكم..." الرئيس الآن ميت، والجميع ممن كنت أعرفهم سكرّوا تلك الليلة.

مع حلول الوقت الذي اقتربت فيه عطلة الربيع أدركت أن علاماتي في الفصل الدراسي الثاني ستكون أسوأ بكثير مما كانت عليه في الخريف. لقد حضرت للصف نحو نصف الوقت المقرر، ولكنني نادراً ما قمت بالقراءات المقررة ومعظم تلك الأوراق الخاصة بالامتحانات والاختبارات السريعة كان يمكن أن تكون مكتوبة باللغة الماندرينية الصينية تماماً كذلك.

عدت إلى البيت لقضاء عطلة الربيع، ولم أفتح قط الكتب الدراسية التي وعدت نفسي أن أقرأها في كل يوم. ومع حلول ربيع 1964، حل لباس السباحة البكيني تماماً محل لباس السباحة من قطعة واحدة، وكانت مطاردة الفتيات والتسكع مع أصدقائي في المدرسة الثانوية أكثر إثارة بكثير جداً من الدراسة.

وفي الوقت الذي كنت مشغولاً فيه بهذه الأعمال الجادة كان أبي وأمي، مع ذلك، يواجهان أزمة. عملُ أبي كان يخفق. وكما هو الحال دائماً، ولكونه حرفياً ذا ضمير حي، كان يقضي وقتاً أطول بكثير في العمل مقابل النقود التي يأخذها. وموقع الورشة السيئ، بكل صراحة فجأة، كان يؤدي أكثر فأكثر مع قيام المنافسة التجارية من المحلات التي نشأت في مواقع أقرب إلى البحيرة.

في صباح يوم من شهر نيسان/ إبريل ذاك، جلست لتناول الفطور لأفاجأ بأن أبي ما يزال موجوداً على الطاولة. وجلس هو وأمي قريبين معاً وأبي بصدد الإعلان.

"إنني سأبيع المشغل التجاري، يا توم ري. إنه لا يعمل بالطريقة التي أملتُها، ولديّ عرض لذلك."

ما زلت لم أدرك كيف كنت أنا مرتبطاً بالمشكلات المالية لأهلي. "وماذا ستفعل يا أبي؟" وقالت أمي: "إننا نخطط للانتقال إلى أوستن، سنجد لنا مكاناً وسوف نعيش معاً"، وأضاف أبي وهو المتفائل دائماً: "هناك الكثير من الأعمال الجيدة في أوستن، يا بني."

بعد عصر ذلك اليوم فقط أدركت فعلاً ما كان يدور بخلد والدي: إذا انتقلت معهما ورجعت إلى أوستن معهما، فإن هذا سيوفر عليهما مبلغ تسعين دولاراً شهرياً لاستئجار غرفة مع الخدمة والطعام الداخلي لبقائني في بيت دلتا أبسيلون. وماذا عن الرسوم، والكتب، ونقود المصروف وتبلغ خمسين دولاراً كانوا يرسلونها إلي شهرياً؟ إن والديّ في طريقهما إلى الإفلاس. لقد بلغت الأمور حداً من السوء جعل أمي تبيع فطائرهما وكعكها مرة ثانية للمساعدة على إبقائي في الكلية. وسوف أفقد جلسات المناقشات الجماعية مع إخواني في أواخر الليل، ولكن الإقلاع عن البيرة في ليالي المدرسة سوف يؤدي بلا شك إلى تحسين عادات دراستي. وأنا فعلاً كنت أحب طبخ أمي.

ولكن حقيقة ظروفنا الجديدة لطمتني على جانب رأسي، كما يقولون، عندما

بعت سيارتي ام جي وسيارتي شيفي المعدلة. وبعد أن استخدمت معظم المال من أجل دفع رسوم العام التالي، كنت أملك ما يكفي في ما تبقى لأشتري سيارة بلايموث مستعملة بأربعة أبواب. وقلت في نفسي وأنا أركب السيارة بلايموث خضراء. إن ظروف الزمان قد تغيرت بالتأكيد.

في أول فصل دراسي من عامي الأول في الجامعة حصلت على درجة من معدل النقاط هو 1.2 من أصل 3.0 في نظام النقاط في جامعة تكساس، وأنجزت على رغم المصاعب درجة ب لترف من درجاتي التي نلتها من معدل ج. ولكن تبين أن الفصل الدراسي في الربيع كان أكثر سوءاً بكثير. وبين الفتيات، والبيرة، والساعات التي أمضيتها عبثاً حول بيت دلتا أبسيلون بدل الدراسة، انتهيت في ذلك الشهر أيار/ مايو إلى معدل 0.5 لست ساعات من مستوى د، وه في عبء دراسي لا تحدي فيه يبلغ 12 ساعة مسجلة في الفصل.

وتأكد أدائي الجامعي المنخفض عندما استلمت الرسالة المخيفة من المسجل في شهر حزيران/ يونيو 1964، بعد أسبوعين من الامتحانات النهائية. لقد وضعتُ على قائمة الاختبار الدراسي.

وكما كان أبي قد تكهن، كان هناك عمل جيد له في أوستن. فبينما كنت خارجاً للتزلج على الماء في فايكنغ مارينا في بحيرة أوستن في أحد أيام ذلك الربيع قابلت مورييس دوك، مالك حوض الزوارق وهو عضو مجلس شيوخ (سيناتور) عن الولاية. وكان نجم كرة القدم في لونغ هورن، أي تكساس، في الخمسينيات. وكان السيد/ دوك منحازاً لطلاب جامعة تكساس.

وقلت له: "إذا احتجت في أي وقت إلى ميكانيكي خبير فإن أبي على المستوى الجيد الذي يكون عليه الميكانيكيون تقريباً".

وبدأ أبي العمل لمورييس دوك بعد أسبوعين.

وقبل أن يبدأ الفصل الدراسي في الخريف، انتقلت مع والدي إلى بيت صغير مستأجر في شارع روزديل آفنيو في شمال غرب أوستن، وبدأت في الواقع أدرس

مرة ثانية في ليالي الأسبوع. ولم يكن مفاجئاً أن درجاتي رجعت لتصعد وترتفع إلى معدل 1.25 بعد الامتحانات النهائية في كانون الأول/ ديسمبر، ولكنها لم تكن مرتفعة تماماً بما فيه الكفاية لترفع اسمي من قائمة "الاختبار الدراسي"، ولكنني حسبت أنني أستطيع أن أخفف قليلاً وأبدأ بالاستمتاع بالحياة في الكلية من جديد. غلطة كبيرة.

في وقت متأخر من ليل يوم الخميس بعد أسابيع قليلة من دخول الفصل الدراسي في ربيع 1965، وجدت نفسي أنحني على إبريق من بيرة تكساس لون ستار في حديقة بيرة شولتز وأناقش قضايا ذات أهمية مع جاك سلايتون وجيمي سيويل. أعلن جيمي، وهو يردد أصدااء محاضراته في علم الأناسة: "أن البوذيين يقولون إن كل الواقع وهم. ربما كانوا يملكون معلومات عن شيء ما."

وقلت وأنا أماًلاً أقداحنا: "دعونا نشرب نخب البوذيين." وأضاف جاك، وأعتقد أنه كان يدرس علم الفلك: "المكان والزمان هما الشيء نفسه، من الناحية الرياضية." لقد وصلنا إلى مرحلة البصيرة العميقة من الشراب في الكلية.

كرعتُ بيرتي. "حسناً، وماذا عن الذرات؟ إن الإليكترونات تدور حول النواة مثلما تدور الكواكب حول الشمس تماماً، أليس كذلك؟ وماذا لو أن... كل ذرة ملعونة في إصبعي، أو هذا القدر هي فعلاً نظام شمسي صغير..."

وقال جاك وعيناه تبرقان "وأن أحد الشباب في بار على واحد من تلك الكواكب الإليكترونية يشرب إبريقاً... أو يشرب أي جهنم، وهو ينظر إلى إصبعه، و..."

في ذلك الربيع ذهبت درجاتي إلى جهنم في سلة يدوية. وبعد أن حصلت على درجات من مستوى "و" في امتحانات نصف الفصل، توقفت عن الذهاب إلى الفصل تماماً. وحضرت امتحاناتي النهائية في شهر أيار/ مايو 1965 مؤملاً أن يكون فيها أسئلة كافية من النوع الذي يوجد فيه خيارات متعددة لتعطيني احتمالاً مقبولاً لأحصل على درجات "د"، أمل كاذب.

وفي ذلك الصيف عملت مع أبي جزءاً من الوقت في فاينكنغ مارينا، في تصليح المحركات وقيادة زوارق التزلج على بحيرة أوستن، وقضيت ثلاثة آصال في الأسبوع أصر حاجيات الزبائن في أسواق هوارد ئي. بت الكبيرة (سوبر ماركت). وتركت لي هذه الأعمال كثيراً من الوقت لحضور الحفلات. ولم يكن أصدقائي وأنا محتاجين إلى أعذار كثيرة لنحتفل.

بعدئذ تسلمت رسالة أخرى من المسجل. وحتى الآن كنت قد وضعت تحت التجربة الدراسية لمدة عام. وقد أخفقت في الحصول على معدل نقاط علامات مقبول في أثناء ذلك الوقت، ولن يسمح لي بإعادة التسجيل والقبول في الجامعة طول الفصل الدراسي القادم. بعد ستة أشهر سيكون بمقدوري أن أعيد تقديم طلب التحاق. وكان الطلاب يسمون ذلك "إقراضاً"، ورأى فيه بعضهم مخاطرة عادية للحياة في الحرم الجامعي. ورأيت أنه أنا عذراً لأخرج مع تيري مارلات وأشرب حتى أسكر.

عندما استيقظت قبل الفجر في الصباح التالي وأنا أحس بالصداع، أضأت النور، وقرأت تلك الرسالة ثانية، وخلصت إلى أن والدي كانا يبذران أموالهما في محاولة إبقائي في المدرسة. فقد أسأت استخدام ثقتي وعملها الشاق. وبقدر ما كان من الصعب الاعتراف بهذا الأمر، كان واضحاً أنني كنت فاسداً من فرط التدليل، وغير مركز التفكير، وغير ناضج لأحصل الكثير من الكلية.

كان يتعين على أن أقوم بالكثير من النضج.

وبينما كنت مستلقياً في فراشي أفكر، تبلورت في ذهني خطة وأخذت شكلها. فحتى لو فعلتها ورجعت إلى المدرسة في غضون ستة أشهر، فقد كان ما يزال يتعين علي أن أظاھر بأني مهتم بدروسي. لم أبق راغباً في التظاهر بعد الآن، حول أي شيء. ثم تذكرت المسار الوظيفي الصلب المحترم في القوات الجوية لزوج ابنة خالتي الطيار جوني باودن. لم أفكر في أنني أستطيع أن أكون ضابطاً، ولكنني أستطيع أن أخدم بلادي جندياً.

في ذلك الصيف بدأت أقرأ الصحف وأشاهد أخبار التلفاز في كل ليلة. لقد أرسل الرئيس جونسون قوات مشاة البحرية إلى فيتنام وبدأ يقصف الشمال الشيوعي. ولكن عصابات الفيتكونغ لم تفهم الرسالة، ولذلك فقد بدا أن أمريكا كانت ستدفع نصيبها. وشعرت أنني مستعد أن أجز حصتي من الحمل.

وإلى جانب ذلك، فإن فكرة الذهاب إلى الجانب الآخر من العالم لأقاتل من أجل بلادي كانت "بارزة" بوضوح تماماً. وستكون العسكرية على الأرجح نسخة أكثر مغامرة من التخيم والصيد، وهو ما أحببته دائماً. ومهما فعلت في الجيش فسيكون أفضل من صر الحاجيات في سوق كبير (سوبر ماركت) أو أفضل من تركيب المحركات مع أبي. كنت أرغب بالخروج إلى العالم وأعمل شيئاً ما حقيقياً. وكونك عسكرياً هو تقريباً حقيقي بقدر ما تستطيع أن تحصله.

كان مركز التجنيد للجيش الأمريكي في أوستن في مركز المدينة. وفي ذلك الصباح الحار من يوم الجمعة من 20 آب/ أغسطس 1965، كان رأسي ما يزال ينبض بالصداع، وفمي جافاً كالقطن من أثر خمار السكر بالبيرة، وكنت أول شاب يدخل من الباب.

وقفت حافلة الركاب الرصاصية اللون وهي تصدر صريراً أمام مركز الاستقبال داخل البوابة الرئيسية لفورت ليونارد وود في ميسوري. وكانت الحرارة بعد ظهر ذلك اليوم من آب/ أغسطس 95 درجة فهرنهايت تقريباً، مع رطوبة تكافئها. وفي الخارج على المعبر المنحدر حلق فينا جندي غليظ الصوت يضع الكثير من الشرائط على بدلة العمل المنشأة التي يلبسها ويضع على رأسه قبعة الدب المدخن (سموكي ذا بير). ولم يبد ودوداً معنا.

وصاح بصوت كالخوار: "هذه ليست رحلة في حديقة السيدات، أيها المستجدون، اخرجوا من الحافلة، الآن!"

كنت في هذا المقعد طوال ثلاثين ساعة، ولم أستطع الحصول على الكثير من

النوم. كنت متعباً، وجائعاً، وخائفاً قليلاً، وأحسست لأول مرة بمرارة ألم الشوق الجارف إلى البيت.

وعندما نجحنا في تشكيل خط مستقيم بشكل معقول، مشى ذلك العسكري في تلك القبعة صعوداً ونزولاً، وهو ينعم النظر فينا. وكانت مقدمة الحذاء العسكري الذي يحتديه لامعة جداً إلى الحد الذي رأيت معه خيالي فيه وهو يخطو بجانبني.

وقال وهو ينظر شزراً من تحت طرف قبعته: "انتبهوا بعناية، وأنصتوا جيداً لأنني لا أكرر نفسي. اسمي الرقيب المعلم كيتل. سوف تتذكرون اسمي لأنني رقيب فصيلتكم. أتفهمون؟"

الأولاد من حولي حركوا أرجلهم. وأحد الأولاد أوماً برأسه مبتسماً. غلطة كبيرة.

وصاح كيتل: "أنا لست أمكم، ولست أباكم. وأنا بالتأكيد لست صديقتكم. جوابكم هو "نعم، يا رقيب".
"نعم. يا رقيب".

كان يتعين علينا أن نصرخ بذلك الجواب حوالي ست مرات قبل أن يرضى الرقيب كيتل.

وفي نهاية الأمر، مشينا باضطراب في صفين وجرجرنا أرجلنا إلى الشارع لنبدأ بإعدادنا حسب الإجراءات الداخلية، ومررنا بين مهاجع في الثكنة مكونة من دورين من خشب وفيها سلالم فولاذية للنجاة من الحريق. كان العشب يابساً، بنياً، والصخور البيضاء المتسخة تصطف خطأ على طول الأرصفة. وظهر لي هذا المكان وكأنه مصنع من أربعينيات 1940.

ونادى الرقيب المعلم كيتل بإيقاع الخطو محاولاً أن يجعلنا نمشي بإيقاع الخطو المنتظم. "يسار. يمين.. يو.. يسار، يمين، يسار..."

كنت أسير بشكل جيد، ولكن الشاب الذي يسير خلفي كان باستمرار يدوس على كاحلي.

شخص مزّاح في وسط الفصيلة متم محرفاً اسم القاعدة التي نحن فيها (فورت ليونارد وود) وقال: "مرحباً بكم في فورت لوست إن ذا وودز." أي: (مرحباً بكم في فورت المفقودين في الغابات).

ولم يكن الرقيب المعلم كيتل مسروراً: "أيها المستجدون سوف تخرسون يا فاسدون وإلا فإن كل أعجازكم عشب وأنا جزازة العشب." ولم يعلق بعد ذلك أحد.

وتساءلت في نفسي. متى سيطعموننا ويتركوننا نذهب للنوم؟ لم أكن سعيداً بأن أكون هنا. ولكن كان يمكن أن أكون أقل سعادة بكثير لو كنت عرفت جواب ذلك السؤال.

بدلاً من الطعام والنوم، حلّقنا شعرنا. شعري لم يكن سيئاً جداً، فقد توقعت أن يحلق لي حتى الصلع، ولكن الحلاق عظيم البطن ترك فعلاً زغباً على قمة رأسي. وفي مبنى الإمداد الخائق، تحركنا إلى محنة، وكنا نتوقف عند كل طاولة ليصرفوا لنا ملابس العمل، وملابس داخلية شخصية (مع ربطات خيطية على بنطلونات الملاك المصيرة الخفاقة)، وبزة الجيش درجة أ، ومجموعة محيرة من القبعات المختلفة، والأحذية العسكرية.

وسأل الشاب الذي يصرف الأحذية مثل إنسان آلي: "رقم حذاءك؟" "تسعة، ثلاثة هـ. قدمي في الحقيقة عريضة، كذلك يلزمني أن يكون الحذاء في العرض ثلاثة هـ."

وحك العسكري تحت إبطه المتعرق على قميصه الذي كان بشكل حرف تي، ووصل بيده إلى خلفه، دون أن ينظر، إلى صندوق مليء بالأحذية العسكرية، والأزواج مربوطة معاً بالقيطان. وقال: "تسعة" وهو يلقي زوجين من الأحذية العسكرية السوداء القتالية على كوم من الملابس يملأ ذراعي.

"التالي"

لم أتحرك. "ثلاثة هـ. أليس كذلك."

"نعم... بالتأكيد. الرجل التالي."

في مهاجعنا الجديدة، كان سريري في صف من الأسرة المثبتة المزدوجة ذات الإطار الفولاذي التي تواجه المزيد من الأسرة المثبتة في الفسحة المفتوحة للزمرة. وما كدنا نلقي بأكدا سنا من الملابس العسكرية حتى كان الرقيب كيتل المتبسم يدعونا إلى "حفلة شخصية".

وتساءلت في نفسي، إن كان لديهم شطائر. هكذا فكرت.

لم تكن حفلة من ذلك النوع. وبدلاً من ذلك، أمضينا الساعات الخمس التالية ندعك المهاجع التي كانت نظيفة من قبل. والتحقّت أنا بأربعة مجندين آخرين عينا لتنظيف المرحاض. كانت كراسي المراحيض الالامعة مصطفة الواحد إلى جانب الآخر، وكل حمامين يتقاسمان لفة ورق حمام، ولا يوجد عليها مقاعد، ولا حواجز. فهم يتوقعوننا أن نجلس هنا للنهائية في مكان مكشوف؟ وبدأ الشوق المبرح للبيت يصبح ألماً ملحاً ينخز مثل ألم الأسنان.

وقلت للشاب الذي كان راكعاً إلى جانبي وهو يلّمع بلاطات أرض الغرفة بخرقة. "حفلة لطيفة."

وتكلم بلهجة من الساحل الشرقي لم أكد أفهمها: "فاسدون مباشرة. كان ينبغي أن أذهب إلى 4-اف"

"ما هي 4-اف؟"

"عندما لا تستطيع أن تكون مجنّداً في قرعة عسكرية."

وقلت: "أنا لم أسحب في قرعة عسكرية، أنا تطوعت."

هز رأسه وتحرك بهدوء إلى المرحاض التالي.

بعد يومين مشّت فصيلتي بالخطوة السريعة في مطر الفجر، والجميع يلبسون المعطف الواقي من المطر، ويقبضون على بنادقهم على عرض صدورهم، وهو الوضع

الذين يسميه الرقيب كيتل وضع: عالياً أحمل. وكانت المعاطف الواقية من المطر المرفرفة تمنع عنا المطر، ولكنها أيضاً حبست العرق في الداخل. ومع ذلك، لم يكن الحر شيئاً إذا قورن بالألم في أقدامي. ذلك الحذاء العسكري لم يكن بالتأكيد في عرضه ثلاثة هـ: كرتا قدمي كانتا مضغوطتين بشكل ضيق كأنهما في ملزمة في ورشة أبي.

وغنى الرقيب كيتل، وهو يعد إيقاع الخطو المنتظم: "كنت معتاداً أن أواعد ملكة جمال."

ورددنا "... معتاداً أن أواعد ملكة جمال"

"والآن أنام مع بندقية ام-14."

وكانت نعال أربعين يمين حذاء عسكري تضرب أسفلت الطريق المبلل. "يسار... يمين. يو يسار... اضرب يسار...ك، يمين، يسار..."
أربعون يسار حذاء عسكري تضرب الرصيف.

ربما كانت قدمي ستتحدران في غضون مدة قليلة. ليس هذا الصباح. ومع مجيء الوقت الذي مشينا بالخطو السريع إلى أرض الاستعراض ورجعنا إلى منطقة السرية، كنت أعرج عرجاً سيئاً. وعندما اصطفت الفصيلة خارج قاعة الطعام لتناول الفطور، جاء نحوي الرقيب كيتل.

وقال والمطر ينقط من قبعته: "فرانكس، اخرج من الصف."

"نعم، يا رقيب."

"عندك نوع ما من مشكلة في المشي؟"

"لا. يا رقيب."

ومال نحوي بشكل أقرب، وصار صوته أهدأ وقال: "كنت أراقبك، أيها الشاب. الطريقة التي تمشي فيها ليست طبيعية. تعال معي."

وحملق المجندون والرقيب كيتل يقودني نحو المهاجع.

وقال وهو خارج مسافة سمع الآخرين: "سوف تصاب بالتنفيط، يا بني،"

"لماذا لم تخبرني؟ أنا رقيب فصيلتك. عملي أن أجعل أديباركم البائسة مدربة لتكونوا جنوداً، وهذا لن يحدث إذا كنت لا تستطيع المشي."

وأقررت: "إنه حذائي، يا رقيب. إنه ضيق جداً، إنه يسحق قدمي، أنا بحاجة إلى حذاء أعرض."

وهز رأسه وقال: "تأخرت كثيراً على ذلك، يا فرانكس." ثم كشر وقال: "ولكن هناك طرقاً لحل المشكلة. كان عليك فقط أن تخبرني."

كانت حيلته بسيطة. انقع فردتي الحذاء بماء يغلي في حوض غسل الملابس في المهجع، ثم املاهما بورق الصحف الملفوف بشكل كرات وعلقهما في غرفة رشاش الاستحمام ليجفا، وفي أثناء الجفاف يمتط الجلد ببطء. وحصلت على يوم عمل خفيف وأنا ألبس صندلاً. وفي الصباح التالي استطعت أن أمشي بدون ألم.

ولم أكن الآن أشعر وكأن بندقيتي ام-14 عبء ثقيل، وغنيت بقوة أفضل أغاني إيقاع الخطو المنتظم.

"إذا مت في منطقة القتال...."

"... فضعوني في صندوق وأرسلوني إلى الوطن."

"يو... يسار، يمين، يسار، يمين، يسار..."

ودارت الفصيلة حول الركن إلى شارع السرية. وكنا نسير سيراً حسناً، وكان كل مجند يخطو منسجماً مع إيقاع الآخرين. ولم تؤلني قدماي. كان ذلك ممتعاً.

وكنت أستطيع أن أشم لحم الخنزير المدهن، واللحم البقري بمرقه الرمادي بالقشدة على الخبز المحمص - لحم البقر المجفف والمدخن - الذي قدمته قاعة المطعم للفظور. كنت جائعاً. وإشارة اس او اس، لحم البقر المجفف والمدخن، سيكون طعامها جيد اليوم.

وكان الرقيب كيتل يهرول في الخلف إلى جانب التشكيل، ولكنه يحافظ على الخطو بطريقة ما. وتفرض في صفوفنا وقال: "تبدو جيدة، الفصيلة الثالثة. بعض منكم يمكن أن يكونوا جنوداً حتى الآن."

وعندما كنت أمر عنه مهتزاً أوماً ورماني بتكشيرة سريعة.

لم أكن أحس بالحنين الجارف إلى البيت بعد ذلك.

"جاهزون على اليمين" هكذا تردد صوت ضابط السلامة على مكبر الصوت. "جاهزون على اليسار. جاهزون على خط الرمي."

تمددت منبطحاً، المرفقان على كيس رمل، أنظر من خلال منظار جهاز التسديد لبندقيتي ام-14 إلى الهدف، الذي يبعد عني مائة متر. "عشرون طلقة. ابدأ الرمي."

ضغطت على الزناد وأخمص البندقية يضرب كتفي. هذه البندقية التي كانت من عيار 7.62 ملم هي بندقية حلف الأطلسي وهي أكبر بندقية سبق لي أن رميت بها. ولكن ارتدادها لم يكن بالسوء الذي كانت عليه بندقية أبي القديمة ريمنفون من عيار 0.12 التي سبق لي أن رميت بها عندما كنت في سن الثامنة.

كان أصيلاً بارداً مشمساً من شهر أيلول/ سبتمبر عند سفوح تلال أوزارك. وكنت سعيداً أن أكون هناك، نقوم فعلاً بالرمي على "سلاح خفيف الوزن، يبرد بالهواء، ويعمل بالغاز، ويلقم من المخزن، ونصف آلي، ويرمى من الكتف" وسبق لنا أن سرنا فيه ورمينا به رمياً وهمياً بدون ذخيرة طوال شهر. كانت البنادق تضرب وتطلق بقوة على طول خط الرمي وفصيلتي تواجه تحدي مهارة الرماية في الجيش. وارتداد البندقية ضرب بعض الشباب بقسوة فعلاً لأنهم لم يكونوا يقبضون على حاضن البندقية بشدة كافية. وكانت الطلقات تضرب غباراً بنياً منخفضاً على حافة الهدف. وكان الرقيب كيتل ينحني على العسكر الذين كانوا يواجهون مشكلات فيرفع سبطانات بنادقهم أو يخفضها، مقدماً لهم التشجيع الهادئ.

ووقف خلفي ليراقب. تنفست شهيقاً وزفيراً بالتساوي بالطريقة التي علمنا إياها، وضغطت على الزناد "مثل عصفور". وبدت البندقية وكأنها تطلق نفسها بنفسها والكثير من ظروف الطلقات النحاسية الحارة قفزت للخارج في ضوء الشمس لتصلصل على الكوم المتنامي بجانب كيس الرمل.

وعندما رمينا العشرين طلقة ونظفنا بنادقنا بعناية، كان كيتل يراقب والمتدربون يسحبون الأهداف التي علّمت عليها إصاباتنا. لقد نجحت في وضع كل الطلقات في الحلقات التسع على الهدف، وعدة طلقات منها كانت في الدائرة الصغير في مركز الهدف.

"أين تعلمت أن ترمي مثل ذلك، يا فرانكس؟"

"أبي علمني، يا رقيب، في مزرعة في أوكلاهوما."

"أتمنى لو أن عندنا المزيد من أبناء المزارع." تتممها وهو يمشي متمهلاً على الصف.

عندما أخذت الفصيلة تشكيلها لتسير عائدة إلى المهاجع، جذبني الرقيب كيتل من الصفوف. "العسكري فرانكس هنا فتى نظامي يعرف الإيقاع مع ام-14، سوف ينادي بإيقاع الخطو المنتظم."

وصحت محاولاً النغمة العذبة نفسها مثل التي للرقيب المعلم كيتل "إلى الأمام سر" وبدأت الفصيلة تخطو: "يسار... يمين... يسار، يمين..."

وقال كيتل وهو يمشي ورائي على جانب الرتل: "بصوت أعلى، يا فرانكس، أعطهم شيئاً يمشون عليه."

وغنيت: "نمشي عبر الغابة عند طلوع النهار"

والفصيلة تغني الجواب.

"وقف في طريقي تمساح كبير ضخمة..." صحت، وأنا فخور بأنني أقود الجند حتى وهم وحدة صغيرة بحجم فصيلة تدريب أساسي.

سار تشكيلنا على طول الطريق، والتحقّت به فصائل أخرى عائدة من ميادين الرمي. وغنيت أنا كل أغنية إيقاع عرفتّها. ثم إن شباباً في الصفوف غنوا أغانيهم، وأنا أتابع الخطوة: "يسار، يمين، يسار، يمين".

طوال الشهر الأول من التدريب الأساسي، كان ما يزال المجندون الجدد في مهجعي يتحدثون إنجليزيتهم المحلية في نيويورك، أو السفانا، أو تينيسي، أو غيتو شيكاغو. وصرت أدرك أن هناك حياة ذكية شرق الميسيسيبي، ولكنهم تكلموا بشكل غريب. كنا الآن نتعلم أن نتكلم كالجيش.

وأشرق الرقيب كيتل بابتسامة مثل أب فخور.

وعندما اقتربنا من برج الماء الذي يعلم حدود لواء التدريب، سمعت أول نغمات حلوة بالبوق لدقة العودة إلى الثكنة على مكبرات الصوت، وهي المراسم التي تؤشر على نهاية يوم العمل. وبدون أن يطلب مني كيتل أصدرت أمراً: "فصيلة، قف. قدم سلاحك".

وفي اتفاق تام، قدمنا التحية، وأصابنا الجامدة تلامس حافة خوذنا قليلاً. وعبر أرض الاستعراض، كان حرس العلم ينزل العلم عن السارية الطويلة. وبقينا نؤدي التحية حتى انتهت دقة العودة إلى الثكنة. لقد أحببت هذه المراسم. ومثل دقة الإيقاظ في الصباح ودقة إطفاء الأنوار في الليل، فإن دقة العودة إلى الثكنة تعطي لليوم شكلاً، وإحساساً بالقصد. وهذا بالضبط هو ما كان ينقصني في حياتي الكسولة وأنا طالب في أوستن. ففي كل أرجاء هذا الموقع المديد بلا انتظام، كان العسكر يقفون وحدهم أو في تشكيل، يحيون العلم، وهم عسكر أفراد بأكمام ملساء مثلنا، وضباط صف ثابتون مثل الرقيب كيتل، وضباط معينون يرتب نقباء، ورواد، ومقدمين. وربما حتى الجنرال قائد فورت ليونارد وود، ذلك هو ما يفعله الجنود، أدركت ذلك ودقة البوق تتلاشى. وأنا صرت جندياً.

ولكننا بالتأكيد لم نصبح زمرة من الإخوة. فكثيرون من بعض البيض

المحافظين كانوا حذرين من الشباب السود، والعكس بالعكس. ولكن كان علينا أن نتآلف. فعندما تجلس على صف من كراسي المراحيض في الصباح، وشباب من كل لون تقريباً تستطيع أن تتخيلهم يصطفون حولك، فإن المرء يتعلم أن يقتطع لزملائه العسكر بعض السعة.

معظم الناس على الأقل يتعلمون هذا الدرس. والطباخون في قاعة المطعم كانوا قصة أخرى. كنا دائماً نندفع مستعجلين ونحن نسير على طول صف الطعام حاملين صوانينا من الفولاذ الذي لا يصدأ. بعض الجنود الذين يقدمون الطعام كانوا عسكرياً من الدرجة الأولى وكانوا بكل فخر يضعون الشريطة الصفراء الواحدة لرتبتهم على أكمام بدلات عملهم. وكان واحد منهم ألباً حقيقياً في الخاصرة، ويزعجنا دائماً ويطلب أن "تحرك يا فاسد...(*) على طول".

في وقت غداء، قرر أن يمارس سلطته علي وأنا أنتظر وعاء الهامبرغر على طاولة التسخين ليعاد ملؤه.

"هيه، يا دب(**)... أنت توقف الصف. هذا ليس مطبخ أمك."

تحركت للأمام وكومت بطاطا مطحونة ومرقاً على خبزتي الفارغة من الهامبرغر. وكما كانت عادتي. لم ألتفظ بكلمة. وانتظرت.

ذلك المساء، تصادف أنني كنت قرب قاعة المطعم عندما جاء خارجاً، فمشيت إليه وضربته بقوة بقبضتي، على وجهه مباشرة فشقت شفته.

وقلت له وهو يمسح الدم عن وجهه: "يحتمل أن يكون هناك في حياتك بعض الناس تستطيع أن تفسد... معهم، ولكنني لست واحداً منهم. لا تقل أبداً أي شيء وأنا أسير على طول صف الطعام ثانية."

(*) كلام يتنافى مع الآداب العامة فاقتضى الحذف، وقد استخدم الكاتب الكثير من الألفاظ السوقية والبذيئة، وقد وضعت بدلاً لها أقل سوءاً أو كتبت نصف الكلمة، أو وضعت ثلاث نقاط دليل الحذف. والإعلام الأمريكي منع استخدام ما سماها الألفاظ السبعة القذرة، وباستثناء قليل استخدمها الكاتب كلها.

(**) مقطوع واحد من لفظة بذيئة والنقط دليل الحذف.

لقد قررت أن كوني جندياً، لا يعني أن يكون علي أن يحاصرني التافهون.

في الأسبوع الأخير من التدريب الأساسي تلقيت الأوامر بأن أقدم نفسي إلى فورت ديفينز في ماساشوسيتس، لأتدرب لعمل محلل رموز سرية، مكسّر رموز، في وكالة أمن الجيش، وهي قسم من فرع الاستخبارات العسكرية. كشافة المواهب للاستخبارات العسكرية جاؤوا إلى فورت ليونارد وود، يبحثون عن مجندين حصلوا على علامات جيدة في اختبارات القدرات والقابليات. ربما كنت طالباً سيئاً في أوستن، ولكنني لم أكن غيباً. وفي الحقيقة، لقد نجحت في أن أراكم أفضل علامات في اللواء الذي تلقيت فيه تدريبي.

كان الرقيب القادم من وكالة أمن الجيش مقنعاً جداً. وقال: "لا أستطيع أن أخبرك الكثير عن العمل إلى أن نكمل تصريحك الأمني. ولكنه عمل يشتمل على بعض أكثر استخبارات أمريكا حساسية."

وفكرت، يا للمفاجأة، جيمس بوند، العميل 0007 مشروبات المارتيني تَهز، لا تحرك^(*). قراب مسدس في الكتف تحت سترتي للغداء. وربما سوف أغوي الجاسوسات الروسيات الجميلات.

كانت هذه صفقة أفضل بكثير من مطاردة طالبات التعليم المختلط والتلصص في أفلام سينما السيارات.

بعد التخرج من التدريب الأساسي، وأنا أقف طويلاً وقد وضعت شارة رام خبير على بزتي العسكرية، وبعد أن ذهبت إلى البيت في أوستن لقضاء عيد الشكر هناك، قدت سيارتي من نوع فورد فالكون الحمراء طراز 1963 المكشوفة إلى نيويورك، في الطريق إلى فورت ديفينز، قرب بوسطن. وكان معي فرد ويبستر، صديقي الذي اختير أيضاً للاستخبارات العسكرية، وشاركني السواقة والمصاريف. ونظراً إلى أننا سنتسلم راتبنا عن شهر كانون الأول/ ديسمبر عند وصولنا، فقد قررنا أن نصرف

(*) هذا من كلام جيمس بوند في أفلامه.

كل نقودنا في المدينة قبل أن نتوجه إلى ماساشوسيتس، مع الاحتفاظ ببعض الدولارات للبنزين وللهامبرغر.

صرفنا فعلاً. وبعد أن دفعنا للفندق في الشارع 38 شرقاً مقدماً، بقي معنا حوالي ستين دولاراً. ذهبنا إلى كل بقعة سياحية في المدينة وفي كل يوم بعد العصر حوالي الخامسة ارتدنا البارات. وفي يومنا الأخير وضعت آخر أربعة دولارات معي لشطيرتين كبيرتين للغداء من البسطرما الجاهزة، مع المزيد من المخللات الأصلية لي، وأربع زجاجات بيرة من نوع شيفر. وكان فرد يحمل نقدنا الاحتياطي، وهو خمسة دولارات وثلاثة فئة دولار واحد، ملفوفة بقوة في الجيب الأمامي من الجينز الذي يلبسه.

عند الأمم المتحدة، وقفنا في صف من أجل جولة بعد الظهر للجمعية العامة. وقال فرد فجأة: "يجب أن أجد مرحاضاً. بسرعة." ربما كان السبب البسطرما المبهرة.

بعد عشر دقائق جاء في الممر، وكان يبدو شاحباً.

"أعاني من إسهال سيئ."

عند زاوية الشارع 42 والشارع الأول، لمس فرد بنطلونه الجينز وقال "يا إلهي". "نقودي ضاعت. لا بد أنها سقطت في مقعد ذلك المرحاض."

ركضنا عائدين إلى الأمم المتحدة، ولكن لم نكن محظوظين في العثور على النقد الضائع.

وعندما كنا نركب في المصعد إلى بهو الفندق في صباح اليوم التالي، لم نكن نعرف ماذا نفعل بهذه الورطة.

وقلت: "سيتعين علينا أن نبقي السيارة هنا ونسافر مع من يرضى بالوقوف من السائقين."

حدق فرد في كيسَي المتاع الثقيلين وقال: "سيكون مشياً طويلاً."

ونظر إلينا المشغل الأسود للمصعد: "هل نشلتم، أيها الشابان؟" وقلت: "فقدنا نقودنا، يا سيدي."

كان الرجل في عمر يناهز عمر أبي، ويحتمل أنه كان من المحاربين القدماء في الحرب العالمية الثانية. وعندما أوقف المصعد عند البهو، سلّم فرد ورقة خمسة دولارات. وقال: "لقد مشيت في مثل ما أنتم فيه، يا شباب. وذلك سيوفر لكم كل البنزين."

تذكرت ما علمني إياه خالي بوب عندما كنا نصلح تلك البيوت في ميدلاند. "لا يهم من أي لون هو جلد الناس، يا تومي ري. إن قلوبهم هي التي تههم." وحالما استلمنا الراتب أرسلت بالبريد خمسة دولارات إلى ذلك الرجل المشغل للمصعد الذي أنقذنا لنصل سالمين.

اكتشفت في الحال أن التدريب لأكون محلل رموز لم يشتمل على كؤوس شراب المارتيني، أو مسدسات تحت الذراع، أو سترات الغداء. ولم يكن يوجد في فورت ديفينز طاولات مغامرة بأوراق اللعب (بكرات)، ولا جاسوسات روسيات جميلات لإغوائهن.

كانت مدرسة وكالة أمن الجيش تعمل على مدار الساعة لتواجه الطلب من كل أنحاء العالم على اختصاصيين في التقاط واعتراض الإرسال اللاسلكي ومحلي رموز. فألى جانب الحرب الباردة التي تتقد نارها عبر أوروبا وشمال آسيا، كانت هناك حرب ساخنة تغلي وتغور في فيتنام. وكان الجيش يدفع الطلاب إلى التدريب على مدار نوبتين مضاعفتين مدة كل منهما اثنتا عشرة ساعة.

كنت في نوبة الليالي. وكان فصلي يتناول العشاء في قاعة المطعم، ثم نقدم أنفسنا للمدرسة في الساعة 1800. وكنا نتناول "العشاء" في منتصف الليل، ثم نتلقى المزيد من الدروس في الفصول إلى الساعة 0600، وبعد الفطور نذهب إلى النوم. هذا الجدول المائل غير المنسجم استغرق وقتاً للتعود عليه، ولكنني وجدت أن مادة الموضوع فاتنة.

تعلمنا أن مكالمات الإرسال اللاسلكي العسكرية المرمّزة تشتمل عادة على مفتاح، على مجموعة سرية من الأرقام أو الحروف التي يمتلكها كل من المرسل والمستقبل، وهي التي تحول كتل الأرقام التي تبدو بلا معنى إلى رسائل وكلمات مقروءة. وبدون المفتاح، كما علمنا مدربونا، فإنه من العسير للغاية أن نكسر الرمز.

وبدا الأمر لنا، ونحن جالسون في الفصل في الأيام الأولى من الدورة، كما لو أننا كنا نواجه تحدياً مستحيلاً. ولكن رئيس الرقباء، ذا الوجه الذي يشبه البومة والذي كان يعلمنا الدورة التمهيدية، أكد لنا أننا سنكون قادرين على كسر أي رمز سبق أن ابتدع إذا تحلينا بالصبر واتبعنا الإجراءات الصحيحة.

وشرح لنا أن كل لغة عرفت "معدلات تكرار الحدوث" لأي حرف مفترض. وكلما زاد تخصص الكلمات والتعابير التي ألقت منها تلك الرسائل، مثل الأوامر العسكرية والتوجيهات، زادت زيادة أكبر فرصة تحديد كلمات من خلال تكرار استعمال الحروف.

وأكبت على طاولتي في الفصل الزائد التدفئة، أنظر متجهماً إلى مذكرات الدروس المطبوعة بالنسخ. كيف يمكن لنا أن نتعرف ولو مجرد تعرف بالحروف بدون مفتاح الترميز؟

قال لنا المدرب "الاحتمال الرياضي".

النص المرمّز استبدل الأرقام بالحروف. وعلى سبيل المثال فإن 7246362469 مثلت عشرة حروف، ربما في كلمتين، وربما في كلمة واحدة، وربما في كلمة ونصف. والقصد من الرمز هو قلب ما هو مفهوم إلى هزيمة غير مفهومة.

وكانت مهمتنا بوصفنا محلي رموز أن نقرر ما قد تكون تلك الحروف بالروسية، وهي اللغة التي استخدمناها لتعلم مهنتنا. ومن الطبيعي، أننا لا نستطيع أن نصل إلى تحليل باستخدام مجموعتين فقط تتكون كل منهما من خمسة أرقام. ولكن جمال هذا الأسلوب تضمن تحليل مئات من هذه المجموعات ذات الأرقام

الخمس، ونحن نبحت عن أنماط تكرار الحدوث. ولم نكن نملك الحواسيب لتجعل واجبنا أسهل، لم نملك إلا آلات حاسبة باليد من نوع بورو تستخدم للجمع ويمكن استخدامها للقسمة والضرب أيضاً. وجميعنا نملك الكثير من أقلام الرصاص المبرية برؤوس حادة.

وفي شهر شباط/ فبراير 1966، كان أحد تمارين الفصل يتضمن تحليل نص مرمز لنقرر إن كان الرقم 6 أو 2 قد ظهر مرات أكثر من بقية الأرقام في قسم من مجموعات النص. وكان المدرب في تلك الليلة الرقيب الأقدم، وهو أمريكي-إيرلندي عظيم البطن اسمه- ريللي، وكان قد أخبرنا أن هذه الأرقام "ربما" تمثل حرف علة روسي شائع أو حرفاً صامتاً وذلك من مثل ئي... (ee) أو ياه... (Yah)، كما في كلمة (Army) ... وبعد الكثير من المناقشات في الفصل والمحاولات المحبطة في التحليل اكتشفنا أخيراً أن تتابع الرقم 98462 كان فعلاً هو تهجئة تلك الكلمة.

ولكن لدينا صفحات أخرى من النص تنتظر التحليل. وكنت، وأنا أنحني على الأعمدة المطبوعة من كتل النص الرقمية في الرسالة المشككة، أبحث عن تكرارات أخرى. وتأكدت مثل جهنم، من أنني اكتشفت التتابع 79395 مكرراً في ثلاثة مواقع. وعرفت أنا الآن الرقم 9 كان آه (ah) في هذا الرمز.

وتتمت "... شيء ما، آه، شيء ما، آه، مرة ثانية" وأنا أعلك قلبي الرصاص. ضربت معجمي العسكري الروسي بخفة وفتحته، وفجأة برزت كلمة كتيبة-batta)... lion وهكذا فالرقم 7 يجب أن يكون ب (beh) 6 والرقم 3 هو ت (T, teh).

ومال نحوي وساعدني الشاب الذي كان يجلس على المقعد المجاور لي، وهو مجند مدعو لخدمة العلم اسمه فيلدمان، وكان قد درس وتخصص في الرياضيات في كلية شرقية ما. وأكدنا معاً ذلك التحليل. ثم إن فيلدمان قفز إلى الأمام مؤكداً ارتباطات الرقم -الحرف بي- ، بي b، أو، إتش.

وبعناية قمت بطباعة جوابنا وسلمت ورقة العمل إلى الرقيب ريللي.

"ممتاز، فرانكس! الطريق للمتابعة، يا فيلدمان. أنتما أيها الرجلان وجدتما الكلمة الصحيحة المؤلفة من ثمانية حروف بناء فقط على أول خمسة حروف." وضحك وقال، "توقعت ذلك منك، يا فيلدمان. أما العسكري فرانكس، فمن المؤكد أنك من تكساس؟"

"نعم، يا رقيب. من ميدلاند. أنا فخور بتكساس."

"حسنًا، يجب أن تكون كذلك، أيها الشاب."

ولكن الجلوس في الفصل طوال الليل لم يكن يشعرني بأنه حياة عسكرية. لقد افتقدت تمارين النظام المنضم بالبندقية والمسير في تشكيلات. ولذلك فعندما سمعت أن مركز تدريب وكالة أمن الجيش ومدرسة حرس الشرف لديهم فرص لوظائف، تطوعت.

كان العريف سام لونغ هو ضابط الصف المسؤول عن الجهاز الذي كان يملك سمعة بوصفه وحدة من أفضل وحدات المراسم تنظيمًا في الساحل الشرقي. وقفت بجانب ميدان المدرسة للتدريب البدني يوميًا بعد العصر لمراقبة الرجال وهم يتدربون، وبذلك عرفت أنه كان يجب علي أن أبدو حاد الوعي عندما أقدم نفسي إلى سام لونغ.

قال: "أنت طويل"، وهو يخرج من خلف طاولته في مكتبه الصغير ليصافحني ويبطء بحث عيونه بحثاً كاملاً لللمعان البراق على حذائي العادي، وثنية الكي على بنطالي، والعقدة في ربطة عنقي. وكنت قد حلقت شعري ذلك الصباح، وحلقت ذقتي بعناية قبل أقل من ساعة من المقابلة. "ذلك جيد. فالجنود في حرس الشرف يجب أن يبرزوا في الاستعراض أو في تقديم العلم في الملعب. لقد قمت بالكثير من المسيرة؟"

"أنا فعلاً أحببت تمارين النظام المنضم في التدريب الأساسي، أيها العريف." كان سام لونغ يضع شريطين فقط على أكمام بزته العسكرية الخضراء المفصلة على

جسمه، ولكن أسلوبه الهادئ والواثق ولّد الاحترام، وهو مفتاح النجاح في عمل ضابط الصف. وبالنسبة إلى العسكر الصغار المتطوعين مثلي، كان ضابط الصف هو أهم شخص في سلسلة القيادة. فضايط الصف، سواء أكان عريضاً أم رقيقاً، كان هو الذي يحدد تفاصيل الأعمال، ويصدر تصاريح نهاية الأسبوع.

وقال: "حسناً، يا فرانكس، سنرى ماذا نستطيع أن نعمل معك."

كانت نعال أحذيتنا العسكرية تضرب بِتَوْدَةٍ على الخشب القاسي من حديقة بوسطن. لقد أمرنا العريف لونغ بأن نمشي "بخفة" في هذا الملعب القديم الذي يصدر أصداً مع المسير. كان المتحمسون لفريق بوسطن لكرة السلة الكلتيكس معروفون بوصفهم جماعة من المشاغبين ولكنهم كانوا وطنيين، فهم بالتأكيد غنوا النشيد الوطني بأسلوب قوي وبحماسة عندما قدمنا العلم. ولكن اللعب الآن في النصف من الوقت في لعبة مهمة في آخر الموسم، وكان الكلتيكس أقل بإحدى عشرة نقطة عن فريق نيويورك لكرة السلة الكلتيكس. لقد كنت آمل بالتأكيد، وأنا أقبض على الأخمص اللامع من بندقيتي ام-14، أن يكون المشجعون للكلتيكس الذين يبلغ عددهم 18000، من ذوي الياقات الزرقاء في المزاج المناسب لاستعراض بياننا العملي.

انقسمنا إلى صفين في كل واحد ستة ونفذنا العبور الدقيق لمسير العرض الخاص، وكل واحد منا يسقط بندقيته، ثم يقبض على سلاح نظيره وهو معلق في الهواء ويخطفه إلى الأعلى ليضعه في الوضع عالياً أحمل، وتبع ذلك تبادل قذف البندقية. ثم كررنا ذلك التمرين مرتين، في أثناء مسيرنا إلى الخلف ببط، ثم انفصل الصفان في النهاية بمسافة تساوى تقريباً نصف رقعة الملعب. ولإنهاء البيان العملي أدينا تنويعات خيالية للتحية التقليدية للملكة آن في مناورة التماوج من زيادة السرعة، صف للأعلى، وصف للأسفل، وبنادقنا اللامعة تغزل في أشعة الضوء المطلقة عليها. وانتهى البيان العملي والفريق راكع على ركبة واحدة، والرؤوس محنية.

وجن جنون الجمهور، فهتف، وصفق، وضرب الأرض بأقدامه.

وكنت فخوراً أن أكون جندياً.

كانت ثكنة حرس الشرف مكاناً للعرض، ونظيفة مثل مستشفى، وكل سطح فيها يتلألأ. وكان كل من العريف لونغ، وقوتتا العليا، وهو رقيب أول صلب كبير السن اسمه سكاغليوتي، يتأكدان من أن المبنى كان دائماً جاهزاً للتفتيش بالقفاز الأبيض.

وفي صباح يوم سبت مطير من ذلك الربيع، جاء إلى الثكنة ضابط برتبة ملازم قلما كنا نراه من قبل، وكان سام في هذه الأثناء يبين لي كيف أعيد تركيب بندقية من بنادق ام-16 الجديدة وأنا مربوط العينين.

وصاح الضابط الشاب، وهو يقذف حلقة مفاتيح إلى سام: "هيه، يا عريف، أرسل شخصاً ليقود سيارتي إلى مركز المدينة ويحضر مادة تلميع الأرض التي طلبناها".

انتهيت من السلاح وأزلت العصبة على عيوني. وسلمني سام المفاتيح. "عندي لك مهمة، يا فرانكس".

وعندما كنت أقود سيارة الملازم من نوع فورد راجعاً عبر البوابة الأمامية ومعى علبة كبيرة من مادة تلميع الأرض تجلس على كرسي الراكب، أدى الشرطي العسكري عند مركز الحرس الآجري الأحمر تحية منعشة.

ذهلت، ورددت التحية. ولم أدرك إلا بعد أن غيرت السرعة في فاصل المسننات صعوداً على التلة إلى الثكنة أن الشرطي العسكري قد رأى المصق الأزرق والأبيض الخاص بالضابط والذي كان موجوداً على الزجاج الأمامي وافترض أنني كنت الملازم.

استمتعت بالشعور بأن رقيباً قوياً من الشرطة العسكرية يؤدي لي التحية. وفي أثناء الشهور التسعة لي في الجيش كان اتصالي ضئيلاً جداً مع الضباط، ولكني

أدركت أنك عندما تحصل على النجوم مثبتة على كتفيك تكون مؤهلاً للاحترام.

وقلت في مرآة السيارة ولها: "ذلك هو ما أتحدث عنه، الاحترام."

تقدمت بطلبي إلى مدرسة الضباط المرشحين في الأسابيع الأخيرة من تدريب محلل الرموز. كانت هناك فرص لشواغر للمتقدمين المتطوعين الشباب المؤهلين في مدرسة الضباط المرشحين للمدفعية أو للمشاة. وحسبت أنني قد يتعين علي أن أمشي أقل في المدفعية.

وقال سام لونغ إن آخر عائق في العملية سيكون مقابلة مع الرقيب الأول سكاغليوتي. و"سكاغ" سبق له أن قاتل في ألمانيا وفي كوريا. وكان أعزب، وعاش وحيداً في حجرة المدربين في الطابق العلوي من الثكنة، وكان معروفاً عنه أنه يتناول مشروباً أو اثنين في نادي ضباط الصف بعد ساعات العمل الواجب.

كنت ألبس أفضل بزة مفصلة لي، ووصلت مبكراً خمس دقائق قبل الموعد المحدد لي وهو 0730 في ذلك الثلاثاء من شهر حزيران/ يونيو. وأبقاني واقفاً عند طاولته وهو يقرأ ببطء ملفي الشخصي الرقيق، وعلامات اختباري، ودرجات الصف.

وقال لي أخيراً وهو ينظر رافعاً عينه عن الأوراق: "لدي بعض الأسئلة يا عسكري."

وطوال الدقائق العشر التي تلت استجوبني سكاغ عن الخلفية العائلية، وعن تعليمي المدني، وعن رأيي في الجيش.

وسألني وهو يقفل الملف بحدة: "لماذا تريد أن تكون ضابطاً، يا فرانكس؟"

وكنت مستعداً لهذا السؤال: "أعتقد أنني أستطيع أن أتعلم أن أقود الجند، يا رقيب أول. ولذلك أريد أن أكتشف إن كنت من معدن الضباط."

وعبس سكاغ، واستدار بعيداً في كرسيه المتحرك، وهز رأسه بامتعاض. "حسناً، طيب، يا فرانكس. بالنسبة إلي أنا موافق إذا كنت تريد أن تذهب إلى مدرسة

الضباط المرشحين. " ثم استدار ليواجهني. "سأقول لك هذا القدر. إنك ترتكب غلطة كبيرة. لن تكون ضابطاً تساوي شيئاً. ولكنك إذا تابرت في ذلك، فإنك قد تصل إلى رقيب في يوم ما. " وقبل أن أستطيع أن أجيب، قتل كرسيه ثانية، وبذلك كنت أواجه ظهره.

"والآن اخرج من هنا."

وتمت من بين أسنان تكز: "شكراً لك، يا رقيب أول."

وكنت فعلاً أحس بالإساءة والغضب، وأنا أنزل بخطوات واسعة على درج الثكنة. من يظن نفسه ذلك الرجل المسن الحقيق؟ فعلى الرغم من كل شيء، درست سنتين في الكلية. وكنت من بين أفضل الطلاب في صفي في الترميز. والشباب في هذه الوحدة معجبون بي. ومن أين له أن يتجرأ ليقول إنني يجب أن أحدد طموحي بأن أصير رقيباً؟

وبقيت غاضباً طوال أسابيع. كبرياء الشاب في أعماقي أصيب بأذى نفسي. بعد ذلك، وأنا أقود سيارتي إلى البيت في أوستن في إجازة قبل أن أقدم نفسي إلى مدرسة الضباط المرشحين في فورت سيل في أوكلاهوما، أدركت أن الرقيب الأول سكاغليوتي قد بذل لي مجاملة عظيمة. لقد كان دائماً مشجعاً لي، وعندما رأيته أساعد العسكري الجديد في الثكنة على ترتيب سلاحه أو ملابسه قال: "أنت فعال، يا فرانكس، ولست قوالاً فقط." في ذهنه، كان الرقباء يعملون بالمشاركة الفعالة مع الجند، وظن أنني سأكون جيداً في ذلك.

ووعدت نفسي أن أتذكر ذلك إذا حدث وحصلت على التعيين ضابطاً.

أوقفت سيارتي في المنطقة الإسفلتية الحارة وسحبت كيس متاعي تحت القوس الفولاذية التي تعلوها لافتة تقرأ، "ثكنة روبنسون، مدرسة الضباط المرشحين للمدفعية في جيش الولايات المتحدة." كان يوم السبت، 20 آب/أغسطس 1966، وهو عام بالضبط مر بعد أن تطوعت في العسكرية. وكنت قد تصورت أن الوصول في

نهاية الأسبوع يعطيني بعض الوقت الهادئ لأستقر في المكان قبل أن يبدأ واجب الأسبوع. تصور سيئ.

لم يكن هناك شيء هادئ بشأن فورت سيل، في أوكلاهوما. كانت تمتد عبر سفوح التلال من جبال ويتشيتا، وكان الموقع يدق ويدوي بقصف مدافع الهاوتزر والقذائف المتفجرة على مدار الساعة، سبعة أيام في الأسبوع.

وأسبوع العمل الواجب للمرشحين الضباط الجدد للمدفعية لا يتضمن يوم عطلة.

"الجندي الأول فرانكس يقدم نفسه للالتحاق كما أمر، سيدي" أعلنت ذلك وأنا أحيي الملازم الأول خلف الطاولة وأسلمه أوراقه. كنت فخوراً بالشريط الوحيد على كُمِّي قميصي الكاكي. على الأقل لم يكن عليّ أن أقول "الجندي فرانكس" بعد الآن. وحذائي اللامع البراق كان كالمرآة، وبزتي منشأة بشكل ثابت جميل.

لم يكد الملازم يلقي نظرة على أوراق الأوامر الخاصة بي حتى قال بلهجة مستخفة "مرشح فرانكس، لم تبق بعد اليوم الجندي الأول. أنت في شكل حياة أخرى تماماً، مرشح. وواجبي أن أخبرك أن المرشحين من طبقة أخفض هم في الحقيقة شكل حياة منخفضة جداً في هذه المنظمة. هل تفهمني، يا مرشح فرانكس؟"

"نعم، سيدي."

"جيد. لأنك الآن ستبين عملياً ذلك الفهم. سوف ترفع كيس متاعك على ظهرك، وتسير خارجاً إلى مسيل تصريف الدفق المفاجئ للماء ذلك، وتتفد في اتجاه اليسار، وتزحف منخفضاً إلى مهجعك. المبني 3306."

"نعم سيدي." مذاقي الأول من مدرسة الضباط المرشحين.

همهمت عبر الحرارة نزولاً إلى مسيل التصريف المنخفض وأنا أحمل على ظهري كيس متاعي الذي يزن سبعين رطلاً، وكنت أشعر أنني ممتن للرقيب كيتل

الذي أخذ الوقت اللازم ليُعلم فصيلته كيف تزحف زحفاً منخفضاً بدون أن تتلف مرافقها. وكانت الحيلة هي أن تسند وزنك على رؤوس أصابع قدميك وعلى العضلات المشدودة لساعديك، متلوياً مثل اليُسروع الصوفي. فالعملية لم تكن في الحقيقة مؤلمة، ولكنها بالتأكيد اخترقت الاعتزاز بالذات لشاب من حرس الشرف. وذلك، طبعاً، كان القصد من التمرين.

الأسابيع الأولى من الأشهر الستة في دورة المدفعية في مدرسة الضباط المرشحين مزجت كل الصعوبات البدنية في التدريب الأساسي: التدريب البدني في الساعة 0545، جري خمسة أميال، تمارين ضغط "تصحيحية" والحفلات الشخصية كل يوم، وتحديات في الفصل الدراسي تجعل مدرسة الترميز تبدو مثل المرحلة الدراسية الأولى.

كان هناك 120 مرشحاً في صفي مقسمون إلى ست زمر. وعشنا في مهاجع خشبية قديمة من الحرب العالمية الثانية، بدون تكييف هواء، وبدون مراوح. وعلى الأقل كان هناك مقاعد للمراحيض. وجرينا كل صباح، ونظفنا المهاجع، ووقفنا للتفتيش، وذهبنا بالخطوة السريعة إلى الفصول، واندفعنا عبر خط الطعام، وازدردنا طعامنا، ودرسنا ستة أيام في الأسبوع. وبعد تفتيش السبت الذي كان يقوم به دائماً نقيب أو رائد يمحطنا بوابل من الأسئلة، كنا نقضي بقية نهاية الأسبوع في الدراسة.

والعلم القديم الذي تعلمناه عن المدفعية اشتمل على عدد من العناصر المعقدة: كل مدفع في سجل جرد مدفعية الميدان وعلم القذائف الفردي الخاص به، وأنواع المقذوفات، والصمامات، إضافة إلى خصائص الأرض، والطبغرافية، ومسح ميدان المعركة، وحشوات الانفجار، وعلم المعادن، وتمرنا كذلك على نظام الاتصالات الصارم الذي يخص "مهام الرمي"، وهو الذي يتضمن الأمر بقذائف المدفعية لتضرب العدو في الوقت الذي تتجنب فيه القوات الصديقة والمدنيين.

في عصر اليوم الثالث من ذلك الأسبوع الأول الحار المربك، ذهبت بمفرزتي بالخطوة السريعة إلى ميدان الرمي لمراقبة سرية (بطارية) مدفعية هاوتزر عيار 105 ملم في كتيبة تدريب. وفي أثناء الهرولة على الطريق، شعرنا بالرصيف يهتز قبل أن نسمع بالفعل هدير المدافع الضاربة.

وقفت المدافع الستة في بطارية هاوتزر ام-101 "الأنابيب" في حفر رمي منخفضة، دائرية محاطة بأكياس الرمي، السبطانات الثقيلة للمدافع محمولة على هيكل مدولب، و"مساند" للمدفع من عوارض فولاذية بشكل 7 ممدودة لتخميد الارتداد القوي. وحشونا سدادات الآذان وراقبنا، ونحن معجبون، وسدنة المدفع السبعة يتابعون الأوامر الدقيقة التي يقوم الملازم الأمر بإلقائها عليهم من خلال الهاتف الميداني من مركز توجيه النيران الموجود في خيمة خضراء باهتة محاطة بهوائيات الإرسال اللاسلكي.

وصاح: "بطارية اضبط." وقف السدنة جاهزين لمهمة رمي.

"قنبلة شديدة الانفجار." سيكون المقذوف المختار شديد الانفجار.

"فرزة أشعة اكس يانكي." وهذا كان النوع الدقيق من القنبلة شديدة الانفجار التي يجب أن تطلق.

"حشوة خمسة." خمس حشوات بارود في الظرف النحاسي الأسطواناني.

"صمامة سريعة." القنبلة سوف تجهز بصمامة لتنفجر عند الإصابة.

"المركز طلقة واحدة." قام رماة المدفعين الأوسطين بفتح كتل المغلاق اللامعة والمرتبطة بمفصلات، وحشا المالتون بالمدك القنابل المحددة، والمجهزة بالحشوات بشكل صحيح والمزودة بالصمامة لتستقر في مكانها في المدفع.

وضاع أمر "أرم" في عصف فرقة انطلقت وسدنة المدفع يسحبون حبلتهم لفتح النار.

وانبعثت من فوهة السبطانات دفقات من اللهب، ساطعة حتى في ضوء شمس

الصيف. وانحرفت الرائحة اللاذعة النفاذة من بارود الكوردايت إلى المدرج المكشوف الذي كنا نجلس عليه.

وانتظرنا، وآذنا ترن، لمدة دقيقة تقريباً بينما انطلقت المقذوفات الفولاذية من زنة 35 رطلاً عبر مساراتها المنحنية حتى اصطدمت بدون أن نراها في ميدان الرمي الغربي، على بعد 11.000 متر.

وأعلن مدربنا منادياً: "أيها المرشحون، هذه مدفعية الميدان، ملك المعركة."
إنها أدوات مهنتي الجديدة.

جلست على مقعد من كتان ثلاثي الأرجل بدون مسند ظهر، لوحة الخريطة في حضني، ومنظار الميدان يتدلى ثقيلًا من عنقي. بينما اصطف من حولي بقية المرشحين في زمرتي على الحافة المفروشة بالحصباء من مركز الرصد الذي تهب عليه نسيمات من الهواء. كان التاريخ 4 تشرين الثاني / نوفمبر، وهو صباح أول مهمة لنا في الرمي الحي. كنا على التلة، وهي سلسلة صخرية من أشجار العرار والبلوط القصيرة الكثيفة كانت تشرف على واد متدرج وعلى الأرض العالية إلى الغرب. وكنا كلنا منفعلين، ومعظمنا كان عصبياً. وعلى بعد خمسة أميال خلفنا كانت تنتظر بطارية هاوتزر عيار 105 ملم لتتلقى الأوامر التي نبعثها بالإرسال اللاسلكي إلى مركز توجيه النيران.

في هذا اليوم سوف يعمل كل واحد منا بصفته راصداً أمامياً، وهو عمل من أكثر الواجبات حيوية وإلحاحاً من أعمال مدفعية الميدان. لقد أمضينا أسابيع في الفصول نتعلم النظرية التي تركز عليها نيران المدفعية الدقيقة والفعالة. فهمنا الأجزاء المتحركة من المدافع، ودور كل عضو من أعضاء السدنة، وطاقة الحشوات الدافعة، والسرعة الابتدائية ووزن المقذوفات... وفهمنا كل المئات من الحقائق الأخرى المعقدة المتصلة برمي المدافع الكبيرة في القتال.

وفوق كل ذلك، تعلمنا الرمي الدقيق الذي اعتمد على البيانات الأساسية

الحاسمة. إذا عرفنا الموقع الدقيق للبطارية، ووضعنا هذا الموقع بدقة على لوحات رمينا، وإذا وضعنا بدقة نقطة على الخريطة تحدد موقع الهدف، فعندئذ ستوجه بطارية الرمي القنبلة بدقة. وستكون المسؤولية علينا بصفتنا راصدين أماميين أن نحدد إحداثيات الهدف تلك بكل دقة.

وكانت منطقة إصابة الهدف تمتد عبر الوادي تحتنا. وهناك هياكل سيارات مدهونة بالأبيض والأصفر والأحمر ملقاة على الأرض في مواقع عشوائية. وكان هناك برج قصير من حجارة كلسيه ملطخة بخطوط بالأزرق والأبيض على بعد حوالي 1200 متر إلى اليسار وكان هو المعلم الأرضي الواضح الوحيد. ولكننا درسنا هذه الأرض طوال أيام، وكانت الدراسة من خلال مناظير إحكام رمي المدفعية المعاييرة وعلى الخرائط المقسمة إلى تربيعات 100.000 متر مربع. واستذكر كل واحد منا عن ظهر قلب الارتفاع فوق مستوى البحر والإحداثيات الدقيقة لكل قمة تل ومرتفع يمكن رؤيته من مركز الرصد هذا.

لقد توقفنا عن النظر إلى المنظر الطبيعي كما ينظر إليه المدنيون. نحن الآن نرى العالم من حولنا بالبديهة من حيث هو إحداثيات من ستة أرقام على خرائط عسكرية أو على لوحات رمي. إن منظورنا البصري يقوم تلقائياً بقياس المسافات من اليسار (غرباً) ولليمين (شرقاً) ومن الأسفل (جنوباً) وإلى الأعلى (شمالاً). الناس العاديون رأوا صفوفاً من المهاجع، أو السوق العسكري، أو الملعب الصغير للبيسبول. أما نحن فنرى إحداثيات الهدف.

لقد أدركت أن إعادة الضبط العقلي هذه كانت ضرورة وقيمة بوصفها تكييفاً لنا مع الموقف الذي نحن فيه. فإذا تم كل شيء على ما يرام، فسوف نتخرج برتبة ملازم ثان في مدفعية الميدان في شهر شباط/ فبراير 1967. وبعد شهور قليلة لاحقة سيكون كل واحد منا عاملاً في الخدمة راصداً أمامياً في فيتنام، وهو يطلب مهام رمي حقيقية على أهداف معادية حقيقية. ذلك كان واقعنا. وكافحنا طوال كل يوم تدريبي، ونحن دائماً ينقصنا النوم، ونركض من فصل إلى فصل، نزدرد طعامنا

في قاعة المطعم، بدون وقت لدينا للتفكير في أي شيء غير الاختبار التالي في علم المدفعية أو تفتيش الثكنة. وكان هناك دائماً صوت المدافع.

وعندما كان عندي لحظة لأفكر في المستقبل، كنت أرى نفسي في فيتنام، في قاعدة مغبرة للإسناد الناري أو خارجاً مع الجند في حقل من حقول شتلات الرز في الظلام. لقد ركضت، ونمت، وأكلت، ودرست في تلال أو كلاهوما. ولكن جزءاً مني كان قد صار من قبل في فيتنام.

كان مدربنا هو الملازم الأول راوسون، وهو شاب مضطرب في الطول والنحافة، وكان ما يزال يحتفظ بلون الجلد الأسمر الغامق الذي اكتسبه من خدمته عاماً راصداً أمامياً في المرتفعات الوسطى في فيتنام. لقد علّم وطلب في بيانين عمليين مهام رمي في ذلك الصباح، وكان يعمل بصبر من خلال الإجراءات ليتأكد من أننا جميعاً نفهم. لقد أرادنا أن نعتاد شخيراً هائلاً يتمزق عبر السماء عندما تمر فوق الرؤوس قبلة حية من عيار 105 ملم لتنفجر مع عصف الألعاب النارية ليوم الاستقلال في الرابع من تموز/ يوليو على هدف يبعد 1000 متر في عمق الوادي.

قال: "حسناً." وهو يخطو خطوات واسعة على طول صفنا من الكراسي، وقد أمسك بيده اليمنى منظار إحكام الرمي المعطوب الخاص به. وأمسك بوصلة في يده اليسرى.

"مرشح فرانكس، مهمة الرمي التالية لك."

أحسست بوهج من التأثر. بدء العرض. "نعم سيدي."

وقف الملازم أول راوسون إلى جانبي مؤشراً إلى الوادي تحتنا.

"يا مرشح، من البرج الأزرق القديم..." ورفع منظاره، وفعلت أنا الشيء نفسه.

"نزولاً من خط الأفق ست ملات..."

مناظيرنا فيها مقاييس معايرة محفورة في فريزات صغيرة معلمة بوحدات

"الملات" وهو المقياس الذي يستخدمه رجال المدفعية لتعليم الإحداثيات. البوصلات

المدنية مقسمة إلى 360 درجة. أما بوصلاتنا فمقسمة إلى 6400 ملأ، وهي توفر دقة أكبر بكثير.

وكررت: "ست ملات نزولاً من خط الأفق، سيدي."

وقال: "اليمن خمسة- اثنان ملأ، هناك جسم سيارة صفراء كبيرة."

وكررت وصف هدفه، متذكراً أن "خمس- اثنان" كانت هي طريقة رجال المدفعية في القول خمسة وعشرين.

وتابع: "مزيد من التحديد، بكونه على بعد ملين إلى يسار الصخرة البيضاء المستطيلة. جند العدو في العراء."
مرة أخرى أعدت تحديده.

"هل تتعرف بالهدف، يا مرشح فرانكس؟"

كان زملائي في الفصل ينصتون ويشاهدون باهتمام. ضبطت دولاب التركيز لمنظاري، درست جانب التلة البعيدة وهو يلمع لمعاناً خفيفاً مقابل مقياس المل المفرز. ورأيت الهدف.

"سيدي، المرشح فرانكس. الهدف معروف."

"لا بأس، يا مرشح. علم إحداثيات هدفك واكتب أمر مهمتك للرمي."

جلست على كرسي وخطفت اللوحة التي عليها خريطة، والمقسمة إلى تربيعات معلمة بأرقام وبحروف. وباستخدام مربع إحداثيات بلاستيكي شفاف، حددت موقع الهدف وغرزت دبوساً أحمر بطبعة، أي، "حرية"، في خريطة. ثم عاودت مرة أخرى تدقيق حسابي وبغناية قمت بطبع الأمر على الكراسة الخاصة للكتابة.

كان الملازم راوسون يدرس عملي بصمت، ويتأكد من أنني لا أرتكب أخطاء جسيمة كارثية. فقنابل الهاوتزر التي أنا على وشك إصدار الأمر بإطلاقها سوف تمر فوق الرؤوس، وكانت المسؤولية تقع على الملازم ليتأكد من أنني لم أطلق طلقة يمكن أن تضرب مركز رصدنا.

وأعطاني التلفون اليدوي للإرسال اللاسلكي: "مرشح فرانكس، أرسل مهمتك للرمي".

وقلت: رد ليغ (ساق أحمر) واحد -ثمانية، "وأنا أتأكد من أنني فتحت زر الميكرفون. "هذا رد ليغ اثنان - أربعة. مهمة رمي، حوّل".

"أرسل مهمتك للرمي، اثنان - أربعة، حوّل". وكان الصوت من مركز توجيه النيران رزيناً.

وفتحت الميكرفون ثانية. "اكس تي 182 478". كان هذا هو مربع التريبعة وإحداثيات الهدف بستة أرقام التي علمتها. "جند العدو في العراء".

مركز توجيه النيران أكد إحداثياتي وأكد طبيعة الهدف. وسوف تطلق البطارية طلقة ضبط واحدة، مستخدمة قنبلة شديدة الانفجار مع صمامة انفجار في رأس القذيفة.

وقلت وأنا أقرأ من كراستي: "سوف أضبط الرمي".

وقال مركز توجيه الرمي: "أرم، حوّل".

وجف فمي، وكان علي أن أبلع قبل أن أؤكد أن طلقتي المدفعية الحية الأولى كانت في طريقها. وكررت: "أطلقت. خارج".

"تتأثر"، واتصل الآن مركز توجيه النيران. سوف تنفجر الطلقة في غضون خمس ثوان.

وأوقفت نفسي عن الانقباض للأسفل تحت خوذتي الفولاذية عندما يتمزق المقذوف القادم من دون أن يكون مرئياً فوق مركز الرصد. ووضعت السيارة الهدف في مركز منظاري بشكل متعادل مرض. وانفجرت القنبلة مع وميض وغيمة من الدخان الرمادي على بعد 200 متر شمالاً و100 متر غرباً من الهدف، ممطرة الأرض بوابل من الشظايا الحارة من القنبلة المنثار.

وشعرت أن الملازم راوسون متزناً خلفي. ناديت: "يمين 100. انقص 400".

وانفجرت القنبلة التالية جنوب الهدف.

وأمرت مركز توجيه النيران: "أضف 0200"

"ارم..."

"تتأثر..."

هذه الطلقة أصابت الهدف، واستطعت في الواقع أن أرى هيكل السيارة ينشق وشظايا القنابل المنثار تضرب في المعدن.

وأمرت: "صمامة زمنية. ارم للتأثير."

وراقبت برضا والقنابل تنفجر حول الهدف مثل الألعاب النارية الجامحة في الختام. ولو كان هيكل السيارة تلك تشكيلاً معادياً لكان في "عالم من الأذى،" كما عبر عنها، الملازم راوسون.

واجتزت أول اختبار لي في الرمي الحي، وأحسست إحساساً جيداً نحو ذلك. وأعتقد أن كل الزمرة أحست بذلك.

ولكن الملازم راوسون كان بخيلاً بالثناء. فقد قال: "مرضي، يا مرشح." ثم التفت إلى الزمرة. "تلك كانت أبسط مهمة رمي ممكنة. لديكم الكثير من المعالم، وفي النهار، والرؤية ممتازة، والطقس رائع. والمرشح فرانكس هنا أخذ وقته على مهله." وجلست قلقاً على كرسي.

واستمر الملازم راوسون: "تخيّلوا ظروفاً مختلفة، في الليل. أمطار المونسون غزيرة إلى درجة لا تستطيعون معها أن تروا 100 متر. وغابة فوقها ثلاث ظلل. وأنتم مع فصيلة مشاة وقعت قبل قليل في كمين. العدو قريب من ثلاثة جوانب. الآن حاولوا أن تعلّموا إحداثيات هدفكم وأن تأمروا بمهمة رمي دقيقة."

وتركنا ندرس تلك الصورة المتجهمة القاسية لدقيقة. ثم نادى المرشح التالي.

تخرجت ملازماً ثانياً في مدفعية الميدان في 14 شباط/ فبراير 1967، في يوم

الحب (فالينتينو). أبي لبس بدلة، وأمي لبست قبعة جديدة وقفازات بيضاء. كانا فخورين وأنا كنت كذلك.

وبطريقة ما، فأنا لم أنجح فقط من خلال مدرسة الضباط المرشحين وليس علي إلا نقطة سلبية واحدة في سجلي، وهي فشل واحد في تفتيش الأسلحة، بل لقد كانت علاماتي الأكاديمية وفي المهارات الامتھانية في أعلى 10 بالمائة.

وذلك ما جعلني "خريجاً عسكرياً متميزاً" مؤهلاً للتعين النظامي في الجيش، وهو الطريق إلى التقدم في السلك الوظيفي المستقبلي. وقررت ضد تقديم التزام بأن أصير عسكرياً محترفاً لمدى الحياة، وأنا شاب في العشرين. سيكون علي أن أذهب إلى فيتنام لمدة عام، ذلك كان مؤكداً. وعندما أعود إلى الوطن- عندما وليس إذا- سيكون قد بقى لي ثمانية عشر شهراً فقط لأخدمها. وخططت أن أعود إلى الكلية، لأحصل على درجة علمية، وأكسب لي عملاً جيداً. وأبعد من ذلك، ربما أجد فتاة جميلة وأتزوج.

وفي هذه الأثناء كان علي أن أتعلم ما يعني أن تكون ضابطاً. وذلك استغرق بعضاً من التعلم.

عينت مؤقتاً ضابطاً تنفيذياً مساعداً لبطارية هاوتزر عيار 105 ملم في فورت سيل، وفيها سأخدم إلى أن يتم إرسالني إلى فيتنام. لقد تعلمت الكثير عن كيفية الرمي بالمدافع وضبط النيران. ولكنني لم أعرف الكثير عن قيادة الجند. وطوال عام بصفتي رجلاً متطوعاً، اعتدت على إطاعة الأوامر البسيطة الدقيقة. وبصفتي مرشحاً ضابطاً، فإن الأوامر التي تلقيتها كانت في الغالب تُلقى صراخاً وكانت مدعومة بالانضباط التصحيحي، بتمارين الضغط أو حتى بالمشي القسري صعوداً ونزولاً إلى التل ام بي 4-، مع حمل المتاع الميداني الكامل. ذلك كان الإطار المرجعي لقيادتي.

كان أحد واجباتي بصفتي ضابطاً تنفيذياً مساعداً أن أخدم بدور ضابط المطعم. وكانت أول مسؤولية تلقى علي وأنا ملازم هي مسؤولية قاعة مطعمنا. ومع

ذكرياتي عن الطباخين المستبدين في صف الطعام في فورت ليونارد وود، بدأت بفأل لا يبشر بخير مع الجنود الشباب في بطارية ألفا. كانت التعليمات تنص على أن أرضية المطبخ الإسمنتية ومشمع أرضية منطقة الطعام يجب أن تمسح بممسحة قماشية وتمسح بممسحة مطاطية وتجفف في وقت لا يتجاوز أربعين دقيقة بعد نهاية كل وجبة. وكنت أصاب بنوبات غضب كبيرة عندما لا يتم إنجاز ذلك.

ولكن رقيب المطعم، وهو رجل أسود هادئ اسمه إيفانز، له طريقه الخاصة. فقد شرح لي بصبر أن هناك الكثير من أعمال إعداد الطعام لوجبة الغداء مباشرة بعد الفطور. ولذلك كان تنظيف الأرض بوقت مبكراً جداً هدرًا للوقت. ولم أكن مهتماً بالأعذار. ولكنني لم أكن أحدث أي تقدم بالصراخ بالأوامر وبتكديس المزيد من الواجبات على الطهارة والمساعدين المكلفين أصلاً بأعمال مرهقة. لقد كانوا يعرفون عن أداء واجباتهم أكثر مما كنت أعرف.

كان قائد بطاريتي نقيباً متمرساً اسمه إد فيرنون، وقد أسدى إلى نصيحة جيدة. قال لي: "يا توم، إن الجند سيعملون معك بشكل أفضل كثيراً إذا كنت أنت ستعمل معهم بشكل أفضل قليلاً."

ابتلعت بعضاً من ذاتي. وفي الصباح التالي طلبت إلى الرقيب من الدرجة الأولى إيفانز أن يتبع "ترتيبه المعتاد" تماماً بينما أنا كنت أراقب. من الطبيعي أنه استغل وقته ووقت رجاله أفضل استغلال. وكل أرضيات قاعة الطعام كانت تمسح وتجفف قبل عشر دقائق وزيادة من فتح الأبواب للغداء.

وسألت: "كيف تعتقد أننا نستطيع أن نحسن الأمور حولنا هنا، يا رقيب؟"

وقال: "حسناً يا سيدي. بعض الشباب يحبون سماع الموسيقى عندما يتناولون الطعام. وبالنسبة إليهم فإن إحضارهم لأجهزة الراديو الخاصة بهم هو أمر ضد التعليمات."

كان ذلك أمراً سهلاً. جهزت جهاز راديو إضافياً من إحدى غرف الترفيه في الثكنة مع سماعات. ولدينا الآن موسيقى مع كل وجبة. ولكن الحل لم يكن بالبساطة

التي ظننتها. فالشباب السود أحبوا موسيقى الروح الشعبية وأبناء الريف أحبوا موسيقى ناشفيل الريفية، وأبناء المدن أحبوا الروك أند رول. ولذلك رتبت دوران الموسيقى بشكل أعطى كل واحد وصلة موسيقى من موسيقاه المفضلة مرة في اليوم. كانت هذه الفترة وكأنها فوق الواقع، ومثل العيش تقريباً في حجرة مسدودة الهواء. وواحداً بعد الآخر تسلم زملاء صفي في مدرسة الضباط المرشحين أوامرهم إلى فييتام وذهبوا. وكنت أعرف أنها مسألة أسابيع أو شهور قبل أن أتبعهم. ولذلك اغتيمت كل فرصة استطعت فيها أن أخرج البطارية وأشحن مهاراتي بصفتي راصداً أمامياً وضابطاً لتوجيه النيران.

كنت أشارك في الإيجار في بيت صغير في مركز المدينة لوتون، على بعد ميل من البوابة الرئيسية، مع زميلي في الفصل في مدرسة الضباط المرشحين الملازم غلين ستيوارت. لقد نشأ في وولترز القريبة، في أوكلاهوما، وكان يعرف المنطقة معرفة جيدة. كان ذلك الأمر جيداً بالنسبة إلي. أما أنا فكنت قد استثمرت الكثير من شيك راتبي في تسديد الكثير منه في دفعات شهرية لأولدز 442 صفراء جديدة، وهي واحدة من أسرع السيارات التي أخرجتها ديترويت. وفي معظم الليالي كنا نجول على البارات وعلى سينما السيارات نستكشف ونبحث عن فتيات. وكنا أحياناً محظوظين، وفي بعض الأحيان لا نوفق. وكان يوجد توتر في الجو. فالحرب تزداد سخونة في كل يوم. والشعر أطول، والموسيقى أعلى. كنت أريد أن أعتصر من الحياة أكثر ما أستطيع قبل أن أتوجه إلى جنوب شرق آسيا.

في ليلة يوم من أيام الجمعة من شهر آذار/ مارس تجولنا، غلين وأنا، في بارات مركز المدينة بدون أي نجاح ثم توجهنا إلى البيت في ساعة معقولة. كان علينا تفتيش كتيبة في الصباح، وكان يجب علي أن أكون في قاعة المطعم قبل الفجر. وقال غلين وهو يقف عند البيت: "هيه، سيارة من تلك التي في ممر السيارات؟"

كان هناك سيارة بنية ستيشن في مقدمة مرآبنا الصغير. وكانت هناك أضواء في غرفة الجلوس في بيتنا.

وعلى أريكتنا القديمة المغطاة بنسيج المربعات جلست فتاتان جميلتان فعلاً. تشربان الشراب الكحولي البوربون والكوكا، وتشاهدان فيلم المنتقمون على تلفازنا. وقال غلين: "سوزي. ماذا تفعلان هنا؟" وكان غلين قد عرف سوزي بأسل منذ المدرسة الثانوية.

وابتسمت: "جئنا نبحث عن مشروب، وكان الباب مفتوحاً، فعزمنا أنفسنا."

كانت الفتاة الأخرى طويلة ونحيفة، وشعرها بني مقصوص قصة جميلة، وعليها كنزة جميلة، ولها عينان باردتان، كانت جميلة. كنا نبحث عن النساء طوال الليل. وكن هنا في غرفة الجلوس في بيتنا بانتظارنا. ولكوني شاباً مسيحياً نشأت نشأة حسنة، فقد رفعت بصري إلى السماء. شكراً لك، أيها المسيح.

كان اسمها كاثرين كارلي. وكانت هي وسوزي زميلتين في الفصل في كلية كامبيرون الإعدادية. ولاحظت فوراً أن كاثرين كانت تضع دبوس الأخوة على كنزتها. وذلك تحد، حسب ما فكرت.

وقلت بعد المصافحة: "حسناً، أرى أنكما قد شربتما شيئاً قبل مجيئنا، ولذلك فسيكون علينا حسب ظني أن نلتحق بكما."

وقالت كاثرين وهي تبتسم مشاغبة: "حظ سعيد. لقد كان علينا أن نحضر عبر ذلك المجلى المليء بالصحن المتسخة لنجد كوبين لغسلهما."

وسألتها: "أعتقد أنكما تستطيعان أن تجدا كوبين آخرين؟"

والتحقت بي في المطبخ الضيق. "أنتم الشباب لن تريحوا بالتأكيد ختم الموافقة على التدبير المنزلي الجيد."

كانت في الثامنة عشرة من عمرها فقط، وتبين أنها "تقريباً في التاسعة عشرة." ولكنها كانت تتحلى بنضج هادئ في شخصيتها، مع روح سريعة من الدعابة.

ونجحت في الحصول على رقم هاتفها قبل أن تغادرا. ولكن كاثيري حذرتني: "والدي هو الدكتور أوتو كارلي، طبيب أسنان. وهو صارم، ولا يسمح لي بالمواعيد مع الجنود."

وقلت بوجه جاد لا تعابير فيه: "أنا ملازم."

و سمح لي الدكتور كارلي أن أصطحب كاثيري لنخرج إلى شرب كوكا في سينما وينز، وهي سينما سيارات في يوم الجمعة التالي. ولكن كان هناك قواعد للعبة. كان يجب عليها أن تكون في البيت مع الساعة التاسعة مساءً. ودام موعدنا الأول خمسة وأربعين دقيقة بالضبط. ولكنه سمح لي أن أصطحبها ثانية في الأسبوع التالي.

تحدثنا طويلاً في الهاتف. وبسرعة معقولة صار والد كاثيري وأمها غينيل، يناديانني "توم" ويدعونني إلى العشاء. والقصة التي اتفقت عليها أنا وكاثيري هي أن الشاب توم فرانكس "ترك" جامعة تكساس في أوستن ليصير ضابطاً في الجيش. وفي هذه المرحلة لم نرغب بالاعتراف بأنني طردت من الجامعة والتحق بالجيش جندياً.

بعد أول ليلة جمعة في شهر آذار/ مارس تلك، توقفت عن التجول في البارات. وأعادت كاثيري دبوس الأخوة. ودفعت فكرة فيتنام إلى أبعد ما كنت أستطيع. ومضى الربيع، وكنت أرى كاثيري في كل ليلة تقريباً. ثم جاء الصيف. وذهبنا إلى التزلج على الماء، وسبحنا، وقضينا كل لحظة فراغ معاً. وعرفت الآن ما الذي يعنيه أن تقع في الحب.

في شهر آب/ أغسطس، حضرت دورة في حرب الغابات في بناما. وعندما رجعت في أواخر أيلول/ سبتمبر كنت أخف وزناً بعشرين رطلاً، وعلي ندوب مستديرة زهرية من العلق تغلو رسغي وكاحلي، مع وجود الفطريات بين أصابع أقدامي. وكان أول شيء فعلته هو أنني ذهبت إلى اتحاد الائتمان واقتترضت خمسمائة دولار لأشتري خاتم خطوبة ماسي لكاثيري، التي كانت الآن في السنة

الثانية في جامعة ولاية أوكلاهوما في ستلووتر. وقدت سيارتي الأولدز شمالاً بسرعة مائة ميل في الساعة تقريباً ووصلت الحرم الجامعي قبل موعد الغداء بالضبط في يوم خميس. وكانت كاثي في طريقها إلى الفصل. ولكنني أقنعتها أن تتركب وتذهب معي في السيارة بدل الذهاب إلى الدرس. ومع مجيء الوقت الذي أنزلتها فيه عائدة عند بيت جمعية الطالبات لتغير ملابسها للعشاء، كانت تلبس تلك الماسة التي اشتريتها لها.

كانت الأوامر الصادرة لي بسيطة: "قدم نفسك إلى فرقة المشاة التاسعة، جمهورية فيتنام." في موعد لا يتجاوز 20 تشرين الأول / أكتوبر 1967. لم أكن أعرف الكثير عن فرقة المشاة التاسعة. ولم أكن أعرف في الحقيقة الكثير عن جمهورية فيتنام، لم أكن أعرف أكثر مما سمعته في جلسات الحوار في الثكنة وما شاهدته في أخبار التلفاز. ولكنني بالتأكيد كنت أعرف أنني ألتحق بوحدة مقاتلة بصفتي راصداً أمامياً.

وخولني الجيش أن أطيّر من عنوان إجازتي في أوستن، في تكساس، إلى أوكلاند في كاليفورنيا، وأقدم نفسي لرحلة طيران مستأجرة إلى فيتنام في قاعدة ترافيس للقوات الجوية.

وقدت سيارتي مع كاثي لتقابل أهلي، ثم رجعنا إلى ستلووتر. وكلانا بكى ونحن نقول الوداع. ولكننا ضحكنا أيضاً في نهاية الأسبوع تلك أيضاً. وعند العودة إلى أوستن، أدركت أنني كنت تكسانياً لم ير شيئاً تقريباً من الغرب الأمريكي. وقررت أن أستفيد من تذكرتي للطائرة إلى أوكلاند فأقبضها نقداً وأخذ جولة سريعة في حافلات الركاب (خطوط شركة غريهاوند) عبر نيومكسيكو، وأريزونا، ونيفادا، ثم عبر سيرا العليا من رينو.

ومضى الأسبوع الأخير في أوستن سريعاً، وقامت أُمي بتتشية وكي كل بزاتي العسكرية الكاكي. وقامت حتى بكي ملابسها الداخلية. وأمضيت بضعة ليال في

بيت دلتا أبسيلون أو في الشرب في حديقة شولتز للبيرة مع أصدقائي. نكتنا كثيراً واستمتعنا ببيرتنا. ولكن الحزن كان سارياً في الأعماق.

استأذن أبي من عمله صباح يوم الثلاثاء ذلك لكي يستطيع هو وأمي أن يقودا السيارة ويوصلاني إلى محطة حافلات الركاب غريهاوند.

لم يكن هناك الكثير لنقوله ونحن ننتظر الحافلة. كنا نحن الثلاثة نخفق. وأخيراً طقطق مكبر الصوت، معلنا تحرك حافلة الانتقال إلى مدينة فيونكس. وفي الخارج على المعبر قبلت أمي وعانقت أبي.

وسألته: "هل عندك أي نصيحة؟"

كان يحاول أن يبتسم، ولكن الدموع كانت تسيل على وجهه الذي علتة خطوط عميقة. وقال أخيراً: "حسناً، امدد لهم يد العون، يا بني."

ترعرع أبي بين الفلاحين وبين العاملين الأشداء في حقول الزيت، وعمل بجد طوال حياته في حقول القطن، وعلى تجهيزات الحفر، وعمل فعلاً في كل نوع من مرآب السيارات كان هناك. وفي عالمه، كانت "اليد" الجيدة هي الرجل الذي كان يكسب راتبه، والرجل الذي يحصل على حصته، والرجل الذي يقوم بواجبه.

قبلت وجه أبي. "بالتأكيد سأحاول، يا أبي."

بعد ستة أيام و11000 ميل، هبطت طائرة البوينغ 707 المستأجرة للخطوط الجوية كونتيننتال في الليل فوق بحر الصين الجنوبي نحو قاعدة بيان هوا الجوية. وملت نحو النافذة الباردة، المتسخة، محاولاً أن أحصل على نظرة خاطفة من الأرض المظلمة تحتنا. كانت هناك دوائر ضئيلة من الضوء منتشرة بين بقع واسعة من السواد الفارغ. وبعيداً إلى اليسار كانت الغيوم مضاءة من الأسفل: إنه توهج مدينة سايجون.

كنت متعباً، وأعاني من الصداع نتيجة لشراب ويسكي بوربون المعروف باسم وايلد تيركي الذي شربته في قاعدة كلارك فيلد الجوية في أثناء توقفنا للتزود بالوقود في الفلبين. وكنت أكثر من عصبي قليلاً.

ثم جاء القبطان إلى مكبر الصوت وأعلن: "سوف نحاول القيام باقترابنا الأخير في خلال دقيقتين. ولذلك سأطلب منكم جميعاً أن تنزلوا الأغطية المظلمة للنوافذ. لا نريد أي ضوء خارج من الطائرة عندما نهبط."

وعندما كنت أغلق الغطاء البلاستيكي القاسي للنافذة، رأيت وهج مظلم بيضاء شاحبة يفرق بصمت على بعد مسافة. وبعد ثانية، رأيت خيطاً من الطلقات الخطاطة البرتقالية كالأنشطة ينزل من السماء عبر وهج الضوء ثم ابتلعه الظلام. نوع ما من رمي المدفعية على العدو، على ما ظننت.

كان تومي فرانكس ذاهباً إلى الحرب.



الفصل الثالث

المحنة

بنه بهوك، فيتنام الجنوبية

تشرين الأول/أكتوبر 1967

بعض المحاربين المتمرسين في حرب فيتنام كانوا يمتلكون بعد النظر الكافي الذي جعلهم يحتفظون بيوميات عن خبراتهم، وهو ما سمح لهم بأن يتتبعوا كل التفاصيل في نوبة عملهم من بعد عقود من الزمن.

وكثيرون آخرون، كما أظن، كانوا مثلي. فأنا لم أستطيع أن أجلس اليوم ومعني تقويم وخريطة دلتا الميكونغ لأستخرج تسلسلاً زمنياً دقيقاً للشهور التي قضيتها في القتال. لا أملك إلا التواريخ الموجودة على الجوائز التي نلتها وعلى تعداد إشادات الخدمة لكي تحرك ذكرياتي، ومعها كومة رقيقة من الرسائل التي كنت قد كتبتها إلى كاثي.

ولكنني أمتلك ذكرياتي نفسها. زمن خدمتي في فيتنام قد يكون مر مشوشاً، ولكن الصور التي استبقيتها تبرز مثل جزر في مستنقع. لقد كنت أمزح وأقول إنني ذهبت إلى فيتنام مستجداً في الثانية والعشرين ورجعت إلى الوطن بعد اثني عشر شهراً محارباً قديماً في الخمسين من عمره. بعض الناس يضحك من هذا. ولكن الشباب الذين خدموا هناك ليسوا من الذين يضحكون.

عندما كنت أركب في الشاحنة المفتوحة متجهاً إلى دلتا الميكونغ، كان ذلك الخميس الحارق من شهر تشرين الأول/أكتوبر يوماً مخيفاً. كنت واحداً من اثني عشر ضابطاً بديلاً نجلس على اثنين ونصف من المقاعد القاسية. لقد تسلقنا السيارة في بيركات، مقر قيادة فرقة المشاة التاسعة، على بعد خمسين كيلومتراً شمال شرق سايفون. ومرت الشاحنة من قرب قاعدة الإمدادات الأمريكية الضخمة

في لونغ بنه، على جسر الميناء الجديد، وعبر جمهرة من الدراجات النارية، وسيارات ثلاثية الدواليب تجر عربة مغطاة للركاب، وبين علب الصفيح البيضاء والزرقاء من سيارات تكسي رينو في سايفون.

وفي جنوب المدينة التحقنا بقافلة كانت محروسة من مقدمتها ومؤخرتها بناقلات جنود مدرعة م 113- "مجنزرات" وتحمل كل واحدة منها رشاشاً من عيار 0.50. وامتدت حقول شتلات الرز إلى الأفق المسطح، وهي تتضج من الأخضر إلى الذهبي. وكانت القنوات الطينية تقسم حقول الشتلات مثل خطوط التريبع، وكانت الهضبات التي تظهر من وقت إلى آخر من الأرض العالية مكسوة بشكل كثيف بأشجار الخيزران وأشجار الغابة القصيرة الكثيفة. وعلى طول جانب الطريق، كان يسير الفلاحون في ملابس فضفاضة سوداء وقبعات هرمية وكانوا يديرون لنا ظهورهم أو يلوحون لنا تلقائياً، ووجوههم فارغة من التعبير. وكان واحد من جاموس الماء يجر عربة محملة بقصب السكر نحونا، بينما اندفعت حافلة دراجة بخارية منخفضة من نوع لامبريتا مزدحمة بالنساء والأطفال ودخلت في غيمة الغبار المنبعثة من سياراتنا.

كان مُقدِّم الإيجاز لنا في بيركات قد أخبرنا أن هؤلاء الفلاحين "أساسياً حياديون". لا يقفون إلى جانب حكومة جمهورية فيتنام ولا إلى جانب الفيتكونغ الشيوعيين وجيش فيتنام الشمالية. وشرح لنا النقيب: "إنهم يعيشون وحسب، يحاولون البقاء، ونحن نسيطر على القرى في أثناء النهار. وفي الليل تتسلمها الفيتكونغ وجيش فيتنام الشمالية".

قرب معسكر قاعدة اللواء الثالث في تان آن، مررنا على مجنزرة محترقة جردها القرويون للحصول على نفاية معدنية. وكان ولدان صغيران، يرتديان قميصين ممزقين من شكل حرف تي، يقفان في الظل الخفيف للحطام، ويرفعان للأعلى علب بييرة من نوع بابست بلو ريبون ورزماً من دخان مارلبورو. وفكرت، هذا هو ما تبدو عليه الحرب، متعجباً متسائلاً ما الذي أصاب المجنزرة. فدرعها الألمنيوم

كان يستطيع إيقاف نيران الأسلحة الصغيرة وشظايا القنابل المنثارية، ولكن درعها انطوى مثل الورق المقوى عندما أصيب بقذيفة ب-40 من القنابل المدفوعة صاروخياً (ار بي جي)، التي كان يستخدمها العدو في الكمائن. كنا نجلس على ظهر هذه الشاحنة ذات المقعدين والنصف، وليس لدينا أي درع مطلقاً، ما عدا ستراتنا الثقيلة المضادة للرصاص.

واهتزت الشاحنة باستمرار خلف مجنزرة الطليعة، محافظة على مسافة القافلة وهي خمسة وعشرون متراً. لم أكن أعرف أيها كان الأسوأ: الشمس، أو الغبار البرتقالي، أو غاز عادم الديزل الخانق. كنت مستحراً، وعطشان، ومتعباً، وعصبياً. كان هذا مختلفاً اختلافاً كبيراً عن أول يوم في التدريب الأساسي.

وتحولنا عن الطريق المعبد لنسير على مسار مخدّد يقطع بين المزيد من حقول شتلات الرز، وتوقفنا أخيراً عند مجموعة من الخيام المتهدلة وأكواخ الألواح الخشبية المغطاة في أعلاها بألواح من المعدن الصدئ. وكانت حدود نطاق المعسكر معلمة بسياج عالٍ من الأسلاك الشائكة، والخيام والأكواخ محاطة بأكداس بارتفاع الكتف من أكياس الرمل الخضراء الباهتة اللون. وكانت لفات أسلاك الكونسرتينا تتسلسل من الأعمدة الهندسية وتشكل الدفاع الخارجي ضد المتسللين. وعندما وقفت في حوض الشاحنة، رأيت أن القاعدة كانت في الحقيقة مجمعين، واحداً واسعاً، وواحداً صغيراً، وهما مفصولان بقرية من البيوت الخشبية الرثة المظلة بقليل من أشجار النخيل والموز. كانت تلك هي ما سماها العسكر "قرية"، وهي قرية تابعة تقوم بالقرب من قاعدة رمي وتوفر العمالة اليومية وفتيات الأكواخ اللواتي ينظفن أكواخ الثكنة ويفسلن الملابس العسكرية. وبدا لي كل الترتيب العام مثل مواقع العمل في حقول النفط المستعجلة في أوكلاهوما الشرقية التي سبق أن رأيتها في صور أبي.

كانت الكتيبة الخامسة (الآلية)، الستون المشاة، هي بيتي الجديد. فقد عينت راصداً أمامياً متقدماً مع بطارية ب برافو، الكتيبة الثانية، المدفعية الرابعة، والتي

كانت توفر المساندة بالنيران لكل من الوحدتين 5 - 60 بستة مدافع هاوتزر من عيار 105 ملم. وعند وصولي إلى القاعدة، حيثتي لافتة قرمزية على بوابة الأسلاك الشائكة: "مرحباً بكم في مركز المدينة الجميل في بنه بهوك".

وقال لي السائق وهو يسلمني تجهيزاتي: "إلى هنا تذهب، أيها الملازم. والآن تستطيع أن تخبر أهلك في الوطن أنه قد تم تزفيتك... توصيلك".

كنت قد بدأت بالتغلب على الاضطراب المؤقت في إيقاعات الجسم، ولكنني لم أتأقلم بعد مع الحرارة والرطوبة التي تجعل الجسم يتصبب عرقاً. ووضعت بندقيتي ام-16 وكيس متاعي على كتفي وتبعت عسكرياً فنياً من الدرجة 4 نحيفاً اسمه أندرسون على طول ممشى من ألواح مهتزة، ملقاة على كتل من الطين الجاف، وهي التي كنا نسميها درب البط.

"أتلقون الكثير من القذائف القادمة؟" سألته، ونحن نمر بين مستودعات من صناديق الذخيرة 105 ملم المكسدة الممتلئة وسخاً، والسقوف التي تعلوها أكياس الرمل بكثافة. لقد كان واضحاً من البحيرات المستتعة حول نطاق المعسكر أنك لا تستطيع أن تحفر في الأرض عميقاً جداً بدون أن تصل إلى مستوى سطح الماء الباطن في الدلتا المشبعة.

"لا يا ليت، يعني أيها الملازم. لا شيء ثقيل جداً. هاونات في العادة، ولكن الفيتكونغ يرمون بعض الصواريخ من حين إلى آخر." وكان لدي عالم من الكلمات القصيرة المختصرة التي تُهمهم مهمة والتي كان علي أن أرتبها: "فالصواريخ" كانت هي صواريخ عيار 107 و 122 ملم التي كان الفيتكونغ مفرمين بإطلاقها على قواعد مثل بنه بهوك. و"لت Lt" كانت هي الكيفية التي يخاطب بها الجنود الملازمين في الأرياف والغابة.

كان ضابط البطارية التنفيذي في حجرة المناوب المملوءة بأكياس الرمل ملازماً أول. ولكنه لم يكن مثل أي واحد سبق لي أن رأيته في فورت سيل. كانت عيناه منتفختين حمراوين، وكان وجهه شاحباً ممتعاً، وكأنه لم يحصل على نوم ليلة كاملة

منذ وقت طويل. كان هذا واحداً من الرجال الذين يبدوون مسنين على الرغم من أنه كان ولا ريب في عشرينيات عمره مثلي، كما ظننت. لا، ليس مثلي، فهذا الشاب تمرس بأشياء لم أخبرها.

وتتمت، وهو يحك ذقنه ويلقي نظرة على أوامري: "فرانكس، نعم، حسناً. الراصد الأمامي الجديد. النقيب يريد أن يضعك مع بانديدو تشارلي." وتجهمت، وأنا لا أفهم.

"سرية تشارلي، الخامسة من الوحدة الستين يسمون أنفسهم (لوس بانديدوس)، (الخارجون عن القانون) ولديهم المناديل الحمر وكل شيء. لقد كانت السرية في دونغ تام، ولكنهم اتجهوا راجعين إلى هنا إلى الكتيبة في هذا الأصيل. زلّقت أوامري المختومة في المغلف. "وحدة جيدة؟"

ونظر إلي الضابط التنفيذي بارتياح. وكرر: "نعم. صحيح." في بيركات كنت قد سمعت المسؤول عن شؤون الأفراد يسمى البدلاء "اف ان جي" وتعني الشباب الجدد... الساقطين، ففي عيون الضابط التنفيذي كنت "اف ان جي"، فأني حق قد اكتسبته لأسأل عن نوعية وحدة مقاتلة؟ وفي أثناء الأيام العشرة التي كنت فيها في البلد، وكانت تجري فيها معالجاتي من خلال الخط المباشر إلى بنه بهوك، لاحظت الموقف الرسمي البارد نحو البدلاء، ليست عداوة مفتوحة، ولكنها مجرد إحساس معين بالمسافة. لم يكن هناك أي شيء من قبيل القول: "مرحباً بك مع الوحدة، هيا نتناول فنجاناً من القهوة". وهو الأمر الذي قد تتوقعه وأنت تلتحق في وحدة في أرض الولايات المتحدة. كان هناك طريق واحد فقط أكسب به احترام هؤلاء الجنود: وهو أن أقوم بواجبي في القتال.

هذا عادل بما يكفي. سيتعين علي فقط أن أمد لهم يد العون.

وأز صوت الهاتف الميداني. وانفجر اللاسلكي الجالس على صندوق برسالة

ثابتة مشوشة.

وأعلن رجل الاتصالات، وهو يستدير ليقراً الإحداثيات التربيعية من قطاع الخريطة المعلق على الجدار: "السرية ألفا رصدت قنصاً مشتبهاً به في الكوخ عند، آه...".

وأوماً الضابط التنفيذي برأسه وهو ينصت إلى الهاتف، ثم استدار إلى الجندي، وهو ينظر متجاوزاً لي "ما هو الحقير (القناص المشتبه به)؟ فإما أن يكونوا في تماس أو ألا يكونوا".

وأضاف الجندي: "النقيب في مركز توجيه النيران".

وقال الضابط التنفيذي: "جيد. سوف يقوم هو بترتيب الأمر." ثم نظر راجعاً إلي كما لو أنني كنت فكرة طارئة. "أندرسون هناك سوف يرتب أمور مع التموين ومسكن الضباط العزاب. وتستطيع أن تقابل النقيب في مركز توجيه النيران لاحقاً".

وأديت التحية، ولكن الضابط التنفيذي أوماً مجرد إيماء. "نعم، لا بأس".

عندما غادرت حجرة المناوب مع أندرسون، اهتزت الأرض بعصف انفجار قنبلة هاوتزر 105 ملم.

وقال أندرسون بلهجة مساعدة: "طلقة تحديد، (لت) أي، يا ملازم".

وكان رائد ركن في اللواء في تان آن قد أعطانا إيجازاً عن قواعد الاشتباك لاستخدامها في نيران رمي المدفعية غير المباشر. فما لم تكن الوحدة في تماس مباشر مع العدو فإن على الراصد الأمامي أو ضابط المشاة أن يتلقيا ثلاثة تصاريح منفصلة من أجل المساندة بالنيران، تصريح من سلسلة القيادة في الجيش الأمريكي، وتصريح من جيش جمهورية فيتنام، وتصريح من المسؤول المناسب من حكومة فيتنام، وهو عادة رئيس المنطقة. ولكن لم تكن هناك حاجة لأي تصريح إذا بدأ الضابط طلبه لمهمة رمي بكلمات "في تماس" متبوعة بالحروف الأولى من اسمه بشكل كلمات مثل: "ويسكي جوليت"، عن وليام جونز. فلا عجب أن الضابط

التفيزدي كان غاضباً من التقرير عن قناص "مشتبه" به، في كوخ مدني، فالأمر قد يستغرق ساعات للحصول على كل التراخيص التي تحتاجه إليها البطارية من أجل تلك المهمة.

وعندما مشيت متابعاً لأندرسون من سقيفة التموين ومعني كوم من أدوات المنامة وحقيبة مليئة بتجهيزات الميدان، شعرت أن الوحل الجاف اهتز ثانية والمدافع الهاوتزر الستة تنطلق بلا إعاقة، وترمي رمي التأثير. فإما أن يكون قائد البطارية قد رتب الطلب المشوش لمهمة الرمي، أو أن مهمة رمي "في تماس" قد استلمت.

عندئذ وهناك، صممت على أن أحاول أن أكون صارماً لأقصى حد، وأن أمارس مهنتي بأفضل مقدرة لي. فتوفير المساندة بالنيران في القتال لم يكن لعبة. فجند العدو أو المدنيون الفيتناميون، أو الجنود الأمريكيون، سيعيشون أو سيموتون بناء على مستوى الجودة التي أقوم فيها بواجبي.

عند غروب الشمس، تمددت على سرير الميدان في المهجع الخانق، وكنت أرتدي بنطلوني الشخصي القصير فقط، ومقصورتني في عنبر النوم مفصولة بصف من الخزائن الجدارية. كنت مرهقاً مما حسبت أنه كان يوماً طويلاً قاسياً. وفي الوقت الذي كانت فيه عينايتي تغمضان بالضبط، مع هذا، اهتز السطح الصفيح المتموج بضجة مزعجة للغاية، ضجة رشاشات، ورمي خطف ثابت من سلاح رشاش آلي أكبر.

قفزت ناهضاً، وخطفت بندقيتي ام-16 ولبست حذاء الغابات بدون جرابات.

وصحت للملازم الموجود في المقصورة التي تليني: "ماذا يحدث؟"

وخطا حول طرف الخزانة، وهو يضع منشفة خضراء حول خصره، ويلبس صندلاً في قدميه، ويمسك مجموعة نايلون للحلاقة، وابتسم مكشراً: "الدقيقة المجنونة ليس غير. سوف تعتاد عليه". ثم مشى الهوينى مبتعداً ليستحم.

وذهبت إلى باب المهجع، وما زلت أمسك ببندقيتي. وجاء نحوي ملازم آخر

على الممشى الخشبي، ونظر إلي باستغراب، ثم رجع بنظره نحو محيط المعسكر، وهناك كان الجنود يطلقون النار من بنادق ام-16 ومن رشاشات عيار 0.50 إلى حقول الرز الفارغة إلى الجنوب والغرب. وكان مدفع رشاش آلي بسبطنيتين عيار 40 ملم محمل على هيكل دبابة يضخ طلقات خطافة كثيفة حمراء في الاتجاه نفسه. وتوقف الضابط الشاب الذي علتة سمرة عميقة على الدرجة وشرح الدقيقة المجنونة. في كل يوم عند غروب الشمس، كانت الكتيبة تطلق أسلحتها الآلية التي يشغلها سدنة نحو الجانبين من محيط المعسكر اللذين لم يكونا محميين من بطارية الهاوتزر. وعلى الجانبين اللذين كانا محميين بالهاوتزر، كان يوجد طلقات خلية النحل، وهي قنابل معبأة بمئات من الصواريخ الفولاذية الحادة كالشفرة، وهي مكدسة ومجهزة بالصمامات، وجاهزة للرمي إذا دعت لها الحاجة.

وكان القصد من الدقيقة المجنونة هو تشبيط التسلل من الناحيتين غير المحميتين من القاعدة والتأكد من أن الأسلحة التي يشغلها سدنة كانت جاهزة. وقال: "إن أي فيتكونغ يدخل في الليل من تلك الأرباع (ربع محيط دائرة) هو هامبرغر فوري".

وقال الملازم النحيف القوي وهو يمد يده: "لي آلي، فصيلة الاستطلاع".

وصافحت يده وقلت: "شكراً على المعلومات. تومي فون فرانكس، رويال سلوبوفيان هوسارز". وأنا أعترف بمكانة الشاب الجديد. لقد كنا منخرطين في عمل جاد مميت، ولكن ذلك لا يعني أنه يتعين علي أن آخذ نفسي بجدية زائدة.

بعد ساعات قليلة، استيقظت متعرقاً في الوقت الذي كان فيه مدفع هاوتزر يطلق طلقة مفردة. وبعد ثلاثين ثانية، ومضت وميضاً خفيفاً لوحة التهوية عند نهاية المهجع. وقدرت أنها طلقة تنوير: لا بد أن وحدة مشاة ما في الخارج في دورية كمين طلبت طلقة إضاءة. وكان الهواء تحت شبكة ناموسيتي لزجاً. وقرقر بطني، فلم أكن معتاداً على حبوب الأراالين البيضاء الكبيرة المضادة للبرداء (حمى الملاريا). وقد

أعلن لنا المسؤول الطبي في بيركات بمرح وهو يوزع الحبوب إلى البدلاء: "سوف تجعلكم تتغوطون من خلال ثقب إبرة." دقق. ولبست الحذاء الخشبي الخاص بالاستحمام، والتقطت كشافي، وتوجهت إلى المراحيض.

عندما كنت أتبع أندرسون في القاعدة ذلك الأصيل، كنت قد رأيت جنوداً بدون قمصان يعملون في غيوم الدخان الأسود، يحركون براميل محروقات سعة 55 غالون مقسومة إلى نصفين يصدر منها السخام. وقال أندرسون: "سخرة الغائط، يا ملازم". يجب أن تحرق الغائط من المراحيض كل يوم بينزين السيارات لتبقي الذباب قليلاً. والعمال المحليون من القرية يفعلون ذلك عادة. فهؤلاء الناس لابد أنهم قدزرون ليعملوا ذلك الواجب.

والآن، وأنا أحمل لفة ورق الحمام بيد، والكشاف باليد الأخرى، مشيت خطوتين إلى أول مراحيض الألواح الخشبية المستورة. كانت رائحتها النتنة سيئة للغاية. لابد أن كثيراً من الناس قد استخدمها منذ أن تم حرق البراميل. وقبل أن أجلس، حدث أن وجهت ضوء الكشاف إلى الحفرة. فأحسست أن اللحم المفروم والبطاطا المهروسة المجففة من الماء التي أكلتها في العشاء قد صعدت إلى حلقي. فالبرميل من تحت كان يموج بكوم من الديدان البيضاء.

بطني في انقباض، وتعثرت خارجاً من ذلك المرحاض إلى الذي يليه. هذا المرحاض كان قد حرق. وعندما جلست أطلق مدفع هاوتزر طلقة تنوير أخرى فرقعت على بعد خمسة كيلومترات، إلى الغرب. وفي الضوء الخافت الداخل من خلال الساتر، قرأت رسالة خريشها أحدهم على الباب "في هذه الأرض، أرض الشمس، والمتعة، فإننا لا ننظف ونغسل بالماء للدرجة الأولى."

هذا مكان سوف يستغرق بعض الوقت للاعتياد عليه.

كانت السرية منشورة، في خط معركة متصل من الفصائل. وشققت طريقي بصعوبة عبر حقول شتلات الرز التي ترتفع حتى الورك مع مجموعة القيادة

الصغيرة في مركز المعلومات. على بعد ستمائة متر أمامنا، تقف هضبة من الغابة وأشجار النخيل المتهدلة ارتفعت فوق الأرض المسطحة مثل رغيف خبز أخضر. تلك كانت هدفنا. قبل الفجر، اكتشفت طائرة عمودية، من نوع يو اتش- ١ هوي، مجهزة "بشمّام لروائح الناس" محمّل في مقدمة الطائرة، خصائص تبين وجود حرارة وبيانات تنفس تشي بثاني أكسيد الفحم، كاشفة بذلك وجود أناس في الغابة، وتوقعت الاستخبارات أن حوالي مائة من الفيتكونغ قد تخندقوا في تلك الأشجار، وهم يستخدمون الغطاء ملاذاً في النهار قبل أن يتحركوا لنصب كمائن على طول الطريق العام رقم 4 في الليل.

نقلت وحدتنا جواً على متن ما كنا نسميه "طيران الصقر"، إدخال بالطائرة العمودية، في وقت متأخر من ذلك الصباح، إلى منطقة هبوط تقع بين الطريق وبين تلك البقعة من غطاء الغابة. وتحركنا على طول قنوات الرز في رتل أحادي لمسافة ثلاثة كيلومترات عن منطقة الهبوط تقريباً، وكان مسيراً طويلاً وحاراً. ثم انتشرنا في التشكيل النظامي: اكتسح وطهر. كانت السرية مترجلة، وبدون مجنزراتها ورشاشاتها عيار 0.50، لذلك رجعت إلى المشاة التقليدية "بساق مستقيم" حسب اسمها.

ولكني كنت أملك السلطة لطلب رمي نيران المدفعية على العدو، طالما بقيت بارداً وقمت بواجبي. لا بأس، كيف يفترض أن أبقى بارداً؟ لقد بدأ الفصل الجاف، وكانت الشمس تضرب بثقلها على خوذتي الفولاذية.

في الأسبوع الذي كنت أمضيته في بنه بهوك، استوعبت كمية من المعلومات المفيدة من زملائي الضباط ومن "الناخرين" (*) وهو التعبير الذي أطلقه العسكر على رجال المشاة. فبدلاً من حمل ثلاثة صناديق نظامية من التموين - ج في حقيبة الظهر، أخذت معي فقط علبة شرحات لحمة واحدة وبطاطا، وعلبتين من الفاكهة،

(*) الناخر: المصوت بخياشيمه، أنظر المعجم الوسيط.

وحفنة من أكياس القهوة والسكر، وقايضت الوزن الزائد بمطرتين من الماء. وبدلاً من حمل حقيبة ظهر جبلية كبيرة الحجم حملت صرة صغيرة مضحكة مشبوكة بتجهيزاتي النسيجية. واحتفظت بمعطفي الواقي من المطر، ولكني تركت في الخلف بطانته المشبهة للحاف. فإذا تعين علينا أن نبقى الليلة في حقول الرز هذه، فإن البقاء دافئاً لن يكون مشكلة.

ومن مراقبة الشباب المتمرسين في الفصائل في الخط الأمامي، تعلمت أن أطيل حمالة بنديقتي ام-16، وهو الأمر الذي يسمح لي بأن أحمل السلاح وفوهة السبطانة للأسفل على عرض ظهري إذا لزمني أن أرفع شيئاً ما بكلتا اليدين. وعلمني الناخرون المشاة أيضاً أن أعبئ مخازن البندقية سعة عشرين طلقة بحيث تقل طلقتين لمنع الاستعصاء وكانت جواربي الجافة محكمة السد مربوطة بلفافة من بلاستيك التغليف السميك الجاف، وأربع صرر رقيقة من التموين ج من الونستون مربوطة في واقيات ذكرية.

وأحسست أنني مثل عسكري الغابات الحاذق تماماً.

ولكنني لم أقع تحت نيران الرمي حتى الآن، ليس تحت الرمي المباشر على الأقل، وهو النوع الذي يرمي فيه العدو عليك وجهاً لوجه. لقد تلقينا لليلتين هجمات بالهاونات في بنه بهوك، وقد أعطبت بعض التجهيزات، ولكنها لم تتسبب بإصابات جدية. كانت قنابل الهاون عيار 82 ملم تصفر نازلة بعد منتصف الليل، وتنفجر عبر القاعدة وفق نمط عشوائي. وأسرعت إلى محطة واجبي المؤقتة في مركز توجيه النيران، وهو زوج من أوعية الشحن السريع الفولاذية ملحومان من النهاية إلى النهاية وعليها أكوام من أكياس الرمل. ولمساندة ضابط مركز توجيه النيران "باللوحات ودبابيس التعليم"، أي، غرز دبائيس إحداثيات الهدف في لوحة الرمي في القاطع الواسع، قمت بالمساعدة على تعليم "النيران المضادة" على مواقع هاون العدو. كنت مشغولاً وأشاهد ضباط البطارية "يعملون" لإيجاد حلول الرمي، فلم أجفل حتى عندما ضربت الشظايا في أكياس الرمل وطرقت الغطاء الفولاذي.

ولكن نيران الهاون أبقتنا مستيقظين معظم الوقت ليلتين، ومع نقص النوم، كنت أجرجر نفسي متعباً طوال اليوم.

كنت متعباً جسدياً الآن، ولكني متبهِ تنبهاً مفرطاً. وعندما وصلنا إلى الغطاء في خندق بارتفاع الصدر ويسير على عرض خط تقدمنا، أعلم قائد السرية باللاسلكي قادة فصائله بأن يتوقفوا وأن يركزوا رماة رشاشاتهم ام -60.

وقال النقيب: "دعنا نقصف بعض نيران الرمي عليهم، يا فرانكس".

وكنْتُ قد حصلت على التراخيص اللازمة من الجيش، ومن جيش جمهورية فيتنام، ومن حكومة فيتنام لأعطي أوامر برمي نيران المدفعية على مجموعة أشجار الغابة أمامنا. والآن يتعين علي أن أعلم وأمر بأول مهمة رمي في القتال، وأطلب قذف قنابل على عدو حقيقي، لا على كومة من هياكل السيارات المدهونة المبعثرة على ميدان الرمي الغربي في فورت سيل.

وعندما سحبت نفسي إلى أعلى على الطين المشوي للخندق لألقي نظرة أفضل على الهدف كنت أعني أن خيالي سيرتسم على الرز الأصفر خلفنا. ربما كان هناك خمسون مقاتلاً من الفيتكونغ ينظرون إلي من خلال مناظير بنادقهم ايه كي -47، ورشاشاتهم الخفيفة بي كي، وكنْتُ بالتأكيد ضمن مدى القتل. وكنْتُ مثل الآخرين المشاة حولي قد قررت ألا أردي السترة الواقية الثقيلة المرهقة في الحر. كنْتُ أتنفس بشدة، وشفطاي المتشققتان جافتان.

شد عزمك. لهذا التحقت بالجيش. رفعت منظاري وركزت على خط الأشجار، وعددت خطوات الملات المفروزة من اليمين إلى اليسار من الطرف الغربي للهضبة، والتي كانت مرئية بوضوح على خريطة المغطاة بالبلاستيك، ثم لاحظت الملين للأعلى من الخط الأفقي الذي علّم نقطة تسديدي الأولية. ولكي أكون مستيقظاً تماماً فقط، جلست على حافة الخندق وأخذت قراءة الزاوية السميتية من خلال فتحة بوصلتي ام -2.

انزلقت للخلف وللأسفل وانحنيت مستنداً على المنحدر العكسي للخندق، آخذاً الهاتف اليدوي من نوع بي ار سي -25 من مشغل هاتف الإرسال اللاسلكي، وهو شاب في وجهه نمش واسمه وايتي.

وناديت مركز توجيه النيران في بنه بهوك، مستخدماً أفضل إجراءاتي في فورث سيل: "أوسكار أربعة، خمسة، صفر، مهمة رمي، حول". وأجاب الصوت الشاب: "استمر، نيكل لاشيء" وقد ترجم إشارات ندائي، خمسة صفر، إلى أسلوب كلام الآخرين.

"عدو متخندق". ودرست الخريطة للمرة النهائية. وكانت البطارية في بنه بهوك خلفنا. والقنابل سوف تمر فوق الرؤوس نحو إحداثيات الهدف. "فوكس تروت مايك أربعة ثلاثة خمسة ستة اثنان أربعة. طلقة واحدة. سأضبط الرمي".

وقال الصوت عبر التشويش: "استلمت"

وأعلن الصوت نفسه بعد لحظة: "طلقة. حول"، كانت الطلقة في طريقها إلى الهدف.

ونادى مركز توجيه النيران ثانية: انفجار، حول. "وكنيت في الخلف على الخندق، أشاهد الهدف من خلال منظاري. وانفجرت الطلقة في الأشجار عند خمسين متراً ليسار وقرب حافة الهضبة. "يمين خمسة صفر".

وعصفت القنبلة التالية بانفجارها غيمة من الوحل ومزقت الأشجار تقريباً في نقطة التسديد. وناديت وأنا فخور بعملتي: "رمي للتأثير".

وانفجرت فجأة رشقات من ست قنابل شديدة الانفجار وسريعة الصمامة لتنفجر عند التماس، وتحطمت على أشجار الغابة. وركعت على قمة الخندق. وكنيت مستغرقاً في الخسائر التي كبدهاها للعدو.

مشغل الهاتف اللاسلكي معي، وايتي، شد بعنف على حذائي. "ليست فكرة صحيحة أن تبقى مرتفعاً مثل ذلك هناك، يا ملازم".

بعد أربع رشقات، كان جانب التل المنخفض محفوراً بفوهات ينطلق منها الدخان. وناديت: "نهاية المهمة".

قال النقيب: "رمي جميل. يا فرانكس".

وتقدمت الفصائل بحذر إلى الأمام، بالطريقة التقليدية من النار والمناورة ورشاشات ام-60 توفر الغطاء. كنت مشبعاً بالعرق، وأمسك بندقيتي ام - 16 جاهزة عندما اقتربنا من خط الأشجار.

وصاح الرقيب وقد وصل الجند إلى طرف الغابة المحترقة وهم يطلقون أسلحتهم من الورك: "احذروا وراقبوا الأسلاك العاثورية".

وأفرغت مخزناً في الحطام المتشطي، ثم تسلفت الحافة الوعرة من الفوهة التي حفرتها القنبلة، أكاد أعثرُ بالجذع الممزق لنخيل جوز الهند. وتصاعدت من الوحل الرائحة النتنة المريرة للقنابل شديدة الانفجار. ولكن لم يكن هناك جنود أعداء موتى، ولا دم، ولا أسلحة محطمة أو تجهيزات مهجورة في الحفر. كان المنظر هو نفسه أعلى الخط وأسفله، لا علامة على وجود خنادق، ولا حفر بنادق، ولا منعات أسلحة. لا شيء، صفر.

لقد طلبت قبل قليل أول مهمة رمي قتال لي، ونجحت في تدمير أربعمائة متر مربع من الغابة الفارغة.

واضطجع العسكر حول المكان في الظل الحار، وهم يمتصون الماء من مطراتهم، ويدخنون، ويسترخون، وهم شاكرون لأنهم لم يواجهوا تماساً.

وجلست هناك أشعر بنوع من التشوش الفارغ من مساء طويل يساوي ما صرف من الكُطرين (الأدرينالين) (*). ربما في المرة القادمة سوف نوقع أضراراً حقيقية.

(*) هرمون تفرزه الغدة الكظرية في الدم استجابة للإجهاد الذهني والجسمي، سواء من الخوف أو من الإصابة. ويؤثر على عمل القلب ويزيد ضغط الدم ومعدل الاستقلاب وتركيز سكر الدم.

يوم آخر، واكتساح جديد، وقطاع مختلف. والمزيد من الاستخبارات عن فيتكونغ في حفر المناوشة. وبعد دخول بطيران الصقر، بالطائرة العمودية، سارت السرية وهي تحمل متاعها كيلومتراً حارّة بعد كيلومتر، عبر حقول الرز المروية من أجل محصول ثان للرز، تمر إلى جانب قرى مليئة بالنساء الصامتات وبالأطفال، ولكن بدون شباب فيها، وعبر ممرات ظليلة إلى جانب مجموعات نباتات الخيزران الطويلة التي كانت تخبش في نسيمات الأصل فتجعل كل واحد من السرية عصبياً.

سرنا رتلاً عبر جسر مشاة من خشب فوق قناة ضيقة، ثم انقسمنا إلى رتل ثنائي وكل رتل منهما في فصيلتين، ودخلنا في ممرات منفصلة عبر مزيد من الخيزران العالي الذي ارتفع إلى الجنوب في منحدر متدرج. وكنت أنا في وسط الرتل الأيمن مع مجموعة القيادة.

كان الكمين من الفيتكونغ منصوباً بشكل دقيق في المكان والزمان، ويضرب رتلي من جهة الخيزران الكثيف الموجود إلى يميننا، مفجراً لغماً أمريكياً مستولى عليه من نوع كليمور مع رمي جارف على الممر من نيران بنادق ايه كي -47. وكانت طلقات لامعة خطاطة خضراء تشق طريقها عبر الظل، فتقطع الأوراق، وتكسر الخشب.

الجميع كان يطلق نيران بنادق ام-16 بالآلية الكاملة، ورشاشات ام-60 تدك مثل ثقابة الصخور. وسمعت فرقعة كصوت بوووك من قاذف القنابل ام-79. كنت مستنداً على مرفقي في الطين، وأطلقت مخزنين نحو مصدر طلقات العدو الخطاطة العدو في الظلال.

وسمعت شخصاً صاح في المقدمة في المكان الذي انفجر فيه لغم كليمور "عسكري على الأرض، طبابة."

وكان رد فعل الجند رداً خبيراً، فحافظوا على إطلاق حجم ثابت من النيران.

ومن خلال الضجة وضربات قلبي شخصياً، سمعت الأمر: "نيران ساطرة: تراجع بالزمر."

كانت مجموعة القيادة أولاً، الزحف لمسافة خمسة وعشرين متراً إلى دغل يقع إلى يسارنا، في الوقت الذي تقوم فيه زمر البنادق في نهايات الرتل بالمحافظة على جدار من النار. وبعيداً عن الأجمة الواقعة على جانب الممر المشبك وأعنان الأشواك الحادة المعقوفة، هناك فسحة بين الخيزران الشاهق، والغليظ الساق.

كان وايتي يلهث إلى جانبي، وهو يحمل جهاز الإرسال اللاسلكي بي آر سي-25 وهو مشبوك بإطار حملة مثل كتاب هواتف أخضر من حجم كبير. والآن سمعت فرقعة واضحة لنيران بندقية أيه كي من مقدمة يسارنا. الفيتكونغ قد وثبوا بكمينهم الآن، وهو في شكل L، من ناحية الساق.

أنصت للنيران القادمة من مواقعنا ولنيران الأسلحة الخفيفة من الفصيلة الأولى ومن قاذفات القنابل إلى اليسار الأسفل، محاولاً أن أكتسب صورة صوتية عن المواقع الصديقة والمعادية. وعندما جئت إلى غابة الخيزران كنت قد عدت الخطوات. وعلى الرغم من الضجة ومن صدري الذي يعلو ويهبط، فقد أمسكت بالهاتف اليدوي من وايتي وطلبت نيراناً مساندة. كنت أقطر عرقاً كثيراً على غطاء الخريطة إلى درجة احتجت معها أن أمسح البلاستيك لتتضح الخريطة. كان يجب أن تكون إحداثياتي دقيقة، وبحسب تقديري، كان موقع كمين الفيتكونغ على بعد 150 متراً إلى شرقنا وجنوبنا.

"أوسكار أربعة، نيكل لاشيء. في تماس. في تماس قريب. ثم إنني أعطيت الحروف الأولى من اسم قائد السرية. "كمين في الخيزران، هوتيل ليما خمسة ثلاثة أربعة ستة خمسة سبعة، حول."

ورد مركز توجيه النيران في بنه بهوك فوراً، وبكفاءة هائلة، وضعوا الطلقة الأولى لليسار وأطول، ثم مشت قنابل فردية نحونا بزيادة خمسة وعشرين متراً.

وجاء قائد الفصيلة الأولى على تردد السرية ليعلن أن لدينا فرقاً في المدى نتيجة تحركنا نحو الشرق، وآخر قبيلة لتحديد الموقع انفجرت في الخيزران عند الساق السفلية للكمين. ثم جاء النداء من قائد الفصيلة الثالثة في الطرف الجنوبي من رتلنا يقول إن طلقة تحديد الموقع كانت في "خط المدى الصحيح" في الهدف.

وناديت مركز توجيه النيران: "ست قنابل للتأثير."

وقفز رقيب مشاة شاب، وكان يجثم خلف الأشجار المجاورة وصاح: "قوات صديقة قادمة! الجميع للأرض."

والخوذة مفروزة في طبقة من الأوراق الميتة التي تأخذ شكل قالب، أفدت باستلام نداءات "الطلقة" و"الانفجار" من البطارية. واهتز الطين تحت صدري. وأومضت موجات الصدمة المتوهجة من خلال الخيزران الظليل. وأبلغت الفصيلتان الثالثة والأولى أن السد الناري كان في الهدف. ولم تبق طلقات خطاطة خضراء تفرق من خلال الخيزران.

كنت ما زلت ألهث، ومحفظة الخريطة تهتز بين أصابعي، وأحسست بدفقة من الرضا. لقد سحقنا قبل قليل كميناً يعتبر مثالياً من نوعه.

ثم نادى البطارية وأخبرتني، "لديكم مدافع في الجو." لانترن 03 و 04، - طائرتان عموديتان مسلحتان من نوع يو اتش - ا سي هوي، كانتا تدوران حول غابة الخيزران.

وقلت لطيارى الطائرتين العموديتين: "اقصفوا بعض الصواريخ حول فوهات الحفر التي أحدثتها مدافع 105 وسأعطيكم الإحداثيات."

وأجابت لانترن 03: "لا أحتاج إلى الإحداثيات أستطيع أن أرى الدخان بوضوح." وانقلبت على ظهري، محدقاً إلى الأعلى نحو الشمس من خلال الخيزران. كان مذاق السيجارة عظيماً، ومثله كان مذاق الماء الفاتر في المطرة. وذلك على الرغم من طعم حبات الهالزون المرة التي أسقطتها في مطراتي قبل ساعات قليلة لتقتل

جراثيم مياه القناة. وتزايد ارتفاع صوت الضربات العنيفة التي تصفق من الأجهزة الدوارة في الطائرات العمودية من طراز هوي. وكل واحدة من تلك الطائرات تحمل 38 صاروخاً موازنة بالدوران مزودة برؤوس حربية مضادة للأفراد. وفي غضون دقيقة عرفت أن أي واحد من الفيتكونغ استطاع أن يبقى حياً بعد القصف المدفعي سيكون ميتاً.

وأومض الخيزران وقرقع، على بعد عشرة أمتار. وكان ذلك مثل صاعقة برق ورعد فوري من سماء مشمسة. ثم جاء بعده عصف آخر، وكان هذا أقرب حتى من سابقه. ثم اثنان آخران. وكان الخيزران يتشقق من حولنا. ثم جاءت ثلاثة انفجارات أخرى على بعد بضعة أمتار إلى اليسار. وكان الطين يرقص تحت صدري.

الطائرات المسلحة حددت مواقع معادية... ولكنها لا تعرف أين كنا نحن. كانت الطائرات "تمشي" بالصواريخ إلى فوهات الحفر التي أحدثتها قنابل المدفعية. ولكنها كانت تقوم بذلك بادئة فوق مواقعنا. والشباب من حولي كانوا يصيحون على قمم الأشجار. "أوقفوا هذه الصواريخ أيها... الحقراء!"

ومن خلال عصف الانفجارات نجحت في الصياح في الهاتف اليدوي وإيقاف الهجوم. كانت أذناي تطنان وأنا أسعل من دخان الكوردايت المتصاعد من الصواريخ المتفجرة.

وصاح رقيب "هل أصيب أحد؟ هل سقط أحد؟"

كانت معجزة: إن رشقة من أكثر من عشرين صاروخاً ضربت عبر موقعنا، ولكن أحداً لم يجرح. وعندما كنا نصطف لننسحب ونلتحق بالرتل الآخر، كنت متعجباً من أن أرى أن كل رأس حربي في صاروخ، وهو الذي يحتوى على عدة أرتال من المتفجرات الشديدة الانفجار، كان له نصف قطر عصف ضار لا يزيد عن القنبلة اليدوية.

وبعد شهر في بلاد فيتنام، وضعت ثقتي في الأسلحة الأمريكية التي لا تقهر.

ولدي الآن شكوك في القدرة القتالة لهذه الصواريخ من عيار 2.75 انش الأصغر بكثير. تحدثت مع النقيب، ثم أمسكت الهاتف اليدوي من وائتي وطلبت المزيد من قنابل عيار 105 ملم، شديدة الانفجار مع الفسفور الأبيض، على إحداثيات الفيتكونغ.

عندما كانت المدفعية ما تزال تقصف قنابلها التي تتساقط على العدو، كانت فصائل رتلنا تتواعد على اللقاء عند طرف الخيزران. أصيب جنديان بالأسلحة الصغيرة، أحدهما في وركه، والآخر في كاحله. وقد ربطا في ضمادات تضميد المعركة ذات اللون الأخضر، وعرجا قُدماً مع مساعدة زملائهما.

ثم ظهر الرتل الآخر من بين الأشجار. لم يكن أحد يعرج، ولكن جنديين حملاً جثمان عسكري ميت، مربوط بمعطفه الواقى من المطر، وتتأرجح تحته قطعة على طوله من الخيزران المرن كالنابض. وكان الجندي الموجود عند الطرف البعيد من عمود الحمالة أقصر من زميله في المقدمة، وكان وجهه أحمر متغضناً من الإرهاق، وتبلله الدموع.

وكان يئن ويقول: "أولاد الحقيرات... السفلة." وبسبب قصره، كان عليه أن يمسك طرف العمود المقطوع بالساطور على رأسه. كانت يدها تنزفان.

ووضعت حمالة بندقيتي على عرض ظهري، ورفعت العمود من يد الجندي. ورجاني وأنا أضع الحمل على كتفي: "لا بأس، يا ملازم، أستطيع أن أحمله. آندي كان صديقي."

وقلت: "سأعطيك استراحة قليلة. هيا، خذ سلاحك عن ظهري. فذلك سيساعد."

والى جانبي حمل الشاب بندقيتنا ام 16 على كتفيه. ومسح يديه النازفتين بساقي بدلته، بدلة العمل الموحلة الخاصة بالغابة. ولكنه لم يستطع أن يتوقف عن البكاء.

كان النقيب قد طلب طائفة عمودية للإخلاء الطبي للرجلين المجروحين وللرجل الميت. وخرجنا إلى حقول الرز في رتل منظم نحو الغيمة القرمزية المنبعثة من القبلة اليدوية الدخانية التي تعلّم منطقة الالتقاط. لم يتكلم أحد. وحافظ العسكر على أسلحتهم جاهزة، وهم يتفرسون بصفوف الأشجار، ويراقبون طرف الخندق تحسباً لمصائد المغفلين والأسلاك العاثورية. هؤلاء الشباب قاموا بواجبهم اليوم، وثبتوا كمين الفيتكونغ إلى أن استطعت أن أطلب مهمة الرمي وإلى أن استطاعت البطارية أن ترد كما فعلت، وبدقة مثيرة للعجب. والليلة سوف يستحمون ويزيلون نتن رواسب حقول الرز ويجلسون خارج أكواخهم في ظلام رطب، وهم يضربون البعوض، عندما يخرجون البيرة من أحواض الثلج، ويفتحون الأغطية بمفاتيح صدئة مثلثية تفتح بها القوارير، ويشربون علبة بعد علبة، ويدخنون، ويتحدثون، وربما ينجحون حتى في الوصول إلى الضحك.

وغداً سيكون هؤلاء الشباب مرة ثانية في الخارج يتولون القيام بالدوريات مرة ثانية. المزيد منهم سوف يجرح... والمزيد منهم سوف يقتل.

كانت الكتيبة تقوم في مرات كثيرة بعمليات اكتساح باستخدام المجنزرات، وكل سرية تركب عشر ناقلات جند مدرعة، وهي تحرك بعنف الغبار البرتقالي عندما تسرع الأرتال مبتعدة في اتجاهات مختلفة لتتقاطع في مناورات المطرقة والسندان. وأحياناً كنا نطهر وندمر وحدة فيتكونغ، ولكننا في العادة لم نفعل. وفي مهمة طويلة كنا نبقي ليلة في المناطق الريفية الغابية، وتكون المجنزرات مرتبة لتأخذ تشكيلاً في نطاق دفاعي وتكون رشاشاتها عيار 50.0 وبنادقها عديمة الارتداد عيار 106 ملم موجهة نحو حقول الرز المظلمة وصفوف الأشجار وهي أشد ظلاماً.

وكان الجند عادة يحملون مبردات البيرة الخاصة بهم في ناقلات الجند المدرعة، وهذا غير مسموح به رسمياً، وكان يجري التسامح به طالما أن الجنود في مراكز التنصت لا يشربون أكثر من علبة أو علتين قبل أن يغادروا نطاق الموقع إلى الحفر الفردية البعيدة.

في إحدى الليالي، مشيت بين المجنزرات، أتجاذب أطراف الحديث مع قادة الفصائل وأجلس على الجزء الخلفي المائل من الناقلة مع المشاة النافرين نتحدث عن كرة القدم والسيارات.

وفي التوهج الخافت لكشاف مصباح يدوي بعدسة حمراء، أدت عليهم صوراً لسيارتي الصفراء الأولدز 442 مثل أب فخور يعرض لقطات فوتوغرافية على ابنه. وقلت متفاخراً: "سيارة جهنمية".

هؤلاء الجنود كانوا شركائي، وزبائني. بعضهم أمضى أحد عشر شهراً في فيتنام، وكانوا يعرفون بشكل جهنمي عن شن الحرب أكثر مما كنت أعرف. وكنت أحترمهم. وعندما طلبت مهمة الرمي، كان ذلك لسبب واحد: وهو حماية هؤلاء الجند عن طريق قتل العدو قبل أن يستطيع أن يقتل هؤلاء الشباب.

وقال عسكري وهو يعيد لي الصورة: "تلك جيدة... يا ملازم. سوف أقتني لي واحدة من تلك عندما أعود إلى العالم".

كل عسكري في فيتنام كان له سيارة يحلم بها، وينتظر أن يقودها من محل الوكيل بعد أن يكون قد أكمل نوبة عمله لسنة واحدة وبعد أن يكون جاء أخيراً التاريخ الذي يستحق فيه أن يعود إلى الوطن من وراء البحار.

كلنا كنا نعرف التاريخ المستحق لنا للعودة إلى الوطن من وراء البحار. وكان تاريخي هو 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1968، ويبعد عن الآن عشرة أشهر تقريباً. وكان يعتبر أسوأ حظ ممكن هو أن تقول التاريخ مباشرة بصوت عالٍ إلا أن تكون صرت فعلاً على بعد قصير منه، في حدود ثلاثين يوماً من العودة للوطن. نوبة العمل غير المرنة التي يفرضها الجيش لمدة اثني عشر شهراً، كما بدأت أدرك، لها نقاط سيئة بقدر ما لها نقاط حسنة. بعض الضباط كافؤوا الجند الجيدين بتكليفهم بواجبات داخل المعسكر في أثناء الشهر الأخير، ولكن تلك الرفاهية لم تكن دائماً متيسرة، وكان مستحيلاً تقريباً لمعظم جنود الجبهة أن يركزوا على واجباتهم عندما يكون قد

بقي لهم وقت قصير. ومع وجود العديد من السرايا أقل من الملاك، فقد يكون على العسكري القصير المدة أن يعمل بإجهد في حقول الرز إلى آخر يوم له تماماً. وسمعت قصصاً عن عسكر كانوا قد رفعوا من المنطقة الريفية الغابية عند الفجر بعد رمي قتالي دام طوال الليل، ثم يؤخذ على عجل لاستكمال أوراق إنهاء نوبته ثم يوضع في شاحنة إلى بيان هوا أو كام رانه بي وعلى متن طائرة نفائة مستأجرة ليعود إلى الولايات المتحدة في ذلك الأصيل نفسه.

في مدرسة الضباط المرشحين، علمونا عن "تماسك الوحدة" وهو الغراء النفسي الذي يمسك الوحدة معاً. وتلك الرابطة يمكن أن تنهك بسبب تيار من الرجال الجدد الذين يحلون محل قصيري المدة الذين كتب لهم البقاء إلى التاريخ الذي يستحقون فيه العودة إلى الوطن من وراء البحار. وأما في السرايا الجيدة مثل بانديدو تشارلي أو فصيلة لي آلي، فصيلة الاستطلاع، فقد عوضت الكبرياء عن ذلك التماسك الخاص، وذلك على الرغم من الاضطراب.

في تلك الليلة نمت ساعة أو ما يقارب ذلك، مستلقياً على الطين قرب مجنزرة قيادة عالية الجانبين، والمعطف الواقي من المطر موضوع كالحفاف على وجهي ويدي لإبقاء البعوض بعيداً. وقبل شروق الشمس تماماً، وهو الوقت المفضل لهجمات اضرب واهرب التي يوجهها الفيتكونغ بالهاون، استيقظت وصنعت فطوري.

على الأركان الداخلية من المنحدر الخلفي لناقلة الجند المدرعة، كان يوجد تجويفات مربعة كنا نستخدمها مواقد للتموين-ج. مزجت أجزاء متساوية مسحوقة من القهوة، والكاكاو، والقشدة المبيضة، مع كيسين من السكر في علبة كعك، وملأتها بماء من المطرة. ثم وصلت من دون أن أنظر إلى المجنزرة، وعصرت واستخرجت قطعة من المادة المتفجرة سي-4 الصمغية من صندوق وأسقطت القطعة في الحفرة. ولمست قداحتي على المادة سي-4 فاشتعلت واحترقت بحرارة شديدة، بدون رائحة. وفي عشرين ثانية كان المشروب حاراً يصدر الفقاعات.

كنت أجلس على القسم المنحدر من المجنزرة، وتذوقت خلطة القهوة بالشكولاتة

تاركاً السكر والكافئين يستلان تعبى. وذاب الأفق الشرقي بسرعة من اللون القرمزي الناعم الغامق إلى الأصفر الثابت، شروق الشمس المداري المفاجئ الذي ما يزال يأخذني على حين غرة.

وعندما طلع ضوء النهار كاملاً، أفرغ الرجال الموجودون في حفر البنادق في مركز التتصت الوسخ من أكياس الرمل الخاصة بهم، وجمعوا الألغام من نوع كليمر وأحزمة الذخيرة عيار ام-60، ومشوا بتناقل إلى دائرة المجنزرات. كانوا يبدون لي مثل أغبياء النفط الفجين، محنية ظهورهم، ومرهقين من دفع الأنبوب طوال الليل في تجهيزات الحفر القذرة. لقد كانت صورة موافقة لهم. فقسم كبير من صغار المتطوعين في الكتيبة كانوا من بيوت الياقات الزرقاء. وكثيرون كانوا بيضاً، والبقية كانوا سوداً أو هسبانيين. معظمهم كانوا مسحوبين بقرعة عسكرية، وآخرون، مثلي، تطوعوا بسبب من الوطنية وحس المغامرة. لم يكونوا خبراء في الإنشاء الإنجليزي أو في الجدول الدوري للعناصر.

ولكنهم احتفظوا بعدتهم، أي أسلحتهم، نظيفة، واستخدموها استخداماً جيداً. لم يشعروا بالذعر عندما فرقعت الطلقات الخطاطة أمام وجوههم في غابات الخيزران. لقد أطلقوا النار وناوروا، مثلما فعل آباؤهم بالضبط في شجيرة النورماندي أو الغابات المنتنة من جزيرة لوزون.

لقد مدوا يد العون للجيش.

كنت وأنا أراقب الجند في شمس صباح رطب، أحس بخفقة حب، وكأن هؤلاء الشباب كلهم إخوة لي أو أبناء عمومة أقابلهم لأول مرة. لقد كنا عائلة واحدة في هذا القفر الغريب، ترتبط بروابط حميمة مثل رابطة الدم.

واحد من الشباب الذين كانوا في مركز التتصت جرجر رجليه من جانبي، وكان من الواضح أنه أكثر إرهاقاً مني. وبعد خمس دقائق سيرجع إلى مجنزرتة، ونحن نصخب ونتحرك خارج المكان الذي نحن فيه لنحرم هاونات الفيتكونغ من هدف سهل. ولكنه الآن توقف وتثأب تثأباً عميقاً.

وقال: "يا إلهي، إن رائحتها عظيمة، يا ملازم. ماذا لديك هناك؟"

"أظن أنهم في باريس يسمونها قهوتك الأساسية بالحليب. ولكن مع شوكولاتة."

"لا شك. ليس عندنا مثلها في كينوشا. هل مذاقها طيب؟"

وناولته العلبة، وأدرت له غطاء اليد المنحني لئلا تحرق أصابعه وقلت: "خذها. عندي وعاء كامل في المجنزرة."

طبعاً لم يكن لدي شيء. ولكن هذا العسكري كان يحتاج إلى القهوة أكثر مني.

"شكراً غير عادي للغاية، يا ملازم."

وكان الشاب يصفر في الحقيقة وهو يدرج بعيداً ويرتشف الشراب الحلو.

كنت غاطساً حتى ارتفاع الكتف في ماء القناة المستنقع. واهتزت ضفة الطين عندما ضربت طلقة الهاون حقل الرز الفارق في الماء، على بعد ثلاثين متراً خلفي. كنا ما زلنا مثبتين في موقعنا منذ غروب الشمس، والآن، بعد سبع ساعات ما تزال سرية تشارلي غير جاهزة لفك التماس.

لقد تم إدخال السرية إلى الطرف الجنوبي الغربي من سهل القصب بعد ظهر ذلك اليوم بلا شائبة تشوبه. وقمنا باكتساح طويل لحقول الرز، وللقرى، ولمحطات الغابة، وبحثنا عن كتيبة الفيتكونغ وهي القوة الرئيسية التي رفعت عنها الاستخبارات حديثاً بأنها تمركزت في هذا القطاع.

لم نجد شيئاً. وكالمعتاد، عندما كان مترجم جمهورية فيتنام يضغط على القرويين للحصول على معلومات، كانوا يحلفون على رأس بوذا بأنهم لم يروا شيئاً.

وحسبناها، مغامرة غير ناجحة، حفرة جافة أخرى كما في حفر آبار النفط، وتوجهنا غرباً على طول هذه القناة نحو منطقة التقاطنا. وقبل أن نصل منطقة الالتقاط، فتح العدو كل ما لديه بلا ضوابط: بنادقه آيه كي، والرشاشات الخفيفة والمتوسطة، والهاونات عيار 82 ملم، وبندقيتين عديمتي الارتداد على الأقل من عيار 75 ملم، نسفتا فتحتين كبيرتين في ضفة القناة، ولكن، على الرغم من ذلك، لم

يصب أحد بجروح سيئة، وكانت تلك معجزة. ولكن الغطاء الوحيد الذي كان لدينا هو القناة. وكان العدو مصمماً على أن يبقينا هنا.

في الخلف في الوطن، كان كثير من الناس يعتقدون أن الفيتكونغ كانوا رجال عصابات فلاحين، وأجبروا على أن يقاتلوا ببنادق غير متوافقة من البنادق اليابانية القديمة والطبنجات الفرنسية وأي أسلحة جديدة كان باستطاعتهم أن يغنموها أو أن يشتروها من جيش جمهورية فيتنام. تفرست في وحدات العدو وهي تناور في آخر ضوء من الشفق، فرأيت رغم ما تقدم، مفارز حسنة الانضباط في قمصان وبنطلونات الكاكي القصيرة، ويرتدي أفرادها تجهيزات نسيجية وقبعات ريف غابية مموهة، ويحملون أحزمة الذخيرة، ويحملون رشاشاتهم بي كي وهاوناتهم. وكل مفرزة فيتكونغ للأسلحة الثقيلة لديها عنصر الأمن الخاص بها الذي يطلق نيران ايه كي -47. هؤلاء لم يكونوا متمردين لجزء من الوقت. بل كانوا مشاة خفيفة من الطراز الأول.

فرقع مشعل متوهج فوق الرؤوس وتأرجح رويداً تحت مظلته، ملقياً بظلال غريبة على القناة المظلمة. وتدفقت جداول من الطلقات الخطاطة عيار 7.62 ملم نازلة من طائرة سبوكي مسلحة، وهي تدور كالأنشطة ذهاباً وحيثاً مثل خراطيم رمي من النيون في خط الأشجار البعيد. وبالتأكيد لابد أن رجال القوات الجوية قد رأوا وميض سبطانة الهاون ذلك.

كانت سبوكي من نوع ايه سي-47، وهي حاملة جند معدلة، من الأربعينيات من 1940، وكانت تستطيع في ثوان أن تشبع ميدان كرة قدم بستة آلاف طلقة رشاش. وسمعت الأزيز المقرقع الصادر عن المدافع الصغيرة الثلاثة على الطائرة القديمة والتي تدار كهربائياً، وكانت حادة في مقابل الطنين الصادر عن المحركات. واحترق المشعل المتوهج إلى النهاية وعاد الليل المظلم الذي كان بلا قمر، بظلام أحلك مما سبق.

وفجأة فكرت بتلك اللحظة على متن رحلة الطائرة المستأجرة من خطوط

كونتيننتال وهي تقترب من بيان هوا، عندما وصلت إلى بلاد فيتنام. فكرت في المشعل المتوهج الصغير الذي انفجر على مسافة، وبجداول الطلقات الخطاطة تبتلعها المناظر الطبيعية: لقد كانت منذ عشرة أسابيع، ومنذ ألف عام تقريباً.

وحالما انعطفت الطائرة المسلحة بعيداً إلى الشرق، وصلت بيدي إلى جهاز اللاسلكي بي ار سي-25 وهو على الرف الذي علقه به وايتي بالضفة بسكينته من نوع كي - بار.

وناديت البطارية في تان آن، كانوا أقرب بكثير من المدافع الموجودة في بن لوك، ولذلك فإن نيرانهم سوف تصل الهدف بسرعة أكبر. "روميو ثلاثة، صمامة تقاربية وصمامة بطيئة على تلك الإحداثيات نفسها. عاجل. العدو يتحرك في العراق."

وتأملت أن تكون المدافع الصغيرة لسبوكي قد جعلت سدنة هاون الفيتكونغ يركضون نحو استحكاماتهم في تلك الأشجار. ربما كانت الانفجارات الجوية ستصيبهم. فإذا لم تصبهم فإن المقذوفات بصمامات بطيئة سوف تخترق الجذوع والطين قبل أن تنفجر.

وفي الوقت الذي بدأت تأتي فيه مهمة الرمي تلك تشخر على الموقع، فتحت الذبذبات إلى أقرب بطارية مدفعية تالية وطلبت مهمة رمي على عنقود من الأكواخ في المقدمة اليسارية حيث حول العدو إليه واحداً من رشاشاته الثقيلة عيار 12.7 ملم، وكان العدو بلا شك يحفر له في الموقع. وفي كل مرة استطاع واحد من رماقتنا على ام-60 أن يخطف صلية نحو تلك المباني المنخفضة، كان الرشاش 12.7 يدك المنطقة على طول ضفة القناة، وبيقينا بذلك مثبتين في مكاننا لأجل الهاونات. كان يتعين علينا أن نخرس ذلك الرشاش.

وحالما كان المكان يحترق جيداً، ولم يكن هناك نيران مدفعية قادمة للموقع بشكل يهدد سبوكي، ناديت الطائرة المسلحة لتعود للموقع. "ضع كل شيء لديك على تلك الأكواخ المحترقة."

وذهبت سبوكي إلى العمل.

واستمر الليل الطويل في طحنه، بينما يأخذ مائة من الجنود الأمريكيين الشباب ملجأ لهم في خندق منتن.

وكما كان أبي يقول دائماً، لم يسبق أن حدث شيء فيه خير كثير بعد منتصف الليل، أو من على ذلك وأستقبل الرسالة.

في نقطة ما قبل الفجر، ربّت وايتي على كتفي: "ملازم، ربما تريد أن تبتعد قليلاً. أريد أن أتبول."

"لا عجب أن الماء قد صار من فوره دافئاً بهذه الشكل."

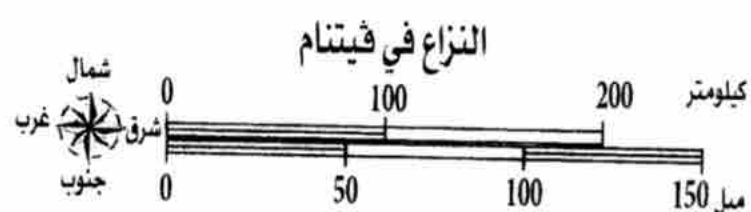
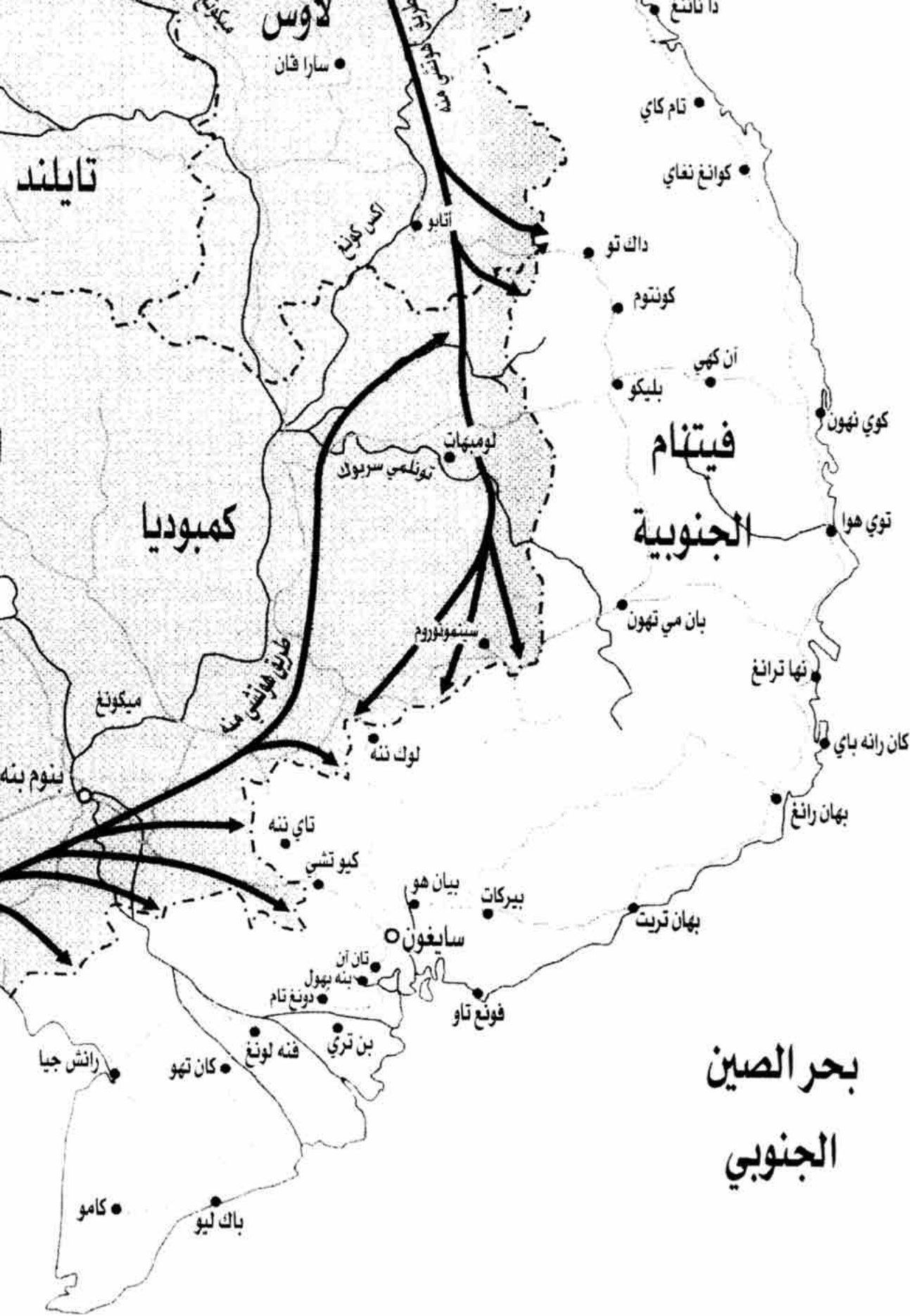
المشاعل المتوهجة أضاءت السماء المظلمة. وزّنت سبوكي فوق الرؤوس. وأطلق العدو النار، حول مواقع الأسلحة، وأطلق النار ثانية. وعندما لم أكن مشغولاً في ضبط رمي المدفعية وتوجيه الطائرة، حاولت أن أقدر كمية المعدات العسكرية والذخيرة التي صرفها الفيتكونغ منذ غروب الشمس. آلاف من طلقات الأسلحة الآلية الخفيفة والثقيلة، وربما مائة قنبلة هاون. وتلك البنادق عديمة الارتداد اللعينة. نحن متأكدون تماماً أنهم يزيدون علينا بالقوة العسكرية. ولولا سبوكي والمدفعية لربما كنا جميعاً في عداد الأموات.

وعند أول ضوء، تسلمت الطائرات العمودية هوي من سبوكي، وقصفت بنيران جارفة القنوات الجانبية الضيقة الممتلئة بالأعشاب الكثيفة التي تؤدي عميقاً إلى سهل القصب، وهي طرق هروب الفيتكونغ.

في وضح النهار، بعد أن بقينا بدون أن نتعرض لنيران العدو لمدة ثلاثين دقيقة، زحفت السرية خارج الطين وجلست بضع دقائق في الشمس الدافئة. وبدأ الشباب العاملون على أسلحة ام-60 بالتناوب بالفك الميداني لأسلحتهم ومسح الأجزاء المتحركة منها بالزيت، أي، ينظفون أسلحتهم حتى قبل أن يتخلصوا من العلق الأخضر الغامق الذي ما يزال يلتصق بسيقانهم وشتايا أجسامهم. وفي نهاية

الأمر بدأت أنا ووايتي يساعد أحدهنا الآخر، ننظف عصير الحشرات ونمسك بالسيجارات المشتعلة على العلقات إلى أن تسقط تلك الطفيليات، وهي تسيل دماً، ودعسناها إلى الوحل بكعب أحذيتنا.

وعلى الأفق الغربي المديد، كانت السماء الحارة، الصافية بلا غيوم ترجع الانفجارات وتهتز.



وفكرت، مصباح نور بالقوس الكهربائي(*) . اسحق أبناء الك... .

كانت القاذفة ب 52 الضخمة تطير على مستوى أعلى من أن ترى، وكانت تنشر أنماطاً واسعة من القنابل زنة 750 رطلاً بعيداً إلى الغرب في سهل القصب. ومن دمدمة المتفجرات المستمرة، فهم أن القاذفات كانت تضرب كل الطريق المؤدية إلى باروت بيك وإلى تستيكلز، وهي معالم الأرض التي تنشأ من الشيات في الأنهار التي كانت تجري نحو كمبوديا. وهذه أمة مستقلة بضربة حظ من تاريخ ما بعد الاستعمار، وكانت كمبوديا أيضاً ملاذاً رئيسياً للفيتكونغ وللجيش الفيتنامي الشمالي. فمن ذلك الملاذ الآمن، كانت وحدات من الفيتناميين الشماليين والفيتكونغ، من مثل الوحدة التي أبقتنا مثبتتين في مكاننا طوال الليل، تستطيع أن تتسلل إلى الدلتا، وتقوم بالتخريب الموسد لها، ثم تنقسم إلى وحدات صغيرة وتتملص راجعة عبر الحدود، وهي محصنة ضد المطاردة من القوات الأرضية الأمريكية. بعدئذ، تستريح تلك الوحدات، وتعاود التجمع، وتعاود التزويد، ثم ترجع لتضرب جندنا مرة بعد مرة.

وضعت سلاحي على كتفي وتبعت صف الجند المبللين، المرهقين نزولاً على ضفة القناة الزلقة. واستمر الضرب البعيد من النور القوسي إلى الغرب. وفكرت، وعقلي مشبع بالإرهاق: إذا عشت طويلاً بما فيه الكفاية لأصل إلى أي مكانة في هذا الجيش، فلن أدع العدو يعمل من ملاذ آمن مثل ذلك.

الملازم تومي فرانكس لم يكن يعرف إلا القليل عن الإستراتيجية، ولكنني كنت أتعلم عن الحرب على مستوى الجندي. لماذا يكون القائد مجبراً مطلقاً على أن يرى جنوده يقتلون مع دخول أسبوع، وخروج شهر، ولا يسمح له بأن يأخذ القتال إلى العدو؟ وكما قالوا في ميدلاند كان ذلك غباء أكثر مما هو صندوق صخر.

ومع ذلك عدنا بعدئذ، وكان آخر شيء كنت أتوقعه هو قرارات قيادة عسكرية

(*) في فيتنام تعني القاذفات ب ٥٢ وهي تسقط حمولتها الكاملة من قنابل زنة ٢٠٠ رطل على تجمعات جند العدو المشتبه بوجودها.

طوال عمري. ولو كنت رتبت حياتي من خلال هذه الجولة في قطعة واحدة، لكنت متزوجاً من كاثي، وخارجاً من الجيش، ومنهياً الكلية. في ذلك الترتيب.

في كل يوم عند غروب الشمس، كانت الكتيبة ترسل دورية كمائن خارج سياج سلك بنه بهوك، وفي الغالب إلى مواقع أبعد من أن يتم الوصول إليها مشياً على الأقدام قبل حلول الظلام. في وقت متأخر في أصيل يوم من كانون الأول/ديسمبر ذهبت إلى خط من عربات ام-113 الواقفة في الموقف، وكان واحد من أصدقائي في الفصيلة هو الذي يقوم بالاستعدادات وتولي الدورية الليلية. وستركب المفترزان للخروج في مجنزرات إلى تقاطع طرق يبعد حوالي عشرة كيلومترات.

قلت: "ما رأيك في أن تدعني أرمي على المجنزرة الثانية هذه الليلة؟"
"جرب ارم بها، يا توم."

وعلى الرغم من أن عربات ام-113 لم تكن تقدم حماية ضد الألغام الكبيرة أو قاذفات ار بي جي. فقد كنت أحب أن أجلس في فتحة القائد، ويدي على القبضتين الخاصتين بالرشاش عيار 0.50 بينما تهدر ثلاثة عشر طناً من الدرع على طول الطرق الطينية أو عبر قنوات الري. لقد كانت تعطيني إحساساً بأني غير قابل للتعرض للخطر.

كان سطح المجنزرة الألمنيوم ما يزال حاراً من الشمس عندما سحبت نفسي إلى الأعلى، وحنيت هوائي جهاز الإرسال اللاسلكي، وربطت عليه علمي الشخصي. وكانت وحدات عديدة تملك راياتها المثلثية الخاصة التي ينقش عليها سيفان متقاطعان أو جماجم القرصان مع العظام المتقاطعة. وبعض المجنزرات رفعت العلم التقليدي للمشاة "ملكة المعركة". ونظراً إلى أن المدفعية كانت ملك المعركة، فقد أعطيت خياطاً في قرية تان آن كرتون دخان من نوع لكي سترايك ليصنع لي راية حريرية سوداء تحمل كلمات: "كرات من أجل الملكة، مكتوبة بالحروف البيضاء. ولم تكن المقذوفات شديدة الانفجار من عيار 105 ملم كرات مدفع بالضبط، ولكن لماذا

ننشغل بالتفاصيل؟ كنت ما أزال أحمل ما يكفي من شاب الكلية لأقتنص ضحكاتي في كل مكان أستطيع أن أجدها فيه.

وقادت مجنزرة قائد الفصيلة بقية المجنزرات في الطريق ، وهي تصلصل على طول السير إلى عين الشمس الغاربة المنخفضة. وكان الأفراد قد فتحوا كوة السقف العلوية وجثموا بأنفسهم على صناديق الذخيرة وأكياس الرمل، وأجسامهم العلوية خارجة في الفضاء مثلي. ولم يكن هذا لمجرد التمتع بنسمة المساء الرطبة. إن اللغم المدفون في الطريق أخطر بكثير على الجند وهم داخل المجنزرة من خطر نيران بندقية ايه كي أو رشاش على الذين يجلسون على أكياس الرمل وأجسادهم العلوية مكشوفة معرضة للرمي.

بعد وضع الدورية، أسرعنا عائدين ونحن ندخل في بدء هبوط الظلام في الغسق، ونصل تقريباً إلى سرعة ثلاثين ميلاً في الساعة على امتدادات من الطريق مرصوفة بالحصباء رصفاً صلباً وتسير الطريق فيها على طول حافة فوق حقول الرز. ولكن عندما أبطأنا من أجل مقطع موحل من الطريق، شكلت قطعة من الغابة عن اليسار شكلاً ملتوياً كالأفعى، ربما كانت نباتات مرتفعة نمت في قاع جدول فاض في المونسون. وكالمعتاد، كنت مستحراً ومتعباً، وعطشان، وكان عقلي مع حمام بارد وعلبة بيرة بلو ريبون مثلجة.

وفجأة قصف الرشاش عيار 0.50 الموجود على مجنزرة قائد الفصيلة صلية رمي طويلة. وصاح: "تماس، اليسار أماماً." وكان صوته عالياً في سماعتيّ اللاسلكيتين.

ورأيت السبطانة تومض تماماً في الوقت الذي كانت فيه عصفة من طلقات بنادق ايه كي والرشاشات تفرقع من جانب رأسي. وطارَت الطلقات الخطاطة الخضراء نحو المجنزرة، والعديد منها يصفق الهيكل. أدت رشاشي عيار الخمسين وشغلت مفتاح الاتصال الداخلي وصحت بالسائق: "توجيه محايد إلى اليسار." وقام

السائق بالتدوير السريع للمجنزرة لتواجه صف الأشجار في الاتجاه المقابل المباشر،
مواجهاً العدو بأضيق وجه من عرباتنا وبأثقلها تدريجاً.

واهتزت قبضتا الرشاش في يدي وأنا أطلق صليات رمي متكررة، ماشياً
بالطلقات الخطاطة البرتقالية إلى داخل صف الأشجار. مضى علي شهران في بلاد
فيتنام، وربما كانت هذه هي المرة العاشرة لي في القتال بالنيران، إحساسي بالخوف
قد استبدل منذ وقت طويل وحل محله التركيز والأدرنالين.

وتدفقت ظروف الطلقات الساخنة من مغلاق رشاش الخمسين، محدثة صوتاً
بين قدمي. ثلاث أو أربع طلقات في الصلية، ثماني أو تسع صليات... خمس عشرة.
وقععت آخر طلقة تخرج من الشريط المفصلي في علبة الذخيرة التي تتسع مائة
طلقة. فككت رتاج العلبة الفارغة، ورفعت أخرى في المكان المخصص، وعبأت
شريطاً جديداً. وما تزال بندقية ايه كي تومض منخفضة في صف الأشجار. خمس،
ست صليات أخرى. وبندقية ايه كي أخرى، أبعد إلى اليسار. وكانت طلقات الرشاش
خمسین الثقيلة تمزق الأشجار إرباً إرباً.

ثم انفجر شي ما في الفتحة. وأحسست كأن مضرب بيسبول يصفق على
ساقی الأيمن تحت الركبة تماماً. هل انفجرت آخر طلقة في الشريط في المغلاق
نصف المفتوح، وقطعت ساقی بشظية من النحاس؟ أو هل ارتدت طلقة من طلقات
الفيتكونغ من خلال الفتحة المفتوحة؟ زفت... لا يهم فأنا بخير.

والى جانبي في المجنزرة الأخرى كان الرشاش الموجود على حلقة الفتحة يدور
إلى خلفنا. فصديقي كان يشتبك برشاشه عيار 50.0 مع فيتكونغ يجثم في حقل الرز
خلفنا.

وها تفني باللاسلكي: "نحن هنا، يا توم."

وعبأت علبة ذخيرة ثالثة والسائق يصفق الباب ويدخل في تجهيزاته، وهدرنا
على الطريق نحو بنه بهوك.

كانت رجلي خدرة عندما وصلنا. وسحبت طرف بدلة العمل، ومسحت بعض اليود على بطن ساقي، وربطت مربع شاش على الجرح.

ألقيت نفسي في الهواء الرطب لمروحة تستقر على قاعدة في "نادي" بانديدو تشارلي، وهو مُعتكف في واحد من أكواخ السرية، وكرعت أول بيرة مثلجة في ثلاث جرعات.

وسأل الملازم تشارلي تيلور: "كيف سارت الأمور في الخارج هناك؟" وقلت: "تماس صغير، الأوغاد... حاولوا أن يضربونا ضربة غير متوقعة من قناص. روح أخرى لبوذا... بالمناسبة، هل تسمع عن هذا المرشح آجي من إل باسو في باريس في بيت عاهرات...؟"

"هيه، توم، انظر إلى الأرض."

كانت هناك بقعة من الدم بسعة غطاء علبة قمامة منتشرة حول حذائي العسكري الأيمن.

وضعني الطبيب على طاولة الفحص، مضيئاً نوراً ساطعاً على الساق وهو يعصر ضمادة ضغط. وقال وهو يتراجع ليصل إلى صينية من أجل مسبار فولاذي لامع: "يجب أن نسبر الجرح. وهذا قد يؤلم قليلاً."

وضرب بخفة مُصدراً صوت تاب. تاب وغرز المسبار مسافة حوالي أربعة إنشات في عضلة ساقي. تاب. تاب. تاب. ولم تبق الرجل خدرة بعد ذلك. يحتمل أن يكون في الداخل قضيب أحمر حار.

وتنفست شهيقاً: "أوه، زفت..."

"عندك كتلة من شيء ما في الداخل هناك، يا ملازم. قطعة معدن." وعندما كانت طائفة الإخلاء الطبي العمودية من نوع هوي تطير إلى الجنوب الغربي عبر الليل البارد نحو المستشفى الجراحي الثالث في دونغ تام، بدأ المورفين يعمل عمله. المزيد من الأنوار الساطعة. وروائح الأدوية. والممرضات المتعبات. وصبي بائس على

نقالة بجانبى، ورأسه كرة من ضمادات الميدان الخضراء الدامية. وكانت رجلى وارمة على نحو سيئ، ولكن المورفين عومنى بعيداً. وخرجت من الجراحة بمطارق خفية تسحق رأسى وساقى. ولم أكن أرغب فى التقيؤ أمام تلك الممرضة الجميلة المظهر.

وجاء جراح وهو يضع نظارات بلاستيكية للأفراد وقد أمسك بملقط ورفع به قطعة فولاذ ملتوية. "تذكّر، يا ملازم. كان علينا أن نقص قصاً عميقاً تماماً لنخرجها. إنك محظوظ جداً لأنك لم تنزف فى مجنزرتك. ما يزال هناك خطر الالتهاب، ولذلك فسوف نخليك إلى مستشفى الميدان الثالث فى سايجون."

والمزيد من هواء الليل البارد من الباب المفتوح فى الطائفة العمودية من نوع هوي. كان الألم يأتى ويذهب. أما الحرب فلا. وبدأت أرتعش.

ولم أبق بعد ذلك كرات لا تقهر من أجل الملكة.

وحافظت المراوح الدوارة فوق الرؤوس على الجناح بارداً، ولكنها لعبت دوراً سيئاً للزينة التى تغطي شجرة عيد الميلاد البلاستيكية. وكانت وجبة الفطور فى ذلك الصباح فى وقت مبكر. وغير الخدم بياضات السرير، وقام العمال الفيتناميون بمسح أرضيات الحجرة وجدرانها. وكان عرض الممثل الفكاهي بوب هوب لمنظمات الخدمة الأمريكية يكتسح المستشفى قبل الغداء. ولكن رجلى كانت ما تزال تحمل أنبوبى تصريف سوائل، ولذلك لم أستطع أن أعرج وأمشي للخارج إلى كرسي فى الفناء حيث تجري تأدية العرض. وبدلاً من ذلك دحرج العاملون عدداً من الأسرة إلى نهاية الممر وفتحوا الأبواب المضاعفة كي نستطيع أن نسمع. كان تداخل الأصداء سيئاً، ولم أستطع أن أفهم النكات. ونمت وموسيقى الروك تضرب بعيداً عن الجدران.

بعد وقت لاحق، فتحت عيني. أعدت إلى الجناح. وكان شخص ما يجلس على

جانب السرير.

كان صوتها ناعماً: "مرحباً، يا ملازم" كانت جميلة: شعر طويل كستنائي على كتفيها العاريين، وقميص صغير أصفر وأبيض عاري الصدر والكتفين على تنورة كانت تنتهي عند وسط فخذيها الناعمين السمرائين. وانحنت للأمام. وقاومت الإغراء بالتفرس في جسدها المثير، اعتقد أنني خسرت. وقالت: "عيد ميلاد سعيد." ثم انتقلت إلى السرير الثاني. كنت الآن قد استيقظت يقظة كاملة.

وفي تلك الليلة، أحضر متطوع من الصليب الأحمر مسجلاً بشريط تسجيل على دوايب إلى الجناح، كي تتمكن جميعنا من تسجيل شريط بمدة عشرة دقائق إلى عائلاتنا، وأرسلت رسالتي إلى كاثرين. وكانت ساقي تشفى بشكل جيد كما أكدت لها. وأن عرض بوب هوب كان "خيالياً." "وأنتي كنت مشتاقاً إليها. وآه، نعم، إن ممثلة نجمة سينمائية جميلة، كان اسمها "راشيل ويلز"، على ما أظن، جاءت وجلست على سريرتي.

وبعد سبعة وثلاثين عاماً، عندما قابلتها أنا وكاثرين في العام 2002 على عشاء مراسلي البيت الأبيض، كانت راكيل ويلش ما تزال جميلة.

في شهر كانون الأول/يناير 1968م، عندما غادرت المستشفى، أعيد تعييني ضابطاً تنفيذياً بالبطارية دلتا 204 المدفعية، وهي وحدة تجريبية كانت تنشر مدافع هاوتزر عيار 105 ملم خفيفة الوزن محمولة جواً على ام-102، إلى داخل حقول الرز، وتحمل المدافع على منصات معدنية واسعة تبقى مستوية بواسطة أربع أرجل قابلة للتعديل والضبط، والطائرات العمودية سكاي كرين سي اتش-54 الضخمة، والتي كانت تبدو مثل حشرات ما قبل التاريخ، تحمل المنصات للخارج إلى أرض مسطحة موحلة. وبعد أن يقوم سدنة المدفع بضبط الأرجل لتسوية المنصات تعود الطائرات فتأتي بالمدافع والشبكات مليئة بصناديق الذخيرة.

ونظراً إلى أن ساقي كانت ما تزال عرضة لخطر الالتهاب، لم أكن أستطيع أن أعمل بشدة عبر الطين والعلق بصفة راصد أمامي مع سرايا الجبهة. ولكنني لم أكن راضياً عن الجلوس في مركز توجيه النيران في الكتيبة في تان آن، لأنني أستطيع،

نظرياً، أن أحافظ على ساقي جافة. ولذلك قفزتُ إلى الفرصة التي سنحت لأكون على منصات الرمي مع المدافع. كان عملاً قاسياً: كانت شمس الفصل الجاف تحول المنصات إلى مقلاة. وكنتُ تستطيع أن تشعر بالحر من خلال نعال التقوية في أحذيتك الخاصة بالغابة.

وعندما أطلق العدو هجوم تيت في شهر شباط/ فبراير 1968، هاجم الجيش الفيتنامي والفيتكونغ كل مدينة، وكل بلدة كبيرة، ومعظم قواعد الرمي في فيتنام الجنوبية. لا تسألني أين كانت بطارية دلتا في أي يوم معين أو ليلة معينة، كنا نُرفع من ورطة إلى أخرى، نغرق من خلال العمل كالعبيد في إقامة المنصات، والرمي في مساندة معسكرات القواعد المحاصرة، الأمريكية منها وتلك الخاصة بجيش جمهورية فيتنام. كنا ننام عندما نستطيع، ولم يكن ذلك كثيراً، وانكسرت ظهورنا ونحن ننقل البطارية من موقع إلى آخر، مرة بعد مرة.

ولم يكن مقاتل الفيتكونغ يحبنا مطلقاً. كنا نرمي النيران على تشابكات أشجار التين الهندي الاستوائية وقطع من الخيزران، حيث كان مقاتل الفيتكونغ قد حفر له حفرة واختبأ بأمان طوال سنوات.

لا تعرق إذا صارت رجلي رطبة ومنتفخة، وإذا ورمت الغدد الليمفاوية الموجودة في ثايان جسمي قليلاً وأصبت بالحمى. كنتُ أعمل ما بدا لي صحيحاً: مهاجمة العدو بنيران سريعة ودقيقة. كان الجيش الفيتنامي الشمالي والفيتكونغ قد شنوا هجومهم بهدف إيقاع أقصى عدد من الإصابات في صفوف الأمريكيين وجيش جمهورية فيتنام، مختارين بذلك التسارع في حرب الاستنزاف الطاحنة، ومختبرين قوة نيراننا... وقوة إرادتنا.

وفي الخلف في بنه بهوك، عمل المدفعيون في حفر المدافع بدون قمصان، وفي الأغلب بدون خوذة، وسترهم الواقية من الرصاص مكدسة إلى جانبهم. درع الجسم كان حاراً جداً ومربكاً عندما تكون عاملاً مع سدنة المدفع. ولكن النقيب بل باون، قائد بطاريتي الجديدة في بطارية دلتا، أصر على أن يلبس السدنة قميصاً،

وسترات واقية من الرصاص، والخوذات. كان بل باون ضابطاً كيّساً نذر نفسه لعمله، ولكنه بالتأكيد لم يكن يفهم نفسية الجند، أو هكذا ظننت.

في أحد الأيام، بعد أن طار النقيب ليقوم بمسح لموقع الرمي التالي، استدار الجند إلي وقالوا: "هيه، يا ملازم، هل يجب علينا أن نبقي مرتدين كل هذا الزفت... علينا؟"

"ابدؤوا واخلعوها."

وعندما عاد النقيب باون بعد ساعة، قال للجند أن يلبسوا تجهيزاتهم. ثم أخذني إلى جانب ووبخني على كسر الإجراءات.

لقد أهنت، وأحبطت. "يا نقيب، لقد ألغيت أمري. لقد جعلتني أبدو كالأحمق أمام الجند."

وحدق في عيني. "يا ملازم فرانكس، عندما تتعلم أن تعمل واجبك لن يكون علي أن أفعل ذلك بدلاً عنك. أن تكون ضابطاً جيداً ليس معروضاً في التنافس على الشعبية."

كرهت سوء التقدير... ذاك. ولكني لم أنس ذلك الموقف أبداً. وفي الحقيقة اتبعت نصيحته طوال خمسة وثلاثين عاماً تلت.

بعد عصر ذلك اليوم كنا قد ركزنا المدافع في القصب العالي قرب قناة بو بو، وهي واحد من مصادر التسلل الرئيسية لجيش فيتنام الشمالية من كمبوديا. وأرسلت كلمة إلى كل المنصات: من الآن فصاعداً على كل جندي أن يلبس قميصه، وسترته الواقية من الرصاص، وخوذته الفولاذية. وحيا الجند هذه الأخبار بتذمر متآلم، كنت أعرف أنهم قد أغضبوا، ولكنهم فعلوا مثل ما أمروا.

بعد منتصف الليل، قامت سرية من الفيتكونغ بالخوض في المياه بصمت نحو المنصات، دافعين زوارق محملة بقاذفات ار بي جي. كان القتال سريعاً ووحشياً بشكل خاص. كنا قد تأكدنا من أن مدافعنا ام-60 كانت تغطي نطاق محيط موقعنا،

وأن المدافع كانت تستطيع أن تطلق طلقات خلية النحل(*) في دائرة كاملة. وعندما بدأت الطلقات الخطاطة الحمراء والخضراء تقطع ذهاباً وحيثاً، عمل سدنة الهاوتزر على عطف السبطانات لمستوى الصفير. وكان كل مدفع يطلق طلقات خلية النحل مستقلاً، وكانت أسنة اللهب تضيء الماء المظلم عندما كانت آلاف صواريخ خلية النحل تشق حقول الرز.

قتلنا مجموعة من الفيتكونغ في تلك الثلاثين دقيقة الجنونية. وكانت خسائرننا خفيفة، قلة من العسكر أصيبوا بجروح طفيفة، ولكن لم يكن هناك ما يحتاج إخلاء جواً. وكل تلك الخوذات المتصببة عرقاً والسترات الواقية كانت قد أوقفت الكثير من شظايا قاذفات آر بي جي والرصاصات المرتدة من بنادق إيه كي. وعندما كنا نعمل تحت وطأة حر الشمس في الصباح التالي، لم أسمع أي كلمة من الشكوى.

بعد أسبوع تحركت البطارية إلى قاعدة رمي أبعد إلى الجنوب. وفي أول ليلة كنا فيها في الموقع الجديد، أصابت طلقة هاون من العدو واحداً من مستودعات ذخيرتنا، واندفع العدو مهاجماً من ذلك الركن من محيط موقعنا. كان السلك قد نسف، والدخان يخرج من أكوام أكياس الرمل المدخنة. سحب بعض الرجال من سدنة المدفع، وأسست محيطاً لوقف الثغرة خلف بعض الشاحنات. وبالبنادق والقنابل اليدوية، أمسكنا خط الجبهة.

وفي أثناء قتال رمي النيران، وقعت طلقة من عيار 105 ملم في الحطام، وأصبت ببعض الشظايا في يدي وساعدي، ومع ذلك لم تكن الإصابة خطيرة، ولكن الكتيبة أمرتني بالعودة للخلف إلى تان آن للعمل في واجب خفيف. كانت يداي في الضمادات، وكنت مازلت أعرج قليلاً، ولكنني لم أحب فكرة التحول إلى العمل في النسق الخلفي مع أولاد... أمهم، بينما يقوم كل جنودي بالقتال.

وهكذا صرت راصداً أمامياً جواً، وهي النسخة الطائرة للراصد الأمامي.

(*) ذخيرة تستخدم للقتال القريب، ولا يحتاج الرامي لتسديد بل يوجه ويرمي. وهي مثل طلقة بارودة الصيد.

نوع الطائرة أو- 1 المسمى بيرد دوغ (كلب صيد الطيور) كان طائرة سيسنا بمحرك واحد، يجلس فيها الطيار في الأمام، ويجلس الراصد خلفه. ويوفر الجناح العالي والنوافذ الواسعة منظراً ممتازاً. ونظراً إلى أن هذه الطائرة الصغيرة تطير بحوالي 100 ميل في الساعة، فإن الأرض تحتها تتكشف ببطء، وهو ما يعطي الراصد الكثير من الوقت ليتفرس فيها. في الأيام القليلة الأولى وجدت من الصعب أن أعلم إحداثيات الهدف من الجو، فقد كنت معتاداً على منظور مستوى حقول الرز. ولكنني بعد أسبوع أو ما يقاربه صرت معتاداً على العمل الجديد. ووجهت لنا تشارلي(*) طلاقات عشوائية سهلة، ولكن الطائرة القديمة كانت مبنية لتحتمل العقوبة. ومع الأزيز الرتيب في الهواء البارد نسبياً على ارتفاع ألفي قدم فوق فسيفساء حقول الرز الخضراء والسمراء وفوق غابة الأشجار القصيرة الكثيفة، ومع القنوات وجداول شجر التين الاستوائي وهي تتلوى بعيداً في الضباب الرقيق، فقد استرجعت إحساسي بألا أهتم ولو اهتماماً ضئيلاً بعدم التعرض للخطر.

وطيارونا أيضاً أظهروا احتقاراً معيناً للخطر. أحد الشباب، وكنا نسميه عذاية، طار مثل طيار قديم في الألعاب الخطرة. رد في الهاتف الداخلي في صباح أحد أيام شهر آذار/مارس: أترى أفضل طريقة لتفقد الارتفاع بسرعة؟
"مؤكد، لم لا؟"

انقلب خط الأفق البني عاليه سافله عندما استدارت الطائرة عاليها سافلها. وفجأة صرت أحرق للأعلى في حقول الرز. وعام منظاري وسبح قرب وجهي لمدة ثانية، وقبضت على خريطتي قبل أن تبتعد خارجة من النافذة المفتوحة. كان الأنف موجهاً بشكل مستقيم إلى تحت، وبدوت لنفسي وكأنني أزن ثلاثمائة رطل: "آه، يا إلهي!" هذا الشاب مختل عقلياً.

(*) تشارلي، في فيتنام، جندي شيوعي فيكتونغ، وهو أحياناً اسم السرية سي، ج.

استوينا عند ارتفاع حوالي 200 قدم، ونحن نطير في الاتجاه المعاكس.

وضحك العظاية: "هذا ما نسميه (شق - S)".

وفي يوم آخر طار بي غاتور صديق العظاية في نمط بحث طويل فوق سهل القصب. كنا قد أمضينا في الجو خمس ساعات عندما حددنا دخان طبخ يتصاعد كالريشة من مستنقع شجر التين الاستوائي، وهو مكان لا يمكن لمديني برئ أن يخرج إليه للنزهة. حصلت على كل التراخيص وطلبت مهمة رمي من بطارية المدفعية 155 ملم. وتمزقت أشجار التين الاستوائي وتعالى منها الدخان واللهب وهنأت نفسي ونحن نطير على ارتفاع ألف ومائتي قدم في جو بارد. وفي طريق العودة إلى تان آن، استخدمت إحدى مطراتي الفارغة، معلمة بحرف "بي" بالقلم الشمع، للغرض المخصصة له. وهو شيء جيد فعلته.

وسأل غاتور: "هل كنت فوق جسر تان آن؟"

وقلت: "حوالي عشرين مرة فقط."

وصاح وهو ينظر للخلف فوق كتفه بابتسامة مكشرة خبيثة: "حسناً، أراهن أنك لم تكن تحت الجسر أبداً".

وسحب عملية شق - S عنيفة، وفجأة كانت تجهيزات هبوطنا على بعد عشرة إنشات فوق ماء النهر الموحد. وملاً الجسر ذو البرج الساند المنخفض واقية الريح الأمامية. ولثانية، فكرت في أن أضرب بابي لأفتحه وأقفز، بدون مظلة. ثم إن قعر الجسر صار فوق رؤوسنا مباشرة وكنا نخرج من الجانب الآخر، متسلقين فوق الأكواخ ومراكز الحراسة المحمية بأكياس الرمل.

وصاح: "ذلك تدريب جيد، يا توم، فأنت أحياناً تريد أن تنزل إلى تحت مستوى ضفاف القناة إذا كان رمي تشارلي موجهاً إليك".

وفكرت بأنني إذا نجحت في العودة إلى المطار، فإن مذاق البيرة سيكون جيداً بقوة... وتتبعه جرعات قليلة من مشروب ويسكي وايلد تيركي.

وعلمني العظاية أيضاً كيف أسقط قنابل جرّة مايسون (مرطبان)، وهي حيلة قديمة من الحرب الكورية. عندما كنا على المهبط في صباح أحد الأيام، راقبته يصف ست جرات مايسون سعة الواحدة باينت واحد في ظل الجناح. ثم قام بسحب ست قنابل يدوية متشظية ام - 26 ببيضاوية من حقيبة خوذته.

وقال: "يجب عليك أن تتأكد من أن قعر المعلقة للأسفل (عتلة الأمان) داخل الجرة قبل أن تسحب المسمار." وراقبته وهو "يعبئ" الجرار.

القنابل اليدوية بدون مساميرها كانت تجعلني عصبياً. ولكن، ولدهشتي، فإن حشر قنبلة يدوية في داخل جرة مايسون كان يمسك عتلة الأمان "المعلقة" مسكاً شديداً على الجدار الزجاجي للجرة، ويحافظ على الصمامة المؤقتة لأربع ثوان من أن تتفعل إلى أن يتم تحطيم الجرة عند الاصطدام. وبعد أن حشر أول قنبلة له بأمان في داخل الجرة سحب المسمار، وثبت الغطاء المزود بسداد مطاطي، وتابع ليجمع الجرار الخمس المتبقية.

ثم وضع الجرار في الحقيبة وناولها لي. "عاملها مثل البيض، يا توم. ليست فكرة حسنة أن تفجرها هنا."

عملت القنابل حسب التعليمات. وعندما كنا نطير في ذلك الأصيل، سمعت نداء على ذبذبة اللواء الثالث يقول إن دورية في جيش جمهورية فيتنام قد تتبععت أثر بعض الفيتكونغ إلى مجموعة كثيفة من أشجار الموز. ودار العظاية حول الهدف على ارتفاع يقارب ألف قدم، محافظاً على الجناح الأيمن مائلاً على زاوية حادة. ولم أكن بحاجة إلى جهاز تصويب القنابل من نوع نوردين لتحديد نقطة إسقاط القنابل، قمت بمجرد إسقاط جراري من خلال ضوء الشمس، الواحدة بعد الأخرى، وراقبتها وهي تختفي في الغطاء الأخضر. فحتى من ارتفاعنا ذاك كنا نستطيع أن نرى القنابل وهي تتفجر.

وسأل العظاية: "بعيدة تماماً، هه؟"

"كن متأكداً. هذا أفضل بكثير من الخوض مع العلق.

وبعد غروب الشمس تماماً في يوم آخر، كنا نطير على ارتفاع خمسمائة قدم فوق قناة واسعة قرب تان ترو. كنا قريبيين من المستنقعات الساحلية لشجر التين الاستوائي، وهي منطقة استخدمها تشارلي ليهرب ذخائر صعوداً في النهر، وكان غروب الشمس هو بدء منع التجول الرسمي لحركة الزوارق. وحددنا زورقاً صغيراً أسود ينزلق صاعداً في القناة في آخر أنوار الشفق.

وقام العظاية بقطع الخانق، وانحدرنا بهدوء. وسقطت جرتاي قريباً من خط الوسط من الزورق. وكان هناك عصف مرض من الانفجارات الثانوية عندما قامت القنابل اليدوية بإطلاق الذخائر المخبأة تحت غطاء القنب.

وصاح العظاية: "مدين لك ببيرة."

"صح، اللعنة أنا...." واهتزت الطائرة وزاغت بشدة، وكأننا قد جرينا فوق جذع شجرة في طريق. وأتبعنا الطائرة بطلقات خاطئة متمائلة والعظاية يغوص. وقلت: "عمل عظيم. لقد أخطأتنا طلقاته."

وصاح العظاية: "ليس تماماً. ابن الك... أصاب دولابنا الأيمن فأزاله كاملاً."

وانحنيت نحو تيار ريح المروحة. مؤكد تماماً، فدعامة جهاز الهبوط الأيمن كانت مقطوعة نزولاً إلى منتصفها وكان ذلك بفعل مقص صفيح عملاق.

وعلق العظاية: "سيكون هبوطاً مثيراً للاهتمام."

وضغطت على السترة الواقية التي كنت أجلس عليها دائماً، بينما اتصل العظاية باللاسلكي مع تان آن ليجهزوا شاحنات الهبوط العنيف. وعندما كان ينعطف جنوباً من أجل اقتراب طويل، بطيء، قمت أنا بشد تجهيزاتي إلى درجة ضيقة جعلت ساعدي يتخدران. وبزغت أضواء القاعدة بينما حافظ العظاية على الطائرة بحيث يكون أنفها إلى الأعلى، وجناحها الأيسر للأسفل. وبعد قليل كنا فوق المدرج، خمسة عشر قدماً ثم عشرة أقدام. ولامس الجهاز الرئيسي الأيسر والدولاب الخلفي المهبط في الثانية ذاتها. وأمسكت نفسي والعظاية يتدبر أمر عصا

القيادة والخائق، ويحافظ بشكل ما على الجناح الأيمن ليمنعه من العرقلة والنزول إلى تحت فيقذفنا ويستمر في ذلك إلى أن يكون قد استنزف السرعة. وعندما جاءت الانعطافة الأنفية الأرضية الحادة التي لا بد منها، كانت عنيفة، ولكنها لم تكن كارثية. فهذه الطائرة، كلب صيد الطيور، ستعيش لتصطاد ثانية.

في تلك الليلة في نادي تان آن أكرمت الطيارين بالمشروبات الكحولية والبيرة. بعد أن شفيت ساقِي، عدت إلى بنه بهوك بصفة ضابط ارتباط للكتيبة الخامسة المدفعية، ومسؤول عن الراصدين الأماميين للسرايا الأربعة. كان المقدم إيرك أنتيلا قد تولى قيادة الكتيبة. كان ضابطاً هادئاً في الأربعينيات من عمره. وهو مسحوب بالقرعة العسكرية بعد الحرب العالمية الثانية وكان قد تخرج لاحقاً من كلية ويست بوينت. ومنذ ذلك الوقت، حصل على درجة جامعية في الفيزياء النووية وكان يعمل في درجته في الدكتوراه.

لم يسبق لي أبداً أن قابلت مثقفاً من عيار أنتيلا. ولكنه هو أيضاً برهن على أنه قائد قتالي شجاع وحاسم.

حياني في ذلك الصباح الأول في مقر قيادة الكتيبة في الجانب البعيد من قرية بنه بهوك. كانت هناك مجموعة شعرية مجلدة بغلاف جلدي على رف كتبه، وحفنة صغيرة من الصور النسخ التي تبينت بشكل غامض أنها صور مرسومة للفنانين الفرنسيين الانطباعيين معلقة على الجدران المصنوعة من ألواح الخشب الخشنة.

"فرانكس، ماذا يسمونك تومي أو توم؟"

"عادة توم، يا سيدي."

وتبسم. "لا بأس، توم. إنهم يقولون إنك تعرف شيئاً ما حول المساندة بالنيران." وكان يقلب الصفحات خلال الملف البني لإضبارتي الشخصية. وقائد كتيبتك في المدفعية، بوب ديرميير يسميك (بطلاً شاباً) ماذا تقول في ذلك؟"

"حسناً، يا سيدي... بدأت بذلك، ووجهي يزداد وهجاً حاراً تحت تلويحه بالشمس ستة أشهر، وأكملت: "أنا أقوم بواجبي فقط."

"توم، الشجاعة هي واجبنا. نحن مسؤولون أن نقدم القدوة والمثال لجنودنا. وآمل أن أعيش المثال الذي قدمه الضباط الشباب أمثالك وأمثال لي آلي في الوحدة 5-60."

في الشهور التسعة التي خدم فيها لي آلي في الكتيبة، كان قد قاد الجند خلال بعض القتال الذي يعتبر من أعنف أنواع القتال الذي رآته أي وحدة في فيتنام. وقد قام قائد كتيبتنا السابق، المقدم وليام ستيل، بترشيح لي آلي لوسام الشرف بعد أن قام لي بإنقاذ أعضاء مجروحين في فصيلته، وهي فصيلة الاستطلاع التي قادها تحت نيران كثيفة، وجمع حوله المدافعين عن قاعدة رمي كان مئات من الفيتكونغ قد اجتاحوها تقريباً في شهر تشرين الثاني/نوفمبر.

"لي آلي من فريق كبير عالي المستوى، يا سيدي، وأنا من نادي مزرعة صغير من مستوى ثان أقل للبدلاء."

"إنهم يشربون المارتيني في نادي المزرعة عندكم، يا توم."

"تذوقتها مرتين في الكلية، سيدي."

وتبسم ثانية. "جيد. لأنني أستمتع فعلاً بمارتيني البيفئتر، وأنت وأنا سوف نقضي الكثير من الوقت معاً."

في ذلك الصباح، في مكتب إيرك أنتيلا، بدأت الدراسة في واحدة من أهم مدارس القيادة التي سبق لي أن درست فيها.

وفي عصر يوم الأربعاء في شهر آذار/مارس، كنت القائد في مجنزرة في قوة رد الفعل التي قادها لي آلي وخرج من قاعدة رمي جديدة جنوب بنه بهوك على الطريق الرئيسي العام رقم 4. تسلمنا مكاملة تفيد أن عربة ام-113 للكتيبة قد دمرت بلغم على الطريق إلى كي لي. كانت الطريق واسعة ومستوية بشكل معقول، ونسير على طول حافة فوق حقول الرز الجافة، المليئة بالأعشاب الضارة. وكان هذا

القاطع هو قلب البلاد الهندية، وهو القاطع الذي خدم فيه معظم الرجال بالدوام الكامل في القوة الرئيسية من وحدات الفيتكونغ.

كان يمكن لما وجدناه أن يكون صورة من جحيم دانتي، وهو كتاب كان إيرك أنتيلا قد أقنعني مؤخراً أن أقرأه، في محاولة لبذل جهد "لتوسيع عقلي".

امتدت الحفرة التي يتصاعد منها الدخان عشرة أقدام عمقاً ومثل ذلك على الأقل عرضاً. وكانت القطع الملتوية من المجنزرة بارزة من الحفرة، مثل شظايا علب الصفيح التي كنا ننسفها بقنابل الألعاب النارية في الخارج في الخنادق الجافة حول ميدلاند. ولكن ناقلة جند مدرعة زنة ثلاثة عشر طناً لم تكن علية بندوق (طماطم) مسلوقة. لقد كان الانفجار قوياً إلى الدرجة التي نسف فيها محرك الديزل الكبير في العربة ونسف مقدمتها لمسافة أربعين قدماً في الاتجاهات المعاكسة.

وعندما نزلت إلى الوسخ المحفور، لم أستطع التصديق أنني كنت أنظر إلى بقايا مجنزرة. ترجل لي آلي ووقف إلى جانب سائقي وجانبي. وكان وجه لي ملتوياً بحلق بارد، وكانت عيناه ضيقتين.

وقال، وهو يحدق في مجال انتشار الحطام: "يجب أن يكون ذلك على الأقل بزنة 500 رطل من شديد الانفجار. ويحتمل أن أولاد الحر... الأوغاد زرعوا قنبلة غير متفجرة من قنابل القوات الجوية، وجهازها بصمامة مع غطاء انفجار".

وسأله سائقي: "من الذي كان يتولى الرمي فيها؟"

وقال لي بهدوء: "الملازم بهر".

كان الملازم الأول ديك بهر واحداً من أكثر قادة الفصائل خبرة في سرية تشارلي. وعندما كنا نقف عند حافة الحفرة، انتشر الجند من المجنزرات التي كانت خلفنا كالمروحة بصمت، وبدؤوا يبحثون عن الموتى. وللحظة كنت متجذراً في المكان، ثم إنني أجبرت نفسي على أن أتحرك، حذاء أمام الآخر، وأنا أتحامل على نفسي.

على متن تلك المجنزرة كان هناك خمسة رجال مع ديك بهر. واحد منهم، وهو

السائق، قذف به بوضوح، مات بجسمه في قطعة واحدة، ملتويًا على الطين الجاف على مسافة حوالي عشرين قدماً بعيداً على الجانب الآخر من الحفرة.

أما الجنود الآخرون فقد تفجروا إلى قطع. وتقدمت ببطء مع الجند على طول طرف حافة الطريق نزولاً إلى حثالة خندق الماء. ظهر لنا رأس مقطوع على السطح، والوجه للأسفل. كان شعره مقصوصاً قصة قصيرة مثل مجند مستجد تقريباً أو في التدريب الأساسي.

وهمس جندي: "واحد من الشباب الجدد."

وارتمى ساعد عار من المرفق للأسفل وكان مثبتاً على الضفة الموحلة، قد غطاه الذباب قبل أن نصله. وقال جندي آخر: "في يده خاتم زواج." ووصل إلى المكان وأمسكه بلطف في المعطف الواقى من المطر الذي كان يحمله لجمع أجزاء الجسم.

وأنا تسلقت الضفة ووجدت جزءاً من الساق الأيمن لجندي، وكان القدم ما يزال في الحذاء العسكري الخاص بالغابات المربوط بخيوطه ربطاً محكماً بشدة. وفي الأعلى عند الحافة قرب الفوهة، كانت الرائحة المنتنة المنبعثة من المتفجرات عالية الانفجار، واللحم المحترق، والدم قد أصابتنى بالدوار. فقطعت الطريق مثل جسد ميت انبعثت فيه الحياة ثانية وساعدت الجند في الخندق الآخر في جمع قطع الأموات.

ليس لدي أدنى فكرة كم لبثنا هناك. قد تكون دقائق. ولكنني شعرت أنها أيام. وعندما انتهت، كان معنا ثلاثة معاطف واقية من المطر مشبعة بالرطوبة ومشدودة بحبل مظلي أخضر عبر ثقب التسليك. أكياس مليئة بكتل من اللحم الثقيل.

وعندما كنا نحمل المعاطف إلى القسم المنحدر من مجنزرة لي، كان جمهور من المدنيين الفيتامين يقف على بعد عشرة أمتار يحملق فينا ووجوههم فارغة من أي معنى.

وأقسم واحد من الجند، وهو يحرق بالفلاحين: "السفلة مصاصو... إنهم قد

رأوا من الذي زرع اللغم. يجب أن نأخذ واحداً من هؤلاء الأوغاد ونقتله. فذلك سيجعلهم يتكلمون."

وراقبت وجوه الفلاحين. هؤلاء الناس كانوا يعرفون من الذي زرع تلك القنبلة. ولكن هل هم الذين زرعوها؟ هل كانت تلك السيدة العجوز التي تلبس صندلاً بلاستيكيًا غير منسجم، ففمها مبقع بالأحمر من عصير التنبول؟ أو ذلك الشاب بالساعد المفتول، الذي حفر المجرور كي يستطيع أصدقائه أن يزلّقوا الأسطوانة الثقيلة للقنبلة في الحفرة؟ ربما كنا ننظر إلى مفرزة هندسة من الفيتكونغ، ترتدي ملابس مثل الفلاحين. فلو أن واحداً منهم سحب قنبلة يدوية من تحت قميصه الطويل، كان لدينا ما يبرر لنا قتلهم جميعاً.

لا. هؤلاء الفلاحون كانوا خائفين. والفيتكونغ سيطروا على كل هذه القرى. وتذكرت قرية صغيرة في الجانب الآخر من دونغ تام، وفيها قامت طبابة الجيش بتطعيم الأطفال ضد الحصبة. وفي إحدى الليالي جاء الفيتكونغ ودخلوا وقطعوا سواعد أولئك الأطفال، انتقاماً من التعاون مع العدو الاستعماري. الفلاحون في هذا الطريق لم يكونوا هم العدو... كانوا هم الضحايا.

استدرت بعيداً وأغلقت عيني، مكافحاً ألا أختق من الرائحة النتنة ومن بغضائي المريرة. وعندما عدت ونظرت ثانية، كان الفلاحون يمشون مبتعدين. ستة شهور أخرى في هذه البلاد.

بعد أن فعلنا كل شيء كنا نستطيع أن نفعله عند حفرة العرية م-113، أمرنا المقدم أنتيلا أن نعود إلى بنه بهوك. كان الرجال أكثر ذهولاً، وأكثر امتلاءً بالغضب ضد كل شيء أو أي شخص فييتامي، من أن يقاتلوا قتالاً فعالاً. وعندما قام رجال تسجيل القبور بنقل الموتى من مجنزرة لي، مشى المقدم أنتيلا على طول صف المجنزرات الواقفة داخل نطاق القاعدة، وكان هادئاً، ومتوازناً، ولكن يفيض بالحزن بشكل واضح. ونظر إلينا جميعاً، ثم نظر إلى مجنزراتنا.

وقال: "هذه العربات تحتاج إلى صيانة، وقد حصلنا قبل قليل على شحنة بطاريات جديدة وقطع غيار للمحركات. وذلك هو واجبكم للأسبوع التالي. سوف تعودون للعمليات، ولكن ليس فوراً."

بعض الضباط، كان يمكن أن يطلب تفسيراً للكارثة، أو أن يسعى إلى تحويل اللوم إلى الموتى أنفسهم. ولكن إيرك أنتيلا واجه المأساة برباطة جأش، وكان مهتماً بجنوده، لا بنفسه.

وقال باللهجة الهادئة نفسها وهو يمشي بهدوء، ويداه مشبكتان خلف ظهره: "أنتم أيها الرجال عملتم عملاً جيداً، وما حدث اليوم لم يكن غلطتكم. وأنا آسف أنكم فقدتم أصدقاءكم. إن القسيس قادم من تان آن، وسنقيم غداً حفلاً تأبينياً في الساعة 800."

درست عيني إيرك أنتيلا. وعرفت أنه كان في قبضة الكرب المبرح، ولكنه لم يسمح له بالظهور. كنا في حرب. وهو قائد الجند في القتال. وثبات عزيمته الهادئ في مواجهة الكارثة منحنا جميعاً القوة. سيحزن في غضون ساعة، وأما الآن فكان يقف كالصخر الصلد. في الحرب، يكون من الضروري للقادة أن يكونوا قادرين على تأخير إظهار عواطفهم إلى أن يكون بمقدورهم أن يفعلوا ذلك.

كان شاطئ بوندي بارداً مشمساً في صباح يوم الخميس ذلك في شهر نيسان/إبريل، عندما كنت أقف عند النافذة المفتوحة لحمام الفندق، أهدق للأسفل في الماء وهو يتسرب إلى المغسلة. غسلت المرحاض بماء متدفق، ثم غسلته ثانية. هائل. كان هناك حوض بلاستيكي مليء بالثلج وبالعلب الطويلة من بيرة فورستر يقف على طاولة من الخيزران قرب المغسلة. وهذه العلب، على غير شكل علب بيرة بي اكس في فيتنام، كان لها في أعلاها فتاحة جديدة وهي عروة تسحب مفرقة، إنها معجزة، مثل الماء الحار والبارد الجاري، ومثل شريحة اللحم السمينة التي تناولتها في العشاء في الليلة الماضية، وهو المساء الأول لي في الاستراحة والنقاهاة.

نمت في كانتاس بوينغ طوال الطريق من مطار تان سون نهوت في سايجون إلى سنغافورة. بعدئذ فتحت بضع علب صغيرة من بوربون الطائرة ونمت ثانية، ولم أستيقظ إلا عندما علا صوت دواليب النفاثة مصطدمة بمدرج المطار في سيدني.

أعلن سائق التاكسي المتغضن الوجه أنه كان محارباً قديماً في طبرق، وهي المكان الذي قاتل فيه الأستراليون الفيلق الإفريقي لرومل، وسألني إن كان اليانكي "يضرِبون" العدو في فيتنام. وأكدت له أننا كنا نفعّل، وبناء على ذلك قال إن ذلك "بلادي بونزر" وحسبت أن ذلك لابد أن يعني أمراً جيداً.

وصرح السائق أيضاً أن فندقني "سيسبح مع فتيات الشاطئ الشابات." وهن فتيات من الكليات القريبة يمضين واحدة من عطلات نهاية الأسبوع الخريفية الحارة في الشمس. كان محقاً.

أسبوع كامل في أستراليا. سبع ليالٍ وسبعة أيام، كنت سأذوق كل دقيقة فيها. حمامات ساخنة. بيرة فوستر باردة كالثج. ثلاث مرات من شرائح اللحم في اليوم. وهؤلاء "الفتيات الشابات."

وانقضى الأسبوع سريعاً جداً. جلست في مطار سيدني، وكنت جاهزاً تقريباً للصعود إلى الطائرة النفاثة وأتوجه عائداً إلى الحرب. لقد كنت قررت أن أستراليا هي أفضل بلاد في العالم. كاملة في كل شيء. كانت الشواطئ نظيفة وبيضاء. وكان الطعام مذهشاً، ورخيصاً بشكل لا يكاد يصدق. حتى إنني تعلمت أن أشرب الخمر الأحمر مُراً مع لحم الخروف المشوي. كان الدولار الأمريكي يساوي تقريباً اثنين إلى واحد في مقابل العملة الأسترالية. عندما أصل إلى التاريخ الذي أستحق فيه العودة من وراء البحار، أستطيع أن آخذ النقود التي وفرت، وأطير راجعاً إلى هنا، وأصير محامياً، أي، مترافعاً أمام المحاكم، كما يسمونه.

تلك كانت خطتي. ولكن كان هناك أمر مهم: يجب علي أن أبلغ الأخبار إلى كاثي. فمسحت الطاولة وفتحت قطعة من القرطاسية الزرقاء والبيضاء بشكل رسالة جوية تُلف فتكون مظروفاً.

وكتبت: "عزيزتي كاثيري، هذا ليس سهلاً، ولذلك سأصل مباشرة للنقطة..." وأخبرتها بأنني سأعيش في أستراليا، وأن علينا أن نفسخ الخطوبة. وكنت آسفاً، ولكن الأشياء ستحل كلها على النحو الأفضل. وطويت الرسالة، وأسقطتها في الصندوق العمودي القرمزي، وفتحت آخر بيرتي الفوستر.

وطبعاً، كان هناك أمر مهم آخر في خطتي الدقيقة الكاملة. كان يجب علي أن أعيش لأنهي بقية نوبتي في فيتنام. "خمسة صفر." رن الصوت في سماعة أذني اليمنى. "قوس قزح أربعة. قل ثانية إحداثيات هدفك."

كان الرجل الذي يتحدث في سماعة أذني اليسرى هو آيرون هورس سيكس، الحصان الحديدي ستة، وهو واحد من قادة سرايا الكتيبة، وكانت وحدته في تماس كثيف في خط مدخن من البيوت، والمصانع، والمستودعات متجمعة على طول الضفة الجنوبية من قناة كنه دوا. ومع شمس شهر أيار/مايو وهي تنصب من خلال الفقاعة البلاستيكية للطائرة العمودية الصغيرة، وحتى على ارتفاع 200.1 قدم كانت حجرة الطيار الضيقة حارة كالفرن. وكنا إيرك أنتيلا وأنا نركب في هذه الطائرات العمودية نوع اتش-23 رافن (غراب) للقيادة والسيطرة طوال الأيام الثلاثة الأولى من هذا الاشتباك الذي بدا لنا بلا نهاية. في الطائرة العمودية اتش-23، كان الطيار يطير من مركز المقعد الضيق، والقائد إلى يساره، وضابط الارتباط المدفعي إلى اليمين.

لم يكن هناك سعة إرسال لا سلكي كافية لي لأتصل مع سرايا المشاة التي تقوم بالمناورة تحتنا ومع بطاريات المدفعية التي توفر لها المساندة بالنيران. ولذلك ففي مدة الشهرين اللذين كنت أطيّر فيهما بصفة ضابط ارتباط لكتيبة أنتيلا، طورت نظام اتصالاتي الخاص على طريقة نظام اتصالات روب غولديبرغ(*)، فربطت سلك

سماعة الأذن اليمنى في الخوذة الخضراء للسدنة الجويين باللاسلكي بي ار سي-25 المسوكة بين ركبتي، والتي كانت مضبوطة مع قناة نيران المدفعية المساندة. وسماعة أذني اليسرى كانت مربوطة بسلك مع قناة اتصال الطائرة العمودية، وهي التي استخدمها المقدم ليتحدث إلى قادة سراياه وقادة فصائله، وميكرفون خوذتي كان مربوطاً بسلك إلى ذبذبة "مناورة" الوحدة الأرضية، وكنت أستخدم الهاتف اليدوي بي ار سي-25 لأصل نار المساندة. وفي المحاولات الأولى لتشغيل هذا النظام المرتجل كنت مثل المقسوم في الوسط، ولكن كان علي أن أعود عليه.

وكان ذلك شيئاً جيداً تماماً أيضاً. والمعركة التي كانت محتدمة على طول القناة وخلال المناطق الجنوبية من سايفون، كانت أضخم اشتباك منذ هجوم تيت في شهر شباط/ فبراير. وفي الحقيقة، عند الفجر في ذلك الصباح، وقبل أن نصل إلى الطائرة العمودية، سمعت شخصاً على لاسلكي القوات المسلحة يسمى القتال "تيت الثانية". وكانت خمس كتائب على الأقل من جيش فيتنام الشمالية والفيتكونغ قد تحركت شمالاً خلال حقول الرز واقتحمت مركز حراسة صغير لقوة محلية لجيش فيتنام موجودة على مديد حاملة الجسر واي Y الطويل الخرساني عبر قناة الشحن الواسعة - "جسر واي Y".

وقام المقدم أنتيلا، وهو يتصرف بناء على معلومات الاستخبارات، بنقل الكتيبة وكل مجنزراتها شمالاً في عصر يوم 6 أيار/ مايو. وقبل ضوء النهار في الصباح التالي، كانت السرايا مشتبكة بقتال شوارع مع جند عدو حسن التسليح وحسن التدريب. وكان جيش فيتنام الشمالي والفيتكونغ مصممين على أن يعبروا الجسر وأن يقاتلوا ويشقوا طريقهم أربع كيلو مترات شمالاً إلى قلب العاصمة.

في ذلك الصباح الأول، اشتبكت كتيبتنا وحدها مع القوة المعادية المتفوقة على الجانب الجنوبي من القناة. ولكن الفرقة التاسعة زجت المزيد والمزيد من الكتائب في القتال، بينما كان كل ضباط الارتباط وقادتهم في طائرات تدوي فوق الرؤوس يشتغلون بالمساندة بالنيران. في قطاع الكتيبة، طلبت ما يحتمل أن يصل إلى مائة

مهمة رمي وقصف جوي، تدك العدو بين بيوت ومصانع خرسانية مجصصة فاتحة اللون. وكانت هذه المنطقة مقاطعة غنية، وموالية للحكومة، وبنيت بالعون الأمريكي إلى حد كبير، لتكون حالة للعرض تظهر التقدم. وأسفت لتدمير هذا الحي، ولكن العدو كان يستخدم هذه المباني لإطلاق قاذفات آر بي جي والرشاشات والبنادق عديمة الارتداد على جندنا.

ومع حلول اليوم التالي، كنت أوجه النيران من عدد يصل إلى خمس كتائب مدفعية. وكانت القوات الجوية تطير بمساندة لا تتوقف من تان سون نهت المجاورة. وكان المزج بين نيران المدفعية والقنابل زنة 500 رطل يدمر العدو.

يوم 10 أيار/مايو كان اليوم الثالث. وكانت الليلة السابقة هادئة نسبياً، مجرد هاونات وعيار 107 كل ساعة أو ما يقارب لإبقائنا مستيقظين، ولكن تشارلي كانت قد رجعت بقوتها الكاملة عند الفجر. وبحلول الساعة 1040 كانت السرايا تتاور وتتحرك جنوباً على طول طريق رئيسي، محاولة أن تحيط الفيتكونغ الذين كانوا قد تخندقوا في الخرائب التي كانت مجمعة صناعياً.

كنت أعيش على أوعية القهوة، وعلى ما مجموعه تقريباً ثلاث ساعات نوم في الليالي الأربع والأيام الأربعة الماضية.

مركز توجيه نيران البطارية نادى مرة ثانية في سماعة أذني اليمنى: "خمسة صفر، لم ننسخ إحداثيات الهدف، حول".

هزرت نفسي لأستيقظ ودرست الغطاء البلاستيكي للوحة الخريطة على حضني. "فوكس تروت تانغو أربعة ستة خمسة ثمانية سبعة أربعة، حول".

كنا نحوم فوق الهدف تماماً، وهو آمن مكان، لأن قنابل مدفعيتنا القادمة سوف تسقط ما بعد طائرتنا العمودية على زاوية. وتثبتت الحومان عرضنا لنيران أرضية متقطعة ولكن ذلك كان أمراً لا نستطيع أن نمنعه.

وعلى أية حال، كان الطيران مع المقدم أنتيلا مثيراً دائماً. فالرجل لا يعرف

الخوف. في وقت متأخر من الأصيل السابق، تعرضنا لطلقة رشاش في القبة البلاستيكية لحجرة الطيار وانحنى أنتيلا للأمام فقط وصاح في هدير تيار هواء: "لا أعرف بالنسبة إليك، ولكن هذا يجعلني عصبياً."

ونادت البطارية: "أطلقت، حوّل." وكانت رشقة من القنابل في طريقها إلى الأهداف تحتنا مباشرة.

أغمضت عيني لمدة ثانية، واندفعت صور من حياتي عبر عقلي مثل حلم حي، متقطع، أسوق متجهاً إلى المكسيك مع إخواني في الأخوة، وصوت الراديو يعلو بغناء المغني الريفي هانك وليامز. كنت أحاول أن ألقى واحدة من نكاتي القاسية المعقدة، ولكن الموسيقى كانت عالية جداً...

وجاء الصوت: "انفجرت، حوّل."

خمس ثوان إلى أن وقع الاصطدام. وأغمضت عيني ثانية. كنت أعمل الآن مع أبي، أفك محركاً من نوع إيفنرود محرك زورق خارجي قديم، أو علبة السرعات لجرار، مربوط إلى الشاحنة، التي كانت بشكل ما جزءاً من مولد كهربائي. إنها قاسية، يا تومي ري...

وفتحت عيني متخازرتين نحو الشمس. قنابل المدفعية من عيار 155 ملم انفجرت على مسافة أربعين متراً جنوباً وستين متراً شرقاً من الهدف. وناديت: "يساراً خمسة صفر. أضف خمسة صفر، حوّل."

وعندما أقرت البطارية بالاستلام، فإن سماعة أذني اليسرى صرخت بنداء مهتاج من راصد أمامي مع إحدى السرايا: "تماس كثيف." كانوا يتلقون نيران اربي جي من مستودع بجانب الطريق العام.

انحنيت قريباً من خريطةتي ووجدت الإحداثيات. ودققت في لوحتي، فعرفت أقرب بطارية، وكانت قاعدة رمي 105 على مسافة عشرة كيلو مترات بعيداً عن الطريق. "في تماس، مهمة رمي..." وعندما ناديت إحداثيات الهدف أضفت الحروف

الأولى للتخويل من إيرك أنتيلا "إكو ألفا". ومنذ اليوم الأول من القتال، كان قد قال لي أن أستخدم تخويله بدون مشاورته في أي وقت تكون فيه واحدة من الوحدات في تماس. لقد كانوا في تماس مستمر، وقد استخدمت الحروف إكو ألفا بشكل متكرر. نقص الوقود، فهبطنا في مهبط قرب القناة فبدلنا إلى طائرة أخرى هـ-23. كان معي من الوقت ما يكفي فقط لأتبول وأشرب بعض المزيد من القهوة الباردة.

ومع وقت متأخر من الأصيل كان هجوم العدو قد انكسر، وأسرعت مجنزراتنا نحو الجنوب على الطريق العام تطلق النار على مجموعات صغيرة من الفيتكونغ وجيش فيتنام الشمالية وهي هاربة إلى حقول الرز للمحصول الثاني والتي أغرقت وغمرت بالماء حديثاً.

استيقظت عندما قعقت طائرة عمودية من نوع هوي من الجيش الأمريكي قيادة فيتنام لتهبط في مركز قيادة الكتبة. لقد كان القتال قد انتهى طوال أربعة أيام. وكان إيرك أنتيلا في الفرقة مع قادة الكتائب الأخرى، يقدم تقريراً عن الاشتباك. وهبط من الطائرة العمودية جنرال بنجمتين وعقيدان وسألوا عن ضابط ارتباط المدفعية 5-60.

زررت قميصي وحييت. ولم يضافحني أحد من الضباط الكبار، ولم يبتسموا كذلك، أو يتبادلوا معي المجاملات اللطيفة المعتادة. وأحد العقيدان كان من مكتب المفتش العام، وكان الآخر محامياً من ممثل النيابة العامة في محكمة عسكرية. وقدم لي استمارة مطبوعة ووجهني إلى أن أقسم أن تصريحي الذي أدلي به طوعي، وصحيح، وكامل.

عن أي شيء كل هذا ... الزفت؟

بعد نصف ساعة، وفي حين كنا نقود السيارة من بيت منسوف إلى مصنع مدمر، بدأت أحل اللغز.

فقد سأل عقيد المفتش العام، وهو يشير إلى مستودع مدمر بالقرب من القناة:

"ما الذي ضرب هذا المبنى؟"

وأجبت: "قنبلة زنة خمسمائة رطل تنزل بمظلة أو من دونها، سيدي."

"وهل أنت الذي أمر بالقصف الجوي؟"

"نعم، سيدي."

وكانت الأسئلة كلها هي نفسها. وأمضينا ساعة نسوق السيارة خلال المنطقة، نستعرض الأهداف التي أمرت بإطلاق مهام رمي عليها، أو قصفات جوية، أو كلا الأمرين. ومع نهاية تلك الساعة أدركت ما الذي كان يجري: هؤلاء الضباط الكبار من أوباش النسق الخلفي، من أولاد... أمهم بوجوههم المتجهمه يبحثون عن شخص ما ليقدموه إلى المحكمة العسكرية بسبب استخدامه القوة المفرطة في حالة قيام ببلبة حول تدمير هذه المنطقة في ضواحي سايفون.

وفي كل مرة وقفنا فيها، كان الجنرال أو أحد العقيدين يسأل: "وأنت متأكد أن الوحدة التي ساندتها كانت في تماس؟"

وبدا لي أنني قد أكون في طريقي إلى الوصول إلى التاريخ الذي أستحق فيه العودة من وراء البحار بأسرع مما توقعت، لابساً الأصفاد.

كنا نتفحص بيتاً محترقاً تماماً قرب مركز القيادة عندما وقف الجيب الموحد الذي يسوقه المقدم أنتيلا. حيا الضابط ومشى متدرجاً معنا ونحن مستمرون في التفتيش وتفقد المباني المدمرة.

وبعد أن سمع إيريك أنتيلا استفسارين من استفسارات الفريق المصوغة صياغة رسمية، خطا ليقف بين الجنرال وبينني. وقال بهدوء، وهو ينظر إلى الرجل في عينيه مباشرة: "سيدي، هذه أسئلة ممتازة. ولكنكم تسألون الشخص الخطأ. إن سجل المهام سوف يبين أن كل مهمة رمي وقصف جوي كانت مرخصة من إكو ألفا، أي إيرك أنتيلا. الملازم فرانكس كان ببساطة يوصل أوامري."

نظر الجنرال بعينين متخازرتين إلى أنتيلا، ثم نظر إلي. وقال أخيراً: "ملازم، انصرف." ثم استدار إلى محامي ممثل النيابة العامة الذي قام بترتيب القسم من المقدم أنتيلا.

على مدار السنين، أعدت تمثيل هذه الدراما في عقلي آلاف المرات. وقد علمت المزيد عن المقدم أنتيلا منذ ذلك الأصيل الحار على طول قناة كنه دوا. لقد وضع على قائمة التقاعد بعد تلك الجولة، وهي جولة قتالية كان هو قد طلبها بالتحديد من مكتب عمله بصفته ضابط أسلحة نووية في أوروبا. لم يكن عليه أن يخاطر بحياته في فيتنام. وبالتأكيد لم يكن عليه أن يخاطر بالإحالة إلى محكمة عسكرية، وطرد غير مشرف من الخدمة، وفقدان تقاعده ليعتني بملازم من الطلاب الضباط المرشحين.

في أثناء شهوري التي قضيتها في القتال، أدركت وفهمت أن الجندي مدين بالولاء لوحده ولرئيسه. ويجب على القائد أن يكون قادراً على الاعتماد على الدعم الكامل من مرؤوسيه. وعندما كان إيرك أنتيلا يصعد إلى ذلك الجيب وقد تحمل المسؤولية الكاملة عن أعمالي في معركة جسر واي Y، أدركت أن الولاء، مع ذلك، لا ينساب إلى الأعلى في سلسلة القيادة فقط: إنه ينساب نزولاً كذلك.

تقاعد إيرك أنتيلا من الجيش عقيداً، بعد مدة قصيرة من قيادته الشجاعة لواحدة من أفضل الكتائب في فيتنام. لقد أحببته واحترمته إلى أن مات في العام 2003. وكل ما علمني في جسر واي Y يعيش معي حتى هذا اليوم.

في ليلة من رياح المونسون الضبابية في شهر آب/ أغسطس من العام 1968، جلست إلى طاولة خشبية في نادينا البديل في بنه بهوك. أرتشف البوربون وبيرة بلو ريبون.

وطبعت بعناية على ورقة: "كاثي، أكتب هذا الشيء في خدر السكران. إن آخر محنة تبدأ الآن..".

وصفت عملي الجديد، وهو أن أطيّر بصفة كشاف في طائرة رصد عمودية خفيفة من نوع او اتش-6. كنت أحل بديلاً لضابط قتل في ذلك اليوم، وكنت خائفاً. بقي أقل من ثلاثة أشهر ليحل تاريخ استحقاق العود من وراء البحار، وكان عملي الجديد واحداً من أخطر الواجبات في فيتنام.

ومنذ أن عدت إلى رشدي بعد جسر واي Y، كنت قد كتبت إلى كاثي كلما كانت تلوح لي الفرصة. ورجبت أن نعيد الخطوبة. وإذا عشت بعد هذا، فإني أربح بالزواج منها. وكانت أوهامي الأسترالية أماً كاذباً كخيالات مدخن الغليون(*) من ملازم شاب أناني يحاول أن يعتصر كل آخر ثانية من الحياة له من أسبوعه الأول بعيداً عن القتال. ولكن كاثي لم تقطع لي هدوءاً. هل كنت أستطيع لومها؟ ربما لا.

شربت ويسكي وبيرة وتابعت الطباعة. "كاثي، افعلي ما تشائين. ولكن أرجو أن تصلي من أجلي. هذا أسوأ من أي شيء سبق لي أن عملته هنا... أرجو أن تكتبي لي عندما تستطيعين. أحبك بكل كياني."

ولعقت المظروف، ولساني ما يزال لزجاً من الإسراف في الشراب، ثم ترنحت في مشيتي عائداً إلى كوكبي لأحزم تجهيزاتي من أجل طائرة الصباح العمودية.

تايفر ثلاثة- خمسة كانت هي طائرة البارون الأحمر العمودية، وهي طائرة عمودية خفيفة للرصد من نوع أو اتش-6 خضراء مجردة إلا من الأساسيات كنا نطير على متنها بصفتنا العنصر المنخفض في "الفريق الزهري"، وهو مجموعة من ثلاث طائرات ضمت طائرة من نوع أو اتش-6 تطير قريبة من الأرض، وطائرتي هجوم تطيران على ارتفاع أعلى. كلمة منخفض كانت الكلمة التشغيلية. وفي الوقت الذي تحلق فيها طائرتان مسلحتان من نوع هوي أو ايه اتش-1 كوبرا تحومان فوق الرؤوس، سيقوم البارون الأحمر بقتل شاربه، المقود الأحمر الشمعي ويبتسم مكشراً مثل القرصان.

"دعنا نزل ونقطع بعض العشب، يا توم."

كان الاندفاع السريع تحت مستوى قمم الأشجار بسرعة تسعين عقدة طريقة مثيرة للاهتمام لرؤية فيتنام. وكانت نظرية البارون هي أننا كنا هدفاً صغيراً وسريعاً إلى درجة لا يستطيع معها تشارلي أن يصيبنا، وعندما يحاول كنا نستطيع

(*) إشارة إلى خيالات مدخن الأفيون في الغليون.

عادة أن نحدد طلقاته الخطاطة، وهذا يسمح للطائرات العمودية المسلحة أن تقتله أو أن تثبته في مكانه ريثما أقوم أنا باستدعاء نيران المدفعية.

وطوال ستة أسابيع من التماس اليومي تقريباً، عمل أسلوب البارون بطريقة جيدة. ولكننا استنفدنا الحظ في وقت متأخر من أصيل أحد الأيام بين غابة من الشجر القصير الكثيف وحفر القنابل بعيداً بالقرب من كمبوديا. كنا نقوم بدورية على طول صف من الأشجار عندما ضرب شيء ثقيل في يمين الطائرة العمودية خلف رؤوسنا تماماً. وأومض كل ضوء أحمر للإنذار في لوحة طائرة الرصد الخفيفة، وأصدرت سماعات آذاننا أصوات الإنذار. وسحب البارون وغير الاتجاه للخلف في الدوران، ولكننا غطسنا لليسا.

واستدعى المدافع المحلقة فوق رؤوسنا وصوته هادئ هدوءاً يصعب تصديقه: "تايغر أربعة، هذا البارون، لا أستطيع السيطرة على الطائرة. إننا نقرب من النزول."

واصطدمنا بالطائرة بقمة خندق موحل من حقول الرز على زاوية وارتدنا ووثبنا بها مرة، والزلاقتان تصكان بصوت صاخٍّ ممزَّق شديد. وانتهت الطائرة العمودية الصغيرة مستقرة قائمة، ولكنها مائلة إلى اليسار. أنا أصيبت كتفي وخدي برضوض عندما اصطدمت ضد إطار الباب، ولكني فيما عدا ذلك لم أكن مصاباً. وعندما ضربت الأحزمة السريعة الفتح بيدي اليمنى، وصلت إلى تحت مقعدي من أجل تناول بندقيتي سي ايه ار-15. كانت طلقات ايه كي-47 تفرقع في الطين من حولنا.

وصاح البارون: "أخرج، يا زفت000، خارج الطائرة."

كان معي سلاح، وحمالة جراب الذخيرة، وحقيبة خوذة مليئة بقنابل يدوية متشظية من نوع ام-26. مشيت متثاقلاً نحو حفرة كبيرة من قبلة، ونظرت إلى الخلف فرأيت البارون يعرج خلفي. لقد تهشمت رجله اليسرى على دواسات السيطرة عندما أصبنا.

وعندما غطسنا في الحفرة، لم تكن الخوذة مع أي منا. وأنا تركت جهاز الإرسال اللاسلكي في الطائرة المحطمة. انقطع نفسي من السرعة، وشعرت أن فمي كورق الرمل، ورق الصنفرة، وكان البارون يتلوى من الألم. وعندما اختلست النظر فوق حافة الحفرة رأيت عدداً من الفيتكونغ بملابسهم السوداء ومعداتهم يركضون نحونا من بين الأشجار التي تبعد مسافة مائتي متر عنا.

كنت مازلت ألث، وضربت محول اختيار نوع الرمي في بندقيتي سي ايه ار-15 لأضعه على وضع الرمي الآلي وأطلقت صلية طويلة. وسقط الفيتكونغ مثل الأكياس. وظهرت الطائرات العمودية المسلحة من مغرب الشمس، وكانت ترمي برشاشاتها الصغيرة وتطلق رشقات من أربعة صواريخ.

وحالما مرت الطائرات من فوق الرؤوس أطلق المزيد من الفيتكونغ النار من بين الأشجار الواقعة خلفنا. كان البارون الآن جاهزاً، ويطلق من بندقية سي ايه ار-15. أنا حرس الجبهة اليمنى وهو غطى المؤخرة اليسرى. وفي خمس دقائق، استنفدنا بالرمي نصف ذخيرتنا. ولكن الفيتكونغ مازالوا يناورون ويتحركون نحونا، مستخدمين خنادق حقول الرز غطاء لهم. ومع نزول الشمس كثيراً، لم تبق الطائرات العمودية قادرة على رؤية العدو في الظلال الطويلة. ولكنهم، وفي كل مرة كنا نرفع فيها رأسينا، كانوا يطلقون النار. ثم نطلق نحن. ثم يطلقون هم ثانية.

وسألت البارون: "كم بقي من ذخيرتك؟"

"ثلاثة مخازن، وأنت؟"

وعصرت حمالة جراب الذخيرة الأخضر القطني: "بقي اثنان."

كان البعوض يرتفع في تجمعات كالغيوم الآن في هدأة القتال بين نيران الفيتكونغ، وهي علامة مؤكدة على هبوط الليل. وعندما كانت قمة الحفرة تفرقع بطلقات العدو، كنا نجلس القرفصاء ونصلي وندعو أن تستطيع الطائرات من فوقنا أن تقوم بمرور آخر وتكون محظوظة. ولكن بدون جهاز الإرسال اللاسلكي ليس لدينا طريقة لتوجيههم نحو العدو، الذي صار الآن على بعد أقل من ثلاثين متراً عنا.

وقلت وأنا أسحب مسمار قنبلة يدوية: "وقت القنابل المتشظية."

وأجاب البارون: "تسلمت ذلك."

ومر وقت طويل. وكان ما تبقى لدي أقل من مخزن واحد ساعة 20 طلقة
للبندقية سي ايه ار-15، وأربع قنابل يدوية.

وربت على مسدسي الآلي عيار 0.45. ذلك سيفعل الكثير من الخير.

استلقيت بظهري على الطين، وحدقت للأعلى في السماء. ثلاثة أسابيع بقيت
لوصول تاريخ استحقاقي للعودة من وراء البحار، وكان هذا نهاية الجبهة. والفيتكونغ
الذين يزحفون نحونا تحت جناح الظلام لديهم قنابلهم اليدوية الخاصة بهم. كم بقي
قبل أن تسقط بضعة منها على حفرتنا؟

سوف يأخذوننا أسرى إذا نفذت ذخيرتنا. وقد سمعت ما يكفي من القصص
عما كان يفعله الفيتكونغ بملاحى الطائرات العمودية الذين أسروهم. وأخرجت
مسدسي عيار 0.45 من قرابه ووضعت طلقة في حجرة النار.

لن أموت أسيراً.

هذه كانت نهاية توم فرانكس. لا كاثي، ولا درجة جامعية. وبالتأكيد ليس من
سعادة بعد ذلك.

وتمتت: "ابن الك...".

وفجأة زنت طائرة او اتش-6 نازلة لتحلق تحليق حومان بجانب الحفرة بينما
الطائرات العمودية المسلحة التي عبرت أمامنا ووراءنا، كانت تضرب الخنادق.
أمسك البارون الزلاقة اليمنى للطائرة العمودية المحوَّمة وشد نفسه إلى الداخل.
وأنا اندفعت إلى الجانب الأيسر. وابتعدت حقول الرز المظلمة والطين الأفتح لوناً
في حفر القنابل.

وعندما صعدنا، اتجه الطيار إلى الشرق تماماً، بعيداً عن العدو، وبعيداً عن
غروب الشمس البرتقالي فوق كمبوديا.



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

القسم الثاني

جندي محترف

إذا كنت تعرف عدوك وتعرف

نفسك، فلا داعي إلى أن

تخاف نتائج معركة.

- صن تزو



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل الرابع

جيش جديد أوستن، تكساس

تشرين الثاني/نوفمبر 1968

أمضيت الأسبوعين التاليين مع والدي في أوستن. استحمامات طويلة حارة. شرحات لحم أبي المشوية على الفحم. وفطيرة أُمي بالكرز مع الآيس كريم. نعم، يا أُمي، أحب تناول قطعة أخرى.

نمت تحت ملاءات نظيفة، والنافذة المفتوحة للنسمة الباردة. لا حاجة إلى الناموسية، ولا أكياس رمل، ولا طلقات إنارة، ولا دقيقة مجنونة.

وكما يقول المثل: استرخيت.

ولكن الحرب وصلت أمريكا، ووصلتها أيضاً الثقافة المضادة. لقد شاهدت مظاهرات الحرم الجامعي على شاشات التلفاز كل ليلة. وإذا لم يكن حشد من الطلاب يهتف عن شرعة المارجوانا، فإنهم كانوا يلوحون بأعلام الفيتكونغ.

وكان آخر علم رأيت للفيتكونغ في خرائب استحكام في سهل القصب، بعد أن طلبت إطلاق أربع وعشرين طلقة من عيار 155 ملم على الهدف.

ذهبت إلى بيت دلتا أبسيلون مرة واحدة فقط. فجميع الإخوان الذين كنت قريباً منهم تخرجوا، ولذلك لم يكن لي الكثير المشترك الذي يجمعني مع الشباب الذين قابلتهم. وتساءلت متعجباً: هل كنت أنا في مثل هذا الشباب في أي وقت سبق؟

وفي صباح يوم خريفي مشرق، وكنت أجرف أوراق الشجر في فناء بيت أهلي، فكرت في المستقبل. في غضون أقل من عام سأكون مدنياً. وكنت أشعر أنني جاهز، أخيراً، لأحصل على الدرجة الجامعية، وربما جاهز حتى لأذهب لمدرسة الحقوق.

على أنه لن يكون سهلاً علي أن أجلس في الفصل إلى جانب شباب استخدموا تأجيل الخدمة العسكرية رسمياً للطالب كي يحتجوا ضد الحرب، في الوقت الذي لم يستطع فيه شباب الياقات الزرقاء أن يصلوا إلى الكلية وهم في الخارج في مراكز التنصت أو يجهدون أنفسهم في حقول الرز في شمس الدلتا.

في إحدى الأمسيات بعد العشاء، ساعدتني أُمِّي في ارتداء بزتي وأنا أستعد لتقديم نفسي للعمل في فورت سيل، في تعييني التالي في الخدمة. لقد خاطت الرقعة الملونة للفرقة التاسعة المشاة على كتف الكم الأيمن، وهي تبين أنني خدمت في القتال مع الوحدة، وجاء أبي إلى المطبخ وشاهدني وأنا أدبس أشرطة الحرب والأوسمة.

وضربت بخفة الدبابيس الصغيرة الموجودة على الأشرطة: "هذه عناقيد ورق البلوط، للمكافأة الثانية أو الثالثة من الوسام نفسه."

وبطريقته المتعمدة، عدها. "ثلاثة قلوب قرمزية."

"أنا كنت هدفاً كبيراً." وكنت قد جرحت فعلاً عدة مرات أخرى، والقلوب القرمزية ترمز فقط للجروح التي أرسلت من أجلها إلى المستشفى.

"وكل هذه الأوسمة مع حرف 'V' هي؟"

"حرف V يمثل كلمة شجاعة، يا والدي... ونجوم برونزية، وأوسمة جوية، وأوسمة تزكية الجيش. وهم أعطوها في نوع من صناديق الفشار."

ومر بيده نازلاً على لباسي الصوفي الأخضر: "لا أصدق ذلك، يا بني. نحن فخورون بك."

كان التلفاز يبث في غرفة المعيشة، مزيداً من الاحتجاجات، عالية، وفوضوية.

وقلت: "عندما هبطنا عائدين إلى ترافيس نصحونا بأن نرتدي ملابس مدنية ونحن في الطائرة في رحلة العودة إلى الوطن. الناس لا يحترمون البزة العسكرية الآن."

وعبس أبي "بعضهم لا يحترمونها، ومعظم الناس يحترمونها. أنت البسها، وكن فخوراً بها."

"كن واثقاً."

سأل بس تلك البزة لأذهب إلى فورت سيل، وفيها سأعلم العسكر الشبان كي يبقوا أحياء. وبعدئذ فإن أيامي بصفة الرجل العسكري ستأتي إلى نهايتها. في عمر الثالثة والعشرين، حان الوقت لأضع الحرب والجيش خلفي، وأتقدم نحو العمل لحياتي.

ولكن لدي مشكلة. عدت إلى الولايات المتحدة منذ خمسة عشر يوماً ولم أجد الأعصاب لأهاتف كاثي. وآخر ما سمعت منها كانت ملاحظة باردة تفيد فيها استلام بلاهة السكران عن رسالتي عن الراحة والنقاهاة في سيدني. لقد أعادت خاتم الخطوبة إلى أمها في لوتون للمحافظة عليه "إلى أن تأتي وتأخذه." نهاية الخطوبة. ونهاية القصة.

لا، ليست نهاية القصة. في صباح اليوم التالي، عندما كان أبي في العمل، وكانت أمي تتسوق مع جارة لها، التقطت الهاتف.

أكدت لي الفتاة التي أجابت في بيت الأخوات أن كاثي كارلي ستكون هناك فعلاً. وبدأت أتعرق، مثل الانتظار لسماع الانفجار لطلقة التحديد في المدفعية التي تكون قريبة من موقعنا نحن.

"هذه كاثي."

كان صوتها كما تذكرته، لطيفاً لكنه قوي.

"هذا أنا، من فضلك لا تضعي السماعة."

"أوه، توم. لن أضعها. هل أنت بخير؟"

"أنا عظيم. حتى إنني الآن أحسن وأنا أتكلم معك. اسمعي، أنا على وشك أن

أقود السيارة إلى أوكلاهوما. هل تعتقدين أننا قد نستطيع أن نتواعد على لقاء؟"

كان الخط صامتاً. وأخيراً تكلمت "سيكون هذا جميلاً. يا نوم"

تزوجنا أنا وكاثي في فورت سيل. في نيو بوست شابل في يوم السبت، 22 آذار/مارس 1969. كان ثوبها في الزفاف جميلاً. واشترت لنفسي لباساً رسمياً من بزة زرقاء، على الرغم من أنني لن أحتاج إليه إلا لبضعة شهور أخرى فقط لأنني وعدت زوجتي الجديدة أن أخرج من الجيش. غادرنا الكنيسة ذراعاً في ذراع، تحت القوس التقليدي من السيوف.

كان بيتنا الأول بيتاً بالإيجار في لوتون، يشبه كثيراً البيت الذي سبق أن تقاسمنا السكنى فيه أنا وغلين ستيوارت عندما قابلت كاثي. وعندما أنهت مدرستها الثانوية في لوتون لتعليم الطلاب، توليت أنا قيادة بطارية تدريب في مدرسة المدفعية. كلانا كان مشغولاً، ولكننا كنا متحابين بأكبر قدر من الحب يمكن أن يعيشه الإنسان. وفي كل يوم، وفي كل ليلة، تعززت لدي أكثر فأكثر فكرة أنني قد أعيش حياة طويلة، وسعيدة، وعادية وتحولت الفكرة إلى حقيقة واقعة.

وعندما مر شهر نيسان/إبريل وبدأت كاثي تدرس أين ستعلم بعد أن تنهي درجتها الجامعية في شهر حزيران/يونيو، بدأت أنا أفكر في المكان الذي سأذهب فيه إلى الكلية الجامعية. كانت أوسن اختياراً منطقياً، ولكنني كنت لا أجد الاهتمام في مواجهة طلاب زملاء قد ينظرون إلى رجل عسكري عائد حديثاً من فيتنام نظرة ازدراء، صامته أو محجوبة أو غير ذلك. ولوتون وفورت سيل، من جهة أخرى، كانت مدينة ذات توجه عسكري حازم، وسأعامل فيها بالمجاملة في التقدير، وبالاحترام في كل مكان ألبس فيه بزتي. ربما تستطيع كاثي أن تعلم في لوتون، وأنا أستطيع أن أنهى درجتي في أوكلاهوما. حتى أنني قد أستطيع أن أكون مزارعاً أربي الماشية مع دون خال كاثي وجيمي إليس جدها، وهما رجلان كنت أرى فيهما الأخ والجدة اللذين لم أكن أملكها أبداً.

ومع ذلك، فقد كانت الحقيقة هي أنني أحببت الجيش. ربما أستطيع أن أبقى في الجيش وتستطيع كاثي أن تعلم... هكذا فكرت. لا، يجب علي أن أخرج. بعد أن

تنتهي فيتنام ويتقلص الجيش إلى قوته في الحرب الباردة، لن يكون هناك الكثير من المستقبل لنقيب مدفعية له رصيد كلي من خمسة وأربعين ساعة معتمدة من مستوى ج، و د من جامعة تكساس. بدون درجة جامعية، ليس لدي مسار وظيفي في العمل ضابطاً.

بعد ذلك، في وقت متأخر من أصيل في شهر أيار/مايو، استدعاني إلى مكتبه قائد كتيبتي، المقدم آل لاماس، وهو نجم سابق لكرة القدم في الكلية. كان يقرأ أفكاره عن التنسيق الأفضل بين وحدات المشاة ووحدات مدفعية الميدان التي تساندها. لقد كتبت التقرير مستمداً الأفكار من خبرتي مع إيرك أنتيلا ومع الوحدة 5-60، ووصفت وصلات اللاسلكي بالقنوات المنفصلة التي أقمتها في الطائرة العمودية للقيادة والسيطرة لأنصت إلى الوحدات الأرضية المتحركة المناورة في سماعة أذن واحدة ولقواعد نيران المدفعية بسماعة الأذن الأخرى. ووصفت تسليح واحدة من المجنزرات ام 113 في الكتيبة برشاش صغير عيار 62.7 ملم يعمل بالكهرباء، كنت قد التقطت ذلك من مفرزة الزوارق السريعة في الأسطول في ماي ثو.

قال المقدم لا ماس: "هذه أفكار تجديدية، يا توم."

"أحببت أن أعمل، يا سيدي، أن أجرب. أظن أنني أخذت ذلك من أبي."

وقلب في ملفي الشخصي. "مدة خدمتك تنتهي في الخريف. وأنت تخطط

للعودة إلى الكلية؟"

"نعم، سيدي، وسوف أقوم بها على الوجه الصحيح هذه المرة. لقد كنت شاباً

غير ناضج عندما بدأت الدراسة في الكلية."

"حسناً، أنت الآن ناضج، يا توم. والجيش بحاجة إلى ضابط مثلك." وسلمني

بيده استمارة مطبوعة.

وقرأت: "برنامج إكمال الدراسة الجامعية."

"سيدفع لك الجيش لتكمل الكلية، يا توم. وبعد تخرجك ستكون ملزماً أن تخدم لمدة سنتين في الخدمة الفعالة عن كل سنة قضيتها في الكلية."

وتفرست في الاستمارة. كان هذا مثيراً للاهتمام بالتأكيد. ولكن القرار لم يكن قرارى وحدي. "سوف أتكلم مع كاثرى."

وعندما مشيت راجعاً إلى مكتبى، كانت مكبرات الصوت حول المركز تبوق العودة إلى الثكنة. وقفت بانتباه، وحييت في أثناء نداء البوق وإنزال العلم في ميدان الاستعراض. هذا هو من أكون: أنا جندي.

ولدت ابنتنا جاكلين في شهر أيار/ مايو 1971 عندما كنت أنهي درجتى في إدارة الأعمال في جامعة تكساس، في آرلنغتون.

ومن طرق عدة، فإن الواجبات الصغيرة للأبوة مثل هز الطفلة بين ذراعى، وتسخين قنينة رضاعة لها، وإرجاعها إلى سريرها وهزه لتنام في منتصف الليل، ساعدتني على أن أضع ذكرياتى التي لا تتى تتلبث في ذاكرتى عن فينتام في منظور يحدد نسبة الأمور بعضها إلى بعض. لقد كنت فخوراً بمهنتى، ولكن هناك في حياتى ما هو أكثر بكثير من الأسلحة والتعبئة (التكتيك).

أمضيت وقتاً طويلاً في الدراسة، واعتصرت ثلاث سنوات من الدورات في اثنين وعشرين شهراً. كنت جاهزاً لأتعلّم، ومع المساعدة من كاثرى اكتشفت كيف أدرس. ولم تكن مبادئ المحاسبة أو قانون العمل التجاري في سهولتها لتقارن بقضاء ليلة أغطس فيها حتى صدري في مياه القناة، أطلب مهام رمي من ثلاث بطاريات مدفعية بينما أعمل في تحديد الأهداف على طائرة عمودية مسلحة من نوع سبوكي. وعندما تخرجت في شهر كانون الأول/ ديسمبر 1971 كنت قد اعتصرت سبعة وعشرين درجة أ، وثلاثة ب، وج واحدة وحيدة في التسويق، وهو بيان علامات مختلف اختلافاً بعيداً عن ذلك الذي استلمته عندما غادرت أوستن في 1965.

جاكى بنت العشرين شهراً في عربتها، وكاثرى وأنا وصلنا إلى ألمانيا في صباح

يوم ثلجي من شهر شباط/ فبراير 1973. وبعد أسبوع من وصولنا توليت قيادة بطارية مدفعية هاوتزر، سرية الخيالة الأولى، من فوج الخيالة المدرع الثاني. كانت البطارية مرابطة في هانز شيم كاسيرن، وهي ثكنات ضخمة قديمة للجيش الألماني في قلب مدينة بيروت البافارية. وكان هذا شيئاً ما الآن: أنا قائد مرابط ومسؤول عن منصبى الخاص. أليس هذا بلداً عظيماً.

أفواج الخيالة المدرعة في الجيش تحتفظ بتقاليد الجنود الخيالة من القرن التاسع عشر. فبدلاً من الكتائب والسرايا، تتكون الأفواج من سرايا خيالة، وفصائل خيالة، وهي وحدات هجينة يشترك فيها الدروع، والمشاة، والمدفعية. وقد أعطاني الوقت الذي أمضيته مع فوج الخيالة المدرع الثاني فهماً بالعمق لفروع "المناوره" في الجيش، وهي خبرة لم يحصل عليها أبداً معظم ضباط المدفعية.

في هذه النوبة من الخدمة، كرسيت الكثير من التفكير للتعبئة (التكتيك). ففي فيتنام كنت قد صرت معجباً بحركات (ديناميات) القتال: وهي تحريك الجند والأسلحة بأفضل طريقة لصب أقصى قوة نارية على العدو. وكنت قد تعلمت قيمة القدرة على الحركة في أثناء خدمتي في بطارية الدلتا، ورفع المدافع ومنصات الإطلاق إلى الملاجئ التقليدية للفيتكونغ باستخدام الطائرات العمودية. كنا نمتلك ستة مدافع هاوتزر، ولكننا كنا قادرين على "أخذها إلى العدو" ومطاردته، متحولين بسرعة من موقع رمي إلى آخر. وتحت حماية تلك المدافع أيضاً، استطاعت وحدات المشاة التي ساندناها أن تنقل القتال إلى القنوات المكسوة بالأعشاب وقيعان القصب التي كان تشارلي يظن أنه آمن فيها.

تلك الخبرة أعطتني لمحة خاطفة عن مدى الفاعلية التي يمكن أن تكون عليها المرونة التعبوية. ولكن تلك كانت تجربة واحدة، وجه صغير من حرب استنزاف ثابتة. والآن، والاشتباك الأمريكي الذي طال عشر سنوات في فيتنام في تضاريس، فقد كنت راغباً في أن أتعلم المزيد عن حرب المناورة (الحركة السَّوْقِيَّة)، لأجرب يدي في جعل النظام أكثر حركية.

وهناك ميزة غير عادية أخرى لهذا التعيين الجديد: بطاريتي الهاوتزر كانت منفصلة جغرافياً عن منظمتهما الأم، سرية الخيالة الأولى، التي كانت متمركزة في بندلاخ، "الصخرة" وتبعد ستة كيلومترات للشمال الشرقي من بيروت. إن الخدمة بشكل منفصل عن التدقيق اليومي والتوجيه من رؤسائي قدمت لي فرصاً للتجريب، وفرصاً للقيادة، وفرصاً للنجاح أو الفشل.

وعندما قابلت قائد سرية الخيالة المقدم كارل هوسمر في ذلك الصباح الشتائي في بندلاخ، أوضح لي أن الفشل كان إمكانية حقيقية في العام 1973.

كان يلقي لمحة سريعة على ملفي الشخصي، ولاحظ الوقت الذي قضيته في الكلية، والدورة المتقدمة في المدفعية التي اتبعتها عند العودة في فورت سيل. ثم قال لي المقدم هوسمر: "لقد كنت بعيداً عن الجنود لعدة سنوات، يا نقيب. وأنا متأكد أنك سمعت كلاماً عن مشكلات في الجيش. حسناً، نحن جزء من ذلك الجيش ونشاركه تلك المشكلات. هناك جنود سيئون في كل وحدة من الوحدات. ووجدتك ليست استثناء."

عند هذه النقطة كان آخر المسحوبين بالقرعة العسكرية في عصر فيتنام يكملون خدمتهم، والجيش الجديد المتطوع كله لم يترسخ بعد. والجيش، مثل بقية المجتمع، كان مبتلى ومخترق بالمخدرات. ولم تكن المعنويات جيدة، وفي بعض الوحدات كان يتفشى ما يقارب التمرد وسوء الانضباط.

واستمر هوسمر: "هناك تفاحات متعفنة في برميلك، يا نقيب، وسيكون عليك أن تتخلص منها وتشكل تلك الوحدة قبل أن تذهب تلك الوحدة إلى الجحيم."
"نعم، سيدي."

وعندما كنت أقود سيارتي راجعاً عبر الجبل نحو المنظر العمومي المديد لهانزيل وغريثيل من بيروت، وازنت التحديات التي تنتظر في المستقبل. كانت البطارية مبنية حول ستة مدافع هاوتزر ذاتية الدفع عيار 155 ملم نوع ام-109، وهي مدافع كبيرة

محمولة على هياكل مجنزرة مصممة لتناور مع دبابات الفوج ومع ناقلات الجند المدرعة.

كانت منطقة عملياتنا قطاعاً ثلاثي المناطق على حدود ألمانيا الغربية والشرقية وتشيكوسلوفاكيا. وكان فوج الخيالة المدرع الثاني ثقيلًا في الدروع والمدفعية، ولديه عدة آلاف من جنود المشاة. ولكن حلف وارسو كان يتفوق علينا بالقوة العسكرية وبالرجال المترتبة على الجانب الآخر من الستار الحديدي. ولن تتفوق القوات التقليدية الحليفة ضد كتلة جيوش الدبابات السوفيتية، وفرق المشاة الآلية، وفرق المدفعية.

وهكذا فإن عقيدتنا الدفاعية اعتمدت على السلك العائوري النووي.

وكان الجيش يمتلك صواريخ نووية ومدفعية نزولاً في التشكيلات حتى مستوى البطارية، بما في ذلك البطارية الموجودة تحت قيادتي. كان هناك مقذوفات نووية ذات "حاصل منخفض" لكل واحد من مدافع البطارية الستة، مخزونة في مستودع منيع خاص بالقرب من بامبرغ على بعد عشرين ميلاً من كاسيرن الخاصة بي. في أثناء أسبوعي الأول في القيادة زرت ذلك المستودع المنيع مع ثلاثة آخرين من الضباط في برنامج ثبات الأفراد، وهو نظام السيطرة على العطل الأمن الذي كان يضمن أن الأسلحة الذرية لن تستخدم إلا بناء على الأمر المباشر من الرئيس فقط. نحن الأربعة شكلنا الفريقين الأحمر والأزرق، وكل فريق من رجلين، وكل فريق يحمل نصف رمز الإطلاق. إذا جاء اليوم الذي كنا سنذهب فيه إلى الخيار النووي، فإن عضواً من كل فريق سوف يدمج الرموز مع نظيره لفك أقفال وصلات الفعل المرخص به، وكان هناك أقفال ضخمة على المقذوفات، تحول دون تعبئتها في الهاوتزرات بدون موافقة رئاسية.

ووفقاً لجزء من توجيهي، فإن وكيل الضابط الذي كان يعمل في نوبة ذلك الصباح قد فتح كل صناديق المقذوفات الستة للتفتيش. ووقفنا في نصف دائرة في ضوء كشافات غامرة الضوء نحدق في الأسلحة. ولولا العلامات المعلمة عليها ولولا

وصلات الفعل المرخص به الموجودة على المقذوفات المخروطية، لكنت تبدو مثل طلقات نظامية عالية الانفجار عيار 155 ملم. ولكن إذا حدث أن تحولت الحرب الباردة إلى ساخنة ودرجت الدبابات السوفيتية على أسيجة السلك الشائك وحقول الألغام التي تعلّم وتدل على قطاعنا من الحدود، فإن الصنوبر القاتم في بوهمر وولد سيتمزق بالانفجارات النووية. ذلك منظر كان يمكن له أن يُبقي نقيباً يبلغ السابعة والعشرين من العمر يقظاً طول الليالي، وقد فعل ذلك.

ومع ذلك، في الحقيقة، كانت لدينا اهتمامات أكثر إلحاحاً من التهديد بغزو من العدو. لقد أمضيت وقتاً بالقدر نفسه أقلق بشأن تفتيشات الأسلحة النووية التي كنا نخضع لها بدون إنذار. إن هيئة من الضباط الكتومين الذين لا يتحدثون بكلام تافه من الفيلق السابع، من جيش الولايات المتحدة في أوروبا، أو من وكالة الدفاع النووي يهبطون على سرايا الخيالة، وعلى بطاريات الهاوتزر، ومستودعات التخزين. فإذا كانت حالة تدريبنا، ومعرفتنا بالإجراءات، وسجلنا في المحافظة على تخزين المقذوفات وصيانتها لا تفي بالمستويات القياسية بشكل يكاد لا يصدق، فإننا نفشل في التفتيش.

وكان هذا من الناحية العسكرية يعادل الإفلاس. ويمكن أن يؤدي إلى إعفاء قائد البطارية، وقائد سرية الخيالة، وربما حتى المقدم قائد الضوج. وربما ستكون واجباتنا التالية التي نعين لها مثل عمال المراحيض في معسكر تدريب للحرس الوطني في ويسكونسون الشمالية.

كان للخدمة في ألمانيا في السبعينيات من 1970 تحدياتها.

ولم يكن أقلها تحدياً تولي قيادة عدد عال مفرط الزيادة من الجند الذين لم يكونوا يريدون أن يكونوا في الجيش. وكان الحفر لاستخراج التفاحات المتعفنة التي سبق أن وصفها المقدم هوسمر هو ما سيعتبر أوليتي العليا.

ليس هناك أدنى شك أن البطارية كانت بحالة سيئة. فعندما سقت سيارتي عابراً أمام الحارس عند بوابة كاسيرن في ذلك الصباح الأول، كان الحارس يتسكع

داخل حجرة الحارس، وبندقيته مستتدة إلى الجدار، ويداه في جيبه. ونقل يداً ليقذف تحية مهينة، بيده اليسرى!

من حسن الحظ، أن الجيش كان محظوظاً بجيل من الرقباء المحترفين للسلك العسكري الذين يعملون بجِد وكانوا قد خدموا نوبات متعددة في فيتنام، وشاهدوا تآكل الانضباط والمعنويات، وعرفوا طرق العسكر، ولم يستسلموا في مهنتهم. الرقيب الأول عندي كان واحداً من ضباط الصف هؤلاء.

قال لي وقد دخلنا ممراً طويلاً ذلك الصباح: "الضباط لا يصعدون عادة إلى الطابق العلوي وحدهم. وهم دائماً يحملون سلاحاً على جنبهم. ويسمي الجند هذا الطابق هايت أشبري(*)". ويستطيع الجندي أن يقرع الباب على بابين من هذه الأبواب ليشتري من الحشيش أو ميثامفيتامين الكمية التي يستطيع أن يدفع ثمنها. ومعظم المتاجرين يعطون بالدين إلى يوم الراتب."

وتابعنا مرورنا من جانب الأبواب المغلقة. وأضاف الرقيب الأول: "إن الجند الذين هم ضد المخدرات لا يريدون أن يعملوا هنا".

لقد رأيت ما يكفي.

في ذلك الأصيل قابلت ضباطي ورقباء فصائلي. "سوف تتغير الأمور في هذه البطارية. أريد قائمة بأسماء كل مروج مخدرات أو متاجر بها سواء أكان مؤكداً أو مشبوهاً على طاولتي غداً صباحاً."

كنت بحاجة إلى خطة لمحاربة هذا السلوك. وكانت البطارية تشترك في كاسيرن مع مفرزة من وكالة أمن الجيش، وكانت تملك مجموعة قوية من الأجهزة العسكرية الاستخبارية لاستراق السمع خفية. وهذا ما أعطاني فكرة، وحملتني إلى المحامي ممثل النيابة العامة في مقر قيادة سرية الخيالة. وعندما سمعها ضحك في نفسه: "حاول يا نقيب."

(*) هيت أشبري، قطاع من مركز مدينة سان فرانسيسكو، وفي الستينيات من ١٩٦٠م كان المكان المشهور لتجمع الهبيين واتباع ثقافة المخدرات.

في وقت متأخر في ليل يوم الجمعة التالي جلست إلى طاولتي محاطاً بملازمين وثلاثة رقباء، ومفرزة من رجال الشرطة العسكرية المسلحين، ووكيل من قسم التحقيق الجنائي. وكان فني من وكالة أمن الجيش ينحني على خزانة. كانت الأصوات الصادرة من المتكلم مصحوبة بصرير ولكنها مفهومة.

"طوني أنت... زفت. ولكن لكي ننهي فقط هذا القتال غير المنظم، سأدفع لك دولارين من أجل كيس مخدرات قيمته خمسة دولارات. وسأخذ مائة كيس."

وقال جندي درجة أولى اسمه طوني: "كل كيس بثلاثة دولارات. وأنا لا أبيع إلا مائتي كيس في المرة الواحدة. أنا تاجر، لا أي غلام قاطع طريق."

"أنت تعد النقود، وأنا أعد البضاعة."

وسار الشريط بنعومة على بكرات المسجل. في الغرفة 314 من الثكنة كانت صفقة كبيرة من الميثامفيتامين في طور التنفيذ.

وقال ملازم الشرطة العسكرية وهو يقف: "النقود تبدل الأيادي. نستطيع أن نقوم بإلقاء القبض، سيدي."

عريف الشرطة العسكرية الكبير ركل باب الغرفة 314 فانفتح ودخلت المفرزة. وتبعته قريباً لأراقب إلقاء القبض ولأؤكد أن الدليل مؤمن تأميناً مناسباً.

وصاح طوني والشرطة العسكرية تضع الأصفاد في رسغيه: "لا يسمح لك أن تكسر الباب وتدخل إلى غرفة شخص يمثل ذلك. وأنا أعرف حقوقي."

وكيل قسم التحقيق الجنائي وقف على صندوق المتاع عند آخر السرير، وصور كومة من أكياس من ورق السيلوفان الصغيرة من الميثامفيتامين البلوري وكدسات من فئة الخمسة والعشرة من الدولارات.

واحتج المشتري مدعياً أنهم كانوا يشربون في أولد بيلي، وهو نزل محلي: "لقد وصلنا عائدين قبل قليل من مركز المدينة. وأقسم بالله. إن ذلك... الزفت كان ملقى هناك عندما دخلنا." واستدار إلي بوجه مثل وجه صبي في جوقة المرتلين: "هذا ليس حقاً يا نقيب. هناك شخص ما يستخدم هذه الغرفة."

وأعلمت الشرطة العسكرية: "خذوا المشبوهين".

على مر عدة شهور تالية قمنا بالتنصت على خمس غرف أخرى، واقتحمنا أربع صفقات ترويج أخرى، أدت في النتيجة إلى إلقاء القبض على سبعة أشخاص وقاد القبض عليهم إلى المحاكم العسكرية. شخص عنيف اقتحمنا غرفته واستخرجنا أربع كتل حشيش كان غاضباً جداً إلى الحد الذي جعله يوجه لي لكمة. وبعد أن دافعت عن نفسي، قبضت الشرطة العسكرية على الجندي وأخذته إلى المستوصف. في أثناء الوقت الذي أمضيته في بيروت كنت أقود سيارة ألفا روميو قديمة رياضية، وكانت الحركة في السيارة عبر الشوارع الفارغة المرصوفة بالحصى في وقت مبكر من كل صباح مصدر سعادة عظيمة لي.

في فجر بارد رطب من شهر آذار/مارس، غادرت الشقة التي كنت أعيش فيها مع كاثي وجاكي وتوجهت نحو سيارتي. وبينما كنت أعالج مفاتيحي نظرت سريعاً فرأيت أن القمة القماشية لسيارتي ألفا قد مزقت إلى ثلاث قطع صغيرة. نظرت حولي، وكان بضعة ضباط آخرون يوقفون سياراتهم المكشوفة في المساحة نفسها، ولكن لم تلمس أي من السيارات الأخرى. هذه لم تكن إذناً لعملية تخريب متعمد للممتلكات. كانت رسالة من تجار المخدرات لإنهاء حالة ملاحقتهم.

إلى الجحيم هؤلاء المقرزون.

بعد أسبوع كانت قمة السيارة قد استبدلت، وخرجت في الصباح لأجدها ممزقة مرة ثانية. وفي هذه المرة تركوا بطاقة زيارة، ملاحظة على قطعة ورق من كيس ورق بني. "في المرة القادمة عنقك".

وقلت في نفسي بهدوء: "سنرى".

تلقي الضابط التنفيذي في بطاريتي الملازم ستيف هيرست، معلومات خاصة تفيد أن واحداً من أسوأ التجار سمعة في البطارية، وسأسميه جونز، قد انتقل من الثكنة وكان يعيش مع صديقته الألمانية في مكان قرب محطة القطار. جمعنا بعض

الشرطة العسكرية واثنين من الشرطة الألمانية الذين ساعدونا في الحصول على ترخيص بالتفتيش، ثم قمنا بزيارة إلى جونز. كانت الساعة 003 صباحاً تقريباً، والمطر ينزل رذاذاً كالعادة.

ورد جونز على الباب وهو يلبس بنطلوناً قصيراً كخيال السباق، ويلوح بمفك براغي طويل من نوع فيلبس. "اخرجوا يا... زفت، من هنا."

لم تكن حركة بارعة منه أن يلوح بسلاح في وجه شرطي ألماني. وقد هشم الشرطي القوي الممتلئ رسغ الجندي بعضاً محشوة بمعدن الرصاص.

وقرأ محقق قسم التحقيق الجنائي لجونز التهم الموجهة له في مستشفى بندلاخ عندما كان الأطباء يضعون جبيرة على ساعده المكسور.

وانتشرت الكلمة سريعاً: أيام ترويج وبيع الحشيش، وتمزيق قمم السيارة، في بطارية الهاوتزر الأولى قد ولت.

ولكن متعاطي الحشيش لم يكونوا المشكلة الوحيدة. إن عدداً من الجند الخيالة لم يكونوا يعيرون الجيش أدنى أهمية، هذا إن كانوا أصلاً قد أعاروه في السابق. بعضهم خدم في فيتنام قبل أن تسحب الولايات المتحدة آخر الوحدات القتالية بعد توقيع اتفاق باريس للسلام. ولكن معظم مثيري المتاعب لم يسمعوا صوت بندقية لعب أطلقت كبسولة في غضب. لقد كانوا بكل بساطة هم التفاحات المتعفنة التي زاد في حموضتها مزاج الأحوال السائدة آنئذ المناوئة للعسكرية، وكانوا يسممون المعنويات لعدد أكبر منهم بكثير من الشباب الذين كانوا يحاولون أن يقوموا بواجباتهم. إن الجيش الجديد، الذي يقوم فيه المنتسبون المتطوعون بشغل الرتب، لم يكن بحاجة إلى مثيري المتاعب هؤلاء.

حذرنا الجنود الذين يشكلون مشكلة من أنهم يخاطرون في الوصول إلى "ورقة سيئة"، أي الطرد العام أو غير المرغوب فيه. بعضهم اعتدل وتحسن.

عديدون آخرون لم يتحسنوا. وطوال سنوات، رأى هؤلاء الجند أن إحساس

الجيش بالقصد يتدهور، وأن تقاليده في الانضباط تدهورت معه. وفي الحقيقة، فإن القوات العسكرية الأمريكية كلها، وخصوصاً الجيش، كانت قد جرحت في حقول الرز والغابات في فيتنام. وصار الجيش مثل الأمة التي خدمها، يشك في نفسه. لقد قاتلنا حرباً طويلة، مكلفة إلى أن بلغنا مأزق الجمود، ثم انسحبنا مدعين الوصول إلى "سلام مشرف". وامتد التشاؤم والسلبية من وزارة الدفاع نزولاً إلى مفارز بنادق المشاة وسدنة المدفع في المدفعية من الذين كانوا يخدمون مدتهم في ألمانيا. وكان هناك سلالة شريرة من المجرمين في البزة العسكرية، مثل تجار المخدرات في بطاريتي، الذين كانوا أكثر من راغبين في استغلال هذه الحالة السيئة.

تخلصت من التفاحات الرديئة في وحدتي. لم أكن أستطيع أن أغير كل الجيش، ولكنني كنت قادراً على إعادة إصلاح الوحدة الصغيرة التي أقودها. وعندما هدا الاضطراب الأول، وجدت أنني أمتلك وقتاً أطول لتدريب البطارية حسب المستويات القتالية. أمضيت وقتاً طويلاً مع فصيلة الصيانة، لأتأكد أن مدافعنا ذاتية الدفع ستكون قادرة على الصمود لقسوة القتال، وللتلال الموحلة في مناطق التدريب في غرافينوهر.

كان رؤساء مدافعنا رقباء معلمين من الجيش النظامي، وكانوا راغبين في التعلم، وفي القيام بواجباتهم. كانوا مثل أولئك الذين عملوا سدنة للهاوتزر في في... - يون بقلوب طيبة. لقد كانوا بحاجة إلى منحهم المسؤولية وأن يقفوا ليحاسبوا عنها. ويوماً بعد يوم شجعتهم. وأقررنا مستويات عالية، واستطعنا تحقيقها. صارت الوحدة سريعة ودقيقة.

ولكن كان علينا أن نعمل أكثر من مجرد إطلاق النار من المدافع بسرعة وإصابة الأهداف بدقة. فنحن نساند وحدات مدرعة ومشاة آلية عالية الحركة. ومع كون مدافعنا ذاتية الحركة، فقد كنا أبطأ، وأقل خفة في الحركة بكثير من المشاة والقوات المدرعة. وكانت مشكلتنا تتعقد بسبب حقيقة أخرى وهي أن مدافعنا ذاتية

الدفع الهاوتزر لم تكن مجهزة بأجهزة الإرسال اللاسلكي. لقد حاولنا أن نتبع تشكيلات المناورة، وكنا نؤشر على التحولات في الاتجاه باستخدام الأعلام على الأسلوب القديم. ومع كل ذلك، فالجميع كان يعلم أن المدافع لا تستطيع أن تباري الدروع أو المشاة الآلية بسرعتها. فلماذا نبذر النقود بإعطاء أجهزة الإرسال اللاسلكي لرجال المدفعية؟

ولم يكن ذلك منطقياً عندي. ففي الوحدة 5-60، وناقلات الجند المدرعة للمشاة ومجنزرات الهاون والبنديقية عديمة الارتداد كذلك، كانت كلها تشترك في الاتصالات، وبدا لي أنهم كانوا فريقاً قوياً. وعندما اقترحت على الجيش أن الهاوتزرات يجب أن تزود بأجهزة إرسال لاسلكي، لم أتلق إلا القليل من التشجيع.

وهكذا، فعندما وصلت إلى البيت متأخراً جداً في إحدى الليالي ووجدت كاثي ما تزال مستيقظة، سلمتها فهرساً مصوراً (كتالوجاً) من شركة سيرز. وسألتها: "ماذا ترين؟"

"راديو مَوْجَة المواطن (سي. بي.) يا توم؟ إنه يساوي تقريباً أربعين دولاراً تقريباً. هل فعلاً تحتاج إلى واحد منها؟"

؟؟ ليس واحداً، يا عزيزتي. عشرة. واحد لكل مدفع، وواحد لي، وواحد لكل من مركز توجيه النيران، والضابط التنفيذي، والرقيب الأول.

ونظرت إلي كاثي. وكان استبدال قمم السيارات المكشوفة قد استنفد مدخراتنا. وقالت: "لا نملك النقود."

"لدينا اتحاد الإقراض."

بعد ثلاثة أسابيع، في مسير على الطريق إلى غرافينوهر، توقف الرتل عندما انزلت ناقلة جنود مدرعة للمشاة عند منعطف موحل. وكان الوقت بعد الغروب عندما أرسل ضابط عمليات سرية الخيالة باللاسلكي أن الطريق قد تغير. وأمسكت بجهازني الجديد القريب راديو موجة المواطن وناديت رؤساء المدافع.

واتخذت بطارية الهاوتزر تحويلة الطريق الموصوفة، ووصلت إلى غرافينوهر مع دبابات سرية الخيالة لا خلفها.

وفي أثناء الأسابيع التالية، وازينا وتساوينا مع كل حركة من قوات المناورة. وفي إحدى الليالي، عندما سحبنا المدافع إلى معسكر دفاعي، وهو موقع تقليدي تحيط به الدروع، وصل المقدم هوسمر في الجيب. "ديناصوراتك القديمة كانت رشيقة الحركة تماماً هناك اليوم."

"أنت لم تر شيئاً بعد، يا سيدي."

وبعد أن وصلنا إلى كاسيرن، أخبرت الجند بأن دعوة البيرة ستكون علي. كنت ما زلت أمتلك حوالي ثلاثين دولاراً من نقود اتحاد الإقراض في محفظتي. لقد أحدثت أجهزة اللاسلكي (الراديو) اختلافاً كبيراً، وبدأ الجند يعتادون الريح.

وربما كانت المعنويات تسير نحو التحسن، ولكن كان ما يزال علي أن أتعلم الكثير عن القيادة. في ذلك الصيف، شكا لي أحد ضباط البطارية جندياً شاباً، سأسميه غارسيا. كان واحداً من أفضل جنود البطارية، ولكنه تدهور إلى جحيم التدمير بسرعة.

وقال لي الملازم: "إنه دائماً متأخر عن تشكيل الصباح، ويحتاج رقيب فصيلته إلى حمله ليحلق ويلبس زياً نظيفاً. وفي الليلة الماضية شتمني. إنني أوصي بإحالته إلى المحكمة العسكرية، سيدي."

وناولني الملازم أوراق غارسيا وملفه الشخصي. كان يوجد شيء غريب هنا: غارسيا عاد إلى التطوع قبل ستة أشهر، وكان قد نجح في الدبلوم العام المعادل من أجل دبلوم المدرسة الثانوية، وكان قد حاز على ترشيحه للقب جندي المقر. وقلت للملازم: "سأتحدث معه."

وعندما دخل غارسيا متثاقلاً إلى مكثبي كان واضحاً أنه لم يكن جندياً سعيداً. وحدثني بعد تحية بلا مبالاة: "أردت أن تراني؟" بدون كلمة سيدي، ولا يا نقيب.

ولم أكن سألعب لعبته. "ما الذي جرى لك، يا غارسيا. كنت عسكرياً ممتازاً. ولكن قائد فصيلتك يوصي بأن نطردك من الجيش. ما القصة؟"

درس غارسيا تعابير وجهي، وانقبض وجهه، واحمر من الغضب: "أتريد حقاً أن تعرف؟"

"دعنا نسمعها."

"قبل أربعة شهور أرسل الصليب الأحمر يخبرني أن جدتي ماتت. في شرق نيويورك، في بروكلين. "وبدا يبكي". جدتي هي التي ربّيتي مع أخي الصغير. ذهبت إلى سلسلة القيادة حسب التسلسل وقدمت من أجل الحصول على إجازة طارئة مثلما كان يفترض أن أحصل. وقالوا لا يمكن الاستغناء عني... وأن الفريق يحتاج إلي. الطلب مرفوض."

ومسح غارسيا عينيه، ثم حدق في الأرض.

"كنت قلقاً على أخي "وبدا بالنشيج ثانية.

"على كل حال، وضعوه في بيت للرعاية. وبعد ذلك، في الشهر الماضي أرسل الصليب الأحمر مرة ثانية. إن مجرماً من بروكلين قد اغتصبه وقطع عنقه. أردت أن أذهب إلى الوطن لأدفنه، ولكن الملائم وللمرة الثانية قال إن المنظمة كانت أهم. الطلب مرفوض."

كيف يمكن لشيء مثل هذا أن يكون قد حدث في بطارية من 180 جندياً من دون أن أسمع قطعياً عن ذلك؟

عندما نظر غارسيا إلى أعلى كان وجهه حاراً بالألم والبغضاء..

"يا نقيب، تستطيع أن تأخذ المنظمة: البطارية، وسرية الخيالة وجيش أمريكا الملعون من الله، وكل البلاد... الزفت، وتدخلها في دب..."

انهمرت الدموع على خديّ أنا. وخرجت من خلف طاولتي ووضعت ذراعي حوله. "ما حدث هو غلطتي. أعرف أن الأمر متأخر جداً الآن، ولكنك الآن قد

حصلت على إجازتك. اذهب للوطن. وخذ المدة التي تحتاج إليها. وعندما تعود، وإذا كنت ما تزال تريد الخروج من الجيش، فسوف أعمل بالتأكيد على أن تحصل على الفصل المشرف."

في الصباح التالي، جمعت الضباط وقدامى ضباط الصف في مركز عمليات البطارية الضيق.

وبدأت بالقول: "في الجنود الكثير من الأجزاء المتحركة. وهم يحتاجون إلى صيانة منتظمة، إنهم بشر، لا آلات. إنهم سيقومون بأشياء مذهشة إذا كانوا يعرفون أنكم تهتمون بهم." وتذكرت محبة رجال الضابط لي آلي، والاحترام الذي كنا جميعنا نكنه للمقدم أنتيلا.

وقصصت عليهم قصة غارسيا بدون توجيه اللوم لأحد غير نفسي "ما تعلمته هو أن كونك مسؤولاً لا يعني تلقائياً أنك تعرف ما يجري. هذا سوف يتغير في هذه البطارية."

وأحضر كاتب البطارية كدستين من ملفات الأفراد. واخترت قبضة من السجلات الفردية. "لن أذهب إلى البيت كل ليلة إلى أن أنهي قراءة عشرين من هذه السجلات. ومع حلول الوقت الذي سينتهي فيه هذا التمرين، سأكون قد عرفت الاسم الأول لكل جندي، ومدينته في الوطن، وشيئاً عن أسرته. وأتوقع منكم أن تفعلوا الشيء نفسه."

وأوماً الرجال الجالسون إلى الطاولة برؤوسهم.

"إذا جاء إليك عسكري بمشكلة فتذكر هذا: إنها مشكلتك، وهي مشكلتي، لن نخسر جنوداً جيدين لأننا لا نستطيع أن نهتم بهم ولو اهتماماً قليلاً... اهتماماً كالزفت بوصفهم بشراً."

التزامي للجنود كان سيعني قضاء وقت أقل مع أسرتي. كانت كاثي متفهمة، ولكن عدم رؤيتي لجاكي كثيراً كان قاسياً علي. فقد كنت أذهب إلى العمل قبل أن

تستيقظ في الصباح، وأعود إلى البيت بعد أن تكون قد نامت في الليل. كان لدى كاثي دائماً وجبة ساخنة تنتظرنني حتى عندما لا أتمكن من العودة إلى الشقة إلا عند منتصف الليل. كانت هي والزوجات يرتبطن بطريقة خاصة ليعوضن عن غياب أزواجهن. لقد كنت دائماً أحترم كاثي من أجل الطريقة التي تعتنى بها بعائلات الجيش.

كان صباحاً من تلك الأيام في منتصف الشتاء في نورمبرغ عندما يتجمد الضباب على حصباء الشوارع. والوقت هو فجر يوم الاثنين في 20 من شهر كانون الثاني/ يناير 1975. كنت أتناوب، وخرجت أمشي عبر فناء ثكنة ميريل القديمة الضخمة من كاسيرن إلى مقر قيادة الفوج. وفنجان القهوة كان قيد الطلب بلا شك. قبل اثنتي عشرة ساعة، كنت أنا وكاثي في فندق نورماندي في باريس، نستمتع بأول إجازة في سنوات.

"العقيد يريدك أن تعود إلى هنا في الساعة 0700 صباحاً"، كان هذا ما شرحه المقدم تشارلي زيب، الضابط التنفيذي للفوج، "وتتولى قيادة سرية الهندسة المدرعة الرابعة والثمانين."

سقنا السيارة عبر طرق السيارات تحت المطر وعبر الطرق السريعة تحت الثلج كل الليل في طريقنا إلى بافاريا. هذا عن إجازتي. وكان يجري تعييني في واجب آخر، مع ذلك، في فوج الخيالة المدرع الثاني. لقد توليت قيادة بطارية الهاوتزر وخدمت بصفة ضابط عمليات سرية الخيالة الأولى في بندلاخ، والعقيد جون هوداشيك قائد فوج الخيالة المدرع الثاني، أحضرني إلى هنا لأكون ضابط عملياته المساعد في نورمبرغ قبل خمسة شهور. كنت أتعلم الكثير جداً عن الدروع والمشاة، وعن حرب المناورة. وكاثي وأنا كنا مستمتعين بعمل الضابط الركن بدون ضغط القيادة. حتى إنني كنت أستطيع أن أصل إلى البيت في معظم الليالي لأرى جاكى قبل أن تذهب إلى فراشها. ولكن ذلك يوشك على النهاية.

قلت للعقيد هوداشيك ونحن نشرب كوباً من القهوة: "لا أعرف الكثير عن المهندسين، يا سيدي".

وقال: "أنت تعرف كيف تقود الجند، يا توم. وتلك السرية بالتأكيد تماماً تحتاج إلى قائد." وكانت سرية الهندسة المدرعة الرابعة والثمانين هي الحالة الميئوس منها في الفوج. كانت مليئة بالساحطين، وكان معظمهم من المسحوبين بالقرعة العسكرية الذين ينهون خدمتهم.

وقال العقيد هوداشيك: "إنهم على وشك أن يكونوا أقرب إلى الغوغاء من أي مجموعة سبق لي أن رأيتها في بزة عسكرية."

لقد أعفى قائد السرية واستدعاني لأحل محله. وتوليت القيادة في حفل فطور في قاعة مطعم السرية، ثم مشيت إلى داخل غرفة المناوب. وعندما دخلت لم يكذب كاتب السرية يلمحني من أعلى مجلته بنتهاوس^(*).

وأمرته: "أحضر لي قادة الفصائل والرقيب الأول. أنا قائدكم الجديد."

لا بد أن شيئاً ما كان في لهجتي ليحركه ويحفزه: "نعم سيدي." ورمى المجلة وأمسك بالهاتف.

"حالا، سيدي."

وما تلا ذلك كان يوماً طويلاً، مضنياً، قضيته أتحدث فردياً مع حشد من صفار الضباط، ورقباء الفصائل، وقدامى ضابط الصف الآخرين. كان فيهم العديد من القادة المحتملين، ولكنهم كانوا مترددين ومثبطي العزيمة، غير واثقين من سلطتهم. وكانت السرية من قبل قد خفضت إلى حوالي 70 بالمائة من قوتها من خلال برنامج الفصل السريع، وهو إجراء استئصال إداري، ومن خلال المحاكم العسكرية.

وقال الرقيب الأول: "والأشخاص الذين بقوا لدينا لا يعيرون أدنى... زفت من الاهتمام، سيدي." مضيفاً أن العديدين من الجند المتبقين كانوا قد حددت حركتهم في الموقع عقاباً لهم على الإخلال بالانضباط.

(*) مجلة موضوعات وصور ساقطة.

وقلت: "سوف نعمل على تحسين ذلك، يا رقيب أول."

كان الوقت متأخراً عندما غادرت المكتب. وبدلاً من قيادة سيارتي إلى البيت، قررت أن أجول في الركن الخاص بالسرية من ثكنة كاسيرن. وكانت آخر وقفة لي في الدور الرابع السيئ السمعة.

مشمع الممر كان وسخاً. وكانت هناك كتابات فاحشة تتنافى مع الآداب العامة على الجدران. وكنت أستطيع أن أشم الحشيش.

ومشى نحوي عسكري طويل، قوي البنية في ملابس عمل قذرة وبتعبير متجهم في وجهه.

وقال لي وهو يمر بجانبني: "أفعل بك الفاحشة..."

لم أستطع أن أصدق ما سمعت. وانفتلت حولي لأرى مع من كان يتكلم. ولم يكن هناك أحد آخر في الممر.

وفجأة تصورت كل أولئك العسكر الذين فقدوا حياتهم وهم يخدمون، ويقومون بواجبهم في فيتنام. هذا الغر السافل الساخط لم يكن يستحق أن يلبس البزة نفسها. وفقدت السيطرة على نفسي.

وقلت: "هيه، أنت."

واستدار الجندي ليواجهني.

وأمسكت كتفيه وضربته بالجدار، وأنا أحرق في عينيه. ووقف هناك كما لو كان في صدمة وأنا أمشي مبتعداً.

كان العقيد هوداشيك ما يزال في مكتبه، ينهي أوراق اليوم، عندما قرعت الباب.

وقال: "توم، كيف مر اليوم الأول؟"

"يجب علي أن أبلغ بأنني ضربت عسكرياً قبل قليل، سيدي."

وأوما العقيد برأسه عابساً، وتهدت. عشر سنوات وانتهت إلى هذا. الضباط لا يضربون الجنود. وسأكون محظوظاً إذا انتهت المحكمة العسكرية بفصل مشرف. وعلى أي حال، فإن مستقبلي في العسكرية قد انتهى.

"ماذا حدث؟"

وشرحت له.

وعبس العقيد هوداشيك. لا يا نقيب، لا تستطيع أن تضع يدك على الجندي.

"نعم، سيدي."

وأشار لي: "اذهب وقف في الركن."

وذهبت إلى ركن مكتب العقيد هوداشيك وحدقت فيه.

"أنت لا تفهم، يا نقيب. قف في الركن ووجهك إلى الجدار."

واستدرت وواجهت الجدار. مر أقل من دقيقة.

"اذهب إلى البيت، يا توم. خذ قسطاً من النوم. وغداً باكراً، أريدك مع سريتك.

لديك كثير من العمل لتقوم به مع أولئك الجنود."

وقوف في الركن: عقوبة استثنائية لأحوال استثنائية. وعندما غادرت كاسيرن،

فكرت في إيرك أنتيلا بين المباني المدمرة على طول قناة كنه دوا. ما يزال الولاء

يسير صعوداً ونزولاً في سلسلة القيادة في الجيش.

في اليوم التالي انطلقت في إعادة بناء هذه الوحدة اليتيمة. كان الجند

الواقفون في تشكيل ذلك الصباح مجموعة ذات منظر مؤسف. شعر طويل، ملابس

عمل مبقعة ووسخة، أحذية لا تلمع. وكثيرون لم يكلفوا أنفسهم عناء أن يحلقوا

ذقونهم، لعدة أيام، كما يبدو من منظرهم. كان يمكن للرقيب المعلم كيتل أن ينفجر

من الغضب.

وسألت ونحن نسير بين الصفوف: "يا رقيب أول، هل ترى شيئاً غير عادي؟"

"نعم، سيدي. إنهم يبدون مثل... الزفت. ولكن ذلك ليس غير عادي بالنسبة إلى هؤلاء الرجال."

ووجدت رجلاً في مقدمة الصف بقصة شعر مناسبة، وهو نظيف وقد حلق ذقنه، ويقف بملابس عمل نظيفة وأنيقة، وبحذاء عسكري لامع. فكرت في سام لونج. عندما كان حرس الشرف يبدو متميزاً بشكل خاص في حفل، كان يطلب من سكاغ أن يكتب لنا إجازة قصيرة. وتذكرت لي آلي عندما كان يرسل أفضل جنوده إلى عطلات نهاية أسبوع طويلة.

وقلت للجندي المرتب: "تبدو خيلاً جيداً. خذ أسبوع إجازة."

وسأل الشاب: "سيدي؟"

"حصلت على أسبوع إجازة. اذهب وتزلج في غارمش. اذهب واسترح فقط. وافعل أي شيء تريد."

وفي اليوم التالي كان هناك ثلاثة آخرون من الجنود يرتدون بزات نظيفة. وأحذية لامعة. وقلت: "تبدون كالجنود. خذوا أسبوع إجازة."

لم تكن هي بالضبط الطلقة الفضية، الترياق، ولكن هذا المدخل كان له أثر بطيء وثابت. وأدركت أنني كنت سأحتاج إلى كل من الجزر والعصي، وستكون العصي مهمة مثل أهمية الجزر. بعد أربع محاكمات عسكرية اختفت رائحة الحشيش من الدور الرابع من كاسيرن، وانخفض إلى الصفر عدد العسكر الذين حددت حركتهم في الموقع.

ولكنني كنت أعرف أن جعل هؤلاء الرجال يظهرون ويتصرفون مثل الجنود كان جزءاً فقط من واجبي بصفتي قائداً. فهم أيضاً كان عليهم واجبات ليقوموا بها. إن المهندسين هم الرافعون لأثقال الجيش، وسرية الهندسة المدرعة تقوم بأعمالها تحت النار، فهي تنقذ الدبابات المعطوبة، وتهدم العوائق في الطرق، وتزيل بالجرافات استحكامات العدو وخناده. وكانت إحدى الوسائل الأساسية للسرية عربية هندسة

للقتال، وهي في الأساس دبابة ام-60 ولها في المقدمة نصل جرافة مدرع عريض، ولها رافعة ذات صار هيدرولي قابل للسحب، وعليها مدفع قصير السبطانة على البرج من عيار 165 ملم من أجل فتح ثغرات في الحواجز. وتمتلك السرية اثنتين من هذه العربات، ولكن أيا منهما لم تشتغل في مدة تزيد عن عامين.

أمضيت الكثير من الوقت مع الميكانيكيين. وجلت على السرية أفتش عن جنود كانوا جيدين بمهاراتهم اليدوية. وأقمنا منافسة صغيرة: أول فريق يستطيع جعل عربية هندسة القتال تشتغل على نحو كامل سيحصل على إجازة ثلاثة أيام. وكان ارتباطا فعليا، وأعطيت كل السرية إجازة نهاية أسبوع طويلة. ولتعزيز الزخم الإيجابي، عملت مع مقر قيادة الفوج ومع الشرطة الألمانية لترتيب قافلة من السرية تمر مباشرة من خلال مركز مدينة نورمبرغ إلى منطقة التدريب في فوخت. وقد قادت الرتل عربية هندسة القتال التي دهنت حديثاً. لقد بدا الجند يقظين. وعندما قام أطفال المدارس الألمان من الشوارع الجانبية بالتصفيق والتهتاف، ابتسم هؤلاء الجنود الأمريكيون باعتزاز. لقد عدنا إلى العمل.

مع شهر كانون الأول/ ديسمبر 1975، كنت في عملي الرابع في الفوج، مرة أخرى كنت نقيباً يتولى عمل رائد في مركز العمليات: رجل مدفعي يتولى المسؤولية عن تدريب الرماية المدفعية للدبابات. في إحدى الليالي الثلجية، أخذت بضع ساعات من العمل وغادرت ميدان رمي محلي لأذهب إلى البيت وأغير ملابس العمل بأخرى جافة وأغير الحذاء. كانت جاكبي في ملابس نومها، متكورة تحت لحاف، على أريكة. وكنت قد وعدت أن أعود مبكراً ذلك اليوم، وقد انتظرت كاثي إلى أن حان موعد نوم جاكبي، ثم قامت مباشرة وزينت شجرة عيد الميلاد من دون حضوري. وازدردت شطيرة لحم خنزير وكوباً من القهوة، وجذبت معطفي الميداني المبلل واتجهت نحو باب الشقة. "سوف أعود غداً مبكراً، وعد."

واسترقت كاثي نظرة سريعة من خلال ستائر النوافذ على دوامات الثلج الرطب التي تدور عند أضواء الشارع وقالت: "يا له من مساء جميل لتمارين ميداني." ثم قبلتني قبلة ليلة سعيدة.

وقلت وأنا أحاكي جورج سي. سكوت(*) بدور جورج باتون(**):

"كان الله في عوني: فأنا فعلاً أحبها هكذا."

كانت نقطة مشتركة. ولكنني وأنا أزيح الثلج عن الواجهة الزجاجية الأمامية للجيب، أدركت الحقيقة العميقة التي تقوم عليها هذه الكلمات. فأنا فعلاً أحببت أن أكون عسكرياً، وأساعد في بناء جيش جديد من رماد فيتنام.

انقضت خمس سنوات تقريباً منذ أن نلت درجة البكالوريوس. وفي كانون الثاني/يناير سيصل التزامي الرسمي بالخدمة إلى نهايته. ولكن فكرة العودة إلى أن أكون مدنياً كانت غير مريحة.

واقترحت على كاثيري عندما تحدثنا حول هذا الموضوع في وقت سابق من ذلك الأسبوع: "دعينا ننتظر ونرى ماذا سيحدث؟" ووافقت كاثيري وقالت: "سنرى فقط ماذا سيحدث؟"

وستصير هذه الكلمات بعد ذلك نقطة مشتركة أخرى.

بعد ست سنوات ونصف، كان حذائي يغوص عميقاً في وحل الربيع في ميدان تدريب آخر في ألمانيا الغربية. كنت مقدماً قائداً للكتيبة الثانية من وحدة مدفعية الميدان الثامنة والسبعين، وهي وحدة هاوتزر عيار 155 ملم ذاتية الدفع من الفرقة المدرعة الأولى. وكاسيرن التي تخصصنا هذه المرة كانت في المدينة البافارية بامبرغ، ولكننا قضينا الكثير من السنة خارجين في تمارين ميدانية.

بعد أن تركت فوج الخيالة المدرع الثاني في العام 1976، حضرت دراسة في كلية الأركان للقوات المسلحة، وهي مدرسة عالية للضباط المحترفين، وخدمت في وزارة الدفاع (البنتاغون). وقد أعطتني الأعمال التي أسندت إلي في "المبنى" تعليمات حقيقية في الجيش وفي سياسات واشنطن.

(*) ممثل أمريكي (١٩٢٨ - ١٩٩٩م).

(**) جنرال أمريكي (١٨٨٥ - ١٩٤٥م) قاد الجيش الثالث في الحرب العالمية الثانية واكتسح فرنسا وألمانيا.

وعندما كنت برتبة رائد وأنا أخدم في مكتب المفتش العام للجيش بصفة "محقق"، تعلمت أن الضباط الكبار أنفسهم لم يكونوا محصنين ضد الخسة الأخلاقية والفساد. حققت مع جنرال كان يسكر كل يوم بعد العصر على مشروب جن نادي الضباط، ثم يأمر الشرطة العسكرية أن تؤدي التحية لكلبه. وجنرال آخر كان لديه مخطط ذكي لتلقي نسبة مئوية مرتبة مع مقاول فاسد للدفاع، وخبأ ثروة في حسابات مصرفية خارج البلاد. ثم كان هناك الجنرال الذي كان يختار السكرتيرات على أساس مظهرهن لا على أساس قدراتهن المكتبية. وبالنسبة إلى رائد شاب، كان هذا العمل مثيراً للاهتمام: ففي هذا العمل تعلمت أن أفهم تلك النظرة اليائسة في عيني الرجل المذنب حين يدرك أنه قد وقع.

بعد ثمانية عشر شهراً بعمل محقق عام، عملت لرئيسي أركان الجيش، الجنرال بيرني روجرز والجنرال شاي مايرز، وكان عملي هو أن أساعد في إعدادهما لأداء شهادة أمام مجلس الشيوخ. وقد اكتشفت أن بعض أعضاء مجلس الشيوخ، إذا جوبهوا بالاختيار بين المصالح الوطنية وبين مصالح مناطقهم الانتخابية، عندما يأتي الأمر إلى تقسيم المنافع على الأنصار والناخبين في عقد أسلحة، على سبيل المثال، أو تقوية قاعدة في المنطقة، اكتشفت أن أولئك الشيوخ كانوا راغبين رغبة كاملة في أن يصوتوا لجماعتهم في مناطقهم الانتخابية في بلدهم. لقد نضج تومي فرانكس بيروقراطياً في أثناء تلك السنوات الأربع. مثالية الشباب عززتها ذرائعية السياسات.

عندما حان الوقت الذي عدت فيه إلى ألمانيا في 1981، كنت سعيداً بالرجوع إلى الجند. فقيادة كتيبة واجب من أكثر الواجبات إعنائاً ومطالباً، ولكنه من أكثرها جزاء أيضاً، في الجيش. وكنت محظوظاً أن أقود الوحدة 2-78 لثلاث سنوات بدلاً من السنتين المعتادتين. وبرهن لي جنودي الخمسمائة والخمسة والستون أن الجيش المكون كله من المتطوعين كان جيشاً ناجحاً. ولم تبق المخدرات في صفوف الجند مشكلة بعد ذلك، واستطاع برنامج شامل على نطاق الجيش للاختبارات العشوائية

أن يتعرف بالمتعاطين للمخدرات، الذين كانوا يفصلون من الخدمة بسرعة. والعداوة العلنية التي كانت بين الأعراق اختفت، عندما استطاع الرقباء والضباط السود والهسبان أن يتولوا أماكنهم المستحقة لهم في الجيش. وفي هذه المنطقة الحساسة كان الجيش يقود تطور المجتمع الأمريكي.

وأدرك الجند مرة أخرى أن ارتداء البزة العسكرية كان شيئاً يستطيعون أن يفخروا به. وإذا توافرت لهؤلاء الجنود القيادة الجيدة، فإنهم سيقضون الليالي ونهايات الأسبوع في الميدان في تمارين الرمي الحي الخطرة، وفي أي طقس، ويأكلون الإعاشة-ج ويختطفون النوم وهم تحت المعاطف الواقية التي تنقط من المطر عندما يستطيعون، ويعملون بأداء عالٍ إلى مستويات متعبة ملحاح.

وعندما تحسنت نوعية الجند بالضبط، كانت تقاننتا لميدان المعركة الآن متفوقة بشكل فعال جداً على الأسلحة والتجهيزات التي سبق لي أن أتقنتها عندما كنت ضابطاً شاباً. لقد تم العمل على "استقرار" الدبابات ام-60 في الفرقة كي تطلق النار وهي تدرج فوق أرض وعرة، وكنا قد بدأنا في وضع مناظير الرؤية الليلية في الميدان. وفي غضون سنتين، سيكون كثير من الفرق الأمريكية المدرعة مجهزة بالدبابة الجديدة الرئيسية للمعركة المعروفة باسم ام-1 أبرامز، وهي قفزة نوعية فوق أي شيء في المخزون السوفيتي. ولم تكن أبرامز تستطيع فقط أن تطلق النار وهي تهتز عبر الأرض غير المستوية، فإضافة إلى ذلك كان يستطيع منظارها الحراري والسيطرة الحاسوبية على الرمي أن يتتبع دروع العدو نهائياً أو ليلاً، وفي أي طقس، وعلى مدى طويل.

وكانت الصواريخ (تو) أنبوبية الإطلاق، وبصرية المتابعة، وسلكية التوجيه المضادة للدبابات هي الآن الأسلحة النظامية، وكانت محمولة على سيارات الجيب، وعلى ناقلات الجند المدرعة وفي الطائرات العمودية. وكانت المدفعية على وشك أن تدخل المقذوف الثوري عيار 155 ملم نحاسي الرأس، الذي يتبع حزمة شعاع ليزر إلى هدف يقع على بعد عشرة أميال.

وكان الحاسوب يطل في كل أنحاء الجيش. وكانت كتيبتي مجهزة بحاسوب تناظري رقمي لمدفعية الميدان، وبخزانة زجاج ليفي أخضر مع لوحة مفاتيح فوق صندوقه. وبأصواته الملونة التي ترمش وتصدر أصواتاً قصيرة منبهة: بيب، كانت تبدو مثل إنسان صديق آلي من أفلام الخيال العلمي، ولذلك أسميناه "فريدي فاداك" نسبة للحروف الأولى من اسمه الوظيفي. وهذه الأداة ثورت الطريقة التي كانت تتقرر بها حلول الرمي بالنسبة إلى المدفعية: فعندما يكون مركز توجيه النيران قد طبع فيه إحداثيات الهدف، يقوم الحاسوب بقذف ارتفاعات الأنبوب وسموته (جمع سمت) إلى المدافع. لم تبق هناك حاجة إلى الجداول الورقية واللوحات والدبابيس بعد ذلك. وكنت أستمع بعرض النظام على أصدقائي في الدروع وفي المشاة، الذين كانوا ما يزالون يعتقدون أن المدفعية فرع قديم الطراز.

ومع الرغبة القوية في التجديد التي ورثتها من أبي، انطلقت في وضع فريدي فاداك في أفضل استخدام ممكن في حرب المناورة. وقام الرقيب الأول للقيادة عندي وهو رجل فاهم، اسمه دون مان، والضابط الجديد للعمليات عندي، النقيب مايكل هيز، بإلقاء نظرة سريعة على مستودعات السيارات في كل ألمانيا ووجدوا شاحنة صيانة احتياطية. ونزعنا القسم الداخلي الصندوقي الشكل من طاولات العمل وصناديق العدة، وبنينا مركز عمليات تعبوي متنقل حول الحاسوب "توك" نسبة للحروف الأولى من اسمه، وطبيعي أننا أسميناه العربية لعبة توك (توك-آ-توي) على اسم العربات المتحركة القصيرة المكتنزة المعروفة باسم تونكا توي والعزيزة عند الأطفال في منطقة الإسكان التي كنا فيها. ومع توك-آ-توي، كانت الكتيبة تستطيع أن تتحرك بأسرع بكثير مما كان ممكناً لها قبل عام فقط.

وكنت معجباً، أكثر من أي وقت مضى، بالجمع بين السرعة وقوة النيران. وكانت العقيدة العسكرية الأمريكية تتطور في تجسيدها الأخير، كانت تعمل على تطوير رد سريع، غير تقليدي على توقعات غزو يقوده السوفيت على ألمانيا الغربية. ففي هذه المعركة "الجوية الأرضية"، سوف تقوم القوات الأمريكية بالتخلي عن

مواقعها الدفاعية الثابتة، وتضرب أجنحة العدو، ثم تقوم بعدئذ، وهي مدعومة بالطائرات العمودية الهجومية وبالقدرة الجوية، باختراق نحو مؤخرة العدو وتهاجم منه مراكز القيادة والسيطرة وخطوط الإمداد.

كان العقيد وين داوونج، قائد لواء المشاة الذي أتبع له، يمتلك سنوات من الخبرة في القوات الخاصة وقوات النخبة، وأمضينا معاً ساعات طويلة نناقش فيها ميادين المعركة في المستقبل. وقد أقنعني أن الزمر الصغيرة من قوات العمليات الخاصة العالية المهارات، التي يتم إدخالها عميقاً خلف خطوط العدو ستلعب دوراً مهماً.

وأنا أقرأ المجلات العسكرية في وقت متأخر في الليل في مجنزرة قيادتي، صوّرتُ ميادين المعركة تلك: تبدو فوضوية، وستكون فعلاً مركزة تركيزاً ضيقاً، وهي مؤثرة تأثيراً مدمراً.

كنت أريد مكاناً في هذا الجيش الجديد. وكان كبار ضباط الفرقة ينظرون إلى كتيبتي نظرة عالية، ولكن ذلك لم يكن ضماناً لأرفع إلى عقيد وأعطى فرصة في قيادة لواء. وكان هيكل وحدات القتال يتغير. فالصواريخ والذخائر الجديدة الموجهة بدقة سوف توسع قريباً المدفعية القوسية. وكان هناك زيادة مفرطة في أعداد الرواد والمقدمين المتبقين من الحشد لفيتنام. وانطبقت قاعدة "إلى الأعلى أو إلى الخارج": معظم المتقدمين سوف يتقاعدون بعد خدمة عشرين عاماً.

وكان لي ولكاثي مناقشاتنا المألوفة حول المستقبل.

وبدأت: "سيكون علينا أن...."

وقالت مكملة فكرتي: "...ننتظر ونرى."

كان الالتحاق بكلية الخدمة العليا هو مفتاح التقدم. وكانت عيني، مثل الكثيرين من نظرائي، على كلية الحرب في الجيش في كارليزل في بنسلفانيا، قرب غيتسبرغ. وقامت لجنة باختيار الذين سيلتحقون في العام القادم، ولكن قائمة

أسماء أولئك المختارين كانت سرّاً محروساً حراسة شديدة إلى أن تعلن وزارة الدفاع قائمة الأسماء. وكان ربيع العام 1984 زمن التوقع واللايقين لأسرة فرانكس. هل كان لنا مستقبل في الجيش أم لا؟ ... "انتظر لتر".

وبعد ذلك في أصيل يوم من الأيام في أثناء قيادة في عاصفة مطرية، وقد كانت الكتيبة تتدرب في غرافينوه، جاء اللواء توم هيلي، قائد الفرقة، ووقف في الجيب الخاص به، ودخل إلى توك -آ- توي لأجل تلقي إيجاز عنه. وقدمت له القهوة مع كعكة شوكلاتة بالبندق من الحلوى المنقوشة المثلجة، ثم وصفت التدريب الذي كنا نديره.

وبدا اللواء هيلي مسروراً. وابتسم ابتسامة عريضة وهو يصعد راجعاً إلى سيارته الجيب ليفادر: "كعكة عظيمة، يا توم. تأكد من إحضار كاثي لوصفة الكعكة إلى كارليزل".

لقد تم اختياري لكلية الحرب. وابتسمت، بل وفي الوقت نفسه كأني بكيت. وبدا لي وكأن أسرة فرانكس كانت على وشك أن تجعل الجيش وظيفة لها. وأننا سنصير أسرة حقيقية مرة أخرى لمدة عام.

هذه النوبة الثانية من الواجب في ألمانيا أبقتني في الغالب بعيداً عن البيت، ومرة أخرى دبرت كاثي حياة أسرتنا. كانت جاكى قد بدأت السباحة التنافسية في سن السابعة عندما كنا نعيش في فيرفاكس في فيرجينيا، واستمرت في التفوق في الرياضة مع فريق السباحة الألماني المحلي. وصارت جاكى أيضاً طليقة اللسان باللغة الألمانية عندما كانت تدرس في مدرسة ألمانية للبنات. وكنت أذهب إلى اجتماعاتها السباحية ونشاطات مدرستها عندما كنت أستطيع، ولكن كاثي قامت برفع الأثقال طوال السنوات الثلاث الماضية. وعلى الرغم من أن والد كاثي توفي في الحقيقة في هذا الوقت، فإنها قد وهبت نفسها لعائلات الجيش، وخدمت رئيسة لنادي الزوجات في بامبرغ. وعندما غادرنا الكتيبة، تلقت جائزة من قائد الفيلق الثامن تقديراً لخدمتها. وكنت فخوراً بها إلى حد لا مزيد عليه.

في شهر تموز/يوليو 1985، بعد سنة في كلية الحرب، عينت في فورت هود، في تكساس، بصفة نائب ضابط العمليات للفيلق الثالث، الذي كان يضم معظم الفرق الثقيلة الموجودة في قواعد الولايات المتحدة. وكان قائد الفيلق هو الفريق كروسبي "بتش" سينت، وسبق له أن كان قائد الفرقة الأولى المدرعة في شهورنا القليلة الأخيرة في ألمانيا، وأتيح لي أن أعرفه معرفة جيدة. ولكن اختياره لضابط مدفعية ليشغل عملاً مهماً في العمليات كان أمراً غير مألوف قليلاً. ولكنني كنت قد عملت بشكل وثيق بما يكفي مع الدروع والمشاة في أثناء السنوات العشرين الأخيرة وتمكنت من تعلم الكثير عنهما. وعلى العموم كنت أحظى بالاحترام في وسط مجتمع المناورة بصفتي رجلاً مدفعياً مستقلاً في فكره كان يستطيع أن يجد طرقاً لحل المشكلات.

وفي غضون أشهر قليلة من وصولي إلى فورت هود، شرعت في تصميم ميدان لتدريب رجال المدفعية على إصابة أهداف متحركة. وكانت مدافع الهاوتزر من الناحية التقليدية، تطلق النار على تشكيلات العدو، والخنادق، والاستحكامات والمستودعات، والعربات المدرعة الواقفة. ولكن الجيش المهاجم، سواء أكان الجيش السوفيتي أو أحد الجيوش المتعاملة معه في العالم الثالث، لا يمكن التعويل على أنه سيبقى ثابتاً، ينتظرنا أن ندكه بنيران سد مدفعي. كنا بحاجة إلى التفكير في حرب حركية.

وبالعمل مع المهندسين، صممت وبنيت سكة حديد تتلوى كالثعبان خلال شجيرات الشيح والعرعر في الميدان الشمالي لفورت هود، وتمشي على سكة الحديد قاطرة نسيطر عليها باللاسلكي وتقوم بسحب قطار من الأهداف الزاحفة تمثل دبابات، وناقلات جند مدرعة. وتدريب في هذا الميدان رجال مدفعية من كل أنحاء الفيلق الثالث: الراصدون يطلبون مهام رمي، والمدافع تشتبك مع الأهداف الزاحفة باستخدام الطلقات الدخانية. ومن الطبيعي، أن النواحي الفنية للميدان كانت مثيرة للاهتمام، ولكن إجبار رجال المدفعية على التفكير "خارج الصندوق" كان مهماً حقاً.

وبعد ذلك، شرعنا في تحسين تدريب الرمي المدفعي للدبابات لجنودنا في المناورة. فلسنوات، تدرب سدنة الدروع على ميادين رماية طويلة، ضيقة، بنيت لتتلاءم مع ميدان الرؤية المحدود لأنظمة التسديد المركبة على دباباتنا. وكانت الأهداف المتحركة والثابتة توضع في مواضع يمكن التنبؤ بها. لقد كان من السهل على رماة مدفعية الدبابات أن "يعلّبوا" ميادين رمي فورت هود، وبذلك كانوا يسجلون باستمرار علامات جيدة جداً في هذا التدريب وهو أقل من الواقعي.

وبعد أن وسّعنا ميادين الرماية في بلاك ويل وكريتيبرغر ونصبنا المزيد من الأهداف المتحركة والأهداف المفاجئة غير المتوقعة، صار سدنة الدبابة ملزمين أن يوجهوا أبراج دباباتهم للتسديد بالاتجاه باستمرار "بحثاً" عن أهداف شبح (سلويت) تظهر عشوائياً على كلا الجناحين، وليس إلى الأمام فقط. في البداية انخفض معدل علامات الرماية في وجه هذه التحديات الجديدة.

في صباح أحد الأيام جاءني قائد كتيبة دبابات كان أداؤها ضعيفاً في ميدان الرماية الجديد في ميدان بلاك ويل، ليعبر عن اهتماماته، وقال: "توم، هذا الميدان قاس تماماً. وربما يكون قاسياً جداً أكثر مما يلزم".

وقلت له وأنا أشاهد دباباته تصلصل عائدة إلى خطوط البداية في غبار تكساس: "حسناً، يا ديف. إن آخر مرة دققتُ فيها، وجدت أن الحرب كانت قاسية تماماً".

وبعد مدة لم تطل كان سدنة دباباتنا وسدنة دبابة برادلي قد صاروا خبراء في أكثر ميادين الرماية الجديدة تحدياً. وكنت فخوراً وأنا أراقب الجنود الأمريكيين، وهم يرتفعون مرة ثانية، إلى مستوى جديد. وكان التعويض المكافئ لهذه الأساليب التدريبية لرماية المدفعية سيظهر بعد سنوات قليلة لاحقة في صحاري الكويت والعراق.

كنت أغادر البيت متجهاً إلى المكتب في صباح يوم أربعاء في شهر آب/أغسطس 1986 عندما رن الهاتف.

كان صوت أمي متوتراً: "تومي ري: أبوك سقط وهو في مستشفى ميدلاند التذكاري. وهم يعتقدون أنه أصيب بسكتة دماغية."

سقت سيارتي مسرعاً جداً على الطرق العامة لولاية تكساس، ومعني كاثي وجاكي، ووصلت ميدلاند في وقت متأخر من أصيل ذلك اليوم. كان والدائي قد عادا إلى هناك في السبعينيات من 1970، وكان أبي قد قبل عملاً مع شركة البيع بي وببي وهي تصلح وتبيع الأجهزة الآلية لعزف الأسطوانات بقطع النقد، في كل أنحاء غرب تكساس. كان هذا نوع العمل الذي يحسنه بشكل جيد. وفي الحقيقة كان أبي قد اشترى جهاز عزف قديم من المركز العالي للشباب في ميدلاند ورممه وقدمه لنا هدية عيد الميلاد. في عمر الثانية والسبعين وعلى دواء ضغط الدم، كان ما يزال يعمل ستة أيام في الأسبوع كعادته.

وكل هذا لم يزدني إلا إحساساً بالصدمة فقط عندما رأيته مستلقياً في غيبوبة في وحدة العناية المركزة. كان أبي دائماً صاحب حضور من القوة الهادئة. والآن يبدو عاجزاً لا حول له.

في اليوم التالي كان مستيقظاً ومتماسكاً ولكنه كان يغيب عن الوعي ويعود. وشد على يدي. وقال بصوت ضعيف: "عندما تعود أنت وكاثي إلى البيت سوف نذهب لصيد السمّان. وسوف نحضر معنا كلباً آخر، يا تومي ري..."

"سيكون هذا عظيماً يا أبي."

وتحدث بفرح عن عربة البيت المتقل التي تلقاها هو وأمي، وهي هبة أعطيناها لهما في ذكرى زواجهما الخمسين. ثم نام ثانية.

صحا بوضوح مرة أخرى، ونظر إلي بانتباه "أنا فخور بك. لقد تقدمت كثيراً منذ ذلك اليوم في أوستن عندما وضعناك في حافلة الركاب الغريهاوند تلك".

وفكرت، لقد عملت بجد فعلاً لأمد لهم يد العون. وعندما غادرناه في النهاية، أخبرنا الأطباء أنه كان يرقد مستريحاً، في ذلك المساء ذهبت أنا وكاثي وجاكي إلى

فيلم سينما لتخفيف التوتر. ولكن الصوارف القادمة كانت ما تزال تلعب عندما جاءني النداء.

كانت أمي تجهش بالبكاء على الهاتف: "أوه، يا تومي ري، أبوك قضى نحبه الآن."

وعندما كنا كاثي وأنا نركع في كنيسة المستشفى، تبسّمت، وتذكرت كل الأوقات التي اتصلت به طلباً لنصيحته. "أبي، الأولدز قد سخنت قليلاً." غير سير المروحة وضع منظم حرارة جديداً يا بني. "المقعد في حمام الضيوف يستمر في التنقيط." خذ قلم رصاص. وهذا ما ستحتاج إليه لتصليحه.

وفي مرة اتصلت به من ضواحي فرجينيا الشمالية عندما توقف فجأة جهاز طحن القمامة والتخلص منها. "أظن أن علي أن أجيء بجهاز جديد، يا أبي."

فقال بطريقته الصبورة: "خذ ضوءاً كشافاً، يا تومي ري، واركع على ركبتيك وانظر إلى قعر الجهاز. فإذا كان هناك زر أحمر خارجاً، اضغطه إلى الداخل. هذا هو زر إعادة التشغيل."

طبعاً كان علي حق. ثانية.

وطوال سنوات بعد جنازة أبي في ذلك اليوم الصيفي الحار في ميدلاند أجد نفسي وقد مددت يدي لتصل إلى الهاتف: لتصل إلى حكمته، ومشورته. ما زلت أتمنى لو كان هنا ليعطيها.

في شهر أيار/مايو 1987، ترفعت إلى رتبة عقيد، وبعد شهرين صرت قائد مدفعية فرقة الخيالة الأولى. وهذه الوحدة من حجم اللواء ضمت مدافع عيار 155 ملم ومدافع هاوتزر ذاتية الدفع عيار 8 إنشات، وبطارية من أنظمة إطلاق صواريخ متعددة. وشدّدت على ضباطي وعلى قدامى الرقباء أن المدفعية جزء لا يتجزأ من فرقة الخيالة الأولى، وهي في كل جزء منها مميتة مثل الدروع ومثل كتائب المشاة الآلية التي نساندها. وكانت الفرقة تتطور بسرعة، وتناقش مناقشة كاملة العقيدة

القتالية التجديدية المستندة إلى سرعة البرق وقوة النيران الدقيقة للدبابة الجديدة ام-1 أبرامز وعربة المشاة المقاتلة ام-2 برادلي. ويجب على المدفعية أن تجاري هذه التغيرات ولا تتخلف عنها.

في يوم الاثنين، 22 شباط/فبراير 1988، كنت أعمل على طاولتي في تصورات مناورة تعبوية جديدة، كنت أستمع إلى موسيقى كلاسيكية من الراديو وأنا أكافح في سبيل تحويل النظرية إلى إجراءات تدريب عملية. كانت الموسيقى سوناتا على الكمان من باخ وقد بدأت لتوها عندما قطع المذيع الموسيقى بنشرة موجزة للأخبار: طائرة عمودية من الجيش من نوع سي اتش -47 قد تحطمت قرب شيكو في شمال تكساس، وقتلت عدداً غير معروف من الجنود.

وضعت قلمي. لا يهم كم عدد السنوات التي لبست فيها البزة، لقد كنت دائماً أصدم بالحزن على الشباب الأمريكيين الذين يقتلون في خدمة بلادهم... سواء أكان ذلك في ميدان المعركة أم في التدريب.

ولكن كان علي الكثير من العمل الذي يجب أن أكمله في هذا الصباح، على طاولتي وفي الخارج في ميادين الرماية. وكنت ثانية غارقاً في تصورات المناورة عندما دخل الضابط التنفيذي عندي.

وقال: "لا بأس، أيها العقيد لقد أخرجناهم جميعاً بشكل حسن."

أنزلت قلمي: "أخرجتم من؟"

"ضباط بطارية الصواريخ الذين بقوا على متن شينوك المتوجهة لفورت سيل."

تخدرت. كم من الطائرات العمودية في الجيش من نوع سي اتش -47 شينوك كان يمكن أن تكون هناك في الجو قرب شيكو، وهو مسار الطيران المباشر بين فورت هود وفورت سيل؟ تلك كانت طائرتنا العمودية سي اتش -47، وتحمل ضباطنا، ضباط بطارية أنظمة إطلاق الصواريخ المتعددة ليشاركوا في تمرين تدريبي مع وحدة مدفعية أخرى من الفيلق.

تجمدت في مكاني. لقد أمضيت عمراً وأنا أخطط لكل معركة طارئة كنت أستطيع أن أتخيلها، ومع ذلك لم أتوقع هذه الكارثة البسيطة في وقت السلم. هل كان هناك ناجون؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أي حد كانوا مصابين؟ وماذا لو كانوا كلهم قد ماتوا؟ من الذين يجب علي أن أتصل بهم أولاً، القسيس؟ الأطباء النفسيون في مستشفى الموقع؟ أو هل يجب أن أتصل مع كاثي أولاً؟ لقد كانت هي شريكتي، وهي صلتي مع العديد من زوجات الجنود وعائلاتهم.

وببطء، ذاب جليد الشلل الذي اعتراني.

وجهت الضابط التنفيذي للاتصال بلواء الطيران ليؤكد أخبار النشرة عن الحادث. وبعد أن اتصل أعطت قناة تلفازية محلية تقريراً أكثر شمولاً. وعلى ما يبدو عانت الطائرة العمودية حريقاً في أثناء الطيران، وخرجت عن السيطرة، وانفجرت عندما اصطدمت بالأرض. ولم أشعر بمثل هذه الصدمة عن الضحايا منذ ذلك اليوم المزعج من آذار/مارس في 1968 عندما فجر لغم الفيتكونغ مجنزرة سرية تشارلي إلى قطع. كان من الصعب التفكير. لقد كنت مسؤولاً عن كل شيء فعلته وحدتي، أو فشلت في أن تفعله. لقد كنت مسؤولاً عن جنودي وعن عائلاتهم.

وطوال الساعات الطويلة التالية، قمت أنا وكاثي والقسيس بزيارة زوجات خمسة من الضباط الذين ماتوا. سبق أن أدت عدداً من الأعمال الصعبة وغير المحببة في مساري الوظيفي في الجيش، ولكن محاولة تقديم التعزية إلى أرملة شابة ترتجف وقد هدها الحزن وهي تحمل طفلاً لم يمش بعد، على ركبتيها كان هو أقسى شيء كان علي أن أفعله مطلقاً.

في وقت متأخر من تلك الليلة، استعرضت قائمة أسماء الذين شملتهم المصيبة، والتي كانت الأركان قد أعدتها. وكان الأطباء يستكملون استرجاع البقايا. وكان الأطباء النفسيون على اتصال مع الناجين. وقمت بعمل اتصالاتي الهاتفية إلى والدي الضباط الموتى. والآن يجب أن تستمر الحياة المألوفة الثابتة لإجراءات الجيش.

ومع ذلك، فما زلت غير قادر على تجاوز الفكرة التي تلح بأنني قد فشلت بصفتي قائداً. أنا مدين لجنودي ولعائلاتهم بأكثر مما قد أعطيتهم. لو أنني بشكل ما كنت قد توقعت...

لم يكن أمراً عادياً أن نتوقع الكارثة، كان ذلك أمراً مسلماً به. ولكن القيادة العسكرية لم تكن مهنة عادية. لقد كان واجبي أن أتبصر وأتنبأ. لقد عشنا في خطر غير عادي كل يوم، حتى في زمن السلم.
كل يوم...

وضعت كدسة من البطاقات الفارغة قياس ثلاثة في خمسة على تقويم طاولتي. ثم غليت دلة من القهوة.

على البطاقة الأولى، طبعت "23 شباط/فبراير 88 - أكبر التحديات التي قد أواجهها اليوم." ثم رشفت رشفة من القهوة، وأدرجت خمساً من أهم المشكلات التي يمكن أن تنشأ في الأربع والعشرين ساعة القادمة، عندما تقوم قوات يصل عددها إلى ألفين تقريباً من الخيالة بممارسة مهنتها الخطرة. عندما انتهت قلبت البطاقة وكتبت "الفرص التي قد تظهر اليوم."

وكل صباح منذ يوم الخميس ذاك في شباط/فبراير 1988، دونت "التحديات والفرص" التي قد تحدث في ذلك اليوم. وتجمعت أكثر من خمسة آلاف بطاقة فيما بعد، وما زلت أعمل ذلك. البطاقة ذاتها غير مهمة، إعداد نفسي لكل يوم هو المهم بالتأكيد. ومن خلال العمليات المعقدة في أفغانستان والعراق، ساعدتني العملية على أن أتوقع أي عدد من المشكلات... والحلول.

تركت قيادة مدفعية الفرقة في مطالع شهر حزيران/يونيو 1989. وتخرجت جاكى من مدرسة كيلين الثانوية في اليوم نفسه، وعددت بركات وجودي في فورت هود في السنوات الأربع الماضية. فجاكي خططت للدارسة في كلية دروري في سبرنغ فيلد، في ميسوري، حيث كانت قد تلقت منحة دراسية للسباحة، وأنا تم اختياري لأصير رئيس أركان فرقة الخيالة الأولى.

بعد بضعة شهور، تلقيت الأنباء بأن اسمي كان على قائمة الترفيع لرتبة عميد. وبصفتي رئيس أركان، كنت غارقاً حتى مرفقي في أوراق العمل المكتبي، أكمل تقريراً بعد العمليات عن ألعاب حرب الصحراء في مركز التدريب الوطني الممتد في فورت إروين في كاليفورنيا. وعندما التقطت الهاتف لأكلم كاثي عن الأخبار الجيدة، تصورت الرقيب الأول سكاغليوتي في تلك الثكنة في فورت ديفينز. لم أصل إلى رئيس رقباء، ولكن ربما كان سكاغ سيرضى بنوع الضابط الذي تبين أنني وصلت إلى رتبته.

في الصيف التالي، تلقيت أوامر لأقدم نفسي للعمل بصفة مساعد قائد مدرسة المدفعية في فورت سيل. ذلك كان المكان الذي كنت أستطيع فيه أن أطبق نظرياتي عن السرعة وقوة النيران.

ولكن تلك الأوامر سوف تتغير سريعاً.

في يوم الخميس 2 آب/ أغسطس 1990 درج آلاف الجند ومئات العربات المدرعة إلى داخل الكويت واحتلت الدولة الخليجية العربية الصغيرة بعد معركة قصيرة من طرف واحد.

وكلمني قائد الفرقة الجديد العميد جون تيليلي، في البيت في تلك الليلة. "توم، من الأفضل أن ننفذ الغبار عن خططنا للانتشار في ما وراء البحار." "تسلمت ذلك، سيدي"

وشجب مجلس الأمن في الأمم المتحدة عمل العراق، وطلب من صدام حسين أن يسحب قوة احتلاله من الكويت فوراً. ولكن صدام أعلن رسمياً ضم الكويت بوصفها المحافظة التاسعة عشرة للعراق. وتبع ذلك مزيد من قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة، ولكن العراق وقف ثابتاً على موقفه.

تم إنذارنا بالانتشار إلى موقع غير محدد في "جنوب غرب آسيا". وكان كل واحد قد عرف أن المكان هو المملكة العربية السعودية، لأن الأجنحة القتالية للقوات

الجوية والجماعة المتقدمة من الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً كانوا من قبل في طريقهم إلى المكان. واطلعنا على مدار الساعة على تفاصيل لا نهاية لها لإرسال فرقة ثقيلة من الجيش الأمريكي إلى الجانب الآخر من العالم. وعندما انتشرت الخيالة الأولى، أدركت، أنها سوف تأخذ الميدان بسلالة جديدة من الجنود والأسلحة الثورية.

وكان رئيس أركان الجيش الجنرال كارل فوونو قد زار الفرقة بعد أيام قليلة لاحقة، وعقد هو وجون تيليلي مناقشة خلف أبواب مغلقة. وعندما خرجا كنت قد حصلت على عمل جديد.

قال لي جون تيليلي: "توم، إن الجيش سوف يرقبك ويخلع عليك رتبة عميد". وفي وجه المعركة القادمة في العراق تسارعت ترقيتي إلى رتبة ضابط جنرال: وعلى الرغم من أن التاريخ الرسمي لحمل الرتبة سيكون في شهر تموز/يوليو، 1991 فقد عُلقت نجمة فوراً.

ثم انحلت مسألة أخرى. تيليلي طلب، والجنرال فوونو وافق على أن أصير قائد الفرقة المساعد لشؤون العمليات والمناورة، وينفذ الأمر فوراً. سأقوم بقيادة الجماعة المتقدمة من الفرقة إلى الصحراء.

بعد ثلاثة وعشرين عاماً من قيام الملازم تومي فرانكس بالصعود على متن الطائرة النفاثة المستأجرة من الخطوط الجوية كونتinentال في الطريق إلى فيتنام، ها أنا ذا سأكون عميداً جنرالاً، وسأذهب إلى الحرب ثانية.



الفصل الخامس

رتبة ترفع علمها (*)

منطقة التجمع حصان. المملكة العربية السعودية.

24 كانون الأول/ ديسمبر 1990

لم أتوقع عيد ميلاد سعيداً.

كل واحد في مركز القيادة التعبوي للفرقة كان أشعث رث اللباس. ففي الأشهر الأربعة السابقة، عمل 17.000 رجل وامرأة من فرقة الخيالة الأولى أياماً وليالي طويلة في إكمال انتشارنا لعملية درع الصحراء.

عندما قادت الجماعة المتقدمة إلى المملكة العربية السعودية، كنت قد تقابلت مع قائد الفيلق 18 المحمول جواً، الفريق غاري لوك، في وقت متأخر من ليلة حارة، رطبة من شهر آب/أغسطس في مدينة الظهران إحدى مدن الخليج العربي. سوف نؤسس منطقة تجمع في المكان الذي سوف تمرُّحل(**) فيه الفرقة آلاف الجند ومعداتهم في الكثبان الرملية المنخفضة على بعد 160 كيلو متراً إلى الغرب من ميناء الدمام. فرقة الخيالة الأمريكية كانت ستأتي إلى المدينة، وأسمينا منطقة التجمع "الحصان" تكريماً لتاريخ الفرقة.

(*) الرتبة العسكرية البحرية التي تسمح لحاملها أن يرفع علماً يمثل المنطقة التي يمارس فيها قيادته، وهي تعني عموماً رتبة جنرال (عميد، ولواء، وفريق).

(**) التمرُّحل هو: التجميع، والتنظيم، والاحتفاظ بالواصلين من الأفراد، والتجهيزات، وإدامة المواد استعداداً للحركة قدماً. والتنظيم والإعداد لحركة الأفراد والتجهيزات والمواد في المناطق المحددة للبناء التدريجي لقوات قادرة على الوفاء بمتطلبات القائد العملياتي.

وإلى الشمال منا، فرقة المشاة 24 (آلية) والفرقة 101 المحمولة جواً (اقتحام جوي) قد عززت المشاة الخفيفة للفرقة 82 المحمولة جواً. وفي أثناء الأسابيع الأولى الموحشة من شهر آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر، توضع خيالة الجو هؤلاء كأنهم سلك عاثوري، "مصيصة السرعة" لصدام حسين في الحالة التي يقرر فيها أن يرسل قواته جنوباً إلى المملكة العربية السعودية.

وفي الوقت الذي كنا نعمل في تلك الحرارة الخانقة، على إقامة مواقع الألوية والكتائب التي تمتد عبر اتساع من الصحراء التي لا تضاريس فيها، كان الدبلوماسيون في الأمم المتحدة يحاولون إقناع العراقيين بأن يسحبوا قواتهم من الكويت ليمنعوا قيام الحرب. وأصدر مجلس الأمن عشرة قرارات تدين العدوان العراقي، وتعهد الرئيس جورج اتش. دبليو. بوش تعهداً جاداً بأن العدوان لن يصمد. ولكن صدام عاد فصدم المجتمع الدولي، وأصر بعناد أن الكويت صارت الآن محافظته الجديدة. وشكلت الولايات المتحدة وحلفاؤها في حلف الناتو تحالفاً تاريخياً كان الآن يشمل قوات من الدول العربية المجاورة للعراق.

من منظور جندي في الصحراء، بدت لي الحرب حتمية لا بد منها. وكان الإعداد للحرب هو أقصى عمل كنت قد عملته منذ فيتنام.

ومع وجود الجنرال جون تيليلي في استقبال الجند في ميناء الدمام ومع وجودي في منطقة التجمع، تولينا مهمة إعداد الجنود للقتال. كانت تلك المهمة معقدة لأننا كنا سنحدث كل الرصيد المخزون لدى الفرقة الذي يزيد على 300 دبابة ام1 أبرامز إلى الدبابة الجديدة ام1ايه1. فهذه الدبابة تمتلك مدفعاً من عيار 120 ملم أطول مدى، ودرعاً معززاً، ونظام حماية نووياً وحيوياً وكيمياوياً. وقد رحبنا بالحماية النووية الحيوية الكيماوية لأن العراقيين كانوا قد استخدموا غاز الأعصاب في حربهم مع إيران وضد المدنيين الأكراد في شمال العراق، وكانوا موضع شك في أنهم يمتلكون عوامل حيوية. وتنبأت الاستخبارات في ذلك الوقت أن العراق لن يتردد في استخدام أسلحة الدمار الشامل هذه ضد قوات التحالف.

وتم إنجاز عملية استبدال دروع الفرقة بإدخالها إلى الميدان بشكل "حزمة كاملة"، فبدأ الأمر وكأنه تمرين إمداد وتموين مباشر غير معقد. وعندما راقبت القوافل التي امتدت بلا نهاية من نصف المقطورات من نوع لو بوي والدبابات الجديدة ام1 ايه1 تدرج داخلة من الميناء، أدركت القوة العارمة لقدرة أمريكا الصناعية العسكرية. ولكن تبديل نموذج من الدبابات من أجل إحلال نموذج آخر في هذه البراري الحارقة، ثم القيام بتدريب السدنة على استخدامها في الوقت نفسه الذي يتم فيه إبداع خطة المعركة، كان أي شيء إلا أن يكون أمراً بسيطاً.

وفيما كان السدنة يجهزون دباباتهم الجديدة، قام العميد جو روبلز، مساعد قائد الفرقة لشؤون المساندة، بتوجيه المهندسين إلى جرف وعزق ميدان رماية من الكثبان الرملية ومسطحات الحصباء لتأهيل الدروع، في شرق المملكة العربية السعودية. وأصر جون تيليلي على أن يكون "ميدان الرماية بيغاسوس" (*) خط رماية حركياً وليس ثابتاً لا يتحدى الرماة. وسيقوم سدنة كل دبابة أبرامز وبرادلي بالتأهيل مع مدافعهم من وضع الوقوف والحركة معاً، في خلال تشرين الثاني/نوفمبر ومطالع كانون الأول/ ديسمبر. وكانت مستويات العلامات مثار الإعجاب. هؤلاء الشبان الأمريكيون كانوا يتلاقون في التركيز على الذهاب إلى الحرب.

وبانتظار أن تسير المفاوضات الدبلوماسية في مجراها، كنا نتدرب ونكمل إتقان التعبئة، طوال اثنتي عشرة ساعة إلى أربع عشرة ساعة في كل يوم، طوال سبعة أيام في الأسبوع. ولكن الدبلوماسية لم تحقق إلا القليل من التقدم. وفي مقر قيادته في الرياض كان الجنرال نورمان شوارتسكوف، القائد العام الأمريكي في القيادة المركزية، يطور خطة لتحرير الكويت. وقد وافقت وزارة الدفاع ووافق البيت الأبيض على طلبه لمضاعفة حجم قوات التحالف إلى 550.000 من الجنود

(*) بيغاسوس في الأساطير اليونانية اسم الحصان الذي ضرب بحافره فأنبع نافورة هيبوكرين في جبل هيليكون.

الأمريكيين، والبريطانيين، والفرنسيين، والعرب، وهو ما يصل تقريباً إلى أربع عشرة فرقة من القوة المقاتلة المتحالفة.

كنا جميعاً مشغولين للغاية إلى درجة شعرنا فيها أن عيد الميلاد فاجأنا. وبالتأكيد فإن الجند في مركز قيادة الفرقة لم يكونوا يشعرون بفرحة العيد والاحتفال به. وكانت الخيام، المستخدمة في الأغراض العامة، المتوسطة الحجم وامتداداتها المشابهة للخيام الموضوعة فوق مجنزرات قيادتنا، كانت مخبأة تحت شبكات تمويه ملونة، تعطيها مظهر أكوام النمل التي كانت في المزرعة في ونيوود. وعندما هبت النسيمات من ناحية براميل المراحيض المحترقة، انتشرت رائحة جعلت المكان مثل بنه بهوك. وليس مهماً كم من أكاليل الزهور الحمراء والخضراء كان معلقاً في داخل الخيام، لأن هذا الركن من المملكة العربية السعودية لم يبق جذاباً لمدة طويلة بعد ذلك.

حاول الجند أن يكونوا مرحين، ولكن ذلك لم يكن سهلاً. فالبيئة المحيطة العارية وحدها فقط أضافت حدة إلى المزاج الحاد. لقد أدرك كل واحد منا أننا سنكون في القتال قريباً. ولم يكن أحد يتوقع أن يكون القتال سهلاً. لقد نشر الجيش العراقي ثمانياً وعشرين فرقة للدفاع عن الكويت، وهذا العدد يتفوق على قوات الحلفاء بمعدل اثنين إلى واحد. وفرقهم الست من الحرس الجمهوري النخبة مجهزة بدبابات تي-72 من صناعة الاتحاد السوفيتي، وهي فرق هائلة، ولديها حافز جيد للقتال. وهناك أيضاً احتمال مواجهة أسلحة الدمار الشامل.

ويضاف إلى قلقنا العام الحنين إلى الوطن تلك العاطفة القديمة. ففي أثناء الحرب الباردة، كان معظم الجنود المحترفين ينجحون في قضاء عيد الميلاد بين أحبائهم وذويهم. وبالنسبة إلى الكثيرين من الجند الشباب، فإن هذا العيد سيكون أول عطلة لهم لم يجلسوا فيها على موائد آبائهم لتناول العشاء من الديك الرومي. والبريد كان بطيئاً، ولم تكن هناك فرص كثير للتحدث بالهاتف مع البيت في الوطن. ولكن العديد منا مع ذلك تسلموا رزماً تعبر عن العناية والاهتمام من

عائلاتنا، وكانوا قد ادخروا سلفاً الكعك الخفيف والحلويات من أجل البذخ في عيد الميلاد.

ولأجعل المعسكر أكثر مرحاً، أرسلت عدداً من الكشافة الواسعي الحيلة للتفتيش عن شجرة عيد ميلاد. وفي مساء عيد الميلاد وضعنا صنوبرة صحراوية نحيلة قطعت من أشجار حاجز الرياح من أرض أحد الشيوخ المحليين، في خيمة المطعم الكبيرة. ومع أغنية "أراحكم الله أيها السادة المرحون" تبعث من مجسم للصوت (ستيريو) قابل للحمل، فتحنا الحلويات وزينا الشجرة بالنجوم التي قطعناها من صحون الصفيح، أو خيطان من الفشار، وقطع من السلك الملون المعتاد. وتناولت مع الموجودين علبتين من البيرة الخالية من الكحول من نوع كلوزثالر.

وتذكرت، وأنا أرتشف ذلك البديل السيئ للشيء الحقيقي، الأيام التي كنت أدعى فيها إلى حفلات عيد الميلاد في نوادي المتطوعين في الجيش. وكما هو معتاد دائماً، كنت أحب أن أكون مع الجند، أشاركهم صور العائلات، وأستمع وأسترخي. أما الآن، فلا أول مرة لي في البزة، أحسست بمسافة بيني وبين الجند.

عندئذ، أدركت: أنا الآن جنرال.

عندما جلست إلى طاولاتهم، كانت أعين الجنود من حولي تذهب تلقائياً إلى النجوم القماشية الموجودة على بزتي العسكرية الصحراوية التي تلوها بقع بلون الشوكولاتة. كان الجند يعتقدون أن الجنرالات مختلفون عن الناس، من طبقة منفصلة من المخلوقات. وكان الجنود يتوقعون أنني، بوصفي جنرالاً، أمتلك إجابات لجميع الأسئلة المهمة في حياتهم: ماذا كانت الخطة الإستراتيجية لصدام حسين؟ وماذا كانت الأفكار الخاصة العميقة للجنرال شوارتسكوف؟ وما هي العوامل الخفية التي قررت التوازن بين الطعام الساخن والوجبات الجاهزة للأكل؟ وما الذي يضبط دذبذة البريد؟ وما هو فوق كل هذا، نوع الشحم الذي كان هو الأفضل لمدركات المجنزرة على الدبابات الجديدة أم الـ I إيه 9؟.

سيكون شأني عظيماً لو أنني كنت أستطيع الإجابة عن تلك الأسئلة. وكانت الحقيقة هي أنني لم أكن أستطيع ذلك. لقد اكتشفت، أن كوني جنرالاً، كان يعني أن أجمع أكثر ما يمكن من المعلومات، وهي دائماً قليلة الورد، ثم أتخذ القرارات. ثم قبولها والتلاؤم معها. وكان هذا يعني استخدام الرأي. وكان يعني أيضاً أنني غير قادر على قضاء وقت مع الجند بالقدر الذي كنت أريده، مثلما كنت أفعل في الماضي. كان لدي الكثير لأتعلمه.

وفي الحال بعد أن وصل الجنرال تيليلي إلى الظهران بعد أن كان مشغولاً في تفريغ معداتها من السفن، ظهر مراسلان صحفيان في منطقة التجمع حصان، غير مصحوبين بمرافقين من العلاقات العامة. ومن الطبيعي أنهم طلبوا أن يروا "الجنرال". كانا يعرفان كيف يتزلفان بالإطراء، وكانت من السهل أن أقع في حبال التزلف. ولما حان الوقت الذي قفزا فيه إلى سيارتهما التويوتا المستأجرة من نوع لاندكروزر، كنت قد شاركتهم في حكمتي حول الإستراتيجية المثلى لكسب هذه الحرب وعن أبرز النواحي في بصيرتي التعبوية.

وفي أثناء تقريرتي في كل ليلة عن الموقف إلى الجنرال تيليلي، لاحظت باعتزاز أنني "قمت بمقابلة جيدة مع المراسلين".

وللحظة، بقي الهاتف المأمون صامتاً. ثم سأل تيليلي "عم تتحدث أنت؟" ولم يكن هو نفسه الصديق المعتاد.

وشرحت له كم كان المراسلان مهتمين فيما كنت أقوله. وسادت لحظة صمت مؤلمة أخرى على قناة الاتصال.

ثم قال بلهجة رسمية، لم تكن أبداً علامة جيدة: "جنرال فرانكس، لا تفعل أشياء مثل ذلك دون التحدث إليّ أولاً." ثم تتحنج وصفى حنجرته. لم ينته بعد من الفرشاة السلوكية. "لديك مسؤوليات معينة. ولكن القيادة العامة لهذه الفرقة ليست واحدة منها. في المستقبل، اترك المراسلين لي."

وقلت ممثلاً: "فهم، سيدي."

وعندما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع الجند في خيمة المطعم في مساء عيد الميلاد، تحسن المزاج قليلاً عندما ربط رقيب من مفرزة الإشارة ميكروفوناً وسماعات أكبر مع مجسم صوت قابل للحمل. وهذا ما عزز قناعاتي بأن الرقباء كانوا هم في الحقيقة الناس الذين يجعلون الجيش يعمل. والآن كنا نستطيع أن نتناوب أدوارنا في قيادة تأدييات أساسية من أغاني عيد الميلاد "زينوا القاعات." وانحنيت لطلب الجمهور، وهاجمت سمع كل واحد ببيت شعر من أغنية وين نيوتن^(*) عيد ميلاد راعي البقر، "ظناً مني أن ألم الاستماع إلي وأنا أغني قد يقدم لحظة انصراف عن القلق بشأن غاز السارين العراقي.

ولكن عندما بدأتُ أتحرك بين طاولات الجنود، أظهر إعجابي بصورة التوأم الصغير للرقيب المعلم جونز، أو بصورة جم ابن رئيس الرقباء سميث وهو في زي الشبل الكشاف، فإن مزاج العزلة الموحشة الكامن في نفسي اعتراني ثانية. وقام عريف بفتح زر على ساعته من نوع سيكو ليدقق في الوقت في دنفر. وقال وهو يناولني صورة فتاة جميلة، ونحيلة مع أمها الممتلئة: "ليندا وأمها، ربما كانتا الآن تزينان الشجرة، يا سيدي." وللحظة لم يتكلم أحد على الطاولة. وتصورتُ جاكوي وكاثي في بيت أمي في ميدلاند. فبعد عام ونصف في كلية دروري، حيث كانت طالبة جامعية واختيرت أفضل طالبة تمثل أمريكا، نقلت جاكوي إلى جامعة ولاية أوكلاهوما. كانت فتاة طويلة شابة، ومثل أمها، كانت تعيش في بيت أخوة تراي- دلتا نفسه الذي عاشت فيه كاثي في أثناء وجودي في فيتنام. لقد حاولت أن أكون أباً جيداً، أقضي أكثر ما أستطيع من الوقت معها. ولكن كوني جندياً جيداً، لم يجعلني أكون أفضل أب، الأب الأكثر رعاية، والأكثر انغماساً، والأكثر حضوراً. وفي غضون ساعات قليلة ستبدأ جاكوي وكاثي بفتح الهدايا تحت الشجرة. كم تمنيت لو كنت أستطيع أن أكون معهما.

(*) هو مغن أمريكي انطلق في ١٩٦٣م في بلده لاس فيغاس ثم اشتهر بنمط خاص به.

في خارج الخيمة كان المولد الكهربائي يشقشقق بصوته المتفجر. والريح المحملة بالرمل تسربت داخل الخيمة تحت رفارفها. والتحقت مع مجموعة من الجنود على الطاولة التالية، وتحدثنا عن حظوظ فريق كرة القدم دالس كاوبويز في المباريات الأخيرة. وجاء نحوي عسكري شاب أسود فني درجة 4 اسمه جاكسون وجلس إلى جانبي، وهو ينصت باهتمام، ولكن من دون أن يتكلم. لقد رأيته في مركز القيادة، يسوق عربة من نوع همفي، وواقفاً في حراسة نطاق محيط المركز. كان جندياً يقظ المظهر، ولكنه على ما يبدو لا يبتسم قطعياً، ولا يبدو أن له أي أصدقاء مقربين. وكنت قد دققت في خلفية جاكسون، وشرح لي قائد سريره أنه كان من أسرة كبيرة فقيرة من صغار الفلاحين من مكان ما في كارولينا الشمالية والجنوبية، وقد تطوع في السابعة عشرة، وفي كل أوقاته التي أمضاها في الفرقة، لم يكن على ما يبدو يتلقى أي بريد مطلقاً. وكان جاكسون يقوم بعمله على نحو جيد، ولكنه من وجهة نظري ونظر قائده بشكل مشابه بدا لنا جاداً جداً، وكان تقريباً جاداً أكثر مما يجب بالنسبة إلى عمره. والآن، ونحن نجلس معاً في مساء عيد الميلاد نتحدث عن كرة القدم، كان جاكسون يحدق في صورنا العائلية باهتمام، ولكنه لم يظهر لنا أي صورة تخصه.

في نهاية الأمر، انتقلت أنا إلى طاولة أخرى، وكان عليها رائد من نيران المساندة يغني بصوت عال قوي "رأيت أمي تقبل بابا نويل." وكان جاكسون خلفي تماماً، ومرة أخرى جلس على الكرسي الذي يليني. وفي الواقع ابتسم ابتسامة مكشورة عندما قص الرقيب الأقدم قصة تفصيلية عن أحد المطوعين، وهم الشرطة الدينية السعودية، والذي كاد يُدهس تقريباً في طريق خط النفط التابلاين وهو يحاول أن يوقف امرأة جنديّة أمريكية وهي تسوق شاحنة حمولة خمسة أطنان. فالنساء لا يسمح لهن بقيادة السيارة في المملكة العربية السعودية، أو حتى الظهور في المجتمع من دون رجل قريب لها. وخارج بيوتهن، يجب على النساء أن يغطين أنفسهن من الرأس إلى الكاحل برداء أسود كالدثار اسمه العباءة. ولذلك فإن وجود

آلاف النساء الجنديات الأمريكيات في البزة العسكرية الصحراوية، وكان الكثيرات منهن يسقن شاحنات ضخمة، ولا يرافقهن، كما هو واضح، رجل من أفراد عائلاتهن، كان وجوداً شكل مصدراً ثابتاً للانزعاج للشرطة الدينية المحلية.

والقصة حصلت فعلاً على ضحكة من جاكسون. وقال: "هذا عظيم، يا رقيب".
وغيرت الطاولات، وجاكسون يتحرك معي.

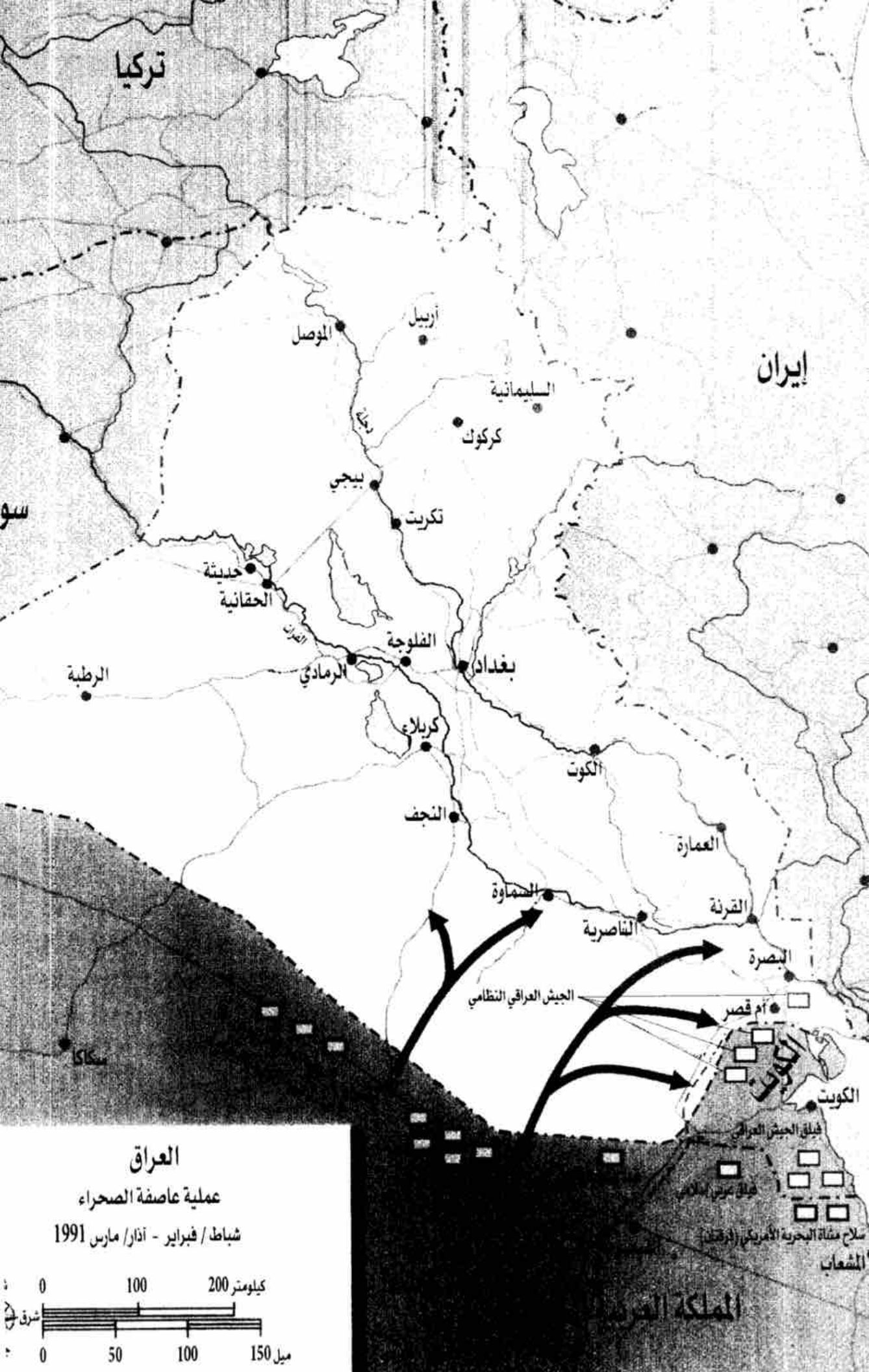
وفي نهاية الحفلة، اشتركنا في غناء: "الليل الصامت". وقد غنى الاختصاصي جاكسون كل بيت من الشعر بصوت قوي، وواضح وجميل.
وعندما انتهى الغناء، وضع جاكسون ذراعيه حولي وقال: "شكراً جزيلاً لك، يا سيدي. هذا أفضل عيد ميلاد في حياتي".

كنت في خارج الخيمة في ظلام ليل الصحراء قبل أن يستطيع الجنود أن يروا الدموع في عيني. لقد كنا نشعر بالأسى على أنفسنا، ونفتقد أسرنا ونشتاق إليهم بشكل شديد، على الرغم من شجرة الميلاد، والكعك أو ربما بسبب ذلك. وهناك كان جاكسون، يستمتع بأول عيد ميلاد لأسرة حقيقية ناله ربما حتى الآن. لقد نسيت الحقيقة البسيطة التي كنت قد تعلمتها في فيتنام: وهي أن للجنود أسرتين، الأولى هي التي ولدوا فيها، والثانية هي التي تضم كل الرجال والنساء الذين يخدمون معهم.

في غضون شهر، ربما سيكون بعض هؤلاء الشباب في عداد الموتى.

استحضرت في ذهني ذلك الجندي الشاب الذي كان اسمه غارسيا، وهو الذي سقط من خلال الصدوع في سرية الخيالة الأولى لبطارية الهاوتزر، وفكرت: هذا الشاب محظوظ لأنه يجد الجيش له، والجيش محظوظ لأنه يضمه.

بدأت الحملة الجوية ضد العراق في الساعة 0400 في 17 كانون الثاني/ يناير 1991. وتحولت عملية درع الصحراء إلى عملية عاصفة الصحراء. وعلى مدار الساعة طوال أسابيع، قصفت الطائرات الأمريكية والبريطانية والفرنسية، والإيطالية والعربية الجيش العراقي، وأهداف القيادة والسيطرة في بغداد وقربها.



تركيا

إيران

السعودية

الموصل

اربيل

السليمانية

كركوك

بيجي

تكريت

حديثة

الحقانية

الربطية

الرمادي

الفلوجة

بغداد

كربلاء

الكويت

النجف

العمارة

السماوة

الناصرية

القرنة

البصرة

الجيش العراقي النظامي

أم قصر

الكويت

الجيش العراقي

قصر

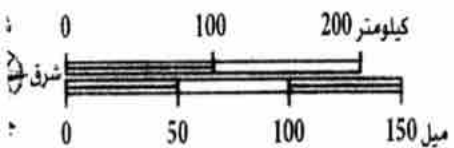
سلاح مشاة البحرية الأمريكي (الرفق)

المشعاب

العراق

عملية عاصفة الصحراء

شباط / فبراير - آذار / مارس 1991



عندما بدأ القصف، جاءت الفرقة تحت السيطرة العملياتية للجنرال فريدريك فرانكس (لا توجد علاقة) وفيلقه السابع. وفي مؤتمر عقد تحت قباب القرميد الزمردى لمدينة الملك خالد العسكرية، قدم الجنرال شوارتسكوف إيجازاً لأعلى قادة في التحالف عن الخطة النهائية لعاصفة الصحراء. وبدلاً من الاندفاع المفاجئ مباشرة إلى الدفاعات العراقية الصلبة على حدود الكويت، سوف تدير الفرق الثقيلة من الفيلق السابع مناورة "خطاف أيسر" جسورة نحو الغرب والشمال. بعدئذ ستقوم تلك الفرق بالدوران إلى اليمين وتضرب الجناح المكشوف من العدو. وأبعد من ذلك إلى الغرب ستقوم الوحدات الأخف والأسرع من الفيلق 18 المحمول جواً بالتقدم بوثبات نحو الشمال لتستولي على الطريق العام رقم 8 على نهر الفرات، وتغلق بذلك خط الانسحاب العراقي نحو بغداد. وستقوم قوة مهام برمائية بعملية إبرار مضللة في الكويت وهو ما سيجمد الفرق الشرقية على طول الساحل، وتقوم فرقتان من مشاة البحرية على الأرض تقريباً بالاندفاع عبر حقول ألغام العدو واستحكاماته وتندفع نحو مدينة الكويت.

المفاجأة والسرعة كانتا العنصرين المفتاحين للخطة.

ومثلهما كان الخداع. وكان الخداع مسؤولية فرقة الخيالة الأولى. وعندما قام قائد قوات الجيش، الفريق جون يوسوك، وقائد الفيلق السابع فريدريك فرانكس بتقديم إيجاز لكبار ضباط الفرقة، قيل لنا إن واجبنا كان هو إقناع العدو أن الهجوم الرئيسي للحلفاء سوف يأتي من طريق الغزو التاريخي للعراق، وهو وادي الباطن. وكان هذا الوادي واسعاً، وهو مجرى نهر جاف امتد شمالاً من الهضبة السعودية إلى دلتا نهري دجلة والفرات، وهو يشكل الحد الغربي للكويت. وكان الإبقاء على انتباه العدو مركزاً على الوادي يصرف انتباهه عن الاندفاع الرئيسي للتحالف نحو الغرب.

كانت مهمتنا هي الاشتباك مع الفرق الستة من الجيش النظامي العراقي التي تدافع عن الوادي في الجنوب وتثبيت فرقتي توكلنا والمدينة من الحرس الجمهوري

في أبعد مواقع لهما في الشمال. وسيكون على الخداع الناجح أن يستغل العقيدة العراقية العسكرية التي تطورت في أثناء الحرب مع إيران، وبموجب هذه العقيدة قام قادة صدام بنشر فرق مشاة يضحون بها على خطوط الجبهة، لتكون لقمة سائقة للمدافع لإبطاء هجمات العدو، وهي مكونة من المسحوبين بالقرع العسكرية ومن الاحتياطيين، بينما يستبقون الحرس الجمهوري الأكثر انضباطاً، والأفضل تجهيزاً على مسافة أبعد إلى الخلف لتكون قوات هجوم معاكس. هذه هي بالضبط الكيفية التي كانت قوات العدو "مكدسة" بها عندما بدأت الحملة الجوية. وكان واجبنا أن نبقيها على ما هي عليه.

الجنرالان يوسوك وفرانكس أعطيانا مهمتنا. ونحن ابتدعنا التعبئة.

كنت قد درست الحرب الإيرانية العراقية، ولاحظت أن المدفعية المتكتلة طويلة المدى كانت ملمحاً مشتركاً على الجانبين كليهما من خطوط المعركة. وكان القادة العراقيون يتوقعون أن يكون الاقتحام الرئيسي من التحالف مسبقاً بقصف مدفعي كثيف. وفي الحقيقة، فإن استخبارات القيادة المركزية رفعت تقارير تفيد أن نيران المدفعية الأمريكية سوف تكون أهم مؤشر للعراقيين عن الموقع والتوقيت الذي سيأتي منه اقتحام التحالف.

ونظراً إلى أن جدران الجرف الشديد الانحدار لوادي الباطن تقدم حماية طبيعية للجناح، فإن خيار سلوك الوادي طريقاً للغزو شمالاً سوف يبدو خياراً مقنعاً. ولكن العراقيين لم يكونوا أغبياء ولا أغراراً بلا خبرة، وفي الحقيقة، فإنهم كانوا يملكون من القادة الذين قادوا جنداً في المعركة أكثر ممن عندنا. وسيكون واجب فرقة الخيالة هو أن تقنع هؤلاء القادة الأعداء الذين قوتهم المارك بأن يبقوا وحداتهم في مكانها، متخذة ضد حملة جوية من التحالف لا ترحم في الوقت الذي ينتظرون فيه الهجوم الرئيسي للتحالف من الوادي، وهو الهجوم الذي لن يأتي أبداً.

في أواخر كانون الثاني/يناير تحركت الفرقة شمال طريق خط النفط

التابلاين واتخذت لها مواقع غربي الوادي، حيث تتلاقى الحدود بين المملكة العربية السعودية والعراق والكويت. وافترض تصورنا أن الاستطلاع الجوي العراقي، الذي كان نشيطاً على طول الحدود لعدة شهور، قد أصيب بالعمى عندما قامت مقاتلات التحالف بتدمير العشرات من طائرات العدو وأجبرت البقية على أن تهرول إلى ملاذ مشكوك فيه في إيران. ولكننا عزمنا على أن ندع العراقيين يعرفون أن هناك تشكيلاً أمريكياً كبيراً وقوياً تحت حافة الحدود تماماً.

وقد أخبرت العقيد جيم غاس، وهو قائد مدفعية فرقنا، في صباح 7 شباط/فبراير: "أنا نريد أن نبقىهم يخمنون." ووقف هو ومروؤوسوه من قادة كتيبة المدفعية إلى جانبي أمام خريطة تعبوية واسعة في مركز قيادة الفرقة. وفتحت الصفحة على شمال الحدود تماماً. "سيكون هدفنا الأول هو أبراج الرصد هذه. من الأساسي لنا أن نغمي حراس الحدود وجند الاستطلاع في ما يخص قوتنا الحقيقية وتوزيعنا."

ووافق الضباط. كان هناك خط من أبراج الرصد العراقية بارتفاع أربعين قدماً وعلى مسافة كيلومترين شمال حافة الحدود، وهي تمشي في الاتجاهين معاً حتى الأفق مثل مواقع سياج إسمنتي ضخمة. ومع هذه الأرض المستوية مثل سطح بحيرة، سمحت الأبراج للعراقيين أن يروا حتى داخل مناطق مؤخرتنا، حتى من دون ميزة طيران الاستطلاع. واكتشفنا أيضاً أن العراقيين يستخدمون الأبراج لتوجيه المهندسين العسكريين، خبراء هندسة التدمير، إلى قطاعنا لزراعة الألغام. وكنت قد وصلت إلى حافة الحدود مع فريق استخبارات في أصيل اليوم السابق، وراقبت القوات العراقية من خلال المنظار. وفي كل يوم غير العراقيون نوبات العمل في الأبراج كل ثماني ساعات، ابتداءً من الفجر.

واليوم، كان لدينا مفاجأة لهم. وقد لخصت الخطة بينما كان ضباط المدفعية يدونون ملاحظات دقيقة.

ذلك الأصيل، وبالضبط عندما كانت زمر الرصد العراقية مستعدة لتبديل

نوبات الواجب في عدة أبراج، درجت عربية بلون الرمل البني هي عربية فريق رمي المساندة إلى حافة الحدود. ومثلما شاهدت من سيارتي من نوع همفي، قامت عربية فريق رمي المساندة، وهي تنويع حديثة للمجنزرات القديمة ام-113، برفع الدليل الليزري ذي الشكل T القصير الخاص بها وأضاءت أقرب برج بحزمة ليزر غير مرئية. وفي الساعة 1358 بدقة، حقق فريق مساندة الرمي إحداثياتهم الصحيحة مستخدمين النظام العالمي لتحديد المواقع بجهاز استقبال الأقمار الصناعية (جي بي اس)، وبثوا بيانات الهدف المحوسبة إلى هاوترز ام 109 ذاتي الدفع عيار 155 ملم على بعد عشرة كيلومترات إلى الجنوب. وأطلق المدفع مقذوف كوبرهيد (الرأس النحاسي) وهو مقذوف عالي التفجر ركب على حزمة أشعة الليزر بدقة إلى الهدف. وانفجر البرج مثل ألعاب نارية، واختفى في غمامة من الدخان ومن الإسمنت المسلح المسحوق. ومع ذلك الوقت، كانت عربية فريق مساندة الرمي قد ليزرت البرج التالي وفي غضون ثلاث دقائق ضرب مقذوف كوبرهيد آخر. وعندما حاول الناجون من البرج الأول أن يركضوا إلى شاحناتهم، انفجرت المنطقة بمئات من قنبيلات الذخائر التقليدية المحسنة المضاعفة الغرض التي انطلقت من هاوترزات أخرى.

وكان هذا الهجوم هو أول مرة يطلق فيها رجال المدفعية الأمريكيون مقذوفات كوبرهيد وأحجاماً ضخمة من الذخائر التقليدية المحسنة في القتال، وكانت النتائج مؤثرة. وتم تدمير ثلاثة أبراج والعاملين فيها في تسع دقائق. وصار العدو يواجه لنا الآن أعمى، وسوف نبدأ المرحلة الرئيسية من مهمتنا في الخداع.

طوال الأسبوع التالي، قامت هاوترزات مدفعية الفرقة بالتقدم خلصة إلى الحافة نهراً وليلاً واشتبكت مع مواقع العدو واستحكamate المضاءة بالليزر في عربات زمر مساندة الرمي والطائرات العمودية من نوع او اتش-58 كيووا. ومن شواطئ الخليج الفارسي في الشرق إلى الحدود مع الأردن في الغرب، كانت هذه المدافع هي الوحيدة في التحالف التي تطلق النار. وسيكون لدى العدو كل الأسباب ليفترض أن وادي الباطن سيكون محورنا الرئيسي للهجوم.

ومع ذلك، ولنكون متأكدين فقط، رفعنا ثمن الخداع. في ليلة 13 شباط/فبراير وهي ليلة لا قمر فيها، وقفت أنا مع فريدي فرانكس وجون تيليلي على الرمل البارد قرب وادي الباطن. وفجأة انفجرت الصحراء من حولنا مثل الفرن العالي. وطوال تسعين ثانية أطلق سبعة وعشرون نظاماً لقذف الصواريخ المتعددة من الفرقة ومن مدفعية الفيلق السابع رشقة غزيرة الرمي عبر حافة الحدود، على المواقع العراقية التي تتركب جانبي الوادي. وعندما كانت الصواريخ تومض في الشمال، كانت ترسم على صفحة السماء مئات من الغيوم الدخانية من دولا ب ألعاب نارية شديدة جداً. وبعد ذلك لمع الأفق الشمالي، مثل برق الحرارة على الأراضي المنبسطة في تكساس الغربية. بعد لحظات تالية، قرقت عصفات متموجة من الآلاف من قنابل الذخائر التقليدية المحسنة في الظلام. وتم إشباع الخنادق وحفر المدفعية المحاطة بأكياس الرمل بالنيران في الحال.

ولكن كان هناك المزيد من العمل المطلوب تأديته.

قرب منتصف الليل في 16 شباط/فبراير وقفت إلى جانب مجنزرة قيادة مدفعية الفرقة للعقيد جيم غاس على الشفة الغربية للوادي. وتلاشى الظلام عندما أطلقت النيران خمس كتائب من هاوتزرات عيار 155 ملم، ومجموعها تسعون مدفعاً في الجملة، وسبعة وعشرون قاذفاً من أنظمة قذف الصواريخ المتعددة أطلقت جميعها سداً لمدة ثلاث دقائق هز الأرض تحت أقدامنا. ومرة أخرى، أومض الأفق الشمالي ونبض بالتفجيرات المتراكبة. وبذلك تم سحق قطاع عرضه كيلومتران محمي بكثافة بمواقع مدفعية عراقية مضادة للطيران عيار 23 ملم من نوع زد اس يو، وكان ذلك باستخدام مقذوفات شديدة الانفجار وذخيرة تقليدية محسنة.

وبين الرشقات، سمعنا الضرب المميز لجهاز دوران مروحة الطائرات العمودية المسلحة أباتشي إيه اتش-64. وصاح جيم غاس فوق هدير المدفعية: "حان الوقت للفصل الثاني." ومرت أربع وعشرون طائرة عمودية مسلحة من لواء الطيران الحادي عشر مروراً سريعاً، ولها هيئات مظلمة طويلة أضائها من تحت ومضات

فوهات سبطانات الهاوتزر. وعندما عبرت حافة الحدود، انتشرت طائرات الأباتشي ليسار ولليمين في تشكيل واسع للهجوم. وكان آخر مقذوف مدفعية قد اصطدم بهدفه عندما وصلت الطائرات العمودية إلى أهدافها، وهي سلسلة من أبراج البث اللاسلكي واستحكامات الاتصالات التي كانت تربط الفرق العراقية في الخط الأمامي مع مقار قيادات فيالقها عميقاً داخل العراق. واستخدمت الأباتشي مناظير الأشعة تحت الحمراء للرؤية الليلية، وأطلقت صواريخ هلفاير (نار جهنم) الموجهة بالليزر على أبراج العدو ومبانيه، واشتبكت مع الجند العراقيين بمدافعها من نوع مدافع السلسلة عيار 30 ملم السريعة الرمي.

وعندما حوّمت الطائرات العمودية المسلحة، كشفت طائرة تجسس إلكتروني تدور بالقرب من الموقع راداراً معادياً مضاداً للطيران يسبر باحثاً عن الطائرات المسلحة. وقامت طائرة التجسس ببث بيانات الهدف إلى مجنزرة غاس. وبعد ثلاث دقائق انفجر فوق موقع الرادار اثنا عشر صاروخاً من أنظمة قذف الصواريخ المتعددة، ممزقة المعدات والمشغلين إرباً إرباً بما صار العراقيون يسمونه "المطر الفولاذي".

ومع وصول المفاوضات إلى قمة درجة الحمى، عندما حاول العراقيون بشكل يائس أن يتجنبوا الاقتحام الأرضي الوشيك من قوات التحالف، استمرت غزوات مدفعيتنا.

وكان الجنرال شوارتسكوف قد أعطى إنذار التأهب لقوات التحالف لتكون مستعدة لشن الهجوم الأرضي مع حلول 23 شباط/ فبراير إذا سكن مطر الشتاء العاصف وهبوب الغبار. وتابعنا الرمي عبر حافة الحدود. وفي كل ليلة، قامت وحدات العمليات النفسية بقيادة شاحنات مزودة بمكبرات صوت عملاقة تسير ببطء جيئةً وذهاباً على طول الحدود، وتشغل تسجيلات أصوات قعقعة الدبابات والعربات من نوع برادلي. وهذه الخدعة أكملت جهداً آخر من جهودنا في العمليات النفسية، وهي إذاعة بث لاسلكي كاذب يقلد أصوات عدة فرق ثقيلة تتحرك إلى الأمام إلى مناطق تجمعها التعبوية النهائية قبل الهجوم.

وتبعت كل هذا في 20 شباط/فبراير أكثر مناوراتنا طموحاً للخداع: وهي عملية نايت سترايك (ضربة الفارس). وفي أي طريقة عالجتنا بها هذه العملية، سيكون من المستحيل أن ننفذ خداعاً مقنعاً لا يتضمن تماساً أرضياً مع العدو. ولذلك، ففي عملية ضربة الفارس، سيقوم العقيد راندي هاوس، قائد اللواء الثاني بلاك جاك "الراية السوداء" من الفرقة، بالتقدم الكاسح المباشر في الوادي في تشكيل إسفيني في لواء دبابات ثقيل. والغرض من ذلك هو إقناع العراقيين بأن هذا الاندفاع كان هو رأس الحربة للاقتحام الرئيسي.

وانطلقت عملية الهجوم عند الظهيرة، والعربات من نوع برادلي من سرية الخيالة الأولى، من الخيالة الخامسة، تستكشف أمام دبابات أبرامز ام 1 إيه 1 المدممة. كان هاوس سيشتبك مع وحدات المشاة الآلية والدروع العراقية التي كنا نعرف أنها متخندقة على بعد عشرة كيلومترات في الوادي وذلك وفق مناورة تعرضية تقليدية أمريكية هي "التحرك إلى التماس". وسنقبل المخاطرة بمواجهة قوة معادية أكبر منا بكثير من أجل إنجاز مهمتنا، ولكن راندي هاوس لن يسمح للواء بأن يكون في "اشتباك حاسم". كانت العملية سبراً، ولم تكن التزاماً بالمواجهة في قتال قريب والضرب بقوة.

وفي رأيي، كان التمييز الحاسم هنا تمييزاً سوف يواجهني مراراً وتكراراً في مساري الوظيفي العسكري: هناك دائماً فرق بين المجازفة العملياتية المحسوبة، وهي التي تكون المخاطر والخسائر الممكنة فيها قد قُدرت بعناية وحُكِمَ فيها مقدماً، وبين المقامرة، وهي التي يُرمى فيها بالحدز في مهب الريح. إن الوحدة العسكرية القادرة على التكيف تستطيع أن تستنقذ نفسها من المجازفة، بينما قد تنتهي بها المقامرة إلى خسارة شاملة. وكنت أعرف أن اللواء الثاني يمتلك قوة نيران كافية ليهزم أي وحدة عراقية في الخط الأمامي ستواجهها في الوادي، وذلك لأنني قد درست صور الاستطلاع وتقارير الاستخبارات عن مواقع العدو. وكنت أيضاً قد قوّمت تقديراتنا لضرر المعركة من الأسابيع الأربعة من الحملة الجوية. إن الوقت الذي أمضيته في

فيتنام علمني قيمة حياة الجنود، سوف نقدم على المجازفة في خداع الوادي، ولكننا لن نقامر بحياة جندنا.

مشيت في مركز القيادة التعبوية أذرعه جيئةً وذهاباً، وأنصت إلى التبادلات المتوقعة في شبكة لاسلكي اللواء عندما تحركت دروع راندي هاوس شمالاً. وفي الكيلومترات القليلة الأولى لم يواجهوا أي تماس مع العدو، ولا ألغاماً أرضية. وبعدئذ، انفجر مكبر صوت اللاسلكي بسلسلة من التقارير السريعة. كان المقدم مايكل باركر، قائد قوة الخيالة الساترة، في تماس مع كتيبة مشاة آلية عراقية في عربات قتال مشاة ذات تصميم سوفيتي قريبة من الأرض من نوع بي ام بي، مدعومة بدبابات تي-62. وعندما تطور القتال، وقعت المدفعية العراقية بين العربات الأمريكية المناورة. وردت دروع هاوس بسرعة. وأسرعت أبرامز إلى الشمال وانتشرت على عرض أرض الوادي، في مناورة كان اللواء قد مارسها ليلاً ونهاراً في مركز التدريب الوطني في صحاري فورت إروين، في كاليفورنيا.

ما كان إسفيناً رقيقاً من عربات برادلي المدرعة تدريباً خفيفاً تحول بسرعة إلى جدار من دبابات ام 1 إيه 1 يطلق طلقات مضادة للدروع شديدة الانفجار على تشكيلات العدو. وكان القتال سريعاً، ومن جانب واحد. وعند تراجع العراقيين، تركوا خلفهم الهياكل المدخنة من عربات القتال من نوع بي ام بي ودبابات تي-62، التي كانت أبراج العديد منها قد نسفت عنها نسفاً كاملاً.

وقدم هاوس تقريراً، مسمى الهدف التالي على خط سيره: "نتقدم إلى مرحلة خط ماريلاند".

وأجبت: "تسلمت، عمل جيد".

وأشعلت سيجاري الثالث لليوم، وقاتلت الرغبة في أن أصعد إلى طائرتي من نوع بلاك هوك، وأطير شمالاً لمراقبة المعركة مباشرة على أرضها. ولكن هذا كان عرض راندي هاوس، وكان يقوم بعمل جيد للغاية.

كانت الدبابات إلى الخلف تتحرك على جانبي إسفين اللواء، مع وجود خيالة باركر الساترة مرة أخرى في الاستكشاف في المقدمة. لقد أدمى جند هاوس العدو، واجتازوا خبرتهم الأولى في القتال الأرضي المباشر.

ولكن عندئذ، كما يحدث دائماً في الحرب، تغير الموقف فجأة.

وسط غمغمة من الأصوات المنفصلة المثيرة للاضطراب على اللاسلكي، التقطت تقريراً مشوهاً عن مدافع للعدو من عيار 100 ملم مضادة للدروع في استحكامات على المنحدر الغربي من الوادي. وازدادت شبكة اللواء ارتفاعاً وانفعالاً.

كان راندي يعطي تقريراً عن أن فريق مساندة رمي المدفعية قد حدد المدافع العراقية المخفية، ولكنه لم يملك الوقت ليطلب مهمة رمي قبل أن يفتح العراقيون النار على ثلاث مجنزرات مدرعة خفيفة كانت قد توقفت لتجمع العديد من الجند العراقيين المستسلمين. وتمكنت قنابل العدو من اختراق ام 113 وعريتين من نوع برادلي. وعندما كانت دبابة من نوع أبرامز تتاور لتساعد، ضربت لغماً مضاداً للدبابات. لقد نفذ العراقيون كميناً حسن التخطيط.

قال راندي: "يا جنرال. لدينا ثلاثة قتلى وتسعة جرحى في المعركة، بعضهم حالتهم حرجة. إنني أراجع على مرحلة خط ماساتشوسيتس".

وحدقت في الخريطة. لقد قتل ثلاثة جنود أمريكيون، وجرح تسعة. وسعى راندي إلى قطع التماس، بدلاً من تعريض المزيد من عربات برادلي الرقيقة للتدريع والمجنزرات ام-113 للمدافع المخفية المضادة للدروع. لقد كان ذلك هو بالضبط ما كنت أود لو أفعله، ولكنه ليس المسار الصحيح للعمل العسكري إذا كنا نريد أن نقنع العراقيين بأن هذا الهجوم كان هو الهجوم الرئيسي.

أخذت المايكروفون من مشغل جهاز الراديو اللاسلكي: "الراية السوداء ستة، أنا أريدك أن تبقى مشتبكاً، دمر تلك المواقع المعادية، واسترجع الآليات المعطوبة".

وكانت هناك وقفة قصيرة: "بيغاسوس ثمانية، هذه الراية السوداء ستة. فهم".

وفي الوقت الذي كان فيه راندي منفِعلاً في الوادي، أُنذرت ملاحِي طائرتي بلاك هوك بأننا سنطير شمالاً. وفي أثناء الطيران، راقبت شبكات اللاسلكي وسمعت فريق رمي المساندة لدى هاوس يطلب مهام رمايات وضربات جوية. وعندما كان مهندسو اللواء يستعيدون العربات المعطوبة، كان يجري نسف المدافع العراقية المضادة للدبابات، وسدنتها واستحكاماتها، إلى نُتفٍ بقذائف مدفعية من عيار 155 ملم، وقنابل زنة 500 رطل، ومئات من الطلقات من مدافع غاتلنغ عيار 30 ملم من الطائرات الدوارة من القوات الجوية من نوع ورت هوغ ايه-10 (الخنزير الوحشي الإفريقي).

حييت هاوس في نقطة التجمع الخاصة باللواء على حافة الحدود. وكانت الطبابة تنقل الجرحى إلى مجنزرات الإسعاف. وكان ثلاثة جنود قتلَى مسجّين على الحمالات ومغطّين بمعاطف الوقاية من المطر إلى جانب مجنزرة أخرى. كان راندي رجلاً شجاعاً، ومسيطرأً. لقد كان قائداً جيداً وكنت فخوراً به.

وعدت في تفكيري إلى الكلمات المطمئنة من إيرك أنتيلا وسلوكه الهادئ في ذلك اليوم المزعج في شهر آذار/مارس 1968 عندما فجر الفيتكونغ مجنزرة ديك بهر قرب كي لي. ووضعت ذراعي حول كتف راندي، وقلت له: "لقد عملت بشكل جيد. وعمل جنودك مثل عملك. لقد أنجزت الواجب."

وكان المهندسون يسحبون الدروع المعطوبة. وقلت بشكل رسمي: "كل شيء حدث في الوادي اليوم كان من مسؤولياتي، أيها العقيد. كانت مهمتك أن تتحرك للتماس، ونفذت تلك المهمة بحذافيرها." وإذا كان سيجري أي رد فعل سلبي من الجهات العليا، فأنا أريدها أن تكون على رأسي، وليس على رأس راندي. عندما كنت ملازماً شاباً في فيتنام، كنت قد تعلمت أن الولاء ينساب إلى الأعلى وإلى الأسفل. وبصفتي جنرالاً فإنني سأحترم ذلك المبدأ.

وتفقدت أضرار المعركة في العربات المدمرة، وذلك لأتأكد من أنها لم تضرب من النيران الصديقة في بلبلة القتال. فمع وجود كل قوة النيران العالية التقانة

المنشورة في منطقة الحرب هذه، فإن ما يسمى "قتل الأخ" كان من قبل قد برهن على أنه خطر حقيقي. قبل أسبوعين، حدث أن أحد صواريخ القوات الجوية من النوع العالي السرعة المضاد للإشعاع، وكان قد استهدف الدفاعات الجوية العراقية، قد استقر خطأ على واحد من راداراتنا للرصد والمراقبة الأرضية قرب حافة الحدود، ومزق سطح عربة السيطرة وجرح جنديين. وأما في الوادي، فإن الأضرار التي تكبدتها عربات اللواء الثاني جاءت من نيران العدو.

وعندما رجعت إلى طائرتي العمودية، توقفت إلى جانب نقالات الجنود الموتى، وخلعت خوذتي، وحنيت رأسي، وتمتمت: "استريحوا في سلام." لن يكون هؤلاء الجنود آخر جنود سنفقدهم في هذه الحرب... وكنت أعلم ذلك.

في ذلك الفجر، كنت قد طبعت على بطاقتي اليومية من قياس ثلاثة في خمسة تحت عنوان تحديات: "خسائر في الوادي." وتحت عنوان الفرص. كنت قد كتبت: "خداع ناجح. يبقى العدو مثبتاً في المكان."

بدأ الهجوم الأرضي الكبير للتحالف قبل الفجر في اليوم المحدد لبدء المرحلة الأرضية من الحملة وهو 24 شباط/فبراير، في 1991. واتباعاً لل خطة، فإن الفرق الثقيلة من الفيلق السابع درجت عبر الصحراء المنبسطة إلى داخل العراق، متحركة شمالاً بسرعة عالية، وإلى الغرب بمسافة جيدة من تشكيلات الجيش العراقي المكدسة في مواقع دفاعية ثابتة في وادي الباطن. ولضمان أن يبقى العدو حيث كان، أرجعت الفرقة لواء بلاك جاك الذي يقوده راندي هاوس إلى الوادي، تسبقه سدود متراكمة من رمي المدفعية عيار 155 ملم وأنظمة قذف الصواريخ المتعددة. وقاتل اللواء قتالاً ضارياً، مع قوات مهام من الدروع تتسابق نحو الوادي من كلا جانبيه، ودمر دروع العدو المتخذقة على اليسار وعلى اليمين قبل أن ينسحب إلى جنوب حافة الحدود ليلتحق مع بقية الفرقة.

تلك الليلة، وعندما اسودت السماء الشرقية بسبب مئات من آبار الزيت الكويتية المحترقة التي أشعلها العراقيون، كنا في موقع تعبوي جنوب حافة الحدود،

تركنا فيها الجنرال شوارتسكوف بصفتنا احتياطيه لمسرح العمليات. ولكن عندما صار واضحاً في أصيل اليوم التالي أن الفيلق السابع قد توغل في حركته عميقاً بما فيه الكفاية في داخل العراق ليبدأ انعطافه في الدوران إلى الشرق ليضرب جانبي العدو المكشوفين، أصدر شوارتسكوف أوامر جديدة: "أرسلوا إلى الداخل الفريق الأول، فرقة الخيالة الأولى. دمرُوا الحرس الجمهوري. دعونا نعد للوطن."

وتوجهنا غرباً وشمالاً عبر الخرق الذي قطعتَه فرقة المشاة الأولى في الخطوط العراقية في يوم بدء المرحلة الأرضية من الحملة. اندفعنا في الهجوم قدماً في أسافين بمستوى لواء بأقصى سرعة ممكنة، وكنا نشق مسارنا عبر حطام بقايا غير منظمة لأربع فرق عراقية، وندمر بقاياها ونترك خلفنا آلافاً من أسرى الحرب المرتبكين للشرطة العسكرية، الذين تبعونا في الذيل الطويل من الإسناد.

وهبت ريح هوجاء شمالية بعاصفة رملية من الغرب. واستحالت السماء إلى اللون البني، ثم إلى اللون الغامق الصَّدِّي البرتقالي. وأعولت الريح، وبدأت السماء تمطر.

وشرح واحد من سائقي مركز القيادة وهو يمسح الزجاج الوافي الأمامي المتسخ لسيارته من نوع همفي: "في الحقيقة، يا سيدي، إنها لا تمطر بقدر ما يمكن أن نقول إنها توحد."

وانخفضت الرؤية إلى أقل من مائة متر، وزال أدنى سقف لطياراتنا، وهبطت طائراتنا العمودية على الأرض، ولكن الفرقة استمرت مندفة.

كان صوت وقع ضربات المدفعية الثقيلة يعلو فوق إغوال الريح الهوجاء إلى الشرق. وكانت دروع الفيلق السابع تتدفع ساحقةً جانبي فرقتي توكلنا والمدنية من الحرس الجمهوري، الذي كان ما يزال متوجهاً في أعماله نحو الجنوب وينتظر الهجوم الرئيسي من وادي الباطن، وهو الهجوم الذي لم يأت أبداً. واندفعنا نتسابق شمالاً. وكان سدنة دبابة ام 1 إيه 1 وبرادلي المدربون تدريباً جيداً يستخدمون المناظير الحرارية ليخترقوا العاصفة الرملية، ويسددون على الدروع

العراقية بنيران المدافع وصواريخ تو. في أضخم معركة للدبابات منذ الحرب العالمية الثانية، كان التحالف فيها يكتسح العدو اكتساحاً تاماً.

في وقت متأخر من أصيل 27 شباط/فبراير، انخفضت الريح وصحت السماء. وكانت الثمانمائة من الدبابات، وعربات برادلي، وعربات المساندة التابعة للخيالة الأولى قد قطعت 192 ميلاً من الصحراء في ثلاث وثلاثين ساعة، وكانت قد أخذت تشكيلها على الجانب الأيمن لفوج الخيالة المدرع الثالث، الذي أُعطي موقعاً بالقرب من النقطة الشمالية من الفيلق السابع.

كانت أمامنا فرقنا الحرس الجمهوري حمورابي وعدنان تزحفان بعيداً من الوادي، مؤملتين أن تهربا صعوداً في وادي نهر الفرات على الطريق العام رقم 08 ولكن الطريق كان مغلقاً بلواء من فرقة المشاة السابعة والعشرين، وهو أقصى لواء إلى الشمال. ومع وصول الخيالة الأولى، فإننا كنا الآن نملك ما يكفي من قوة نيران الدروع والمدفعية لنسحق به أفضل وحدات القتال لدى العدو.

في وقت متأخر من تلك الليلة، في مركز قيادة الجنرال تيليلي، تقابل كبار ضباط الفرقة لمناقشة عمليات اليوم التالي. وكانت لدينا أوامر أن نعيد التزود بالوقود، ونعاود التسليح، ونقوم بالإصلاح طوال الساعات الاثنتي عشرة القادمة، ثم نتقدم إلى الأمام للتماس.

وعندما كنا نتفحص الرموز المرسومة بقلم رصاص شمعي على خريطة جون تيليلي، حك واحد من الضباط الأركان حنكه وقال: "حسناً، وأخيراً، سيحصل صدام على معركته (أم كل المارك)" ولكن أحداً لم يضحك.

كنت قد استلقيت قبل قليل لأريح عيني، وكنت غارقاً في نوع ما من حلم موحش، عندما هزني الضابط المناوب ليوقظني.

وقال مع ابتسامة كبيرة مكشورة: "سيدي، رسالة برقية من الفيلق. وقف إطلاق النار في المسرح ابتداءً من الغد الساعة 0800".

انتهت الحرب. شهور من الإعداد. مائة ساعة من القتال.

كنت فخوراً بالفرقة، وبالجند، وبالقادة. وكنت شاكراً لجون تيليلي لأنه تركني أقوم بواجبي. لقد كان معلماً وصديقاً. وكانت الخيالة الأولى محظوظة ليكون هو لها قائداً في زمن الحرب، وكنت أنا محظوظاً ليكون هو لي قائداً.

عندما كنت أطيّر راجعاً إلى فورت هود على متن الطائرة النفثة المستأجرة في 1 آذار/مارس، استعرضت الدروس التي تعلمتها بصفتي جنرالاً شاباً. بعض الأفكار كانت تخص قضايا تعبوية هامة، وبعضها الآخر كان ببساطة يخص حقائق الحياة في الميدان.

إن الشهور التي قضيتها في الصحراء قد عززت من جديد قناعاتي التي كنت أراها لوقت طويل وهي أن الرقباء، في الحقيقة، هم الذين كانوا العمود الفقري للجيش. وأن العسكري المتوسط يعتمد على ضابط الصف من أجل القيادة بالقذوة الشخصية. لقد فكرت في سام لونغ وفي سكاغ. وفي الرقيب المعلم كيتل، فهم الذين كانوا الأمثلة لما يجب أن يكون عليه الرقيب. إذا كان ضابط الصف مكرساً لجنده فإن الزمرة أو الحاضرة سوف تتلقى تدريباً شاقاً واقعياً، وسوف تتناول الطعام الساخن عندما يكون متوافراً، وتغتتم الفرصة لأخذ حمام من حين إلى آخر. وإذا كان الرقيب غير مكترث لحاجات جنوده، فإن أداءهم سيخفق، وقد تهدر حياتهم. إن الضابط الحصيف يعمل بجهد كبير لتطوير ضباط الصف الجيدين.

والجنرالات ليسوا معصومين من الخطأ. وعندما يضع الجيش النجوم للجنرالات، لا يصرف لهم الحكمة معها. وقيادة الجنود من رتبة جنرال تعني أكثر من مجرد ابتداء التعبئة وإصدار الأوامر. والضباط القادة، قادة الألوية والكتائب، وقادة السرايا وقادة الفصائل، يعرفون كلهم عن نواحي القوة ونواحي الضعف في وحداتهم أكثر مما يعرف عنها الجنرال الذي يقودهم. ولذلك يجب على الجنرال الناجح أن ينصت أكثر مما يتكلم. ويجب عليه أن يعالج كميات مذهلة من المعلومات وأن يستعمل هذه المعلومات ليصنع قرارات صعبة. ويجب عليه أن "يتحمل اللوم

بينما يقر بالفضل للآخرين." ويجب على الجند أن يفهموا أن جنرالاتهم يهتمون بهم، وأنهم لن يقامروا بحياتهم، ولكنهم بدل ذلك سيوجهونهم بكل تفان، نحو النجاح في مهمتهم، ونحو النصر.

لقد سجلت عملية عاصفة الصحراء أول ظهور لذخائر التوجيه الدقيق، وهي التي تسمى "القنابل الماهرة" (*)، والتي أحدثت ثورة في الحرب الحديثة. ولكن ذخائر التوجيه الدقيق ذكية وليست في الواقع ماهرة: إن طلقة كوبرهيد سوف تصيب أي هدف يضيئه الليزر، ولكن يجب على العقول والأيدي البشرية أن تكون هناك لتصويب الليزر وتثبيته إلى الهدف وعليه.

قال نابليون: "إن الله يقاتل مع الجانب الذي يمتلك أفضل مدفعية." ومع ذلك، فعند الذهاب إلى عملية عاصفة الصحراء، كان الجيش العراقي يمتلك آلاف القطع من المدفعية السوفيتية الصنع. وكانوا يتفوقون علينا بعدد المدافع بمعدل ثلاثة إلى اثنين. والذي قضى عليهم هو استخدامهم لتلك المدافع استخداماً سيئاً. فعندما تم تدمير أبراج رصدتهم الأمامية وفقدوا شبكات اتصالاتهم لم يبتدعوا البدائل ويتكيفوا. وتحت الإزعاج المستمر من طيران التحالف، ولكونهم خائفين، وهو خوف له ما يبرره، من نيران المضادة للرادار، وهي التي كانت تتبع المقذوفات القادمة وتستهدف مدافع العدو من أجل تدميرها تدميراً فورياً، فقد اختار العراقيون أن يقعدوا في مواقعهم نفسها ويأملوا بالأفضل.

أما قواتنا فكانت قوة مقاتلة مرنة، وقادرة على التكيف على نحو عال. لقد حول العقيد جيم غاس مدفعية الخيالة الأولى إلى عنصر المناورة الثالث للفرقة، العنصر القادر على مجاراة الدبابات والمشاة الآلية في مسيرها. وعندما أثبتت مجنزراتنا في فريق نيران المساندة أنها أبطأ من حاجتنا فإن جند نيران المساندة ركبوا دليل الليزر على عربات برادلي العالية السرعة. وبقي التجديد علامة مميزة للجندي الأمريكي.

(*) Smart bombs شاعت تسميتها باسم (القنابل الذكية). ولكن السياق هنا يرجح ترجمة كلمة Smart بمعنى ماهر Skillful.

إن عاصفة الصحراء هي العملية التي اقتتعتُ فيها بقوة الخداع في الحرب، إن الخداع في الحقيقة مضاعف للقوة، ومن خلال حركات تضليل وحيل خديعة مخططة تخطيطنا حسناً ومنفذة تنفيذاً حاذقاً، استطاعت فرقة الخيالة الأولى أن تُثبت تشكيلات العدو في مكانها وهي تشكيلات كانت تفوقنا عدداً بشكل كبير، وأحياناً وصل إلى ستة لواحد. لقد استخدمنا كل أداة متاحة لنقنع العراقيين بأن الفرقة كانت هي رأس الحربة لاقتحام التحالف عبر وادي الباطن. وبينما كان العراقيون ينتظرون، ناور الفيلق السابع عبر العواصف الرملية في صحراء خالية إلى الغرب، وضرب قوات الحرس الجمهوري على جانبه مثل مرزبة.

إن أقدم مفكر إستراتيجي في العالم، وهو صن تزو، كان قد نصح المحاربين منذ 2.500 سنة بأن "يتقدموا عبر طرق غير متوقعة ويهاجموا نقاطاً غير محروسة". وذلك هو بالضبط ما أنجزته قوات التحالف في عاصفة الصحراء. وكانت النتيجة، بدون أدنى شك، أروع مثال للمناورة المنسقة المرنة منذ أن قام الجيش الثالث للجنرال جورج باتون بالاندفاع عبر أوروبا الغربية في الحرب العالمية الثانية.

واعتمد تحالف عاصفة الصحراء على السرعة كذلك. فطوال مائتي عام تقريباً كانت حكم الإستراتيجي البروسي كارل كلاوزفيتز قد أملت بأن الكتلة، وهي التشكيلات المركزة للجند وللمدافع، هي المفتاح إلى النصر. فلتحقيق النصر، نصح كلاوزفيتز بأن القوة العسكرية يجب أن تكتل قواتها عند "مركز الثقل" من العدو. ولكن النصر في عاصفة الصحراء برهن على أن السرعة تمتلك كتلة خاصة بها تماماً. إن كتيبة من دبابات ام 1 إيه 1 تتحرك بسرعة، في المكان الصحيح، وفي الزمان الصحيح، تمتلك كتلة تدميرية أكبر من فرقة دبابات تي -72 في الحرس الجمهوري في المكان الخطأ، تقبع في مواقع دفاعية. لقد حشد العراقيون في الميدان رجالاً أكثر، ودبابات أكثر وقطع مدفعية أكثر من التحالف. إن ما هزم العراقيين كان مزيجاً من التقنية المتفوقة، والتدريب الواقعي، والتعبئة المتحركة المرنة لقوات التحالف.

ولكن الحملة لم تكن بلا مشكلات. لقد كانت مصممة لتكون العملية التي نسقت جهود قوة متعددة الجنسيات، ومتعددة صنوف الأسلحة. كان لدى القيادة المركزية الأمريكية آلاف من الجند، ورجال الجو، والبحارة المقسومين إلى عناصر أرض، وجو، وأسطول، ولكل عنصر قائده الخاص بثلاث نجوم. ولم يكن الجنرال شوارتسكوف هو القائد العام وحسب، ولكنه كان أيضاً القائد، بالأمر الواقع، لعنصر القوات الأرضية المشتركة. وكانت النتيجة أن أركان شوارتسكوف أمضوا مدة كبيرة من الوقت والطاقة وهم يخططون وينفذون عمليات أرضية، بينما قام قائد العنصر الجوي الفريق تشارلز "تشك" هورنر من القوات الجوية، بالتخطيط والإدارة للعنصر الجوي. وهذا الوضع مال إلى فصل العملية إلى حملة جوية وحملة أرضية، وهي إستراتيجية "فك النزاع" (البدء بأسابيع من الضربات الجوية، وتجنب مناطق عمليات الوحدات الأرضية) بدلاً من الحرب المشتركة الحقيقية.

بعد أن قرأت التقارير الأولية بعد القتال، كرست بعض التفكير الجاد للتحديات المعقدة للقيادة المشتركة في الحرب الحديثة. وقد أدركت أن التحديات سوف تشتد فقط في السنوات القادمة. وبعد أن صارت الحرب الباردة خلفنا، فإن القوات العسكرية الأمريكية سوف تخفض. وفي الحقيقة، فإن العديد من الفرق التي كانت قد قاتلت بشكل ممتاز جداً على رمال العراق في العام 1991 ستطوي أعلامها وتسرح، وذلك جزء من التخفيض الكلي في القوات. وسوف يكون متوقعاً من قادة المستقبل الكبار أن يعملوا الأكثر بالأقل. وكان واضحاً، أن التعاون المشترك العملي، في السنوات القادمة، لا مجرد "فك النزاع" سيكون أمراً أساسياً لتحقيق النصر.

وحروب المستقبل ستقاتل بأسلحة أخرى وتقانات أخرى كانت تبدو وكأنها من الخيال العلمي عندما كنت ملازماً في فيتنام.

بدت لي فورت مونرو، في فرجينيا بخندقها وشرفاتها الحجرية المبنية في القرن التاسع عشر والمشرفة على مياه قناة هامبتون رودز، بيئة غريبة لتكون مقراً

لخزان الجيش الفكري الأكثر تجديداً عندما وصلت هناك في شهر حزيران/يونيو 1992 . ولكنها كانت قريبة قريباً كافياً من واشنطنون من أجل الوصول السهل إلى وزارة الدفاع، بينما هي في الوقت نفسه بعيدة بعداً كافياً عن مكائد طريق الحزام(*) ليسمح ذلك لقوة مهام مناورات لويزيانا بالتأمل العميق في جيش القرن الحادي والعشرين في بيئة هادئة نسبياً.

لقد كان رئيس أركان الجيش الجنرال غوردون سوليفان، وهو واحد من بين أكثر القادة العسكريين تجديداً في القرن العشرين، كان ينشئ "مختبر مستقبلات" وقد اختارني لأكون مديره. وقد سمى هذه المنظمة على اسم سلسلة من التمارين الميدانية التي كان الجيش قد أجراها في لويزيانا الريفية في صيف العام 1940، عندما قام رئيس الأركان الجنرال مارشال، وقد أفزره نصر ألمانيا النازية الصاعق المذهل في فرنسا في ذلك الربيع، بمسك جيش أمريكا المعجب بنفسه في زمن السلم من قفا عنقه وهزه، باحثاً عن تعبئة (تكتيك) مجددة وعن قادة أولي طاقة ليقودوا أمريكا في النزاع الكوني الذي بدا فجأة مخيفاً. ومن ذلك التمرين الميداني برز قادة من أمثال جورج باتون، مع مبادئ حرب الأسلحة المشتركة الحديثة التي قادت أمريكا إلى النصر في الحرب العالمية الثانية.

واعتزم الجنرال سوليفان على أن يستخدم نهاية الحرب الباردة، عند قيام الجيش يسحب تشكيلاته من أوروبا، ليشكل ويشحذ قوة مقاتلة، تكون أقل ضخامة، ولكنها أكثر مرونة وأقدر على القتل.

وعندما اختارني الجنرال سوليفان للعمل، سلمني شريحة إيجاز مولدة بالحاسوب. وقال "احفظ هذا في عقلك وتذكر أن الأصغر ليس هو الأفضل. الأفضل هو الأفضل." وكانت كلماته واضحة وضوحاً لا مزيد عليه.

(*) طريق الحزام الدائري المحيط بواشنطن دي، سي وهو يقصد المؤسسة السياسية في واشنطنون دي. دسي. ومن فيها من شاغلي المناصب، والعاملين في جماعات الضغط، والمستشارين، والمعلقين في وسائل الإعلام.

العقيدة العملياتية المستقبلية لن تبقى ثلاثية الأبعاد، والنصر يذهب فيها إلى الجانب الذي هياً أضخم قوة مقاتلة مع أعظم عدد من الدبابات، والسفن، والطائرات. الآن سيكون هناك بعد رابع: الزمان. وفي القرن الحادي والعشرين سيوجد النجاح العملياتي، وهو ما يسميه العسكريون "النتيجة"، في المكان وفي الزمان الصحيح معاً: وضعُ أفضل قوة، في المكان الصحيح، وفي الزمان الصحيح. وفي هذه الطريقة الجديدة من التفكير، سوف تكتسب الحتميات الإستراتيجية التاريخية وهي الهدف، والكتلة، والاقتصاد بالقوة معنى جديداً. وفجأة، فإن الراية العتيقة "ثورة في الشؤون العسكرية" التي يستعرض بها المفكرون الإستراتيجيون كل بضع سنوات ليعلنوا بعض التقدم الصغير، لم تبق مجرد مبالغة. إنها ستصير هي الحقيقة الواقعة الجديدة عن الحرب.

وكما لخص الجنرال سوليفان الموقف العام للجيش، فقد كان مما لا ينكر، مع ذلك، أن القوة المقاتلة في المستقبل ستكون أصغر من أي وقت مضى منذ فيتنام. وبعد إعادة توحيد ألمانيا في العام 1989، أعيد نشر ما يقارب 300.000 من الجنود ومن أفراد عائلاتهم من أوروبا إلى الولايات المتحدة. وهبط عدد فرق الجيش الموجودة في الخدمة الفعلية من ثماني عشرة فرقة إلى ثلاث عشرة فرقة، وكان يخطط للعدد أن يهبط إلى عشر فرق. وإجمالاً، خفض الجيش صفوفه بما يصل إلى 400.000 عسكري وموظف مدني. وكان مجلس الشيوخ ووزارة الدفاع يقومان بتخفيض الميزانيات تخفيضاً كبيراً، راغبين في ذلك أن يستفيدوا من "عوائد السلام" التي كانت مستحقة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

وكانت وظيفة قوة مهام مناورة لويزيانا هي أن تستكشف إمكانية التقانة المجددة، والعقيدة، والإجراءات، والتدريب وقدرتها على ضمان بقاء هذه القوة المعدة للقتال في الحرب، أقوى قوة في العالم، وهي أقل مما كانت عليه القوة الأمريكية في السابق.

طوال سنوات، كنت قد أجريت تجارب في التجديد التعبوي. والآن، وبوصفي

لاعباً فعالاً في هذه المبادرة العريضة لإعادة صنع الجيش من جديد، كنت أدخل في الروابط الكبيرة.

كان منصبي بصفتي العميد الجنرال المدير لقوة المهام مثل منصب نائب الرئيس في شركة كبيرة. وكان مجلس الإدارة فيها مكوناً من رئيس الأركان ومن جنرالات الجيش في رتبة أربع نجوم. وكما هو الحال في عالم الشركات، لم يكن عندنا نقص في عدد المستشارين، وهم مجموعة من جنرالات الجيش الذين وصلوا رتبة نجمتين، رتبة لواء، يمتلكون الخبرة في كل جوانب عمليات الجيش.

وأما مهمتنا التي كلفنا بها الجنرال سوليفان فكانت أن نلقي نظرة فاحصة شديدة الإمعان على أهم الأشياء التي يفعلها الجيش، وعلى هيكل وحداتها، وطرق تدريبنا، والإجراءات التي كنا نستخدمها لتطوير الأسلحة والمعدات الجديدة والحصول عليها. وكان موقعنا يقوم فعلياً قرب مقر قيادة التدريب والعقيدة، التي كانت مسؤولة تقليدياً عن هيكل القوة، والتعليم، والتدريب. وفي واقع الأمر، كانت قيادة التدريب والعقيدة هي أهم زبون لقوة المهام.

وكان السياق الذي تتم فيه كل إعادة التقويم الواسعة المدى هذه هو الفكرة القائلة إن أمريكا لن تحتاج بعد الآن إلى قوة أرضية ضخمة مكلفة تتخذ لها قواعد في ما وراء البحار. وبدلاً من ذلك، فإن وحدات الجيش المقاتلة في الحرب سوف تتمركز في الولايات المتحدة، وسوف تتدرب وتتجهز بوصفها قوة عرض للقدرة، تستطيع الانتشار بسرعة في أي مكان في العالم في أوقات الأزمة أو النزاع.

وطوال عقود من الزمن، قامت وحدات القتال في جيش الحرب الباردة بالتدريب "في الموقع"، إذا جاز القول، في ألمانيا الغربية، أو في شبه الجزيرة الكورية، حيث يحتمل على الأرجح أن ترى قتال المستقبل. وأنتجت عقيدة القتال في الحرب في ذلك العصر، وأنظمة الأسلحة التي ولدتها، مفهوم المعركة الجوية الأرضية، التي اعتمدت على المناورة السريعة بتشكيلات كبيرة مسلحة بأسلحة عالية التقنية.

لم يقاتل الجيش أبداً معركة جوية أرضية ضد الاتحاد السوفيتي في ثغرة فولدا في ألمانيا. ولكنني شاهدت عند الاندفاع شمالاً نحو وادي الفرات في 27 شباط/فبراير 1991، معركة جوية أرضية تسحق الحرس الجمهوري العراقي. وفي مختلف الظروف والأحوال، لن أرى ثانية أبداً مشهد خمس فرق ثقيلة وفوجين من الخيالة المدرعة مع الآلاف من دباباتها وعرباتهم المقاتلة منشورة عبر مئات الأميال المربعة من الصحراء. وبعد ثمانية عشر شهراً من عملية عاصفة الصحراء، كان نصف وحدات الحرب الباردة تلك قد سرح. وعندما تذهب أمريكا إلى الحرب ثانية، ستكون في جيش أصغر. وكانت وظيفتنا في قوة المهام هي أن نتأكد من أن ذلك الجيش سيكون ما يزال قادراً على كسب الحرب.

من بداية عملي، صار واضحاً لي أن العمليات العسكرية المستقبلية ستكون مختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك العمليات التي رأيتها في موقفنا الرادع الطويل ضد تهديد أحادي ومحدد تحديداً جيداً في الجانب الآخر من الستار الحديدي.

إن يوغوسلافيا السابقة انفجرت إلى الداخل إلى حرب أهلية شريرة، ووقع الناتو في نزاع البلقان المتوسع. وكان هناك خطر أن تصبح القوات الأمريكية متورطة في الصراع الذي لا ينتهي بين إسرائيل والفلسطينيين. وكانت حروب المناوشات والتمردات تنفجر عبر إفريقيا. وفي كولومبيا، هدد صراع الحكومة الذي لا ينتهي ضد عصابات اليسار بزعزعة استقرار المنطقة. وعلى الرغم من أن هدنة متوترة كانت تسود شبه الجزيرة الكورية، فإن هذه الهدنة قد تتحطم في أي لحظة.

وبرغم هزيمة العراق غير المتوازنة في 1991، فإن نظام صدام حسين كان ما يزال يشكل تهديداً يزعزع استقرار المنطقة. فبعد وقف إطلاق النار في شهر آذار/مارس مباشرة، ثار الشيعة في جنوب العراق ضد حكومة البعث التي كانت قد اضطهدهم لعقود من الزمن. وتبعته بعد ذلك في التمرد القبائل الكردية في الشمال. ولكن نظراً إلى أن قوات التحالف كانت قد انسحبت، فإن قوات صدام العسكرية سحقت هذه الثورات بوحشية، وذبحت منهم الآلاف وشردت عشرات

الآلاف وحولتهم إلى لاجئين. وقادت الولايات المتحدة جهداً إنسانياً للمعونة لإنقاذ اللاجئين الأكراد الذين كانوا يعانون الجوع في الجبال الشمالية والشيعة الذين كانوا يفرون إلى الجنوب نحو الكويت والمملكة العربية السعودية. وفي سبيل تطبيق مجموعة جديدة من قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة، التي طلبت من صدام أن يوقف المجزرة التي يشنها على شعبه، فرضت الولايات المتحدة وبريطانيا، وفرنسا مناطق حظر الطيران في الشمال والجنوب في العراق في العام 1991 والعام 1992.

كانت قوات التحالف قد دمرت بعض المخزونات من الأسلحة الكيماوية قبل أن تتسحب من العراق الجنوبي في شهر نيسان/ إبريل 1991. وفي ذلك الصيف، حاول مفتشو الأسلحة التابعون للأمم المتحدة أن يشرفوا على تدمير المخابئ العراقية المتبقية للغاز السام وللأسلحة الحيوية، إضافة إلى الكيماويات البادئة وأوساط النمو. وكان على جدول أعمال المفتشين تدمير صوراخ العراق طويلة المدى وتفكيك مصانع صدام لإنتاج الأسلحة النووية. ولكن النظام ماطل، وراوغ، وقاوم التفتيشات مقاومة نشيطة في كل مرة تقترب فيها زمر الأمم المتحدة من المواقع الحساسة اقتراباً شديداً.

وقد تم احتواء صدام حسين مؤقتاً، "في الصندوق" حسب رطانة وزارة الدفاع، وذلك بعد السيطرة عليه بعقوبات الأمم المتحدة ومناطق حظر الطيران. وبدأ يظهر موقف رادع متوتر، وقدر له أن يدوم لسنوات.

وعندما كنت أقرأ كل تقرير من تقارير الاستخبارات عن التعاون العراقي المشكوك فيه مع مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة، كان واضحاً لي أن نظام صدام بقي مصدر تهديد.

ولكن العراق لم يكن إلا منطقة أزمت واحدة كانت قد انفجرت منذ انهيار الاتحاد السوفيتي. وتُدبت وحدات من الجيش الأمريكي المخفضة الحجم لتعمل في العديد من هذه البقع المضطربة، ولتؤدي عمليات غير تقليدية مثل حفظ السلام.

وفرض السلام، والإعانة الإنسانية، ومنع المخدرات. وبين العامين 1990 و 1995، كان الجيش سيقوم بإدارة سبعة وأربعين انتشاراً عملياتياً كبيراً، وهذه زيادة بنسبة 50 بالمائة عن سنوات الحرب الباردة.

وكانت المهمة الموكولة إلى قوة المهام لمناورات لوزيانا هي أن نفهم السياق الجغرافي الإستراتيجي للتسعينيات من 1990، ثم نقوم بعدئذ بتحديد هيكل القوة، والأسلحة، والجنود الذين سيحتاج إليهم الجيش في المستقبل ليعمل بفاعلية في عالم خطر وغير قابل للتنبؤ به على نحو متزايد.

كان عملي أسراً للاهتمام، ولكنه كان شاقاً. ولئن كنت قد توقعت جواً مسترخياً للتأمل النظري، مع تيسر الكثير من الوقت خارج العمل لأسرتي، فإن الجنرال سوليفان ومعه مجلس الإدارة من جنرالات النجوم الأربع، رتبة الفريق الأول، قد صححوني بسرعة. فكوني مدير قوة المهام كان يعني أن أتصرف بصفتي منسق الاجتماعات، ومسهل السفريات، ومخطط المؤتمرات، ومجند الأكاديميين وخبراء الصناعة، وأمين سر الرئيس.

اشترينا أنا وكاثي زورقاً شراعياً صغيراً، على أمل أن نستمتع بالجدول والخلجان الصغيرة في خليج تشيسابيك. ولكنني نادراً ما خرجت من المكتب قبل حلول الظلام حتى في وقت توفير ضوء النهار. واستغلت كاثي وقتها بإكمال درجتها الماجستير في الإدارة التربوية في جامعة جورج واشنطن.

واستطعنا أن نتدبر نهاية أسبوع طويلة في شهر أيلول/سبتمبر 1992. فابنتنا جاكى، الطفلة الصغيرة التي كان من عاداتها أن تنام في عربتها في شقتنا وهي تنتظر والدها، النقيب فرانكس، ليعود إلى البيت من كاسيرن، هي الآن تتزوج نقيبها الخاص من الجيش. لقد قابلت جاكى باتريك ماتلوك في فورت هود في العام 1990 عندما كان ملازماً أول في خيالة الدروع 3-32، وهي واحدة من الوحدات التي استمرت في القتال بشكل جيد في أثناء عاصفة الصحراء. وكان باتريك خريجاً ذكياً من كلية وست بوينت، وهو على طريق سريع إلى القيادة. وكان زواجهما في

كنيسة نيو بوست في فورت سيل، في أوكلاهوما، وهي الكنيسة نفسها التي تزوجت فيها أنا وكاثي.

كانت خبرة عاطفية، وأنا أراقب جاكى في عباؤها البيضاء، وهي تبدو إلى حد كبير الابنة الجميلة لأمها، ويدها في ذراع نقيب شاب في الجيش في ملابس الجيش الزرقاء، وتغادر تلك الكنيسة تحت قوس من السيوف. وبشكل ما، مرت ثلاثة وعشرون عاماً منذ يوم الربيع الدافئ عندما خطونا كاثي وأنا بفرح من الكنيسة، عروس جميلة شابة في اللباس الأبيض ويدها على ذراع نقيب شاب.

أمي كانت هناك طافحة بالسعادة. وفي الاستقبال نظرت إلى أشرطة حملة حرب الخليج الموجودة على بزتي العسكرية وسألت سؤالها الدائم. "كم بقي عليك من مدة الخدمة، يا بني؟"

أمي لم تستوعب تماماً أبداً أنني كنت جندياً محترفاً، وأنني لم أكن "أخدم مدة خدمة محددة"، مثل والدي في أثناء الحرب العالمية الثانية.

وضممتها، وشعرت كم غدت خفيفة وضعيفة منذ جراحة السرطان التي أجريت لها في الثمانينيات من 1980. "يا أمي، حتى الآن سيكون هناك مدة أخرى طويلة."

وبعد أقل من عام من عرس جاكى، اتصلت غينيل لتبلغنا الرسالة التي كنا نخافها: "أمك توفيت، يا توم."

كنت أظن أنني كنت مهياً. ولكن الأنباء كانت ما تزال صدمة باردة. سرطان أمي عاودها. وانتقلت إلى ضواحي دالاس، حيث قامت غينيل بالعناية بها كأنها كانت أختها الكبيرة. غينيل كانت تقود سيارتها وتأخذها إلى المواعيد الطبية وتطبخ لها في شقة المعيشة المعانة الصغيرة. وكانت غينيل مع أمي عند النهاية. وعندما تحدثنا، أدركت مرة أخرى أن رباط الحب كان يمتد ليتجاوز علاقات الدم.

بعد الجنازة، رجعت إلى طاولة تكدست عليها عالياً المهام المستعجلة.

وفي حوالي منتصف النهار من بعد ظهر يوم من أيام السبت في شهر أيار/مايو

1993 وضع ضابطي التنفيذ الذي طالت معاناته كدساً من الرسائل الإلكترونية المطبوعة، وهي البوادر السابقة لما يعرف اليوم بالبريد الإلكتروني الموجود بشكل شامل، على طاولتي... في الوقت الذي كنت فيه على وشك أن أغادر المكتب لأذهب مع كاثي في الزورق الشراعي.

وقال: "يريد الرئيس هذه الرسائل جاهزة مع دعوة المؤتمر في الساعة 0730 في يوم الاثنين".

وتفرست في الرسائل، وكانت بشكل رئيسي طلبات لمعلومات عن آخر تقانة المحاكاة المتوافرة غير المستخدمة في السوق المدنية. لقد كانت إحدى توصياتي المبكرة أن نختصر الطريق في عملية الشراء المضنية في الحرب الباردة والتي صارت سيئة السمعة بشراء وزارة الدفاع لمقعد حمام بسعر 640 دولاراً ولشاكوش بسعر 435 دولاراً. وكما يقال لقد علقت بمنجنيقي، فمن حفر حفرة لأخيه وقع فيها. لقد برمج مجلس الإدارة أن يناقش الموضوع في الأسبوع القادم وكان يجب علي أن أعد الجنرال سوليفان لهذا الاجتماع، وهو واجب سوف يستغرق ما بقي من يوم السبت ومعظم يوم الأحد لإكماله.

ومددت يدي إلى الهاتف لأكلم كاثي. وتمتعت: "السلام جهنم".

كان عمل قوة المهام لناورات لويزيانا عملاً صعباً، ولكننا حققنا تقدماً فعلياً. لقد قاربنا إنشاء قوة للقرن الحادي والعشرين بمراجعة "المجالات" الستة الأساسية، أو قوالب البناء، للجيش. ومن الطبيعي، أنها حملت مختصراً يغلط به اللسان مكوناً من الحروف الأولى لكل كلمة وهي دي تي ال او ام اس، عن العقيدة، والتدريب، وتطوير القائد، والتنظيمات، والمواد، والجنود.

طوال خمسين سنة تقريباً، كانت العقيدة الأساسية للجيش تركز على احتواء الاتحاد السوفيتي في الستار الحديدي، وذلك عن طريق وضع تشكيلات الدروع الثقيلة والمشاة الآلية في أوروبا. ونظراً إلى أننا لم نكن نستطيع أن نجاري حلف وارسو في أعداد الجند والدبابات، فقد كانت وحداتنا، حتى مستوى بطاريات

الهاوتزر الفردية، مسلحة بأسلحة نووية تعبوية، مثلما كان لدي عندما كنت أقود البطارية في كاسيرن هانز شيم في أواسط السبعينيات من 1970.

أما الآن فسيكون حجر الزاوية في عقيدتنا الجديدة هو النشر السريع لوحداث متمركزة في الولايات المتحدة الأمريكية في الواقع إلى أي مكان في العالم . غير أنه سيكون من المستحيل أن ننشر آلاف الدبابات، وعربات المشاة المقاتلة، وكل قواعد إسنادها وفق ما قد يكون ضرورياً في أزمة طارئة. لقد استغرق التجمع من أجل عملية عاصفة الصحراء ستة أشهر قبل أن تكون الوحدات قد أخذت مواقعها من أجل حرب أرضية. وسيكون من الحمق أن نفترض أن سرعة حروب المستقبل ستكون بطيئة مثل ذلك.

إن عقيدة القرن الحادي والعشرين التي طورناها في قوة المهام تضمنت الوضع المسبق للأسلحة والمعدات في مستودعات، وعلى ظهر السفن في البحر الأبيض المتوسط، في الشرق الأوسط، وفي المحيط الهندي، وفي آسيا، وفي الأزمة ينقل الجند جواً إلى المواقع، ويلتحقون بدباباتهم، ومدافعهم، وشاحناتهم، وذخائرهم، وإعاشاتهم، وبمستشفياتهم الميدانية، وبكل الآلاف من الجزئيات والقطع الأخرى التي تحتاج إليها قوة مقاتلة حديثة.

والتدريب مهم للجيش مثل التعليم للحياة المدنية، وفي قوة المهام أطلقنا دراسة مكثفة لإجراءات تدريب الجيش بدءاً من الأساس فصاعداً. وفي وجه الميزانيات المخفضة في "زمن السلم"، استكشفنا طرقاً جديدة للوصول بالجند الجدد إلى مستوى الجاهزية القتالية، وهي أساليب من شأنها أن تكون أرخص وأفضل في الوقت نفسه.

وصار واضحاً في الحال أن المحاكاة المعانة رقمياً ستكون تقانة حاسمة تستطيع أن تكمل، إن لم تحل تماماً محل الكثير من تدريب الرمي الحي المعقد والمكلف الذي كان الجيش يعتمد عليه منذ الحرب العالمية الثانية. وبالانتفاع والاقتراب من التقدّمات المدنية في الواقع الحقيقي للتقانة، كان الجيش في الحال يشتري محاكيات لمعظم أنظمة أسلحته الكبيرة. وكان سدة دبابات أبرامز، وعربات برادلي المقاتلة، والطائرات العمودية من نوع أباتشي المسلحة يتدربون الآن في محاكيات كانت تتسخ وتحاكي ضجيج القتال، وحركة الارتجاج، وفوضى القتال، وكان

التأثير أصيلاً جداً إلى الدرجة التي روى فيها بعض المحاربين في حرب الخليج أن الخبرة كانت واقعية للغاية تقريباً.

وحتى أكثر المحاكيات إقناعاً، كان من الطبيعي، أنها لا تستطيع أبداً أن تحل تماماً محل خبرة تمارين الميدان والحذاء العسكري على الأرض مع الأسلحة والمعدات الحقيقية. ولكن قوة المهام أوصت فعلاً بعشرات التحديثات المحوسبة لمركز التدريب الوطني في فورت إروين، في كاليفورنيا، حيث كان الجيش يشحذ في ذلك المركز مهاراته في حرب الصحراء، ومثلها لمركز تدريب الجاهزية المشتركة في فورت بولك، في لويزيانا، فقد كان الجنود يتدربون فيه على العمليات الراجلة والقتال في المناطق الحضرية. إن إطلاق "النار" بالمحاكاة الليزرية من مدافع الدبابات ومن الأسلحة الصغيرة علم الجنود أن يقاتلوا قتالاً واقعياً، ولكنه قتال في معارك بلا دماء، بينما أدى الاستماع إلى أشرطة الصور (الفيديو) ومشاهدتها إلى أن يُظهر للقادة إلى أي مدى ناورت قواتهم على نحو جيد. وعززنا أيضاً التغذية الراجعة عن "الرجل في الحلقة" للدخول إلى شبكات المحاكاة، والتي سمحت للفروع المنفصلة من أسلحة القتال والموجودة في قواعد مختلفة أن تلعب لعبة الحرب مع زملائها في ميدان معركة رقمية.

ووصلت الثورة المتسارعة في تقانة المحاكاة في نهاية الأمر إلى أبعد من الجنود الأفراد ووحدات القتال، وصلت إلى قادتهم وأركانهم. نحن الآن نملك القدرة على محاكاة النشر السريع لوحدات كبيرة، صعوداً حتى مستوى الفيلق. في الماضي، كان التمرين الدوري الضخم المعروف باسم عودة القوات إلى ألمانيا، يشمل نقل آلاف من القوات عبر الأطلسي، وهي عملية كانت تكلف عشرات الملايين من الدولارات. أما الآن، فإن كل العملية المعقدة، مع كل مشكلاتها الحتمية وأخطائها، يمكن أن تحاكي بالحاسوب.

وفي غضون عام، بدأت الاختراقات في التقانة العالية تتضاعف بسرعة، مثل كرة الثلج المنحدرة من عل، في صفوف الجيش. ومع نضج عصر المعرفة في العالم المدني، صار مفهوم "فضاء المعركة" الرقمي، ثلاثي الأبعاد حقيقة واقعة.

(*) ملمح للتوجيه يسمح بالتدخل الإنساني (التصحيح... إلخ) عندما يكون السلاح متقدماً إلى الهدف ليطبق عليه.

وحلت شاشات البلازما(*) محل خرائط الورق في مراكز القيادة المحوسبة وفي مقار قيادة الأنساق العليا. وصار عرض نطاق الترددات (الذبذبات) اللازمة لاستقبال وإرسال البيانات أصلاً من الأصول الثابتة وصار حيويّاً على القدر نفسه مثل الذخيرة والمحروقات.

ومع نمو التقنية، تطور النموذج التقليدي للقيادة والسيطرة (سي2) بسرعة من خلال السيطرة والقيادة والاتصالات ليصير (سي3)، ثم أضيف الحاسوب بوصفه الملمح الرابع للنظام ليصير (سي4). وفي نهاية المطاف أضيفت صفة خامسة هي الاستخبارات. ليتحول إلى نظام صار يعرف باسم سي4 آي(**): القيادة، والسيطرة، والاتصالات، والحاسوب، والاستخبارات.

وصار القادة يكتسبون القدرة على النفاذ عبر "الضباب واحتكاك الحرب"، تلك الاستعارة المثيرة التي تنسب كثيراً إلى كلاوزفيتز. وطوال آلاف السنوات، كان الجنود يتوقون لاكتساب القدرة على أن يروا ويفهموا ما يجري على الميدان عندما تنتشر فوضى المعركة. أين العدو؟ وأين قواتي؟ هل استولينا على الهدف أم دفعنا للخلف؟ إن الثورة في تقانة الاستشعار، مقرونة مع منصات رصد طائرة (العديد منها مركب على مركبات جوية بدون طيار)، وعَدَت قادة اليوم بنوع المنظور الأولبي الذي كان هومر قد منحه لآلهته.

ومع القدرة التي تقدمها أجهزة الإحساس التي تعمل من بعد والمركبة على المركبات الجوية بدون طيار مقترنة مع التتبع بالأقمار بالنظام العالمي لتحديد المواقع، والوصلات العالية السرعة المؤتممة للبيانات، سيكون الجنود قادرين على أن يروا من خلال الدخان، والغيوم، وأحلك الليل، وأن يفهموا ميدان المعركة كما لم

(*) شاشات التلفاز العالية الوضوح، وهي لوحة عرض مسطحة ابتعائية ينشأ فيها الضوء من مواد فسفورية تستثيرها البلازما المفرغة بين لوحين مسطحين من الزجاج، والغاز المفرغ لا يحتوي على الزئبق، ويستخدم بدلاً من ذلك مزيجاً من الغازات النبيلة (النيون والأكسينوت). ومزيج الغاز عاقل وغير مؤذ بالكامل.

(**) اشتق رمزه من الحروف الأولى للكلمات وهي تبدأ بالحروف سي: Command للقيادة، Control للسيطرة، Communication للاتصالات، Computer للحاسوب، Intelligence للاستخبارات.

يفهموها من قبل أبداً. إن محاكاتنا الآن كانت تتم في مختبر معركة رقمية أعطت الجنود، ابتداءً من قادة دبابة مفردة إلى الجنرالات بأربع نجوم الذين يقودون مسارح حرب، درجة غير مسبقة من الوعي بالموقف.

إن قدرة تقانة النظام العالمي لتحديد الموقع على أن تحدد الموقع الدقيق لعربة، كانت واحداً من اختراقات التقانة العالية التي استغلتها قوة المهام. وقد كنت فخوراً بأننا احتضنا هذه الأداة، بغض النظر عن أصولها داخل القطاع الصناعي الخاص، وهو ما يبرهن على أن الجيش كان أخيراً يهز ضيق أفقه التقليدي "لم يخترع هنا". لقد كانت شركة شنايدر للشاحنات هي أول شركة تركب مستقبلات النظام العالمي لتحديد المواقع مع برامج مرمزة، تسمح للمرسلين والمديرين أن يروا فوراً المكان الذي تكون فيه أي واحدة من شاحناتهم التي تصل إلى أكثر من 400.000 شاحنة في أي وقت، وفي أي مكان من البلاد. وكانت كل شاحنة تمتلك جهازاً مرسلًا مستقبلاً لا يثبت موقعها فقط بل يثبت أيضاً رقم الوحدة والشحنة. وكان التطبيق العسكري لهذه التقانة واضحاً، ولذلك قامت واحدة من زمر قوة المهام بالاتصال مع الشركة، قبل مدة طويلة من تبني تقانة شنايدر للعربات العسكرية. ويستطيع الآن قادة الدروع، والمشاة الآلية، والإمداد والتموين متابعة قواتهم نهاراً أو ليلاً، في أي طقس أو أي ميدان معركة.

وفائدة أخرى للنظام العالمي لتحديد الموقع هي دوره في منع حوادث النار الصديقة، وهي التي ابتليت بها العمليات في حرب الخليج. وعندما نضجت تلك التقانة، سرّعنا تطوير لوحات عرض تتبع "القوة الزرقاء" وهي شاشات البلازما مع طبقات قطاعية رقمية، وعليها مواقع القوات الزرقاء (الصديقة) التي يتم تحديثها باستمرار. وعلى الرغم من أن استئصال النار الصديقة تماماً أمر صعب كما ثبت، فإن النظام العالمي لتحديد الموقع سوف يخفض خطر قتل الأخ تخفيضاً كبيراً في السنوات القادمة، وهي طريقة أخرى ساعدتنا فيها تلك التقانة لا على مهاجمة العدو فحسب بل على إنقاذ الحياة في ميدان المعركة أيضاً.

ولتكملة هذا النظام، استغلت قوة المهام تقانة جديدة مرقمنة كانت تقوم بإرسال صور الدبابات، والعربات المقاتلة، والطائرات العمودية المسلحة من الأقمار وأجهزة الإحساس من المركبات الجوية بدون طيار، وتربطها مع تتبع النظام العالمي لتحديد الموقع لتعطينا صورة أكثر دقة لترتيب قوات العدو كذلك.

وعندما اقترنت قدرة تجهيزات الرؤية الليلية، مع التحديد الدقيق للتصويب الليزري، ومع تتبع النظام العالمي للموقع مع الأجيال الجديدة من الذخائر الدقيقة التوجيه، زادت قدرة أسلحتنا على القتل زيادة أُسيّة. ومن بين مئات التقارير عن التقانات التي كانت بالانتظار قرأت بصفتي مدير قوة المهام، واحداً من أكثر التقارير شداً للانتباه، وكان يخص مفهوم توجيه النيران/ مراقب المساندة الجوية القريبة في المستقبل، الذي كان سينشر مع قوات العمليات الخاصة أو مع زمر صغيرة من المشاة. وهذا النسل الجديد من الراصد الأمامي سوف يحدد الأهداف المعادية، وسيقوم إما بإضاءتها من أجل القنابل الموجهة بالليزر أو من أجل مقذوفات المدفعية أو يقوم ببث إحداثياتها الدقيقة بالنظام العالمي لتحديد الموقع للطيران المحلق فوق الرؤوس (بدقة تصل إلى أقرب متر واحد). فتقوم الطائرات عندئذ بإسقاط قنابل وجهت نفسها بدقة إلى إحداثيات الهدف تلك، بغض النظر عن الطقس أو ظروف ميدان المعركة. وقد سمي السلاح ذخيرة الهجوم المباشر المشترك.

وقد قلت عندما أنهيت قراءة التقرير: "نحن، الآن، نصنع تقدماً حقيقياً."

وحدثت من خلال النافذة في الزوارق الشراعية في هاميستون رودز، متابعة للنسمات الشمالية الغربية. لقد كان منظرأ يشبه هدوء بطاقة بريدية، وأما في عقلي فقد كنت أنظر من خلال الواقية الأمامية البلاستيكية (بليكسيغلاس) للطائرة العمودية اتش-23، إلى دخان وومضات قنابل الهاوتزر والقنابل المتفجرة على طول قناة كنه دوا. كنت سأبادل كل تلك الكتائب المدفعية والقاذفات المقاتلة مقابل خمسة من أسلحة ذخيرة الهجوم المباشر المشترك.

من مكتبي داخل شرفات القلعة الحجرية التي بنيت لتصمد للطلقات

الحديدية وقنابل المسحوق الأسود، كان لدي نافذة تطل على الممر المائي الذي تم فيه من خلال المونيتور^(*) والميريماك إدخال الثورة على الحرب البحرية بالأساطيل في العام 1862. وأنا أيضا كنت أملك نافذة تطل على الطريق التي ستحارب فيها الحروب في فضاء المعركة في قرون قادمة. ولم أكن أستطيع أن أتصور الأثر الذي سيكون لذلك المنظور على السنوات التسع التالية من حياتي.

أمامي، هناك ثلاثة نجوم أخرى تنتظر... وحربان أخريان.

بدأت لي الجبال المتجمدة من كوريا المركزية مثل آيسكريم بالنعناع من خلال نظارتي للرؤية الليلية. وحلقت طائرتي العمودية بلاك هوك للقيادة والسيطرة لنقوم بتحويلة، وفتح الطيار نظارته لينظر إلى شاشة الموقف التعبوي على لوحة عرض أجهزة القياس عنده.

وقال: "أشعة اكس شمالاً اتجاه 346 درجة صحيح، سيدي."

كان الوقت متأخراً في ليلة يوم خميس من كانون الثاني/يناير 1997. وأنا الآن جنرال بنجمتين، برتبة لواء، وكنت أتولى قيادة فرقة المشاة "المحارب" الثانية لنحو عامين تقريباً، وهو وقت مبهج حفاز، وقاس شعرت أنه كان يشبه الحرب أكثر بكثير من السلم.

وكانت فرقة المشاة الثانية أضخم فرقة في الجيش، وأقدرها على القتل، وحدة "هجين" مكونة من الدروع، والمشاة الآلية، ومشاة الاقتحام الجوي، وطيران القتال، والمدفعية. وكنا إضافة إلى ذلك الوحدة الأمريكية الكبرى المعدة للقتال في الحرب والمنتشرة أقرب انتشار إلى قوة معادية.

(*) مونيتير ضد فرجينيا أو ميريماك، معركة بحرية تاريخية من معارك الحرب الأهلية الأمريكية، حدثت في ٩ آذار/مارس ١٨٦٢م بين سفينة الاتحاد المسامة مونيتير وسفينة الكونفيدرالية المسامة فيرجينيا أو ميريماك. كلتا السفينتين كانتا مغطاتين بالحديد، وكانت المعركة هي النزاع الأول بين السفن الحربية المكسوة بالحديد. واشتبكت السفينتان في هامبتون رودز. وانتهت المعركة دون حسم. ولكنها أشارت إلى بداية الهندسة البحرية الحديثة.

وراء ميدان تدريبنا المتعدد الأغراض بمسافة ستة وعشرين كيلومترا، كانت توجد المنطقة المنزوعة السلاح وهي تتلوى كالثعبان عبر شبه الجزيرة الجبلية، وتمثل الحدود بين كوريا الجنوبية المزدهرة الديمقراطية، وكوريا الشمالية "جمهورية الشعب الديمقراطي". وكوريا الشمالية، وهي آخر دكتاتورية ستالينية باقية في العالم، كانت من الناحية الدبلوماسية والاقتصادية أمة معزولة مارقة، وكانت تتباهى بقوتها العسكرية التي لا تنكر في الوقت الذي كانت تطلب فيه العون الدولي الإنساني لتطعم شعبها الذي يعاني الجوع والحرمان.

وكان التناقض بين الكوريتين هائلاً دائماً في ليالي الشتاء الصافية هذه، عندما كانت كتلة الهواء السيبيرية بحرارة تحت الصفر تسيطر على جنوب شرق آسيا وتكون القدرة على الرؤية كاملة. ومن خلال النوافذ اليسرى من الطائرة العمودية بلاك هوك، كان سطوع الأضواء الحضرية لمنطقة العاصمة الكبيرة سيئول وسلسلة المدن الصناعية إلى الجنوب بعيداً عنها يلقي لونا أبيض على خطوط المناسيب (الكنتورية) في المناظر الطبيعية. وإلى الأمام من خلال نوافذ غرفة القيادة، فإن الأضواء، مع ذلك، خفت ثم توقفت وكأنها على خط شاطئ. وما وراء المنطقة المنزوعة السلاح، وهو نعت ساخر لأنها في الحقيقة أكثف منطقة على هذا الكوكب عسكرياً، كانت كوريا الشمالية خالية من الأضواء، كانت فراغاً مظلماً. ملايين من الناس البائسين، الذين يعانون من سوء التغذية، يمضون الليل المتجمد في مهاجع النوم المحرومة من التدفئة في المزارع الجماعية ومصانع الدولة التي لم تر الطاقة الكهربائية طوال شهور، ولم تكن تستطيع توفير حتى مادة الكيروسين للمصابيح.

ولكن "القائد العزيز" لكوريا الشمالية الدكتاتور الطائش الذي لا يرحم كيم يونغ الثاني، كان يتبجح بأن قواته العسكرية وهي أكثر من مليون من الجند، ومن رجال الجو، والبحارة هي من بين القوات الأفضل تجهيزاً وتغذية في العالم. وحدثت في الجبال المظلمة الواقعة مباشرة بعد المنطقة المنزوعة السلاح. كان

يوجد الكثير من الكهرباء هناك، ولكنها كانت محجوبة داخل منطقة مكتظة بالأنفاق الإسمنتية المسلحة والكهوف المحصنة. يمتلك جيش كوريا الشمالية أكثر من 8000 نظام مدفعية طويلة المدى، من مدفعية الهاوتزر عيار 170 ملم نوع كوكسان وقاذفات صواريخ ثقيلة، مخبأة في هذه التحصينات. وهي قادرة على أن تطلق 500.000 مقذوف في الساعة، وكانت هذه الأسلحة قريبة قريباً كفاً لتدمير كل سيئول وما حولها من محيط ممتد. ولدعم هذه القدرة النارية حشد الجيش الكوري الشمالي في الميدان حوالي 500 صاروخ سكود بالسستي متوسط المدى، والعديد من هذه الصواريخ مسلح برؤوس كيماوية. وامتلك كوريا الشمالية أيضاً برنامجاً قوياً للأسلحة الحيوية أنتج جراثيم الجمرة الخبيثة والطاعون. ولا يكاد نظام كيم يكلف نفسه عناء إخفاء تقدمه المستمر في الأسلحة النووية.

وعلى الرغم من أن جيش كوريا الجنوبية كان مجهزاً تجهيزاً جيداً، وعلى رأسه قيادة مقتدرة، فإن فرقة المشاة الأمريكية الثانية والقاذفات المقاتلة التعبوية الأمريكية هي التي شكلت القلب الذي يردع جيش كوريا الشمالية.

وقد أشارت الاستخبارات المتوافرة عن العقيدة القتالية لكوريا الشمالية إلى أن كيم إذا قرر أن يشن هجوماً على جارتها في الجنوب، فإن هجومه سيأتي في شكل سد مدفعي ضخم، وهجمات مدرعة جنوباً عبر الوديان التي تقطع المنطقة المنزوعة السلاح، وغارات مغاوير تنفذها قوات خاصة في جيش كوريا الشمالية يصل عددها إلى 120.000 رجل. وكان التمرين الميداني في هذه الليلة اختباراً لقدرة الرد على هذا التهديد التعرضي.

كان العدو يمتلك الميزة العددية في الأسلحة وفي الطاقة البشرية. ولكننا كنا نمتلك تقانة متفوقة وجنداً أفضل تدريباً. ومنذ أن توليت قيادة الفرقة بعد تسعة شهور مديراً للعمليات لقيادة القوات المشتركة/ للأمم المتحدة في سيئول، شددت على التدريب في إطار التعبئة المرنة والسرعة. ولقد تدريبنا فعلاً، شهراً في الداخل، فشهرًا في الخارج. وعندما كانت إحدى ألعاب الحرب منهمكة في العمل في مناورة

لمقر قيادة اللواء في كامب كيسي أو كامب هوفي، كانت مناورة أخرى تبدأ مع مدفعية الفرقة في كامب ستانلي.

وكنتم قد أخبرتم كبار الضباط عندما توليت القيادة: "لدينا أقل من ساعة للرد رداً فعالاً على هجوم معاد، وصافرة الإنذار يمكن أن تصوت في أي وقت. يجب أن نكون مستعدين لنقاتل في هذه الليلة." وفي الحقيقة "قاتل في هذه الليلة" كان شعار فرقة المحارب.

وسيكون المفتاح إلى النصر هو إخماد مدفعية الجيش الكوري الشمالي في غضون دقائق من إطلاقها لرشقتها الأولى، لجعلها عاجزة عن إطلاق رشقة ثانية، تم تدمير رأس حريتهم من دبابات تي-62 وعربات المشاة المقاتلة قبل أن تستطيع الانتشار كالمروحة على الطرقات العامة جنوب المنطقة المنزوعة السلاح. وستكون حماية مدفعيتنا وأنظمة صواريخنا، لمدة كافية لإبطال ورد زخم الضربة المعادية الأولى، أمراً حيوياً.

في التمرين الميداني في هذه الليلة كانت هاوتزراتنا ذاتية الدفع الجديدة من نوع بالادين وقاذفات أنظمة قذف الصواريخ المتعددة سوف تتاور بشكل مستقل على سفوح الجبال الثلجية، متخذة غطاء لها في المضائق بين الجبال وتحت الجروف العالية، محاكية النار والحركة، وتعبئة "تحرك وارم" بسرعة عالية وهي التي ستحمي مدفعيتنا وهي تضرب مدفعية العدو بدقة. سرعة المناورة كانت جوهرية للبقاء، والدقة كانت حاسمة للنصر.

وكان العنصر الأساسي للدقة هو قدرتنا على التحديد الدقيق لمواضع أنظمة مدفعية العدو في غضون ثوان بعد أن تكون قد أطلقت أولى مقذوفاتها. لقد كان الرادار المضاد لبطاريات المدفعية موجوداً في مخزون الجيش منذ الأربعينيات من 1940، ولكن راداراتنا كاشفة الرمي من نوع تي بي كيو-37 كانت أكثر هذه الأنظمة حساسية في العالم. وكانت حواسيبها تستطيع فوراً أن تحلل مسار النيران القادمة، وتعطي الإحداثيات الدقيقة لنقاط رمي العدو إلى أسلحتنا المضادة للنيران في

غضون ثوان. وعندما تقوم بطاريات أنظمة قذف الصواريخ المتعددة، وأنظمة صواريخ الجيش التعبوية ذات المدى الأطول والمتأهبة بحالة إنذار، بإطلاق نار ضرباتها الانتقامية المعاكسة الأولى، فإن بطاريات الهاوتزر ستناور وتتحرك إلى مواقع مخفية في الجبال، ومن هذه المواقع ستضع ستاراً من القنابل شديدة الانفجار ومن قنبلات الذخائر التقليدية المحسنة على مداخل أنفاق العدو وكهوفه.

ونظراً إلى أن هجوم الجيش الكوري الشمالي سوف يضم على الأرجح المدفعية والدروع، والمشاة الآلية، والقوات الخاصة، فقد كان على خططنا للدفاع عن كوريا الجنوبية أن تتضمن كل عنصر من الخدمات المشتركة وزمر أسلحة قتال الحرب المشتركة. وفي هذه الليلة، في الوقت الذي كانت فيه مدافع بالادين ومجنزرات أنظمة قذف الصواريخ المتعددة تقعقع مبتعدة خارج قواعدنا إلى التلال المحيطة، كانت دبابات أبرامز ام 1 ايه 1 والعربات المقاتلة برادلي من اللواء الأول "الحديد" تسرع عبر حقول الرز لتأخذ مواقعها المسيطرة على الأرض العالية. وتقوم الطائرات العمودية بلاك هوك وشينوك حاملة الجند من لواء الطيران بتقديم الدعم للكتيبة الأولى مشاة 503 (الاقتحام الجوي) وهي تطير إلى الأمام لتأمين نقاط الاختراق في الممرات المطلة على المنطقة المنزوعة السلاح. وكانت حزمة الأسلحة المشتركة للفرقة قد اكتملت بالطائرات العمودية المسلحة من نوع أباتشي ايه اتش-64 وتكون محمية بالطائرات العمودية "الكشاف المسلح" المحارب من نوع كيووا ايه اتش-58 الأصغر، وهي تعانق الأرض المرتفعة لتحرم دبابات الجيش الكوري الشمالي من الاقتراب إلى فضاء المعركة.

وعندما أخذت أسراب من القوة الجوية اف-16 تشكيلها إلى الجنوب، أزعجت نظارتي للرؤية الليلية واستدرت إلى الحاسوب الصغير المركب بجانب مقعدي. كان الموقف التعبوي معروضاً هناك، في شكل رموز ملونة نابضة. كانت الصورة مشابهة لما كنت قد رأيته في لعبة الحرب التي كنا نتدرب عليها لمدة أيام، بالتشبيه والمحاكاة، ولكنها ليست قريبة قريباً كافياً. كانت المدفعية تستغرق وقتاً أكثر مما يجب لتطلق

مهام الرمي التي تحاكيها. وتقرست في الشاشة، وأعدت نظاراتي الليلية لدراسة الأرض تحتي. ولم تعجبني المسافات بين الهاوتزرات وأنظمة قذف الصواريخ المتعددة. وسدود رمي البطاريات المعاكسة الخاصة بالعدو كان يمكن لها أن توقع بعض الأضرار الحقيقية. وعند النظر إلى مسافة أبعد إلى الشمال، رأيت أن سرية من عربات برادلي قد فقدت دورها وكانت على الأرجح ستتحرك نحو منطقة هدف القوات الجوية، وهو انطباع تأكد عندي من التدقيق السريع على لوحة عرض الموقف التعبوي في حاسوبي الصغير.

فهمت الموقف. سدة المدفعية وعربات برادلي كانوا مستكنين في ثكنتهم القاسية ولكنها المريحة رغم ذلك، ينامون، أو يشاهدون الفيديو، أو ينتظرون لاستخدام حاسوب في الثكنة لإرسال بريد إلكتروني إلى الوطن. وعندما صاحت صفارة الإنذار لبسوا بدلات الحماية الكيماوية فوق بزاتهم الشتوية، وخطفوا واقيات الرصاص والخوذات، وأسرعوا عدواً عبر الثلج إلى عرباتهم. تحت هذه الظروف، لم يكن من السهل الأداء في قمة لعبتهم. ولكن هذه كانت بالضبط هي الظروف التي سيحاول العدو استغلالها، الليل المتأخر، والزمهرير من البرد.

لم نكن جيدين بما يكفي. ضربت بجمع يدي مفتاح الميكروفون الموجود على جهازي اللاسلكي القيادي المأمون.

وناديت قائد اللواء: "حديد ستة، هذا محارب ستة. أعد. أعد. أعد. دعونا نحاولها ثانية."

وأجاب العقيد بل مارشال: "تسلمت، سيدي."

وانعطف طياري بالبلاك هوك إلى الشرق، وراقبت الأشكال الصغيرة للعربات المناورة تدور على منحدرات التلال الثلجية تحتي وتتجه عائدة إلى خطوط البداية الخاصة بها. لاشك أن بعض أولئك الخيالة كانوا يشكون من ذلك "ابن إلخ..." الذي كان يبقئهم عاملين طوال الليل. أوافق على ذلك، إن الجنود يشكون دائماً. ولكنهم

قاموا بواجباتهم دائماً أيضاً. لم أنس أبداً ما علمني إياه النقيب بل باون هناك عند منصات المدفعية تلك في دلتا ميكونغ: كونك ضابطاً جيداً ليس كالدخول في تنافس على الشعبية. هذه الفرقة ستعيش بحسب الحكمة القديمة المأثورة: "كلما عرقت أكثر في وقت السلم نقص نزفك في وقت الحرب".

كان واجبي أن أجعلهم يتعرقون، لأن مسؤوليتي كانت تعني أن أكون جاهزاً لحرب كان يأمل كل إنسان أنها لا تأتي أبداً.

وهذا الأمر لم يكن سهلاً على الجند. وهو بالتأكيد لم يكن سهلاً علي. فأنا وكاثي عشنا منفصلين في هذا الوقت، مثلما فعل كل قادتي وكل أعضاء الضباط الأركان الأساسيين الذين كانت عائلاتهم معهم في كوريا. عاشت العائلات في معظم الأحوال في سيئول وكان إسكاننا مع جنودنا في منطقة المسؤولية التعبوية للفرقة. وكانت كاثي تقوم بقيادة سيارتها من بيتها في سيئول، حيث كانت تدرس مادة التاريخ في المدرسة الأمريكية الثانوية، لتقضي نهاية أسبوع طويلة معي في قيادتي في كامب رد كلاود. ونتيجة للطريقة التي طُبّق عليها هذا التمرين، وتكشف فيها، لم يتبق الكثير من الوقت لنهاية أسبوع.

ذلك ما لم يكن إلى دفعه سبيل. الجند لم يكونوا يقاتلون حرباً حقيقية. ولكن التدريب يجب أن يكون قريباً إلى القتال الحقيقي بأكبر قدر أستطيع أن أجعله. وسيكون التدريب كذلك إلى اليوم الذي أكملت فيه ستة وعشرين شهراً قائداً للفرقة وترقيت إلى ثلاث نجوم، رتبة فريق ثان، وتوليت قيادة الجيش الأمريكي الثالث-خاصة باتون."

كنت سعيداً أنني وفرت بزة صحراوية مموهة نظيفة. وكما هو الحال دائماً، كانت الصحراء الغريبة المصرية مكاناً مغبراً ملوثاً بالذباب، وليست بقعة سارة للقتال في حرب، مثلما اكتشف الجنود بدءاً من جيوش الفراعنة إلى جيوش الفيلدمارشال برنارد مونتغمري.

وعلى الأقل فإن الحرب التي قاتلنا فيها قبل قليل في تمرين النجم الساطع 99 كانت نسبياً حرباً بلا دماء. كانت هناك الإصابات المعتادة في أثناء حوادث التدريب، والتي كانت محتومة عندما يكون 70.000 جندي من أحد عشر بلداً قد اختلطوا بها طوال شهرين تقريباً من التدريب القتالي الواقعي. ولكننا جميعنا عشنا وكتب لنا البقاء بعد التدريب.

كان التاريخ 1 تشرين الثاني/نوفمبر، 1999، وكان هذا النجم الساطع الثاني لي منذ توليت قيادة الجيش الثالث في شهر أيار/ مايو 1997. الجيش الثالث - قوات الجيش، والقيادة المركزية - كان هو عنصر الجيش للقيادة المركزية الأمريكية. وكنت قبل قليل قد حصلت على كلمة مفادها أن الجنرال البحري أنتوني سي. زيني القائد العام للقيادة المركزية كان سيحضر وزير الدفاع بل كوهين ليرى مركز قيادتنا الجديد القابل للانتشار بالتقانة العالية.

لقد كنا في النهاية الجنوبية من مدينة مبارك العسكرية. وكانت القاعدة قد سميت باسم الرئيس المصري حسني مبارك، وهو واحد من عدة قادة عرب كنت قد قابلتهم عندما سافرت في منطقة مسؤولية القيادة، وهي منطقة امتدت من قرن إفريقيا عبر الشرق الأوسط إلى باكستان. وطوال العام الماضي، كانت منطقة مسؤوليتنا قد امتدت لتشمل كل الجمهوريات التي تنتهي أسماؤها بمقطع ستان - أي جمهوريات آسيا الوسطى التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي سابقاً - ولكنني لم أكن بعد قد حصلت على الفرصة لأزور عواصم طريفة مثل طشقند في أوزبكستان، أو دوشانبيه التي انتصبت بين حدائق المغول القديمة تحت سلسلة جبال طاجيكستان الثلجية.

وما كنت على الأرجح لأنال تلك الفرصة. سنواتي الثلاث في نوبة عملي قائدا لقوات الجيش في القيادة المركزية كانت ستنتهي في ربيع العام 2000. وجنرالات النجوم الثلاث لا يرقون إلى أربع نجوم ما لم يكونوا معينين لمنصب يحتاج إلى تلك الرتبة. ولم يكن هناك العديد من الوظائف لجنرالات أربع نجوم في القوات

العسكرية الأمريكية. وقبل أن أغادر متجهاً إلى مصر، عقدت أنا وكاثي مناقشة أخرى من مناقشاتنا "يجب علينا أن نتنظر ونرى..." كان هناك، طبعاً، أقدار أسوأ من التقاعد برتبة فريق ثان. وكاثي وأنا قد قمنا مسبقاً بعمل مخططات أولية لبيتنا الذي خططنا للتقاعد فيه في تكساس.

وإذا كان لي من قرار واحد بالنسبة إلى تقاعدي، فهو أن أقضي مع حفيدتي وقتاً أطول مما كنت قادراً على أن أقضيه مع جاكى. لقد ولدت حفيدتنا الأولى في حزيران/يونيو 1997، عندما كانت جاكى وباتريك مقيمين في فورت نوكس، في كينتاكى. وسميت آن كاثرين ماتلوك على اسم جدتها الفرحة المحبة. وكان علي أن أنتظر حتى شباط/فبراير 2000 لأحصل على شرف مماثل، عندما سيولد صامويل توماس ماتلوك في فورت ليفينورث، في كنساس.

ولكنني سأفتقد كوني جندياً. في كوريا، كنت قد عملت مع مجموعة رائعة من الضباط وضباط الصف للمساعدة في بناء فرقة المشاة الثانية لتكون واحدة من أحدث وأقدر الوحدات العسكرية الأمريكية. وكنت محظوظاً أن أخدم تحت قيادة الفريق بل كرواتش، رئيسي القديم من أيام فوجنا المدرع الخيالة الثاني في ألمانيا، وكل من الجنرال غاري لوك والجنرال جون تيليلي اللذين خدمت معهما في أثناء عملية درع الصحراء/عاصفة الصحراء. وفي الحياة المدنية توقعت أن أتابع مساراً وظيفياً ثانياً في عالم الشركات، وكنت آمل أن يكون زملائي في المستقبل موهوبين مثل أولئك الذين سأتركهم خلفي في الجيش.

وسوف أفتقد القيادة أيضاً، بمسؤولياتها وبالفرص غير المسبوقة لقيادة الجند وإيجاد حلول جديدة لمشكلات صعبة. وعندما لبست تلك البزة النظيفة ذلك اليوم من تشرين الثاني/نوفمبر في مصر، نظرت عبر ممر الحصباء إلى القاطرات القصيرة الخضراء بلا نوافذ لمركز القيادة المحوسب للجيش والقيادة المركزية. منذ أيامي في قوة المهام لمناورات لوزيانا، عملت بجد على إدماج تقانة عصر المعلومات في الأعمال التي أسندت إلي. لقد بنينا مقر قيادة وفق أحدث ما أنتجه العلم في

الجيش الثالث في أتلانتا. ولكن حروب الجيش والقيادة المركزية، إن جاءت، ستكون على بعد آلاف الأميال عن جورجيا، ولذلك عملت مع الخبراء العسكريين والمدنيين لبناء مقر قيادة متنقل يمتلك تقريباً عرض نطاق ترددات وقدرة على الترابط البيني بنفس القدر الذي تمتلكه المنشأة الدائمة في فورت ماك فيرسون. هذه القاطرات، ومولداتها الكهربائية الخاصة بها ومعدات المساندة، درجت بسهولة إلى داخل طائرات النقل في القوات الجوية من نوع الطائرات سي-141 وسي-5 ودرجت بسهولة إلى خارجها، ويمكن أن تكون جاهزة وتعمل عملياتياً في ثماني ساعات بعد الهبوط في أي مكان في منطقة المسؤولية.

وكنا نحتاج إلى تلك المرونة في الرد، لأن منطقة مسؤولية القيادة المركزية كانت تتحول إلى منطقة خطرة بشكل متزايد. وكان صدام حسين قد أمضى التسعينيات من 1990 في تحدي كل من شروط وقف إطلاق النار وسلسلة من قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة.

ومع مجيء خريف العام 1998، كان العراقيون قد رموا الكثير من العقوبات في طريق فرق البحث التي أرسلتها الأمم المتحدة للبحث عن أسلحة الدمار الشامل إلى الدرجة التي جعلت رئيس المفتشين ريتشارد بتلر يسحب مفتشيه إلى خارج العراق. وفي 15 من شهر كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام، أدان تقرير مجلس الأمن في الأمم المتحدة حكومة صدام وقواته العسكرية لرفضهم السماح للمفتشين بفحص سجلات أسلحة الدمار الشامل ومواقع الإنتاج المشكوك فيها. في اليوم التالي، خول الرئيس كلينتون وزير الدفاع بل كوهن أن يهاجم النظام العراقي. وقامت صواريخ الهجوم الأرضي توماهوك والطائرات الحربية الأمريكية والبريطانية بقصف المواقع العراقية المشكوك في وجود أسلحة الدمار الشامل فيها ومنشآت الاستخبارات لعدة أيام في أثناء عملية ثعلب الصحراء. ومع ذلك، فمنذ أن انتهت تلك العملية، قام العراقيون بمهاجمة طائرات التحالف التي تقوم بالدوريات في المناطق الشمالية والجنوبية لحظر الطيران على أساس يومي في الواقع. كان الموقف في العراق ينذر بالاشتعال.

وكان هناك مسرح خطر آخر مساو في خطورته للعراق بدأ ينتشر عبر المنطقة. فالمليونير السعودي المنشق أسامة بن لادن، وجماعته الإرهابية الإسلامية المتطرفة من القاعدة، كانت تشن سلسلة من الهجمات الجريئة المتزايدة ضد المصالح الأمريكية والغربية. لقد كان هناك دليل على أن القاعدة كانت نشيطة في تاريخ مبكر يعود إلى العام 1993 في عملية نسف مركز التجارة العالمي في نيويورك، ثم إن ذلك الهجوم تلتته مؤامرة طموحة، ولكنها أحبطت، لخطف وتدمير طائرات ركاب تطير بين أمريكا والشرق الأقصى. بعد ذلك، في 7 آب/أغسطس 1998، نفذت قاعدة بن لادن أجراً اقتحام لها حتى تاريخه، وذلك بالهجوم في وقت واحد على سفارتي الولايات المتحدة في دار السلام في تنزانيا، وفي نيروبي في كينيا، باستخدام قنابل ضخمة في شاحنة قتلت أكثر من مائتين من النفوس البريئة.

ورد الرئيس كلينتون بإطلاق صورايخ الهجوم الأرضي توماهوك ضد مختبر أسلحة كيماوية مشكوك فيه للقاعدة في السودان، وضد العديد من معسكرات تدريب الإرهابيين في أفغانستان، التي كانت قد صارت الملاذ الرئيسي لابن لادن وقاعدة للعمليات. وتحولت أفغانستان، التي كانت تحت سيطرة المتطرفين الإسلاميين الطالبان، وهم بلا رافة، وينتمون تقريباً إلى القرون الوسطى، تحولت إلى ??دولة راعية للإرهاب.?? وبحلول العام 1999، كنت مقتنعاً بدون أدنى شك بأن الولايات المتحدة ستكون قبل أن يمر وقت طويل في حالة قتال مع الإرهاب على الأرض في مكان ما من منطقة مسؤولية القيادة المركزية.

وفي هذه اللحظة، على كل حال، كانت مسؤوليتي الشخصية هي إعطاء رئيسي والوزير كوهين جولة في مقر قيادة الجيش والقيادة المركزية القابل للانتشار.

كان بل كوهين يتمتع بسمعة اكتسبها بشكل جيد لأنه وزير دفاع مفكر، وحاسم. وعندما أشعل الأركان الشاشات البلازمية وأداروا الأشرطة لتمرين النجم الساطع، وهي تبين كيف أن تحالفاً صديقاً هو "الأرض الخضراء" قد هزم المعتدين من

"الأرض البرتقالية"، وجه كوهين كل الأسئلة الصحيحة. كان يبدو متأثراً على نحو مخصوص بأننا استطعنا تجميع النظام باستخدام المعدات المتوافرة تجارياً. وكان ضباطنا الأركان ورقبائنا يقفون على رؤوس أصابعهم جاهزين. وأجابوا عن كل الأسئلة التي طرحها الوزير، وغادرتنا والابتسامة تعلو وجهه. وكنت فخوراً بمركز القيادة، وبالشباب والشابات الذين جعلوا المركز على هذا القدر من النجاح.

في صباح اليوم التالي، توقف عندي طوني زيني لزيارة قصيرة وذلك عندما كنا نحزم معدتنا للطيران عائدين إلى أتلانتا. لقد كان طوني في معنويات عالية، وهو أمر أرجعته إلى نجاح النجم الساطع. ولم أستطع إلا أن أبادله الابتسامة بابتسامة. لقد كان واحداً من أكثر الضباط الكبار صداقة لي من الذين قابلتهم طوال سنواتي الخمس والثلاثين في الحياة العسكرية، وهو أيضاً واحد من أبرعهم وأذكاهم. وهو شخص قوي العضلات كأنها محبس المطافئ وفي أواسط الخمسينيات من عمره، وقد نشأ طوني في فيلادلفيا ذات الياقات الزرقاء عند والديه المهاجرين الإيطاليين، وكان وجهه يبدو مثل وجه إمبراطور روماني قاس، مكسور الأنف على قطعة نقد معدنية من القرن الثالث الميلادي.

توافق وجودنا، هو وأنا، في فييتنام في العام 1967، ولكن في النهايتين المتقابلتين من تلك البلاد. ففي الوقت الذي كنت فيه ملازماً في المدفعية في دلتا الميكونغ، كان طوني يخدم في الفيلق الأول بصفة مستشار مشاة للبحرية الفيتنامية الجنوبية. لقد تعلم أن يتحدث اللغة بطلاقة، وأن يأكل طعامهم، بما فيه الجرو المطبوخ بالبخار في أوراق الموز، وقد غمس نفسه في مركب فييتنام والحضارة القديمة. وتقدم في الرتبة، فطوني قد احتفظ بحبه للاستطلاع وقربه من الثقافات الأجنبية، وتلك الصفة خدمته خدمة جيدة بوصفه قائداً عاماً للقيادة المركزية.

وقال لي عرضاً: "إلى أين أنت ذاهب تالياً، يا توم؟"

وقلت: "عيد الميلاد مع الجند. ربما في السعودية، والكويت، والبحرين وقطر."

وقال لي عرضاً: "عندما ترجع إلى الولايات المتحدة، اتصل بي." ثم أضاف بعد

ذلك. "لقد قدمت توصية للوزير كوهين بأن تكون أنت خلفي في القيادة المركزية عندما أتقاعد في الصيف القادم."

حدقت في طوني ولكنني لم أكن أملك صوتاً لأجيبه. القائد العام للقيادة المركزية. يا إلهي- ربما كان ذلك هو أكثر المناصب حيوية في القوات العسكرية الأمريكية.

"لا ضمانات، يا توم، ولكنني أعتقد أن كوهين يحب الفكرة. وسنعرف أكثر بعد مطلع العام."

تذكرت، وأنا أقف هناك، المقدم آل لاماس، الذي أقنعني بالبقاء في الجيش في العام 1969، والعقيد جون هوداشيك، الذي رفض أن يحيلني إلى المحكمة العسكرية بسبب دفعي ذلك العسكري المتمرد في ألمانيا، وفوق كل ذلك تذكرت إيرك أنتيلا الذي أعطاني الإيمان بمهنة السلاح في ذلك الصباح الحار من أيار/مايو بالقرب من قناة كنه دوا. بسبب هؤلاء كنت ما أزال جندياً. والآن، شكراً لهم جميعاً، وشكراً لطوني زيني، وبدون شك شكراً للقدر، فأنا قد أتولى مسؤولية هي من أعلى المسؤوليات التي تقدمها العسكرية.

طوني وأنا تصافحنا. ومشى مبتعداً وأنا أُرَبْتُ على أرقام رقم هاتف بيتنا إلى هاتفي على القمر إريديوم. "كاثي، عزيزتي... كيف تحبين أن تنتقلي إلى تامبا؟"





نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

القسم الثالث

القائد العام

كل شيء بسيط في الحرب
ولكن أبسط الأشياء صعب.
وهذه الصعوبات تتراكم وتنتج
احتكاكاً، وهو احتكاك لا يستطيع إنسان
لم يكن قد شهد الحرب أن يتخيله بالضبط.

- كارل فون كلاوزفيتز، في الحرب



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل السادس

جوار خطر

الولايات المتحدة، القيادة المركزية، ماكديل

قاعدة القوات الجوية، تامبا، فلوريدا

24 نيسان/إبريل، 2000

رفعت بصري عن الرسائل السرية الموجودة على حاسوبي الصغير عندما قامت السائقة الشابة في القوات الجوية بإنزال نافذتها وأدخلت رمز دخول اليوم إلى حاسوب الترميز الصغير. وانزلت البوابة السوداء الفولاذية منفتحة، واستدرنا إلى دائرة الموقف المظلل بالنخيل في المقر العام للقيادة المركزية.

في الأعوام الثلاثة التي أمضيتها في قيادة قوات الجيش القيادة المركزية، سبق لي أن جئت إلى القيادة المركزية في تامبا عدة مرات. ولكن صباح هذا الاثنين كان مختلفاً. فقد طلب مني طوني زيني الحضور لمناقشة مستقبل القيادة. ففي غضون أقل من شهر، سوف أمر من خلال جلسة استماع مجلس الشيوخ لتثبيتتي لأكون خلفه بصفتي القائد العام للقيادة المركزية الأمريكية.

كان يمكن للمبنى، من الخارج، أن يكون بالضبط شركة أخرى عالية التقنية من شركات حزام الشمس^(*). ولكن الشرطيين العسكريين الموجودين عند نقطة تفتيش البهو كانا يلبسان بزة عسكرية مموهة باللون المصفرّ والبني ويتسلحان بمسدسات عيار 9 ملم بيريتا، وكان واضحاً أنهما ليسا مدنيين.

وعندما تبادلنا التحيات كانت كلمتهم "صباح الخير، يا سيدي." بلهجة صديقة. وعلى الرغم من أنهما عرفاني بوضوح، فإن الحارسين دققا حسب ما

(*) الولايات الجنوبية والجنوبية الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية.

يقضيه واجبهما، في بطاقة هويتي الخاصة من وزارة الدفاع قبل إدخال اسمي في الحاسوب. هذا المقر العام يحتوي على بعض أكثر الاستخبارات وتقانة الاتصالات حساسية في العالم.

ورافقني واحد من مساعدي طوني، وهو ملازم بحرية شاب، إلى الدور الثاني. وعند مروري على الدرج على أعضاء في الخدمات الأربع كلها، كان هذا تذكيراً واضحاً لي بما ينتظرني في المستقبل: فلأول مرة، سأقود قيادة موحدة.

والقيادة المركزية، مثلها مثل القيادات الإقليمية المقاتلة الأخرى، كانت من إنشاء قانون غولدووتر-نيكولس لإعادة تنظيم وزارة الدفاع في العام 1986. ولا تمتلك هذه القيادات قوات دائمة خاصة بها، ولكنها بدلاً من ذلك، اعتمدت على قيادة الجيش، والقوات الجوية، والأسطول، والبحرية، وقيادة القوات الخاصة لتتجز مهامها. وكان يقال في الدوائر العسكرية إن شاغلي منصب القائد العام كانوا يرتدون "بدلات قرمزية" وهم بذلك يخلطون الألوان التقليدية لفيالق الجيش، والأسطول، والقوات الجوية، ومشاة البحرية.

وتفحصت لوحة، على لوح خشب قاس، كانت قد وضعت في الممر منذ زيارتي الأخيرة، وهي تصف منطقة المسؤولية التي تتولاها القيادة المركزية. وشملت هذه القيادة منطقة هي أكثر مناطق هذا الكوكب تنوعاً، وأكثرها حيوية من الناحية الإستراتيجية وأكثرها عدم استقرار.

القيادة المركزية مسؤولة عن صون الاستقرار في منطقة امتدت عبر خمس وعشرين دولة، من كينيا والقرن الإفريقي، وشمالاً عبر صحارى السودان، ومصر، والأردن، ومستمرة عبر البحر الأحمر والخليج العربي، وعبر العراق، وإيران، وأفغانستان والبلدان السابقة في الاتحاد السوفيتي التي تنتهي أسماؤها بمقطع ستان، إلى حدود الصين تماماً. وشغلت باكستان الجانب الأيمن البعيد للمنطقة.

والمنطقة وطن لأكثر من خمسمائة مليون نسمة في ثماني عشرة مجموعة

عرقية وعدد لا حصر له من القبائل. وهم يمارسون كل أديان العالم الكبرى، ويتحدثون سبع لغات رئيسية ومئات من اللهجات. وثلاثا هؤلاء السكان تقريباً تحت سن الخامسة والعشرين، وعاطلون عن العمل، وقلقون. وعلماء السكان يسمونها "مجموعة جيل شباب مهمة" والمخططون العسكريون والدبلوماسيون يسمونها اضطراباً كبيراً جداً على الدرب. هؤلاء الشباب المتبرمون، كما نعرف، يمثلون ملايين من المجندين المحتملين للإرهاب.

واقتصادات المنطقة هي على مثل ذلك التنوع تماماً، وهي تحمل إمكانية سرعة التقلب تماماً. فعالم البدو الرحل الأريتيريين في العصر الحجري في القرن الإفريقي ليس بعيداً عن إمارات الخليج الغنية بالزيت، وفي آسيا الوسطى، تواجه في صدام مباشر البقايا الراكدة من بيرستروكا جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق مع رأسمالية القرن الحادي والعشرين المفرطة السخونة.

منطقة مسؤولية القيادة المركزية شملت الأرض التاريخية وملتقيات الطرق البرية والبحرية التي تربط أوروبا، وآسيا، وإفريقيا، وهي تمتلك 65 بالمائة من احتياطات العالم المخزونة من البترول.

عندما وصلت، كان طوني على الهاتف مع الوزير كوهين، وانتظرت في قبة صغيرة خارج مكتب القائد العام كان الموظفون يسمونها غرفة الغنائم. وكانت الغرفة مؤثثة بسجاد آسيا الوسطى، وطاولة عربية مرصعة بالعاج والنحاس، ومحافظ للأسلحة بواجهات زجاجية. ومعظم المسدسات، وبنادق الاقتحام، والرشاشات كانت غنائم من ميدان المعركة، والعديد منها من عملية عاصفة الصحراء، ولكن عدداً منها كان أسلحة احتفالية أهديت من زعماء أجاناب إلى طوني أو إلى أسلافه. هنا هو المكان الذي كان القائد العام يرحب فيه بكبار الضيوف الأجاناب الزائرين: لم يكن مكتباً عسكرياً إسبارطياً، والحجرة ترسل رسالة مؤداها أن القائد يقدر ثقافة المنطقة التي يقوم بالمسؤولية عنها.

بعد أن انتهى طوني من مكالمته، رحب بي بحرارة، ممسكاً يدي بأصابعه القوية

وضاحكاً ضحكة عريضة. وفي مكتبه الواسع، أشار إلى خريطة لمنطقة المسؤولية موضوعة على حامل بالقرب من الأريكة. "بيتك الجديد، يا تومي، جوار خطر."

وعندما كان طوني يتكلم، تفرست في الخريطة وفكرت بالتاريخ المحفور داخل حدودها. لقد اشتعلت الحرب في السودان وفي القرن الإفريقي طوال عقود من الزمن. وفي العام 1993، وفي الأزقة المغبرة من مقديشو، في الصومال، تكبدت القوات العسكرية الأمريكية هزيمة من أخطر هزائمها، وكانت اندحاراً ترك إدارة كلينتون تخاف من صوت نيران المدفع بشأن تكليف القوات الأرضية الأمريكية في المنطقة، وأعطتها سمعة نمر من ورق.

وعلى الرغم من أن إسرائيل وليبيا كانتا من الناحية الفنية في منطقة "اهتمامنا" لا "مسؤوليتنا" فلم يكن بالإمكان تجاهلهما. فليبيا كانت أمة منبوذة غنية بالنزاع تحت سيطرة معمر القذافي المتقلب المزاج.

والنزاع الإسرائيلي العربي الذي لا ينتهي سيطر على الواقع الجغرافي الإستراتيجي للشرق الأوسط. وإسرائيل، وهي أقوى قوة عسكرية في المنطقة، دافعت عن حقها في الوجود بترسانة رادعة من الأسلحة النووية. ولكنها حتى الآن لم تكن قادرة على إقامة السلام مع الفلسطينيين.

وببقى العراق، طبعاً، نقطة الاشتعال. فبعد عشر سنوات تقريباً من وقف إطلاق النار في حرب الخليج، كان إطلاق النار يوجه إلى الملاحين الجويين للتحالف يومياً وهم يفرضون مناطق حظر للطيران.

وإيران صارت لغزاً. فطوال أكثر من عقدين من الزمن كانت البلاد حكومة دينية، حكمها رجال الدين الشيعة الذين كانوا يحتقرون الغرب عموماً وأمريكا على وجه الخصوص. وبدأ يظهر الآن قادة جدد يظهرون بمظهر المعتدلين، ولكن إيران كانت ما تزال ترعى الإرهاب وتطور أسلحة الدمار الشامل.

وكانت باكستان قد ملكت من قبل أسلحة نووية، وكانت ممسوكة في موقف متوتر، مع جاريتها النووية، الهند.

وكانت أفغانستان، في الأرض الداخلية، تحت حكم الطالبان، هي القلعة الرئيسية للقاعدة.

وقال طوني مماًزحاً وهو ينهي إيجازه: "هل أنت متأكد من أنك تريد هذا العمل، يا توم؟"

"لقد كنت أطمح للأعمال الصعبة طوال حياتي، يا سيدي"

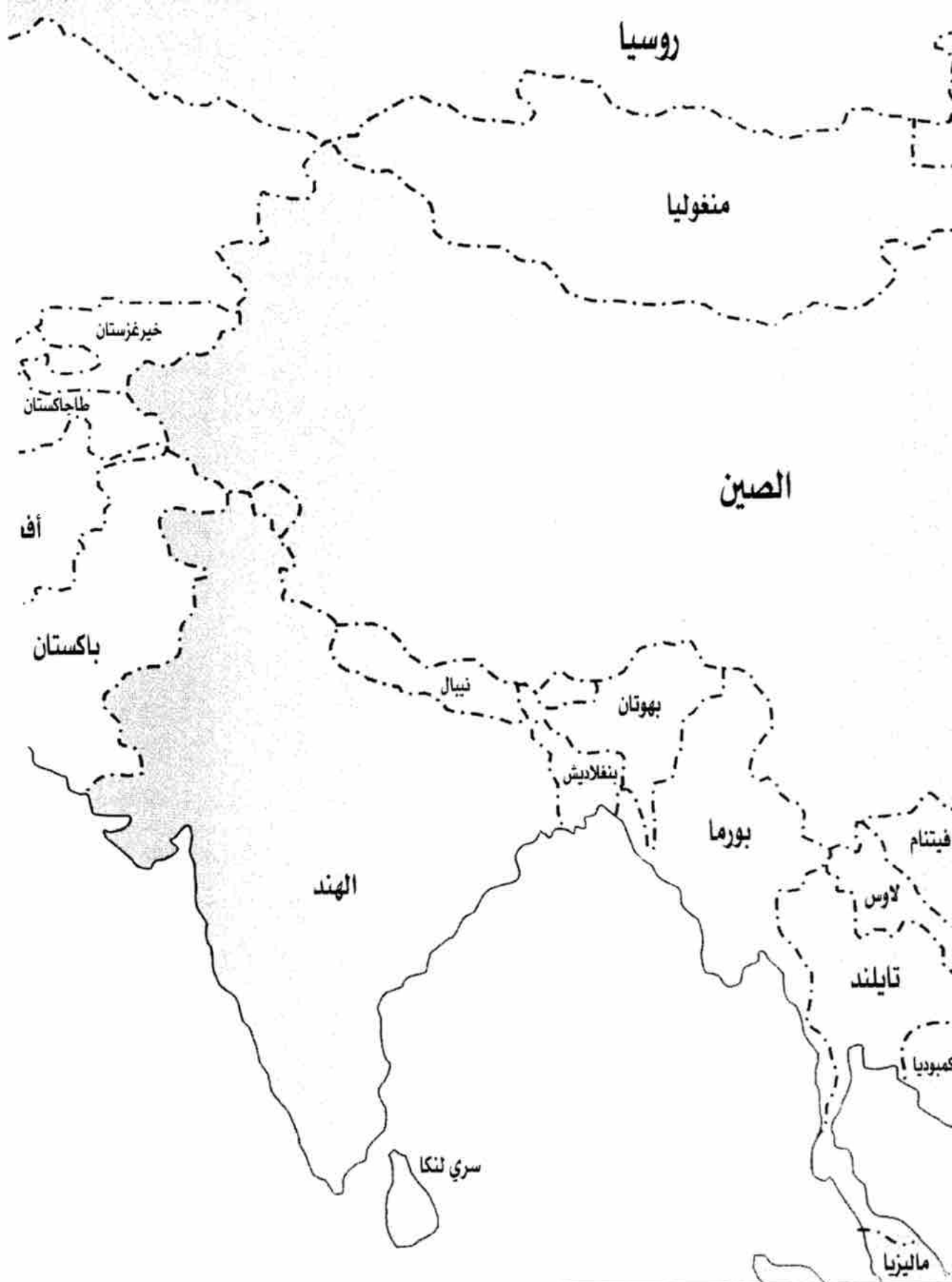
وفي هذا الاجتماع تعلمت مدى الأهمية الحيوية التي ستكون عليها سياسة "الالتزام" لمنصبي الجديد. أي، إقامة علاقة ثقة شخصية مع قادة الحكومات والقادة العسكريين في المنطقة.

وقال طوني: "يا توم، سوف تشرب شاياً كثيراً في هذا العمل، وفودكا في بلاد الستانات. ولكنها تستحق حرقه القلب عندما تستطيع أن ترفع الهاتف في تامبا وتتحدث مباشرة مع رئيس وزراء أو ولي عهد، مع رفع الكلفة، ومخاطبته بالاسم الأول."

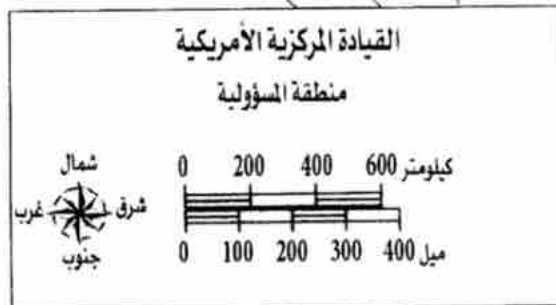
سبق للمؤلفة دانا بريست أن وصفت طوني زيني مرة بأنه الحاكم الإقليمي المصري، سليل السياسي المحارب الذي حكم الأراضي النائية من الإمبراطورية الرومانية. ذلك كان هو الرجل الذي راقبته في ذلك اليوم في مكتبه: سياسي كان يعرف ويفهم قادة هذه المنطقة المشحونة شحناً عالياً وكان راغباً في المشاركة ببصائره عنهم. وبعض هؤلاء القادة، كنت قد قابلتهم مثل الرئيس المصري حسني مبارك وملك الأردن عبد الله. ولكني لم أكن أمتلك معرفة مباشرة بقيادة آسيا الوسطى. ولذلك فقد أنصت باهتمام، طوال ساعة تقريباً، وطوني يشرح عن النخبة السياسية والعسكرية للجمهوريات التي تخلى عنها الاتحاد السوفيتي السابق.

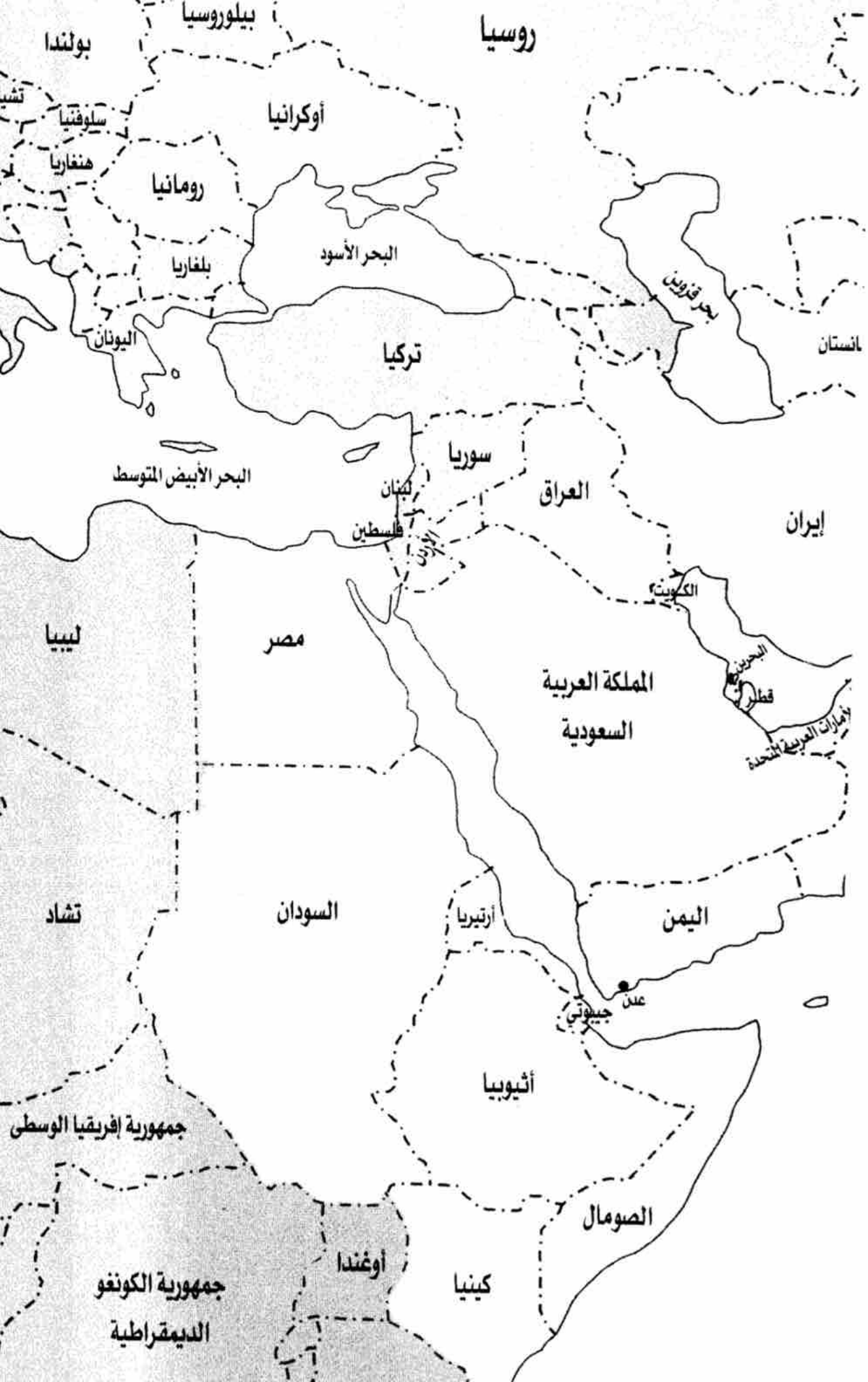
ثم إنه بطريقته المباشرة، طرح رأيه بأخطر التهديدات والتحديات التي يمكن أن نواجهها في السنوات العديدة القادمة.

"هذه المنطقة لن تكون مستقرة إلى أن يكون هناك تسوية سلام عادل بين إسرائيل والفلسطينيين."



المحيط الـ





وفكرت، في أن احتمالات حدوث ذلك في أثناء نوبتي هي احتمالات غير جيدة، ما لم تمتد الولايات المتحدة الأمريكية يداً جادة في التوسط والاتفاق.

واستدار طوني بانتباهه إلى العراق. ناقشنا ارتكاب صدام لمجزرة بحق ما يصل تقديره إلى 300.000 شيعي، وناقشنا حالة مناطق حظر الطيران ونجاح النظام كذلك في تهريب الزيت. وكان رأي طوني أن سياستنا الوطنية في الاحتواء كانت تعمل. ووافقت بأننا كنا "نحتوي" كل ما يحدث داخل العراق ونبقيه في حدوده. وكانت المشكلة في ذهني هي أننا لم نكن نعرف ما يكفي حول ماذا كان ذلك الذي يحدث.

وبعد أن أجبر خبراء الأسلحة التابعون للأمم المتحدة على أن يخرجوا في العام 1998، أعلنوا أن صدام ربما يكون قد أنتج وخبأ آلاف اللترات من سموم الجمرة الخبيثة وجرثومة الباثشولايين، وهو أكثر من كاف ليقتل كل إنسان على الأرض.

وألقيت نظرة على أفغانستان. "وماذا عن أفغانستان؟"

"دولة مخففة. والطالبان أرجعوا الساعة إلى عصور الظلام. وأفغانستان هي ملاذ القاعدة. ونحن دمرنا بعض معسكرات التدريب في العام 1998، ولكن المجندين الإرهابيين من كل أنحاء العالم الإسلامي مستمرون بالتجمع."

"وماذا هناك غير ذلك يجب أن أبدأ بالقلق عليه؟"

ومد طوني يديه في تسليم وتخل: "أتمنى لو كنت أستطيع أن أخبرك. سوف تكتشف أن صورة استخباراتنا عن المنطقة محزنة تماماً. وهذا سبب آخر يجعل الالتزام مهماً جداً. نحن بحاجة هناك إلى الأصدقاء الذين يستطيعون أن يعطونا الصورة الحقيقية. أود أن أعرف الكثير عما يحدث في العراق، ومع أسامة بن لادن والقاعدة. ولكن الحقيقة هي أنني لا أعرف."

وهز طوني رأسه وقال: "يا توم، لا تفاجأ إذا لم تكن القيادة المركزية التي تقودها أنت هي نفسها القيادة التي قادتنا أنا. إن اليقين الوحيد في هذه المنطقة هو اللايقين."

وعندما كنت أركب راجعاً إلى المطار لألحق بطائرتي متوجهاً إلى أتلانتا، كانت كلمات طوني ذات وزن ثقيل على ذهني. اليقين الوحيد في هذه المنطقة هو اللايقين.

كانت الأسابيع التالية لاستلامي القيادة في 7 تموز/يوليو 2000 أسابيع متسمة، كما هو متوقع، بالانشغال الشديد. ومن منظور مكتب القائد المجهز تجهيزاً جيداً أثبتت القيادة المركزية أنها كانت منظمة أوسع وأكثر تعقيداً مما كنت قد تخيلت. ومفكرة قيادتي عن تلك الفترة تستثير مطلق الحجم وتعقيد المادة التي كان علي أن أعالجها.

في إحدى الأمسيات عندما كنت أجلس على مكتبي أفكر، وأنظم ملفات، وأنظر في الأوراق القديمة، عثرت على قصيدة كنت قد كتبتها عندما كنت نقيباً شاباً طموحاً في العام 1971:

امنحني:

● فرصة واحدة لأؤثر في مجرى التاريخ.

● وبعد النظر لتوقع هذه الفرصة.

● والاختناق لأخطط لها.

● والجلد لتنفيذ الخطة.

● وشدة الفعل لجعلها تعمل.

● والمرونة لتغييرها عندما لا تعمل.

● والولاء لنفسي للاعتراف بالهزيمة.

● والتواضع الذي يستحقه النصر.

● والإصرار على الاستمرار.

وتبسمت وأنا أقرأ الكلمات، التي كتبتها قبل ثلاثين عاماً تقريباً، وتذكرت

الكلمة المأثورة "كن حذراً فيما تتمناه". فالزمن سيروي.

بعد تغيير القيادة مباشرة في تموز/ يوليو، اجتمعت مع قادة عناصر القيادة المركزية: الفريق بي. تي ميكولاشيك، خلفي في الجيش، القيادة المركزية، ونائب الأدميرال، اللواء البحري، ويللي مور، قائد عنصر الأسطول، وقائد عنصر القوات الجوية الفريق تشوك وولد، والفريق فرانك ليبوتي، من سلاح مشاة البحرية الأمريكية، قائد قوات البحرية في القيادة المركزية، وقائد العمليات الخاصة العميد البحري بيرت كاللاند، وهو خبير عمليات زمر القتال البرمائية (بر، ماء، جو، عصابات). كانوا قادة قديرين، وكلهم رجال خدمت معهم طوال السنين. فيما مضى كنا أنداداً، والآن سأكون رئيسهم. "الرجل العجوز." ولكنهم سيبقون أصدقاء.

في ذلك اليوم، عملنا في جدول أعمال طويل اشتمل على الإرهاب، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، ومناطق حظر الطيران في العراق، وحظر الملاحة البحرية، والتفاصيل الشائكة عن ترتيبات المعاهدة مع معظم الدول في منطقة المسؤولية.

وأحدى المشكلات التي ورثتها كانت تتعلق بقوات أسطولنا. كانت وزارة الدفاع تدرس تخفيض وجود مجموعة المعركة مع حاملة الطائرات كامل الوقت في شمال الخليج العربي إلى وجودها لجزء من الوقت، ثلاثة أرباع فقط من أي عام مفترض. ولكن ويللي مور وأنا اتفقنا أننا يجب أن نمتلك حاملة تحت يدنا لاثني عشر شهراً من كل عام لمساندة عملية الرقابة الجنوبية في منطقة حظر الطيران الجنوبية في العراق. وكنت أعرف أنه كان يجب علي أن أقوم ببعض الاتصالات لحشد التأييد في زيارتي التالية إلى وزارة الدفاع.

في وقت مبكر في 10 تموز/ يوليو، قابلت مدير العمليات، في القوة الجوية اللواء ساندي ساند ستروم، ومدير استخباراتي، العميد الجنرال في الجيش كيث أليكساندر، لمناقشة خيارات الرد على الاستفزازات العراقية. في الوقت الحالي، إذا أطلق العراقيون النار على طائرة تحالف، فإن الرد النموذجي هو مهاجمة قطع نظام الدفاع الجوي المتورطة بالحادثة، أي، المدفع، أو قاذف الصاروخ أو جهاز الإرسال أو الرادار.

وقلت لساندي وكيث: "يبدو لي أننا سوف نحصل على قدرة أفعل إذا رددنا على نحو غير تماثلي". وبكلمات أخرى، فبدلاً من مهاجمة مدفع واحد عيار 23 ملم زد اس يو أو قاذف صواريخ اس ايه-6، فربما سيكون لصالحنا أن ندمر بنى القيادة والسيطرة في ذلك القطاع.

وقلت: "إن هذا قد يجعل العراقيين يفكرون مرتين قبل إطلاق النار على أبنائنا في غرف القيادة".

ومن ذلك اليوم فصاعداً، ضغطت القيادة المركزية على بيروقراطية واشنطن من أجل المزيد من "الحركة" (تعبيرنا العسكري المعبر عن استخدام النيران القاتلة)، والمزيد من الردود غير القابلة للتنبؤ بها، والمزيد من الردود غير التماثلية على الخروقات العراقية في مناطق حظر الطيران. وقد ساند بل كوهين وهوغ شيلتون هذا المدخل الجديد، وبدأ طيارونا يخفضون قدرات الدفاع الجوي العراقي. ولكننا كنا نعرف أننا لا نستطيع أن نستأصل التهديد لملاحينا الجويين إلا بعد أن ندمر القيادة والسيطرة ومنشآت الرادار المتجمعة في بغداد وحولها. وكان طوني زيني قد فعل ذلك في عملية ثعلب الصحراء في 1998، ولكن هذه الدفاعات أعيد بناؤها مباشرة تقريباً. وكلما زدت تفكيراً فيها، صرت أكثر اقتناعاً بأننا كنا نحتاج إلى سياسة جديدة بشأن العراق.

لم يكن يهم أي الحزبين ربح انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر، فقد كنت أعرف أنه ستكون هناك قيادة جديدة في البيت الأبيض في كانون الثاني/يناير. وهكذا، فابتداءً من 17 تموز/يوليو، طلبت من أركاني أن يعدوا سياسة خيارات في العراق، وهي التي سنقدمها إلى الإدارة الجديدة مباشرة بعد الانتخابات.

واقترحت وقلت: "يبدو لي أننا نمتلك ثلاثة مسارات ممكنة للعمل". الأول هو أن نحافظ على الوضع القائم بالاستمرار في مراقبتنا لمناطق حظر الطيران، وحظرنا للملاحة لمنع تهريب الزيت في تحدٍ لعقوبات الأمم المتحدة. وقلت: "ذلك هو احتواؤكم الأساسي".

والخيار الثاني سيكون هو التصعيد العمدي، باستخدام الردود غير التماثلية وغير القابلة للتنبؤ بها على الاستفزازات العراقية في مناطق حظر الطيران أو في البحر.

وطبعاً، هناك خيار ثالث، وهو ببساطة: أن ننسحب ونترك الموقف يتطور مع العراق.

وأخبرت أركانبي: "نحن لا نعرف إلى أي اتجاه قد تأخذنا الإدارة الجديدة. ولكن الآن هو الوقت المناسب للبدء في تطوير الخيارات."

بعد أربعة أيام قابلت العقيد في الجيش غاري هاريل، الذي كنت قد وظفته لتوي مديراً للأمن المشترك في القيادة المركزية بعدما تمت التوصية به من صديقي لمدة طويلة الجنرال بيت شوميكر، الذي كان في ذلك الحين قائداً لقيادة العمليات الخاصة الأمريكية. وكان غاري على قائمة الترفيع لرتبة عميد جنرال ولديه سنوات من الخبرة في وحدات المهام الخاصة النخبوية من قيادة العمليات الخاصة المشتركة. ومنذ أواسط التسعينيات من 1990، عندما بدأ التهديد الإرهابي ضد الأمريكيين يتصاعد في المنطقة، كان المنصب مشغولاً بضابط من الشرطة العسكرية. ولكنني أردت ضابط عمليات خاصة في العمل، رجل مهام خاصة، شخصاً كان يفكر مثل تفكير رام ويستطيع أن يدقق في قابلية منشأتنا للتعرض للخطر من منظور شخص سيئ ينظر إلينا من الخارج.

لقد ثبت أن ذلك كان قراراً جيداً. كان غاري يفهم الإرهاب من الوقت الذي كان فيه قائداً لوحدات المهام الخاصة في مقديشو في الصومال، في العام 1993 في أثناء القتال الوحشي الذي اشتهر في كتاب وفلم الصقر الأسود يسقط. وقام بتطوير إجراءات الحماية للقيادة المرؤوسين وللجند في القيادة المركزية، وهي الإجراءات التي أنقذت طوال السنوات الثلاث التالية حياة مئات من الأمريكيين.

وفي كل يوم تقريباً تكلمت بالهاتف مع قادة أجناب مدنيين وعسكريين في المنطقة، وكنت أستوعب اهتماماتهم وأتعلم الطريقة التي يفكرون بها.

وبعد ذلك، في 22 تموز/يوليو، بدأت أول رحلة لي بصفتي القائد العام للقيادة المركزية إلى منطقة المسؤولية.

كان ضوء الشمس المنسكب على ارتفاع عال إلى الداخل على متن الطائرة قاسياً وأنا أمشي إلى الأمام عبر هيكل النفاثة في وميض ضوء الفلوريسنت الخافت. طائرة القائد العام للقيادة المركزية وهي طائرة القيادة والسيطرة نوع ئي سي-135 من القوات الجوية، هي عبارة عن طائرة بوينغ معدلة نموذج 1962، وليس لها نوافذ في الحجرة المقصورة على الطيار والملاحين.

ومن خلال نوافذ حجرة الطيار، ألقيت نظرة على يوم الأحد الساطع فوق بحر إيجه. وحييت الملاحين بنكتة كنت ما زلت أستغلها منذ أيامي في قوات الجيش، القيادة المركزية (الجيش الثالث): 'هل نحن هناك حتى الآن؟'

وقال الطيار، وهو الرائد بل نيكولس من القوات الجوية، وهو ينظر إلى ساعة رقمية على لوحة أجهزة القياس: "صباح، أيها الجنرال، في الواقع، بعد الظهر. الساعة 1405 في اليونان. وكان هناك حوالي ساعة من الليل خلفنا فوق الأطلسي."

لقد أقلعنا من قاعدة القوات الجوية في ماكديل في حوالي الساعة 800 مساءً، في مساء يوم سبت رطب غائم. وبعد إحدى عشرة ساعة و 98 درجة من خط الطول لاحقاً، كنا نطير عبر أصيل ساطع متوسطي صيفي نحو خليج سودا على ساحل جزيرة كريت. وستكون هذه هي وقفتنا للاستراحة في رحلة سوف تحملنا إلى كينيا، والخليج العربي، ومصر. وإلى لقاء تمهيدي هادئ مع رئيس كينيا دانيال أراب موي، ستتبعه محادثات أكثر جوهرية مع القادة الكينيين والعرب المدنيين والعسكريين. وكما ألمح طوني زيني كنت على وشك زيادة مدخلاتي من الشاي.

انزلقت إلى الكرسي الفارغ المقابل للملاح وانحنيت إلى الأمام لأتفرس في منظر الرادار. ومن موقع مشرف للنظر من نقطة على ارتفاع 33000 قدم، كانت جزر اليونان جمهرة من نقط مضيئة خضراء على شاشة الرادار إلى الشمال والشرق، مع الحجم الطويل لكريت إلى الجنوب.

وأنزل الطيار المساعد الجناح الأيمن ليدور. ومن خلال واقية الريح رأيت جبال الجزيرة ترتفع بنية وضخمة إلى الأمام منا. وجاءت كاثي إلى منطقة الملاحين ووضعت يدها على كتفي. وأشرت للأسفل إلى بحر إيجه الأزرق من بين المحركات البارزة.

وقلت، وأنا أفكر بالأوديسا: "بحرك الأساسي الغامق كالخمر".

وقالت بوجه لا تعابير فيه: "أنت رجل بيرة، يا توم".

وتبسمت وضغطت على يدها. إن منصبي الجديد قد أثبت حتى الآن أنه أيام طويلة من الاستعراض، وليال قصيرة، ولكن إحدى الميزات له هي أنني كنت قادراً على إحضار كاثي معي في هذه الرحلات الرسمية. لقد كان مهماً أن يراها نظرائي بوصفها امرأة أمريكية متزنة، ومتعلمة، وشريكتي، ونموذجاً للأخريات في منطقة كانت النساء فيها يبرزن ببطء إلى الحياة العامة. وكان مهماً لي أن تكون إلى جانبي. وجاء لمعان خفيف خافت فوق الأفق الجنوبي، كانت تلك مصر ومدخل السويس إلى البحر الأحمر. وانعطفنا ثانية، مبتدئين اقترابنا نحو القاعدة البحرية الأمريكية في خليج سودا. وفرقت أذناي، لقد كان هيكل ضغط الطائرة قد جمع ساعات كثيرة منذ العام 1962. حتى أنني ربما أكون قد سمعت هذه النفثة نفسها في بنه بهوك في العام 1967، وهي تهدر من دون أن تكون مرئية فوق غيوم المونسون. ولكن هذه الطائرة منذ ذلك الوقت قد جددت باستمرار، فالأجنحة نفسها، وهيكل الجسم نفسه، ولكن عليها جناح اتصالات بعرض نطاق ترددات ينافس ذلك الذي يوجد على الطائرة الأولى في القوات الجوية. وسمحت لي وصلات اتصال الطائرة المأمونة عبر الأقمار أن أتحدث أو أتبادل البريد الإلكتروني المصنف مع مقري في تامبا، ومع وزارة الدفاع ومع البيت الأبيض، وعملياً مع كل قيادة أمريكية وعسكرية حليفة في العالم. وتستطيع الطائرة أيضاً أن تعيد التزود بالوقود في أثناء الطيران، وهو ما يسمح لنا أن نطير لعدة أيام إذا دعت الضرورة، شريطة أن ينال الملاحون النوم الكافي في الأسرة الموجودة على متنها.

ونظرت إلى الخارج من خلال النوافذ اليسرى من حجرة الطيار نحو الجزر السمراء المصفرة إلى الشمال. كانت إحداها ديلوس، وهي مكان ميلاد أبوللو، المركز الثقافي والتجاري للعالم لعدة قرون. كان الكوكب أصغر بكثير آنئذ، وكانت الآفاق مسدودة.

في تموز/يوليو 2000، طبعاً، تلاشى حد الآفاق. وفي مقصورة الاستخبارات من هذه الطائرة، كنت أستطيع أن أدرس صور الأقمار لأي بقعة تقريباً من الأرض أو البحر على هذا الكوكب. وكان ذلك مورداً لم يكن يستطيع أن يتخيله الحاكم الروماني القنصل سكوروس^(*)، الذي قطع الشرق الأوسط جيئة وذهاباً في القرن الأول الميلادي، على الرغم من كل الفيالق التي كان يقودها.

ومثل سكوروس، سوف أدعى، في الشهور القادمة، لممارسة أصول سياسة الدولة والدبلوماسية. في أثناء الليالي في ميادين التدريب في ألمانيا، وفي الخيام في الصحراء السعودية، وفي سلسلة من غرف الفنادق وسكن الضباط العزاب، كنت قد قرأت عن الحرب والسلام على حد سواء: الحكمة المتراكمة من صن تزو، وكلاوزفيتز، وبرترام (هكذا) رسل^(**)، وغاندي. وكان ما وصل بالتدريج واضحاً في ذهني هو أن الحرب اشتملت على متسلسلة متصلة من التفاعل بين الأمم، والفئات، والقبائل. وعبر عرض هذه المتسلسلة المتصلة أدركت خمس حالات متميزة من التفاعل. وهي حالات صنفتها بخمس كلمات تبدأ كلها بحرف سي^(***) باللغة الإنجليزية.

(*) سكوروس: (١٦٢ - ٨٨) قائد روماني لعب دوراً سياسياً وعسكرياً وكان مسؤولاً عن تموين روما بالحبوب.

(**) والأرجح أنه يقصد برتراند راسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠) نال جائزة نوبل للأدب في ١٩٥٠. وهو فيلسوف، ورياضي، وناقد اجتماعي بريطاني أثر في تطور المنطق الرمزي والفلسفة التحليلية في القرن العشرين.

(***) Cooperation, Collaboration, Co-existence, Crisi, Conflict

في إحدى نهايتي الطيف هناك النزاع، وفيه تشتبك في القتال القوات المسلحة لأمتين أو أكثر. وذلك النزاع يكون عادة قد بدأ من أزمة، وهي توتر غاضب بين الخصوم. التعايش هو خطوة واحدة أبعد، أي، أن البلاد أو القبائل التي يمكن أن تكون متعادلة تغلبت على عداواتها لتعيش جنباً إلى جنب. والعمل المشترك هو مسعى تعمل فيه الأطراف نحو منفعتها المشتركة. وأخيراً هناك التعاون الفعال وهو أكثر العلاقات إيجابية: الحدود المفتوحة، والمشاريع التجارية والحكومية المشتركة، والانسجام والتقدم.

لقد ولدت في العام 1945، قرب نهاية أكبر نزاع في التاريخ. وفي فترة حياتي، انتقل المتقاتلون الكبار في الحرب العالمية الثانية من نهاية المتسلسلة المتصلة إلى النهاية الأخرى: من النزاع إلى التعاون.

في كل نقطة، في المنطقة الواقعة تحت ذلك الأفق المتوسطي الضبابي، كانت الأمم ممسوكة في نزاع أو في أزمة، أو على أفضل الأحوال، في التعايش. وستكون مسؤوليتي هي أن أساعد على تحريك هذه الدول إلى أبعد حد ممكن على المتسلسلة المتصلة لهذه المفاهيم الخمسة: من النزاع إلى الأزمة إلى التعايش وإلى ما وراء ذلك. لم أكن أعرف إمكانياتي للنجاح. ولكنني كنت مصمماً على أن أحاول.

قلت: "إنه لشرف أن أقابلك يا صاحب السمو". وكانت مصافحة ولي العهد الأمير عبد الله (*) شديدة، وعيناه لامعتان. قال لي: "كيف حالك يا جنرال؟ وكيف حال الرئيس؟". فأجبت به بتقدير واحترام بأن كل شيء على ما يرام.

خارج النوافذ العالية للقصر الصيفي السعودي في جدة، كان البحر الأحمر يلمع في الحرارة. ولكن غرفة الاستقبال كانت باردة بفضل فتحات تكييف الهواء المخفية خلف سواتر جميلة. ومن إبريق أنيق، ملأ الخادم فتجاناً، من بورسلان، كان موضوعاً أمامي بالشاي.

(*) خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز.

كان هذا هو اليوم العاشر من رحلتي، وهذا هو البلد الرابع الذي زرتة. في كينيا تعلمت عن التاريخ الحديث لتلك الأمة من الجفاف والكارثة الطبيعية، وفي الكويت، والبحرين، وقطر، استعرضت مع القادة العرب التهديد المتنامي للإرهاب، والتهديدات التي تفرضها العراق وإيران، وحالة التعاون العسكري.

وعبد الله، مضيبي اللطيف في المملكة العربية السعودية، كان هو حاكم الأمر الواقع للأمة. فهو نائب لأخيه، الملك فهد نظرا لظروفه الصحية... وكان سياسياً حسن الاطلاع وازن بعناية بين مكانتين، بوصفه حاميا لأقدس بقاع الإسلام، وراعياً لاحتياطي هو أكبر احتياطيات الزيت في العالم. العالم الصناعي يحتاج إلى الزيت السعودي، والمملكة العربية السعودية تحتاج إلى الدرع العسكري. وعلاقة دول الخليج مع الولايات المتحدة قامت صداقتها على الاحترام المتبادل...

وجود القوات العسكرية الأمريكية في المملكة العربية السعودية، كان، على الرغم من أنه قسم صغير من قوتها في أثناء حرب الخليج، مثيراً دائماً لانزعاج السكان السعوديين... وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1995، فجر إرهابيون سيارة مفخخة في بعض المساكن الخاصة بالمستشارين، في الرياض، وقتلوا خمسة أمريكيين. وبعد سبعة شهور، في حزيران/يونيو 1996، دمرت شاحنة ضخمة مفخخة الثكنة الأمريكية في أبراج الخبر في الظهران. وقتل تسعة عشر من أفراد الخدمة وجرح المئات. وفي أعقاب هذه الحوادث، زادت المقاومة السعودية الرسمية لوجودنا العسكري.

لقد كنا ندخل في مرحلة سماها قادتني المرؤوسون "الموت بألف جرح". وعلى الرغم من أن معظم الأفراد العسكريين الأمريكيين في المملكة العربية السعودية كانوا قد نقلوا إلى مواقع نائية مثل قاعدة الأمير سلطان الجوية في الصحراء الخالية جنوب الرياض، بقي الاحتكاك الثقافي طريقة حياة في المملكة العربية السعودية. وكانت إحدى القضايا تتعلق بإصرار السعوديين على أن تلبس الجنديات الأمريكيات العباءة، وهي ثوب أسود بطول المرأة الكامل، عندما يكنّ خارج القاعدة. ولم أكن سعيداً

بهذا الأمر. إن فكرة أن تكون المرأة في الصباح مستعدة للمخاطرة بحياتها في مهمة قتال ضد الدفاعات الجوية العراقية في مناطق حظر الطيران، ثم يكون عليها بعد العصر أن تلف نفسها في عباءة إذا ظهرت في مكان عام، هي فكرة بدت لي بوصفها واحداً من آلاف الجروح، جروح صغيرة ولكنها جروح ذات معنى بالنسبة إلى الاحترام بين أمتينا.

وكان هناك المزيد من المشكلات الصعبة في علاقتنا. فالكثير من السعوديين نظروا إلى أمريكا بوصفها راعية إسرائيل والحليف غير المنطقي، وهي تستحق اللوم على قدم المساواة في قمعها للفلسطينيين (...).

على أية حال وبعد أن تبادلنا التحيات الرسمية، تحدث ولي العهد عما في ذهنه عن تضيق إسرائيل لقبضتها على القدس، وهو ما اعتبره تهديداً لوصول المسلمين إلى المسجد الأقصى، ثالث أقدس البقاع في الإسلام.

وأضاف: "الأخبار عن أن أمريكا قد تفتح أخيراً سفارتها في القدس هي أخبار مقلقة، فهذا سيكون اعترافاً رسمياً بالاحتلال الإسرائيلي الكامل للمدينة المقدسة."

لقد سبق لي أن تلقيت إيجازاً عن هذا الموضوع، ولكنني كنت ما أزال جديداً في الدبلوماسية، ولم أعتد بعد على التحدث بالمواربة وقلت: "سيدي، إن موقف الولايات المتحدة هو أن تساند السلام بين إسرائيل والفلسطينيين. والرئيس يعمل بجد ليرى المفاوضات وقد استؤنفت."

وقال عبد الله: "كان يمكن أن يكون لأمريكا العديد من الأصدقاء في العالم الإسلامي. ولكن إسرائيل تقسمنا. وما لم يكن هناك سلام، فإن الإرهاب سينتشر حول العالم."

وقلت: "يا صاحب السمو، الإرهاب ينتشر مثل السرطان. ونستطيع كلنا أن نعمل بجد أكبر لإيقافه. أمريكا، والمملكة العربية السعودية..."

ومد يديه بالقبول، ثم تبسم: "نرجو الله أن يعطينا العقل والمنطق. وأنا متأكد أننا سنعمل جنباً إلى جنب لإيقاف انتشار الإرهاب."

"سيدي، لك مني التزامي بأن أكون صديقك وشريكك." وكسرت قواعد البروتوكول، ومددت يدي، على طريقة ميدلاند.

وصافحني ولي العهد الأمير عبد الله. "سمعنا عنك الكثير، يا جنرال."

"آمل أن يكون بعضه صحيحاً."

"كثير منه جيد." ووقف. كان اللقاء ينتهي. "ولدينا آمال كبيرة."

وفي تلك الليلة على متن الطائرة، استرجعت في تفكيري أعمال المفضلة في الحياة العسكرية: قيادة لواء، وقيادة فرقة، وقيادة جيش ميداني. عمل جندي صريح واضح. كان عالمي قد بدأ يصير أكثر تعقيداً بكثير.

رطوبة صيف واشنطن لم تكن تبدو سيئة بعد حمام البخار في الخليج العربي والبحر الأحمر. أمضيت قسماً من صباح الخميس 10 آب/أغسطس في وزارة الخارجية أقدم إجازاً عن رحلتي لوزارة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت. إنها مستمعة جيدة، وسألت أسئلة عميقة الفكر، وأسئلة سابرة، على الرغم من أنها كانت تعرف أنها في أشهرها النهائية في فترة توليها وزارتها، مهما تكن النتائج التي قد تأتي بها الانتخابات الرئاسية.

في وزارة الدفاع، زرت رؤساء الخدمات، آملاً في أن أبنى أساساً للثقة والمساندة المتبادلة. وكان طوني زيني قد حذرني من أن رؤساء الأركان في الجيش والقوات الجوية، ورئيس عمليات الأسطول، وقائد سلاح مشاة البحرية كانوا غالباً مرتابين، وحاسدين قليلاً بلا شك، للقائد العام الإقليمي. و"القادة المقاتلون." معظم جنرالات النجوم الأربع، رتبة فريق أول، كانوا يودون أن يقودوا قوات في زمن الحرب، ولكن قانون غولدووتر-نيكولس أبعد رؤساء الخدمات إلى دور المساندة والمشورة. الخدمات تقدم الجند، والمواد، والسفن والطائرات، وهم "يُزودون بالموارد" ليقوموا بواجباتهم بموجب القانون العاشر من النظام الأمريكي.

وبكلمات أخرى، القادة المقاتلون الإقليميون يعتمدون على "مجتمع القانون العاشر" (*)، أي، فروع الخدمات المسلحة المنفصلة، من أجل الحصول على الجند، والأسلحة، وجميع اللوازم التقليدية "الرصاص والفاصولياء" (**) اللازمة للعمليات العسكرية. ورؤساء الخدمات بموجب القانون العاشر يمكن أن يكونوا معاكسين غير مرنين للفاصولياء.

ولكن القادة العامين هم الذين كانوا يقاتلون في الحروب. وسلسلة قيادتي كانت تسير مباشرة إلى وزير الدفاع والرئيس. كنت أعرف ذلك، ورؤساء الخدمات كانوا يعرفونه.

لقد أمضيت خمسة وثلاثين عاماً وأنا أحاول أن أتجاوز وألتف حول مشكلة الرعاية الضيقة التي تبديها الخدمة، والآن، وبصفتي قائداً عاماً، رأيت كيف أثر ذلك النوع من التفكير الضيق حتى على المستويات العليا من التخطيط العسكري. وعندما بدأت أعمل في تقدير احتياجات القوة اللازمة للقيادة المركزية، صار واضحاً لي أن كل واحدة من الخدمات كانت تركز على كسب الحرب - وحدها. كانت الخدمات تُموَّل بوصفها كيانات مستقلة، وليس لديها أدنى ميل حقيقي لتقاتل معاً بوصفها جزءاً من فريق مشترك. وفي أثناء مدة خدمتي في كوريا، عملنا بجد على "الاشتراك معاً" ولكن عملياتنا كانت بعيدة جداً عن أن تكون كاملة. وإذا كنا نريدها أن تكون صحيحة في القيادة المركزية، فقد كنت محتاجاً إلى أن أمضي وقتاً طويلاً مع الأركان المشتركة ومع رؤساء الخدمات. كنا نحتاج إلى التدريب معاً، وأن نفكر معاً، لنخطط معاً.

في وقتي القصير في هذه القيادة، كنت أعرف من قبل أن علاقات أمريكا مع الأمم الواقعة في المنطقة كانت علاقات هامة بشكل حيوي. فنحن نحتاج إلى

(*) هو القانون الذي يحدد الملاكات والقوة النهائية لكل خدمة وصنف من القوات المسلحة.

(**) تعني الأسلحة، والذخائر، والتجهيزات، والإمدادات العسكرية، والمواد.

الأصدقاء والحلفاء في كل مكان نقوم فيه بعمليات عسكرية، وخصوصاً في نطاق منطقة المسؤولية التي تتولاها القيادة المركزية. كان يجب علينا أن نبني الثقة والتصديق، وهو نوع التصديق الذي لا يمكن أن يستمر إلا من خلال الدبلوماسية الشخصية وبمساعدتنا لهذه البلدان على أن تحل مشكلاتها المزمنة.

إن طائرات القوات الجوية من نوع سي-17 التي تنقل جواً مستشفيات ميدانية، وخياماً، وبطاطين، وطعاماً إلى بلد دمرته هزة أرضية تستطيع أن تكسب من القلوب والعقول أكثر من ألف ساعة من إذاعات الدعاية. وكان أحد التحديات التي تواجهني هو إقناع رؤساء الخدمات أن هذا العمل كان مهماً.

وعندما كنت أمشي في الحلقة ئي(*) من وزارة الدفاع، توقفت وكتبت ملاحظة لأخبر أركانني متى رجعت إلى تامبا. "يحتاج القائمون على الخدمات إلى التفكير في علاقتهم الحقيقية بالعالم الذي نعيش فيه وإلى أي مدى يمتّون له."

المجاعة والجفاف في شرق إفريقيا، والإيدز الوبائي المتفشي في تلك القارة السيئة الحظ، والاقتصادات الراكدة عبر الكثير من دول منطقة مسؤوليتنا، إضافة إلى التدهور البيئي المنتشر عبر المنطقة، كلها مشكلات خطيرة، وكل واحدة من هذه المشكلات كانت تهديداً خطيراً محتملاً للأمن القومي لأمريكا يساوي في خطورته القوات العسكرية المعادية. سوف يحتاج رؤساء الخدمات إلى أن يبدؤوا بالتفكير وفق هذه الخطوط غير التقليدية.

ولكن كان يجب علي أيضاً أن أحافظ على الرؤساء سعداء، لأنهم زودوا قيادتي بالجند، وبالطائرات وبالسفن. والخدمات الإفرادية كانت مسؤولة عن تمويل القيادات المقاتلة. القوات الجوية قدمت تمويل القيادة المركزية، والجيش مول القيادة الأوروبية، بينما سيطر الأسطول على ميزانية قيادة المحيط الهادئ. وفكرت أن هذه طريقة صعبة لإدارة العمل. ولكنني كنت قائداً عاماً جديداً. وعما قريب سأكون حكيماً في معرفة طرق عالم القانون العاشر.

(*) وزارة الدفاع الأمريكية مقسومة إلى الحلقات ايه، بي، سي، دي، ئي.

كانت زيارتي لرئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الجنرال في الجيش هوغ شيلتون سارة ومُعلمة. لقد سبق أن عرفت هوغ منذ أيامي في الجيش، القيادة المركزية في الجيش الثالث، عندما كان هو القائد العام لقيادة القوات الخاصة الأمريكية. هوغ طويل وخشن مع رنة من كارولينا في صوته، وكان قد خدم نوبتي قتال في فيتنام، في القبعات الخضراء وبصفة قائد سرية مظللين، قبل أن يترفع باستمرار في مسؤوليات القيادة. وكان بعض الناس يخطئ أحياناً فيظن أن طريقة هوغ الجنوبية اللطيفة في الكلام هي نقص في الفكر. غلطة كبيرة. هوغ شيلتون فهم القوات العسكرية وفهم سياسات الطريق الدائري على النحو الصحيح مثل أي واحد من داخل واشنطن، من عسكريين أو مدنيين.

عندما ذكرت لهوغ أن أركاني قد خططوا لزيارة مكتبية بعد العصر مع ريتشارد كلارك، المتخصص في مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي، تجهم وجهه.

وقال: "يا توم، إن الوزير كوهين يفضل أن ينسق القادة العامون اتصالاتهم مع كبار المسؤولين المدنيين من خلال مكتبه. وهذا يصدق بشكل خاص على ديك كلارك."

وأنصتُ. فواشنطن على مستوى القائد العام كانت أرضاً جديدة.

وأضاف هوغ: "إن كلارك قد أمضى في مجلس الأمن القومي مدة طويلة إلى درجة صار يظن معها أنه يمتلك موضوع مكافحة الإرهاب، وأنه يعرف عن الموضوع أكثر من أي شخص آخر في الحكومة. وهو يحب أن يتكلم، ويذكر الكثير من الأسماء، ويعجب بنفسه كثيراً. ولكنه في طرق عدة ليس عملياً جداً. كن حذراً في التعامل معه."

وشكرت هوغ على إظهار اليقظة.

كانت أمانة السر لدى كلارك قد أخبرت أركاني أنه سيراني في "مكتبه في البيض الأبيض". ولكن سائق وزارة الدفاع أخذني إلى مبنى المكتب التنفيذي القديم.

وهو منشأة منفصلة متصلة بالجنح الغربي. وفكرت، إنها نقطة صغيرة، وأنا أصعد الدرج المرمري إلى مكتب كلارك.

وقال: "الجنرال فرانكس" وهو يقف من خلف طاولته ليصافح يدي ويهزها. ثم انحنى للخلف ليغلق ملفاً كان على طاولته وهو ملف أسرار عليا/حساسة كانت أطرافه برتقالية.

وفكرت، إنه واع أمنياً. وهي صفة جيدة في اختصاصي مكافحة الإرهاب.

وتحدث كلارك بسرعة وبشدة، وكأنه كان يمتلك معلومات مستعجلة كانت حيوية لمهمتي. وذكرني بشعره السلبي الأشيب، المقصوص قصة قصيرة، وبعينيه السوداوين السابرتين، وبسلوكه الحاد، بممثل لعب دوراً حكومياً عالياً في معالجة أزمة خطيرة.

كان الموضوع هو القاعدة وطالبان. وبدأ كلارك بمراجعة الاستخبارات المتوافرة، التي كانت حديثة ولكنها كما يمكن التنبؤ لم تكن دقيقة. وصف نجاح ضربات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي في العام 1998 على أفغانستان، ولكنه لم يقل أي شيء عن الضربة ضد مصنع الأسلحة الكيماوية المشكوك فيه في السودان. وفكرت أن هذا، مثير للاهتمام. كان هناك ارتباك حول تلك الضربة، مع عدد من قصص الأخبار التي توحى بأنها كانت مبنية على استخبارات مغلوطة وأن المنشأة السودانية لم يكن لها علاقة مع الأسلحة الكيماوية. وتعجبت إن كان كلارك قد حسب أنها كانت نجاحاً أيضاً.

ثم ناقشنا بعد ذلك الإمارات العربية المتحدة، وهي اتحاد من سبع من دول الزيت الخليجية الصغيرة، الغنية غنى كبيراً والتي قدمت (هي والمملكة العربية السعودية وباكستان) اعترافاً دبلوماسياً وعوناً مالياً إلى طالبان.

وأخبرني كلارك عن علاقاته الشخصية الحميمة مع العائلة المالكة في أبوظبي. ووصف لي الاتصال المباشر بين الإمارات العربية المتحدة وبين طالبان،

وأخبرني أن قناة الاتصال هذه قد أثبتت أنها مساعدة جداً له في العمل في "مشكلة بن لادن".

وأنصتُ دون تعليق.

وسألت عن معلومات الاستخبارات التي تُروى عن القاعدة. وأخبرته: "يا ديك، بالنسبة إلى القيادة المركزية، فهي كي تبني خططاً عملياتية واقعية، فإننا نحتاج إلى معلومات استخبارات قابلة للاستعمال: فصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي سوف تضرب الإحداثيات الدقيقة التي ترمج في أنظمة الدلالة في تلك الصواريخ. ولكن التقارير التي تتحدث عن الكهف الذي يظن أن بن لادن كان قد نام فيه الأسبوع الماضي هي معلومات لا تنتج هدفاً. في نهاية المطاف نحن نكتشف اتجاهها، ولكننا كي نضربه فنحن نحتاج إلى معلومات في الزمن الحقيقي."

وابتسم كلارك ابتسامة العارف، ووصف "التقانات" التي كان يعتقد أنها ستساعد في مواجهة المشكلة.

وفهمت في الحال أنه كان يشير إلى المركبة الجوية من دون طيار من نوع بريديتر (المفترس)، فهي طائرة استطلاع بدون طيار تستطيع أن تطير ببطء، فوق الأرض المعادية لعدة ساعات وهي تبث شريط صور (فيديو) عالية النوعية، في الزمن الحقيقي، ليلاً ونهاراً. وكانت وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية تعمل على تسليح البريديتر بنظام صواريخ هيلفير. وهي أداة تحمل إمكانية قوية، كما أعتقد، حتى عندما ذكرت نفسي بحكمة مأثورة قديمة: "من الخطر أن تخطئ بين الرغبة والقدرة." وتعجبت إن كان ديك كلارك قد سمع أصلاً بهذا التعبير.

كنت مهتماً بتدمير تهديد القاعدة. ولكن زيارتي إلى كلارك لم تقلني لتضعني ولو أقرب قليلاً إلى الهدف. وغادرت مكتبه مؤملاً أن تشديدي على الحلول العملية للمشكلات الحقيقية سوف يستحثه على التوجه نحو بعض فرص التهديد الحقيقي. ولكنني ارتببت في أن يكون ديك في تحديده للمشكلة أفضل منه في إيجاد حل قابل للعمل.

في صباح يوم خميس في أواخر أيلول/ سبتمبر 2000، جمعت كبار مديري أركان القيادة المركزية في مكنتي في تامبا لاستعراض الموقف العملياتي للقيادة نحو القاعدة.

القائد المساعد لي، وهو الفريق البحري مايكل "رايفل" دولونغ، جلس في كرسي بمسندين إلى يميني، بينما شغل العميد في الجيش كيث أليكساندر واللواء في القوات الجوية ساندي ساند ستروم الأريكة الجلدية. وعدد من الاختصاصين من منشأة الاستخبارات الحساسة المقسمة إلى حجيرات متجاوزة نصبوا كراسي تُطوى. وازدحمت طاولة القهوة بمجموعة من الأكواب القديمة المبقعة وفناجين معزولة من عصر الفضاء.

وسألت كيث أليكساندر: "هل سبق لنا مطلقاً أن امتلكن أي معلومات استخبارات بشرية تساوي... فأراً من أفغانستان؟"

وقال لي: "سيدي، أتمنى لو كنت أستطيع أن أخبرك بأننا امتلكن. ولكن الحقيقة هي أننا لم نمتلك. لقد كان لدينا تقارير دورية من أناس محليين كانوا يعملون أحياناً مع الوكالة، ولكن لم نحصل أبداً على أي شيء قريب من الزمن الحقيقي."

ووقف توم إيكرت مستشاري الخاص ليتحدث، وهو ضابط كبير في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ويشكل صلة الوصل المباشر لي مع مدير الوكالة جورج تينت. "معظم الأشخاص المفيدون للوكالة في أفغانستان هم من تحالف الشمال." ثم ذهب إلى خريطة تعبوية. "في الأعلى هنا، بالقرب من حدود أوزبكستان، وطاجيكستان. والقاعدة أقوى سيطرة في الجنوب، مع وجود الطالبان في منطقة الباشتون حول قندهار وجلال آباد."

وتابع كيث أليكساندر: "وكما تعرف، يا سيدي، فإن تحالف الشمال هو زواج بفوهة البندقية أكثر مما هو تحالف. إنهم في الحقيقة جماعة من مليشيات قبائل

البانجشيريين، والطاجيك، والأوزبك التي يحافظ عليها الجنرال أحمد شاه مسعود من خلال موهبته القيادية."

وأوماً أركانى برؤوسهم معبرين عن موافقتهم.

وأضاف توم إيكرت "لدى وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية بعض الناس معهم يقدمون لهم بعض الأرصدة المالية والمواد، وفي المقابل، يقاتل الحلف ضد الطالبان. ولكن كيث على حق. فالمشكلة هي أن تأثيرنا موجود في الشمال. ونحن أقل تأثيراً ونفوذاً مع الباشتون في الجنوب. والعديد من قادتهم يقيمون في باكستان، وليس هناك معارضة متماسكة في أفغانستان الجنوبية. إننا متألمون من المعلومات الاستخباراتية البشرية هناك تماماً."

وقلت: "فهمت."

كان جمع المعلومات الاستخباراتية البشرية مشكلة منذ عمليات التطهير في خدماتنا الاستخباراتية بعد فيتنام. ففي أواخر السبعينيات من 1970. بدأت وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية ووكالة الأمن القومي بالتركيز على الاستخبارات "الفنية": على صور من الطائرات والأقمار، وعلى اعتراض الاتصالات الإليكترونية. نستطيع أن نقرأ لوحة رخصة السيارة من الفضاء، ولكننا لا نعرف شيئاً مفيداً عن الناس الذين هم في داخل السيارة. ونستطيع أن نتصت على مكالمات هاتف خليوي جوال في طهران، ولكننا لا نملك أي فكرة عما يتكلم.

ومنذ كنت مرشحاً في مدرسة الضباط المرشحين في فورت سيل، كنت قد أدركت أهمية التصويب الدقيق على الهدف. ومثل كل القيادات المقاتلة فإن القيادة المركزية كانت تمتلك خططاً للطوارئ. فالضربات الجوية باستخدام صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي وبالقاذفات التي يقودها طيارون، ضد أهداف القاعدة في أفغانستان كانت من بين خططنا. مشكلتنا كانت التصويب على الهدف- التصويب في الزمن الحقيقي.

مَشْغَل عمليات ساندي ساند ستروم كان قد رسم سلسلة من خيارات مجموعة أهداف القاعدة، استندت إلى الصور وعلى الاستخبارات الإليكترونية. وشملت هذه الأهداف معسكرات التدريب المعروفة أو المحتملة، وما أسمىناه متفائلين باسم منشآت "الضيوف"، وهي بعض البيوت والمكاتب التي اعتقد مجتمع الاستخبارات أن أسامة ومساعديه يقومون بالعمل فيها من حين إلى آخر. ومتابعة القاعدة من خلال اعتراض الاتصالات لم يبق سهلاً بعد الآن. في السابق كان أسامة بن لادن قد استخدم هاتف الأقمار لكل شيء، ابتداءً من نشر قواته في مواقعها إلى التحادث مع أمه في المملكة العربية السعودية. ولكن أسامة تخلى عن هذا الاستخدام بعد تسرب أخبار صحفية كشفت عن أن ضربات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي في آب/ أغسطس 1998 بعد تفجير السفارات في شرق إفريقيا، قد استهدفت آخر موقع معلوم لهاتفه. والقاعدة الآن كانت تستخدم مجموعة من أجهزة اتصال سوفيتية قديمة، وبعض الأجهزة ذات الموجة القصيرة الجانبية النطاق المفردة، ومجموعة من أجهزة بث لاسلكية من موتورولا على موجة المواطن، وبريد إلكتروني مرمز يسير عبر مقاهي الإنترنت في العالم الثالث دون اسم معروف، وتستخدم بلا شك المراسلين على الطريقة القديمة الذين يحملون الرسائل.

وبعد أن أخذت بالحسبان نوعية استخباراتنا، لم أكن مقتنعاً بأننا كنا نستطيع أبداً أن ندمر القاعدة باستخدام صواريخ كروز والضربات الجوية وحسب. ولكنني وجهت جماعة عمليات ساندي إلى أن يعملوا بشكل وثيق مع نائب الأدميرال، اللواء البحري، ويللي مور، وهو قائد عنصر الأسطول معنا، لتحسين أزمدة الرد لرماتنا على صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، لمجرد الاحتياط إذا ما حدث شيء.

إذا كان يتوجب علينا مطلقاً أن نشن هجوماً فعالاً ضد القاعدة، فقد كنت أعرف أننا سنحتاج إلى عمليات أرضية. سيكون علينا أن نذهب إلى الداخل، ونحصل على المعلومات الاستخبارية، ونتصرف بناءً عليها. ولكن أي غارة بقوات العمليات الخاصة يجب أن تكون قوية قوة كافية لتهزم حلقة قوات الأمن التي كانت

تحيط بأسامة بن لادن ومساعديه وهي قوات مسلحة تسليحاً كثيفاً، ومن الذين صلبتهم المعارك. وهذا النوع من العمليات سوف يتطلب وحدات مهام خاصة، والسماح بالطيران فوق بلاد أجنبية، وتصاريح للتمرchl، ومعلومات استخباراتية دقيقة دقة كافية لتقول لنا إلى أين "تصوب" عناصرنا الذين نعمل على إدخالهم. والأهم في مثل هذه العملية، هو أنها تحتاج إلى قرار جاد يرسم سياسات. وكنت أعتقد أننا نستطيع أن نعالج متطلبات التمرchl والطيران فوق بلاد أجنبية، أما الموافقة القومية على شن عملية قوات عمليات خاصة عالية المخاطر في داخل أفغانستان، وفي غياب معلومات استخبارات صلبة، قابلة للعمل بموجبها، فقد كانت غير ممكنة في عصر ما بعد مقديشو.

وعلى الرغم من هذه العوائق، سوف نعمل في هذه المشكلة. وكنت أعرف أن باكستان تقيم علاقات ممتازة مع طالبان، ولاسيما مديرية الاستخبارات بين الخدمات الباكستانية على وجه الخصوص. وستكون خطوتي القادمة هي أن أزور إسلام آباد وأجتمع مع الرئيس الباكستاني برويز مشرف. كانت قواته العسكرية بحاجة إلى المساعدة وكذلك نحن. ربما كنا نستطيع أن نعقد صفقة.

وأخبرت الأركان أننا كنا بحاجة إلى أن نبني علاقات أقوى مع مكتب الاستخبارات الفيدرالي، ومع وكالة الاستخبارات المركزية، ومع وزارة الخارجية. ومهما تكن مشكلات هذه الوكالات، فهي تضم أناساً جيدين، والكثير منهم يمتلكون فهماً واسعاً للمنطقة، ونحن بحاجة إلى الاستفادة من كل ذخري في ترسانة أمريكا.

وقلت والاجتماع ينفذ: "لا أعرف عنكم أيها الرجال، ولكنني أحتاج إلى كل العون الذي أستطيع أن أحصل عليه".

إن نقص المعلومات الاستخباراتية المفيدة، التي تصل في وقتها عن القاعدة، امتد إلى ما وراء معرفتنا المحدودة عن ملاذهم في أفغانستان. كنا نعرف أن القاعدة كانت تشكل لها خلايا، لا عبر كل العالم الإسلامي وحسب، بل في أوروبا وحتى في أمريكا الشمالية كذلك. وبناء ذلك النوع من البنية التحتية السرية يكلف مالاً. وكانت

الولايات المتحدة وحلفاؤها في أوروبا على حد سواء يمتلكون تشريعات سارية لتجميد الأصولية الإرهابية المعروفة ووقف تدفق التحويلات المصرفية بين المنظمات التي لها علاقة معروفة بالإرهاب. ولكن إذا أخذنا بالحسبان عجز المؤسسات المالية في العالم عن وقف تدفق دولارات المخدرات، فإني لم أكن مؤملاً بالكثير. وكان سيتوجب علينا أن نمارس الضغط على السعوديين بشكل أشد وعلى الدول الأخرى التي سمحت لملايين الدولارات المدفوعة في تبرعات خيرية أن تتحول بسهولة إلى حسابات القاعدة. ولكن هذه الدول لم تشعر بعد بالاستعجال نفسه الذي كنا نستشعره في الولايات المتحدة.

وأضفت مسألة تمويل الإرهاب إلى قائمة الموضوعات التي يجب أن أناقشها في أثناء تناول فنانين الشاي في منطقة المسؤولية، وهي قائمة كانت تنمو وتطول وأنا أستعد لأطير راجعاً إلى المنطقة في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 2000. وكانت تنفجر ثورة فلسطينية جديدة تعرف بالانتفاضة الثانية، وكانت حرفياً تنفجر في الضفة الغربية وفي قطاع غزة. وجنود قوات إسرائيل الدفاعية يقاتلون الفلسطينيين المسلحين ببنادق الكلاشينكوف في شوارع الأراضي المحتلة، والمدنيون الإسرائيليون يموتون في انفجارات القنابل الانتحارية.

في يوم الأربعاء، 11 تشرين الأول/ أكتوبر، اليوم السابق لمغادرتي، تحدثت مع جورج تينت، مدير وكالة الاستخبارات المركزية عبر هاتف أس تي يو-111، وهو هاتف أسرار عليا مرمز، وهو هاتف نقطة إلى نقطة وكان يخدم بوصفه صليتي الصوتية مع واشنطن. ونظراً إلى أن وقفتي الأولى في منطقة المسؤولية ستكون في باكستان، فكنت أود أن أناقشه في طريقة اقترابي من الرئيس مشرف.

وقلت: "يا جورج، إن باكستان، عملياً، سوف تستمر في "التكيف" مع طالبان إلى أن نكون قادرين على عرض بديل أفضل. إن مشرف واقع بين أمرين كلاهما صعب بين صحرة وبين مكان قاس : الهند وتعديل بريسسر".

في العام 1985، أقر مجلس الشيوخ تعديلاً لقانون المساعدة الأجنبية، الذي

قدمه عضو مجلس الشيوخ لاري بريسler، وحظر بموجبه معظم العون الاقتصادي والمساعدة العسكرية لباكستان ما لم يقدم رئيس الولايات المتحدة سنوياً شهادة بأن باكستان لم تكن تعمل في الأسلحة النووية ولم تكن تمتلك أسلحة نووية. وصار القانون مسألة فيها نظر في أيار/مايو 1998، عندما أعلنت باكستان أنها قد فجرت خمسة أسلحة نووية بصفة رادع لترسانة الهند النووية الكبرى.

وقلت لجورج: "مشرف جندي. ومثله معظم اللاعبين الأساسيين في حكومته. وعليك أن ترى عالمهم من منظور عسكري."

"أنا أنصت، يا توم."

"أفغانستان تقدم لباكستان ما نسميه (العمق الإستراتيجي). أي فضاء معركة لتناور، وتساند القوات المسلحة الباكستانية في حالة قيام حرب أخرى مع الهند." وقال جورج: "ذلك ما يقوله لي جماعتي أيضاً."

والمشكلة مع قبول باكستان لطالبان، طبعاً، هي أن هذا القبول كان يعني، امتداداً لحكومة مشرف ضمناً، القبول بالملاد الآمن الذي كانت أفغانستان تقدمه إلى القاعدة.

"وأنا أود، يا جورج، أن أجد طريقة عملية لمشرف ليمارس نفوذه على طالبان لتضغط على بن لادن."

"نحن نعمل على هذا بجد، يا توم."

"إذا كنت موافقاً، فسوف أنسق مع رئيس محطتكم في إسلام آباد."

"أنا موافق. سوف نعملها معاً."

وخططت أن أقترح رافعة للاستمالة في إسلام آباد، وهي أن الولايات المتحدة قد تساعد باكستان، ضمن حدود بريسler، على تحديث قواتها التقليدية، وبهذا تقلل اعتمادها على الأسلحة النووية.

ونظراً إلى أنني أويت إلى الفراش متأخراً في تلك الليلة، ملأت بطاقتي

اليومية عن التحديات والفرص للصباح التالي قبل الإخلاء إلى النوم. وعلى جانب التحديات، وكان ذلك تقريباً فكرة طارئة، كتبت: "تذكر حماية القوات."

رن هاتفي في الساعة 0514 صباحاً.

وقلت وأنا أتحرج خارجاً من السرير: "اللغة، إن الأخبار الجيدة لا تأتي أبداً قبل السادسة صباحاً."

وقال نائب الأدميرال، اللواء البحري، ويللي مور، وهو قائد عنصر الأسطول، وكان يتحدث من المنامة في البحرين: "جنرال، أخبار سيئة جداً. كان هناك انفجار على ظهر مدمرتنا، السفينة الأمريكية كول، في خليج عدن، في اليمن."

كانت عدن عند الحافة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، قرب فم البحر الأحمر. لقد كانت ميناء تجارياً منذ زمن إسكندر الكبير.

"وما هو الموقف الحالي، يا ويللي؟"

وروى: "الاتصال مع السفينة سيئ، ولكننا نعرف أنه كانت هناك خسائر في الأرواح. وفي الطريق إليهم فريق بحري للاستجابة السريعة من الخليج، والزمير الطبية تطير إليهم من البحرين ومن أوروبا." إن الانفجار الخطير على ظهر سفينة حربية سوف يتضمن ضحايا حروق، والزمن حيوي. وكان هناك أيضاً بعض الحلفاء في المنطقة الراغبين في المساعدة. وأخبرني مور: "القوات العسكرية الفرنسية وقوات البحرية قد استجابت من جيبوتي. وقد يكونون هناك من قبل." كان الفرنسيون يحتفظون بوحدة قوية من البحرية والقوات الأرضية والجوية في مستعمراتهم السابقة جيبوتي مقابل مضيق باب المندب من اليمن. وعلى الرغم من أن علاقاتنا مع حكومتهم لم تكن دائماً ودية، فقد كان العسكريون الفرنسيون مواطنين أشداء. وخصوصاً في حالة طارئة مثل هذه.

"أي فكرة عن السبب، يا ويللي؟"

"مبكر جداً لنعرف بالتأكيد. ونحن نظن بالإرهاب."

"شكراً. أرجو أن تبقيني على علم. سأعلم واشنطنون."

كانت الشمس تشرق عندما وصلت إلى مكنتي. وكان رايفل دولونغ قد سبقني إلى المكتب مع كدس رفيق من الرسائل حول كول.

وقلت وأنا أتسلم التقارير: "جهاز فريق عمل الأزمة، يا رايفل."

"لقد عملت ذلك من قبل، وهم يحزمون آخر اتصالاتهم الآن تماماً."

ما كنت لأطلب قائداً مساعداً أفضل من رايفل دولونغ، فهو قائد مقاتل في الحرب وواحد من أمهر المديرين الذين قابلتهم في البزة العسكرية. وهو مثل العديدين من جيلنا، فقد كبر من شاب إلى رجل في وحل فيتنام، وكنت أثق بحكمه، وأقدر مشورته.

أحد الإجازات عن الموقف الذي جمعه رايفل كان صفحة حقائق عن اليمن. وكان هذا البلد من أكبر البلدان إثارة للاهتمام في منطقة المسؤولية، وهي منطقة غير عادية بشكل قاطع. وفي الحقيقة كان اليمن أمة موحدة لحوالي عشر سنوات فقط، بعد أن برزت من واحد من أكثر النزاعات الأهلية شراً في فترة الحرب الباردة. فبعد أن كسب استقلاله من الحماية البريطانية، قام اليمن الشمالي وهو قبلي على نحو عال وإسلامي على نحو عنيف بشن حرب أهلية مع اليمن الجنوبي، وهو مستعمرة بريطانية سابقة مركزة حول ميناء عدن. مصر ناصر ساعدت الجنوب، والمحافظون العرب ضخوا السلاح والمتطوعين إلى الشمال. وفي أواسط الستينيات من 1960، كان الصراع متسماً بالمجازر وباستخدام الأسلحة الكيماوية، ولم تبرز اليمن جمهورية واحدة موحدة في الظاهر، وعاصمتها صنعاء في الشمال القبلي إلى أن جاء العام 1990. وعلى الرغم من أن الصراع لم ينته نهاية كاملة أبداً، كانت هناك علامات أمل: فقد بدأ اليمنيون حديثاً يوجهون العون الدولي إلى بعث عدن بوصفها ميناء تجارياً وقد بدأت الولايات المتحدة بإعادة تزويد السفن الحربية بالوقود في مرفأ عدن.

وأشار تقرير موجز عن الموقف أن كول كانت قد خططت للقيام بوقفة لإعادة التزود بالوقود في عدن في صباح 12 تشرين الأول/أكتوبر. ولم تكن هذه الوقفة زيارة رسمية للميناء، يجري فيها تبادل المجاملات الرسمية بين العسكريين من الطرفين. وبدلاً من ذلك، ارتبطت كول بشكل مأمون مع دولفين عائم لإعادة التزود بالوقود وهو جسر عائم مفصول فصلاً جيداً عن المراسي الحجرية القديمة وكاسر الأمواج لتحصل على الوقود قبل أن تتابع الذهاب إلى الخليج العربي الشمالي.

ومع تقدم الصباح، تدفقت إلينا بعض المعلومات القاسية. وتحدثت مع هوغ شيلتون، وأعلمته أن فريق الرد السريع البحري، وهي طائرة إخلاء طبي من نوع سي-130، وزمر طبية عسكرية فرنسية كانت الآن تصل إلى عدن. وقلت له: "مازلنا لا نعرف سبب الانفجار".

وناقشت أنا وهوغ وضع حالة التهديد في عدن في الوقت الذي وصلت فيه كول. وشرحت: "إنها كانت في برافو، ب، ولم تكن هناك مؤشرات عن زيادة في التهديد".

تتصاعد مستويات التهديد في تسلسل شدتها من ألفا، أ، عندما لا يوجد تهديد إرهابي مرئي، صعوداً إلى دلتا، د، التي تشير إلى خطر هجوم وشيك. وكان مستوى التهديد برافو، ب، هو الحالة السائدة في معظم موانئ منطقة المسؤولية، ولم يكن لدى قبطان كول سبب يجعله يشك بالهجوم عندما أدخل سفينته إلى دولفين التزود بالمحروقات.

وعلى الرغم من أنه، حتى في وقت متأخر من الصباح، لم يكن هناك أي تأكيد رسمي بأن إرهابيين قد هاجموا السفينة، فإن وسائل الإعلام كانت تروي الأخبار بأن كول قد ضربت بقنبلة إرهابية. وأخبرت شيلتون ونائب رئيس الخدمات، الجنرال في القوات الجوية ديك مايرز، في سلسلة سريعة من المكالمات: "إن ويللي مور يقول في تقاريره إنه لا يستطيع أن يستبعد هجوماً إرهابياً. ولكن التحقيق قد بدأ من فوره بالتقدم. وسوف يعطينا ويللي الحقائق من دون مبالغة".

وعلق هوغ: "وسائل الإعلام صارت تلح على طلب الأخبار هنا وهم دائماً يفعلون ذلك."

نظرت إلى التلفاز في ركن مكتبي. كانت محطة سي إن إن تقدم تغطية بلا توقف، وتدير شريطاً من الملفات عن السفن الحربية النوعية وعن الهجمات الإرهابية السابقة، ومن جملتها تدمير السفارة الأمريكية في شرق إفريقيا.

وعلقت قائلاً لمايك دولونغ: "عامل سي إن إن، يا رايفل." فمنذ حرب الخليج، وانتشار شبكات أخبار الكيبل والأقمار، صار التنافس على تغطية "السبق" من محطة إخبارية واحدة تنافساً تعصبياً مسعوراً. وصارت أي حادثة غير مألوفة ولها إمكانية "بصرية" جيدة هي العنوان الرئيس. وسواء أكان ذلك العنوان الرئيس صحيحاً أم لم يكن، فإنه يصير حقيقة واقعة في رؤية الجمهور العام. وقد لا يكون القادة العسكريون قد أحبوا هذا الاتجاه، ولكن كان يجب علينا أن نتعايش معه.

في بداية فترة ما بعد الظهر، تحدثت مع الأدميرال فيرن كلارك، رئيس العمليات البحرية في وزارة الدفاع، حيث كان يستعد لمؤتمر صحفي.

وقلت: "لا ينبغي لنا أن نصف، يا فيرن، أكثر مما نعرف. دعنا نتجنب التخمينات ونعرض الحقائق التي نحن متأكدون منها فقط."

وقال: "يا توم، أنت لا تفهم واشنطنون. لقد رأيت تقارير التغطية، إن وسائل الإعلام ستأكلنا أحياء ما لم نعطهم شيئاً ما."

وقلت: "الموقف ما يزال غير واضح، يا فيرن. أقترح أن نتمسك بالحقائق. تذكر الحكمة المأثورة القديمة: (التقارير الأولى من الكشافة تكون مخطئة دائماً)."

كان العميد غاري هاريل مدير الأمن عندي، يقوم بتقدير قابلية المنشآت في المملكة العربية السعودية للتعرض للخطر. وكنت أحتاج إليه على الأرض في اليمن. وقلت له: "اذهب إلى هناك، يا غاري، أريد أمناً مشدداً حول تلك السفينة. عاملها مثل مشهد جريمة، لأن ذلك بالضبط ما هو المشهد."

كانت وزارة الخارجية تستعد لترسل إلى هناك فريق مساندة طوارئ أجنبي، وربما سيكون من جملته محققون من فرع الاستخبارات الفيدرالية. "اعمل مع فريق مساندة الطوارئ الأجنبي على الأرض، يا غاري. واحتفظ بعينيك مفتوحتين وكن على قمة الأمور. فهذا سيسوء أكثر قبل أن سيتحسن أكثر."

وأنهيت مكالمتي مع غاري عندما وصل أول تقرير عن الإصابات: تأكد موت خمسة بحارة، وعدد من البحارة مفقود. وقد قام الفرنسيون بإخلاء معظم المجروحين جروحاً حرجية إلى جيبوتي، منقذين بذلك حياتهم من خلال سرعة التدخل ومهارته. نحن مدينون لهم بواحدة مقابل ذلك.

قبل الساعة 00:30 بعد الظهر بقليل، هاتفت هوغ شيلتون مرة أخرى وقلت له: أنا على وشك المغادرة متوجهاً إلى منطقة المسؤولية. وأول توقف لي هو في عُمان. وقد ألغيت بقية برنامج الرحلة. ولكنني سأكون في المنطقة وسأصل إلى اليمن في غضون يومين أو ثلاثة. فآخر شيء يحتاجون إليه الآن فوراً هو جنرال بأربع نجوم يقف في طريقهم، ولكن من المهم أن يتحرك القائد العام إلى صوت المدافع، الجند يحتاجون إلى ذلك، وأنا أحتاج إليه.

"نحن لدينا موقف فيه الكثير من التوتر، طنجرة ضغط، هناك مع وسائل الإعلام، يا توم"

"ألم قصير المدى، ربح طويل المدى، يا هوغ."

من هذه النقطة فصاعداً، سيكون هناك تياران منفصلان للمعلومات: أحدهما سلسلة حساسة سياسياً للمؤتمرات الصحافية في واشنطن، والآخر تحقيق احترافي وعرض للحقائق كما تبرز.

وقلت: "يا هوغ، أنا أوصي أن تقترح لوزير الدفاع أن يكون هناك تحقيق خارجي كامل، شيء ما يشبه تحقيق وين داونغ في تفجير أبراج الخبر في المملكة العربية السعودية. يجب علينا أن نتجنب أي تصور للتغطية على ما حدث."

قبل المغادرة إلى المطار، كنت قد جعلت الأركان يبدؤون بجمع كل التصريحات التي قيلت عن الحادثة من القيادة السياسية، ومن جملتها عضو مجلس الشيوخ جون وورنر، رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ. لقد سبق أن ذهبت إلى مجلس الشيوخ ثلاث مرات أشهد على الميزانية الروتينية والمسائل العملية، وأظن أن مجلس الشيوخ سيعقد جلسات استماع عن هذه الحادثة. وقد وجهت رايفل دولونغ أيضاً إلى أن يجمع معاً ورقة معلومات واضحة تقوم على الحقائق عن الإجراءات العملية التي استخدمت لاختيار عدن لتكون مرفأ إعادة التزود بالوقود وتفاصيل الأسباب التي دعت كول للوقوف هناك.

وبعد أن بدأت وسائل الإعلام تطارد ذنبها في هذا الموضوع، فستكون كل السكاكين قد شحذت. ومن سوء الحظ، أن البحث عن كبش فداء بعد وقوع المآسي كان جزءاً من شخصيتنا القومية. ولذلك، كان من الأساسي لنا أن نعرض الحقيقة بلا تزويق في حزمة واضحة، دقيقة، تصف وصفاً دقيقاً مستوى التهديد الإرهابي في عدن في زمن الهجوم، وتصف إلى جانب ذلك الأسباب العملية لوقفة إعادة التزود بالوقود، وذلك ضمن حدود تصريح إذاعي لمدة عشرين ثانية.

صعدت على متن الطائرة النفاثة الرمادية القديمة لرحلة الطيران المتجهة إلى مسقط في عمان، في الركن الشرقي من شبه الجزيرة العربية. وفي الطريق، استعرضت ملف القراءة عن الخلفية العامة وتقارير الموقف المعدة لي من أركاني المسافرين معي، ومن بينها تقارير من ويللي مور في عنصر البحرية في القيادة المركزية، ومن غاري هاريل، الذي كان قد وصل من قبل إلى عدن، ومن رايفل دولونغ الذي رجع إلى تامبا، ومن هوغ شيلتون في وزارة الدفاع.

لقد كان واضحاً وضوحاً مؤلماً: الإرهابيون ضربوا كول. وهي مدمرة من نوع بيرك تحمل صواريخ موجهة، وتصل في حجمها إلى ضخامة العديد من طرادات الحرب العالمية الثانية، وقد دخلت ميناء عدن يوجهها طيار محلي. وقامت زوارق صغيرة بمساعدة ملاحي كول بتأمين خطوط ربطهم إلى دولفين إعادة التزود

بالوقود. وقام القبطان، وقد أعطي مستوى التهديد برافو، ب، بوضع حراس مسلحين على السطح. وكانت مجموعة أسلحة كول، وهي مجموعة من أنظمة مدافع آلية متعددة السبطانات عيار 20 ملم، تقف مستعدة ضد أي هجوم جوي. وإعادة التزود بالوقود نفسها لم يكن فيها أي مشكلة تذكر. ولكن عندما كان الملاحون يستعدون لمغادرة الدولفين، قام قارب طويل مسطح القعر له مظهر قارب نموذجي للقمامة بالتحرك ببطء عبر المرفأ.

ولوح الشابان العربيان الواقفان على دفة القارب بأيديهما عندما اقترب القارب من جهة الواجهة المائية من كول. وعندما وصل قارب القمامة قرب مركز السفينة كول أشعل الرجلان قبلة ضخمة كانا قد خباها تحت مظهر خادع. وكان للانفجار قوة صاروخ كروز، فنسف حفرة واسعة في هيكل المدمرة، وخرب العديد من السطوح الداخلية. وأدت موجة صدمة اللهب إلى إزالة مركز السفينة، وضرب الطاقة الكهربائية، وتدمير خطوط الماء اللازمة لإطفاء الحريق. وبدأ الماء يفيض إلى السفينة.

وآخر تقرير عن الإصابات حمل تحديثاً للمعلومات: اثنا عشر قتيلاً معروفون، وخمسة على الأقل مفقودون في المقصورات التي فاض إليها الماء. والعشرات مجروحون وكثير منهم مصابون بحروق حرجة.

أطفأت الضوء الموجود فوق مقعدي وحاولت أن أنام قبل الهبوط في عُمان. ولكن النوم أبى أن يأتي. هذا الهجوم حمل بصمات أصابع القاعدة. لقد لزموا الهدوء طوال شهور، ولكن كان من الواضح أن الكثير من التخطيط قد بذل في هذه العملية. كيف سيرد البيت الأبيض؟ كان رايفل دولونغ يحدث حالة قاذفات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي في "سلة الرمي" من بحر العرب الشمالي. ولكنني كنت أعرف أن مواقع القاعدة التي سبق أن استهدفناها في أفغانستان ستكون مهجورة إذا كان أسامة بن لادن، في الحقيقة وراء هذا الهجوم. وفي كل الأحوال، سوف تستغرق الحقائق بعض الوقت لتظهر. وهناك انتخابات قومية في غضون أقل من

شهر. ولم أكن متأكداً كيف سترد أمريكا. ولكنني توقعت أن توضع القيادة المركزية في العَصَّارة السياسية. وسوف أكون أنا في وسطها.

أمضيت ثلاثة أيام على الأرض في عُمان، وبقيت على اتصال مستمر مع رايفل دولونغ، وويلي مور، وهوغ شيلتون، وغاري هاريل الذي أبقاني مطلعاً على أحدث المعلومات من عدن. وكانت الحكومة اليمنية في إنكارها، تحاول أن تطلق تحقيقها الخاص، ولكنها غير قادرة ثقافياً على مجاراة الطلبات المقدمة من المحققين الأمريكيين المدنيين والعسكريين الذين يصلون ومعهم من الحمل قدر ما تستطيع الطائرة أن تحمل.

لقد حزن العمانيون لخسارتنا، ولكنهم أظهروا علامات القلق من أن هذا الهجوم الإرهابي الأخير قد يؤدي إلى التقليل من عزمنا والتزامنا نحو المنطقة. وقد أكدت لوزير الدفاع أن أمريكا باقية على تصميمها على أن تكون قوة إيجابية في المنطقة، وأن موقفنا لن يهتز. وحملت الرسالة نفسها إلى معسكر الصيد الصحراوي لسلطان عمان قابوس بن سعيد آل سعيد.

كان قابوس، وهو عاهل عربي نموذجي، رجل ثقافة، بلحية علاها الشيب، وبعمامة حريرية زعفرانية، وأثواب من صوف مغزول غزلاً دقيقاً. كانت تعازيه مخلصه. وقال بلغة إنجليزية لا تشوبها شائبة: "يا جنرال، أمتكم تكبدت خسارة كبيرة. والعالم العربي في حداد. كيف نستطيع أن نساعدكم؟"

"يا صاحب السمو، إن صداقتكم مساعدة كبيرة."

"تلك الصداقة ستكون لكم دائماً، يا جنرال فرانكس."

وحدقت في عينيه السوداوين الذكيتين. لم يكن هناك أي مكر، ولا جدول عمل سري. سلطان قابوس سيكون صديقاً، وحليفاً موثقاً في أثناء الأوقات العصيبة التي تنتظر أماننا في المستقبل.

وقفت على السطح الذي ثنته الحرارة من كول، وحدقت إلى الأسفل في

الحفرة الموجودة في جانب السفينة. وشرح لنا القبطان، القائد كيرك ليبولد، طبيعة العطب، والمقصورات التي مات فيها البحارة، والحالة الحالية للمصابين بالجروح. لقد عمل البحارة خلال هذه الحرارة المنهكة لمدة اثنتين وسبعين ساعة، محافظين على سفينتهم عائمة. كانوا جميعاً منهكين، والعديد منهم ما يزال يعاني من الصدمة. وكان المرفأ متألّفاً ساطع الضوء، وخفقت نسمة شديدة رطبة بالعلم الأمريكي الكبير المرفرف على جسر السفينة. وكانت رائحة نتن السخام، واللحم المحروق، ومخزن زيت الوقود مما لا يطاق. وعندما كنت أمشي عبر السفينة، لم يكن هناك إلا القليل مما أستطيع أن أفعله أو أقوله لأخفف الألم الذي رأيته على وجوه البحارة. وفكرت مسترجعاً أيامي في فيتنام، وقد طفرت الدموع من عيوني، دموع الاحترام، والإعجاب، والشعور بالندم. واسترجعت مذاقاً لِسُورَةِ الغضب. كنت قد أحسست بها منذ زمن بعيد.

في ذلك الأصيل جلست في القصر الجنوبي للرئيس اليميني علي عبد الله صالح. كان مهزوزاً، وليس على يقين بأي نبرة يلهج وينضببط، وكانت السفارة الأمريكية بربارا بودين قد اقترحت أن أبقى هادئاً وأنصت لما سيقوله صالح. وكان هذا الاجتماع هو تقديمي لصالح للتعارف. ولذلك قررت أن أبدأ الاجتماع مثلاً اقترحت السفارة. وإذا كان مخلصاً فسأكون متعاوناً.

وعندما بدأ يتحدث، كنت أستطيع أن أرى أنه كان مهتماً بأن يكون بحارة كول قد تم إسكانهم بشكل كافٍ. وهل كانوا في الواقع مقيمين على ظهر السفينة المعطوبة، في هذه الظروف التي لا بد أنها تعيسة؟ وكنت أعرف أن هذا الاهتمام براحة الضيوف لم يكن مظهرأ خادعاً للغربيين، لقد كان مغروراً بعمق في الثقافة العربية. وأكدت للرئيس أن البحارة موضع اهتمام كبير وأن القبطان كان يقوم بعمل جيد. وكنا فخورين به، وبضباطه، وبالبحارة.

وأضفت: "سيدي الرئيس، إن الوزير كوهين طلب مني أن أشكرك على كل ما فعلت لنا. إنها بداية جيدة."

بدا الرئيس وقد استرخى: "لقد كانت لنا دائماً علاقات جيدة مع بلدك، مع شوارتسكوف ومع زيني. أنا فقط متأسف أن الصداقة بينك وبينني قد بدأت تحت هذه الظروف."

وقد طرح صالح هذه النقطة كأنها سؤال لا تصريح. ولذلك بذلت عناية كبيرة كي أعيد طمأنته: "سيدي، إن صداقة أمريكا مع اليمن راسخة ولن تهتز بسهولة. وسوف نعمل معاً. يجب أن نتبادل ونشترك بالمعلومات. جماعتنا قد عملوا بداية جيدة في التحقيق في هذه المأساة، ولكنها بداية فقط. إن علاقتنا سوف تنمو لأن ذلك أفضل مصلحة لبلدينا كليهما."

وتشاور الرئيس صالح باختصار مع الرسميين الجالسين إلى جانبه إلى طاولة ضخمة مرصعة بالفضة والنحاس. "هناك الكثير من التصريحات المربكة، والالتهامات في صحافتكم. إن هذا يزعجنا. إننا نعمل أقصى ما نستطيع للمساعدة."

وقلت: "وصحافتنا تزعجنا نحن كذلك، يا سيدي." وأنا أنظر في عينيه. وواعد أن يساعد التحقيق، ملاحظاً أنه قد شكل لجنة خاصة. وكنت أعرف أن اليمنيين سيعرفون الحقيقة، وكان علينا أن نتأكد أنهم سيتشاركون فيها معنا. وقلت: "سيدي الرئيس، من المهم جداً أن تقوم لجننتكم بتقديم كل الأدلة التي تكتشفها إلى محققينا."

ووقف الرئيس صالح وناولني شريطي صور فيديو وملفاً بلاستيكيّاً يحتوي على بطاقات الهوية للعديد من العرب. وقال: "هذه أشرطة تلفازية من آلاتنا للتصوير في الميناء. قد تكون مُعينة. وبطاقات الهوية تعود إلى رجال نحن متأكدون أنهم كانوا متورطين في هذا الهجوم الرهيب."

وأخذت الدليل، ملاحظاً الزمن كي أستطيع تسجيله لأغراض "سلسلة العهدة". إن مكتب الاستخبارات المركزية له سمعة سيئة في دقته بالتوثيق "من ملك أي دليل، ومتى" في أثناء تحقيقاتها. كان صالح يعمل لكسب ثقتي، وقد عمل بداية جيدة.

بعد عشرة أيام جلست تحت وهج أضواء التلفاز في غرفة استماع لجنة الخدمات المسلحة في مجلس الشيوخ. وإلى جانبي عند طاولة الشاهد كان وولتر سلوكومب، وكيل وزارة الدفاع لشؤون السياسات، وإدوارد ووكر، مساعد وزير الدولة لشؤون الشرق الأدنى.

وكان رئيس اللجنة هو عضو مجلس الشيوخ جون وورنر، وهو جمهوري من فرجينيا، وقد ضبط صوته في نبرة معقولة يلهج بها في جلسة الاستماع العامة هذه، وهو يعطينا فرصة لنشرح للأمة لماذا كانت كول في اليمن؟ ولماذا لم تتبأ وزارة الدفاع والقيادة المركزية مقدماً بالخطر الذي واجه السفينة؟ وسوف نغطي هذه الأرضية مرة ثانية في جلسة مغلقة، نستطيع من خلالها أن نناقش السجل المصنف السري مناقشة كاملة. ولكن، وكما عرفت من أيامي في قوات الجيش، القيادة المركزية (الجيش الثالث) بصفتي قائداً، وفي مدة خدمتي القصيرة في القيادة المركزية بصفتي القائد العام، كانت جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ ترتبط بالسياسة أكثر من ارتباطها بعرض الحقائق.

الحقائق، التي بينتها في ملاحظاتي الافتتاحية، كانت مباشرة نسبياً. فالقيادة المركزية كانت تحتفظ بوجود بحري قوي في المنطقة، ومن جملتها مجموعة معركة مع حاملة طائرات واحدة على الأقل في الخليج العربي الشمالي وعدد من السفن المقاتلة والمساندة الأخرى تتمركز في البحرين. وهذه السفن وصلت إلى المنطقة في رحلات مرور طويلة من موانئ الساحل الأمريكي الشرقي والغربي. ومدمرة صواريخ موجهة مثل كول سارت بسرعة حوالي 25 عقدة، واستخدمت الكثير من الوقود. وقد دعت الإجراءات العملية البحرية السفن الحربية أن تصل إلى مناطق عملياتها وهي تملك 51 بالمائة على الأقل من سعتها ممتلئة بالوقود. ولذلك كان روتيناً لأنواع معينة من السفن الواصلة إلى النهاية الجنوبية من البحر الأحمر في طريقها إلى الخليج العربي أن تقف في اليمن ملء خزاناتها بالوقود.

قبل العام 1999 كانت سفننا تتزود بالوقود في جيبوتي، ولكن ثبت أن ذلك كان

إشكالياً: فرصيف التزود بالوقود كان قديماً ضعيفاً وغير مأمون، وكان المرفأ مزدحماً بالسفن التي تنتظر لتزود بالوقود. وفي إحدى المرات على طول رصيف الميناء ذاك في جيبوتي، كان معدل المضخة بطيئاً وكان الوقود في مرات عديدة ملوثاً بالماء إلى درجة أن السفينة الحربية كان يمكن أن تهدر أسبوعاً وهي تحاول التزود بالوقود.

وعندما صار دولفين التزود بالوقود مهياً في عدن في 1999. قام العنصر البحري في القيادة المركزية بمراجعة أمنية وقرر أن الميناء كان مناسباً للوقوفات القصيرة للتزود بالوقود. لقد كان هناك ثلاث عشرة وقفة قصيرة للتزود بالوقود من مثل هذه الوقفات في العام 1999، وأربع عشرة وقفة في العام 2000 قبل الهجوم على كول. وجميع وقفات التزود بالوقود السابقة مرت من دون أي حادث، ولم يكن هناك أي معلومات استخباراتية تشير إلى أن التهديد الأمني قد ازداد ارتفاعاً في اليمن عندما دخلت كول ميناء عدن.

هذا القدر بالنسبة إلى الحقائق.

وعندما طرح الشيوخ أسئلتهم، صار واضحاً أن بعضاً منهم كان يمتلك تفسيره الخاص للأحداث. وقام قائد الأقلية في اللجنة، الديمقراطي النافذ من ميتشغان كارل ليفن، يطرق علينا باستمرار، ضاغطاً علينا لنعترف أن زيارة كول كانت جزءاً من سياسة تمت بدون مشورة حكيمة للارتباط مع اليمن، وتضمنت عقداً مربحاً للتزويد البحري بالوقود في ميناء كان ملاذاً معروفاً للإرهاب. أما وولت سلوكومب، وإد ووكر، وأنا فتمسكنا بالحقائق، بينما تحاور الجمهوريون والديمقراطيون على المنصة معنا وأحدهم مع الآخر. واشتمل الحوار على تقارير رأي أكثر إلى حد بعيد من الأسئلة. وكان عضو مجلس الشيوخ ليفن مصمماً على أن أعترف أن نظامنا لتحديد شروط التهديد كان نظاماً معيباً. كول هوجمت، وهذا في حد ذاته يعني أن حالة التهديد براهو، ب، كانت قد وضعت خطأ.

وفي الرد وصفت عملية اتخاذ القرارات، وساندت حكم قائدي البحري اللواء

البحري ويللي مور. في السنة الماضية، نفذت القيادة المركزية 186 وقفة موانئ في ثمانية مرافئ مختلفة في جميع أنحاء المنطقة، وجميعها في حالة التهديد، برافو، ب. ولم يكن هناك معلومات استخباراتية تفيد بأن مستوى الخطر كان أعلى في مرفأ عدن في يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر.

في أواخر الاستماع، عانيت لحظة من لحظات سي ان ان غالية جداً عند منتجي التلفاز. مقالة مثيرة على الصفحة الأولى في صحيفة واشنطن تايمز في ذلك الصباح وأخذت وكأنها حقيقة من عدد من أعضاء اللجنة. ففي "تقرير استخبارات أسرار عليا" متسرب روى بل غيرتز، أن وكالة الأمن القومي كانت قد حذرت "في اليوم الذي فجرت فيه المدمرة كول"، من أن الإرهابيين كانوا يخططون لهجوم في المنطقة. لماذا رست كول في عدن للتزود بالوقود؟ لاحظت مقالة غيرتز أن التحذير لم يستلم على ظهر كول إلا بعد أن كانت السفينة قد هوجمت. وصياغة كلمات المقالة أوحى ضمناً أن العسكريين جلسوا على معلومات استخباراتية حيوية، وهكذا حكموا بالقضاء على بحارة كول. والعنوان الرئيسي الفرعي من القصة: "النقل المتأخر مقصر"، كان يوحي ضمناً بوضوح أن مجتمع الاستخبارات والعسكريين قد أسقطوا الكرة، أخفقوا، فارتكبوا بذلك خطأً.

وطالب عضو مجلس الشيوخ جيف سيشنس، وهو جمهوري من ألباما، أن يعرف إن كنا نحن: "الناس الموجودين في السلطة الذين يجب أن نعرف هذه الإجابات" قد تملكنا "أي إحساس بالإحراج" حول هذا.

وعندما شرحت الحقيقة، وهي أن تحذير وكالة الأمن القومي لم يكن يتعلق بمنطقة القيادة المركزية، بدت اللجنة أقل اهتماماً بالشرح منها بشريط التلفاز الذي يبين الغضب المحق من العديد من الأعضاء. ولم أستطع أن أمتنع، وقد أدهشني المنظر، أن أتخيل حشد الصحفيين الذين سيقومون في الحال بتحرير وإرسال هذا الشريط التلفازي عائدين به إلى مواطن ناخبي أعضاء مجلس الشيوخ.

وعندما كنا نغادر مبنى مكتب مجلس الشيوخ للاستعداد لاستماع لجنة

الخدمات المسلحة في مجلس النواب بعد عصر ذلك اليوم، التفتُ إلى وولت سلوكومب وسألته: "هل أبدو لامعاً؟"

"ليس بشكل خاص، لماذا؟"

"حسناً، ظننت أنني قد أبدو، لأننا كنا قبل قليل نُصنفر بفرشاة سلك لمدة حوالي ثلاث ساعات."

في الوقت الذي كانت البلاد تعد فيه الأوراق الصغيرة المعلقة الخاصة بالانتخابات(*) وكانت المحاكم في فلوريدا وواشنطن تتداول الرأي، رجعت إلى منطقة المسؤولية، أحشد الأصدقاء والحلفاء المحتملين في جهودنا المستمرة لكبح الإرهاب، وتخفيف الأزمات الإنسانية، وتسهيل المشاركة بالمعلومات الاستخبارية. كان تحقيق كول قد اكتمل بعد بضعة شهور، من دون أن يترك أي أكباش فداء، بل ترك هبة قوية من السياسات في أعقابها.

في 9 كانون الثاني/يناير 2001، في الأيام المتناقصة لإدارة كلينتون، دعاني ديك كلارك من مجلس الأمن القومي لمناقشة ملاحقة الحكومة لأسامة بن لادن والقاعدة. وتحدث مدة من دون أن يقدم خيارات ذات مغزى. وكان قد أعطاني جورج تيننت إيجازاً من قبل عن نشاطات الوكالة في أفغانستان وفي آسيا الوسطى، ولكنني أنصت لكلاك بصبر لأنه قال إن الإدارة القادمة سوف تستبقه في منصب مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي.

وعندما تحدثنا في اس تي يو-111، شاركني كلارك معلومات حساسة تتصل ببرنامج بريديتر زائد. وأخبرني أن العملية كانت تتحرك قدماً بشكل جيد وقد تجني النتائج قريباً. وقال أيضاً إن أداء استخباراتنا البشرية كان يتحسن، ولكنه لم يعط تفاصيل.

وقلت: "عظيم، نحن في حالة تهيؤ للحصول على إحداثيات الهدف."

(*) يشير إلى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٠م في الولايات المتحدة، عندما تقاربت النتائج بين المرشحين آل غور وجورج بوش، وتم تعداد بعض الأوراق يدوياً، وفاز بالرئاسة جورج بوش بفارق صغير.

لم أستلم قطعياً توصية عملياتية واحدة، أو صفحة واحدة من معلومات استخباراتية قابلة للعمل بموجبها من ريتشارد كلارك.

كان المقر العام في راوالبندي بارداً وظليلاً، وهو قلعة حجرية قديمة للحكم البريطاني. استقبلني الرئيس برويز مشرف في مكتبه المغطى بالخشب في 19 كانون الثاني/يناير 2001، وكان يلبس ملابس مظليين طويلة وبنطالاً من النسيج القطني المضلع الكاكي المكوي كياً حاداً.

كان هذا تبادلاً للآراء من جندي إلى جندي، ومال مشرف بشكل طبيعي على مصطلح الاختصارات العسكرية ورطانتها. وأعلن أنه سيعطيني إيجازاً عن "الموقف الكبير" ثم ينقسم النقاش بعدئذ إلى التفاصيل. وأنصت كما لو كنت أنصت إلى ضابط جنرال اعتاد بشكل جيد على تلخيص المعلومات المعقدة، وهو، طبعاً، ما كان منصب مشرف، قبل أن يقود انقلاباً للجيش ضد الحكومة المدنية الباكستانية الفاسدة في العام 1999.

بعد قيادة وحدات في القتال في أثناء حربين مع الهند، كان مشرف قد علّم في المدارس العسكرية الباكستانية العليا. كان إستراتيجياً حاذقاً، وتحول اجتماعنا إلى نوع من محاضرة واسعة المدى عن بلاده وعن وضعها العسكري.

أصر أن باكستان كانت تفضل السلام في المنطقة بحزم، وهي ضد الإرهاب، وضد التطرف في أي شكل، ومن جملته كما أكد لي التعصب الديني، "الهندوسي والإسلامي على حد سواء".

وقال وهو يشير إلى تنامي الترسانة النووية لباكستان: "نحن لم نكن نعتزم قط أن نبدأ سباق تسلح، والمقصود من أسلحتنا هو صيانة السلام بشرف وحفظ كرامتنا. إنها رادع، وليست قدرة لتوجيه الضربة الأولى".

وأضاف مشرف، وكأنه كان يتابع أفكاره، إن السبب الوحيد الذي استثمرت باكستان من أجله الثروة والطاقة الكبيرة في تطوير الصواريخ الباليستية هو أن سلاحها الجوي كان عاجزاً بسبب الحظر الأمريكي على السلاح.

وأومات برأسي مشيراً إلى فهمي.

ثم ركز بعد ذلك على أفغانستان، وقال: "ليس لدينا خيار إلا أن نعمل مع طالبان. وأستطيع أنؤكد لك أننا نكره تطرفهم، ولكنهم جلبوا الاستقرار لأفغانستان وأنهوا سفك الدماء بعد مغادرة السوفيت. يجب أن يكون لنا استقرار على حدود واحدة على الأقل."

كان هناك خريطة كبيرة، جميلة محفورة حفراً لشبه القارة على الجدار. وعندما كان يتكلم، كنت أدرس الطبوغرافيا. فالجنود يفضلون أن يدافعوا من أرض عالية، ولكن الكثير من باكستان كان موقعه في سهول وادي الأندوس المجذب. وفي حالة وقوع غزو هندي، ستقوم القوات العسكرية الباكستانية بأخذ مواقعها لحماية إسلام آباد. وسوف يحتاجون بالفعل إلى خطوط اتصال بأفغانستان. كان ذلك هو "العمق الاستراتيجي" الذي ناقشته أنا وجورج تينت.

وقلت: "أنا أفهم موقفكم."

وقال مشرف: "أنت تعرف، يا جنرال، أن حركة الطالبان معزولة. ونحن لنا بعض النفوذ عندهم، ولكننا لا نسيطر عليهم. وسوف أعمل أقصى ما في وسعي لتقديم المساعدة. ولكننا نحتاج إلى المساعدة من المجتمع الدولي."

والمساعدة التي كانت في ذهنه، طبعاً، هي المعونة الاقتصادية والعسكرية من الولايات المتحدة. ولم أكن هنا لأمنح تنازلات. ولكني سأحمل هذه الرسالة إلى واشنطن.

وقال وهو يقرر القضية مباشرة: "باكستان تود أن تساعد في مشكلة أسامة بن لادن والقاعدة. فإذا كنا نستطيع أن نزيد تأثيرنا مع طالبان، فإن من الممكن أن يوافقوا على طرده إلى دولة محايدة إما إلى المنفى أو ليقدم إلى المحاكمة."

وقلت: "أنا هنا لأنصت، يا جنرال مشرف."

وتابع مشرف إيجازه، ولكن المعلومات الحيوية قد تم تبادلها. إذا ساعدناه في حاجات باكستان فسوف يساعدنا مع الطالبان والقاعدة.

وعندما كنا نتكلم، طرأ لفكري أنه كان مناسباً أننا كلينا كنا نلبس البزة العسكرية. فطوال سنوات، كان المبعوثون الرسميون والدبلوماسيون الأمريكيون ببدايتهم بهيئة رجال الأعمال قد أفعزوا العسكريين- السياسيين من أمثال برويز مشرف بحقوق الإنسان والحكومة التمثيلية. ومن الطبيعي، أنني كنت أؤمن بهذه القضايا بالقناعة نفسها، ولكننا في هذه النقطة في التاريخ كنا نحتاج إلى تأسيس الأولويات. وقفَّ القاعدة كان أولوية عالية، وكان مشرف راغباً في المساعدة.

مشى معي الرئيس إلى الخارج إلى سيارة السفارة، ووقفنا في ظل أشجار الأوكالبتوس العالية.

وقال مشرف: "يجب أن تعود سريعاً كي نلعب الغولف."

"سيكون هذا من دواعي السعادة، يا سيدي."

سيكون برويز مشرف صديقاً وحليفاً على حد سواء في الأيام التي تنتظرنا في المستقبل.

مع القادة العامين الآخرين في القيادات الموحدة، قابلت وزير الدفاع الجديد دونالد رامسفيلد، في 7 شباط/فبراير 2001. كان يلبس بدلة سوداء جميلة التفصيل، وقميصاً أثبت طرفاً قبته بأزرار، وربطة عنق القوة باللون الأحمر، وكان الوزير ودوداً وهو يرينا غرفة مكتبه في الحلقة ئى.

وقال، وهو يدرسنا من خلال نظارته التي كانت دون إطار: "إنها عارية هنا قليلاً، أيها السادة. مازلنا نقوم بإخراج الأمتعة."

كان هناك برونز ريمنفتون أصيل، والعديد من الصناديق مسندة على أحد الجدران. ورآني الوزير وأنا أنظر إلى طاولة قراءة عالية من الخشب القاسي. لقد سبق أن رأيت هذه الطاولات الواقفة، وتذكرت أن جون كيندي كان قد استخدم واحدة.

وقال: "لقد وجدت دائماً أنكم تفكرون على نحو أفضل وأنتم على أقدامكم."

وأنا أحاول أن أمشي أكثر ما أستطيع في كل يوم." ثم تبسم. "وأخمن أنني جئت إلى المبنى الصحيح لذلك الغرض."

وأنصت باهتمام. وقد كان رامسفيلد معروفاً بوصفه مفكراً غير تقليدي ومجدداً. وكان تعبير "خارج الصندوق" هو الذي استخدمه عديدون لوصف عقله، في المديح وفي الذم على حد سواء. وحتى الآن كان اجتماع المصافحة معه وفق ذلك النمط: الوزير لم يُعد أي جدول عمل للمناقشة.

ومثل زملائي، كنت مجتهداً، وبقيت ساهراً حتى وقت متأخر للإعداد للموضوعات المهمة مقدماً قبل هذا الاجتماع الأول. كنت مستعداً لمناقشة مناطق حظر الطيران في العراق، والتهديد الإرهابي في المنطقة، ومركز القيادة الجديد القابل للانتشار الذي كنت أبنيه للقيادة المركزية.

ولكن دونالد رامسفيلد كان نافراً على ما يبدو من الحديث عن العمل في هذه المقابلة الأولى. ومع ذلك، فقد كان رامسفيلد فعلاً يسيطر على المحادثة. وعلى رغم أسلوبه الناعم في الكلام، فإنه ينم عن السلطة. وقد غادرت الاجتماع أحمل الانطباع بأنني قد أمضيت منذ قليل وقتاً مع شخص كان أكثر اهتماماً في أن يعلم عنّا، نحن قادة أمريكا العسكريين في البزة، من اهتمامه بأن نعلم نحن أي شيء عنه. وفكرت وأنا أجلس في الحافلة مع الآخرين من القادة العامين ورؤساء الخدمات في الطريق إلى البيت الأبيض: إن رامسفيلد يعرف ما يريد. والبقية منا سيعرفون ذلك بسرعة كافية.

توجهنا لنقابل الرئيس جورج دبليو. بوش وبقية فريق الأمن القومي. وعندما دخلنا إلى غرفة الوزارة، كنت واعياً بالتاريخ الذي تكشف هنا: ففي داخل هذه الجدران المكسوة بالخشب كان أبراهام لينكولن، وتيدي روزفلت، وودرو ويلسون، وفرانكلين ديلاانو روزفلت، وجون فيتزجيرالد كينيدي قد اتخذوا قرارات حول سلام العالم والنزاع في هذا الكوكب. وكنت مذهولاً بالصدقة التي أبداهها الموظفون. لم يسبق أن دعيت إلى البيت الأبيض في عهد كلينتون أبداً، ولكن الزملاء قد وصفوا

فيه بروداً ملموساً نحو الضباط العسكريين. إذا كانت تقاريرهم دقيقة، فهذا البيت الأبيض سيكون بيتاً مختلفاً جداً.

بدا لي الرئيس جورج دبليو. بوش أفتى مما كنت قد توقعت. كان هناك وثبة في خطوته عندما جاء إلينا عند الطاولة وصافح كلاً منا يداً بيد.

وقال وهو يبتسم: "يجب أن نأخذ صورة لهذا، يا جنرال. كم مرة استطاع ولدان من ميدلاند، تكساس أن يصلوا إلى هذا المدى؟"

وقلت: "سيدي الرئيس، كانت هناك أيام ظننت فيها أنني لن أصل أبداً إلى رتبة ملازم ثان."

وعندما جلسنا، التحق بنا نائب الرئيس تشيني، ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، وأندرو كارد، رئيس موظفي الرئيس. وبعد أن تحدث رامسفيلد ببعض الملاحظات التمهيدية، تابع كل قائد وصف مسؤولياته.

وعندما قدمت إيجازي لمدة عشر دقائق عن القيادة المركزية ومنطقة المسؤولية، كانت غرفة الوزارة صامتة صمتاً مطلقاً. وكان الرئيس مركزاً، ينصت باهتمام، وسأل عن مستويات الجند وشخصيات القيادة في المنطقة.

لاحقاً في ذلك المساء، التحقت بنا زوجاتنا لاستقبال وعشاء في الغرفة الزرقاء في البيت الأبيض. وعندما كنت أتحدث أنا وكاثي مع أصدقاء قدامى وتحديثاً مع كوندي رايس ومع نائب الرئيس ديك تشيني، مشى نحونا الرئيس بوش وقال: "أربع نجوم. واو! ابن ميدلاند عمل بشكل جيد." وتبسمت، ونظرت حول الغرفة وقلت: "سيدي الرئيس، ابنان اثنان من ميدلاند على ما يبدو عملاً بشكل جيد."

وعندما كنا على وشك أن نجلس للعشاء، ضرب الرئيس بوش كأساً ضربة خفيفة وقال: "انحنوا معي، من فضلكم." وعندما قال صلاة الشكر لله قبل الأكل، تأثرت بالفصاحة وببساطة الصلاة على حد سواء. وتذكرت عهد الولاء: أمة واحدة،

تحت رعاية الله. لقد كانت هناك راحة معينة في سماع رئيس الولايات المتحدة يصلي: "للأب المقدس." لقد سررت في تلك الليلة لوجود رجل صاحب إيمان في البيت الأبيض.

وطوال السنوات الحرجة من تاريخ أمريكا التي تلت ذلك، لم يتغير رأيي أبداً. في 7 آذار/مارس 2001، أتيحت لي أول مناقشة مطولة مع دونالد رامسفيلد في غرفة المؤتمرات في مكتبه في وزارة الدفاع. ونجح وزير الدفاع في البقاء جالساً لعدة ساعات، على الرغم من أنه تمشى إلى بار القهوة في مرات قليلة ليعاود ملء فنجان به قهوة بدون كافئين. وحضر الجلسة أيضاً نائب وزير الدفاع بول دي. وولفوويتز والمساعد الخاص لرامسفيلد وهو الرجل الطويل، الصديق الحميم المثقف المهيّب، ستيف كامبون.

وأخبرته: "إنني سأذهب مرة أخرى إلى لجنة الخدمات المسلحة في المجلس غداً، سيدي الوزير. لقد أمضيت في العمل ثمانية شهور وستكون هذه جلسة الاستماع الثامنة."

أجفل رامسفيلد واستدار إلى كامبون: "ستيف، احتفظ بسجل للشهادات في مجلس الشيوخ التي يدعى كبار المدنيين والعسكريين في وزارة الدفاع ليعطوها." ثم استدار إلي ثانية وسألني: "كيف كانت رحلتك الأخيرة إلى المنطقة؟"

في أثناء مساري الوظيفي عرفت عدداً من كبار المدنيين في وزارة الدفاع. والعديد منهم حاولوا أن يتفوقوا على العسكريين باستخدام المختصرات، ولكن هذا الرجل كان مختلفاً. أظن أنني قد أكون سمعته يستخدم الحروف الأولى الدالة على منطقة المسؤولية مرتين، ولكنه كان يبدو دائماً أكثر راحة مع اللغة العادية للمدنيين. ولم يكن هذا يعني أنه لم يكن مركزاً على مسؤولياته العسكرية، بل على العكس تماماً: فسوف أعلم أنه كان ينظر إلى دوره على أنه دور محام للخدمات المسلحة، و متحدٍ لها. دون رامسفيلد ليس مجرد "عضو منضم للمماثلين في التفكير" مثلما

سبق أن وصف العديد من الوزراء، بل هو غير ذلك، إنه قائد كان يريد أن يستخدم أفكاره الخاصة ليحدث التغيير.

في هذا الوقت المبكر من مدة توليه منصبه، كان قد سبق إلى البدء في مناقشة التحول، وتغيير القوات العسكرية "لمواجهة حاجات القرن الحادي والعشرين". وفكرت وهو يتحدث: هذا الرجل يعتزم أن يغير الأشياء. وكنت على يقين أن الأيام القادمة سوف تعطي علامة على بداية أي عدد من الدراسات التي ستجعل رؤساء الخدمات ينكمشون: كيف يقسمون كعكة الموارد؟ وكيف يتكيفون مع "نهاية القوى" لفروعهم؟ وكيف يجعلون القوات المسلحة لأمريكا أكثر "اشتراكاً"؟ واستمرت القائمة. هذا جيد له.

بعض وزراء الدفاع رأوا أنفسهم في موقع خمس نجوم منصّبين أعلى قليلاً فوق كوكبة من الضباط الذين يرفعون أعلامهم والذين يحملون أربع نجوم. رامسفيلد لم يكن مرتفعاً فوقنا إلى الحد الذي يكون فيه في مدار خاص به. الجنرالات والأدميرالات يتعلمون أن يفكروا في أنماط عمودية وأفقية. وأما عقل رامسفيلد فكان يعمل في نمط مائل، في مقطع عرضي لما هو تقليدي. لقد سمعت دمدومات من السخط من قلة من الزملاء، الذين اتهموه بكونه غريباً غير تقليدي للغاية "في القسم البعيد في الميدان الأيسر" عندما أتى الأمر إلى النواحي العملية للدفاع القومي. ربما كان الأمر كذلك، ولكن جلساتي المبكرة معه أقنعتني أنه سيكون جيداً للقوات العسكرية. الشعبية ليست أبداً على الدرجة نفسها من الأهمية مثل الاحترام.

في الرد على سؤال رامسفيلد، وصفت له أحدث اجتماعاتي في البحرين، وقطر، والإمارات العربية. وسأل الوزير عن رد الفعل الذي كنت واجهته في هذه البلدان على أحدث هجمائنا على العديد من الأهداف في العراق. وهذه الضربات تضمنت خيار رد قوي نوعاً ما، أطلق في أعقاب سلسلة من إطلاقات صواريخ اس ايه-2 على طائراتنا. وشرحت له بعناية إجراءات خيار الرد (متجنباً استخدام

الحروف المختصرة) وقلت إن حلفاءنا العرب كانوا متناقضين بشأن النتائج، ولكنهم على وجه العموم قدروا حقيقة أننا نستخدم القوة عندما نرى أن استخدامها كان ضرورياً.

وسأل رامسفيلد: "كيف السعوديون؟"

وشرحت له مشكلة: "الموت بألف جرح" التي كنا نواجهها، وحقيقة أن البعثة العسكرية البريطانية في المملكة العربية السعودية هي أيضاً تواجه المتاعب. وقلت: "إن السعوديين يتصعبون. فهم من جهة، يريدون علاقة حميمة معنا، ومن جهة أخرى لا تريد العائلة المالكة أن تخلق لنفسها مشكلات مع رعاياها، الذين يودون رؤيتنا راحلين."

ثم خصصت عشر دقائق لوصف دقيق لرد الفعل التصعيدي العراقي على دورياتنا الجوية في كل من عملية مراقبة الجنوب، وعملية مراقبة الشمال، وأخبرت الوزير بأننا سنحتاج إلى تعديل تناولنا للموقف، إما بعدد الدوريات، أو المسارات الجوية التي يطيرون فيها، من أجل تخفيض الخطر لملاحينا الجويين.

بقى رامسفيلد هادئاً للحظة، ثم نظر مباشرة إلي بنظرته الزرقاء المحايدة. وقال: "يبدو لي، يا جنرال، أننا نقوم بعمل ثقب فقط في السماء." عمل لا طائل تحته ثم تابع: "نحن نحتاج إلى غايات مادية ملموسة. والسياسة الحالية مفتوحة النهاية. أنا أريد أن أوصي بغايات، وبأهداف، وبمداخل يكون لها معنى. فكر خارج الصندوق. ولا يهمني كيف عملناها دائماً. إن الاحتواء لم يغير سلوك النظام. ما زلنا نرى صدام يطلق النار على ملاحينا الجويين. لديك الكثير من العمل لتعمله، أيها الجنرال."

تبسم رامسفيلد، وكنت على وشك الرد عندما تابع وغير الموضوع الذي كان التركيز عليه وهو يتكلم، وقال بشكل مباشر: "العقوبات المفروضة ضد العراق تنهار. والعرب يقدمون وعوداً غامضة لتقديم المساعدة، ولكنهم لا يسلمون شيئاً. وتحالف

حرب الخليج انخفض إلى وجود البريطانيين ونحن. وذلك لا يمكن أن يدوم إلى الأبد.

كان يتحدث منفجاً، ولذلك قررت أن أتحدث بانفتاح. وقلت: "الموقف الإسرائيلي- الفلسطيني يؤثر على كل شيء هناك، يا سيدي. الانتفاضة تغطي كل وسائل الإعلام في المنطقة في كل يوم. وإلى أن نحل تلك المسألة، فإن العرب لن يخاطروا بمساعدتنا على حل مشكلة صدام."

واستمرت المناقشة لمدة ساعتين أخريين، تجول فيها الحوار بحرية وعلى نحو لم يكن يمكن التكهّن به.

عندما عدت إلى غرفتي في الفندق عبر الشارع من وزارة الدفاع، حاولت أن أنسخ صفحات الملاحظات التي دونتها. كان الاجتماع مرهقاً، ولكنه كان مبهجاً. لم أكن قد قمت بمثل هذا التمرين العقلي منذ تلك الجلسات الطويلة حول طاولة الاجتماعات لقوة المهام لمناورات لوبيزينا في فورت مونرو. وكنت أستطيع أن أفهم لماذا كره بعض الجنرالات الوزير دونالد رامسفيلد ولم يثقوا به، فأنت لم تكن تريد أن تدخل إلى مكتبه مع كدس أنيق من لوحات الإيجاز التي تتبع تسلسلاً منطقياً من أ إلى ب، لأن رامسفيلد سيعيد توجيه الإيجاز بعد أول لوحة. فهو لم يكن يفكر خارج الصندوق وحسب بل لم يكن يعترف بأن الصندوق موجود أصلاً.

وجهني الوزير أن أفكر بسنوات في عمق المستقبل، ولكنني مازلت أتولى مسؤولياتي اليومية، والأسبوعية، والشهرية لإدارة قيادة كبيرة ونشطة. وسافرت إلى منطقة المسؤولية. ووخزت عمليات ردنا في مناطق حظر الطيران في العراق. وأمضيت ساعات مع مدير العمليات الجديد عندي، اللواء في القوات الجوية جين رينيوات، ومدير الاستخبارات الجديد عندي، العميد في الجيش جيف كيمونز، لبناء "مجموعات" أهداف، أي، أنواع المنشآت، في التسهيلات المشكوك فيها للقاعدة ولطالبان في أفغانستان.

وكنْتُ أظن أن سياستنا نحو القاعدة كانت ستتغير في وقت قريب. لم يكن هناك شيء حاسم في الإشارات التي تلقيتها، ولكنني أحسست بخيبة الأمل في وزارة الدفاع وفي مجتمع الاستخبارات نحو الردود الثأرية التي تشبه وخز الدبابيس والوقوف بعيداً والتي استخدمناها في الماضي. إن الإدارة الجديدة سوف تستقر على مدخل قوي للمعالجة، وهذا ما كنت متأكداً منه. وسوف تستغرق وقتاً لنقوم بعمل الاصطفاف اللازم لمواقع السياسة المطلوبة، والمبادرات السياسية، والقدرة العسكرية، ولكن ذلك قادم.

في نيسان/إبريل تلقيت زيارة في ماكديل من إيريك أنتيلا، الذي كان قد تقاعد منذ وقت طويل من الجيش برتبة عقيد. بدا لي مسناً ومتعباً، وربما كان مريضاً. أمضينا ساعتين "ندخن وننكت" على كراسي بمسندين في مكثبي، ونحدث عن الأيام والليالي التي أمضيناها في فيتنام وعما كنا قد تعلمناه.

قال: "أنا كنت محظوظاً، يا توم. كان معي جنود جيدون شجعان شبان، راغبون في أن يقادوا، ولا يستطيع الضابط أن يطلب أي شيء أكثر من ذلك."

وفكرت، كم هو على حق. "ونحن كنا محظوظين أيضاً بك، يا سيدي."

وفي طريقه في الخروج، أخذت هذا الجندي القديم الرائع عبر غرفة الغنائم. كان مهتماً بالأسلحة، ومهتماً بالحديث مع كل عسكري مر عليه. "أنا فخور بك، يا جنرال، كنت أفضل ملازم عرفته في الماضي. كنت تهتم بالجنود، وقد تذكرت ذلك دائماً."

ونظرت إلى الأرض وقد اغرورقت عيناى بالدموع. "أيها العقيد، وأنت اعتيت بهذا الملازم. ولذلك أنا اليوم هنا."

وابتسم إيريك أنتيلا بحكمة وهو يمشي مبتعداً. لم أره ثانية أبداً، لقد مات بعد شهور قليلة لاحقة. ولكن ذكراه، وقيمة الولاء للمرؤوسين التي تذكر به، سوف تبقى في أشاء واحدة من أكثر الأوقات قسوة في حياتي.

طوال ربيع 2001 وحتى الصيف، بقيت حماية قواتنا المنتشرة من الإرهابيين هي الاهتمام الحاضر دائماً. وأمضيت أياماً طويلة وعطلات نهاية الأسبوع مع قادة عناصرنا الجوية، والأرضية، والبحرية، نعمل على التأكد من أنه لن يكون هناك تكرار لأبراج الخبر وكول.

وصل الصيف وجماعتنا في الاستخبارات يعملون مع وكالة الاستخبارات المركزية ومع وكالة استخبارات الدفاع، وهم يجمعون ويحللون إشارات متواصلة ولكنها غير محددة عن نشاط إرهابي مخطط في الشرق الأوسط. وكانت معلومات "كل المصادر"، خليط من الاستخبارات البشرية والفنية. وأمرت قادة العناصر أن يجعلوا جماعتهم يبدو أقل ظهوراً. وفي عدة مناسبات، زدت وضع حماية قواتنا، ومستوى التهديد، ولكنه لم يكن أبداً نتيجة لتهديد محدد. شيء ما كان يجري تديره، ولكن أفضل العقول في وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي لم تستطع أن تحدد التهديدات بأي درجة من اليقين. أين سنرى عملاً إرهابياً؟... ومتى؟

وفي أثناء قراءتي للتقارير التي يتزايد القلق منها عن هجمات محتملة على المنشآت الغربية في المنطقة، تشكلت لدي فكرة. لقد استخدمت القاعدة السيارات، والشاحنات، والزوارق لتكون قنابل انتحارية. ماذا عن طائرات صغيرة محملة بمتفجرات شديدة الانفجار؟ أرسلت ملاحظة، في البداية، إلى سفارتنا في الرياض، ثم إلى السفارات الأخرى في منطقة المسؤولية، وطلبت فيها من السفراء أن يبلغوا قلقي إلى مضيفهم. وقلت: "يجب علينا أن نعمل على تكييف الأمم المضيضة في المنطقة لهذا النوع من التهديد."

في الأسبوع الأول من سبتمبر عملت مع جورج تينت، ومع مساعدة وزير الخارجية، كريستينا روكا، لنرتب اجتماعاً مع الجنرال محمود أحمد، رئيس مديرية الاستخبارات المشتركة بين الخدمات العسكرية الباكستانية، في أثناء زيارة مخطط لها إلى واشنطن. كنت راغباً في النظر بعمق أكبر إلى العلاقات بين باكستان

والطالبان، وأن أقوم إمكانية أن تقوم باكستان بمساعدتنا في الوصول إلى أسامة بن لادن والقاعدة عن طريق زيادة التعاون مع وكالاتنا. وتقرر أن يكون الاجتماع في 10 أيلول/ سبتمبر 2001.

في يوم الجمعة 7 أيلول/ سبتمبر تحدثت إلى أركان الاستخبارات في القيادة المركزية في مسرح قاعدة ماكديل حول أدوار ومسؤوليات القيادة كما صورتها. وعند نهاية العرض، رفع رقيب شاب يده وسأل: "أيها الجنرال، ما الذي ييقظك يقظان في الليل؟"

سؤال شديد. فكرت دقيقة وأجبت: "هجوم إرهابي ضد مركز التجارة العالمي في نيويورك، هذا هو ما ييقظني يقظان في الليل". وكان الرجال والنساء في الجمهور ينصتون باهتمام.

وأضفت: إذا كان للإرهابيين الدوليين أن يضربوا ضربة كبيرة ضد أمريكا فأني أخشى شبح القوات العسكرية للأمة وهي تعمل بصفة مقاتلين داخل حدودنا لأول مرة منذ الستينيات من 1860.

تحدثت عن أعمال الشطط في إعادة البناء بعد الحرب الأهلية، وهو ما أدى بالنتيجة إلى سن قانون قوة البلاد، وهو القانون الذي يمنع القوات العسكرية من الخدمة بدور شرطة داخل الولايات المتحدة. هل سيبقى هذا التحديد بعد هجوم إرهابي متطور بشكل كامل؟

وأكدت: "وهكذا، فالشيء الذي ييقظني يقظان في الليل، أيها الرقيب، هو إمكانية استخدام قواتنا المسلحة ضد المواطنين الأمريكيين. نحن نقوم بواجبنا بشكل جيد، ولكننا مدربون كي نقاتل أعداء أجنب. نحن لسنا ضباط شرطة ولا شريف شرطة أو مكتب التحقيقات الفيدرالي. وإذا طلبنا لتصرف في تلك الصلاحية في أثناء حالة طارئة كبيرة مثل هجوم على مركز التجارة العالمي، فإن الأثر الذي يقع على أمريكا يمكن أن يكون مدمراً. والقانون العسكري لن يجلس بشكل جيد في مجتمع حر مفتوح."

الفصل السابع

نوع جديد من الحرب

خليج سودا - كريت

11 أيلول/سبتمبر، 2001

كان الطريق الضيق الممتد من القاعدة الجوية إلى هانيا يتحلق حول خليج سودا، وينزل عبر غابات الزيتون ومدرجات المصاطب المزروعة بكروم العنب. ودخلنا قرية بيوتها مطلية بطلاء جيرى أبيض وسقوفها من القرميد البرتقالي.

ومددت رجلي في مقعدي. وإلى جانبي في سيارة البحرية من نوع سيدان، كانت كاثيري تنعس، تأخر النفثة كان خطراً مهنيًا. سنكون غداً في باكستان، ولكن بالنسبة إلى الوقت الحالي فأنا أتطلع بأمل إلى الاستمتاع باستراحة التوقف هذه في شمس بحر إيجة، داعياً ملاحى الرحلة إلى عشاء من طعام البحر، وتخزين بعض النوم.

لقد استخدمت معظم ساعات الطيران العشر من قاعدة القوات الجوية في أندروز في واشنطن إلى اليونان لأحرق في الأوراق التي جمعها ضابطى التنفيذى النقيب البحرى فان مونى منذ مغادرة تامبا فى اليوم السابق.

كان هناك تقرير استخباراتى واحد مزعج. الجنرال أحمد شاه مسعود قائد تحالف معارضة الشمال الأفغانى ضد طالبان قد مات، جرح جروحاً قاتلة فى مقره بالقرب من الحدود مع أوزبكستان عندما تظاهر مغتالان عربيان أنهما صحفيان وفجرا قنبلة انتحارية مخبأة فى آلة تصوير الفيديو التى حملها. وهذه حملت توقيع عملية من القاعدة. لم أكن متفاجئاً. فإن لدى أسامة بن لادن وقائد الطالبان الملا عمر الكثير لىكسباه عن طريق إضعاف تحالف الشمال.

أنا تمنيت فقط لو أن أخبار الاغتيال كانت قد وصلتني فى واشنطن قبل

اجتماعي في 10 أيلول/سبتمبر مع الجنرال محمود أحمد من مديرية الاستخبارات المشتركة بين الخدمات العسكرية الباكستانية. لقد كانت محادثتنا هي محادثة ضابط محترف مع آخر، مناقشة "صريحة ومفتوحة"، مثلما يقول الدبلوماسيون. وبكلمات أخرى، مؤدبة ولكنها شديدة. باكستان كانت تحتاج إلى قطع غيار لطائراتها القاذفة المقاتلة اف-16 الأمريكية الصنع، وطائرات نقل سي-130، وطائرات الاستطلاع البحرية بي-3. ونحن كنا بحاجة إلى معلومات استخباراتية صلبة عن القاعدة وأسامة بن لادن، معلومات نستطيع أن نستخدمها لبنني عليها أهدافاً. ومع مباركة الوزير رامسفيلد، وتشجيع جورج تيننت مدير وكالة الاستخبارات المركزية، أخبرت الجنرال محمود أن التعاون كان شائعاً باتجاهين. وقد فهم الرسالة ووعد أن يقدم إيجازاً للرئيس مشرف عن مضمون الاجتماع.

الآن، وقد هبطنا في كريت، قمت أنا وكاثي بفتح حقائب الليلة في جناحنا، في فندق كايدون، المطل على ميناء من موانئ البندقية من القرون الوسطى، ثم توجهنا إلى السوق لنشتري "اللوازم" كما يقولون في ميدلاند، من أجل وجبة خفيفة بعد العصر.

كان باعة السمك يتفنون بصيدهم من الأسماك تحت قبة من الإسمنت المسلح ترجع صدى أصواتهم ونحن نسير نحو محل صديقنا سبيروس مارسيلوس الذي ابتسم ابتسامة عريضة عندما عرفنا.

وصاح: "كالوستي" "أهلاً بعودتكم إلى كريت".

كان سبيروس يعرف لماذا جئنا: من أجل أفضل مجموعة من الزيتون في اليونان. اغترف من براميل بلاستيك كبيرة وعرض علينا نماذج من زيتون مدينة كالاماتا اللامع الأسود القرمزي، وتنويعاً من زيتون أخضر أكبر من مدينة فولوس. وغادرنا محله ومعنا كيس بلاستيك ثقيل بعلب سعة ربع لتر. وبعد ذلك اشترينا جبنة ألمانية أمينثالر ورغيف خبز أسمر محلي محمّص فلاح من نوع مافرو. وما لم نأكله للغداء سوف نتقاسمه مع الملاحين في رحلة طيران في اليوم التالي.

أخذت حماماً، وتشاركت بنزهة مع كاثيري، وتمددت لأخذ إغفاءة. ولم يكن صعباً أن أغط في النوم.

الطرق المتواصل على باب غرفة الفندق أيقظني تماماً في أقل من ثانية، قمت، ودققت غريزياً في ساعة يدي بعد 4.00 تماماً بعد الظهر. شيء ما حدث خطأ، لم تكن يقظتنا مخططة إلا بعد الساعة الخامسة.

"جنرال فرانكس... كان فان موني.

وفتحت الباب.

وقال ووجهه ممتنع: "سيدي، الأفضل أن تدقق في التلفاز. قامت طائرة قبل قليل بالاصطدام بواحد من برجى مركز التجارة العالمي في نيويورك."

ولبست ملابسى بينما وجدت كاثيري مفاتيح التلفاز وأدارته. وقلت وأنا أعبر الباب: "أسامة بن لادن، أنا ذاهب إلى غرفة الاتصالات."

مركز اتصالاتنا في القاعة يمتلك عدة خطوط هاتفية مدنية وجهاز تلفاز كبير موضوع على محطة سي ان ان الدولية. كانت الغرفة مليئة بأركانى. وشاهدنا بصمت والقناة تبث إعادة لأشرطة الفيديو لناطحة السحاب المحترقة. وكان التعليق فوضوياً، كما هو مفهوم، وفي الغالب متناقضاً، وكان من العسير تمييز الصور الحية عن الشريط. ولكن الشاشة الواسعة بعد ذلك التقطت صورة بعدسة مقربة لنفائة ثانية تضرب في البرج الجنوبي.

عندما كنت أشاهد اللهب والدخان الأسود المتصاعد، ظهرت كتابة ملونة عند أسفل الشاشة تقول: "أمريكا تحت الهجوم."

وقلت: "أسامة بن لادن." ابن الك...!

واجتمعت قبضتي بشدة، ولكن عادات الجندي المقاتل عادت. كنت ممثلاً بغضب بارد، ولكنى خارجياً كنت هادئاً. الآن فهمت السبب لاغتيال مسعود. بعد أن توقع بن لادن الثأر الأمريكى في أفغانستان اتخذ عملاً استباقياً شل تحالف الشمال.

وببطء، قبلت الحقيقة الواقعة الجديدة: هذا الإرهابي الذي قتل من قبل مئات من الدبلوماسيين، وأعضاء من الخدمة العسكرية، والمدنيين الأجانب الأبرياء، قد نفذ الآن أنجح هجوم له ضد بلادي، على التراب الأمريكي مباشرة. ولعل في ذهني رؤية غير متوقعة: بن لادن ليس جباناً. إنه خصم قاتل، وهو قائد له قيمته، وقائد جسور لقوات متفانية وقادرة.

ورن خط الهاتف في مقر القيادة المركزية في تامبا. كان رايفل دولونغ. وكنا نستطيع أن نتحدث عبر هذا الخط غير المأمون بينما يقوم جماعة الاتصالات عندي بخلط المكالمات لإقامة اتصال مرمز. وقال مايك: "سيدي الجنرال، تقرير الموقف. تقول تقارير واشنطن أن الطائرتين قد خطفتا، وواحدة من مطار لوغان في بوسطن."

وقلت: "أفهم ذلك، يا رايفل. فعلّ عندنا فريق عمل الأزمة إذا لم تكن قد فعلت من قبل. أقم اتصالاً مع الأركان المشتركة لفريق عمل الأزمة في وزارة الدفاع. اتصل مع سفاراتنا وكبار الضباط والعسكريين الأمريكيين في كل بلدان منطقة المسؤولية..."

بعد سنتي قائداً، وأربع عشرة شهراً قائداً عاماً، كانت هذه الأوامر الأولية تلقائية تقريباً. ولكنني كنت أقاتل مركباً من العواطف والأفكار المتتطعة. إن عدواً منظماً تنظيماً عالياً قد وجه هجوماً قاسياً على أمريكا. كانت نيويورك قلب أمتنا الثقافي، والاقتصادي، والمالي. وقسم من المدينة يحترق.

وفي هذا الوقت الآن كان الرئيس جورج بوش على الشاشة يتحدث من مدرسة فلوريدا، وكان هناك يعرض سياسته التعليمية. وقال إن الأمة قد عانت "هجوماً إرهابياً واضحاً".

وعندما كنت أتحدث مع رايفل، بثت سي إن إن انهيار البرج الجنوبي من مركز التجارة العالمي. أحسست كالمغمور من منظر الدخان المتصاعد كشكل الفطر، والركام، والغبار. وقلت بهدوء: "كل أولئك الناس."

وأعلن رايفل، الضابط البحري المتماस्क: "بند آخر، سيدي. لقد وصلتنا قبل قليل كلمة تفيد أن طائرة بريديتر تطير في منطقة عملية مراقبة الجنوب قد أسقطت من طرف العراقيين."

"استلمت." وأقررت بالاستلام، وأسقطت تلك الحقيقة في الشق الذهني المناسب وقلت: "أعدوا خيار الرد الحركي." مهما يكن ما يجري في نيويورك، فيجب على صدام حسين وعسكرييه أن يفهموا أنه لن يسمح لهم باغتنام الفرصة واستغلال الموقف.

ثم تسلمت بعد ذلك رسالة من اللواء ساي جونسون، الذي كان يقود بعثتنا للاتصال العسكري في المملكة العربية السعودية، وتقول إن الفريق علي بن محيا رئيس الأركان العامة في المملكة العربية السعودية قد ألغى زيارة كنت قد خططت لها لأزوره في الأسبوع القادم في أثناء رحلة عودتي من باكستان. وهذه ملاحظة عقلية أخرى: أسامة بن لادن كان سعودياً. وموقف العائلة المالكة نحو الإرهابيين الذين نشؤوا في وطنهم كان قد تردد طوال سنوات بين التسامح والاستئصال. وكانوا، الآن، خائفين بشأن الارتباط علناً مع العسكريين الأمريكيين.

كلمت مايك دولونغ مرة ثانية بأمر جديد: "يا رايفل، اتصل بقيادة العمليات الخاصة الأمريكية والجناح السادس للحركة الجوية في ماكديل فوراً. واجعلهم ينتقلون إلى حماية القوات بمستوى دلتا، د." إذا كانت هناك خلايا إرهابية متعددة تعمل في هذا الثلاثاء، فإن مقر القيادة المركزية وقاعدة القوات الجوية في ماكديل ستكون أهدافاً واضحة، وأنا أريد شعبنا ومنشأتنا محمية.

بعد دقائق قليلة، هاتفني رايفل مرة ثانية: "طائرة ثالثة، سيدي، لقد اصطدمت الآن بوزارة الدفاع. هيكل كبير مملوء بالوقود، مثل الطائرتين الأخريين. وهي على الجانب الغربي، وهناك الكثير من الأضرار."

وفكرت. كم العدد فوق ذلك؟

بينما رايفل يتحدث، عرضت سي إن إن الواجهة الرمادية المألوفة لوزارة الدفاع وهي تغلي بدخان أسود ولهب برتقالي.

وأعلن رايفل: "مركز القيادة العسكرية القومية في وزارة الدفاع ما يزال مأهولاً. ولكن الاتصالات صعبة."

"تسلمت." وبعد الإفادة بالاستلام، كانت أفكاره تقفز إلى الأمام. كنت أعرف هذا سلفاً: أمريكا سوف ترد رداً عسكرياً. وسيكون ذلك الرد موجهاً إلى القاعدة. وسوف يشن في أفغانستان. قائد القيادة المركزية والضباط الكبار لن يكون لديهم وقت ليحزنوا. فهذا لم يكن مجرد انتهاك إرهابي آخر: هذه الهجمات كانت فعلاً حربياً واضحاً. وأول معارك من تلك الحرب سيكون القتال فيها في منطقة مسؤوليتي.

رايفل، اعرف بأسرع ما يمكن حالة قاذفات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. كم صاروخاً سيكون متوافراً للإطلاق إلى أفغانستان في أربع وعشرين ساعة؟ وكم سيكون جاهزاً في ثمان وأربعين ساعة؟

وقال مايك: "نعم، دائماً، سيدي. وبالمناسبة، فإن إدارة الطيران المدني قد أغلقت كل الفضاء الجوي الأمريكي، وأرّضت كل الطيران. وأمر الوزير رامسفيلد بمستوى التهديد أن يكون دلتا، د، لجميع القوات العسكرية المنتشرة."

أفدت باستلام المعلومات. لا يؤمر بمستوى دلتا، د، إلا عندما يكون الهجوم وشيكاً فقط، أو أنه حدث من قبل.

واستمرت تغطية التلفاز في كابوس من دون انقطاع. وانهار قطاع من سقف وزارة الدفاع. وبعد لحظات جاءت لقطات صور بالعدسة المقربة ومهزوزة لدخان يتصاعد من مرعى أخضر جنوب شرق بيتسبيرغ، حيث اصطدمت بالأرض طائرة مخطوفة رابعة، هي رحلة 93 للخطوط الجوية المتحدة. وقتل كل الذين كانوا على متنها.

لم أبق قادراً على العمل من هذا الهاتف. كنت بحاجة إلى وصلات صوت وبيانات مأمونة عبر الأقمار. وقال العاملون في اتصالاتي إن الأمر يستغرق ساعة تقريباً لتوصيل كبلات الألياف البصرية من سطح الفندق، حيث كانوا قد نصبوا هوائيات القمر، والنزول بها إلى خارج المبنى إلى غرفة الاتصالات.

وقلت: "ابن الك... سأعمل على السطح."

وجلست منحنيّاً على كرسي بلاستيك على سطح الإسمنت المسلح المغطى بالحصباء لفندق كايدون أحدث عبر وصلة قمر مرمر إلى أركان القيادة المشتركة في فلوريدا. ومع الإشارة إلى ملاحظات، وجهتُ جين رينيوارت أن يبدأ بتصويب الضرب لأفغانستان. وكنا قد كافحنا، مع معلومات استخباراتية غير كاملة، لتحديد معسكرات تدريب القاعدة، وثكناتها، ومنشآت القيادة والسيطرة، ومراكز الاتصالات، ومجمعات المساندة. وقد كنا بنينا مجموعات أهداف لمنشآت طالبان الرئيسية، ومواقع الدفاع الجوي، ورادارات الإنذار المبكر. وقد حان الوقت الذي نجني فيه ثمرة ذلك الجهد.

بعد ذلك، وجهت الأركان للتنسيق مع اللواء البحري ويلي مور للتأكد من أن سفننا في المنطقة قد ألغت كل زيارات الموانئ وأن تنتقل فوراً إلى البحر. كانت صورة السفينة الأمريكية كول وهي تحترق في مرفأ عدن ما تزال تتناوبني.

وبعد أن بردت شمس الأصيل وامتدت الظلال نازلة من التلال المجاورة، كنت قد شطبت من قائمتي مهام العمل الفوري واحدة إثر واحدة. وعندما كنت أعمل إلى جانب هوائيات القمر، جلس فان موني، ومساعدتي، المقدم جيف هينز، إلى جوارني يتدبرون الهواتف، ويستقبلون ويسلمون المعلومات والأوامر. وبعد الصدمة الأولى لصور التلفاز، اتخذ كل واحد منا الموقف البارد الاحترافي المتفاني. وأملت تعليمات فورية إلى كل ممثل عسكري أمريكي كبير في المنطقة للإفادة باستلام الأمر بالانتقال إلى مستوى التهديد دلتا، د. قد تكون القاعدة ما تزال تخطط لتضرب المزيد من الأهداف الأمريكية، وخصوصاً الوحدات العسكرية المعزولة، ولا أريد

لقادتنا أن يؤخذوا على حين غرة من دون احتراز في حالة إن كانوا لم يتسلموا بعد الأمر من وزارة الدفاع.

وعندما حل الغسق على السطح، سمعت صوتاً غريباً، أقرب إلى أن يكون رنين جرس إلكتروني من أي شيء حي. لقد كان دعوة غروب الشمس لبوم أثينا، تلك الطيور الصغيرة ذات العينين الواسعتين التي ظهرت صورها أول ما ظهرت على عملة معدنية إغريقية قبل 2500 عام. طيور البوم الصغيرة تلك كانت قد أرسلت نداءاتها المترددة عبر تلال إيجه خلال القرون عن السلام والحرب. وهي الآن أعلنت وصول هبوط الظلام، على اليوم الأول من حرب قد تدوم لعقود إلى حد كبير.

واستندت للخلف على كرسي البلاستيك الذي يصدر صوت الصرير وأرحت كتفي. وكانت عضلة بطن ساقي الأيمن تختلج وتتصلب، وهي تذكر بليل حار في كانون الأول/ديسمبر في بنه بهووك، قبل ما يصل إلى أربعة وثلاثين عاماً مضت. وأخبرت نائبي: "يا رايفل، أنا أخطط لأتوجه عائداً إلى تامبا بأسرع ما أستطيع."

وأجاب: "الفضاء الجوي الأمريكي مغلق، يا سيدي."

وأكد هذا الملاحون العاملون معي. سيكون من المستحيل أن تقدم خطة لرحلة جوية. ونظرت في متابعة الرحلة لمقابلة الرئيس مشرف في باكستان. فإذا كان هناك وقت لبعض لي الذراع، فهو الآن. لقد تحدث مشرف عن المساعدة الدولية في التعامل مع طالبان عندما تقابلنا في كانون الثاني/يناير. حسناً، سيكون هناك الكثير من المساعدة الأمريكية القادمة إذا التحق معنا في هذا القتال. ومع وجود ركنه في هذا العالم الآن في بؤرة تقاطع التصويب للقوات العسكرية الأمريكية فسوف يتوجب عليه أن يصرح مع أي جانب يقف وبشكل سريع.

ولكنني كنت أريد أيضاً أن أرجع إلى تامبا. ولذلك أخبرت رايفل بأن يعلم هوغ شيلتون بأنني سوف أنتظر ست ساعات قبل أن أقرر إلى أي اتجاه أطيّر.

وبعد ذلك، عقدت اجتماعاً للتشاور مع رايفل وجين رينيوارت. وقلت: "لا بأس، هذا هو ما لدينا. إن القاعدة فقط وأسامة بن لادن يمتلكون القدرة على شن عملية من هذا الحجم. وأريدك يا جين، أنت وجيف كيمونز أن تركزوا على الضبط الدقيق لمجموعات الأهداف في أفغانستان." ثم فكرت لحظة وسألت: "ما هي آخر تقديرات الإصابات؟"

وأجاب رايفل دولونغ، محافظاً على ابتعاد العاطفة عن صوته: "تحدث وسائل الإعلام عن أي عدد بين ستة آلاف إلى عشرة آلاف قتيل في نيويورك وحدها. وهم يراجعون ذلك، ولكنها ستكون سيئة."

وأضاف جين: "مئات عدة مفقودون في وزارة الدفاع، سيدي. وهناك حوالي ثمانين تأكد موتهم حتى الآن."

وقلت: "دعونا نبني مجموعات الأهداف على خمسة افتراضات: الأول، أن الهجوم على أمريكا قد وجهته القاعدة التي تعمل من خارج أفغانستان. والثاني، أن الذين خططوا وأمروا بالضرب يتمركزون في أفغانستان. والثالث، أنه سوف يكون هناك قرار قومي بالضرب. والرابع، أن السبب الداعي لهذا العمل لن يكون موضع خلاف من الناحية القانونية. والخامس، أننا سوف نتسلم إما موافقة أو تعاوناً من كل القادة في المنطقة لضرب أفغانستان."

وأضاف جين: "تسلمت ذلك، سيدي"

وقلت: "لا بأس، دعونا نذهب للعمل."

أحضر لي فان موني تقارير الموقف السري عن صورايخ توماهوك الذي كنت قد طلبته من قبل. سيكون لدينا 80 صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي في سلال الإطلاق في البحر العربي في غضون أربع وعشرين ساعة، وزيادة حتى 200 في غضون ثمان وأربعين ساعة. وعندما قرأت التقرير كانت الغواصات الهجومية الغاطسة صنف لوس أنجيلوس ومدمرات صنف بيرك تسير مسرعة نحو مضيق هرمز بأقصى سرعة ممكنة للسفن.

هبط الظلام الآن، وتوقفت النسمات تماماً. وبوم أثينا ينظر ويزقزق، وأنا عملت في البنود الأخيرة من قائمتي للعمل الفوري.

هذه الخطوات العملية ساعدتني على أن أحافظ على أفكارى منسجمة. ولكنها لم تكن سهلة. كان عقلي يتقاذز جيئة وذهاباً بسرعة عالية. ما هي قوة جندنا بالضبط في المنطقة؟ حالة جاهزيتهم؟ وكم عدد المجموعات العملياتية التي تستطيع القاعدة أن تضعها في الميدان؟ هل فعلت ما يكفي لحماية قواتنا؟ هل قتل أي واحد من أصدقائي في وزارة الدفاع؟

لم يكن لدي أدنى شك أننا ذاهبون إلى الحرب. وستكون حرباً لا تشبه أي حرب سبق أن شُنت من قبل. وسيكون هناك قرار قومي لوضع القوات على الأرض، وأمريكا الآن نشرت تقانة عسكرية لم تكن قد خطرت ولا في الخيال عندما كنت مع فرسان الخيالة الأولى في عاصفة الصحراء، قبل عقد واحد فقط من الزمان. وقائمة الأمانى لدى قوة مهام مناورات لويزيانا هي الآن معدات عملياتية. والأسلحة لن تكون مشكلة. ولكن هل كنت أنا على مستوى التحدي بكوني أعلى قائد مقاتل في هذا النوع الجديد من الحرب؟

جلست مستنداً إلى الخلف في الكرسي البلاستيكي القاسي على ظهر الفندق، وتفكرت في ذلك الحديث الذي أعطيته إلى أركان الاستخبارات في القيادة المركزية في يوم الجمعة الماضية. أمريكا في حالة صدمة عميقة، وهي تترنح من صور الطائرات وهي تتحطم في المباني وتلك الأبراج الشامخة تنهار مثل بهارج ملتهبة. هل سيقتنع إخواني المواطنون الآن بأن يتخلوا عن حرياتهم الفردية التي كسبوها بصعوبة ليجنوا أمناً أكثر بقليل في عالم هو بوضوح غير مأمون؟

وعندما وقفت، جاءتني فكرة ثانية. اليوم مثل يوم بيرل هاربر. العالم قبل اليوم كان في طريق، ولن يكون أبداً على الطريق نفسها ثانية. نحن نقف اليوم على منعطف في التاريخ.

لاحقاً في ذلك المساء، قمت أنا وكاثي باصطحاب الملاحين الجويين إلى عشاء وقد أخذ الإرهاق مني مأخذه ولم يبق شيء لأعمله غير الانتظار للترخيص بالطيران. أما أعضاء أركاننا المسافرين فقد بقوا خلفنا، مقيدون إلى هواتفهم، وحواسيبهم، لقد مشينا خلال الواجهة المائية الهادئة إلى الفناء المضاء بالمصابيح الكهربائية والمشغول بكتل الحجر الرملي لمحل مايلوس تافيرنا. وحالما تقاطرنا إلى طاولتنا الركنية، انخفض الحديث المتحمس المتدفق في العادة للزبائن اليونانيين إلى أن صار همساً. وتفرست في الطاولات المجاورة، فإذا الوجوه في كل مكان بادية الحزن. واقترب منا يانيس، نادلنا المبتسم عادة، اقترب بصمت وصافحني كأنه في جنازة.

وقال الرجل: "كل الناس آسفون، أيها الجنرال."

بعد منتصف الليل تماماً، قدم رايفل دولونغ تقريراً عن الحالة في وزارة الدفاع. وقال: "إن وزير الدفاع رامسفيلد بقي في المبنى وساعد في إخلاء بعض الإصابات. وتدعو خطة الأزمة بنقل نائب وزير الدفاع إلى منشأة قيادة بديلة. الموقع آر، مع الأعضاء الرئيسيين للقيادة القومية. وأعتقد أنهم الآن في المكان المحدد، وقدّرت أن رامسفيلد ما يزال في وزارة الدفاع، وبول وولفوفيتز في الموقع آر.

وأغلقت عيني وهزرت رأسي. إن الانتقال إلى الموقع آر كان جزءاً من خطة أمريكا للرد على هجوم نووي وشيك. فما الذي وصلنا إليه؟

وبعد أن انقضى الليل، حدث رايفل معلوماتي عن جاهزية قواتنا، ومواقع مجموعات المعركة لحاملة طائراتنا، وجدول "القوة العالمية" للمهام التي تقوم بها قاذفات ستيلث بي-2 (المتسللة خلسة) التي تطير من قاعدة القوات الجوية في وايتمان في ميسوري.

وكنت قد تلقيت إنذاراً استخباراتياً بأن ما قد يصل إلى ثلاثين ضربة إرهابية إضافية كانت ممكنة في كل أنحاء العالم. ولكن لم يكن هناك المزيد من الهجمات...

حتى الآن. ربما كان ذلك لأننا رفضنا الكلام، واحترزنا بإغلاق النقاط المعرضة للهجوم برفع مستوى التهديد إلى دلتا، د.

أما الآن فكانت سي ان ان تبث شريطاً عن الرئيس بوش وهو يطير راجعاً إلى أندروز ويهبط في مرجة البيت الأبيض من الطائرة العمودية البحرية رقم واحد^(*). الأزمة المباشرة انتهت: لقد رجع الرئيس إلى المكتب البيضاوي، ووزير الدفاع كان في وزارة الدفاع المجروحة. كانت أمريكا الآن ترسم على وجهها تعابير "الحزم الشديد". لقد كنت فخوراً ببلادي.

في الصباح التالي، تسلم ملاحو الطائرة الإذن من إدارة المرور الجوي اليونانية لنقل من كريت ونتوجه غرباً. لم تكن نملك الترخيص لدخول الفضاء الجوي للولايات المتحدة، ولكنني كنت واثقاً أن الترخيص سيأتي.

بعد تسعين دقيقة، عندما كنا نعبّر البحر الأبيض المتوسط الغربي، تحدثت بالهاتف المأمون مع هوغ شيلتون.

وقال: "يا توم، كل واحد في واشنطن، من الرئيس فنانزلاً، منكّبون على هذا الموضوع".

وسألت: "إننا ننظر في عمليات خطيرة ضد القاعدة وأفغانستان؟"

"اعتبر هذا ممكناً، يا توم"

في الوقت الذي صرنا فيه فوق إسبانيا، كانت وزارة الدفاع قد صرحت للطائرة سبار 06 على طول الطريق إلى تامبا. وعملت باستمرار على طاولتي، ولعبت لعبة الحرب مع أركاني الموجودين على متن الطائرة والقيادة العليا في القيادة المركزية. وقد قوطعت بعدة مكالمات هاتفية. الأولى كانت من جلالة الملك عبد الله ملك الأردن، وهو حليف قريب وصديق شخصي. وقال: "تستطيع أن تعتمد على الأردن ليقف مع أمريكا".

(*) أي طائرة من سلاح مشاة البحرية الأمريكية تحمل الرئيس الأمريكي تدعى البحرية واحد، وهي عادة طائرة عمودية من نوع معين.

"ذلك يعني الكثير الآن تماماً، سيدي."

ومكالمة أخرى جاءت من الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، ولي عهد البحرين وقائد القوات العسكرية لأمته. وقال: "البحرين معكم." وهكذا فإن جهودنا في الالتزام طوال الأربعة عشر شهراً الماضية تثمر على ما يظهر. فدول الخليج هذه ستقف مع أمريكا في المدة القادمة.

كنت ما أزال أعيش على القهوة والأدريالين، ولكني عرفت أنني كنت بحاجة إلى بعض النوم في الحال. وعندما جلست للخلف لأتمدد في مقعدي، دخلت كاثي المقصورة، وكانت عائدة من المطبخ مع شراب كوك للحمية. وعندما كانت هناك تحدثت مع واحد من ضباط صف الاتصالات، وأشار، عرضاً تقريباً، أننا كنا نمتلك السماء لنا وحدنا. "جميع الذبذبات اللاسلكية صامتة. ليس هناك أي مرور فوق الأطلسي."

إن الصدمة المتراكمة طوال الست عشرة ساعة الماضية قد ضربت كاثي فجأة بشدة، وتحول ذلك التعليق الوجيز إلى صورة قاسية لعالم أخلي تماماً بشكل شرير من التجارة المسالمة. هي، أيضاً شعرت بمنعطف التاريخ.

هبطنا في ماكديل بعد الساعة 1500 تماماً في يوم الأربعاء في 12 أيلول/سبتمبر. وكنت قد نلت ما مجموعه أربع ساعات من النوم في الثلاثين ساعة الماضية، ولكن كان هناك أيام طويلة عديدة، وليال، تنتظر أمامنا.

عندما غادرنا الطائرة تحدثت مع جيف هينز. "أرجو أن تتأكد من قيام المساعدين المتطوعين بوضع ذلك السرير في مكثبي. فأنا سوف أنام في المقر لبعض الوقت."

راقبتني كاثي بصمت وأنا أتحدث. لقد دام زواجنا طوال ثلاثة وثلاثين عاماً تقريباً وحربين. وهذه ستكون حربنا الثالثة. كانت تعرف عادات عملي جيداً ولم تشتك أبداً.

تعانقنا، وقالت: "تأكد أنك تأكل وتتناول بعض النوم عندما تستطيع".

"كوني على يقين، يا عزيزتي. " حاولت أن يكون صوتي مقنعاً. وكانت هي تعلم بشكل أفضل.

كنت ما أزال في ملابس الرياضة من رحلة الطائرة. وفي مسافة السواقة القصيرة إلى مقر القيادة المركزية، لاحظنا، برغم ذلك، أن رجال شرطة أمن القوات الجوية يلبسون البزات الصحراوية المموهة، وصدريه واقية من الرصاص، وخوذات، وكانوا مسلحين برشاشات آلية ام-4 وبنادق يدوية.

وقامت مفرزة من رجال الطيران قرب أكبر حظيرة بتكديس أكياس رمل خضراء في نقطة تفتيش على شكل حذوة حصان وارتفاع صدر الرجل. وعندما عبرنا، رأيت رشاشاتهم ام-60 السوداء معبأة بشريط ذخيرة. أكياس الرمل، والرشاشات، إشارة عفنة في النسمات الرطبة، كانت البزات والخوذات مختلفة، ولكن الأسلحة كانت هي نفسها. كان يمكن لهذا الخط أن يكون خط الطيران في فيتنام في أثناء هجوم تيت.

وعلى الرغم من ذلك، فالحرب، في هذه المرة، قد أحضرت إلى تراب أمريكا. بالنسبة إلى أركان القيادة المركزية وبالنسبة إلي، كانت الأيام العشرة ولياليها الممتدة من يوم الثلاثاء 11 أيلول/سبتمبر إلى يوم الجمعة 21 سبتمبر 2001، كانت وقتاً للتركيز الشديد، والإعياء، وفرط الحمل من الكافئين. وبدأت بعض الأيام وكأنها لا تنتهي أبداً، ومررت ببعض الليالي إلى الأمام بتشويش سريع. وكان هذا، بطريقة ما، مثل القتال، ولكنه بدون الضجيج، أو الإحساس بالخطر الوشيك، أو بتلك الروح العالية الغربية التي تعقب التماس.

ولكني أمتلك فعلاً ذكريات حية جداً عن ذلك الوقت.

في المقر في ذلك الأصيل الأول، غيرت إلى البزة الصحراوية المموهة واجتمعت أولاً مع رايفل دولونغ ومع رئيس أركانني، العقيد في الجيش مايكل هيز.

وكان مايكل احترافياً صلباً، إنه رجل عرّفته منذ العام 1981 في ألمانيا. وما كنت لأطلب إلى جانبي أناساً أفضل من رايفل ومايكل هيز... وكنت أعرف ذلك.

وتفرست في كدسة من الوثائق السرية التي وضعت على طاولتي حسب ترتيب الاستعجال، ولاحظت أن فريق عمل الأزمة كان يعمل على مدار الساعة منذ أن بدأت الأزمة. وقلت: إن جميع الأركان سوف يعملون ساعات طويلة. وأريد أن أتأكد أن الناس لا يحترقون إعياءً. هذه الأزمة ليست مجرد أزمة عابرة. نحن في هذه الأزمة لمدة طويلة.

وكتب مايكل ملاحظة سريعة وقال: "نعم سيدي مفهوم."

وسأل رايفل: "هل تريد أن ترى المديرين في هذا الأصل؟"

وقلت: "أعطني عشر دقائق" وأنا أنظر إلى رسائلي الموضوعة على سجل الأحداث اليومية.

عندما غادرا، نظرت إلى الحامل الذي يقع إلى يمين طاولتي، وعليه خريطة تعبوية لأفغانستان. بينما شغلت خريطة العراق، حيث تشتبك القيادة المركزية مع دفاعات صدام حسين الجوية في مناطق حظر الطيران، حاملاً آخر إلى اليسار من طاولتي.

ارتشفت رشفة من القهوة الساخنة، والتقطت هاتف المفتاح الأحمر خلف طاولتي، فمع قدرة هذا الهاتف على الترميز للأسرار العليا وقدرته على البرمجة من نقطة إلى نقطة، سيكون وصلة مهمة لي مع وزارة الدفاع ومع البيت الأبيض في الأسابيع القادمة. لمست زراً واحداً على الهاتف، فأجاب هوغ شيلتون فوراً.

وقال هوغ: "الرئيس مصمم على العمل، يا توم. والوزير رامسفيلد يريد خيارات عسكرية لأفغانستان."

"متى يريدوها؟"

"الناس في البيت الأبيض وفي المبنى يسرون قدماً بالعزم الكامل. كم من الوقت يلزمك لتستطيع أن تقدم سلسلة كاملة من التصورات العملية؟"

سلسلة كاملة. لا مزيد من الردود الثأرية الرمزية. لا مزيد من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي التي تكلف ملايين الدولارات وتقذف على الخيام الفارغة. لا مزيد من وخزات الدبابيس.

توقفت قبل أن أجيب. كل القيادات المقاتلة الموحدة مكلفة أن "تبنى" وتديم خططاً معقدة لتواجه تنويعاً واسعة من الطوارئ. فعلى سبيل المثال، قيادة المحيط الهادئ الأمريكية لديها العديد من خطط العمليات المفصلة الموضوعة على الرف لترد على عدوان من كوريا الشمالية. وعشرات من الخطط المماثلة كانت موجودة في القيادة الجنوبية والقيادة الأوروبية.

ولدينا في القيادة المركزية أكثر من عشر مسودات للطوارئ، تضع خططاً دقيقة لحالات الرهائن، وإخلاء السفارات، وفتح مضيق هرمز، والتدخل إذا تجاوز العراقيون "خطوطاً حمراً" معينة. ولدينا مجموعات أهداف القاعدة وطالبان في أفغانستان وخطط لضرب تلك الأهداف بصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي وبالقاذفات المأهولة بالطيارين.

ولكن القيادة المركزية لم تطور خطة للعمليات الأرضية التقليدية في أفغانستان. ولا تم اتخاذ الترتيبات الدبلوماسية مع جيران أفغانستان من أجل تحديد القواعد، والتمرحل، والطيران فوق الأراضي الأجنبية، وحق الدخول (*). وببساطة لم يكن هناك رغبة في واشنطن من أجل القتال وجهاً لوجه في هذه البلاد النائية، البدائية، القارية المغلقة، التي تبعد بمسافة نصف محيط الكرة الأرضية، لا رغبة منذ 1993 على الأقل.

ومن لهجة هوغ شيلتون، اتضح أن هذا يوشك أن يتغير. القوات العسكرية الأمريكية كانت ستذهب إلى الحرب في بلاد حشد فيها الاتحاد السوفيتي قبل نحو

(*) الإذن والحرية أو القدرة على الدخول والاقتراب والاتصال أو المرور من وإلى مكان، أو أشياء أو أشخاص.

عشرين عاماً 620.000 مقاتل طوال إحدى عشرة سنة، وكلفته 15.000 قتيل و 55.000 جريح تقريباً.

كنت أعرف أن دون رامسفيلد كان يريد نوعاً مختلفاً من العمليات إلى حد بعيد. ففي الأشهر الثمانية الأخيرة، تعلمت الكثير عن عقل رامسفيلد. قد يكون وزير حرب جيداً تماماً. وكان هناك مشكلات عديدة جداً مجبولة في طبيعة شن حرب في أفغانستان النائية، القارية، المغلقة الجبلية تجعل من واجب أي خطة قابلة للعمل أن تتجاوز التفكير التقليدي. ولم يكن رامسفيلد يملك إلا وقتاً صغيراً لما رآه حلولاً تفتقر إلى الأصالة التي تتحدى المشكلات الجديدة. كان يحب التفكير الخلاق بالعاصفة العقلية. واستجاب استجابة جيدة للمفاهيم الواسعة الخيال. ولسنوات خلت كنت قد عملت في التجديد وفي بناء المرونة التعبوية. والآن حان الوقت لنرى إن كانت تلك الجهود سوف تثمر.

لقد ساعدني أن أعرف أن الرئيس كان مصمماً على العمل. كانت أمريكا قد وصلت إلى نقطة النهاية مع أنصاف الإجراءات ووخزات الدبابيس، كنا في حالة حرب.

"هوغ، سوف يكون لديك خيارات تصورية مع الغد. وافترضني هو أن أمريكا لن تفعل أي شيء ما لم نعزم على فعل شيء ما. ولن تتسلم مني خطة صفقةٍ من معصم تطلق الانفاثات والصواريخ وتأمل بنتيجة طيبة."

"أفهم وأوافق، يا توم."

وتابعت: سوف أستغرق أسبوعاً إلى عشرة أيام من أجل مسار العمل المقترح الكامل. وفي أثناء هذا الوقت، يجب أن نبدأ في تمرحل السفن، والطيران، والجند لنقيم الشروط من أجل: أولاً: تدمير القاعدة في أفغانستان، وثانياً: إزالة نظام طالبان. وهذان العاملان هما اللذان يجب أن يكونا المهمتين الواجبتين الرئيسيتين.

وقال هوغ: "متفق عليه. الزمن حيوي."

كنا كلانا نفكر في تحذيرات استخباراتية من هجمات إرهابية جديدة محتملة. وربما تكون المسألة مسألة الرد بالضرب قبل أن نضرب ثانية. كان الزمن حرجاً فعلاً.

وأعدت الهاتف الأحمر إلى مهده وفكرت للحظة، حول نوع التهديد الجديد الذي كانت أمريكا تواجهه، والنوع الجديد من الحرب التي كنا على وشك أن نشنها. لقد تحدث القادة والعلماء دائماً عن فن شن الحرب. ومع ذلك فإن أي حرب تتضمن مجابهة حقائق معينة قاسية، وباردة. علم الحرب هو اكتساب أكمل فهم ممكن لنقاط قوة العدو، وقدراته، ونواياه، وإعطاء الدراسة الكافية للأرض التي سيحدث القتال عليها، وتقويم متطلبات المواصلات، ومساندة القوات بالأعداد الكافية، وفي هذه الحالة التي تقع على مسافة نصف الطريق حول العالم. واختيار المجموعة المشتركة الصحيحة من الوحدات لإنجاز المهمة، وهي الناحية المعروفة في التخطيط العسكري باسم "ارتباط القوات" والذي يستدعي مقارنة الأسلحة والقدرات الصديقة مع الأسلحة والقدرات لدى العدو. وكل هذه العناصر أسلمت نفسها للنمذجة، وللأحكام الصارمة للتحليل التجريبي.

وكل هذا العلم سوف يتوجب شرحه لدون رامسفيلد، ولفريق الأمن القومي، وفي نهاية المطاف لجورج دبليو. بوش. وبعدئذ سوف نناقش فن الحرب: قيمة سرعة المناورة، وكتلة القوة، والاقتصاد بالجهد، والمخاطرة، والتوقيت ونهاية المهمة..(*) وإستراتيجية الخروج.

الخطا التي سأعرضها سوف تشتمل على الفن والعلم معاً. فلن نكرر أخطاء السوفييت. نحن سوف ندمر شبكة القاعدة في أفغانستان. وسوف نزيح الطالبان من السلطة. وكما يمكن لأبي أن يكون قد قال: "الكثير من العمل لنفعله... وليس الوقت طويلاً لنفعله."

(*) مجموعة الشروط المطلوبة التي تحدد إنجاز القائد لأهدافه.

في وقت متأخر من أصيل يوم 12 أيلول/سبتمبر، تقاطر إلى مكثبي كبار أركان القيادة المركزية، ومن جملتهم رؤساء الإدارات. ولم يكن هناك أي شيء من المزاح المعتاد قبل الاجتماع.

وعندما نظرت إلى وجوههم، كنت أشعر بالامتنان لنوعية الفريق الذي جلس معي في ذلك الأصيل من أيلول/سبتمبر.

دولونغ كان ضابطاً لامعاً، كاملاً، تمارس في القتال وهو شاب يطير في الطائرات العمودية البحرية في أثناء القتال الكثيف في فيتنام، ثم ساعد لاحقاً في الإخلاء الفوضوي لسايفون. ومثل معظم ضباطي الكبار، كان قد تولى قيادة وحدات مقاتلة في الحرب، ولقبه رايفل "البندقية"، وهو لقب مكتسب مستحق.

وجين رينيوارت، مدير العمليات، اكتسب تعيينه ضابطاً من مدرسة تدريب الضباط وتولى لاحقاً قيادة سرب في حرب الخليج من نفاثات الهجوم الأرضي نوع ايه-10 وورث هوغ. في التسعينات من 1990 صار الجنرال القائد لقوة المهام المشتركة لجنوب غرب آسيا، وهي القوة التي قامت بالدوريات في المنطقة الجنوبية لحظر الطيران في العراق. وهذه المهمة أعطته خبرة لا تقدر بثمن، لا بالقوة الجوية وحسب بل بالتحالفات المتعددة الجنسيات أيضاً، وهي خبرة ستكون ذخراً في الشهور القادمة.

وكان مديري للإمداد والتموين هو اللواء في الجيش ديني جاكسون. فإذا أطلقنا جهداً مستمراً في المناطق النائية من جنوب غرب آسيا، فإن تحدي الإمداد بعشرات الآلاف من الأطنان من المعدات، ووقود النفاثات، والذخائر، والطعام، والخيام، ومستشفيات الميدان، والمولدات، ومواجهة احتياجات المعونة الإنسانية لملايين اللاجئين، ستكون كلها مسؤوليته. وكان ديني ضابط إمداد وتموين واسع الخيال، ونشيطاً، ومعجباً متحمساً بتجديدات القطاع الخاص. وفي الحقيقة، فقد سبق له أن استعار أساليب من المدير التنفيذي الرئيس جيف بيزوس في أمازون

دوت كوم لبناء نظام توزيع محوسب، وفق أحدث الأفكار لقواتنا المنتشرة في المنطقة.

أما مدير الاستخبارات، فكان العميد في الجيش جيف كيمونز، وهو خبير في الاستطلاع الإستراتيجي واستطلاع ميدان المعركة. ويمتلك خلفية في العمليات الخاصة، التي كنت أعرف أنها ستثبت أنها لا تقدر بثمن في الأسابيع القادمة، وكان من بين أكثر العسكريين خبرة من المشغلين العاملين للمركبات الجوية بدون طيار، ومن جعلتها مركبة بريديتر الجوية، والنفثة الجديدة بعيدة المدى في القوات الجوية المعروفة باسم غلوبال هوك (الصقر العالمي). وكان جيف ماهراً في إدارة مصادر الاستخبارات البشرية، التي ساعدت على تفسير خيبة أمله في تقارير الاستخبارات غير المحددة والقديمة التي تلقيناها عن القاعدة.

وكان مديرنا لشؤون الشرطة العسكرية هو العميد البحري جي "رابت" كامبل، وهو محترف مطلع ستثبت مهاراته التفاوضية أنها حاسمة في العمل مع وزارة الخارجية ومع سفرائنا الإقليميين في ترتيب القواعد المطلوبة، والتمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية، في البلاد المحايدة لأفغانستان.

وضابطي الكبير الجديد من وكالة الاستخبارات المركزية كان بات هيلي، وكان واحداً من عدة صلات وصل استخباراتية موثوقة طورتها القيادة المركزية مع الوكالات الحكومية الأمريكية، ومع الحلفاء، والمنظمات الدولية. في أثناء الفوضى المحيطة بكارثة، يحدث لا محالة قَدْر من دوران الدواليب السريع بدون مسير، وقَدْر من التخبط. وفي هذه الأزمة كان الغبار ما يزال حرقياً يتساقط. في مثل هذه الحالة، كانت المنظمة ذات العلاقات المكثفة عمودياً وأفقياً معاً، تستطيع أن تمارس قوة مؤثرة غير معتادة. وبات هيلي كان يمتلك تلك العلاقات، وكنت قد عازمت على استخدامها.

وكان صلة الوصل بيني وبين وزارة الخارجية مستشاري السياسي السفير مارتني تشيشيس، موظف مجرب في السياسة الخارجية مع خبرة في شرق إفريقيا،

والشرق الأوسط، وجلس مارتني معي مباشرة في حلقة القيادة. كنت أعرف أنني سأستمد منه كثيراً ونحن نستعد للذهاب إلى الحرب. فعلى الرغم من أنني قمت بإحدى عشرة رحلة إلى المنطقة، وتحادثت مع العديد من القادة الرئيسيين، فقد كان ما يزال لدينا الكثير من العمل الذي ينتظرنا لنؤسس تحالفات تعمل مع البلدان المحيطة بأفغانستان القارية المغلقة.

وقلت لفريقي: "كنت قبل قليل على الهاتف مع الجنرال شيلتون، وقد أمر الرئيس بوش الوزير أن يُعد ردّاً قوياً على هجمات الأمس." كانت الوجوه المحيطة بي كئيبة، ولكنها مركزة ومصممة.

لقد سبق لي أن تسلمت قيادة وحدات من الجيش ابتداءً من بطارية مدافع هاوتزر وصعوداً حتى جيش ميداني، أما الآن فأنا أتولى قيادة منظمة ضخمة متعددة الخدمات. وسبق لي أن عملت أيضاً مع عدد كافٍ من القادة المفكرين الفعالين لأتلمح أن من الجوهرية في المراحل الأولى من الأزمة بالنسبة إلى الشخص المسؤول أن يجعل رؤيته واضحة. إذا كنت تعرف ماذا يريد الرئيس فإنك ستعمل على نحو أكفئ.

وقلت: "إن من الواضح أن أمريكا سوف تتأثر." ثم سكت لأترك الرسالة تترسخ. "والسؤال هو كيف؟ ومتى؟ وقد أخبرت شيلتون أن الأفضل ألا نفعل شيئاً إذا لم نكن عازمين على الرد ردّاً قوياً. لقد عانت الولايات المتحدة أسوأ هجومات منذ الحرب العالمية الثانية. لقد ابتعدنا كثيراً عن نقطة الانتقام الرمزي. أنا واثق أن هذا الرئيس يعتزم أن يقاتل الإرهاب بطريقة جادة. وأتوقع أن ندمر القاعدة في أفغانستان، وأن نزيل الطالبان من السلطة. إنهما يتعايشان عقائدياً ومادياً."

وذهبت إلى الخريطة. "وهكذا، فأنا أفترض أن القيادة المركزية ستكون بآثار تدير عمليات قتال كبيرة في أفغانستان، وأما التمرحل وإقامة القواعد فسيكونان في آسيا الوسطى وجنوب غرب آسيا. ويريد الوزير أن يعرف كيف نعتزم إدارة هذه

العملية. لدينا خطة معقدة يجب أن نبنيتها. ولكننا لا نملك الكثير من الوقت. وقد أخبرت هوغ شيلتون بأني سأقدم توصية كاملة في غضون أسبوع أو عشرة أيام."

وعندما انتهى الاجتماع، كنت واثقاً أن هؤلاء الرجال الجيدين فهموا كلهم المهمة التي كنا نواجهها. وكانوا يعرفون أيضاً معنى العمل الشاق، وكم ستدعو الحاجة إليه في الأيام والليالي القادمة.

وقلت: "كلكم محترفون. وأنا سعيد بأن كل واحد منكم موجود في هذا الفريق."

كان الوقت في أواخر الليل، وربما كان في مطالع الصباح. كنت قد حصلت على غفوة قبل ذلك وأكلت طعاماً بارداً كبيراً من بيرغر كنغ. وأنا الآن أحتسي الدلة الثانية من القهوة.

وعندما رجع العديد من المديرين إلى مكثبي لمتابعة مناقشتنا، بدا عليهم التعب الذي كنت أشعر به. وجهت نظرهم نحو خريطة أفغانستان، وأنا ألوح بسيجار لم أشعله في شكل بيضاوي للإشارة إلى الحدود.

"لا ريب، أيها الرجال، في ذلك، إن ابن الك... ها هو ذا بالتأكيد محصور ومحاط باليابسة. فلا نستطيع أن نستخدم القدرات البحرية البرمائية. ومهما يكن الشكل النهائي للعملية، فسوف تستند إلى النقل الجوي. هل نستطيع أن نعتمد على حقوق الطيران فوق البلدان الأجنبية طوال الفترة؟ وأين نقيم مراحل التمرحل؟ وأين نقيم القواعد؟" وأشرت نحو إيران على حدود أفغانستان الغربية. "الملالي ليسوا مهتمين بالسماح لنا بالدخول. وفي الشمال، ربما كنا نستطيع أن نعقد صفقة مع الرئيس كريموف في أوزبكستان. وربما نعقد حتى مع التركمان باشي. "فرئيس تركمانستان، سابرمراد نيازوف، كان يعرف بالتركمان باشي، "أبو جميع التركمان." وكان نيازوف متقلباً زئبقياً، وأحياناً كان مستبداً بلا رحمة، ولكنه كان يعترف بالقوة ويحترمها.

"ستكون أوزبكستان، طبعاً، حيوية للعملية. وتحالف الشمال يقف على حدودهم مباشرة. ولكن الرئيس كريموف يجلس على السياج، لم يلتزم بعد لأي من الطرفين. ونحن نحتاج إلى قواعد تقام على أرضه، وخصوصاً هنا، خارشى- خان أباد. ولكن يجب علينا أن نقنعه بأننا سنستمر في المضمار حتى النهاية بعد أن ندخل في السباق".

في أثناء اجتماعين في السنة الماضية عقدتهما مع الرئيس إسلام كريموف، كنت قد تعلمت عدة أمور مهمة: كان قلقاً بشأن الحركة الإسلامية المتوحشة بشكل متزايد في أوزبكستان، وبشأن مجموعة إرهابية نشأت في الوطن وقاتلت إلى جانب القاعدة وطالبان وضد تحالف الشمال. وكان خائفاً من التدخل الروسي إذا اندلعت الحرب في المنطقة. وناقشنا، هو وأنا، الاستخدام الممكن للقاعدة الجوية السوفيتية القديمة في خارشى- خان أباد كي-2، كما كانت تعرف، ولكن النقاش كان بتعابير عامة. وهذا كان، طبعاً، قبل 9/11، أما الآن، وقد تصاعدت المخاطر، فإن قيمة كي-2 تصاعدت أيضاً، وكان كريموف يعرف ذلك. ولكن الرئيس الأوزباكستاني كان حذراً وواعياً لجهود أمريكا الفاشلة في الصومال. ولم يكن مقتنعاً بأن الولايات المتحدة كانت جادة بشأن التزامها لآسيا الوسطى.

وأضفت: "أعتقد أننا نستطيع أن نحل قضايانا مع طاجيكستان، ومع قيرغيزستان. وأما باكستان فمسألة أخرى. إن الرئيس مشرف يحبنا ويحترمنا، ولكن لديه سكان متطرفون إسلاميون أقوياء الاحتمال لا بد له من التعامل معهم. ولا أستطيع أن أرى إدارة للعمليات داخل أفغانستان من دون إقامة قواعد، وترتيب التمرحل، ومساندة للطيران من فوق الأراضي من باكستان".

وأوماً جين برأسه. "وحقوق الرمي من فوق وإلى ما وراء باكستان، أيضاً، أيها الرئيس. وفي أي شكلٍ خفضت الخطّة، فإننا سوف نستخدم الكثير من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. يجب أن يكون لدينا إذن باكستاني، أو القبول السلبي بدون اعتراض على الأقل، لأن كل تلك الطيور سوف تطير عبر مسافة قد تصل إلى مائتي ميل من بلادهم متوجهة إلى الأهداف".

وجاءت مكالمة أخرى من رئيس الخدمات، وانفض اجتماعنا العائم المتحرك مرة ثانية.

بعد ذلك، بعد حمام وتغيير الملابس إلى بزة جديدة، ذهبت إلى القاعة لأرى مارتى تشيشيس. وعندما كنا نتجاذب أطراف الحديث، دون بعض الملاحظات على دفتر أصفر. إحدى الطرق لحل مشكلات إقامة القواعد وترتيب التمرحل، كما كنت أعرف، ستمر عبر كولن باول في الخارجية. عندما يهاتف باول، يرفع سماعة الهاتف فيكون على الطرف الآخر رؤساء دول ورؤساء وزارات.

والمسار الآخر للمفاوضات سيمر من عندي، مباشرة إلى رؤساء الدول، ووزراء الدفاع، والقادة العسكريين الذين كنت أعرفهم أفضل معرفة.

وقال مارتى: "لقد بلغت مكالمات وبريداً إليكترونياً إلى جميع المكاتب المناسبة في الخارجية. وقد أعلم الوزير من قبل كل الناس أن هذه مسألة ذات أولوية."

خارج مكثبي كان هناك صباح آخر ساطع، حار من أيام فلوريدا. وفي الداخل كان الجو بارداً، والستائر مسدلة ضد الوهج الباهر. هل كان اليوم هو الخميس أو الجمعة؟ لقد فقدت سير الزمن. ورجع المديرون الأساسيون. وقلت لهم: "الخلاصة هي أن الأعمدة الطويلة لهذا العمل ستكون هي الوصول، والاستدامة. أي عملية سنديرها في أفغانستان سوف تعتمد على النقل الجوي... آلاف من الأطنان في كل يوم."

وأوما ديني جاكسون، مديري للإمداد والتموين، بسعادة، ولم يكن على ما يبدو منزعجاً من التحدي.

"وسوف تواجهنا كارثة إنسانية محتملة ويجب علينا أن نمنع حدوثها من بداية العملية. إن قسماً كبيراً من أكثر من 26 مليون أفغاني يعتمد على المنظمات غير الحكومية من أجل خبزهم اليومي، فضلاً عن البطاطين، والوقود للشتاء، والبذور لزراعة الربيع. ولكن المنظمات غير الحكومية لا تبقى عادة في المنطقة في أثناء

القتال." ونظرت نحو ديني. "ربما سيكون من المحتمل أن يتوجب علينا أن نتوصل إلى إيجاد طريقة لإمداد عدة ملايين من الناس المشردين داخلياً بحاجاتهم الأساسية عن طريق الجو إلى أن تستقر الحالة العسكرية."

وقفت، ومددت ساقي المتصلبة. وقلت: "الأرض، انظروا إلى هذا المكان. لديكم قمم جبال هندوكوش ترتفع فوق عشرين ألف قدم، ولديكم حواف في هذه السلاسل الطويلة الممتدة شرقاً وغرباً ترتفع أكثر من اثني عشر ألف قدم، ومعظم الممرات تراوح في الارتفاع بين تسعة آلاف قدم وأحد عشر ألف قدم. ماذا سيفعل ذلك بعمليات الطائرات العمودية؟"

وتكلم بات هيلي. "أيها الجنرال، يروي الناس الذين يقفون إلى جانبنا في تحالف الشمال في تقاريرهم أن الطيران بالطائرات العمودية في أفغانستان كره. وأن الثلج سيهطل على الجبال والوديان العالية في غضون أسابيع قليلة، وهو ما سوف يعقد الأمور."

وقلت: "لا بأس. ما نوع العمليات التي نقترحها؟ إن الرئيس سيريد أن يذهب ويدخل هناك وينظف البيت. ما هي الخيارات العسكرية التي نعرضها عليه؟"

وأجاب رايفل دولونغ: "لدى جيف وجين قائمة بمرشحين جيدين لضربة صلبة من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. فإذا كان الرئيس يريد أن نبدأ بالحركة فوراً، فلدينا الأهداف."

قرأت القائمة. سوف نستخدم صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي لهدم نظام الدفاع الجوي المتكامل للعدو، لتمهيد الطريق للضربات الجوية التقليدية. ونظام الدفاع الجوي المتكامل لدى طالبان لم يكن قوياً، ولكنهم كانوا يملكون رادارات إنذار مبكر ومواقع صواريخ سطح-جو من صنع سوفيتي. وكذلك، فإن مهام صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي سوف توهن عزيمة العدو وتخفف قدرته القتالية، ولذلك فإن معسكرات تدريب القاعدة وثكنات الطالبان التي كانت مخصصة لإيواء عدد كبير من الجند، كانت هي أيضاً أهدافاً قيمة.

ولكن الضربات التي سنطلقها يجب أن تكون دقيقة للغاية. وستكون الإصابات غير المقصودة في المدنيين، والأضرار الجانبية، مصدراً كبيراً للقلق.

وقلت: "عندما نبدأ بالحركة، لا نريد أن نرى الكثير من القتلى غير المحاربين في سي ان ان."

وأضاف رايفل: "أو على شاشة الجزيرة."

وقلت: "تسلمت ذلك." فقناة الجزيرة الفضائية، الناطقة باللغة العربية تقيم قاعدتها في قطر، وقد ساعدت في تحويل القاعدة وبن لادن إلى أبطال في "الشارع" العربي الإسلامي.

سيكون أحد أسلحتي المفضلة للاختيار في الضربة الأولى هو صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي المجموعة 3، وهو يستطيع أن يوصل رأساً حريباً شديد التفجر زنة ألف رطل إلى أهداف تبعد 1.500 ميل، بدقة كانت تعتبر من قبيل الخيال العلمي قبل عقد من الزمان. ومدى الدقة في المجموعة 3 سوف يسمح لنا أن نقتل العدو، وندمر منشآته، ومعداته، من دون تعريض عدد كبير من المدنيين للخطر، ويعتمد دليل الصاروخ على الملاحة بالقصور الذاتي المحوسبة، ورادار يتتبع الأرض، والنظام العالمي لتحديد الموقع بإشارات الأقمار. وعندما أكد لي رماة البحرية لصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي أنهم يستطيعون إطلاق رأس حربي زنة نصف طن عبر مسار منخفض، وسريع، ومراوغ، يدخل الخيط في إبرة المضائق وممرات الجبال، وبعدئذ، من خلال نافذة مقاسها ثلاثة أقدام في أربعة أقدام على بعد أكثر من ألف ميل فوق الأفق، ليلاً أو نهاراً، عرفت عندها أن المسألة لم تكن استئساداً وتظاهراً: إنها الثقة التي جاءت مع هندسة القرن الحادي والعشرين.

سبق للولايات المتحدة أن استخدمت صواريخ توماهوك في البلقان، وفي العراق، وفي الرد على الهجمات الإرهابية. وكان السلاح مدمراً بشكل مؤثر، وهو فعال على نحو مساو في الحد من الإصابات في صفوف المدنيين.

وأضاف جين رينيوارت "إن البحرية تؤكد أننا نملك مائتي صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي في سلة الإطلاق في الساعة 0200 حسب التوقيت العالمي".

وقلت: "نعم- أحد الخيارات هو ضربة كبيرة من مجموعة صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. والخيار الثاني هو صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي ابتداءً، تقود إلى، أو تنطلق في الوقت نفسه، مع طلعات القوة العالمية."

كانت قدرة قاذفتنا ستيلث ب-2 تعرف باسم القوة العالمية، لأن تلك الطائرة المتسللة الضخمة ذات الأجنحة الخفائية تستطيع حرفياً أن تدور حول الكرة الأرضية. وعندما تقلع من قاعدة وايتمان للقوات الجوية في سفوح تلال أوزارك في ميسوري، وتتزود بالوقود جواً عدة مرات، فإن طائرة ب-2 تكون قادرة على أن تطير لمهام قصف في أي مكان في العالم، وكانت رحلاتها الدائرية ذهاباً وإياباً تستغرق أحياناً أكثر من أربعين ساعة. والطائرات ب-2 غير مرئية في الرادار. وعندما تصل ليلاً فوق الهدف، تسقط ذخائر هجومية مباشرة مشتركة دقيقة، وهي قنبلة أو قنبلتان زنة الواحدة ألف رطل، موجهة بالنظام العالمي لتحديد الموقع، وتضرب النقطة المبرمجة للتصويب عليها بدقة تصل إلى مسافة لا تتجاوز بضعة أقدام بشكل ثابت.

وأحدى ميزات القوة العالمية هي المرونة: فضابط نظام السلاح على متن الطائرة يستطيع أن يحمل الإحداثيات الدقيقة للهدف على ذخائر الهجوم المباشر المشتركة باستخدام المعلومات الاستخبارية في الزمن الحقيقي طوال مسيره في الطريق إلى الهدف. فعلى سبيل المثال، إذا بثت مركبة جوية بدون طيار صوراً لقاذفات صواريخ معادية وهي تتحرك لتتهرب من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي القادمة باتجاهها، فإن بالإمكان تمرير المواقع الجديدة للهدف إلى الطائرة ب-2 وهي في طريقها، ويمكن برمجة ذخائر الهجوم المباشر المشتركة باستمرار حتى آخر دقائق قليلة لضرب قاذفات الصواريخ المعادية.

الخيار الثاني، بعدئذ، سوف يتضمن إطلاقاً كثيفاً للصواريخ توماهوك للهجوم

الأرضي، متبوعاً بمساندة القوة العالمية. ولكن أفغانستان بلد ضخمة، جبلي، مثقب بالكهوف ومغطى بمجمعات موزعة من المنعّات المصفحة المموهة. هناك الآلاف من حفر الجرذان، وعدد محدود فقط من ذخائر الهجوم المباشر المشتركة. وبعد هجمات 9/11، ليس من الممكن أن يكون الملا عمر أو أسامة بن لادن موجودين في مقرهما يسترخيان بانتظار القنابل لتهبط عليهما.

وأخبرت المديرين: "واحد من هذين الخيارين سيكون إعداداً جيداً للأحذية العسكرية(*) على الأرض. ولكنني أريد أكثر من الخيارات المعتادة المتوقعة، وهي المزج الذي يمكن التكهّن به من الصواريخ والضربات الجوية. والسؤال هو أحذية من؟ وكم زوجاً منها؟" واستدرت نحو بات هيلي. "ماذا تستطيع الوكالة أن تعمل لنا؟ وما هي الحالة الحالية لتحالف الشمال والقوات الأخرى المناوئة لطالبان؟"

وتوقف بات، وهو المفكر دائماً، للحظة. "كما تعرف، لدينا أناس مع تحالف الشمال طوال سنوات. وتشير تقاريرهم إلى أن جند المعارضة لديهم الإمكانية لمواجهة طالبان وحلفائها من القاعدة... إذا استطاع التحالف أن يجمع نفسه معاً بعد اغتيال مسعود، وإذا تسلم مساندة كبيرة بالمعدات." وعدّ بات البنود على أصابعه: "ملابس شتوية، وأسلحة وذخائر، وأجهزة اتصال لاسلكي، وطعام، ودواء، وبطاطين... وتبن وشعير لخيّلهم، وسروج للخيّل، وربما بعض الطائرات العمودية."

وعلق جين رينيوارت، طيار الهجوم الأرضي القديم: "وسوف يحتاجون أيضاً إلى المساندة الجوية القريبة."

وأضاف رايفل: "وذلك يعني زمر قوات عمليات خاصة مع مراقبين جويين للقتال من القوات الجوية."

وأضفت: "لا بأس، لدينا خيار ثالث: قوات عمليات خاصة."

قوات عمليات خاصة تُسحب من فرقة النشاطات الخاصة في وكالة الاستخبارات المركزية ("القوات الأرضية" للوكالة)، والقبعات الخضراء في الجيش،

(*) الجنود المنتشرون تحت القيادة العسكرية.

والقوات البحرية الخاصة للحرب البرمائية قد دُرِّبَت لتعزيز أو لقيادة قوات حرب العصابات ضد أعداء تقليديين. ومن بين القدرات الحيوية الجديدة لقوات العمليات الخاصة وجود المراقبين الجويين للقتال من القوات الجوية، والمهرة مهارة عالية. وكان هؤلاء ضباط صف أشداء يستخدمون أجهزة اللاسلكي المتصلة بالأقمار، والأنظمة العالمية لتحديد الموقع، وأدلة ليزرية على الهدف لتحديد الدقيق لتشكيلات العدو، وتحصيناته، وعرباته، وإرسالها إلى طيران القصف أو إلى القاذفات الثقيلة لتسقط ذخائر هجوم مباشر مشتركة. قبل سنوات، سبق لي أن رأيت زمراً شبيهة ولكنها كانت أقل قدرة بكثير، وكانت تعمل مع وحدات مساعدة ميدانية للقوات الجوية. أما الآن، فإن الزمر، مثلها مثل العديد من تجديداتنا التقانية المتزايدة، كانت زمر "كاسبي الحرب".

ونحن سنطلب من رجال المهام الخاصة من مركز العمليات الخاصة المشتركة في فورت براغ أن يقوموا بمطاردة واستئصال قادة الإرهابيين و"نستغل" (البحث والتحليل) للمواقع التي يُشك بوجود أسلحة تدمير شامل فيها.

وكنا نعرف أن تحالف الشمال والمليشيات القبلية الأخرى تستطيع بعد أن تُقوّى بقوات العمليات الخاصة، وتُسند بالقوة الجوية الأمريكية، أن تدمر طالبان والقاعدة المتفوقين من الناحية العددية. ولكن تحالف الشمال لم يحشد إلا ما مجموعه حوالي 20.000 مقاتل، مسلحين ومجهزين بمستوى "ضعيف" و "حسن" بحسب مقياس الفاعلية العسكرية. وأما الطالبان والقاعدة فكان لديهم من المقاتلين ضعف ذلك العدد على الأقل، إضافة إلى دبابات وناقلات جند مدرعة أكثر، ومدفعية أكثر، وأسلحة ورشاشات أكثر. ولم يكن هذا ما يسميه الإستراتيجيون "توازن قوى ملائم".

وحذر بات هيلي: "وتحالف الشمال بلا نظام، فمنذ اغتيال مسعود، كان يتوجب علينا أن نبدأ من البداية من جديد. لقد كان لدينا الكثير الذي استثمرناه في مسعود، حرفياً".

وقلت للأركان: "لا بأس، لقد ناقشنا ثلاثة خيارات. وإليك خياراً رابعاً. شغلوا الخيارات الثلاثة الأولى في وقت واحد معاً، لتكون تمهيداً لنشر قوات مقاتلة أرضية أمريكية تقليدية. أولاً سنرى ماذا يستطيع تحالف الشمال، بمساعدتنا، أن يفعل. ثم نستخدم تشكيلات أكبر إذا كان علينا أن نفعل ذلك."

وأنصت الرجال الجالسون حول مكتبي باهتمام. إن اقتراحي تضمن إرسال كتائب وألوية من الجنود الأمريكيين وجنود البحرية إلى داخل بلد غير مضياف ومن أقصى بلاد العالم مناخاً، لشن حرب ضد عدو متعصب صعب المراس. إن الكثيرين من جند القاعدة والطالبان كانوا يقاتلون في تلك الأرض القاسية لعدة سنوات. وعدد كبير منهم خدموا بصفقتهم مجاهدين في الصراع الطويل الدامي الذي أخرج الجيش السوفيتي في نهاية الأمر. وكان الدرس الواضح المستمد من التاريخ الحديث لأفغانستان هو ألا تضع أعداداً كبيرة من الجند الأمريكيين على الأرض لإنجاز المهمة، ما لم يكن ذلك ضرورياً ضرورة مطلقة.

أمران كانا مستيقظين: إن كل واحد من الخيارات الأربعة طرح تحديات في ترتيب التمرحل، وإقامة القواعد، وحق الطيران فوق البلاد الأجنبية، إضافة إلى الأرض المعقدة وقضايا الطقس. وسوف يتطلب كل منهما تقويماً استخباراتياً مفصلاً لمهارة العدو وتصميمه.

طوال سنوات كنت قد درست إستراتيجية الحروب الماضية وتعبئتها. وعندما كنت أنا وأركاني نستعرض خياراتنا في أيلول/سبتمبر 2001، لم أستطيع أن أفكر في موازٍ تاريخي للحملة العسكرية الموضوعة قيد الدراسة. لقد كانت العملية تمثل ثورة في قتال الحرب. فنحن سوف نقدم أحدث تقانة متقدمة عسكرية في العالم: صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، وذخائر الهجوم المباشر المشتركة، وقاذفات ستيلث، والدليل الليزري للهدف، والاتصالات بالأقمار، وكل ذلك على ميدان معركة هو من أكثر ميادين المعارك في العالم بدائية. إن تحالف الشمال، بمنتهى القبلين، وعدد قليل من الدبابات الروسية المتعطلة، وطائرات عمودية مخلة للنقل.

وآلاف من الخيل، سوف ينقلون الأسلحة الثقيلة والذخائر على ظهور الحمير والجمال في رقصة متزامنة الإيقاع، تستغل كل تلك القوة النارية، والتقدم التقني المعقد. وبلغت القوات التي ملكتها القاعدة والطالبان ضعف جند تحالف الشمال، وكانوا أفضل تجهيزاً من التحالف. ولكنني كنت واثقاً من أن توازن القوى يوشك أن يتغير.

نظرت إلى الساعة الرقمية الموجودة خلف طاولتي. لقد كان الوقت ظهراً تقريباً. وقلت لأركانبي: "لا بأس، أيها الإخوة. هيا اخرجوا واذهبوا إلى العمل. لدينا تحديدات جدية على الزمن. أوه، نعم، بالمناسبة، لا أريد ذلك أن يؤثر على نوعية إنتاجكم."

ابتسمت، ثم نهضت ورجعت إلى طاولتي. وتقاطر الأركان خارجين. ولبضع دقائق قليلة بقيت وحيداً مع همهمة واهية من مكيف الهواء. ثم دخل جيف هينز مع كدس جديد من الرسائل. وصببت كوباً آخر من القهوة السوداء وبدأت بالقراءة.

بعد أيام قليلة، أدركت أنني كنت في حاجة إلى الخروج من مكثبي، لأتحرك حول المبنى وأتحدث مع الناس. لم أكن أنوي أن أخضع المخططين للإدارة الدقيقة المفرطة في السيطرة والتفاصيل، ولكنني كنت محتاجاً إلى الإحساس المباشر بالتقدم الذي كانوا يحرزونه وبالمشكلات التي كانوا يواجهونها.

وكانت إحدى مناطق النشاط الكثيف هي منشأة الاستخبارات الحساسة المقسمة، فهي متاهة من حجر كبيرة وصغيرة بلا نوافذ خلف باب فولاذي مقفل بالترميز، والتي تفتح على التعاقب على نقطة تفتيش مأهولة على مدار الساعة بحارس أمن مسلح. وتحت ضوء الفلوريسنت في المنشأة، كانت الطريقة الوحيدة لتعرف الليل والنهار، أو اليوم من الأسبوع، لتلك المسألة، هي أن تنظر إلى إحدى ساعات الجدار، التي كانت ترمش لتدل على الوقت في تامبا، والعراق، وباكستان، وأفغانستان. وأنا متأكد أنني لست الوحيد الذي سبق له أن عقد حاجبيه عندما علم أن أفغانستان كانت في توقيتها خارج التزامن مع بقية العالم، بثلاثين دقيقة وألفي عام.

في أثناء تلك الأسابيع الأولى من التخطيط للحرب، تباحثت عدة مرات في اليوم مع دونالد رامسفيلد ونائبه، بول وولفوويتز، عن طريق الهاتف المأمون أو المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو. وكانت إحدى ميزات المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو تتمثل في أننا كنا نتشاور ونتقاسم صور المعلومات الاستخباراتية ورسوم بيانات التخطيط الحساسة على أساس الزمن الحقيقي.

في صباح أحد الأيام في الغرفة الصغيرة للاجتماعات لدى مدير الاستخبارات في منشأة الاستخبارات الحساسة المقسمة كنت في مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو، أقدم إيجازاً للوزير عن الأهداف ذات القيمة العالية. وتكون هذه الإيجازات، عادة، مناسبة لطرح سلسلة من الأسئلة من جانب الوزير. ولكن رامسفيلد، في هذه المرة، أنصت من دون مقاطعة، ووجهه واضح التركيز.

وقال عندما أكملت الإيجاز: "لا بأس، أيها الجنرال. تقدم جيد. استمر بذلك." وكان هذا من دونالد رامسفيلد ثناء عالياً في الحقيقة. وانطفأت شاشة الفيديو إلى الأسود عندما انقطع الاتصال. وكانت ثقته المتنامية سارة. وعلى الرغم من أن إيجازاتنا التفصيلية سوف تستمر، فإن الوزير لم يكن يتنفس فوق كتفي.

في هذا الأسبوع الأول بعد 9/11، كانت البلاد مغضبة أسوأ إليها وقد عيل صبرها. وكان الناس يريدون من أمريكا أن ترد الضربة بشدة، وما كانوا يريدون الانتظار. وكان الدليل قد بدأ يبرز في القصص التي تظهر على الإنترنت. ومن بين الصور التي رأيتها في هذين الأسبوعين الأولين صورة سرب من طائرات بي-52 قلاع الطبقة الجوية العليا (ستراتوفورترس) مخلوطة رقمياً تحمل شعارات للخطوط الجوية الأمريكية والمتحدة على ذيلها، وتسقط سلاسل طويلة من القنابل فوق جبال صحراوية مكسوة بالثلوج.

وكان التعليق المكتوب تحت الصورة متلائماً مع مزاج الأمة: "خطوط الطيران المتحدة، والأمريكية تعلن خدمة جديدة دون توقف إلى أفغانستان."

"ها هي بيانات ضوء القمر، أيها الجنرال"، قال ذلك جيف كيمونز وهو يناولني سجلاً حاسوبياً مطبوعاً.

كنت أنا وجين رينيوارت ننظر في نور القمر من نهاية أيلول/ سبتمبر وطوال تشرين الأول. إن إدخال قوات عمليات خاصة بالطائرة العمودية يكون إنجازاً أفضل ما يكون في الظلام، في ليال بلا قمر. فقد كان الطالبان والقاعدة يملكون مئات من المدافع المضادة للطائرات من الجيش السوفيتي السابق، فمدافعهم المضادة للطيران من صنع سوفيتي من عيار 23 ملم زد اس يو، المحمولة على شاحنات صغيرة أو المقطورة بشاحنة قديمة من نوع زيل، كانت سلاحاً فعالاً بنوع خاص. وآخر شيء كنا نريده هو أن يرتسم شبح إحدى طائراتنا العمودية على ضوء القمر وهي محملة بالجنود، وتجهّد على ارتفاعات عالية كي تعبر الممرات.

كان القمر سيصير بديراً كاملاً في يوم الثلاثاء، 2 تشرين الأول/أكتوبر. ولكن القمر سيتناقص إلى التربع الأخير من الهلال بحلول 10 تشرين الأول/أكتوبر. ولكن ذلك الهلال المتناقص، لن يشرق في ليلتي السبت والأحد من 6 و7 تشرين الأول، على أفغانستان الشمالية إلا بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس.

وقلت: "قد يكون لدينا نافذة جيدة هنا، يا جيف."

كانت غرفة الحرب في منشأة الاستخبارات الحساسة المقسمة مزدحمة بالضباط وبحفنة من الموظفين المدنيين. وكان يمكن لهذه المنشأة بطاقتها الواسعة من خشب البلوط وصفوف الكراسي البعيدة عن المركز، أن تكون غرفة اجتماعات في أي مكان في أمريكا الشركات الكبيرة، لولا إشارة فوق شاشة جهاز الإسقاط تقول: "كلمة ترميز الأسرار العليا". وفي هذا الصباح، مرة أخرى حتى الآن، كان الموضوع المتناول هو التقدم في حقوق إقامة القواعد. كان العميد البحري جي كامبل على المنصة، ويستخدم مؤشراً ليزرياً على إسقاط خريطة مسرح أفغانستان.

وقال كامبل: "في غضون أسبوع، سوف يكون الباكستانيون على ما يحتمل قد التحقوا معنا في قواعد البحث والإنقاذ القتالي هذه." ولعلّت النقطة الياقوتية من مؤشره الليزري عبر القواعد الجوية الصحراوية الجنوبية الغربية قرب دالبندي وكويتا، التي ستمركز فيها وحدات البحث والإنقاذ القتالي. وستقوم هذه الوحدات بحماية الملاحين الجويين الذين يطيارون في مهام فوق أفغانستان الجنوبية. فإذا أجبر الطيارون على القفز في أي مكان جنوب وشرق الخط من كابل إلى قندهار، فسوف تتطلق وحدات البحث والإنقاذ القتالي من هذه القواعد لتخرجهم وتأتي بهم.

التمكن من الوصول إلى دالبندي وكويتا: ذلك كان تقدماً. فالعلاقة الشخصية التي كانت لي مع الرئيس مشرف، والتي مهدت الطريق للالتماسات المباشرة من البيت الأبيض ومن كولن باول، كانت تعطي ثمارها.

وقال كامبل: "ولكننا ما زلنا نبذل الجهد مع الستانات." فالجمهوريات السوفيتية السابقة الواقعة شمال أفغانستان لم توقع بعد. فهذه البلاد، بعد كل شيء، كانت آسيا الوسطى، وفي آلاف من سنوات التاريخ هناك، لم تحدث قطعياً تجارة بسيطة بين عشية وضحاها. كانت المفاوضات تستغرق وقتاً، وعندئذ مرة أخرى، فإن أمريكا كانت تملك الكثير من الجزر ومثلها تماماً الكثير من العصي، وكنت على ثقة إننا، في نهاية المطاف، سوف ننتصر.

ولكن، في نهاية المطاف، هذه كانت مشكلة. فنحن كنا نأمل في اتفاق سريع على حقوق إقامة القواعد في أوزبكستان وطاجيكستان، ولكن ذلك لم يكن صفقة ناجزة قطعاً، ومشرف ما يزال من الممكن أن يرفض الموافقة على السماح لنا بتمركز أعداد كبيرة من قوات العمليات الخاصة في أرضه، وخصوصاً في المناطق النائية بالقرب من أفغانستان حيث كانت الأصولية الإسلامية والمساندة لطالبان تجري فيها أعماق ما يكون. كنا نحتاج أن نرتب تمرحل قوات العمليات الخاصة، وبشكل خاص خيالة النخبة من وحدات المهام الخاصة من قيادة العمليات الخاصة المشتركة، وأن

تكون قريبة قريباً كافياً لضرب القاعدة في معقلها الجبلي في جنوب شرق أفغانستان. وكنا نحتاج لتمرحلهم في الحال.

عندما درست الخريطة على شاشة جهاز الإسقاط، تطورت خطة وأخذت شكلاً محدداً. فقد تكون أفغانستان قارية، ولكن الكثير من منشآت الطالبان والقاعدة تقع ضمن مدى قوة طائرات عمودية محمولة على سفينة تطير من البحر العربي الشمالي. إن الطائرات العمودية مخترقات العمل المباشر من نوع ام اتش-53 بيف لوز، و ام اتش-60 التابعة للفوج المائة والستين لطيران العمليات الخاصة كانت تحتاج إلى قاعدة واسعة نسبياً، مع حيز للطائرات العمودية الكبيرة المسلحة وصيانة كافية كذلك وتسهيلات للمعدات. ولم تكن حاملات الطائرات العمودية التابعة للبحرية، والتي تنتشر عليها وحدات الحملة العسكرية البحرية، كبيرة بشكل كاف للقوة التي تصورتها. كنت أحتاج إلى سطح فولاذي مثل ورق الزنبق المائي (*) الطافي، ليكون قاعدة عمليات متقدمة، على مبعده مباشرة من ساحل باكستان، وكنت أحتاج إليها في الحال.

في أواسط التسعينيات من 1990، طورت البحرية القدرة على تحويل حاملات الطائرات في الأسطول إلى قواعد عمليات خاصة طافية. إن السفينة الأمريكية أمريكا قد حملت أكثر من 2000 من وحدات المهام الخاصة وطائراتها العمودية في أثناء العمليات العسكرية في هايتي في العام 1994. فإذا لم نستطع تأمين قواعد في باكستان، فسوف نحتاج إلى حاملة تعمل بصفة قاعدة طافية من أجل مهمة قواتنا للعمليات الخاصة في الجنوب. وذلك سيستغرق وقتاً.

وفي مكتبي، مددت يدي لأصل إلى المفتاح الأحمر وطلبت الأدميرال فيرنون كلارك، رئيس العمليات البحرية. "فيرن، سوف نحتاج إلى حاملة طائرات لتقوم بواجب غير عادي..."

(*) تعبير يعني مركزاً، أو معسكراً متقدماً، أو قاعدة أجنبية، أو منطقة تمرحل.

لاحقاً بعد أسبوعين، وبعد أن أبحرت نصف المسافة حول العالم بأقصى سرعة ممكنة للسفينة، ستكون السفينة الأمريكية كيتي هوك قد وصلت إلى بحر العرب الشمالي، جنوب مضيق هرمز بالضبط. سوف يكون لدينا "سطح الزنبق" في المكان المطلوب.

قلت عندما دخل العقيد هيز مكتبي: "يا مايكل، عندي لك عمل".

وقال مبتسماً: "لا أطمئن إلى ذلك، يا سيدي".

وشرحت: "إن الدولة تعتقد أننا وإلى حد كبير قد انضم إلينا قلة من الأصدقاء في هذه العملية، وأنا واثق أننا سنرى فعلاً شكلاً كبيراً من التحالف. وذلك يعني ممثلين متحالفين يقومون بالارتباط مع هذا المقر، هنا في ماكديل". وأشارت بيدي نحو النوافذ.

"سوف يتوجب علينا أن نضعهم في مكان ما."

وعرض مايكل: "... حيز للمكاتب، والإسكان، والسيارات، والمواقف."

"لقد حصلت لنفسك الآن على مهمة، يا عقيد هيز."

عندما بدأ مايكل في ذلك الأصيل من أيلول/سبتمبر، لم يكن أحد منا يدرك أننا في غضون ثلاثة أشهر سيكون لدينا "قرية تحالف" قرب خط الطيران في ماكديل، وأنها سوف تتكون في نهاية المطاف من ثمان وستين قاطرة بسعة مفردة أو مزدوجة توفر الإسكان للضباط من اثنتين وخمسين أمة في ما كان الرئيس بوش قد سماه الحرب العالمية ضد الإرهاب. إن العمل الذي قام به مايكل هيز بنى التحالف، حرفياً. فبدون قدرته على تنظيم خطة والإبحار في متاهة لا تكاد تصدق من التمويل المحلي والدولي ما كانت القيادة المركزية لتعمل بمثل ما عملت.

كان رامسفيلد قد قال في نهاية واحد من المؤتمرات المصورة بالفيديو: في أواخر أيلول/ سبتمبر: "بالمناسبة، يا جنرال، لا تنس شأن العراق".

وقلت: "لن أنسى، سيدي الوزير، لدينا ملاحون جويون يطيطرون في طريق الخطر فوق العراق في كل يوم."

رامسفيلد وأنا أدركنا كلانا أننا كنا ما نزال نطير فوق منطقتي المراقبة الشمالية والجنوبية مثلما كنا نفعل منذ 1992، ويجري مع ذلك إطلاق النار على طيارينا في أثناء كل مهمة تقريباً. وفي كل صباح عندما كنت أدون التحديات على بطاقتي من قياس ثلاثة في خمسة، كنت أضع في رأس القائمة ابتداءً "الذين يسقطون من رمي النار في أثناء الطيران فوق منطقة عملية المراقبة الجنوبية/ ومنطقة عملية المراقبة الشمالية". حتى عندما كنت منشغلاً انشغالاً تاماً بأفغانستان، فإن العراق لم يغادر ذهني البتة. وعند نقطة معينة عرفت أن أمريكا سوف تغير أو تتخلى عن إستراتيجيتها في الاحتواء، وهي الإستراتيجية التي لم تتجح في ضمان انصياع صدام حسين لعقوبات الأمم المتحدة. وفكرت أن التخطيط لذلك اليوم هو المسار الحكيم الوحيد للعمل.

وقد ازداد قلقي وتصاعد من العمل الإرهابي الذي تمثل بإرسال الجمرة الخبيثة في رسائل بريدية في ذلك الخريف. وهو، بالنسبة إلي، أمر استدعى إلى ذهني فوراً برنامج أسلحة العراق للتدمير الشامل. وحتى تاريخ متأخر في شهر كانون الثاني/يناير 1999، وبعد أن أجبر مفتشو الأمم المتحدة على الخروج من العراق، كانت الأمم المتحدة تقدم تقارير تفيد بأن صدام يمكن أن يكون مالكاً لآلاف اللترات من الجمرة الخبيثة المحملة على أسلحة. كانت هذه فكرة لم تساعدني على النوم ليلاً.

في صباح يوم خميس من أيلول/سبتمبر 2001، كنت أنا وجين رينيوارت على متن سبار 06 ثانية، وطرنا إلى واشنطن. وحملنا عشر نسخ من إيجاز سري للغاية يلخص التصور الموضوع للعمليات العسكرية التي تهدف إلى تدمير القاعدة وطالبان في أفغانستان.

في الساعة 1.00 بعد الظهر من اليوم التالي، كنت سأعرض هذه التصورات للرئيس في البيت الأبيض.

وأحضر مرافق في رحلة القوات الجوية دلة من القهوة السوداء. في يوم من هذه الأيام كنت سأرجع إلى التقليل من الكافئين، ولكن ليس ذلك في هذا اليوم. وبعد أن أقلعت الطائرة وارتفعت دواليبها، نشرت أنا وجين لوحات الإيجاز على الطاولة أمامنا وراجعنا التصور العملياتي.

لقد قسمنا الحملة إلى أربع مراحل، الأولى منها بدأت من قبل وهي الآن في حركة وتقدم. المرحلة الأولى، ضع الشروط وابن القوات لتزود سلطات القيادة القومية بالخيارات العسكرية القابلة للتصديق، وتضمنت هذه المرحلة وضع العمل الأرضي اللازم للعملية، ومن جملته إكمال اتفاقات إقامة القواعد، وترتيب التمرحل مع جيران أفغانستان. وعلى هذه الجبهة، كان البيت الأبيض، ووزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات المركزية، والقيادة المركزية يحرزون تقدماً. وكنت واثقاً أن دول الستانات ستكون قريباً في المكان الصحيح. وكان الرئيس بوش قد أعلن أن أمم العالم ستكون إما معنا أو ضدنا في الحرب على الإرهاب، وبدا لي أن قادة آسيا الوسطى كانوا يقرؤون تلك الرسالة قراءة عالية وواضحة. لديهم الكثير ليربحوه من الالتحاق بالتحالف، والكثير ليخسروه إن لم يفعلوا. وكانت تجارة الخيل في حركة وتقدم عبر المنطقة كلها. إن إقامة القواعد وترتيب التمرحل كانت ستكلفنا المال، ولكن الاتفاقيات التي يتم التوصل إليها ستكون ذات قيمة تستحق الدولارات التي صرفت في سبيلها.

وعمل آخر من واجبات المرحلة الأولى كان يشتمل على إدخال زمر متقدمة من ضباط وكالة الاستخبارات المركزية، يستخدمون هواتف فضائية متصلة بالأقمار وأكياساً من فئة المائة دولار، إدخالهم إلى أفغانستان ليبدؤوا بدعم وتقوية تحالف الشمال المتصدع و"القبائل" الأخرى في معارضة ضد الطالبان. وهنا، أيضاً، نحن نقوم بخطوات واسعة. وسبق لضباط الوكالة أن أقاموا اتصالات مع أمراء الحرب

الرئيسيين. وكان الجنرالان محمد فهيم خان، الخليفة الطاجيكي لأحمد شاه مسعود المقتول، وعبد الرشيد دوستم، قائد الميليشيات الأوزبكية والمتمركز في منطقة أبعد إلى الغرب، كانا يعدان نقود الدعم المالي المبدئي، ويستعدان لقبول رجال مهام خاصة شبه عسكريين من وكالة الاستخبارات المركزية من فرقة النشاطات الخاصة في الوكالة.

وكان أصدقاء دوستم لزمن طويل، ومنافسوه، محمد عطا، ومحمد محقق، وهو شيعي مسلم من الهزار، يقفان في الاحتياط ليتسلموا ضباط ارتباطهم من الوكالة كذلك. وهؤلاء الضباط سوف يمهّدون العمل الأرضي لزمر قواتنا الخاصة، التي سنرسلها فوراً تقريباً. وهذه الزمر معروفة طوال سنوات باسم "الزمر - أ" وهي وحدات من عشرين رجلاً في كل منها، وقد نزلت الآن تحت اسم المفزة العملياتية ألفا، وهي تضم بعضاً من أعنف الجنود وأفضلهم تدريباً في القوات العسكرية الأمريكية.

وكانت وكالة الاستخبارات المركزية تعد لنقل كميات كبيرة من أسلحة الجيش السوفيتي السابق والذخائر، وهي المعدات النموذجية لجميع المحاربين الأفغان، من أكداس في أوروبا. في البداية سوف يتم الإسقاط الجوي لهذه المعدات باستخدام طائرات سي-130، وبعد ذلك بعد أن نكون قد ثبتنا قواعداً في دول الستانات، سوف تنقل جواً إلى حلفائنا الجدد باستخدام الطائرات العمودية من نوع ام اتش-47 شينوك من الفوج المائة والستين لطيران العمليات الخاصة. وفي هذه الأثناء، يقوم طيارو وكالة الاستخبارات المركزية الذين يقودون طائرات عمودية من العصر السوفيتي السابق من نوع ام آي-17، بحمل أجهزة اللاسلكي، ومرشحات التوجيه والإنذار الملاحي الجوي، والإمدادات إلى شمال أفغانستان.

وكان استكمال الترتيبات اللازمة للمشاركة العسكرية النشيطة من أعضاء التحالف، وخصوصاً قوات عمليات خاصة عالية المهارة من الأوروبيين، والكنديين، والأستراليين، عنصراً آخر من المرحلة الأولى. لقد كنت متشجعاً جداً بالدور الذي

كان يؤديه أولئك الحلفاء. فشركاؤنا في حلف الناتو والأستراليون كانوا يتخذون خطوات عملية لإحضار جند ليقاتلوا في الأزمنة والأمكنة الدقيقة التي كنا نريدهم فيها.

والواجب الأخير في المرحلة الأولى تمثل في إعداد المساعدة الإنسانية للأزمة التي لا مناص عنها والتي كنا نعرف أننا سنراها عندما يتشرد المدنيون بفعل القتال. وكانت القوات الجوية تدور في ممرات متعرجة لتسقط من الجو آلاف الأطنان من الإعاشة اليومية الإنسانية، وهي النسخة العسكرية من الوجبات الجاهزة للأكل. والشعير والعدس المطبوخ الذي أحضرناه قد لا يكون وفق أفضل طريقة لإعداد الطعام، ولكنني كنت واثقاً أن اللاجئين الجياع الذين نساعدهم لن يرفضوه.

المرحلة الثانية، أدر عمليات قتال أولية واستمر بوضع شروط من أجل العمليات اللاحقة، وهي ستبدأ عندما ستكون استعدادات المرحلة الأولى قد اكتملت. إن الحملة العسكرية على أفغانستان سوف تكون صفحة فريدة في التاريخ العسكري، وكانت المرونة عنصراً حاسماً للخطة. لقد عمل جين رينيوارت، وجيف كيمونز، وأركانهم عملاً شاقاً على الأهداف المخصصة لهذه المرحلة من العمليات. فصواريخ توماهوك، والطيران التعبوي، وقاذفات ستيلث بي-2، وقاذفات بي-52 سوف تزيل أهداف الطالبان والقاعدة الخاصة بالقيادة والسيطرة، ورادارات الإنذار المبكر، والأنظمة الكبيرة للدفاع الجوي، وبشكل رئيسي صواريخ اس ايه-3 السوفيتية الصنع.

وسوف تتسلل زمر القوات الخاصة إلى داخل أفغانستان عندما تتكشف الحملة الجوية، وتبدأ بتوفير المساندة الجوية لتحالف الشمال ولقوات المعارضة الأخرى. وحاملة الطائرات كيتي هوك المتمركزة في اليابان سوف تقيم مشغلاً يكون قاعدة عمليات أمامية عائمة لقوات العمليات الخاصة في المياه الدولية قبالة شاطئ باكستان.

بعد أن يكون التهديد المضاد للطيران قد انخفض، سوف تقوم النفاثات

بالإقلاع عن ظهر حاملات الطائرات الموجودة في بحر العرب وستطير فوق الصحارى الغربية من باكستان وتهاجم أهدافاً في أفغانستان. وسوف تقوم طائرات بي-2 من الولايات المتحدة، إضافة إلى طائرات بي-52 من الجزيرة البريطانية ديفغو غارسيا في المحيط الهندي، بتوصيل حمولاتها الثقيلة من المعدات في أثناء أطول طلعة سبق أن طارها طيران مطلقاً. وسوف تستخدم طائرات بي-52 ذخائر الهجوم المباشر المشتركة، وهو ما يعطي كل طائرة القدرة على إسقاط خمسة وعشرين طنّاً من الذخيرة الموجهة توجيهاً دقيقاً في كل طلعة.

وعندما تكون العمليات الجوية قد تكشفت وتكون زمر قوات العمليات الخاصة قد انتشرت، فإن تحالف الشمال والقبائل المساعدة له، وعناصر من وكالة الاستخبارات المركزية أعيد تموينها وتجهيزها، سوف تنتقل إلى الهجوم. ونحن سنستغل التقانة وشجاعة الأفغان أنفسهم لتحرير بلادهم.

ولن تكون هذه الحملة مسألة ضرب بالصواريخ على أكواخ طينية. كنا ذاهبين إلى حرب، حرب تكون فيها الأحذية العسكرية على الأرض.

المرحلة الثالثة، أدر عمليات قتال حاسمة في أفغانستان، واستمر في بناء التحالف، وأدر عمليات باتساع منطقة المسؤولية، وسوف تتسبب هذه المرحلة بثبات متقن من المرحلة الثانية. بعد أن يكون حلفاؤنا المحليون، المعززون بحوالي 200 من قوات العمليات الخاصة، قد هزموا العدو، فإننا سوف نحضر ونُدخل جند التحالف، ومن جملتهم جنود جيش وجنود مشاة بحرية أمريكيون، للبحث عن جيوب المقاومة واستئصالها. وقدرت أننا لن نحتاج إلى أكثر من عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً من جند القوات الأرضية الأمريكية لاستكمال هذه المرحلة.

واتفقنا، الوزير رامسفيلد وأنا، أن قوة الولايات المتحدة يجب أن تبقى صغيرة. لقد أردنا أن نتجنب نموذجاً سوفيتياً مريباً للاحتلال بالفرق المدرعة. لم يعمل هذا النموذج مع السوفيت، ولن يعمل معنا. وستكون المرونة ورد الفعل السريع - بالاقترام الليلي المحمول جواً، والمحمول بالطائرات العمودية، بوحدات صغيرة قاتلة، ولا يمكن

التبؤ بها، مقرونة بدقة غير مسبوقة - ستكون هي الملامح البارزة لأول حرب
لأمريكا في القرن الحادي والعشرين.

وكانت المرحلة الرابعة هي المرحلة الأخيرة: رسخ، قدرة شركاء التحالف على
منع عودة الإرهاب إلى الظهور ووفر المساندة لجهود المساعدة الإنسانية. وسوف
تتطور هذه المرحلة على مدة من ثلاث سنوات إلى خمس سنوات. وكنت على يقين
أن وحدات الطالبان والقاعدة التي تبقى سوف تلجأ إلى قتال العصابات بعد أن
تكون تشكيلاتهم الكبيرة قد دمرت. وهكذا فإن ترسيخ الاستقرار وإعادة البناء في
أفغانستان، وهي البلد الذي لم يعرف شيئاً غير الحرب والحرمان طوال آلاف
السنين، سوف يحتاجان إلى قوات عسكرية لمكافحة التمرد وللشؤون المدنية على حد
سواء. وفي هذا الشأن، كنت سعيداً بأن حلفاءنا كانوا قد تعهدوا من قبل بتقديم
مساندتهم. سيكون هذا التحالف القوي، وليس الولايات المتحدة فقط، هو الذي
سيساعد أفغانستان المحررة أن تعود فتلتحق بأسرة الأمم.

وشعرت بصوت الفرقة المألوفة في أذني عندما استجاب هيكल الضغط
الجوي القديم في الطائرة لهبوطنا. وجمعت ملاحظاتي، وتطلعت بأمل إلى مناقشة
العرض مع وزير الدفاع وإلى اجتماع البيت الأبيض.

في وزارة الدفاع في ذلك الأصيل، وصلت الأمور إلى الانشغال سريعاً. فأولاً
كان علي أن أرد على مكالمات الشركاء في التحالف المتنامي والحلفاء المحتملين في
منطقة المسؤولية. ثم سأقوم أنا وجين بالتصفية الدقيقة لمجموعات الأهداف مع
وكالة الاستخبارات الدفاعية، ومع وكالة الاستخبارات المركزية. وكان علينا أن
نتحرك مباشرة باستمرار لأن لدي اجتماعاً كان قد تحدد ميعاده مع وزير الدفاع.

وتحدثت مع الجنرال جان بير كيلشي، رئيس أركان القوات الفرنسية. وقال إن
فرنسا تتابع "بقوة" الإسهامات التي ستقدمها للحملة التي تتطور، ومن جملة ذلك
حاملة طائرات، ونقل جوي، وقاذفات مقاتلة تعبوية، وقوات عمليات خاصة. هناك
أنباء سارة طيبة.

وساعد مؤتمر صغير مع مخططي الأركان المشتركة على توكيد ناحية المساعدة الإنسانية من العملية. طائرات سي-17 من القوات الجوية ستقوم بقطع المسافة الطويلة من قاعدة رامشتاين الجوية في ألمانيا، وستطير فوق تركمانستان، وأوزبكستان لتسقط مئات الآلاف من الإغاثة الإنسانية في أفغانستان. وسوف تبدأ عملية المساعدة الإنسانية في اليوم نفسه الذي تبدأ فيه الحملة الجوية، وإن إطلاق الجهود الحركية والجهود الإنسانية في وقت متزامن واحد بهذا الأسلوب كان من دون سابقة، ولكنه كان الطريقة المسؤولة الوحيدة لشن هذه الحملة العسكرية. وأي خطر ممكن من عملنا العسكري سوف تتم معادلته بالمنافع التي كنا نجلبها معنا للشعب الأفغاني.

وكان هناك المزيد من الأخبار السارة: فسلطان عمان قابوس أعطى إذنه للطائرات المسلحة من نوع ايه سي-130 سبكتر (الشبح) ولزمرة مساندة من قوات العمليات الخاصة أن تعمل من القاعدة الجوية في جزيرة مصيرة في بحر العرب الشمالي، وهي داخل المدى إلى أفغانستان إلى حد كبير.

واتصل من المملكة العربية السعودية الفريق من القوات الجوية تشوك وولد، وقائد عنصرنا الجوي. كان يريد أن يعزز مركز العملية الجوية المشتركة بحوالي مائة من الأفراد للحملة العسكرية القادمة، ولكنه كان يشك في أن السعوديين سيوافقون على الطلب إن هو ذهب إليهم رسمياً. وهو جرح آخر من بين الألف جرح. وقلت له: "امض قدماً وطيرهم وأدخلهم، يا تشوك، وبعد أن يكونوا على الأرض، سوف نطلب العفو. ذلك أسهل من طلب الإذن."

بعد ذلك طلبتُ وندي تشامبرلين، السفيرة الأمريكية لدى باكستان. فمع وصولها الحديث إلى المنصب، كانت قد بدأت من قبل تحقق تقدماً مع القيادة. فالرئيس مشرف، كما أخبرت، قد منح الإذن لطيران التحالف ليطير فوق باكستان. وفي هذا الإذن ضمناً ترخيص لصواريخ توماهوك للهجوم المباشر أن تقوم "بالرمي الطويل" من فوق باكستان وهو الذي ذكره جين رينيوات. ووافق مشرف كذلك على

قائمة تفصيلية من أربعة وسبعين نشاطاً لإقامة القواعد وترتيب التمرحل سوف تدار في باكستان، ابتداء من بحث وإنقاذ قتالي، إلى إعادة تزويد بالوقود وتشغيل مواقع نقل الاتصالات، إلى إنشاء نقطة إخلاء طبي قرب حدود أفغانستان. وفي المقابل، طلب مشرف بالألا تتضمن خطة الحملة إشراك الحكومة الهندية أو القوات العسكرية الهندية، وخصوصاً في أي طريقة يمكن لها أن تضع القوات الهندية في الفضاء الجوي أو البحري الباكستاني. وطلب أيضاً من التحالف ألا "يعلن" الاشتراك الهندي السياسي، وهو الأمر الذي سيشعل الحساسيات في باكستان.

كانت الطلبات معقولة، وتستحق الجهد في مقابل جناح جنوبي آمن في أفغانستان. وطلبت من وندي أن تبلغ شكري الشخصي للرئيس مشرف، وأن تخبره بأنني سأخفض إلى الحد الأدنى قابلية رؤية الاشتراك الهندي. "وأنا نعمل للحصول على إعفاء من تعديلات بريسسر"، وأخبرتها، وطلبت منها أن تبلغ الرسالة مباشرة. "أنا أعرف أن باكستان تحتاج إلى قطع غيار عسكرية وسوف أحاول أن أساعد." مشرف سوف يكون مسروراً، يا جنرال.

وقلت: "ونحن نعمل أيضاً في موضوع المساعدة الإنسانية والعون المالي لمساعدة باكستان على معالجة أي تدفق للاجئين." وأجابت وندي بأن مشرف كان قد عبر عن ثقته بقدرته على معالجة أوضاع اللاجئين القادمين، ولكنهم سيقبلون أي عون مالي شاكرين. "وطلب الرئيس مشرف أيضاً، أيها الجنرال، أن تزوره أنت بأسرع ما يمكن"

"يا وندي، أرجو أن تخبريه بأنني سأفعل ذلك بأسرع ما أستطيع. وأخبريه أن يصقل لعبته في الغولف."

وقال جين: "نحن في حظ جيد متواصل، سيدي."

ولكن الحظ لا يدوم طويلاً. وقبل الغداء تماماً، قبل بضع دقائق من اجتماعي المبرمج مع وزير الدفاع، دققت مع هوغ شيلتون.

"يا توم، لقد طلب رؤساء الخدمات أن تقوم أنت وضابط العمليات لديك بتقديم إيجاز لهم في الخزان(*)، أي، غرفة القيادة،.. مع الوزير. إنها الإجراءات الموحدة للعمليات قبل أن تأخذ الخطة عبر النهر إلى البيت البيض.

وقلت: "تباً لهذا!"

وبالحكم من لهجة تعبير هوغ، فإنه لم يكن مسروراً أيضاً. فأنا كنت مستعداً لعرض تصور أمام الوزير، وليس خطة عمليات رسمية لرؤساء الخدمات. كان هوغ شيلتون بحاجة إلى إبقاء الرؤساء معنا، فقد كنت أعرف ذلك. ولكن فطرتي أعلمتني أن تقديم الإيجاز لهم أمام الوزير سوف يكون "جسراً بعيداً جداً(**)". وكان من المحتمل أن يقوم الرؤساء "بالتصنع بمواقفهم": ويحتمل أن يصاب الوزير بالإحباط. واقترحت على هوغ أن نقدم الإيجاز مرتين، مرة للوزير رامسفيلد وأخرى لاحقة لرؤساء الخدمات.

"لا وقت لدينا، يا توم. فهذا الإيجاز سيكون فرصة جيدة لجميع اللاعبين الأساسيين ليتعرف أحدهم بالآخر تعرفاً أفضل. ونستطيع أن نجعل الفرصة تعمل".

"لا بأس، يا هوغ، سنمنحها محاولة".

عندما مشيت أنا وجين على طول الحلقة-ئي إلى الخزان، غرفة القيادة، أجبرت نفسي على الاسترخاء. ربما سيكون هذا الإيجاز تمريناً بيروقراطياً من دون ألم.

قد يكون تمريناً، ولكنه لم يكن من دون ألم.

كانت غرفة القيادة مكاناً مزيناً، فطاولتها اللامعة المصنوعة من الخشب القاسي، والأثاث الموجود فيها أعلى بعدة درجات في الراتب مما يوجد في مكاتب

(*) غرفة مأمونة لعقد الاجتماعات بين رؤساء الخدمات وتعرف باسم الخزان.

(**) عنوان كتاب ثم فيلم، ويعود إلى محاولة الحلفاء الفاشلة في الحرب العالمية الثانية في إحداث حرق في خطوط الألمان عند مدينة أرنهيم، والكلمة مقتبسة من قول الجنرال براوننغ البريطاني إلى الجنرال مونتغمري قبل العملية (أعتقد أننا قد نكون ذاهبين إلى جسر بعيد جداً)، والمعركة واحدة من أكبر المقامرات العسكرية في التاريخ.

معظم الضباط الأركان في وزارة الدفاع. ومع ستائرها الذهبية وهي تغطي إطارات النوافذ الكاذبة المزخرفة والمغطاة بالخشب، كانت غرفة القيادة رسمياً تعرف باسم غرفة الذهب.

عندما وصلنا، كان الوزير رامسفيلد يقف عن رأس الطاولة، ويقرأ على طريقته قراءة سريعة في كدس الوثائق. وكان نائب وزير الدفاع بول وولفويتزر ورؤساء الخدمات يجلسون حول الطاولة: الأدميرال فيرن كلارك رئيس العمليات البحرية، رئيس أركان الجيش الجنرال إيريك شينسيكي، رئيس أركان القوات الجوية الجنرال مايك رايان، وخليفته الجنرال جون جمبر. وقائد سلاح مشاة البحرية الجنرال جيم جونز، جلس إلى جانب هوغ شيلتون وديك مايرز، نائب رئيس الجلسة. أخذت مقعدي، بينما وقف جين رينيوارت إلى جانب المنصة، وقام مساعدي، المقدم جيف هيز، بتوزيع صفحات الإيجاز.

وفكرت، إننا سنسترجع بالتأكيد كل ورقة من تلك الأوراق الخاصة بالإيجاز قبل أن نغادر. كانت وزارة الدفاع ذات سمعة سيئة متصلة بالتسريبات. وحذر الوزير رامسفيلد كل واحد من الجلوس في الغرفة أن هذا التصور كان مصنفاً سرياً إلى أقصى درجة عالية من السرية يمكن أن تصلكم، أي أنه كان "حساساً" و"مقسماً" ولكنني سبق أن قدمت إيجازاً هنا من قبل، وشيء ما قال لي إن لدينا فرصة بمعدل خمسين لخمسين في أن نفتح جريدة نيويورك تايمز غداً صباحاً ونقرأ محضر هذا الاجتماع.

وصار من الواضح بسرعة، على كل حال، أن الأمن سيكون مشكلة واحدة فقط في غرفة القيادة في هذا الأصل.

فبعد أن تفرس رؤساء الخدمات في الصفحات المكدسة، وبدأ جين رينيوارت يشرح المرحلة الأولى من تصور الحملة، طلب هوك شيلتون من رؤساء الخدمات إبداء "الآراء". لم يكن قد أدرك الإزعاج الذي سيخلفه السؤال البسيط.

وعرض الرؤساء واحداً تلو الآخر آراءهم بالتصور. وحاجج الجيش عن فاعلية القوة الأرضية، ووصف الصعوبات الموجودة في إدامة قوات الجيش. واقترح رأي البحرية "من البحر" بوصفه أفضل مدخل لقتال الحرب، حتى في بلاد محوطة بالأرض من كل الجهات. وعرضت القوة الجوية من رئيس القوات الجوية بوصفها أقوى الأسلحة المساهمة في الحملة. وطبعاً، لم يدخل أي واحد من الآراء دخولاً كاملاً مع شبكة التصور العملياتي للقيادة المركزية، أو مع رأيي عن الحرب المشتركة.

واحتملنا نصف ساعة من هذا الحوار الدائر بلا هدف، هذا الهدر للوقت الذي لا يستطيع الوزير ولا أستطيع أنا أن نوفره. كان المقصود من الإيجاز أن نوفر معلومات عن الحملة التي طورتها القيادة المركزية بعناية ودأبٍ مضنٍ، مع مدخلات جيشنا، وبحريتنا ومشاة بحريتنا، وسلاحنا الجوي، وقادة عناصر العمليات الخاصة- جنرالات بثلاث نجوم، رتبة فريق ثانٍ، سماهم رؤساء الخدمة هؤلاء أنفسهم. ليس لدي أي تسامح لهذا السخف الضيق الأفق. وكان رامسفيلد قد بدأ ينزعج بشكل واضح. وكنت أستطيع أن أرى تعابيره بأن هذا لم يكن هو ما توقعه.

وكان الرؤساء، أيضاً، قد لاحظوا بالتأكيد، وبعد بعض الوقت بدؤوا يوجهون نظراتهم، وتحذيراتهم، نحوي. "لا تأخذ هذا إساءة، يا توم... هو لمجرد أن نلعب دور محامي الشيطان..." وعلى ذلك الحال استمرت.

وحرث جين رينيوارت قدماً، حتى صار رأسه الأصلع أحمر.

وأخيراً قال رامسفيلد: "ذلك ليس معيناً على وجه الخصوص، يا جنرال." قال ذلك وهو يحدق ببرود نحو الرئيس المسيء.

ومع ذلك، فقد استمروا. ونظر رامسفيلد إلى ساعته بشكل حاد.

لقد تلقيت ما يكفي. وقلت وأنا أقف لأجمع بشكل كاسح لوحات الإيجاز الموجودة أمامي على سطح الطاولة المصقول: انظروا، لدينا الكثير من العمل لننجزه. سيدي الوزير، سوف أجمع هذا التصور معاً هذا المساء وأقدمه لك غداً صباحاً.

كانت الغرفة صامتة.

وقال رامسفيلد: "لقد انتهينا بالنسبة إلى اليوم"

قبل أن أقابل وزير الدفاع في الصباح التالي، طلب قائد سلاح مشاة البحرية الجنرال جون جونز أن يتكلم معي في مكتبه. وعندما وصلت وجدت جيم ورئيس عمليات الأسطول الأدميرال فيرن كلارك جالسا إلى جانب طاولة جونز.

قال كلارك: "يا توم، نحن فعلاً نساندك."

وأضاف جونز: "لا شيء مما قلناه بالأمس كان يقصد منه النقد. يا توم."

وبدأت: "عظيم أريد مدخلاتكم."

فاسترخيا

"ولكني أريد سماع نصيحتكم بوصفكم رؤساء الأركان المشتركة، لا بصفتم رؤساء خدمات أفراداً تبشون للحصول على أكبر قطعة من الكعكة في هذه العملية." ولم أعطهم وقتاً للرد. "انظروا، أنتم أيها الرجال، كل واحد منكم لديه جنرال بثلاث نجوم يقود عنصر خدمة لي، وهو يمثل خبرة الخدمة التي نحتاج إليها لنضع معاً خطة مشتركة. من الأفضل أن تسمحوا لأولئك الرجال أن يعرفوا أفكاركم. وبعدئذ ثقوا بهم ليعملوا من أجلنا جميعاً لبناء مدخل متماسك بدلاً من عمل مرقع لمصالح خدمة بعينها".

فهم كلارك وجونز تعليلي. وكنت أريد أن أثبت هذه المشكلة والآن. وقلت لهم: "إذا كنتم لا تثقون بحملة النجوم الثلاث هؤلاء لتمثيلكم ومساعدتي في قتال الحرب المشتركة فيجب عليكم أن تستبدلوهم."

وأومؤوا برؤوسهم ثانية. ولكني لم أنته.

وقلت: "بالأمس في غرفة القيادة، أيها الرجال، أعطيتم الانطباع كأنكم تكلمة عدد بموجب القانون العاشر من... أهمهم المحتقرين، لا مثل رؤساء أركان مشتركة. شكراً لاستماعكم لي إلى النهاية." ثم استدرت وغادرت.

عرفت أنهم تبلغوا رسالتي: لا توجد عملية مرضية إرضاء تاماً لأي خدمة واحدة وتكون عملية مشتركة بشكل حقيقي.

بعد عشر دقائق لاحقاً قال لي دونالد رامسفيلد في مكتبه: "يا جنرال فرانكس، هل لك من فضلك أن تشرح عن أي شيء كان ذلك بالأمس؟" كنت قد هدأت، ولكني ما زلت مستاء من هجوم القرش البيروقراطي الذي حدث في غرفة القيادة. وبدأت أتحدث، وأنا أحافظ على صوتي على وتيرة منتظمة: "سيدي الوزير، أنا أعرف أنك تقدر أن وحدة القيادة مبدأ عسكري جوهري".

وثبتني رامسفيلد في نظرتي الزرقاء المفكرة.

"لقد طورنا تصور الحملة هذا بناء على أوامرك، يا سيدي الوزير. لقد أعلمتني أن الرئيس يريد عملية كاملة لتدمير القاعدة في أفغانستان وإزاحة طالبان من السلطة."

"ذلك صحيح، يا جنرال."

وفكرت لحظة قبل أن أستمّر. لقد كنت القائد الأقدم عند بداية الحرب. وكان علي أن أقوي خطوط السلطة. "أنا أعمل لك وللرئيس، وليس لرؤساء الخدمات. لقد كانوا بالأمس يقاتلون من أجل مجال نفوذ لهم. فإذا استمر هذا، فإن جندنا، وبلادنا، سوف تعاني منه. يجب علينا ألا نسمح لضيق الأفق من حملة أربع نجوم، رتبة فريق أول، بأن يقدموا حصتهم من الميزانية على حساب المهمة."

وبقيت صامتاً. وكذلك صمّت الوزير. ومرت لحظة.

وقلت: "سيدي الوزير، يجب علي أن أعرف قبل أن نأخذ هذا الإيجاز إلى البيت الأبيض أن وحدة القيادة هي التي تسود. سوف أتبع كل أمر قانوني تصدره لي أنت والرئيس. ولكن يجب أن تكون لي سلطة القيادة لتنفيذ هذه الأوامر."

وفكر رامسفيلد قبل أن يجيب. "أنت تملك تلك السلطة، أيها الجنرال. أنت

القائد."

"شكراً لك، سيدي الوزير."

وعرفنا الآن أنا ودونالد رامسفيلد أحداً آخر معرفة أفضل بقليل.

في وقت مبكر من بعد الظهر. التحقت بهوغ شيلتون، وديك مايرز، واللواء ديل ديلي، قائد التصور العملياتي المشترك بين الخدمات، لنذهب في السيارة إلى البيت الأبيض. ثم لحق بنا الوزير رامسفيلد بعد بضع دقائق في سيارة من نوع لينكولن نافيجيتر.

استقبلنا الرئيس بوش في غرفة مكتبة مريحة تقع في الطابق الثاني من جناح السكن. ووصل نائب الرئيس ديك تشيني في الوقت الذي وصلنا فيه. ولاحظت فوراً أن وزير الخارجية كولن باول ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس لم يكونا حاضرين. لقد شدد رامسفيلد على الحاجة إلى السرية، وكانت المجموعة الموجودة في غرفة الاستقبال هذه هي أصغر "تقسيم" ممكن.

كان يوماً حاراً، وقد لاحظ الرئيس أننا كنا نبدو مستشعرين للحرارة في بزاتنا العسكرية فئة أ. وقال الرئيس لنادل في البيت الأبيض: "ربما يود هؤلاء الناس كوكا." فأحضر النادل صينية من الثلج، والعديد من زجاجات كوكا الحمية، وكؤوساً لللورية تحمل ختم الرئاسة ثم غادرنا، وأغلق الباب خلفه.

وبدا لي الرئيس مسترخياً ومفكراً وهو يصب كوكا لكل واحد منا.

وقال وهو يشعل سيجاراً: "يا تومي، تعال إلى هنا واجلس." قال ذلك وهو يشير إلى كرسي بجانبه.

وقال الرئيس لرامسفيلد: "حسناً يا دون، ماذا لدى تومي ليقدمه لنا اليوم؟"

"لقد أعد الجنرال تصوراً عملياً لأفغانستان، سيدي الرئيس."

ونظر الوزير إلي وأوماً وقال: "أبداً، أيها الجنرال."

وزعت لوحات الإيجاز. وبدأت: سيدي الرئيس، سوف تنفذ العملية في أربع مراحل. والمرحلة الأولى قد بدأت من قبل الآن.

كان الرئيس بوش يقرأ مقدماً، وبدأ على الفور تقريباً يطرح الأسئلة. "كيف التقدم في تأمين مساندة الأمم المضيفة؟ هل نحصل على القواعد التي نحتاج إليها؟"

وشرحت أن الرئيس مشرف قد وافق فعلياً على كل طلب من طلباتنا المتصلة بالطيران فوق بلاده، وإنشاء القواعد، وترتيب التمرحل.

وقال الرئيس: "ذلك جيد."

وأضفت أن السلطان قابوس منح الإذن لنا بتمركز الطائرات المسلحة من نوع ايه سي-130 وقوات قوة العمليات الخاصة في جزيرة مصيرة. وكنت على وشك شرح الأهمية التي يتمتع بها ذلك الموقع عندما تكلم الرئيس: وكم من أفغانستان يضع هذا ضمن مدى طيراننا؟

وكنت أعرف أن الرئيس بوش، قد طار بنفسه في مقاتلات. فهو بذلك يفهم نقاط القوة والتحديات المتصلة بالقوة الجوية.

قلت: "سيكون لنا الكثير من المدى العملياتي، سيدي الرئيس. وسوف نؤسس، زيادة على ذلك، مسارات إعادة تزويد بالوقود جويّاً داخل أفغانستان بعد أن يبدأ القتال."

وعندما كنت أنتقل من صفحة إلى صفحة في الإيجاز، كان الرئيس يقرأ بإمعان، وهو ينفث سيجاره بتركيز. وفي كل صفحة فعلاً، طرح سؤالاً ذا علاقة بها. كان الإيجاز مبرمجاً ليدوم ساعتين، وهي مدة من الوقت ذات قيمة كبيرة عند الأخذ بالاعتبار التزامات الرئيس في أثناء مدة الأزمة هذه. وأدركت أننا كنا سنجري طويلاً، ولكنني شعرت بأن من واجبي أن أجيب عن أسئلته بأكمل ما يمكن من الإجابة.

بعد حوالي التغيير السادس، دقق دون رامسفيلد في ساعته بشكل واضح.

"عليك أن تسرع، أيها الجنرال."

ونظر الرئيس وقد رفع بصره إلى أعلى من صفحة تبين مواقع رادارات الإنذار المبكر الخاصة بطالبان. "نحن على ما يرام، يا دون، هذه معلومات مهمة."

وقال رامسفيلد: "استمر يا جنرال، لكن تقدم بأسرع ما تستطيع."

وانتقلت من لوحة إيجاز إلى التي تليها. وسأل الرئيس سؤاله، وأنصت الوزير رامسفيلد بانتباه، مشاركاً في المحادثة في عدد من المناسبات للتشديد على نقاط حيوية رئيسية.

ضرب الرئيس الأوراق ليعود فيفتح على مجموعات الأهداف، ونظر إلى الأعلى. "نحن ذاهبون إلى أفغانستان لتدمير الطالبان والقاعدة. هذا ليس ثأراً. نحن في حرب ضد الإرهاب، وليس ضد الشعب الأفغاني."

في مساري الوظيفي طوال ستة وثلاثين عاماً، سبق لي أن رأيت أمثلة للقيادة الواثقة. ولكن هذا البيان للسياسة كان واحداً من أكثر البيانات مباشرة وحسماً مما سبق لي أن سمعته.

بعد ذلك عرض اللواء ديل ديلي، خلاصة لأهداف وحدة المهمة الخاصة في أفغانستان. وكنا نركز فيها على مصنع مخصابات من عصر السوفيت كان موضع الارتياح قرب مزار شريف. كان المصنع محاطاً بمراكز الحراسة، وكانت هناك نقاط تفتيش في الطرقات المؤدية إليه والخارجة منه. وقد أظهرت تقارير الاستخبارات الدؤوبة أعضاء من القاعدة يسافرون إلى المصنع ومنه. فإذا كان الإرهابيون يعملون على صنع أسلحة كيماوية أو حيوية فقد كان ذلك هو الموقع المنطقي.

وعندما كان ديل ديلي ينهي إيجازه، تكلم الوزير رامسفيلد: "سيدي الرئيس، ستكون هذه الحملة غير مسبوقة. وسوف تختلط الكثير من الخطوط التقليدية. وأوصي أن تعطى السيطرة العملية على وكالة الاستخبارات المركزية لوزارة الدفاع."

وكنتم أنا ورامسفيلد قد ناقشنا هذا الموضوع. لقد كان جوهرياً أن أملك أنا،

بوصفي القائد، السيطرة على كل القوات الموجودة في المسرح، وكنت أعرف أن الوزير كان يرغب في منحني تلك السلطة. فبعد الفشل المزري بالأمس في غرفة القيادة، كان واضحاً أننا كنا نحتاج إلى "زر بارز وحيد" لنضغطه عندما يبدأ إطلاق النار.

فأجاب نائب الرئيس ديك تشني على رامسفيلد: "قبل أن تبدأ هذه العملية سوف نستعرض كل علاقات القيادة."

وهذا كان جيداً بما فيه الكفاية لي.

وسأل الرئيس: "أي شيء آخر، يا تومي؟"

"أعتقد أن من الجوهرى أن نبدأ عملية المساعدة الإنسانية بالتزامن مع الحركات، سيدي. نريد أن يعرف الشعب الأفغاني أننا لا نهاجمه، ولكن حربنا هي مع القاعدة والطالبان."

وتبسم الرئيس: "ذلك ما كنت أتوقعه من شاب من ميدلاند. وضحكنا."

وقال الرئيس: "بكل جدية. ذلك بالضبط ما نريد أن نفعله."

وفي نهاية الإيجاز، كدس الرئيس لوحاته ودرس خلاصة الحملة للحظة. "متى تستطيع أن تنفذ هذه الخطة، يا تومي؟"

"سوف تكون القوات الجوية في الموقع في غضون خمسة أيام، يا سيدي. ولكن جميع زميرنا في البحث والإنقاذ القتالي ليست بعد في مواقع تمرحلهامع ذلك، فنحن نستطيع أن نخطط حول ذلك باستخدام صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، وقاذفات بي-2 في الشمال. وسوف أحتاج إلى إنذار متقدم قبل مدة ثمان وأربعين ساعة قبل بدء الحركات."

وقال الرئيس: "لا بأس، ولكن ما هو توقيتك المثالي، يا تومي؟"

وأنصت كل من في الغرفة باهتمام بالغ، ومنهم دونالد رامسفيلد. كنت أعرف

الضغط السياسي الواقع على الرئيس ليظهر العزم الأمريكي ضد القاعدة من خلال العمل العسكري. فالأرض الصفراء في نيويورك، والإسفين الكبير في وزارة الدفاع عبر نهر بوتوماك، كانت كلها في خراب.

وقلت: "سيدي الرئيس، في حوالي أسبوعين، سننال المساندة اللازمة من الدول الموجودة في المنطقة. وأعتقد أن هذا سيعطي كولن باول ووزارة الخارجية الوقت اللازم لإنهاء المسائل المتصلة بترتيب التمرحل لزمر البحث والإنقاذ القتالي وقوات العمليات الخاصة في أوزبكستان.

وفكر الرئيس في ذلك. "أنا أتفهم... أسبوعان."

وقلت: "سيدي، نستطيع أن نبدأ العمليات الجوية في وقت مبكر. ولكن على مدى التحرك الطويل، لن يكون ذلك هو الخطة الأفضل. نحن نريد أن تكون العمليات الجوية وعمليات القوات الخاصة متزامنة إلى أقرب ما يمكن لنا أن نزامنها."

قال الرئيس: "أنا أتفهم، العملية الجوية الضخمة ستشكل تصريحاً. وتوقف الرئيس مرة أخرى ليفكر. "ومن ناحية أخرى، فأنا مستعد للانتظار. عندما نعمل هذا فسوف نعمله على الوجه الصحيح. رسالتي إلى الشعب الأمريكي أن يكون صبوراً."

وعندما نهضنا لنغادر، تكلم الرئيس ثانية. "السرية المطلقة هي المفتاح هنا."

وكانت هناك دورة من "نعم، سيدي الرئيس". و"أفهم، سيدي."

أما ديل ديلي رجل المهام الخاصة الأصيل فلم يقل شيئاً.

وقال له الرئيس: "أيها الجنرال، أخبر جماعتك بألا تتكلم."

ونظر ديل بهدوء إلى وجه الرئيس. "سيدي، جماعتي لا يتكلمون مطلقاً."

عندما كنت أقود سيارتي عائداً إلى وزارة الدفاع، تذكرت قصيدة كنت قد كتبتها في أثناء أزمة قومية أخرى، في تشرين الثاني/نوفمبر 1979، عندما أخذ

المتطرفون موظفي السفارة الأمريكية في طهران رهائن، وكانت قدرة الأمة على الثبات موضع الامتحان. لقد حملت في محفظتي نسخة متجعدة منذ ذلك الوقت. وعندما عبرت السيارة، من نوع سيدان، الجسر التذكاري نحو فيرجينيا، قرأت القصيدة ثانية.

العزم

الإرادة المبددة في وقت أسبق

أُعيد سبكُها _

فإن تُصلد في سائل حار

في حمام من الأزمنة الخوارة

فالضمير في غير موضعه الحق

سيكون المعدن مترابطاً بشدة

أملس، ينبض بالعرق _

قسُّه، زنه، قف في

رعب _ لا تجربيه.



الفصل الثامن

نصر تاريخي

مقر القيادة المركزية

7 تشرين الأول/أكتوبر، 2001

كانت غرفة الاجتماعات الصغيرة لضابط ركن الاستخبارات في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة باردة برودة غير مريحة بسبب تكييف الهواء اللازم لتبريد البنوك الإلكترونية. كانت الساعة 0900 في صباح يوم الأحد، 7 تشرين الأول 2001، مضى أقل من شهر منذ 9/11. ستبدأ الحرب في غضون ثلاث ساعات ونصف.

كنت في المقر منذ ما قبل منتصف الليل، أستعرض تدقيقاتنا النهائية لمعلومات الاستخبارات عن الأهداف، والطقس، وحالة الطائرات بي-2، التي كانت قد بدأت من قبل الآن في طيرانها طوال خمس عشرة ساعة من ميسوري. وقريباً من الفجر بدأت مكالماتي، لأعلم أهم الأشخاص المتعاونين معنا في المنطقة بأن الأعمال الحربية كانت وشيكة البدء. وكان جورج تينت ينبه محطات وكالة الاستخبارات المركزية في كل أنحاء العالم عن الانطلاق الوشيك للحركات الهجومية.

في الساعة 0820، كانت آخر مكالمات لي مع الملك عبد الله ملك الأردن: "سوف تبدأ في الحال، يا سيدي."

وقال الملك: "كان الله مع قواتك، أيها الجنرال. إنكم تقاتلون معركة عادلة."

لقد ارتفع مستوى التهديد كُونُ ج في منطقة المسؤولية إلى مستوى التهديد دلتا د قبل قليل. وأظهر القمر الخاص بالطقس لدى وزارة الدفاع مساء صافياً فوق أفغانستان، مع بعض هبات الغبار في الصحراء الغربية بالقرب من حدود إيران. وكانت الرؤية ممتازة في كل من كابول وقندهار معاً، وقائمتي المخصصة للتدقيق قد أكملت تدقيقها تقريباً.

وعندما راقبت، ومضت شاشة جهاز الإسقاط المظلمة لتخرج صورة الجنرال، الفريق في القوات الجوية، تشوك وولد وهو في مركز العمليات الجوية المشتركة في قاعدة الأمير سلطان الجوية في المملكة العربية السعودية. أما قادة العناصر الأخرى في القيادة المركزية فكانوا ينتظرون في الحلقة في البحرين، والكويت، وفي جزيرة مصيرة في مياه عمان. وكان الوزير رامسفيلد والرئيس الجديد لهيئة الأركان المشتركة، ديك مايرز يراقبان من مركز عمليات وزارة الدفاع، ولكنهما لن يشاركا مباشرة. ديك صار رئيساً لهيئة الأركان المشتركة قبل أسبوع فقط. ولكنه كان نائب رئيس هيئة الأركان الأسبق، وبهذه الصفة فهو يمتلك الصفات الكاملة للتحرك حسب المستوى المطلوب.

ظهر الضوء الأحمر على آلة التصوير التي كنت أواجهها. وقلت "صباح الخير من تامبا، وأصيل سعيد، ومساء الخير، حسب ما تنطبق الحال." ونظرت إلى ملاحظاتي. "لدينا قوة من أربعين ألف رجل وامرأة يشتركون في هذه العملية. وهناك ثلاثمائة وثلاث وتسعون طائرة، واشتان وثلاثون سفينة. وتشترك فيها إحدى وثلاثون أمة في المجموع العام. لقد تسلمتم جميعكم قواعد الاشتباك. والقيادة والسيطرة في موضعها الأصلي. أنا أمتلك أمر التنفيذ من الوزير. سأذهب بعيداً، وأسألكم لتؤكدوا حالة جاهزيتكم. تشوك، أنت الأول."

وقال تشوك وولد قائد العنصر الجوي: "مساء الخير، أيها الجنرال. أنا أمتلك أمر التنفيذ. البحث والإنقاذ القتالي في المكان الصحيح. طائرات بي-2 في طريقها إلى أهدافها. القيادة والسيطرة خضراء. وليس هناك أي معوقات سيدي."

"أي أسئلة، يا تشوك؟"

"لا يوجد، سيدي."

وقام ضابط الاتصال في الهيئة والجالس إلى يساري بممارسة سحره فظهر اللواء البحري ويللي مور، قائد عنصر البحرية في مقره في المنامة، في البحرين. وقال وهو يبتسم: "أيها الجنرال، أمل أنك ستقول إنني أبدو في شكل أفضل."

أنا أمتلك أمر التنفيذ. القيادة والسيطرة جاهزة. ليس لدينا أي قضايا. نحن في حالة تقدم..." وتبسمت لنكتة ويللي، ولكنني أعجبت باحترافيته إعجاباً أكبر حتى من ذي قبل.

وتحركات الدورة إلى اللواء ديل ديلي قائد قوة المهام سورد (سيف). وكان الرجال، في وحدة المهام الخاصة تحت قيادة ديل، قد أُعدوا لينتشروا مع كيتي هوك عندما تقترب هذه الحاملة من عمان في يوم الأربعاء. وسوف تتمركز هذه القوة النخبوية في شمال بحر العرب في غضون سبعة أيام مكملتها التجارب النهائية لعملياتها.

قال ديل: "لا توجد أي قضايا."

وأخيراً ظهر في حلقة الشبكة مدير الاستخبارات العامة، جورج تينت، من لانغلي. "لا توجد قضايا، أيها الجنرال."

قابلت آلة التصوير. "حسناً. أنا راض. الحركات تبدأ في الساعة 1230 بتوقيت الساحل الشرقي، وفي الساعة 1630 بتوقيت زولو(*)، وفي الساعة 2100 بتوقيت أفغانستان. أي أسئلة؟" ليس هناك أي أسئلة. "جيد. نقطتي الأخيرة هي هذه: استخدموا حصافتكم الراشدة. هذه هي بداية تاريخ الغد. أريدكم أن تركزوا على أمرين: أنجزوا المهمة، واحموا القوة."

وحالما وصلت عائداً إلى مكتبي، تلقيت مكالمة على الهاتف اس تي يو-111 من الجنرال ديك مايرز والوزير رامسفيلد.

قال ديك: "عمل عظيم، نحن هنا لنساندك"

وأضاف دونالد رامسفيلد: "أيها الجنرال، لقد طلب الرئيس أن أبلغك احترامه وأطيب تمنياته. إننا سننهي ما بدأ في 11 سبتمبر."

وقلت: "بارك الله بك، أيها الوزير." وكان وزير الدفاع على وشك أن يصير وزير الحرب. "بارك الله في أمريكا."

(*) اسم آخر لتوقيت غرينتش.

وترددت أصدااء كلمات الشعار غير الرسمي لبلادي، وأحسست بمعناها العميق. لقد كان هناك إعادة ولادة للوطنية في أمريكا منذ الهجمات الإرهابية في 9/11. وروى المعلمون أنهم تلقوا أسئلة حتى من الأطفال الفتيان، وهم يحاولون بصعوبة أن يفهموا عهد الولاء. "أمة واحدة... لا تنقسم..." بعد بضعة أيام من 9/11، كنت أقود سيارتي في شارع بيشور في تامبا، ورأيت مجموعة من الناس عند ركن، ويلوحون بالأعلام. ومنذ ذلك الوقت، تقابل "وطنيو بيشور" عند ذلك الركن كل يوم جمعة.

جنودي كانوا ذاهبين إلى لحرب من أجل بلاد موحدة.

بعد أن رجعت إلى مكثبي وكنت أنتظر التقارير عن الضربة الأولى، تلقيت سلسلة من المكالمات من زملائي من رتبة أربع نجوم، ومن جملتهم العديد من رؤساء الخدمات الذين تشاجرت معهم في غرفة القيادة. وكانت رسالتهم الأساسية هي نفسها: "نحن هنا لنساعدك".

وتكلم ويللي مور من البحرين. "أطلقت أول صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي في الساعة 1419، بتوقيت زولو، أيها الجنرال. وسيكون هناك نبض لأربعين دقيقة مع الوقت فوق الهدف(*) كما هو مبرمج، في الساعة 1630 بتوقيت زولو." وطلبت ديك مايرز لأرفع تقريراً عن أن صواريخ توماهوك قد أطلقت بنجاح.

وأدار جيف هينز تلفاز الشاشة الواسعة الموجود في ركن المكتب. "الرئيس يتحدث، سيدي."

لقد كنت نسيت تقريباً. وأعلن الرئيس بوش إلى العالم: "بناء على أوامري، فقد بدأت قوات الولايات المتحدة العسكرية بتوجيه ضربات ضد معسكرات تدريب القاعدة والمنشآت العسكرية لنظام طالبان في أفغانستان."

(*) الوقت فوق الهدف هو الزمن الفعلي الذي خطط فيه للطائرة أن تهاجم الهدف وتصوره.

وتحدث مباشرة إلى أفراد القوات المسلحة، مؤكداً لهم أنهم ينالون "ثقته الكاملة".

وكلمني الوزير رامسفيلد. كان هو وديك مايرز على وشك أن يواجهوا وسائل الإعلام في مركز الصحافة في وزارة الدفاع. وسأل: "هل هناك أي شيء جديد يجب أن أعرف عنه؟"

"العملية تسير قدماً بشكل عادي، سيدي الوزير."

"حسناً، أيها الجنرال. كن حاضراً، وكن ودياً في المعاملة."

وكان رامسفيلد في معنويات جيدة، فخوراً عن حق وواثقاً. لقد أقتع السعوديين بالسماح لنا بإدارة الحرب الجوية من مركز العمليات الجوية المشتركة الموجود في قاعدة الأمير سلطان الجوية. وكسب إلى جانبه أيضاً الرئيس الأذربيجي إسلام كريموف. ففي المؤتمر الصحفي الذي عقده كريموف ورامسفيلد في القصر الرئاسي في طشقند قبل يومين، أعلننا أن أوزبكستان سوف تسمح بالطيران فوق أراضيها لوسائل نقل التحالف للمساعدة الإنسانية وستفتح قواعدها الجوية "لطائرات الشحن" وللطائرات العمودية المخصصة للبحث والإنقاذ.

أما الأمر الذي مر من دون أن يذكر في المؤتمر الصحفي فهو موافقة الرئيس الأذربيجي على السماح بترتيب التمرحل لقوات العمليات الخاصة في القواعد الأذربيجية. لقد التزم الرئيس كريموف بتقديم مساندته لجهود التحالف، ولكنه كان يحتاج إلى الحماية من النقد الداخلي. وهكذا، فحتى عندما كان كريموف يعلن بيانه العام المشترك مع رامسفيلد حول رغبة بلاده في تسهيل المساندة الإنسانية، كانت زمر العقيد مولهولند من القوات الخاصة مختبئة بشكل جيد في أوزبكستان، تحضر قوة المهام دغر (الخنجر) في قاعدة خارشي خانيباد الجوية، ويحضرون لإدخالهم في معسكرات قادة تحالف الشمال. بعد قليل ستكون أحذية الجنود الأمريكيين فوق أرض أفغانستان.

طوال سنوات حاولت أمريكا أن تقاتل الإرهاب من وراء الأفق، بصواريخ كروز. ذلك المدخل مثل نقطة واحدة على المتسلسلة المتصلة للنزاع. أما عندما يكون الجند "في تماس" مع العدو فهي نقطة أخرى، نقطة مختلفة اختلافاً بعيداً. وبعد قليل يعلم الطالبان والقاعدة مستوى القتال الذي يقاتل به الجنود الأمريكيون.

على الأقل أنا كنت آمل أن ذلك سيكون بعد قليل: أما دونالد رامسفيلد فقد كان يوصف، وهو بهذا الوصف جدير، بأنه "وراثياً عديم الصبر".

بعد التحدث إلى رامسفيلد ذهبت إلى مركز العمليات المشتركة في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة، وهي قلبُ عرضِ نطاق الترددات العريض لمقر قيادة في عصر المعلومات. وكان أعضاء نوبة النهار، وهم اثنان وثلاثون، منكبّين على حواسيبهم، مكتظين ساعداً لساعد. والأرضية تأخذ شكل الأفاعي من حزم كبلات الألياف البصرية المتعددة الألوان. وعلى الجدار البعيد كان هناك أربع شاشات بلازمية واسعة. واحدة منها كانت تعرض صور فيديو الاستطلاع الرأسي في الزمن الحقيقي لأهداف في أفغانستان. وكانت الثانية عبارة عن لوحة حاسوبية تعبوية تفصيلية، تنبض بكتل رقمية تُعرّف السفن السطحية الأمريكية، والبريطانية، والغواصات مطلقات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، في بحر العرب الشمالي، والصواريخ المتوجهة إلى الداخل كذلك، والقاذفات الثقيلة والتعبوية من القوات الجوية، وطائرات البحرية إف/إيه-18 هورنيت وطائرات إف-14 بوبكات المقاتلة القاذفة مقلعة عن حاملتي الطائرات إنتربرايز وكارل فينسون.

وقال جين رينيوارت عندما أخذت مقعدي: "لدينا ذخائر على الأرض سيدي".

وكان جماعة الاتصالات يستطيعون التحول من سي إن إن الولايات المتحدة إلى سي إن إن الدولية، وبي بي سي، وتلفاز سكاي، والمحطات الفضائية الأخرى الناطقة بالإنجليزية، ويعطونني بذلك "وعياً بالموقف": ورؤية الأخبار العاجلة التي يعلن عنها في الوقت نفسه الذي يشاهدها فيه القادة الأجانب والناس العاديون حول العالم.

المشهد لا يكاد يصدق. قبل عشر سنوات، في مكتبي في قوة المهام لمناورات لوزيانا فوق الشرفات الحجرية من فورت مونرو، كنت قد حلمت بمثل هذا المنظر الأولمبي لميدان المعركة. وأنا الآن أشاهد في الزمن الحقيقي، في الوقت الذي تقوم فيه مركبات بريديتر الجوية بدون طيار ببث صورة رؤية ليلية بالفيديو لصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي وذخائر الهجوم المباشر المشتركة وهي تتسف مواقع رادارات الدفاع الجوي ومباني القيادة والسيطرة حول كابول وقندهار. وإحدى شاشات العرض انقسمت إلى أربعة قطاعات. ونحن الآن نراقب وصلات فيديو من ضربات طائرات انفرادية عندما تقوم بإلقاء قنابل زنة 500 رطل موجهة بالليزر من وحدات القنابل الموجهة -12 وتحطم مزارع القاعدة في تارناك ومعسكرات تدريب ديورانتا. وبالحكم من خلال الشاحنات الصغيرة والشاحنات العسكرية الواقفة بالقرب من المباني، يمكن القول إن الإرهابيين لم يهجروا كلهم تلك المعسكرات.

وكذلك فإن المجمعات الفردية الموجودة حول جلال آباد، بالإضافة إلى مجمعات الكهوف المعقدة في تورا بورا، كانت تتلقى قصفاً من طائرات بي-52. وعدت بفكري إلى الورا إلى حُفَر القنابل التي حرثتها طائرات بي-52 بعيداً بالقرب من حدود كمبوديا قبل سنوات عديدة وبدأت كأنها الحفر التي تبدو على سطح القمر. ثم تصورت الصور التي لا تتسى من أبراج مركز التجارة العالمي وهي تنهار. وفكرت، اسحقوا أولاد... إلخ.

بعد ساعة لاحقة، على كل حال، كانت طائرة بريديتر تدور قرب قندهار، فكشفت الأخبار غير السارة وهي أن ثلاثة من أهداف الطالبان والقاعدة لم تكن قد ضربت وهي: مطار طائرات عمودية كان الطالبان يطيرون منه القلة القليلة الصالحة للطيران من نوع ام آي-8، ومدرج طيران يكفي طوله لمعالجة طائرة بمحركين من العصر السوفيتي من نوع مروحي عَنَفِي ايه ان -26، ومجمع استحكامات. وكان ضابط ركن الاستخبارات ووكالة الاستخبارات المركزية قد حددا هذه الأهداف بوصفها أهداف "قيادة" محتملة، وهدفان منها كانا طريقي هرب

محتملين، بينما كانت الاستحكامات مخبأً محتملاً للإرهابيين الذين كان يجب أن يكونوا الآن في عداد الموتى. وكانت هذه الأهداف في قائمة الضرب، وهي قائمة دقتها كل وكالة استخبارات لها علاقة بالموقف. ولكن أياً من هذه الأهداف الثلاثة لم يضرب... وكنت أريد أن أعرف السبب.

طلبت جين رينيوات، ورايفل دولونغ، واختليت بهما على جانب، وأنا أحتدم غيظاً. ومع المحافظة على صوتي متوازناً، أوضحت نقطتي. "أرسل هذا إلى تشوك وولد في مركز العمليات الجوية المشتركة. "في المستقبل انتبه إلى أولوياتي- الأولويات المبنية على حاجات الفريق المشترك، وليس على رغبة خدمة واحدة". لقد قمنا بعمل جماعي لجعل هذه الضربة ناجحة. ولكن ما حدث يشبه ثلاث ضربات للكرة في لعبة البيسبول سمحت للضارب أن يعبر دائرة الماسة ويعود لمكانه دون تلقي ضربة. لم أكن أريد تكرار أداء هذه المشكلة.

وقال جين: "أنا أعمل فيها، سيدي." قال ذلك من دون أعذار أو اعتذارات وهو بالضبط ما كنت أتوقعه من ضابط من مقدرته.

وعلى كل حال، وإجمالاً، فإن الموجة الأولى من الهجمات كانت فعالة للغاية. وتم تدمير جميع رادارات ضبط نيران الدفاع الجوي لطالبان باستثناء رادار واحد، إضافة إلى تدمير كل قاذفات الصواريخ التي كان قد تم التعرف عليها في الاستطلاع الذي قمنا به قبل الضربة الجوية. وضربت صورايخنا توماهوك للهجوم الأرضي رادارات الإنذار المبكر التي تحمي الحدود. وتم تعطيل نظام الدفاع الجوي المتكامل لأفغانستان، وهو نظام لم يكن في الأصل قوياً أبداً، ولكنه مع ذلك كان مصدراً للتهديد.

أما الطائرات المقاتلة القاذفة فكانت الآن "تسكع" على شكل أنماط انتظار مرتبة مسبقاً، وتنتظر المركبات الجوية بدون طيار لتحديد لها الأهداف التي تظهر. وكانت صهاريج إعادة التزود بالوقود جواً قادرة على أن تطير في مسارات داخل الفضاء الجوي الأفغاني، وهو ما يسمح للطيران القاصف أن يتزود من دون العودة

إلى حاملات الطائرات أو إلى القواعد في الشرق الأوسط. وسوف تستمر القاذفات الثقيلة في قصف أهداف القاعدة على مدار الساعة.

عطلنا دفاعات العدو الجوية، ولكنها ما تزال تمتلك القوة على تهديد طائراتنا العمودية بمئات من مدافع آلية عيار 23 ملم زد اس يو والصواريخ المضادة للطيران التي تطلق عن الكتف. وهو ما يعرف باسم أنظمة الدفاع الجوي التي يحملها الإنسان المقاتل. ومعظم هذه الأنظمة المحمولة على الكتف الموجودة لدى الطالبان والقاعدة كانت قديمة، وقصيرة المدى، ومن صناعة سوفيتية من نوع اس ايه-7، والتي يمكن "خداعها" بتوزيع مشاعل تعمل على إرباك الرؤوس الحربية الباحثة عن الحرارة. ولكنك لا تستطيع أن تخدع خيطاً متصلاً من طلقات عيار 23 ملم مطلقة إلى الأسفل من كهف يشرف على ممر عال في جبال هندوكوش.

وبالرغم من هذا التهديد، فقد كنت أعرف أن القوات الخاصة تحت قيادة جون مولهوللند كانت تسرع في محاولة الدخول إلى أفغانستان الشمالية. وكلما أسرعنا في جعل زمر مراقبي القتال الجوي تحدد أهداف الطالبان والقاعدة للقاذفات، استطاعت قوات جند تحالف الشمال أن تتسلق خارجة من خنادقها المشابهة لنمط الحرب العالمية الأولى وأن تتقدم نحو العدو. إن الحملة تتمفصل مع ربط القوات الخاصة، ووحدات تحالف الشمال، والقوة الجوية. وكنا نحتاج إلى أن نتحرك بسرعة. إن الخريف كان قد بدأ يدخل من قبل في جبال أفغانستان، والشتاء قادم بسرعة.

واشتملت الخطة على مخاطرة كبيرة، ولكنها لم تكن مقامرة متهورة.

هناك حكمة عسكرية تقول إن أي خطة لا تبقى حية بعد التماس الأولي مع العدو. ونحن قمنا بالتماس، والآن كنا بحاجة إلى استغلال ميزتنا، مثلما قال الرئيس "دون توقف".

كنت قد رجعت إلى مكثبي عندما دخل جيف هينز. "جنرال، إنهم يطلبونك في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة. بريديتر وجدت هدفاً."

ذهبت مباشرة إلى الغرفة 235 في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة، وهي خلية الدمج، ووصلة تصوير الفيديو لدينا مرتبطة مع مركبات جوية بدون طيار بريديتر تطير فوق أفغانستان. وكانت الوصلة تمتد من القيادة المركزية إلى عربة شاحنة واقفة قرب مبنى مقر وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي، في فرجينيا، ثم من هناك تتصل عبر القمر مع المركبات الجوية بدون طيار. من تلك العربة الشاحنة يطير "طيارو" البريديتر الطائرات بدون طيار، وما رأوه من خلال فيديو الوصلة، كنت أراقبه في خلية الدمج.

كان الوقت أصيلاً خريفيًا ساطعاً في تامبا، ولكن الوقت كان متأخراً في ليل صاف تضيئه النجوم قرب قندهار. وكانت المركبات الجوية بدون طيار في مدار بطيء مائل، تراقب قافلة من ثلاث سيارات ودراجة نارية وهي تسرع خارجة من مجمع بجدران طينية نحو المدينة. وكانت السيارة القائدة تويوتا لاندكروزر، والثانية شاحنة صغيرة بيضاء مغطاة مزدوجة المقصورة، متبوعة بشاحنة أخرى تحمل رجالاً مسلحين يزدحم بهم حوض الشحن في السيارة.

وقال لي العميد جيف كيمونز وأنا أجلس أمام شاشة الفيديو: "إن شكل القافلة يناسب قيادة طالبان، سيدي."

وشعرت بدفقة مألوفة من الأدرنالين، شبيهة لما كنت قد عرفتته وأنا أطيّر بصفتي راصداً جويًا في المفاوز الزهرية قبل العديد جداً من السنوات. ولكنني في هذه المرة لم أكن مربوطاً بالحزام إلى طائرة أو اتش-6 عند مستوى حقول الأرز، بل كنت أراقب من خلال عين تصوير فيديو تحت الحمراء في بريديتر على مسار بث مُوجّه من قمر. ولم تكن هذه مجرد مهمة استطلاع روتينية أخرى تم الطيران فيها بطائرة بدون طيار لا تؤذي، هذه البريديتر كانت مسلحة بصاروخين موجّهين بالليزر من نوع هيلفير (نار جهنم).

وكانت طائرة بريديتر المسلحة برنامج عمل مخفي حساس لوكالة الاستخبارات المركزية وكانت تعمل طوال عدة شهور من قاعدة سرية في آسيا الوسطى، لتتصيد

أسامة ابن لادن وأصحابه في القاعدة في أفغانستان. وكانت هذه العملية هي التي ناقشتها مع ريتشارد كلارك. كان هذا السلاح عظيماً في النظرية، ولكنه يعاني من النقص في الناحية العملية -حتى هذه الليلة.

فكما رتب دونالد رامسفيلد مع جورج تينيت، امتلكت القيادة المركزية السيطرة العملياتية على نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية في مسرح الحرب، ومن جملة ذلك الطائرة بريديتر المسلحة. ولكن خطوطي في الصلاحية في الوكالة لم تكن بعدُ قد وضعت موضع التجربة بشكل كامل.

وأومضت الصورة الحبيبية، وبعدئذٍ نقرتُ إلى تركيز أشد حدة.

وسألت مشغل الطائرة بدون طيار الموجود في لانغلي: "هل نستطيع الحصول على تقريب أشد؟"

وأجاب الصوت الشاب: "سوف أحاول، سيدي."

وطوال عدة دقائق حرك مطير البريديتر الطائرة، محافظاً عليها إلى الغرب من القافلة، على ارتفاع عدة آلاف من الأقدام فوق الطريق المليء بالحفر والأسود السطح.

وكان ضابط مناوب من مديرية وكالة الاستخبارات المركزية موجوداً في العربة الشاحنة في لانغلي. وقال الضابط: "أيها الجنرال، هذا الهدف يمتلك كل خصائص قافلة القيادة. لديك هنا سيارة مسلحة في المقدمة وأخرى مسلحة تتبعها. والشاحنة الصغيرة في الوسط بمقصورة مضاعفة. تلك السيارة يمكن أن تكون السيارة الشخصية للملا عمر."

راقبت القافلة الصغيرة وهي تتحرك بثبات جنوباً غرباً نحو أضواء مدينة قندهار. فإذا استطعنا أن نضربها الآن، في هذه الصحراء المفتوحة، فلن يكون هناك خطر لوجود أضرار جانبية. إذا توقفت القافلة، فسوف يكون لدينا احتمال لقتلها بنسبة 0.9 ونسبة 10 بالمائة فقط من خطر عدم إصابة الهدف. ولكن إذا أطلقنا

النار على سيارات متحركة، فإن احتمال القتل هو 0.3 فقط، ومخاطرة بالفشل بنسبة 70 بالمائة.

كانت كبيرة المستشارين العدليين العامين للقيادة المركزية، النقيب البحري شيللي يونغ، تقف إلى جانب كرسيي. وكانت هي المحامي الذي سيبقيني منصفاً منسجماً مع قواعد الاشتباك ومع قانون الحرب الأرضية، إذا قررت أن أطلق النار. ولم تكن شيللي من نوع محاميك النموذجي الذي يكون من ناحية - ومن الناحية الأخرى.

درست شيللي القافلة وقالت: "هدف مشروع".

وأخبرت مدير العمليات رينيوارت: "جين، دقق مع مركز العمليات الجوية المشتركة ولنر إن كنا نستطيع أن نبني صندوق قتل لطائرات اف-14 أو اف-18 لضرب القافلة في مكان أقرب ببضعة أميال إلى قندهار." كان "صندوق القتل" هو المستطيل الخيالي المتشكل من 200 متر في 400 متر والذي تُقذف فيه القنابل. وتخيلت مدى الهدف المتحرك الذي كنت بنيته في فورت هود قبل سنوات خلت. إن تدمير تلك القافلة سوف يتطلب توقيتاً دقيقاً وقذف ذخائر من طائرة تطير على ارتفاع 20.000 قدم. حساب، قاس جداً للزمن والمسافة، ولكن مع احتمال للقتل أعلى بكثير مما لو استعملت صواريخ هيلفير المحملة على بريديتر ضد سيارات متحركة. مضت عشر دقائق؛ ثم عشر أخرى. ولم يستطيع مركز العمليات الجوية المشتركة أن يبني صندوق قتل بسرعة كافية. لقد فقدنا الفرصة.

شاهدت شاشة البلازما. أسرع القافلة، تتقدمها الدراجة النارية، عبر الشوارع الفارغة في قندهار، وهي تمر على المجمعات السكنية من جدران الكتل الطينية المحيطة بساحات مفتوحة. وتوقفت السيارات قرب مركز المدينة، وهي منطقة من مبانٍ من طابقين أو ثلاثة مفرقة داخل المزيد من المجمعات المحاطة بالجدران. ودارت طائرة البريديتر في مدارها، غير مرئية على ارتفاع مأمون وعينها

في آلة تصوير الفيديو مثبتة على السيارات. وأشارت ساعة رقمية عند ركن الشاشة لقراءة الساعة 1505 بالتوقيت الشرقي. وكانت الساعة 0435 في قندهار. ساعتان إلى الفجر.

أمرت المشغل: "أعطني حالة الوقود الحقيقية في المركبة الجوية بدون طيار" سيدي، نحن بحالة جيدة لساعتين، وعشر دقائق قبل إشارة بنغو للوقود والعودة إلى القاعدة. وبنغو للوقود كانت تعني وجود الحد الأدنى للعودة إلى القاعدة بأمان. وأمرت: "ثبت المحطة."

عديدون من الناس من القافلة ركضوا داخلين إلى مجمع على الجانب الأيمن من الشارع. وسألت: "كم يستغرق من الوقت لتوجيه البريديتر لتوجه طلقة هيلفير؟" وأضافت شيللي ونحن ننتظر الجواب "هدف مشروع للهيلفير." وقال المشغل في لانغلي: "المحاذاة للتسديد لإطلاق طلقة يستغرق حوالي خمس دقائق إلى الإطلاق."

الرجال الذين ركضوا داخلين إلى المجمع عادوا إلى سياراتهم يحملون عدة حاويات كبيرة.

وتمت "أنظمة دفاع جوي محمولة مع المقاتل" وقد حددت محافظ الصواريخ التي تطلق من الكتف، وسألت لانغلي: "ما حالة هيلفير؟" "ياخذ التحاذي للتسديد الآن..."

تأخر جداً. انطلقت السيارات مسرعة خارج المدينة، بعيداً عن أضواء قندهار. "تباً لها." لا طلقة حتى الآن.

بغض النظر عن قدرتنا على أن نحافظ على بريديتر طائرة، فإن هذه القافلة ستقف ثانية. مرت خمس عشرة دقيقة، خمس وعشرون، أربعون. كانت السيارات متجهة بعيداً عن المدينة بسرعة عالية، ثم وقفت فجأة، في صحن مسجد، وهو

مبنى واسع بقبة، محاط بأكواخ طينية وبالعديد من المباني المكونة من ثلاثة طوابق، وهي مساكن لذوي الدخول العالية حسب المستويات الأفغانية.

وقلت: "حاذ لتسديد البريديتر لتطلق هيلفير، خذ المقصورة المزدوجة".

وقالت شيللي يونغ: "لا قضايا... هدف مشروع".

انفتحت أبواب السيارة، وقفز الركاب خارجها وتحركوا بسرعة نحو المسجد وأمرت لانغلي "بسرعة، بسرعة".

خرج الناس من المسجد وحيوا الرجال الذين يغادرون السيارات. وبعد المصافحة، وضع الناس القادمون من داخل المسجد أيديهم على قلوبهم، وهي إشارة واضحة للاحترام. وقلت والجماعة كلها قد دخلت المبنى: "هذا هدف قيادي". وعندما كنت أشاهد تذكرت محادثتي الأخيرة مع الرئيس بوش. لقد ناقشنا الضرر غير المقصود الذي يقع على المدنيين، "الضرر الجانبي"، وقد ذكرني الرئيس بأن العدو هو القاعدة والطالبان، لا الشعب الأفغاني. وقال: "إن هذا ليس حول الدين، فإذا رأيت ابن لادن يدخل المسجد، انتظر إلى أن يخرج واقتله". وفكرت، أنتظر إلى أن يخرجوا.

"كم بقي من زمن محطة بريديتر؟"

وقال المشغل: "أقل من ساعة، سيدي".

"هل تستطيع أن تزيل واحدة من السيارات السيدان الواقفة بالقرب من الجدار؟ ربما كان ذلك سيقنع الناس بمغادرة المسجد ويعطينا طلقة على الرؤساء".

بعد خمس دقائق، تمزقت سيارة سيدان سوداء في كرة نار. وتراكم الرجال الذين كانوا يحرسون السيارات في كل اتجاه. ولم ينظر أحد منهم إلى الأعلى. فلم يكن لديهم أي فكرة ما الذي ضربه.

وعندما كانت طائرتنا بحرية اف/ايه 18 هورنيت تدوران حول قندهار، وهما مسلحتان بقنابل زنة 500 رطل موجهة بالليزر من وحدات القنابل الموجهة-12، راقبتُ

باهتمام عندما قام الناس الموجودون على الأرض بالركض من المسجد والإسراع إلى السيارات المتبقية. وعندما اندفع حراس الأمن المسلحون جيداً للالتحاق، ابتعدت السيارات والشاحنات مسرعة وتسابقت على طول الطريق المرصوف بالحصى إلى الشمال الشرقي. لقد توقفوا على بعد حوالي ميل ونصف، أمام بيت كبير متعدد الطوابق خلف جدار مثل القلعة.

وأمرت مركز العمليات الجوية المشتركة في المملكة العربية السعودية: "اجعل النفاثات تحدد المجمع وتستعد للإسقاط. وسوف أستوضح هذا مع الوزير بوصفه هدفاً تصاحبه أضرار جانبية عالية."

ووافقت شيللي يونغ.

بدأت خلية الدمج تزداد ازدحاماً. كان جيف كيمونز في الركن، ويتحدث مع وكالة الاستخبارات المركزية، وحسب تحليلهم، فإن رؤساء القيادة والحراس كانوا في المبنى داخل المجمع.

ومشيت عبر القاعة إلى مكتبي، وأخذت الهاتف اس تي يو 111، وشرحت الموقف للوزير رامسفيلد.

سوف أهااتف الرئيس فوراً، يا جنرال، وأعود لأهاتفك. وإذا خرجت الأهداف من البيت قبل أن أعود إليك فاقتلهم. وفي غضون خمس دقائق، كان الرئيس بوش قد وافق على الهدف ليضرب ضرباً مباشراً.

وعندما اندفعت مسرعاً إلى خلية الدمج، كان ضابط من وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي على الهاتف المأمون بمكبر الصوت مع كيمونز. وقال لجف "لا تطلق النار. فنحن نعتقد أن هذا المبنى مسجد."

ضممت قبضتي وأقسمت بصمت. لم تكن هناك قبة، ولا منارة مثل المبنى الآخر. وقلت: "لا يبدو لي مسجداً."

ونصحت شيللي يونغ: "مازلت جيداً، سيدي"

وقال جيف كيمونز: "بعض الناس قد غادر المبنى، ولكن بعضهم ما يزال في الداخل."

وأمرت تشوك وولد في مركز العمليات الجوية المشتركة، على بعد سبعة آلاف ميل: "مر الطيارين أن ينفذوا الإسقاط."

وعندما مالت بريديتر مبتعدة لتجنب القاذفات القادمة، اختفى المجمع في سحابة من الغبار والدخان. بعد ستين ثانية، تلقينا تقارير الطيار: تم تدمير الهدف تدميراً كاملاً.

وفي غضون ساعة، كلمني ديك مايرز من هاتف اس تي يو-111. وقال: "يا توم، كان جون جمبر يراقب منظر بريديتر في عمليات القوات الجوية هنا في البنتاغون وهو يخبرني بأن الرؤساء كانوا قد غادروا البيت قبل أن تدخل إليه القنابل. وهو يعرف أن هذا عملك، ويقول إنه يحاول أن يكون عوناً فقط."

طباخ تكملة عدد بموجب القانون العاشر يحرك الحساء. ما الذي كان يحدث لسلسلة القيادة؟

كان الجنرال غاري لوك، رئيسي القديم من عاصفة الصحراء وكوريا، قد تقاعد الآن، وهو مراقب كبير مع قيادة القوات المشتركة، جاء إلى تامبا لينصحنى وليستوعب الدروس المستفادة من هذا النوع الجديد من الحرب. كان يقف بصمت في الركن من خلية الدمج عندما سلم مايرز الرسالة من جمبر، وهو يراقب وينصت. عندما رفعت رأسي ونظرت هز رأسه مشاركاً لي في إحباطي.

في القتال، يجب أن يكون هناك خط واحد للسلطة. ولكن في هذه المهمة السيئة كان هناك القيادة المركزية، ووزارة الدفاع، والبيت الأبيض ووكالة الاستخبارات المركزية... والنصيحة غير المبررة من رئيس الخدمة. وتوقعت أن يقوم شخص ما في واشنطن بتسريب نسخة ما من هذه القصة إلى الصحافة في غضون أسبوع. ولن أكون خائب الظن.

وبعد أن شكرت الوزير على رد فعله السريع ورد الرئيس، طلبت ديك مايرز. "يا ديك، سيتوجب علينا أن نفكك إسهامات الخدمات في هذا القتال. أنا أحترم ما يعتقد جماعة جوني جمبر أنهم رأوه على مسارات بث بريديتر، طائرة وكالة الاستخبارات المركزية. وسوف نفكر في طريقنا عبر الإحباط والاحتكاك في هذه المعادلة المشتركة بين الوكالات الرسمية المتعددة. ولكننا سنحتاج لا إلى وحدة القيادة فقط، ولكن إلى وحدة الجهد أيضاً. وأنا سأقدم القيادة، وأنت تعمل مع رؤساء الخدمات لتحصل على وحدة الجهد."

"أنا أسمعك، يا توم." ديك أيضاً كان محبطاً بوضوح.

وقلت: "نحن نريد جمبر أن يركز على إسهام القوات الجوية. أن يضرب الأهداف المقصودة، بالذخائر الصحيحة، في خطوط الزمن المقصودة. أنا سأعمل مع بريديتر الوكالة، واختيار الهدف، والتنفيذ. والوزير وأنا سوف نرتب التوقيعات والصلاحيات. وأنا سأقدر لك إن كنت تستطيع أن تزيل مسار البث الخاص بطائرة زفت... بريديتر من المبنى، وزارة الدفاع. اسمي ليس ويستومورلند(*)، ولن أقبل من واشنطن إعطاء تكتيكات وأهداف لأبنائنا في حجر الطيارين وعلى الأرض في أفغانستان."

واستمر ديك بالإنصات بصبر. "أنا أوافق، وسوف أساعد. هذا قتالك، ياتوم." بعد ذلك اجتمعت مع جين رينيوارت وجيف كيمونز. "ليست بداية سيئة، يارجال. القتال مستمر، وأنا فخور بحرفيتكم." وانتظروا وهم يعرفون أن لدي المزيد في ذهني.

وتابعت: "بعد أن قلت ذلك، أريدكم أن تعقدوا فوراً مؤتمراً خاصاً سريعاً مع جماعة العنصر الجوي ومع وكالة الاستخبارات المركزية. هناك الكثير من الدروس

(*) الجنرال وليام ويستومورلند (١٩١٤م) قاد القوات الأمريكية في فيتنام ١٩٦٤-٦٨، عرف بالتقدير الإيجابي لمستقبل القوات الأمريكية في فيتنام، وكانت ١٠٠,٠٠٠ ولكن تطور الحرب خالف تقديراته وزادت القوات إلى ٥٠٠,٠٠٠ وانتهت الحرب بجرح عميق للعسكرية الأمريكية.

التي يجب أن نتعلمها هنا. أزيلوا التضارب(*) وتجنبوا النزاع في مسألة الفضاء الجوي للبريديتر، قرروا خطوط توقيت واقعية للضربات لكل من الطائرات المسلحة بدون طيار ولنفاثاتنا، وحددوا أي قضايا تتصل بالشخصية "أحتاج إلى حلها. سنقاتل قتالاً مشتركاً... وسوف نبدأ الآن مباشرة".

وبكلمات أخرى، فإن عناصر الجو، والأرض، والبحر، والعمليات الخاصة كانت ستصرف بوصفها فريقاً حقيقياً.

ولاحقاً، سوف يشير أركان القيادة المركزية إلى الفترة الممتدة بين ذلك الأحد مساءً في تامبا وبين 18 تشرين الثاني/ أكتوبر بوصفها "الأيام العشرة من الجحيم". كان الضباب والاحتكاك الذي يتحدث عنه كلاوزفيتز يتنزل على القيادة.

طوال تلك الأيام الأولى كان معدل الحركة البطيء لعملياتنا مصدراً للإحباط المستمر.

ولم تكن مشكلتنا تنشأ من مصدر واحد، سهل الحل. كان هناك ورطات داخل مآزق بخيارات صعبة. ونتيجة لذلك، لم نكن قادرين على إدخال زمر القوات الخاصة تحت العقيد جون مولهولند إلى أفغانستان الشمالية بالسرعة التي كان رامسفيلد أو أنا نريدها، وهو تصريح مخفف ذو أبعاد تاريخية.

وعدم الصبر المزمع لدى رامسفيلد لم يكن يمثل هذا الوضع من قبل أبداً. عند هذه النقطة من العملية كان لي مع الوزير مكالمات هاتفيتان مبرمجتان يومياً، واحدة في الساعة 0745 والثانية في 1630. وكانت هناك مناقشات غير مبرمجة، كان بعضها طويلاً، وبعضها قصيراً، وفي صميم الموضوع، وما يمكنك أن تسميه خشناً.

طوال عشرة أيام، كانت أول كلمات يتحدث بها الوزير في كل محادثة فعلياً تخص القوات الخاصة. 'متى سيحدث شيء ما، أيها الجنرال؟' "لا أرى أي حركة،

(*) إزالة التضارب أو تجنب التنازع هي استراتيجيات عسكرية تحاول وضع الطائرات وغيرها من العربات في طرق مناسبة لتلا تضارب مع بعضها.

ياجنرال فرانكس. "ما هو الموقف مع تلك الزمر، يا جنرال؟" التويغات كانت قليلة، وعميقة دقيقة: "هل تستطيع التكهن متى سيحدث شيء ما؟" "أين توجد الزمر، يا جنرال؟"

لم يكن رامسفيلد شخصياً مسيئاً أبداً. ولكنه لم يكن ما يمكن أن نسميه "سهل التعلم وسهل الاستخدام". (*) فقد استمرت أسئلته، بلا رحمة.

وكان الجواب هو أننا جميعاً نبذل جهداً للتأثير فيها. ولكن نقل زمر القوات الخاصة، مع مراقبيهم الجويين القتاليين، من قاعدة خارشي خانيباد على سهول الأزبك، عبر وادي نهر آمو داريا- وهو نهر جيحون، نهر الإسكندر المقدوني- وإلى داخل مرتفعات الأفغان للاتصال مع تحالف الشمال، أثبت أنه تحد هائل.

والموقف التعبوي في الشمال كان معقداً. فقوات الطالبان، تساندها جماعات من جند القاعدة، كانت تحتل البلدات والمدن الرئيسية قرب حدود تركمانستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان. وسيطرت على الطرق بحوالي مائتي دبابة من الاتحاد السوفيتي السابق وناقلات الجند المدرعة، وعشرات من المدافع الرباعية عيار-23 زد اس يو، وهو سلاح كره بشكل خاص، وهو مقطور ومضاد للطيران وكان أيضاً أداة قوية ضد المشاة.

وجيَّب الأرض المحوَّط المدافع عنه أفضل دفاع من تحالف الشمال كان يقع في الركن الشمالي الشرقي البعيد من أفغانستان، وهي القاعدة السابقة للجنرال أحمد شاه مسعود، وهي الآن تحت قيادة محمد فهيم خان. وكان عبد الرشيد دوستم، وهو أزبكي عرقياً، يقود أقوى تشكيل تالٍ من تحالف الشمال. وكانت قواته وقوات منافسة سابقاً وحليفه أحياناً محمد عطا، تمسك بسلسلة إستراتيجية من ذرى الجبال والوديان جنوبي تقاطع طرق مزار شريف.

وما من واحد من "أمراء الحرب" هؤلاء يمكن اعتباره ذا شخصية أخلاقية عالية عندما يصل الأمر إلى الحقوق الإنسانية، ولكنهم كانوا قديسين مقارنة

(*) يستعبر المعنى من الحاسوب، هذه ملامح تبني في المعدات وفي البرانج الحاسوبية تجعل الحاسوب أو برنامج سهل التعلم وسهل الاستخدام. ويحرص عليها معظم المستخدمين.

بالطالبان. ولديهم جند مجريون. لقد كرهوا الطالبان والعربان (وهو لفظهم الاستهزائي للقاعدة، التي ضمت أعداداً كبيرة من الشيشان والباكستانيين)، وكانوا أكثر من راغبين للعمل معنا.

واعتمدت خطتنا على دمج هؤلاء المقاتلين المعارضين الأشداء المحفزين تحفيزاً عالياً مع القدرة الجوية الضخمة للتحالف. ولعمل ذلك، على كل حال، كان يجب علينا أن نضع زمر القوات الخاصة، أي، مفارز ألفا العملياتية، مع كل واحد من قادة تحالف الشمال.

وكان هذا هو الذي توقفنا عنده. كان فريق متقدم من وكالة الاستخبارات المركزية، واسمه الرمزي جو بريكر (كاسر الفك)، موجوداً مع فهميم، ولكن، كان ما يزال يجب، على ضباط الوكالة الآخرين حتى حينه أن يتصلوا مع دوستم، ومع عطا، ومع مرؤوسيههم. وعلى الرغم من أننا كنا نؤسس اتصالات مع القادة المتباينين لتحالف الشمال، كان ما يزال يجب علينا حتى حينه أن نضع أي ضباط من الوكالة مع القادة فعلاً لنمهد الطريق لقواتنا الخاصة.

قوة المهام دغر (الخنجر) تحت قيادة جون مولهولند كانت تنمو، وجاهزة للتحرك في قاعدة خارشي خانيباد. وكنا بحاجة للصلات مع تحالف الشمال وإلى وسائل نقل لإدخال الزمر. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية تملك الوصول إلى عدد قليل من الطائرات العمودية من نوع ام اي-17 شبه الصالحة جواً، وكانوا يستخدمونها لمساندة تحالف الشمال. ونظراً إلى أن الطالبان استخدموا طائرات عمودية مشابهة، فإن هذه الطائرات كانت على الأرجح أقل جذباً للنيران الأرضية من طائرات ام اتش-60 بيف هوك وام اتش-47 من الفوج المائة والستين، فوج طيران العمليات الخاصة. لقد كنت أريد القبعات الخضراء تحت قيادة مولهولند أن يدخلوا على متن الطائرات العمودية ام اي-17، ولكن الترتيبات لم تكن تعمل.

وكما قدم مولهولند تقريره، فإن الطائرات العمودية القديمة لم تحضر قطعياً حسب الموعد المخطط. وعندما وصلت، فهي عادة تعاني من أعطال هيدرولية أو من مشكلات في المحرك، وهي أمور أبقتها على الأرض.

ثم كان هناك الطقس الفظيع. محاولاتنا الأولى لإدخال الزمر، واحدة لفهيم وواحدة لدوستم، ارتدت للخلف بعواصف الغبار التي جعلت الرؤية صفراً. ومحاولات الطيران التالية واجهت المطر الذي تحول إلى ثلج يعمي عندما حاولت الطائرات العمودية القديمة أن تصل إلى قمة الممرات العالية. وفي الحال صار واضحاً أن التجهيزات السوفيتية القديمة لن تكون موثوقة بشكل كاف للوفاء بتوقيتات خطوط الزمن المطلوبة.

ولكن القاعدة الجوية في خارشي خانيباد لم تكن جاهزة بعد لمساندة الطائرات العمودية للفوج المائة والستين، فوج طيران العمليات الخاصة التي كانت مهياة لتتقل جواً من ألمانيا. وكان مولهولند وقبعاته الخضر، ويساعدهم ملاحو عمليات قاعدة القوات الجوية النشيطون، يكافح من أجل تحويل قاعدة خارشي خانيباد إلى قاعدة عمليات متقدمة، ولكن، ومع مرور كل يوم، زادت احتمالات الطقس السيئ، على طول طرق التسلل الجبلية.

ولم يكن ذلك هو التحدي الوحيد. فضباط الوكالة المتقدمون واجهوا الظروف نفسها أو أسوأ منها وهم يقومون بالعمل من دوشانبه في طاجيكستان. فبعد التماس الأولي مع قادة تحالف الشمال، كانت زمر وكالة الاستخبارات المركزية غير قادرة في الأغلب على أن تعود لعدة أيام. وفي أثناء مكافحة قادة تحالف الشمال لإتقان هواتفهم الفضائية الجديدة، فإنهم كانوا يستنفدون البطاريات بسرعة أكبر من السرعة التي كان يمكن بها إعادة تزويدهم بالبطاريات، وبهذا كنا نفقد الاتصال معهم مراراً لمدة طويلة.

وأخيراً، بعد ستة أيام من بدء العملية، في دعوة لمؤتمر ربطني مع جون مولهولند، وغاري هاريل، وبرت كاللاند، جاء التقرير الذي كنا ننتظره: قوة المهام دغر (الخنجر) ستأخذ طائرات عمودية ام اتش-60 بيف هوك وام اتش-47 جاهزة وتطير في غضون أربع وعشرين ساعة.

وقلت للفريق: "هذه أخبار عظيمة."

ولكن جون مولهولند قال بتقريره في اليوم التالي إن الطقس السيئ قد ضرب مرة ثانية، وسبب تقريباً أول ضحايا للتحالف في الحملة. وذلك أن طائرة عمودية من نوع ام اتش-60 تحمل زمرة كانت في طريقها إلى دوستم فتجمدت أجزاؤها الدوارة الرئيسية بالجليد في ضباب متجمد فوق ارتفاع اثني عشر ألف قدم. و"انزلقت" الطائرة وهبطت بشدة، وتحطمت، وتُركت، وأما القبعات الخضراء والملاحون فكدحوا نازلين عبر الثلج إلى ارتفاع أدنى، ومن هناك التقطتهم طائرة عمودية للبحث والإنقاذ القتالي. وأصيبت طائرة أخرى من نوع بيف هوك بنيران أرضية وهي تجهد صاعدة في واد عميق نحو ممر، فتعطلت وعادت إلى قاعدة خارشي خانيباد.

وقال مولهولند في تقريره: "سوف نبقى مع المشكلة. ولكن التقدم هنا قاسٍ". في ذلك الأصل، أجبت وابلأ من الأسئلة من دونالد رامسفيلد بدأ: "ما هي حالة الزمر، أيها الجنرال؟"

وشرحت الصعوبات، ولكنني ارتكبت غلطة بالانزلاق إلى مصطلح الطيران، مشوشاً تقريرتي بتعابير مثل "كثافة الارتفاع" وهي التي تؤثر على قدرة الرفع في عمليات الطائرات العمودية الجبلية.

وطلب رامسفيلد: "هل نملك المعدات الصحيحة هناك، يا جنرال؟"

"نحن نملك ذلك، سيدي الوزير، ولكن ذلك سيستغرق وقتاً".

ولم يكن رامسفيلد مسروراً. لقد مضى على التحالف وهو يقصف أفغانستان أكثر من أسبوع. والصحافيون الدوليون الذين احتشدوا من باكستان كانوا يوثقون صور فيديو عن الطائرات الأمريكية وهي تقصف سفوح الجبال. والشبكات كانت تبث شريطاً وتعيد بثه عن العربات المدرعة الخاصة بالطالبان وهي تتحرك في وضع النهار مع حصانة واضحة. وبثت محطة بي بي سي تقريراً طويلاً، متشائماً عن كون تحالف الشمال "محاصر بشدة" خلف خطوط خنادقه. وكان رامسفيلد يريد

نتائج. كان يريد أن يعطي تقريراً عن إنجازات محسوسة: شيء ما أكثر من إسقاطات جوية للإعاشات اليومية الإنسانية.

وحتى هذه الرحلات الإنسانية من رامشتاين كانت قد بدأت تسبب مشكلات. فقد حصلت أوكسفام إنترناشيونال على استماع إعلامي واسع بإعطاء تقرير يفيد أن القرويين الجياع في الجبال الشمالية الجرداء كانوا يطاردون رزم الإعاشة البلاستيكية الصفراء اللامعة إلى أن يدخلوا حقول الألغام. وعلى الرغم من عدم وجود أدلة على أن هذا هو ما حدث فعلاً، فإن التصور نفسه لطّخ الجهد الإنساني الجدير بالانتباه.

ولكن كان هناك المزيد من الأنباء السيئة. فمنذ آب/أغسطس كان الطالبان يحتجزون ثمانية عاملين متطوعين غربيين من المنظمة الألمانية شيلتر ناو (مأوى الآن). وكان الطالبان يهددون بمحاكمتهم بتهمة التجسس والحكم عليهم بنوعهم القاسي من العدالة الإسلامية. وكان رجال وحدات المهام الخاصة تحت قيادة ديل ديلي على ظهر كيتي هوك يخططون لعملية إنقاذ بالتعاون مع ضباط الوكالة في الميدان، ولكن وسائل الإعلام كانت تغزل خيوط دراما تقول ضمناً إن الولايات المتحدة كانت عاجزة بلا حول لمساعدة هؤلاء الرهائن الأبرياء.

كنت منشغلاً، ولكنني لم ألاحظ في مؤتمرات الفيديو التي كنت أعقدها مع البيت الأبيض أي قلق من الرئيس جورج بوش عندما وصفت له صعوباتنا في تسلي القوات الخاصة. وقال الرئيس: "أثبت على الخطة، يا تومي. سنكون صبورين. ويستغرق هذا ما يستغرق."

وفي الأصيل التالي، قبل مكالمتي المبرمجة مع رامسفيلد، قدم جون مولهولند تقريراً يقول إن مزيجاً مشتركاً من الطقس السيئ والنيران الأرضية قد ردت للخلف فوق ما تقدم محاولة طيران تسلي أخرى.

كان الوزير مفتماً. "يا جنرال فرانكس، هذه لا تعمل. أريدك أن تبني خيارات ستعمل."

وأخيراً، قررت أن أبتعد عن سطوع الفلوريسنت الذي لا يومض وصوت الأز الذي لا يتوقف من الإليكترونيات الساخنة في مركز العمليات المشتركة وفي خلية الدمج.

وقلت لكاثي: "افتحي زجاجة خمر. سأكون في البيت في غضون خمس عشرة دقيقة."

بعد العشاء، كنت مضطرباً جداً إلى درجة لم أستطع معها أن أسترخي. ذهبت إلى غرفة مكثبي واستخدمت الهاتف المأمون لأطلب دعوة لمؤتمر غير مبرمج من قبل مع رامسفيلد وديك مايرز. لقد كنت منهكاً، متعباً لأن علي أن أشرح كل مشكلة عملياتية للوزير. كنت أعرف أننا سوف نوصل قواتنا الخاصة ونضعها على الأرض قريباً، وأن الموقف سوف يتغير بعد أن نكون قد حققنا ذلك. ولكنني أعتقد أن الوزير لم يكن يصدق هذا.

وقلت: "سيدي الوزير، من ملاحظاتي في وقت أبكر من هذا اليوم، يبدو لي أن لا ثقة لك بي بعد الآن..."

وبدأ رامسفيلد: "جنرال..."

"لا، يا سيدي. أرجو أن تسمعني بشكل كامل. إنه لأمر جوهري بالنسبة إلى المهمة أن تكون لك الثقة في القائد. إذا كنت قد فقدت الثقة... يجب أن تختار قائداً آخر."

كان الخط صامتاً.

وأخيراً قال رامسفيلد: "يا جنرال فرانكس، أنت لك ثقتي الكاملة. هذه العملية ستجح."

وأضاف ديك مايرز: "أنا أتفق معه، يا توم. إنك تقوم بعمل عظيم تحت ظروف صعبة ونحن سنساندك في كل طريقة نستطيعها."

"شكراً لك، سيدي الوزير. وشكري لك، يا ديك. شيء واحد تستطيعان عمله

وهو تذكير رؤساء الخدمات عن سلسلة القيادة. إنهم ما يزالون يعملون بشكل جيد في صناعات الكوخ(*) لخدماتهم الفردية، وهذا لا يساعد.

وقال ديك مايرز: "أنا سأعتني بها." وأعتقد إلى هذا اليوم أنه فعل كل شيء في مقدور سلطته ليبقي رؤساء الخدمات في مساراتهم المحددة.

وفي أثناء مكالمتي المنتظمة مع الوزير في الصباح التالي، لم يبدأ رامسفيلد كلامه بسؤال عن نضاد الصبر حول الزمر. وبدلاً من ذلك، طلب مني أن أعلق على استخدام القنابل دقيقة التوجيه زنة 5000 رطل، قنابل "المتغلغل العميق" في الجبال البيضاء. وشرحت فاعلية هذه العملية: فعلى الرغم من أن جمهور المشاهدين الدوليين للتلفاز قد يكون رأى هذه الانفجارات بوصفها انفجارات عشوائية على سفوح تلال فارغة، فقد كانت فعلاً ضربات دقيقة وكانت تقتل القاعدة وتدمر ملاذاتهم.

قال رامسفيلد: "مثير للاهتمام. أنا أحب أن أعلم هذه التفاصيل."

"أنت تسأل، سيدي الوزير، وأنا أجيب."

الأيام العشرة من جهنم انتهت في يوم الجمعة 19 تشرين الأول/أكتوبر. فقرب منتصف الليل، بتوقيت أفغانستان، في بداية فترة ما بعد الظهر في تامبا أدخل جون مولهولند أول زمرة-أ من القوات الخاصة إلى مقر الجنرال دوستم، في قرية مبنية بكتل الطين جنوبي مزار شريف. فالطائرات العمودية ام اتش-47 من الفوج المائة والستين، فوج طيران العمليات الخاصة، والتي كانت تحاول لعدة ليال أن تنقل زمرة - المفزة العملياتية ألفا 595 عبر الجبال، قد نجحت أخيراً. وكنا الآن نملك زمرة من اثني عشر رجلاً من القبعات الخضراء ذوي المهارة العالية- إشارة النداء تايفر2 (النمر)- مع ميليشيا دوستم. وكان التنبؤ الجوي يوحى بطقس جيد في اثنتي وسبعين ساعة قادمة، وقدم مولهولند تقريراً بأن زمرتي-أ أخريين سوف

(*) الصناعات المنزلية العائلية قبل الثورة الصناعية.

تدخلان، زمرة مع محمد فهميم، وزمرة محمد عطا. وعندما يقوم المزيد من عناصر وكالة الاستخبارات المركزية بالاتصال مع أمراء الحرب الآخرين فسيتم إدخال زمرة إضافية مع بقية وحدات تحالف الشمال.

قال مولهولند في تقريره: "الأمور تسير، سيدي."

كنت مسروراً. ولكننا ما نزال نعمل في موضوع "رمز اللباس" الذي ستذهب فيه هذه الزمرة إلى القتال. إن جزءاً من ثقافة القوات الخاصة يقضي بأن تقوم هذه الزمرة بتبني مظهر الجند المحليين الذين تخدم معهم. إن هذه الزمرة سوف تقاتل إلى جانب رجال قبائل الطاجيك، والأزبك، والهزارا، وهم محاربون جبليون أشداء، وكانوا يلبسون ملابس متميزة. وإلى أن نستطيع أن نزود تحالف الشمال بملابس المعركة على الطراز الغربي، فإن مقاتلي التحالف كانوا يلبسون بدلاً عن ذلك ملابس من صنع وطني. وكان مولهولند يريد لرجاله، بحق، أن يختلطوا، وهو الأمر الذي كان يعني أن "يظهروا محليين". وكان هذا يعني حساً تعبويّاً جيداً كذلك. فالعدو قد درب رماة قناصين سيستطيعون بسهولة تحديد الأمريكيين الذين يرتدون البزة العسكرية الصحراوية المموهة. ولكن واشنطنون كان لديها اهتمامات قانونية.

لقد كانت مشكلة مزعجة. فالجنود الأمريكيون الذين يقاتلون من دون البزة العسكرية قد لا يعاملون معاملة أسرى الحرب إذا وقعوا في الأسر، وبدل ذلك قد يعدمون بصفقتهم جواسيس. ومن ناحية أخرى، فإن أي واحد من القبعات الخضراء سوف يعدم على الأرجح بغض النظر عن الملابس التي يرتديها. والحل الوسط الأخير طلب من رجالنا أن يلبسوا على الأقل "قطعة ملابس بارزة واحدة" من البزة حسب التعليمات: قميص الزى العسكري الصحراوي المموه، أو معطفاً، أو بنطالاً، فهذا سيكون كافياً.

هذه حرب كانت تتطور لتتقلب إلى حرب غريبة.

وحالما سمعت من مولهولند طلبت ديك مايرز. "أخبر الوزير أننا نملك خيالة قوات خاصة على الأرض، والمزيد منهم في الطريق."

"هذه أخبار جيدة، يا توم، سوف يسر بها الوزير."

بعد عشرين دقيقة كنت قد رجعت إلى وحدة السيطرة الخاصة بالقائد في مركز العمليات المشتركة، أراقب حروف بطاقة الهوية الرقمية للطائرات وهي تتحرك عبر صورة أفغانستان على شاشة البلازما. في أقصى الشمال، ظهر الرمز تايفر 02، مبعوثاً بمسارات بث بالأقمار المأمونة، وظهر في مركز شكل بيضاوي مظلل يمثل منطقة عمليات دوستم.

كانت الساعة 1429 في تامبا، والساعة 0100 تقريباً في 20 تشرين الأول/أكتوبر في أفغانستان. كانت أربع طائرات نقل ام سي-130 من القوات الجوية من الجناح الأول للعمليات الخاصة تتحرك في تشكيل رتل متقاطر، وتعبّر إلى أفغانستان قادمة من بلوشستان، وهي لسان أرضي مثل يد المقلاة، من باكستان. كانت تحمل مائتي رجل من فوج المغاوير 75، وكانوا سيهبطون بالمظلات على هضبة صحراوية عالية في غضون دقائق. وفوق الهدف كانت هناك طائرة مسلحة سبكر ايه سي-130 تدور فوق هدف المغاوير وهو: مهبط طويل معبد للطائرات، واسمه الرمزي رينو (خرتيت).

الشيخ محمد بن زايد، رئيس الأركان العسكري للإمارات العربية المتحدة، هو الذي كان قد أخبرني عن المهبط الصحراوي، الموجود على قاع بحيرة جافة. والشيخ، وهو محب متحمس للصقور، كان قد ابتنى هذه المنشأة لتخدم معسكر صيد مجهزاً تجهيزاً حسناً. وقال لي: "إذا استطعتم أن تستخدموا المهبط، فقد لا يتوجب عليكم أن تمارسوا ضغطاً كبيراً على مشرف لإقامة القواعد. وسيكون من الأفضل له إذا استطعتم إبقاء قوة جندكم في باكستان صغيرة."

بعد أن تزودنا بالإحداثيات الدقيقة للمهبط، خططنا عملية مع رجال وحدتنا الخاصة. وكان هدف المغاوير هو تأمين المطار ليكون نقطة استناد لمشاة البحرية الأمريكية، وهم أول قوة تقليدية لنا في أفغانستان.

والى الشمال الشرقي من المغاوير كان خط من الطائرات العمودية ام اتش-47 قد انطلق من كيتي هوك وهو يقترب من قندهار. وتساندها طائرة أخرى ايه سي-130 سبكتر. وكانت هذه الطائرات العمودية تحمل قوة المهام جيكو (أبو بريص)، وهي نخبة من الرجال من وحدات المهام الخاصة تحت قيادة اللواء ديل ديلي. وهدفهم هو مجمع قندهار المركزي لقائد طالبان الملا محمد عمر.

وكنا اخترنا عن قصد ألا نقصف ذلك الهدف، آملين أن يعمل مغناطيس جذب لعمر ووكلاته. وتوقعنا أن المتاهة الموجودة من الغرف والظلال داخل جدران المجمع قد تحتوي غنائم استخباراتية مثل: خرائط تعبوية، ذبذبات لاسلكية، أرقام هواتف فضائية. قوائم عملاء وراء البحار، وربما حتى مواقع لاجئين سريين في أفغانستان قد يكون قادة طالبان أو القاعدة مختبئين فيها. والأوامر لدى رجال وحدة المهام الخاصة في عملية جيكو هي أن يستولوا على الموقع بالقوة، وأن يقتلوا أو أن يأسروا أي عدو موجود هناك، وأن يستغلوا الهدف لأغراض الاستخبارات.

ومثل إسقاط المغاوير في رينو، كانت مهمة وحدات المهام الخاصة في قندهار عملية تراوح بين المخاطرة المتوسطة إلى المخاطرة العالية. ولكني كنت أمتلك الثقة بأن المغاوير ورجال وحدات المهام الخاصة يقدررون على تدبير أمور أنفسهم عميقاً في أرض العدو. وكان لهذه العملية ذات القسمين أيضاً هدف إستراتيجي، هو أن مهاجمة قلب أرض طالبان سوف يبين عملياً أننا نستطيع أن نضرب في أي مكان، وفي أي زمان من اختيارنا. وهذا سيخدم في تثبيت قوات طالبان المحدودة في الجنوب. وإذا هددنا الموقع الحصين للملا عمر في قندهار، فإنه عندئذ لن يرسل قواته الاحتياطية إلى الشمال لتعزيز وحدات الطالبان والقاعدة المتحشدة على طول حدود الأزبك والطاجيك.

وفي الحقيقة، كانت الجبال الشمالية، لا الصحراء الجنوبية الغربية، هي المكان الذي سوف نركز فيه جهدنا الرئيسي. وعندما عملت أنا مع ديل ديلي في هذه الخطة، تذكرت الخداع الناجح الذي قامت به فرقة الخيالة الأولى في وادي

الباطن. وذلك الهجوم التظاهري كان قد عمل بشكل كامل، وتوقعت الشيء نفسه في هذه الحالة.

وكنت قد قلت لدیل: "كن حركياً. اقتل أو خذ أسرى، واستخدم طائرات سبکتر لإظهار القوة الكاسحة."

تکلم ديل ديلي من مركز عملياته: "المهام على الهدف في غضون تسع دقائق." وراقبت الرموز تتحرك نحو الأهداف. "أي نشاطات على الأرض يا ديل؟" "سليبي، سيدي. لا قضايا، لا دراما. "كان صوت ديل هادئاً، وكأنه كان يصف تمريناً للتدريب.

نحن الآن ننتظر. ووقفت أنا ومددت ساقي اليمنى. لقد أظهرت أحدث صور للاستطلاع أن الطالبان قد أنشؤوا قوة أمن على الهدف رينو. وكانت طائرات سبکتر قد ذهبت لإعداد الهدف بنيران الرشاشات والمدفعية الآلية، لتدمر أي أسلحة يخدمها سدنة، مستخدمة المدفع 105 ملم المحمول على متنها. ولم يشهد الأفغان، في أي وقت في أثناء حربهم الطويلة ضد الاحتلال السوفيتي، مثل هذه الأسلحة المدمرة. لقد كنت سعيداً لأننا كنا نملك هذه الطائرات المسلحة في مسرح العمليات، وأن اثنتين منها فوق هذين الهدفين في هذه الليلة.

في الساعة 1451 تكلم ثانية. "قوة المهام رينو وقوة المهام جيکو على أهدافها." وكان لدينا في الجو أيضاً طائرة بريديتر، تراقب مهمة جيکو. وعلى الرغم من أنني رأيت تجارب على المهمة في فورت بيننغ، فإن السرعة المطلقة للدخول كانت لا تكاد تصدق. واكتسحت الطائرات العمودية المتقاطرة بدوراتها الكبيرة هدفها داخلة إليه من اتجاهين، وكانت منخفضة إلى درجة كان على الطيارين معها، وهم يطيرون بمناظير الرؤية الليلية، أن يظهروا فجأة بالطائرات لتجنب جدران المجمع. وعندما ارتفعت موجة الغبار، نسف رجال المهام الخاصة البوابات الخلفية وتحركوا نحو أهدافهم، وهم يطلقون النار ويركضون.

وعندما كنت أشاهد، أدى الدخان المتصاعد من المجمع وسحب الغيوم المتصاعدة من دوائر الطائرات العمودية إلى حجب صور فيديو بريديتر. وانتظرنا إلى الساعة 1535، عندما تكلم ديل ديلي ثانية. "جيكو ورينو مؤمنان. مقاومة في كلا الهدفين. للعدو قتلى في المعركة. الصديق بدون قتلى في المعركة. المهمة مستمرة." حاول الطالبان أن يدافعوا عن الموقعين مثلما توقعنا، والعديد من رجالنا جرحوا. بعض الأعداء قتلوا. لقد أمن المغاوير أهدافهم في رينو، وأخذوا العديد من الأسرى، واستدعوا طائرتين من نوع ام سي-130 لإخراج قوة المهام.

في قندهار، أنهت قوة المهام جيكو عملها وغادرت في الطائرات العمودية المنتظرة. إحدى الطائرات العمودية ام اتش-47 ضربت بحافة جدار المجمع وهي ترتفع خارجة من منطقة الهبوط. انشق جهاز الهبوط الأيمن الكبير ذو الدولابين في الطائرة العمودية وانفصل، ولكن الطائرة في ما عدا ذلك لم تعطب.

كنت على وشك أن أعود إلى مكتبي لمكالمة ديك مايرز عندما اتصل ديل بمعلومات جديدة. وكانت الأخبار سيئة. طائرات ام اتش-60 بينيتريتر (المختربة) واقفة في الاحتياط مع قوة الرد السريع في مهبط معزول داخل باكستان تحطمت في "عاصفة رملية"، فانقلبت، وأصيبت الطائرة بأعطاب شديدة وقتلت مغوارين.

لقد كانت خسارة محزنة. لقد قاد هذان الجنديان الشابان الطريق، وهما مخلصان بولائهما لعقيدة المغاوير.

قام مكتب توري كلارك للعلاقات العامة في وزارة الدفاع بالسماح بعرض صور فيديو ليلية دراماتية للإنزال الجوي للمغاوير في عملية رينو، وذلك جزء من خطة المعلومات الإجمالية، وكانت السماء الخضراء الفسفورية تزهر بالمظلات في منظر يستثير ذكريات الأشرطة المتقطعة من أخبار الحرب العالمية الثانية عن غزو نورماندي. كانت تلك هي الرسالة بالضبط التي أردنا أن نسجلها مع طالبان. أنتم مكشوفون. قوات التحالف، القاتلة تستطيع أن تنزل من سماء الليل في أي زمان، وفي أي مكان. وتستطيعون أن تتوقعوا عودتنا.

وتلقت خطتنا المساندة من مصدر غير محتمل: من مجلة قومية. ففي مقالة عن مهمتي جيكو ورينو، عرض واحد من مراسليها النجوم نسخة مشوهة تشويهاً سيئاً للعمليتين. وكانت إحدى الغلطات الصارخة متمثلة بالوصف الذي قدمه عن مهمة قندهار والذي أدعى فيه المراسل أن المهمة قد "بدأتها ست عشرة طائرة مسلحة من نوع ايه سي-130".

وفكرت، ست عشرة طائرة مسلحة. ممتاز. كنا نعرف من اعتراض الاتصالات أن الطالبان والقاعدة كانوا خائفين من الطائرات ايه سي-130. وشكراً، الآن، لهذه المقالة، فهم سوف يعتقدون أن القيادة المركزية كانت تستطيع أن تضع ست عشرة وحدة من هذا السلاح على هدف واحد. ذلك خيال وليس حقيقة. ونحن نملك ما مجموعه تسع طائرات مسلحة سبكر في منطقة المسؤولية ونستطيع أن نشغل ثلاثة أو أربعة فوق أفغانستان في أي ليلة معينة. ولكن التقرير المغلوط قد عزز العملية. وتساءلت أكان "الضابط الكبير" الذي لم يسمه المراسل قد زود المراسل بهذه المعلومة عن قصد، أم كان بكل بساطة واحداً من أولئك الذين لا يمتلكون المعلومات الصحيحة، والمسربين المتذمرين الذين ينهون مسارهم الوظيفي بدون فرصة للتقدم في مقصورة في وزارة الدفاع؟

لن أعرف أبداً. ولكن في الوقت الذي كان فيه الطالبان يركزون قواتهم الاحتياطية لحماية قندهار والجنوب، استمر جون مولهولند في إدخال زمرة إلى الشمال.

إن كل حرب تنتج صوراً لا تتسنى: رفعُ البحرية للعلم على جبل سوريباتشي في أيوجيما،^(*) وتقهقر القوات التي آذاها البرد وجمد أطرافها على سلاسل الجبال الثلجية في كوريا، والإخلاء الطبي للجرحى بالطائرات العمودية في حرب فيتنام.

(*) جبل سوريباتشي في جزيرة أيو جيما في المحيط الهادي الغربي. وقعت فيها معركة لاحتلال الجزيرة كلفت الأمريكيين ٦٠٠٠ قتيل من البحرية وكلفت اليابان ٢٠٠٠٠ قتيل. وزود احتلالها الولايات المتحدة بأول قاعدة داخل النظام الدفاعي الياباني استطاعت منها أن تشن الهجمات ضد الصناعات اليابانية رفع عليها العلم الأمريكي في ٢٣ شباط/فبراير ١٩٤٥م.

وأول أيقونة بصرية لعملية الحرية الدائمة أظهرت جنود القوات الخاصة على ظهور الخيل، يهاجمون عبر منحدر قاحل مع شركائهم من تحالف الشمال. وكانوا يلبسون خلطة متنوعة من البزات المموهة والشمالات العرقية من قماش المربعات، ولبس الأمريكيون اللحي وقبعات على شكل الفطر أو الباكول.

ولدى دراسة صور مجلات الأخبار، عرفت تفاصيل قد لا يراها المراقب غير المكترث مثل: محافظ خضراء من ألياف زجاجية تحمل أجهزة إرسال لاسلكية من خلال القمر، وأجهزة النظام العالمي لتحديد الموقع، ودليل الأهداف الليزري مربوطاً إلى سروج الجنود. كان المنظر يبدو وكأن محاربين من المستقبل قد نقلوا إلى قرن أسبق. وتلك الصورة جذبت الانتباه إلى هذه الحرب غير العادية إلى أقصى الحدود: شباب واسعو الحيلة يحملون أحدث تقانة عسكرية وأكثرها تقدماً إلى ميدان المعركة الذي ما يزال فيه فرسان الخيل هم السائدين. وكنت شاكراً لتقانة أمريكا، وكنت مذهولاً من أداء هؤلاء الشباب.

وعندما غادرت من أجل رحلة إلى منطقة المسؤولية للتشاور مع حلفائنا المهمين، كانت القبعات الخضراء وطيارو القتال قد شكلوا شراكة سوف تكسر ظهر الطالبان والقاعدة.

بعد الاجتماع مع ولي العهد الأمير عبد الله وأعضاء كبار آخرين من العائلة المالكة السعودية في الرياض، في المملكة العربية السعودية، طرت إلى مسقط، في عمان، لأعيد الاتصال مع السلطان قابوس. وقلت للسلطان: "يا صاحب الجلالة، ولي العهد الأمير عبد الله يساند عملياتنا ضد الطالبان والقاعدة. وكما تعرف إن الجنرال وولد الذي يقود عنصرنا الجوي، موجود في قاعدة في المملكة."

وأوماً السلطان قابوس برأسه.

"وأنا زرت صاحب السمو الملكي حديثاً وأثرت قضية متابعة الحرب في شهر رمضان."

وسأل السلطان قابوس: "وماذا كان رأيه، يا جنرال؟"

وكان يشاركني في الاجتماع من بريطانيا الأمير أندرو، دوق يورك، وهو يلبس بزة البحرية الملكية. وكان الأمير أندرو يزور عمان ليراقب القوات البريطانية في تمرين تدريبي قد خطط له مسبقاً. وهو مثل السلطان كان ينصت باهتمام بالغ. وكانت أمته أثبت حليف لنا في هذه الحرب. فإذا أجبرتنا حساسيات العالم الإسلامي على التوقف طوال شهر قمري عن الحرب عندما يبدأ شهر رمضان في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر، فإننا نخاطر في خسارة الزخم على نحو يحتمل أن يقعدنا عن العمل. فبحلول أواخر كانون الثاني/ديسمبر ستكون جبال أفغانستان مغطاة بالثلوج ولا تُعبّر.

ومن ناحية أخرى، فإننا كنا بحاجة إلى مساندة أمم إسلامية مثل المملكة العربية السعودية وعمان، ورمضان شهر مقدس بالنسبة إلى الكثيرين من مواطنيهما. وقد وجهني الرئيس بوش والوزير رامسفيلد إلى معرفة رأي المسؤولين الذين اتصل بهم في هذه النقطة الحرجة.

وهزرت رأسي وقلت: "هؤلاء القادة يأملون أن نكون قادرين على هزيمة الطالبان والقاعدة قبل بداية رمضان. ولكنهم يفهمون أن هذا قد لا يكون ممكناً. والآن، أنا أسألك رأيك، يا سيدي"

وقال السلطان: "أيها الجنرال، اسمح لي بسؤال. فالناس يسألون إن كانت الولايات المتحدة سوف تنهي العمل في هذه المرة." كان السلطان يشير إلى الضربات الرمزية التي سبق أن قمنا بشأنها ضد النظام العراقي وأسامه بن لادن في 1998.

"أمريكا بلد مختلف منذ 9/11، يا سيدي. أنا رجل مختلف. وسوف ننهي العمل."

كان السلطان قابوس مسروراً. "جيد. وبالنسبة إلى الشهر المبارك رمضان، فأنا لا أعتقد أنه سيؤدي إلى أي اختلاف. فالمسلمون يخوضون الحرب، أحياناً، في أثناء

شهر رمضان." ووقف وصافحني "يجب عليك أن تتابع المعركة، يا جنرال فرانكس. رمضان هذا للحرب."

عندما رجعت لمقابلة الرئيس مشرف ثانية بعد رحلتي إلى عمان، لم أَلعب معه الغولف في إسلام آباد على الرغم من وعدي السابق له.

كانت تجري إعادة الحيوية للتحالف الشمالي من خلال شراكة التحالف مع زمر قواتنا الخاصة. وعبر كل مناطق القتال في وديان بانجشير وآمو داريا، كانت قوات الطالبان وقوات مسانديهم من القاعدة تتعرض للضرب بالقنابل التي "لَيَزَرُهَا" رجال قواتنا الخاصة إلى أهدافها. وثبت أن ربط المراقبين الجويين للقتال برفوف الطائرات المقاتلة الثقيلة وطائرات بي-52 التي تدور محلبة عالياً فوق ميدان المعركة، هو أقتل حتى من أي صورة كان يستطيع المنظرون العسكريون أن يتخيلوها.

وبدا لنا أن العدو كان غير قادر على فهم طبيعة الأسلحة الدقيقة. وقد قتل المئات من الطالبان والقاعدة في الاشتباكات الأولية. وبالنسبة إلى وحدات تحالف الشمال فقد كانت جاهزة لشن الهجوم بعد أن تم تزويدها بالأسلحة، والذخائر، وملابس الشتاء، والطعام، والأدوية، إضافة إلى الشعر لخيولهم كذلك.

وعندما لخصت الصورة التعبوية لمشرف، تكهن أن نظام الطالبان "لا بد أن ينهار قريباً"، مؤملاً أن يكون ذلك قبل رمضان.

وقلت: "آمل ذلك، سيدي الرئيس. فالشعب الأفغاني عانى تحت الطالبان والقاعدة مدة طويلة."

وسأل: "هل تعرفون أين ابن لادن؟"

"لا، سيدي، هل تعرفون أنتم؟"

وتبسم مشرف. "نحن نعتقد أنه ما يزال في أفغانستان، في الشرق، في تورا بورا. كان ضباط استخباراتي سيعرفون لو أنه عبر إلى باكستان."

وشددت: "نحن ماضون خلفه . ولن نقف إلى أن نمسك به ."

وسأل مشرف: "وعندما تمسكون به فعلاً هل ستقدمونه للمحاكمة؟"

"يا جنرال مشرف، أنا رجل عسكري. نحن سنأخذه ميتاً أو حياً . فإذا كان حياً، فأنا متأكد أنه سيحاكم بوصفه المجرم الذي هو هو."

في أثناء الطيران عبر أفغانستان متوجهاً نحو طاجيكستان، كان لي محادثة غير عادية مع دونالد رامسفيلد . الوزير نفسه، أيضاً، كان محمولاً جواً، متوجهاً إلى طشقند لإجراء المزيد من المفاوضات مع الرئيس كريموف . وسأل: "هل أنت متأكد أن زمر القوات الخاصة تلك فيها العدد الكافي من كبار الضباط في القيادة؟ إذ يبدو لي أن جنرالات تحالف الشمال لا ينصتون فعلاً للنقباء والرواد الشباب."

"سيدي، الوزير، في غضون أسابيع قليلة سوف يفكر أمراء الحرب بأولئك النقباء والرواد بوصفهم أبناء لهم . شبابنا جيدون جداً في ما يفعلونه ."

وقال: "أنت القائد، ولكن تابع ذلك بعينك."

بعد شهور قالت لي مساعدة وزير الدفاع توري كلارك، "أنت ودون رامسفيلد" يجامل أحكما الآخر. أنت تجعله وزيراً أفضل . وهو يجعلك جنرالاً أفضل."

أعتقد أنها كانت محقة .

كان محمد فهميم خان يجلس مقابلاً لي حول طاولة قابلة للطي في بطن طائرة النقل سي-17 الذي تتجاوب فيه الأصداء . وكان يلبس قبعة باكول من صوف كشميري، وكانت لحيته مشذبة بشكل أنيق . ولكن فهميم على رغم ذلك كان ما يزال يبدو مثل منفذ أعمال المافيا الكريهة لرئيسه .

الوقت متأخر في آخر يوم ثلاثاء من شهر تشرين الأول/أكتوبر، والليل، بارد في دوشانبه، في طاجيكستان . ووقفت الطائرة الضخمة وحدها على رصيف عند النهاية القصوى من المطار المدني . كان فهميم مع رجل قدمه لنا أنه "وزير ماليته"

قد وصلا في سيارة مرسيدس سيدان مغيرة. وكان يجلس عن يميني ضابط قديم من مديرية عمليات وكالة الاستخبارات المركزية وسأسميه هانك، وكان قد رافقني في هذه الرحلة. وعلى يساري، جلس العقيد جون مولهولند، وهو عسكري ضخمة الجثة جعلني أبدو صغيراً إلى جانبه، وقد أراح المرفقين المهترئين لبزته الصحراوية المموهة على سطح الطاولة، وكان أكثر من متعب.

شربنا قهوة القوات الجوية القوية، لا شايًا. ولكن هذه المفاوضات كانت مفاوضات شرب الشاي. إذا كان يوجد مفاوضات مطلقاً.

وبصفته قائد تحالف الشمال فقد جاء فهم، بعد أن تولى القيادة على أثر اغتيال مسعود، إلى هذا الاجتماع ليساوم. لقد قاد أكبر قوة معارضة في أفغانستان، وأفضلها تجهيزاً. وشهد الامتزاج الفعال بين قواتنا الخاصة وما يبدو أنه إمداد لا ينضب من الأسلحة الدقيقة.

وقال من خلال مترجم وكالة الاستخبارات المركزية "إذا كنت أستطيع أن أساعدكم وأنتم تستطيعون أن تساعدوني فكلانا سيربح. إن شعبي قد حارب الإرهاب طوال سنوات، مع شدة خاصة منذ استلام طالبان للسلطة. ومع امتزاج جهودنا معاً، ستكون هناك نتائج إيجابية."

وقلت: "أنت لم تر شيئاً بعد." قلت ذلك وأنا أمل أن يتمكن المترجم من فهم المقصود، وكان يتحدث الإنجليزية بلكنة بريطانية.

وقد فعل على ما يبدو، لأن فهم أجاب بحكمة خاصة به: "ونحن نحترم الجميع ونثق بالجميع."

وسألت: "هل ستثق بي وتسلمني حياتك؟"

"نحن جنود وليس لنا خيار، حياتنا بين يدي الله."

إنه يتحدث بشكل جيد. ولكن هل سيتابع الضغط بالقتال عندما تصير الأمور

كان هناك سبب لإحضاره "وزير المالية" الخاص به.

فتحتُ أنا الخريطة التعبوية الخاصة بجون مولهولند على الطاولة "ما هي نواياك، أيها الجنرال؟"

وبقلم رصاص ذهبي ميكانيكي وضع سلسلة من الرموز الأنيقة على الخريطة. أولاً، رسم خط تقدم جنوباً من وادي بانجشير إلى شمالي السهول الواقعة شمال كابول. ثم حلق بدوائر على عدة مدن شمالية، كان الطالبان وحلفاؤهم من القاعدة قد تجمعوا فيها: طالقان، كوندوز، ومزار شريف. "هذه هي أهدافنا المباشرة. يجب على سلاحكم الجوي أن يركز على قصفها ليسمح لقواتنا بالاستيلاء على هذه المدن. ثم سأنقل إلى الجنوب إلى باغرام." ورسم رمز الطائرة النفاثة على الصفحة التي مثلت القاعدة الجوية لسلاح الطيران السوفيتي السابق شمالي كابول.

وقدّمتُ خطته معنى تعبويّاً جيداً. فإذا كان فهمي في الحقيقة يمتلك ولاء جميع قادة تحالف الشمال، فقد كان متوازناً ليدمر تحشدات العدو عبر الشمال وليفتح جسراً أرضياً حيويّاً مع أوزبكستان. فبعد أن يكون ذلك الطريق سالكاً، سيكون باستطاعتنا مساندة قوات المعارضة عن طريق نظام طرق عامة قابلة للعبور تمر عبر آسيا الوسطى على طول الطريق إلى أوروبا. وسيكون بالإمكان أيضاً تدفق المساندة الإنسانية الحيوية للأفغان المحاصرين. وفي نهاية اليوم، سيكون الأفغان هم الذين سيقررون نجاح عملياتنا. فإذا توافر لهم الإمداد الكافي، فإن المرحلة الرابعة (إعادة البناء) سوف تكون متسارعة بما لا يقاس.

وناقش فهمي تفاصيل خطته التعبوية. وقال إن طالقان كانت هدفاً مبكراً حيويّاً لأنها ستعطي مقاتليه مطاراً.

وسألت: "وكابول؟"

ودرسني فهمي بعينيه الغائرتين العميقتين وقال: "لن ندخل كابول إلى أن تعطوا أنتم الإذن."

كان ذلك الجواب هو الصحيح من الناحية السياسية. هل كان مخلصاً؟ تلك كانت هي القضية الحرجة. لقد اجتمعت في باكستان مع عدة قادة من المعارضة الباشتونية من أفغانستان الجنوبية. وكان أعلاهم تأثيراً حامد قرضاي، وكان رجلاً على دراية بشؤون الحياة، ومتعدد اللغات، وهو يشعر بالارتياح بشكل متساو مع شيوخ القبائل، والدبلوماسيين، والعسكر. قرضاي كان قد قطع علاقاته مع طالبان مباشرة بعد أن بدأ نظامهم الإسلامي المتطرف اضطهاده للناس، وكانت محطة وكالة الاستخبارات المركزية في إسلام آباد، وهي فعلياً سفارتنا لأفغانستان في المنفى، قد ساندت قرضاي ليكون هو القائد الوطني في المستقبل الذي يستطيع أن يوحد الفئات العرقية المتنوعة.

وأنا أيضاً تأثرت. كنا نحتاج إلى بناء قوة معارضة باشتونية، لمقاتلة الطالبان. وكنت أعتقد أن قرضاي كان هو بالضبط القائد الباشتوني المناسب لبناء تلك القوة. فإذا انهارت فجأة مقاومة العدو، وقام تحالف الشمال المكون من الطاجيك، والأزبك، والهزارا باكتساح الفراغ القائم في كابول، فإن أفغانستان قد تواجه حرباً أهلية أخرى تضع الفئات الشمالية في مواجهة الأكثرية الباشتونية. وكان واضحاً من جواب فهم أنه كان يفهم المشكلة ويحترمها. وتساءلت ماذا عسى أن يكون رأيه في حامد قرضاي.

لقد حان الوقت لمناقشة أسعار السجاد.

وسألت: "وماذا تحتاج منا زيادة؟" ونظرت إلى الأعلى فرأيت مولهولند يدرس وجه فهم. فزمر قواتنا الخاصة كانت تحرز من قبل مع دوستم جنوب مزار الشريف تقدماً أفضل من وحدات فهم الكبرى في الشمال الشرقي.

وقال فهم، بموافقة غير متوقعة: "الجنرال دوستم يحتاج إلى الأسلحة والذخائر أكثر مما نحتاج نحن إليها. وهو يستطيع أن يستولي على مزار الشريف بسرعة إذا قدمتم له المساندة."

وضغطت: "ولكن إلام تحتاج أنت؟"

وتشاور فهيم مع وزير ماليته. "ما نوع مساندة الإمداد والتموين الإضافية... والمالية التي تستطيعون توفيرها؟" ونظر إلى هانك، متجنباً النظر في عيوني. وضع هانك صفحة حاسوبية مطبوعة فيها قائمة بالذخيرة، وأجهزة اتصالات، وإمدادات طبية. "أنا محتاج إلى مطار كبير يكفي لاستقبال طائرات سي-130." وتبسم فهيم بأدب. "طائرتكم من نوع سي-130 مشهورة. والطائرات المسلحة منها قد دمرت معنويات الطالبان والعرب."

وسأل هانك: "وإذا حصلتكم على إمداداتكم..."

وبدأ فهيم: "إذا استوليت على طالوقان ومطارها - ثم استدار إلى رجل ماليته وهمس قبل أن يتابع، "أحتاج إلى ثلاثة ملايين دولار أمريكي شهرياً." وسألت: "تحتاج إلى ثلاثة ملايين دولار لتشن هجوميك وتستولي على مزار شريف؟"

كنت أنا وهانك قد أعددنا لهذا. هو يلعب دور الشرطي الطيب، وأنا كنت السيئ.

وانتظرنا.

وأضاف فهيم: "أوه، لا. لكل العملية، سوف أحتاج إلى سبعة ملايين دولار شهرياً."

وقفت وحدقت في المترجم. "هذا هراء ترجم ذلك."

مشيت نازلاً الدرجات الأمامية لطائرة النقل، وتبولت، ودخنت سيجارة على الأرض المزفتة. وكان هذا هو الأداء التمثيلي الذي تدريبنا عليه. وفي نفق فسحة الحمولة المضاء إضاءة باهرة، كان هانك يحاضر فهيم... "الجنرال فرانكس غاضب جداً."

ثم عدت ودخلت إلى الطائرة وجلست على الطاولة. وأوماً هانك ثم تكلم إلى فهميم. "اتفقنا. خمسة ملايين دولار لكل الشمال. سوف تستولي على مزار الشريف قبل شهر رمضان، وتتوقف خارج كابول إلى أن تتسلم الإذن بدخول العاصمة." قال فهميم: "نعم."

وعندما غادر فهميم ووزير ماليته الطائرة، كنت أستطيع أن أتصور أكياس المتاع مملوءة بملايين الدولارات وهي تعبأ في سيارته المرسيديس. وكنت أمل أن يكون للسيارة نوابض جيدة، لأن الكدسات العديدة من المئات ستشكل حملاً ثقيلاً.

لم أعرف إن كنا قد بادلنا حصاناً أو أننا اشترينا سجادة. ولكني كنت على يقين من أن الجنرال محمد فهميم خان ووحدات تحالف الشمال كانوا سيقاتلون في الحرب إلى جانبنا. وكما كان يمكن لأبي أن يقول: "هذه السيارة تحتاج إلى قليل من العمل، يا تومي ري. ولكنها ستكون جيدة في غضون شهر أو اثنين."

في أثناء حياتي، عرفت "العنف الأولي" للحرب التي سبق أن وصفها كلاوزفيتتر. في فيتنام، كان إطاري المرجعي ضيقاً، مربع إحداثيات واحد في كل مرة. وعندما كنت جنراً ببنجمة واحدة، برتبة عميد، في عاصفة الصحراء، كانت وجهة نظري أوسع بكثير، ولكنها كانت ما تزال محدودة بالمشكلات التعبوية. أما الآن فأنا أقود تحالفاً مشتركاً وأمتلك رؤية أوسع. كنت أثق بمرؤوسيّ. كنت أراقب أعمالهم، ولكني لا أحاول السيطرة على أشغالهم الفردية، حتى على الرغم من أنني كنت أمتلك القدرة على فعل ذلك بفضل التقانة العالية في مقر القيادة المركزية. لقد شاهدت سياسيين وجنرالات يختارون أهدافاً في فيتنام، لم تعمل في ذلك الوقت، ولن تعمل الآن. القيادة المركزية "دفعت بالإستراتيجية إلى الأعلى" بدلاً من انتظار واشنطون كي "تدفع بالتعبئة إلى الأسفل."

كان دون رامسفيلد رئيساً شديداً، ولكنه لم يحاول قط أن يسيطر على تعبئة قتالنا للحرب. ولكن الشيء نفسه لا يمكن أن يقال على آخرين في بيروقراطية وزارة

الدفاع. ففي الوقت الذي كان فيه ديك مايرز، وبيت بيس، نائب رئيس الهيئة العامة، سريعين في توفير المساندة، وبطيئين في توجيه النقد، فإن عدداً من الضباط في هيئة الأركان المشتركة كانوا على طول موجتهم التعبوية الخاصة، وكان هؤلاء الضباط هم مركز التركيز في "اندفاعي" الإستراتيجي.

وبالنسبة إلي، فإن مسار الحرب في أفغانستان في الأسابيع الأولى من شهر تشرين الثاني/نوفمبر 2001 يكشف في غبش نهارات وليالٍ طويلة، أضاءها الفيديو، عن قرارات اتخذت وأهداف تحققت. (سوف أترك للمؤرخين العسكريين واجب استعادة كل التفاصيل.) ما كان مهماً هو أن أعمال القتال تلك أحرزت انتصارات، وأن الانتصارات كانت تاريخية. محمد فهيم خان وفّى بكلمته وسلّم البلدات الحيوية في الشمال. وسقطت طالوقان، وكوندوز، وهيرات في تتابع سريع، جميعها سقطت في غضون أسبوع. وتايغر 02، وهي زمرة القوات الخاصة التي ساندت الجنرال عبد الرشيد دوستم، كان يقودها نقيب شاب، ورئيس رقباء ذو خبرة، ورفيق درجة أولى كان طويلاً نحيفاً، وأسماءهم في الحرب مارك، وبول، ومايك، قاتلت هذه الزمرة معارك وحدات صغيرة هي من أبرع المعارك تعبويّاً وأشجعها في التاريخ العسكري الأمريكي. فالقبعات الخضراء هذه واجهت مقاومة عدو ذي عزم مصمم، والطقس الفظيع، والإصابات المتزايدة في صفوف الجند المحليين، واستخدمت المناورة والقوة الجوية لتدمير جيش كان السوفيت قد فشلوا في زحزحته بعدد من الجنود وصل إلى أكثر من نصف مليون رجل. وهزمت قوات دوستم الطالبان والقاعدة، واستولت على مزار شريف في أصيل يوم 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2001.

الطالبان ومساعدوهم من العربان هُزموا في الشمال.

زمر تايغر الأخرى التي كانت تعمل في الجنوب استخدمت القوة الجوية للتحالف لقصف العدو حتى الخضوع. وكان حامد قرضاي، وهو الذي يمكن أن يؤثر بصفته شخصية العالم المهدب، كان غارقاً حتى ذقنه في قتال شرس شمالي قندهار. وعندما كانت قواته قد اكتسحت تقريباً من خمسمائة من الطالبان كانوا

يتقدمون صاعدين في وادٍ شديد الانحدار في قافلة من الشاحنات الصغيرة، تمسك قرضاي بأرضه، ووضع ثقته في مستشاريه الأمريكيين في القوات الخاصة، التي كان يقودها عسكري شاب شجاع اسمه النقيب جاسون آميرين. وقامت زمرة آميرين باستدعاء الضربات الجوية المتكررة، وبعضها كان يضرب على مسافة مائتي متر من مواقع قرضاي المقاتلة قرب العاصمة الإقليمية لتارين كوت. ودمر ذلك الاشتباك آخر احتياطات عملياتية للطالبان، وجاء سقوط قندهار بعد ذلك سريعاً.

راقبت شاشات البلازما لمركز العمليات المشتركة عندما كان رجال وحدات المهام الخاصة تحت قيادة ديل ديلي يتحركون في الطائرات العمودية لإنقاذ رهائن منظمة شيلتر ناو ويطيرون بهم إلى باكستان وعندما قامت وحدة الطوارئ البحرية 15 بإعادة احتلال الهدف رينو. وكما قال ونستون تشرشل قبل عقود خلت، كانت هذه هي "بداية النهاية".

في صباح يوم 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001، تلقيت مكالمة غير متوقعة من الوزير رامسفيلد. في ذلك الوقت كنت أعمل مع جين رينيوات وأركان العمليات في المساندة الجوية للوحدات الأفغانية المندفعة نحو جبال سَبِن حول تورا بورا.

"يا جنرال فرانكس، يريد الرئيس منا أن ننظر في خيارات للعراق. فما هو الموقف في تخطيطك؟"

طوال العملية في أفغانستان، بقيت الحالة في العراق قضية، وكانت دائماً موجودة ضمن محيط رؤيتي. وكان نمط الهجمات الموجهة إلى طيراننا الذي يقوم بالدوريات في مناطق حظر الطيران قد أطلق خيارات الرد في مستويات متنوعة. لقد كانت حرباً بدرجة منخفضة، ولكنها تبقى هي الحرب نفسها تماماً. وفي كل صباح، عندما كنت أكتب ملاحظاتي اليومية على بطاقة فهرس جديدة، أدرجت "الملاحون الجويون المسقطون في العراق" بصفة ذلك تحدياً محتملاً.

وقلت: "سيدي الوزير. لدينا خطة طبعاً. خطة العمليات 1003".

"ما رأيك فيها، يا جنرال؟"

"عاصفة الصحراء 02 إنها قديمة العهد، وتحت المراجعة لأن الظروف تغيرت. لدينا مستويات قوة مختلفة في المنطقة أكثر مما كنا نملك عندما كتبت هذه الخطة. ومن الواضح أننا تعملنا بعض الدروس القيمة من خبرتنا في أفغانستان."

وقال رامسفيلد: "حسناً، يا توم. أرجو أن تتفرض الغبار عنها وترجع إلي في الأسبوع القادم."

وفكرت، ابن الك... لا راحة للمتعبين...

وقلت: "جين. أمسك بجين كيمونز واحضرا لرؤيتي. عمل جديد يجب أن ينجز."

في صباح يوم 22 كانون الأول/ديسمبر 2001، جلست أنا وكاثيري جنباً إلى جنب على مقاعد نايلون كالأرجوحة في الطائرة العمودية ام اتش-47. وخارج النوافذ المصنوعة من بلاستيك شفاف مقاوم للحرارة (بليكسي غلاس)، تكشف التلال الشرقية من أفغانستان في الشتاء الجاف. كنا على مسافة خمس عشرة دقيقة إلى الجنوب من قاعدة باغرام الجوية، وكانت الآن مقر التحالف. ويمتد أمامنا طول كابول الضبابية، المدخنة نصف المدمرة في وادٍ على شكل طاسة.

وصحت بصوت أعلى من ضربات دوار الطائرة: "إنها تبدو مثل لوس أنجيلوس بعد زلزال." لقد كانت المدينة قد دمرت نتيجة سنوات من الحروب.

ونظرت كاثيري إلي وابتسمت.

وجلس غاري هاريل في مقابلنا في قسم الشحن، وهو يشخر، ويغط في نوم عميق. ومثل معظم رجال المهام الخاصة أصحاب الخبرة في القوات الخاصة، كان يستطيع أن ينام في قلب إعصار.

كنت متعباً، ولكني لم أكن نعساناً. فطوال الأيام الثلاثة الماضية كنا نقطع منطقة المسؤولية جيئة وذهاباً، منطلقين من عمان على متن سي -17.

وسافرت معنا فرقة وين نيوتون من منظمات الخدمة المتحدة إلى قاعدة البحرية في رينو، وإلى قندهار، واستمرت إلى باكستان، جالبة معها فرح عيد الميلاد إلى الجند. وفي هذا الصباح، كنت أحضر أنا وكاثيري مراسم تنصيب الحكومة الانتقالية لحامد قرضاي، التي تم انتخابها في مؤتمر رعيته الأمم المتحدة في بون، في ألمانيا، قبل ثلاثة أسابيع.

كنت أعرف أنه ما يزال هناك قتال شديد ينتظر في المستقبل في أفغانستان. ولكن المقاومة الرئيسية قد تم تحطيمها. بقايا الطالبان والقاعدة كانت تختبئ في الجبال الثلجية في الجنوب الشرقي، وهي تخضع لقصف بالقنابل لا هوادة فيه. وقد تم تحرير خمسة وعشرين مليون أفغاني، في أقل من ثلاثة شهور من العمليات العسكرية.

هبطت الطائرات العمودية في قطعة تبعثرت فيها الأنقاض بالقرب من السفارة الأمريكية. ورافق جنود مشاة البحرية بسياراتهم العسكرية من نوع همثي سيارتنا السوداء من نوع شيفي اس يو في إلى قاعدة الحكومة.

كانت هناك حشود من المراسلين حملة آلات التصوير، يتدافعون للحصول على موقع. وجنود تحالف الشمال الملتحون في ملابس الشغل المهلهلة يحملون في كبار الشخصيات الغربية وهم يصلون في سياراتهم اللامعة. وانحنى مسؤول أفغاني في بزة وربطة، ثم قادنا إلى المدخل. وقال وهو يبرق بأسنان ذهبية: "أهلاً وسهلاً، تفضلوا."

ومررنا من خلال كاشف المعادن المحروس من كل جانب من جنود تحالف الشمال الذين لا يبتسمون وهم يحملون الكلاشينكوفات.

وعندما صعدنا الدرج نحو القاعدة الرئيسية سألتني كاثيري: "أليس معك مسدس، يا توم؟"

وربت بيدي على القراب الموجود في منطقة القطن أسفل الظهر. "كوني واثقة."

وانحنى غاري هاريل إلى الأمام وهو يتظاهر بالتغاضي عنا . وقال : "أنا أصر ثلاثة مسدسات يدوية وسكينتين."

وردت كاثرين: "حسناً، لابد أن ذلك الحفل هو حفل كشف المعادن."

ملأ القاعة التي تتجاوب بالأصداء حشدٌ من الناس الذين بدوا كأنهم خرجوا من صفحات كتابات كبلنغ^(*)، قوس قزح من العمم، والأثواب، والوشاحات. وجلسنا في مقاعدنا المخصصة في الصف الأول. ومن حولنا جلس ممثلو أكثر من عشرين شريكاً في التحالف من البريطانيين، والفرنسيين، والألمان، والحلفاء الآخرين في الناتو.

وخفض محمد فهم خان رأسه احتراماً. وتبسم حامد قرضاي بحرارة وصافحنا .

الرايات معلقة على الجدران، ومنقوشة بالحروف الفارسية والإنجليزية. "الموت للإرهاب." "اللهم امنح العالم السلام والرفاهية." وخلف المنصة كانت معلقة صورة ضخمة لأحمد شاه مسعود، "أسد بانجشير"، وهو الآن شهيد الأمة.

وتقدم صبي يلبس ثوباً أزرق، وقاد شيخاً أعمى، أبيض اللحية إلى المنبر. وتبسم الشيخ المسن، وتحسس الميكروفون، ثم بدأ بعد ذلك بترتيل آيات من القرآن. وقف الجميع من أجل النشيد الوطني لأفغانستان الجديدة، وهو موسيقى مشية عسكرية حماسية. لم نكن نملك أي مترجم للخطابات التي تلت ذلك، ولكن كان من السهل أن نفهم مزاج النصر.

وبعد أن اختتم المتحدث الثاني ملاحظاته النابضة بالحياة، رفع قبضته اليمنى فجأة وصاح: "مسعود" وكأنه هو نفسه كان في صلاة. "مسعود!"

مئات من الناس من حولنا رفعوا قبضاتهم. "مسعود!" صاحوا إجابة لمن بدأ "مسعود!" .

(*) روديارد كبلنغ (١٨٦٥ - ١٩٣٦م)، كاتب بريطاني، كتب أعماله في بيئة الهند وبورما في فترة الاستعمار البريطاني. نال جائزة نوبل للأدب في ١٩٠٧م، وهو صاحب القصيدة التي تقول: أوه الشرق في الشرق، والغرب هو الغرب، ولن يلتقي الاثنان أبداً.



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

القسم الرابع

ثورة في الحرب

تُريح المعارك بالتقتيل والمناورة

وكلما كان القائد أعظم، أسهم في

المناورة أكثر، وقلَّ ما يطلبه من التقتيل

- ونستون تشرشل



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل التاسع

تصور القائد

كابول، أفغانستان

22 كانون الأول/ديسمبر، 2001

عندما تقاطرنا خارجين من قاعة الاحتفال بين الأفغان وكبار الشخصيات الأجنبية، لمحتُ قافلتي من سيارات اس يو في من خلال نوافذ البهو التي اخترقها الرصاص فترك فيها فتحات كالنجوم. كان البرنامج المعد لنا هو أن نحضر استقبالا في القصر الرئاسي، ثم نطير عائدين إلى قاعدة باغرام الجوية على طائرات عمودية للعمليات الخاصة، ثم نغادر أفغانستان على متن طائرة نقل من نوع سي-17.

وقادت موكبنا سيارة شرطة مهترئة من نوع لادا الروسية، تتبعها سيارة مشاة بحرية من نوع همفي تحمل رشاشاً من نوع ام-60. ومن سياراتنا تشيفي سبريان كنا نمتلك رؤية جيدة للشوارع التي تعج بالناس، وقد بدت لنا مثل خليط من شريط الأنباء من برلين المقصوفة بالقنابل حتى التدمير ومثل محاضرة مصورة عن السفر من الخمسينيات من 1950 عن "الشرق الغريب". كانت كابول قد عانت طوال سنوات من القصف في أثناء حروب العقديين الماضيين من الزمان. وصارت الآن مجموعات من المباني بلا سقوف مأوى لآلاف من اللاجئين العائدين. رأيت عائلات تكوم الطوب المجموع من النفايات لتشكل لها مقصورة داخل الأنقاض. وكان اللون السائد، وهو البني الأغبر، منقطاً بالأزرق اللامع المنبعث من مقتنيات المأوى البلاستيكي المقدمة من الأمم المتحدة. ولمحت أيضاً أكياساً بيضاء من دقيق المعونة الأمريكية المنقوشة بالأعلام الأمريكية، وأكداساً من الإعاشات اليومية الإنسانية الصفراء اللون التي كانت طائرات النقل من نوع سي-17 قد أسقطتها طوال أسابيع بأحمال المنصات النقالة.

على طول الشارع الواسع، كان الباعة يبيعون الكباب من الشوايات المدخنة، ويبيعون أيضاً أوعية المطبخ وأوانيهم، وكنزات، ومناديل نسائية وقبعات بالألوان الصفراء. الفاقعة والحمراء القانية. والكثيرات من النساء مازلن يختبئن تحت البرقع الأزرق، ولكننا رأينا نساء باللباس الغربي، حتى أن قلة من البنات في العقد الثاني من عمرهن كن يلبسن الجينز. وقبل أسابيع فقط، كان ذلك يكلفهن الضرب العلني من منفذي وزارة الرذيلة والفضيلة.*

وقالت كاثي: "انظر، يا توم" وهي تشير إلى مكان عبر الشارع.

كانت مجموعة من بنات المدارس الصغيرات، يلبسن الزي المدرسي الموحد بالأسود والأبيض، ويقفن مع معلمتهن يلوحن بالأعلام الأفغانية والأمريكية على طول الموكب الطويل لكبار الشخصيات الذي كان في طريقه إلى القصر. وكان الطالبان قد منعوا البنات من الذهاب إلى المدارس.

أنزل غاري هاريل غطاء نافذته، وقال: "استمعوا".

كان بائع متسبب شاب يقف وهو يلبس قبعة بيسبول في كشكه وهو عبارة عن صندوق شحن، يتجول لبيع أشرطة موسيقى. ومن مكبرات جهاز تسجيله، كانت مغنية تصدح بأغنية حب عاطفية باشتونية، ترافقها الطبول والمزامير القصبية المزدوجة.

لقد منع الطالبان الموسيقى بوصفها كفراً. أما الآن، فهم وحلفاؤهم من القاعدة هاربون، أو موتى، أو جالسون في معسكرات الاعتقال، بينما عادت الموسيقى إلى شوارع كابول.

وقلت: "تظهر لي كأنها الحرية".

بدأت الحياة في أفغانستان تعود إلى طبيعتها العادية، تتحرك بطيئة ومؤلة، ولكنها تعود بثبات نحو المستقبل، وبعيداً عن ظلام العصور الوسطى في الماضي،

(*) لعله يقصد وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد أطلقنا عملية الحرية الدائمة، حسب ما ذكرتُ نفسي، في 7 تشرين الأول/أكتوبر. واليوم، بعد ستة وسبعين يوماً تلت، كان معظم الأمة قد تحرر. بقايا الطالبان تراجعوا إلى مناطق عالية بلا مسالك شمالاً من قندهار، أو التحقوا بمن بقي على قيد الحياة من القاعدة الذين كانوا يلتجئون في جبال في الجنوب الشرقي. ويقوم الجند الأفغان تحت القائد حضرة علي، تساندها قوات عمليات خاصة، أمريكية، وأوروبية، وأسترالية، بالتضييق على العدو في منطقة تورا بورا.

في مكالمتي الهاتفية الأخيرة مع الرئيس مشرف، علمت أن الفيلق الحادي عشر من الجيش الباكستاني كان يغلق جانبه من الحدود، وكان قد جمع مئات من الهاربين من الطالبان والقاعدة الذين كافحوا للوصول فوق الممرات الثلجية من أفغانستان. والكثيرون منهم كانوا متطوعين باكستانيين شباباً واهمين، أقنعهم أساتذتهم في مدارسهم بأن يقاتلوا في أفغانستان لحماية الإسلام. هؤلاء الجهاديون الذين أنهكتهم المعركة لم يكن لهم وزن يعتد به أبداً في شن حربهم المقدسة ضد وحدات المهام الخاصة وطائرات سبكتر المسلحة.

وأخبرني مشرف: "لدينا سبعون أسيراً عربياً تقريباً. وجميعهم من القاعدة، ومعظمهم سعوديون ويمنيون. سوف أسلمهم لكم."

وأكد اتفاقنا السابق حول الغارات التي تقوم بها قوات التحالف فوق الحدود المحددة تحديداً سيئاً إلى داخل باكستان عند القيام "بالمطاردة الساخنة" لطالبان والقاعدة. وقد علق بالقول: "قواتكم منضبطة جداً وأعرف أنهم سيكونون كيّسين."

وتركنا الموضوع على هذا النحو. وأرسلت كلمة إلى بيرت كاللاند، وديل ديلي، وإلى البريطانيين وإلى الأستراليين في قوات الخدمة الجوية الخاصة، وقلت: أصدقائنا في إسلام آباد يريدون الإرهابيين موتى أو أسرى بقدر ما نريدهم نحن.

وكنا نضرب الطالبان والقاعدة من الجو، نهاراً وليلاً، بوحدات القنابل الموجهة بالليزر، وذخائر الهجوم المباشر المشتركة، وبطائرات سبكتر ايه سي-130. وقد حللنا

المشكلات الفنية المتصلة بإقامة وصلات بث معلومات صور فيديو في الزمن الحقيقي بين طائرات البريديتر التي تطير للاستطلاع وطائرات ايه سي-130. وما كان يشاهده رجال وكالة الاستخبارات المركزية ومشغلو البريديتر من القوات الجوية على شاشاتهم البلازما في منطقة موقف السيارات في لانغلي وفي مركز العمليات الجوية المشتركة في المملكة العربية السعودية، كان يشاهده أيضاً الضباط الرماة المهدفون من ظهر الطائرات المسلحة التي تقوم بالدوريات شمال قندهار وفوق جبال سبن. وعندما كانت المركبات الجوية بدون طيار تحدد مكان عدو كانت الطائرات ايه سي-130 تصل في غضون دقائق.

سارت عمليات القتال سيراً حسناً على نحو يلفت الانتباه. ولكنني كنت أعرف أن الحرب لم تنته، فقد جاء في تقارير حضرة علي أن مجموعة كبيرة من العرب قد التجأت إلى معقل من الاستحكامات في الكهوف والأنفاق جنوب شرق ممر خيبر. وقد واجهت قوات الأفغان التي يقودها علي مقاومة شرسة من مقاتلين مسلحين تسليحاً ثقيلاً وقد تخندقوا على حلقات دفاعية متحدة المركز. ستكون تورا بورا مبارزة "قتال بالسلاح الناري". وسوف تحدث قريباً، قبل أن يستطيع الهرب أي قادة للقاعدة يمكن أن يدفنوا بالحفر هنا.

وقبل أن أغادر مقر القيادة المركزية، ناقشت مع جين رينيوات وقائد عنصرنا الأرضي، الفريق بي تي ميكولاشيك، هيكل قوة التحالف الذي سنستخدمه لإقامة الاستقرار في البلاد.

واتفقت أنا والوزير رامسفيلد على أننا لا ينبغي لنا أن نغرق البلد بتشكيلات كبيرة من القوات التقليدية. وقلت للوزير: "لا نريد أن نكرر غلطة السوفيت. فليس هناك ما نكسبه من التخييط في تلك الجبال وممرات الوديان بكتائب مدرعة تطارد عدواً مسلحاً بالأسلحة الخفيفة." لقد كان هذا هو الوقت لتأكيد إستراتيجيتنا. "وأنا أخطط لإبقاء قوة صغيرة. سوف نفصلها لتفي بالمهمة، ولا نحاول أن نبني مهمة حول القوة."

يجب أن يبقى أثر قدمنا صغيراً، لأسباب عسكرية وجيوسياسية على حد سواء. وتصورت قوة إجمالية من 10.000 أمريكي، جنوداً، ورجال طيران، ورجال وحدات مهام خاصة، وملاحى اقتحام جوي بالطائرات العمودية، مع مساندة جوية قريبة قوية داخل البلاد. وبدأ لي أن الألوية الثلاثة من فرقة الجبال العاشرة والفرقة المائة وواحد المحمولة جواً (للاقتحام الجوي)، إضافة إلى وحدات حملة مشاة البحرية الموجودة الآن في معسكر رينو وقندهار، كانت هي القوة الصحيحة تقريباً. وأخذ المهمة ميكولا شيك وكان يعمل فيها.

والآن، عندما وصلت إلى القصر الرئاسي، رأيت الندوب التي تركتها سنوات من الحرب والفوضى على غرفة الاستقبال التي ترجع الأصدقاء. وأرضية الغرفة المصقولة التي كانت في السابق مفروشة بالسجاد الكبير، لا يظهر منها الآن إلا مستطيلات سوداء، أما السجاد فقد سرق أو أُلِف في غمرة الحروب التي ابتليت بها أفغانستان طوال سنوات عديدة. وبكل لطف قدم لنا النادلون العاملون في القصر بزيهم الموحد الزاهي شايًا ومشروبات حلوة من الشربات في فناجين وكؤوس مثلمة وغير منسجمة.

ولكن الجو كان بهيجاً كالعيد، يشعر بالانتصار. وكانت هذه هي المرة الأولى التي اجتمع فيها معظم هؤلاء الأفغان المنتصرين في مناسبة اجتماعية في سنوات. عديدون منهم كانوا أعداء، وأحياناً كانوا حلفاء، في عقد من الزمان من الصراع بين انسحاب السوفييت في العام 1989 وتقوية سلطة طالبان في أواخر التسعينيات من 1990. وهم الآن أعضاء في حلف منتصر غير مسبوق متعدد الأعراق قام بتحرير خمسة وعشرين مليون نسمة ووحيد البلاد معاً.

كان الاحتفال معادلاً لاحتفالات الفريق الرابع بعد مباراة كرة القدم الأمريكية سوبر باول. ومعظم القادة تحدثوا اللغة الدارية، وهي لغة الأفغان الفارسية المصطلح عليها للتفاهم. وعندما قمت بدورات في قاعة الحفل، مررت، مع ذلك على اثنين من المقاتلين بلغا من العمر الشيخوخة، أحدهما يرتدي قبعة بنية مصغرة، باكولاً،

والآخر عمة زعفرانية، كانا يتحادثان بلغة هجينة روسية مشوهة، وهي لغتهما الوحيدة. وانحنى الرجلان، وصافحاني وهزا يدي، ثم أسرعاً بوضع راحتيهما على قلبيهما علامة للاحترام.

لو كنت حاكماً رومانياً، لارتديت ثوباً رومانياً فضفاضاً أرجوانياً مهنماً ولوضعت إكليلاً من الغار. ولكنني فضلت أن أظهر في بزة صحراوية مموهة وفي حذاء عسكري بني مصفر لجندي أمريكي. وكان ذلك مذكراً بأن القوة التي قدتها، مع هؤلاء الأفغان الإخوة في السلاح، قد حررت أمتهم، لا قهرتها.

عندما اقتربت أنا وكاثي فُتحت لنا باحترام الدائرة المتحلقة حول حامد قرضاي من المهنئين ومتمني التوفيق له.

وقلت وأنا أمد له يدي: "سيدي، هذا يوم عظيم لأفغانستان" وتبسم وأحنى رأسه باحترام لكاثي. وقال وهو يخاطبني بلغة إنجليزية طليقة، "يا جنرال فرانكس، هذا يوم عظيم لكل العالم. لقد أعطتنا أمريكا الأدوات لنهزم الاستبداد".

وتركنا قرضاي لصفوف من مواطنيه الذين ينتظرون لتقديم تهانيهم وولائهم.

مشى الجنرال محمد فهم خان بخطوات واسعة عبر الغرفة، وذراعه مفتوحان، وهو يبتسم ابتسامة عريضة، وأعطاني معانقة تصدع الضلوع. كان فهم يلبس بدلة مخططة بخطوط ناعمة، وبوصفه وزير دفاع أفغانستان المفترض، فإنه سيكون عما قريب منخرطاً في مستقبل بلاده العسكري والسياسي كذلك.

وحدق بي فهم باهتمام، متخطياً المجاملات العادية، وتحدث بتباطؤ وعن قصد، ليتمكن المترجم من التقاط كل كلمة.

وقال لي: "يا جنرال فرانكس، أنا بانجشيري. وسوف أتهم في الأيام القادمة بأن لدي الرغبات لأصير رئيساً لأفغانستان". وانتظر حتى تنتهي الترجمة. "بعضهم سوف يظن أنني أريد لتحالف الشمال أن يبقى أقوى قوة في البلاد".

وأومأت برأسي، فهو لم يكن مخطئاً في ذلك.

وتابع حديثه بالطبقة نفسها من الصوت: "أيها الجنرال، يجب ألا تصدق ذلك. أنا موال وسأبقى موالياً لحامد قرضاي الباشتوني، لأنني أعتقد أن مستقبل أفغانستان هو كل ما يهم. وفي هذه النقطة في التاريخ، فإن حامد قرضاي هو الرجل الذي يضمن مستقبلنا."

وقلت وأنا أخاطبه بشكل رسمي: "يا جنرال فهيم خان، أنا أتفق مع رأيك في التاريخ."

وسمح لابتسامة طفيفة أن تعبر وجهه، ثم اقترب وأمسك بيدي. "هل تذكر عندما تقابلنا في دوشانبه، في طاجيكستان؟"
وأومأت ثانية.

واستمر: "لم أكن أعرفك، وأنت لم تكن تعرفني. ولكننا الآن أيها الجنرال، يعرف أحدهما الآخر. ويجب أن تعترف أن ما أخبرتك بأني سأفعله، قد فعلته."
ورددت: "سيدي، أنت ورفاقك أنجزتم أكثر مما كنت أستطيع أن أتوقع مطلقاً."
وابتسم الآن. "يا جنرال فرانكس، لقد سألتني في ذلك الاجتماع إن كنت سأثق بك وأأتمنك على حياتي. الآن، أيها الجنرال، بعدما فعلناه، أمل أنك أنت ستثق بي وتأتمنني على حياتك."
وأجبت: "أثق بك ثقة كاملة."

ودرت أنا وكاثي بين الضيوف، نشرب الشاي الإلزامي والعصير في حين كنا نتحدث مع الرفاق الآخرين. في نقطة من النقاط، اقترب مني الجنرال دوستم، وأمسك بيدي بشدة، وتبسم. "مساء الخير أيها الجنرال، إنه لي شرفني أن أراك هنا."
وترك يدي ووقف بانتباه، وأحنى رأسه. "أنت قائد عظيم وأنا في خدمتك. من تريدني أن أقاتل الآن؟"

كان جاداً. لقد كان الأفغان في حرب معظم حياتهم. وفكرت في أن إيجاد الاستقرار لهذا البلد لن يكون عملية سريعة وسهلة.

وقلت: "أحياناً أيها الجنرال، يجب على الجندي أن يشن السلام، لا الحرب." توقف دوستم، وكأنه تعرض لتوه إلى مفهوم جديد. ثم تبسم.

وعندما حان الوقت للمغادرة، نظرت حولي بحثاً عن غرف الحمام. "يجب أن أجد غرفة الرجال."

وأضافت كاثي: "وغرفة البنات."

وعندما سأل المترجم خادماً كبيراً عن أقرب حمامات، رسم على وجهه على رغم ذلك، نظرة مذهولة. واستدعي شيخ أكبر سنّاً بلحية مهذبة رمادية وعمّة لازوردية، ولكنه بدا لنا أيضاً مضطرباً. وتعجبت، أين يذهب هؤلاء الناس ليتبولوا؟

وأخيراً، تم اقتيادنا عبر ممر إلى غرفة حمام مظلمة صغيرة. وعندما خطوت عبر الباب وتحسست في الظلام بحثاً عن الضوء، تصاعدت الرائحة الكريهة من حولي. كان القصر الرئاسي نموذجاً للرفاهية في كابول، ولكن هذا الجزء من المبنى كان بلا كهرباء. وكما كان واضحاً من بركة الصرف على الأرض، فإن السباكة لم تكن تعمل. من حسن الحظ، أنني كنت ألبس حذائي العسكري، وبينما كانت كاثي قد اختارت حذاء مشي معقول، وكان الكشف القلمي الشكل في محفظتها أداة موضع ترحيب.

عندما كنا نغادر المبنى، ونمشي نازلين على الدرج المرمري المتصدع نحو السيارات المنتظرة، تصورتُ العائلات اللاجئة وهي تقعد في خرائبها، بلا كهرباء، ولا ماء جار، أو نظام صحي. كاثي وأنا تبادلنا نظرة.

وقالت: "مكان للتحسين، يا توم."

وقلت: "سيكون هناك وقت طويل قبل أن يمتلك هؤلاء الناس الضرورات الأساسية لحياة كريمة. لقد صنعنا بداية فقط في هذا البلد."

وعندما صعدنا إلى داخل السيارات أس يو في، كان غاري هاريل يجلس في المقعد الأمامي الأيمن، ويستمتع إلى جهاز لاسلكي تعبوي، أقر باستلام الرسالة، ثم استدار إلى الخلف ليواجهني، وهو عابس.

وقال: "سيدي، تغيير صغير في الخطط، سوف نقود سياراتنا راجعين إلى باغرام بالشاحنات."

كنت أستطيع أن أخبر بأن شيئاً ما حدث: "دعنا نعرفها، يا غاري."
 "أيها الجنرال، قال طيار الطائرة العمودية الثانية إن بريمة سحب فلين السدادات أخذت الجانب الأيسر من عصفورنا عند الهبوط. وقد رتبت أمن الطريق مع الأفغان على طول الطريق إلى باغرام. سنكون أكثر أمناً في الطريق."

لقد أطلقت النار علينا، فكلمة "بريمة سحب فلين السدادات" كانت رطانة بين العسكريين تعني الصاروخ الذي يطلق وهو محمول على الكتف، وربما يكون من نوع اس ايه-7. وهذا التعبير يصف الأثر الحلزوني للدخان عندما يبحث الصاروخ عن هدفه. وعلى الرغم من أن الطائرات العمودية المستخدمة في العمليات الخاصة مزودة بتجهيزات إلكترونية لإبعاد الصواريخ الباحثة عن الحرارة، فلا مع ذلك معنى في المخاطرة بتجربة حظنا. والتفاوض على خمسة وأربعين كيلومتراً من الطريق البري، الذي كسحت منه الألغام حديثاً، سيكون أكثر أمناً من الطيران. وفهمت كاثرين المحادثة، ولكنها كانت ثابتة الجأش وهادئة مثلما هي دائماً.

وقلت: "لك ذلك، يا غاري. دعنا نذهب."

"فوراً، سيدي."

ومددت يدي نحوه وربت على كتفه: "عليك أن تتذكر، أنني سأكون غاضباً فعلاً إن تسببت في قتلنا. وكذلك ستكون كاثرين." وغمزت باتجاهها.

وقال غاري: "لا قلق، أيها الجنرال."

في رحلتنا في السيارة صاعدين في الوادي إلى باغرام، مررنا على عشرات الدبابات، والشاحنات، والحافلات المدمرة التي كانت قد اصطدمت بالألغام في نقطة ما في التاريخ العنيف لأفغانستان. وفي أثناء مسيرنا في السيارة، كنت أنظر في عيون الأفغان الذين مررنا بهم. كانت عيوننا متعبة، ولكنها كانت عيوناً مليئة

بالأمل. كنت سعيداً بأننا سلكنا هذا الطريق المدمر، لقد أعطانا فرصة لنرى قليلين من خمسة وعشرين مليون نسمة كانوا الآن يمتلكون فرصة لحياة أفضل.

في يوم الخميس 27 كانون الثاني/ديسمبر، كنا محمولين جواً طوال ما يقارب الساعة، متوجهين نحو الوطن بعد أن بتنا ليلة في صقلية، عندما انهمكت بالعمل في غرفة المؤتمرات الصغيرة على متن الطائرة. وكانت كاثيري مستريحة، تحاول أن تمسك بالنوم المفقود من البرنامج المفعم بالأحداث والقفزات في أنحاء منطقة المسؤولية. في الأيام الخمسة الماضية، كنا قد زرنا عمان، وأفغانستان، وباكستان، وسبع قواعد للتحالف، وخمس سفن من بحرية الولايات المتحدة، وأمضينا عيد الميلاد مع البحارة على حاملتي طائرات في بحر العرب الشمالي. وكنا على متن طائرات سي-17، وسي-130، وثلاثة أنواع من الطائرات العمودية، وطائرة بمحركين مروحيين تربيينيين من نوع الطائرات التي تعمل في النقل والتسليم على ظهر السفينة، وهي التي أعطت كاثيري نشوة أول مرة لها في الطيران على ظهر السفينة والهبوط بكلاية الذيل والإقلاع بانطلاق منجنقي (*).

وعلى الرغم من إيقاع الرحلة، فقد كنت سعيداً أن نكون كاثيري وأنا قادرين على أن نمضي عيد الميلاد معاً لأنني كنت أعرف أنني لن أمتلك الوقت الكثير في البيت في الأسابيع القادمة. ومع سير عمليات الاستقرار في أفغانستان قدماً على نحو حسن، كان يجب علي أن أحول انتباهي إلى الواجب الذي كلفني به الوزير رامسفيلد في أثناء عطلات عيد الشكر: وهو القيام بتحديث تخطيطنا للعراق ليماشي هذا الوقت.

"واجبك المنزلي، أيها الجنرال." قالها فان موني، وهو يضع كدسة من إضبارات ملف الأسرار العليا بأطرافه البرتقالية على الطاولة أمامي.

كانت الإضبارات تحتوي على آخر "تكرار" في عملية المراجعة المجهدة التي بدأت في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. وفي الأسابيع الأربعة التي مضت منذ ذلك

(*) آلية لإطلاق الطائرة بسرعة كافية للطيران مثلما يحدث من ظهر حاملة الطائرات.

التاريخ، كنت قد قدمت إيجازاً لدونالد رامسفيلد عدة مرات، شخصياً ومن خلال المؤتمرات بالاتصال من بعد المصورة بالفيديو. وقد صُرفت مئات من ساعات العمل في هذا الجهد. ولكن عندما فتحت الإضبارة العليا، عرفت أننا كنا نبدأ حالاً عملية طويلة، تحتاج إلى إمعان الفكر والتروي.

ولم نكن نمتلك بعدُ خطةً للقيام بعمليات عسكرية حاسمة ضد النظام البعثي لصدام حسين. وإذا حدث أن اختار الرئيس أن يدير مثل هذه العملية، فإن خطة العمليات النهائية ستكون من مئات الصفحات في طولها، مع آلاف الصفحات من الملاحق المتخصصة التي تغطي كل شيء من إقامة القواعد وترتيب التمرحل إلى مطارات الهبوط الطارئ، إلى ذبذبات رادارات الدفاع الجوي للعدو، إلى عدد الوجبات الجاهزة للأكل التي يجب أن تشحن إلى القوات.

ما طلبه وزير الدفاع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر لم يكن خطة جديدة. لقد طلب أن أعطيه "تصور القائد"، وهو الأسس الفلسفية لما قد يصير في نهاية الأمر خطة. لقد كان ذلك التصور الذي استغرق ثلاثة أسابيع لإكماله، هو الذي ملأ الإضبارات.

الخطة الموجودة، وهي خطة العمليات 1003، كانت قد حُدثت لآخر مرة بعد ثعلب الصحراء في العام 1998، ولكنها كانت مستندة إلى عصر تفكير عاصفة الصحراء. كانت ثقيلة بالجند، وتشمل حشداً طويلاً وسلسلة من الضربات الجوية قبل أن تطلق الأحذية العسكرية الأرض. وهي لم تأخذ بالحسبان التوزيعات الحالية لجندنا، أو التقدمات التي جرت في الذخائر الموجهة الدقيقة، أو الفتوحات في تقانة القيادة والسيطرة، هذا إذا لم نذكر الدروس التي كنا نتعلمها في أفغانستان.

في أصيل يوم 4 كانون الثاني/ديسمبر، 2001، أي بعد سبعة أيام من تلك المحادثة، اجتمعت أنا وجين رينيوات في غرفة اجتماع ركن الاستخبارات في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة وعرضنا أول تكرار لتصور القائد مني إلى رامسفيلد

ورئيس هيئة الأركان المشتركة ديك مايرز في وزارة الدفاع من خلال الاجتماع المأمون بالاتصال عن بعد المصور بالفيديو.

وقبل ان ينتقل تركيز آلة التصوير إلى رامسفيلد ومايرز، رأيت أن نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال بيت بيس ووكيل وزارة الدفاع لشؤون السياسات دوغلاس جيه. فيث كانا حاضرين أيضاً في الجلسة. وبالتأكيد لم يكن لدي أي مشكلة في أن يجلس بيت بيس في الجلسة. فقد كان واحداً من ألمع الضباط الذين عرفتهم وأكثرهم حيوية.

أما دوغ فيث فكان مسألة أخرى. ولا يستطيع أحد أن ينكر إنجازات فيث الأكاديمية، فقد نال درجة البكالوريوس بامتياز كبير من هارفارد ودرجة امتياز أخرى من مدرسة القانون من جورج تاون. ولكن فيث كان منظرًا وكانت أفكاره في الغالب غير عملية، وكان لفيث سمعة، بين بعض الضباط اللابسين للبزة في المبنى، عن خلطه للمذكرات النظرية مع النتائج في الميدان. وتعاملاتي معه تركتني في موقفين متناقضين: أحببته شخصياً، ولكني لم أكن مقتنعاً بأن الوزير كان دائماً يتلقى خدمة جيدة من نصيحته. كان فيث سيداً للسؤال الذي لا علاقة له بالموضوع ونادراً ما يتصل بالمشكلات العملية. وكان واضحاً أن دون رامسفيلد كان يثق به، وأنا أريد أن أستخدم منتجات فكره. ولكنني لم أكن أملك من الوقت، أو الميل، إلا القليل لإجابة "مشكلات عقل" فيث المحيرة. ولذلك، فقد كنت عموماً أهمل إسهاماته، وركزت على ما لدى الوزير ليقوله. ولم يسمح رامسفيلد لفيث أبداً أن يتدخل في عملي. وكنت دائماً شاكرًا له ذلك.

استدرت إلى اللوحات وتوسعت في النقاط الرئيسية.

وقلت، وأنا أشير إلى الصفحة الأولى: افتراضات: "سيدي الوزير إذا بادرنا بالعمليات العسكرية في العراق، فأنا أفترض أن الهدف الرئيسي سيكون إزالة حكم صدام حسين."

لم يسبق لي أن طلبت إذن دونالد رامسفيلد لأقترح هذا الافتراض. ليست تلك هي الكيفية التي يعمل بها الإستراتيجيون العسكريون. لقد كان واجبي هو أن أوصي بأفعل وأحسم استخدام لقواتنا العسكرية في حل مشكلة معينة. والقيادة المدنية، وزير الدفاع ورئيس الولايات المتحدة، سوف تقرر إن كانت افتراضاتي الإستراتيجية مناسبة.

انتظرت لحظة، وأنا أشاهد رامسفيلد يدرس كلماتي. وقال بعد توقف: "ياجنرال، ذلك هو افتراضي، أيضاً. والرئيس سيتخذ هذا القرار في نهاية الأمر." وتابعت: "سيدي، الوزير، إن افتراضي الثاني هو أننا إذا أدركنا العمليات العسكرية، فسيكون الهدف هو أن نترك العراق بدون قدرة عسكرية على تهديد جيرانه لا بأسلحة الدمار الشامل ولا بالأسلحة التقليدية."

وأوماً رامسفيلد برأسه. "أنا أوافق. إذا، وأنا أشدد على إذا، حدثت هذه العملية، فسوف نترك العراق أمة موحدة ولها القدرة على الدفاع عن نفسها." وقلت: "سيدي، أنت تعرف من قبل ما أعتقد عن خطة عمليات 1003. ولكنها هي الخطة التي نملكها اليوم، إنها تعطي تفاصيل هيكل القوة، والإمداد والتموين، وجميع المتطلبات الأخرى لعملية أكبر. إنها كبيرة جداً، وبطيئة جداً. وقديمة العهد. ولكن إذا أساء صدام الحسابات، كما هو ميال ليفعل، وأسقط واحدة من طائراتنا، وأطلق صواريخ إلى داخل الكويت أو إلى داخل إسرائيل، أو قرر أن يهاجم الأكراد، فإننا نحتاج إلى أن نعد رداً ما يكون عملياً ومباشراً."

وزن رامسفيلد هذا المنطق. "صواريخ كروز وضربات جوية؟"

وتابعت. "ذلك هو ما نملكه في الكتب الآن مباشرة، سيدي الوزير. إنها قديمة، تقليدية، قابلة للتكهن بها. وأسوأ من هذا كله أنها مبنية في مقدماتها على استمرار سياسة الاحتواء. تصور القائد، تصوري الخاص بي، له مجموعة مختلفة من الأهداف."

وقلبت صفحة وأشرت إلى الحالة النهائية، وإلى انفجار نجمين معلمين بالأحمر: تغيير النظام، وإزالة أسلحة الدمار الشامل.

درس رامسفيلد ومايرز الصفحة. وقال رامسفيلد: "يا جنرال، دعنا نرجع إلى الخطة الموجودة. بعد الضربات الجوية الأولى، فإن بناء القوة الأرضية يستغرق مدة من الزمن مفرطة.

"نستطيع أن نعمل أفضل. أنا أردت أن أريك ماذا نمتلك قبل أن أقترح أين نذهب."

وقال رامسفيلد مع ابتسامة: "تابع، أيها الجنرال."

وكان دونالد رامسفيلد عادة يحب أن تكون إيجازاته سريعة ودقيقة. وهذا الإيجاز تقدم ببطء أكبر، وكان من الواضح أنه يريد أن يضع أساساً صلباً لأي ظروف قد تتطور في الشهور القادمة. وقد كان مجتمع الاستخبارات يفكر في وجود رابط بين نظام صدام وإرهابيين معروفين، ومن جملتهم القاعدة. ولم يكن الدليل محكماً، ولكن كان من المؤكد أن العديد من معسكرات الإرهاب لأنصار الإسلام كانت متوافرة وتعمل في شمال العراق.

فكانت هذه المعسكرات أمثلة عن "مآوي" الإرهابيين التي تعهد الرئيس بوش بسحقها. أحد الإرهابيين المعروفين، وهو أردني ولد فلسطينياً يدعى أبو مصعب الزرقاوي، كان قد التحق بالقاعدة في أفغانستان، وفيها كان متخصصاً في تطوير أسلحة كيماوية وحيوية، كان الآن قد تأكد أنه يعمل من واحد من المعسكرات في العراق. وكان قد جرح جرحاً بليغاً في أثناء قتال قوات التحالف في أفغانستان، وقد تلقى الزرقاوي العلاج الطبي في بغداد قبل الانطلاق مع أنصار الإسلام. وأوحى الدليل بأنه قد التحق هناك بآخرين من قادة القاعدة الذين نقلوا عبر بغداد وأعطوا ممرأً آمناً إلى شمالي العراق بواسطة قوات الأمن العراقية.

وما كان مزعجاً على نحو خاص حول هذه المعلومات الاستخباراتية هو التقارير التي تقول إن الزرقاوي وزملاءه من القاعدة كانوا يستخدمون المعسكرات

لتدريب إرهابيين آخرين من أجل هجمات أسلحة الدمار الشامل في فرنسا، وبريطانيا، والشيستان، وفي جورجيا، الجمهورية السوفيتية السابقة. (في كانون الثاني/يناير 2003، عندما أنهت الشرطة البريطانية خلية إرهابية في مانشستر كان الزرقاوي قد ساعد في تدريبها، اكتشفت الشرطة آثار مادة الخروج، السم الحيوي القاتل، في شقة الإرهابيين، وأشارت التقارير إلى أنهم كانوا يتآمرون لاستخدامه لتسميم إمدادات الطعام في القواعد العسكرية عبر بريطانيا).

إذا كانت الدلائل مؤكدة بأن النظام العراقي كان في الواقع مرتبطاً بالقاعدة، فسيكون في واشنطن شهية لا تشبع للعمل الفوري. وقد اكتشف رجال وحداتنا للمهام الخاصة الدليل في أفغانستان على أن الإرهابيين كانوا يحاولون أن يحصلوا على قدرة كيماوية وحيوية. وبين تقرير مفتشي الأمم المتحدة في كانون الثاني/يناير 1999 أن العراق كان يمكنه أن يمتلك إمدادات كبيرة من مثل هذه الأسلحة.

صدام حسين، وهو دكتاتور ميال إلى اضطهاد المسلمين الشيعة، وأسامة بن لادن، وهو واحد من أوائل المتطرفين المسلمين في العالم، هذان الاثنان إن كانا فعلاً يتعاونان، فإن هذا دليل على أن الحرب قد صنعت حلفاء غريبين. ومع ذلك فقد كنت أعرف أن المال قد تجاوز الإيديولوجيا والإيمان معاً، وابن لادن كان يمتلك الكثير من المال. وإن أي قوة كانت تستطيع أن تزود القاعدة بعوامل الأعصاب أو الجمرة الخبيثة هي موضع اهتمام إستراتيجي كبير، وكان صدام في موقع يحتمل جداً فيه أن يجعل مثل هذه العناصر متوافرة مقابل الثمن الصحيح.

كان من حماقة ألا نفكر في خياراتنا لاستئصال ذلك التهديد.

وعندما اختتمت خلاصة الخطة 1003 الموجودة، لاحظت أننا قد خفضنا مستويات القوة المخطط لها من 500.000 جندي إلى حوالي 400.000 ولكن حتى ذلك كان ما يزال ضخماً جداً إلى درجة كبيرة. "هذا العام ليس 1990. فالقوة العسكرية العراقية اليوم ليست هي القوة التي واجهناها في 1991. وقواتنا نحن أيضاً مختلفة

اختلافاً كبيراً. ونحن نرى ذلك في أفغانستان. نحن نحتاج إلى أن ننقي افتراضاتنا."

أخبرت الوزير أنني كنت أريد أن أطور خيارات جديدة للعراق، ووافق الوزير على ذلك. ومن تلك النقطة فصاعداً كان واضحاً: دون رامسفيلد كان راغباً أن يكون جزءاً من الحل.

إيجازاتي إلى رامسفيلد، وإلى الرئيس، ستكون مستندة إلى فلسفة بسيطة: لا تفترض قطعياً أن الرئيس يعرف كل ما هناك، مما ينبغي أن يُعرف حول قضية ما، عندما يجلس إلى الطاولة. أعطه كل شذرة من المعلومات تعتقد أنه يحتاج إليها، ولو كانت المعلومة مرهقة. وعدم الصبر المشهور عن رامسفيلد جعل هذا أحياناً أمراً قاسياً. ولكن من الأفضل أن يفهم هو كل ناحية من القضية قبل أن يصل فيها إلى قرار، ولو كان ذلك الفهم يكمن في تقسيم المشكلة قيد البحث في أيدينا إلى التعابير الأساسية فيها إلى أبعد حد. لقد عرفت ضباطاً مشوا في مساراتهم الوظيفية وهم يحاولون أن يظهروا بارعين، وذلك عن طريق جعل القضايا البسيطة تبدو معقدة. كان تفضيلي دائماً هو أن أجعل المعقد بسيطاً ببساطة كافية لنفهمه. الحرب عمل معقد، ولكنه مكون من عناصر مباشرة مكشوفة. وإذا فهمنا جميعنا هذه العناصر، عندها فقط، يحتمل أن نصل إلى النتائج نفسها، والنتائج الصحيحة.

إذا كان السبب الأول للإيجاز المقدم للرئيس هو أن تثقفه، فالسبب الآخر هو أن تستحثه وتحفزه. فعندما طلب دونالد رامسفيلد أن ندرس مدخلاً إستراتيجياً جديداً للعراق، انطلقت لأثقفه في الأساسيات، ولأحفزه ليساند نتائجي التي خلصت إليها. أحياناً نجحت. وفي أحيان أخرى لم أنجح. ولكن عملية "التكرارات" التي بدأناها في أثناء ذلك الاجتماع الذي عقد في مطالع كانون الأول/ديسمبر عملت على حفزنا كلياً.

وقلت، راجعاً إلى اللوحة التالية: "إذا عزمنا على إزالة نظام صدام، فسوف يتوجب علينا أن ندرس سلسلة من الاحتياجات العملية: إقامة القواعد، وترتيب

التمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية، ونشر القوات، والإمداد والتموين، والدعم، والقيادة والسيطرة، والاستخبارات. ففي أفغانستان، طرحت هذه الاحتياجات مجموعة واحدة من المشكلات. وبالنسبة إلى العراق، المشكلة الأساسية باقية، ولكن المعدل سيكون أكبر.

ورفعت صفحة الخيارات.

"ما هي الخيارات الإستراتيجية التي نمتلكها؟ الخيار الأول." وفتحت الصفحة. وشرحت: "أنا أسمى هذا الخيار بالخيار القوي."

وتابعت: "لو أن كل بلد في المنطقة يلتحق معنا ويقدم السند الكامل. ومن جملته، إقامة القواعد، وترتيب التمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية، والمساعدة المالية، وربما حتى تقديم الجند، فإن هذا الوضع سيكون في الحقيقة هو الموقف الأمثل."

وأشرت بيدي إلى الخريطة لأوضح نقطتي. "بهذه الطريقة، نستطيع أن نعمل من دون قيد من تركيا في الشمال، ومن الأردن والمملكة العربية السعودية في الغرب والجنوب، ومن الكويت، ومن القواعد الجوية والبحرية في كل دول الخليج. إضافة إلى ذلك، نستطيع أن نستفيد من المساندة التي تقدمها مصر ونرتب تمرحل القوات في آسيا الوسطى، إضافة إلى هنغاريا، ورومانيا، وبلغاريا، وهي الدول التي نتابع فيها تحديث حلف وارسو السابق."

وعرضت مخططاً يبين أرضاً افتراضية، وقوات خاصة، وعمليات جوية انطلقت من الشمال، والغرب، ومن الجنوب، ومن حاملات الطائرات في البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، والخليج العربي. "لهذا الخيار ميزة السماح لنا بإدارة عمليات متزامنة أو قريبة من المتزامنة، سيدي الوزير. العمليات المتزامنة، لا الحملات الجوية والأرضية المنفصلة، هي التي تمثل الكتلة الأمثل."

واستدرت إلى اللوحة التالية وقلت: "الاحتمال الثاني هو الخيار المخفض. وهذا الخيار مبني على العمل من بلاد أقل، مع تخفيض في إقامة القواعد، وترتيب

التمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية. وسوف يعني إدخالاً للقوى بتزامن أقل، وهجوماً متتابعاً أكثر على مجموعات الأهداف. إنه مدخل أقرب إلى المدخل التقليدي، الجو أولاً، وبعدئذ الأرض."

وكانت اللوحة التالية الخيار الأحادي الجانب. "وهنا نفترض الحد الأدنى من إقامة القواعد، وترتيب التمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية، وستكون قواعداً العاملة الوحيدة في الكويت وعلى حاملات الطائرات في الخليج. وهذه العملية ستكون متتابعة بشكل مطلق. سيكون علينا أن ندخل قواتنا الأرضية بالتدرج، وذلك ببساطة لأنه لن يكون هناك بنية تحتية كافية في الكويت تمكنا من ترتيب التمرحل لتشكيلات كبيرة في الوقت نفسه. وهذا ليس خياراً سنرغب في تنفيذه."

ذلك كان علامة على نهاية الإيجاز. "سيدي الوزير، أعرف أنك لم تحقق ما طمحت إليه بما أعطيتك إياه اليوم. ولكنها بداية، وقد أردت أن أتوثق من أننا كنا على الصفحة نفسها في الافتراضات الإستراتيجية وخيارات المساندة."

وقال وهو يكس الصفحات: "حسناً، أيها الجنرال، لديك الكثير من العمل بانتظارك. اليوم هو الثلاثاء. دعنا نجتمع ثانية في يوم الأربعاء القادم، في 12 كانون الأول/ديسمبر. أريد أن أسمع تفاصيل أكثر في ذلك الوقت."

وصارت الشاشة فارغة. وكان جين طوال الوقت يدون ملاحظات في سجله اليومي الكبير الحجم، الذي كان الأركان يسمونه "الكتاب الأسود للموت" لأن عبء العمل الذي يمثله كان كافياً ليقتل حتى أصلب مجموعة من الضباط الأركان.

وقال جين: "يا رئيسنا، الأمور في تحسن. لقد أعطانا الوزير قبل قليل ثمانية أيام كاملة. في المرة الأخيرة كانت المدة أسبوعاً فقط."

وقلت: "قطعة كعك، يا ركن العمليات."

كان الأركان من قبل الآن يعملون سبعة أيام في الأسبوع وستة عشر ساعة في اليوم أو تزيد. ولكنني كنت أعرف أن إنتاج هذا التكرار القادم من تصور القائد لن يكون شاقاً ملحاً، وذلك لأنني كنت أمتلك له من قبل نموذجاً في ذهني.

طوال الأيام العديدة التي تلت قضيت وقتي في عاصفة عقلية، فعندما لا أكون في مكثبي مع جين، كنت أجمع مع ضباطنا الكبار من أركان العمليات، أو مع جيف كيمونز، وطائفة الاستخبارات في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة. وكنت في أثناء الأيام الستة والعشرين المحمومة التي قضيناها قبل قليل في التخطيط لأفغانستان، قد طورت أسلوباً في التخطيط ركز على "خطوط العملية"، وهي الواجبات التي سوف تستدعيها أي مهمة معطاة، وركز على "الشرائح"، وهي النواحي المختلفة من البلاد التي سوف تتأثر بخطوط العملية.

وعندما كنت أفكر في عملية ممكنة في العراق، برز عدد من الخطوط الواضحة للعملية وطرحت نفسها. واحد منها كان الحركات: النيران العملياتية، إطلاق صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، وضربات جوية من قاذفات بملاحين، إضافة إلى مساندة جوية قريبة من مقاتلات قاذفة ومن طائرات إيه سي-130 سبكر، وفي نهاية المطاف الطائرات العمودية المسلحة من البحرية والجيش. والخط الآخر كان المناورة العملياتية، القوات الأرضية التقليدية. وخط آخر هو القوات الخاصة. وكان هناك خطوط مهمة أخرى، هي السياسية والدبلوماسية معاً، أي: المساعدة الإنسانية، وعمليات المعلومات، والخداع.

وكان الخط الدبلوماسي سيشمل العمل الذي تقوم به وزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات المركزية، واتصالاتي الشخصية في المنطقة، والضاربون الثقيل: الرئيس بوش، وتشيني نائب الرئيس، والوزيران رامسفيلد وباول.

وكنت أعرف أن العراق سوف يختلف في التعقيد عن أفغانستان بعدة رتب من الضخامة. في أفغانستان، كانت أهدافنا إزاحة الطالبان وتدمير قواعد عمليات القاعدة، وإنجاز هذا الأمر ركزنا خطوطنا على عدد محدود من الأهداف. وكان تدمير التشكيلات الأرضية للعدو واحداً من أهم واجباتنا، وكثير من خطوطنا للعمليات قد ساند هذا الواجب.

أما العراق فمثل تحدياً أصعب بشكل ضخم للغاية. وعلى الرغم من أن القوة

العسكرية للعراق قد تراجعت منذ حرب الخليج، فالعراق ما يزال يمتلك في الميدان قوة هي أكبر تقريباً بعشرة أضعاف من قوات طالبان والقاعدة مجتمعين. وخلافاً للعدو في أفغانستان، فإن قوات العراق كانت مجهزة بتشكيلة مؤثرة من الدروع، والمدفعية، وأنظمة الدفاع الجوي.

كان أفغانستان تحت طالبان حكومة دينية قاسية. أما عراق صدام فكان دولة بوليسية شمولية من القرن الحادي والعشرين، مع قيادة مركزية بشكل عال استطاعت أن تبقى وتمارس السلطة من خلال استخبارات داخلية وجهاز أمني كان ينتشر من صدام حسين ابتداءً، ومن ولديه عدي، وقصي، ودائرتهم من زملائهم من قبيلة الأبو ناصر من منطقة تكريت، إلى الخارج.

المنظمات التي حافظت على صدام في السلطة ضمت مصلحة الاستخبارات العراقية، المخابرات المخيفة، ومنظمة الأمن الخاص، أو الأمن الخاص. ووفر الحرس الجمهوري الخاص الأمن المادي لقيادة النظام. وقام قلب القوة العسكرية للعراق على التشكيلات القتالية للحرس الجمهوري. وكانت هذه التشكيلات مشابهة للغستابو (قوات الأمن الداخلي) عند هتلر، ولقوات اس اس، وفرقة من الوافن اس اس (وحدات الحماية المسلحة) من الدروع والمشاة الآلية، مع مقدار جيد اختلط فيها من الأمن الداخلي السوفيتي كي جي بي (وكالة الاستخبارات والأمن الداخلي). حكم صدام من خلال القمع الوحشي والخوف. كما طور كذلك عدداً ضخماً من الأتباع الموالين عن طريق الإغداق في مكافأة أوثق الأعضاء في حكمه ومكافأة عائلاتهم. وبعد أن بدأ حظر الأمم المتحدة على الزيت بعد حرب الخليج، أنفق صدام بلايين الدولارات من عائدات برنامج الزيت مقابل الغذاء ليستمر هذا النظام في المكافآت، مع بناء مجمعات القصور الضخمة في الوقت الذي يستمر في الاستثمار في برامج الأسلحة السرية غير المشروعة.

وخلافاً لأفغانستان، التي قلل مرة دونالد رامسفيلد من قدرها فوصفها بأنها كانت تمتلك: "حفنة من محطات الرادار، وقليلًا من الدبابات، والكثير من الشاحنات

الصغيرة مليئة بالمتعصبين،" فإن العراق احتوى على مئات من الأهداف ذات الأهمية الإستراتيجية. وعندما وضعنا التفاصيل على تصورنا في أثناء الأسبوع في منتصف كانون الأول/ديسمبر 2001، بدأت أنا بخلق مخطط تصوري عن الكيفية التي ستطبق بها القيادة المركزية، إذا أمر الرئيس، الخطوط الضرورية للعملية لمهاجمة ما كان كلاوتزفتز قد وصفه منذ أكثر من مائة سنة على أنه "مراكز الثقل" للعدو- أي، الشرائع، أو التأثير على هذه المراكز.

تصورت الشرائع على أنها سلسلة من الأعمدة، نوع من النصب التذكاري الذي كان يسند وزن البعثيين وصدام حسين. في وقت مبكر في صباح أحد الأيام، أخذت رزمة ورق وبدأت أرسم الأعمدة التي مثلت أسس القوة العراقية. ثم أضفت أعمدة لتمثل العناصر الجوهرية للأمة العراقية وللشعب العراقي. فالحملة العسكرية لن تؤثر على صدام فقط وعلى أتباعه، ولكنها ستؤثر على سكان العراق المدنيين أيضاً، وعلى بنيته التحتية الاقتصادية، ومن جملة ذلك موارد الزيت والماء، وبيئته الطبيعية. أهدافنا العسكرية، في أفغانستان، كانت واضحة مباشرة نسبياً: إزاحة نظام طالبان، وتحطيم القاعدة وقواعدها العملياتية والتدريبية، ومنع انبعاث هيكل مساندة الإرهابيين، وقد حققنا مهمتنا. فلم تبق الطالبان موجودة بعد الآن، لا بصفتهم حكومة ولا بصفتهم قوة عسكرية متماسكة. وفقدت القاعدة مئات من قادتها ومقاتليها الأفضل تدريباً وخبرة، وتحولت قواعدها التشغيلية والتدريبية إلى أنقاض، وجنودها في حالة هرب.

ولكن لتحقيق حتى تلك الأهداف البسيطة في أفغانستان، كانت خطوط العملية معقدة وقاسية. فقد تطلب الخط الدبلوماسي مفاوضات ومساومات الغرف الخلفية غير المعلنة لتأمين ترتيب التمرحل، وإقامة القواعد، والطيران فوق البلاد الأجنبية التي احتجنا إليها لاستخدام القوة العسكرية استخداماً فعالاً في البلاد المحصورة المحوطة بالبلاد الأخرى. ولم يتضمن خط القوات الخاصة إدخال هذه القوات ومساندتها فقط، بل دعم تحالف الشمال والجماعات المعارضة الأخرى

كذلك، وكان الدعم بالأغلب نقلاً بالطائرات العمودية أو بالإسقاط الجوي. وتطلب خط النيران العملياتية تنسيقاً غير مسبوق للموجودات الجوية والبحرية. وتضمن خط المعونة الإنسانية، اشتراك الأمم المتحدة وعشرات من المنظمات غير الحكومية. وأما بناء "تحالف الراغبين" في قوة عملية وفعالة فقد استدعى جهداً فوق عادي وكثيفاً بين الوكالات في واشنطن وحول العالم.

أما خطوط العملية بالنسبة إلى العراق فستكون أكثر تعقيداً بكثير. وستكون غاية سياستنا هي إزاحة صدام حسين من السلطة، ويؤمل أن يكون ذلك بالطرق الدبلوماسية، ولكن إذا دعت الضرورة فبالقوة العسكرية. ولعمل ذلك، سيكون علينا أن نؤثر على نقاط الضغط التي أبقت صدام في السلطة. إن صدام لن ينصاع لقرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة، التي هزئ منها في كل تطور طوال عقد من الزمان، إلا إذا تعرض النظام للتهديد.

من الناحية النظرية، فإن الضغط الدبلوماسي والاقتصادي تحت مظلة من التهديد العسكري قد تؤدي إلى نزع سلاح صدام. وبموجب هذا المنطق، لم تكن الحرب سوى خيار واحد من جملة خيارات. وكانت وزارة الخارجية متفائلة بأن الأمم المتحدة قد تستأنف نوع التفتيش الذي كان قد استخرج من تحت الأرض أكداً مخزنة من أسلحة الدمار الشامل العراقية في التسعينيات من 1990.

كثيرون في الكابيتول هي(*)، وفي وزارة الدفاع، كانوا يأملون أن يستطيع المنفيون تحت قيادة أحمد شلبي والمؤتمر العراقي أن يركبوا تغييراً واضحاً في الرأي العام من السخط الشعبي لإطاحة صدام. وكانت هناك إمكانية تشديد الضغط الدولي المالي لفرض التغييرات في العراق.

وفي الحقيقة، فإن خطوط العملية التي أدرجتها على رزمة ورقي القانونية اشتملت على أكثر بكثير من الجند، والدبابات، والطائرات:

(*) الاسم غير الرسمي لمجلس الشيوخ الأمريكي، وهي هضبة يقوم عليها المبنى في واشنطن.

- النيران العملياتية
 - عمليات قوات العمليات خاصة
 - المناورة العملياتية
 - عمليات المعلومات.
 - الحرب غير التقليدية/ مساندة جماعات المعارضة.
 - سياسي - عسكري
 - عمليات مدنية - عسكرية
- بعد ذلك، بدأت أدرج ما تصورت أنه "شرائح" سوف نحتاج إلى إنجازها لكي تتجزأ الغاية وهي إزالة النظام. وبعد عدة ساعات، استقر رأيي على تسع شرائح، وهي الأعمدة التي حافظت على صدام في السلطة.
- القيادة
 - الأمن الداخلي/ استخبارات النظام
 - البنية التحتية لأسلحة الدمار الشامل/ البحث والتطوير
 - الحرس الجمهوري/ القوات الخاصة من الحرس الجمهوري
 - قوات الجيش النظامي المختارة
 - الأرض (جنوب، شمال، غرب)
 - البنية التحتية
 - السكان المدنيون
 - التأثير التجاري والدبلوماسي
- ثم قمت بعد ذلك بعمل مصفوفة، قرنت فيها الخطوط على شكل أسهم مع الشرائح على شكل أعمدة.

خطوط وشرائح مصفوفة
عمل ١ ديسمبر

تجاري	المدينون	البنية التحتية	الأرض	الجيش النظامي	الجيش الخاص	الحرس الجمهوري	أسلحة تدمير شامل	القيادة	العمليات
				*	*		*	*	نيران عملياتية
				*	*	*	*	*	عمليات قوات عمليات خاصة
		*	*	*	*	*			مناورة عملياتية
*	*	*		*	*		*	*	عمليات معومات
	*	*	*	*	*	*	*		حرب غير تقليدية
*	*		*					*	سياسي - عسكري
					*	*	*	*	عمليات مدنية عسكرية

انفجارات النجوم عند تقاطعات الخطوط مع الشرائح مثلت نقاط التركيز التي كنا سنستخدمها لتطوير التفاصيل المحددة لخطة مفصلة. وعلى سبيل المثال، فانفجار النجمة الواقعة على التقاطع بين "النيران العملياتية" وبين "القيادة" يعني أننا كنا سنهاجم أهداف القيادة باستخدام قنابل وصواريخ. وإذا قلناها ببساطة، فإن انفجارات النجمة يساعد قادة العناصر والأركان على أن يلائموا أدوات عسكرية محددة مع أهداف محددة، وهو ما ينتج عنه تآزر أفضل بين أسلحة وخدمات هي تقليدياً مستقلة.

وقبل التقدم لأكثر من ذلك، استدعيت العبقري الإستراتيجي الساحر المقيم معي، جين رينيوارت.

وقال وهو ينحني إلى الأمام فوق الطاولة ويميل رزمة الورق ليقرأ كتابتي المحشورة بشدة: "يا جنرال، هذا مثير للاهتمام."

"هل يجب أن أتابع هذا التمرين؟ هل يقود إلى أي مكان؟"

وقال جين: "إن لم تفعل، فأنا سأفعل."

وعملت مشهد من يمسك بالورق ليستعيده. وقلت مع ابتسامة وأنا أرفع رزمة الورق وكأنها كانت تزن عشرين رطلاً: "ارجع إلى كتابك، كتاب يوم القيامة. هذا ما تسميه أنت إستراتيجيتك الكبرى الأساسية."

بحلول ليلة الثلاثاء، 11 كانون الأول/ديسمبر، كنا جاهزين لتقديم شرح وبيان عملي في الأصيل التالي في مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو مع دونالد رامسفيلد. ونظراً إلى أن التطور التكراري لتصوير القائد كان عملية حساسة ومصنفة سرية بدرجة عالية، فقد حددت إسهام الأركان واقتصر على حفنة من كبار الضباط. وقد أشرف جين شخصياً على عسكري خيال في ورشة العمليات وهو ينتج الصور والرسومات.

كنت أعرف أنه سيكون هناك تعديلات على الخطوط والشرائح، من إضافات، وتعزيزات، واستبدالات، ونحن نشرح تكرارات البيان العملي في المستقبل. وعندما تفحصت العمل الذي أنتجه أركاني تحت أقصى قيود زمنية، اعتقدت، على الرغم من ذلك، بأننا كنا نملك نموذجاً كان يمكن له أن يحرز نصراً حاسماً، إذا قرر الرئيس أن الوقت قد حان لإزالة صدام حسين ونظامه من السلطة.

وسأل جين: "هل هو استعراض مبهرج كثير جداً على وزير الدفاع، أيها

الجنرال؟"

وقلت: "لا، أنا أعتقد أنه سيحبه. هذه معلومات مهمة، معقدة، من دون زخارف

إضافية ملصقة للتأثير في المستمعين فقط. إنها مكتوبة بالإنجليزية، وقد تجنبتم استخدام المختصرات." إن رامسفيلد يمتلك فترة اهتمام لمدة خمس ثوان في صور الإيجاز التي تستخدم زخارف باروكية لتوضيح الواضح. وقلت: "أنت لا تعرض لوزير الدفاع لوحة تشرح له أن الدائرة حلقيّة، ولكنه سيكون مهتماً بهذا."

ومهتمّاً كان فعلاً. فمؤتمرنا بالاتصال من بعد المصور بالفيديو في الأصل التالي، كان حسب البرنامج لمدة خمس وأربعين دقيقة، واستمر إلى ضعف المدة المحددة له.

وسألني رامسفيلد عندما أكملت الإيجاز: "جنرال فرانكس، ماذا بعد؟"

كنت على وعي بأننا قد نتحرك من التصوري إلى العملي في أي وقت، ولذلك اخترت كلماتي بعناية. وقلت: "سيدي الوزير، نريد أن نبدأ الآن بتحسين وضع قوتنا في المنطقة."

وقال رامسفيلد: "لم يتخذ الرئيس بعد قراراً بالذهاب إلى الحرب، ونحن لا نستطيع أن نتخذ أي إجراء يلزم الأمة بأن تفعل ذلك."

ذلك كان مفهوماً. ولكن إذا كان هناك ولو فرصة لمهاجمة صدام في المستقبل المنظور، فإن هناك خطوات كنا نستطيع أن نتخذها لتقوية وجودنا في المنطقة، من دون أن نُظهر يدنا، ونوايانا ومواردنا الخفية. "سيدي الوزير، نحن نستطيع أن نضاعف حجم قوتنا الأرضية التقليدية إلى ثلاثة أضعافها في الكويت بصفقتها سوراً ضد سوء الحساب من صدام، بينما نستمر في العمليات في أفغانستان. ونستطيع أن نزيد عدد مجموعات المعركة لحاملة الطائرات في المنطقة من واحدة إلى ثلاث، ندورها دخولاً وخروجاً، ولكننا نمتلك دائماً ثلاث مجموعات ضمن مسافة ملاحية قصيرة إذا تطلبت الأحداث قدرة جوية أكبر. ونستطيع أن نبدأ بإجراء تحسينات في البنية التحتية في المنطقة. ونستطيع أن نبدأ بمناقشة متطلبات الطوارئ مع بعض حلفائنا، من دون إلزام أمريكا بالحرب."

ديك مايرز كان يدون ملاحظات في أثناء كلامي، وأدركت أن توصياتي في أصيل هذا اليوم قد تصير سياسة في الغد. وذكرت نفسي، كن حذراً بشأن ما تتمناه، فإنك قد تحصل عليه تماماً.

وسأل رامسفيلد: "إلى أي حد ستكون هذه النشاطات مرئية؟"

"سيدي الوزير، زيادة الجند في الكويت ستُرى على أنها تمارين للتدريب، ونستطيع أن نوّقت رحلات الحاملة بطريقة لا تلفت إلا أقل الانتباه. أنا لا أتصور لحظات سي ان ان، ولكن ليس هناك ضمان."

لقد روت الاستخبارات أن صدام حسين ومستشاريه العسكريين كانوا يقبلون ما يشاهدونه في سي ان ان بوصفه وثيقة مقدسة، مفترضين أن قناة الكبل ستروي كل التطورات الحيوية. وبالنسبة إلى العراقيين، ربما كانت الصحافة الغربية المفتوحة أقل فائدة من الناحية السياسية من الصحافة العربية ومن شبكة الجزيرة، ولكنها كانت محل ثقة أكبر.

"أنا أفكر، سيدي الوزير، على أساس التدفقات المتقطعة: انبثاقات من النشاط تليها فترات من انقطاع النشاط. نريد للعراقيين أن يتعودوا على التمدد العسكري، ثم التقلص الظاهر."

كنت أحرك يدي المفتوحة صعوداً ونزولاً. "إنني أرى هذا مثل موجة جيبيه: ذراً ووديان. إذا لم يحدث شيء طوال أسابيع قليلة بعد دفقة قصيرة فإنهم سوف يعتادون علينا ونحن نضبط مستويات قوتنا. هل تتذكر الولد الذي صاح لوجود الذئب؟ نحن الآن نمرحل الكثير من عملياتنا في أفغانستان من الخليج. ولن يلاحظ أحد إن كنا ضاعفنا عدد الطائرات بي-1 وبّي-52 القاذفة في ديبغو غارسيا أو في عمان."

وأومأت مرة أخرى وكأنني كنت أدفع ثقلاً.

وأضفت: "ونستطيع أيضاً أن نمدد قاعدة معداتنا، وأنا أود أن أحرك الأسلحة

والتجهيزات التي هي لدينا في مواقع مسبقة في قطر إلى الكويت. وإذا استخدمنا سفن الجيش العاملة داخل المسرح لتفعل هذا، فإننا سنتمكن من نقل الدبابات، وعربات برادلي، والمدفعية للواء كامل من دون أن ترتفع حواجب أحد متفاجئاً أو معترضاً.

وتمتم الوزير: "مثير للاهتمام، وكم سيكلف كل هذا، يا جنرال فرانكس؟" المال مع رامسفيلد، كان دائماً يشكل قضية. وقلت: "كثيراً. سوف أعود إليك ومعني رقم."

كنت قد بدأت، طبعاً، من قبل في التفكير في المال. فأنا سأحتاج إلى تأسيس قوة مهام مشتركة للعمليات الخاصة إما في قطر أو في الكويت بأسرع ما يمكن، وكنت آمل أيضاً أن أشحن موقع القيادة الجديد للقيادة المركزية، وهو الموقع القابل للانتشار، إلى قطر عندما يكون قد اكتمل، وتكون كل نظم المعلومات قد اختبرت. وكانت القيادة توسع بثبات مواقع أقدامها العملياتية في قطر طوال ثلاثة أعوام. وقد أكملنا حوالي 70 بالمائة من البنية التحتية للجند، في موقع التخزين المسبق للجيش في معسكر السيلية قرب الدوحة، أكملناها بالمهاجع، وقاعات طعام، وحتى بالمسبح وقاعة الألعاب الرياضية. وهكذا تستطيع قطر أن تمتص عملية تقوية الحشد. وإذا كنا سنزيد حضورنا العسكري إلى مستوى قابل للتصديق، فسوف نحتاج أيضاً إلى حملة مشاة بحرية بقوة لواء تتمركز قبالة الشواطئ على ظهر السفن. والمزيد من طيران القصف سوف يحتاج إلى المزيد من طائرات صهاريج إعادة التزويد الجوي بالوقود وإلى قدرة معززة من البحث والإنقاذ القتالي... وهذه القائمة، كما يقولون، استمرت تطول وتطول.

وسأل رامسفيلد: "كم سيستغرق كل هذا؟" لقد بدأنا هذا الغزل قبل أسبوعين سابقين بصفته تمريناً تصورياً، ويريد الوزير الآن أن يعرف كيف يبدو خط الوقت. وقمت بعمل بعض الحسابات السريعة. "سيدي الوزير، إذا عملنا هذا باستخدام التدفقات المتقطعة فسوف تنتهي مع حوالي مائة ألف من الجند، ومائتي دبابة،

ومائة طائرة عمودية هجومية، ومائتين وخمسين طائرة قصف في حوالي ستة أشهر. وهذه القوة ستصير هي القوة الثابتة في المسرح. ونستطيع أن ندرّبها، ونمرّنها، ونثير غيوماً من الغبار في الصحراء. ويمكن لمحنة سي ان ان أن تحصل على يوم أو يومين يقطعان الأنفاس. ولكن تلك القوة لن تستفز صدام إلى رد فعل سيئ الدراسة.

واستمع رامسفيلد بتفكر.

وتابعت: "ستكون هذه القوة، سيدي سوراً ضد اللّايقين. كل هذه القوة أو بعضها قد تدعو إليها الحاجة في الصومال، أو السودان، أو أفغانستان. مع قوة من ذلك الجحيم، تستطيع أن تضيف بسرعة قوات أرضية، وأن تنمي العنصر الجوي ليصل إلى حملة جوية من العديد من الأجنحة، وأن ترسل إلى المنطقة مجموعات قتال إضافية مع حاملة عندما تدعو الحاجة إليها.

وتابعت، وديك مايرز ما يزال يدون ملاحظاته. "مع فرقة ثقيلة من الجيش ومع زيادة في القيادة والسيطرة، وإضافة التفاصيل المتنوعة... مع مرور الزمن، سيكون لدينا حوالي أربع مائة طائرة هجومية، ومائتين وستين طائرة عمودية هجومية، وخمسمائة وخمسين دبابة، ومائتين وثلاثين ألف جندي في المنطقة."

وقال رامسفيلد: "كل تلك القوات لا تتسلك في الكويت"

"ليس اليوم، سيدي الوزير. ولا تستوعب الطيران المتمركز على قواعد أرضية. ونحن لا نريد كل الطائرات هناك. فالكويت قريبة جداً إلى الصواريخ العراقية وأسلحة الدمار الشامل. ولذلك فسوف نحتاج إلى تعزيز إقامة القواعد في الخليج من أعلاه إلى أدناه."

قال رامسفيلد مبتسماً: "أيها الجنرال، هذه بداية جيدة، ولكنني أحتاج إلى المزيد من التفاصيل قبل أن أحملها إلى الرئيس. أنا لا أعرف ماذا سيقدر أن يفعل، ولكنك تحتاج إلى العمل بسرعة أكبر من السرعة التي يعمل بها العسكريون عادة."

نظرت ثانية إلى جين، لقد كنا نكرر هذا التمرين في فترات قصيرة تدوم كل واحدة منهما أسبوعاً واحداً، لقد كان من الصعب أن نتخيل التحرك بأسرع من هذا. وشرحت أنني كنت سأغادر في غضون أسبوع لحضور حفل تنصيب حامد قرضاي في كابول. "سيدي، أحتاج إلى بعض الوقت لأصفي افتراضاتي وأحلل العناصر التي حددناها بوصفها عناصر ضرورية لتنفيذ هذا التصور. أنا أوصي بأن نبدأ العمل بين الوكالات وسيكون ذلك ضرورياً مع الخارجية ومجتمع الاستخبارات." لقد قال رامسفيلد: "دعنا نتحدث في الأسبوع القادم. أريد هذا أن يُعمل بأيدي مجموعة صغيرة جداً. ما يزال يوجد الكثير من المسربين، ويجب ألا يتسرب شيء من هذا. شكراً، للجميع." وأظلمت الشاشة.

في صباح الأربعاء، 19 كانون الأول/ ديسمبر، تحدثت باختصار إلى الوزير رامسفيلد قبل مدة قليلة من مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو مبرمج مسبقاً، كنت سأقدم فيه إلى الرئيس بوش تقريراً عن الحالة في أفغانستان.

وقلت له: "لقد قتلنا الكثير من الطالبان والقاعدة، سيدي الوزير. ويتجه الإرهابيون حرفياً إلى التلال، باتجاه ملاجئهم التقليدية في جبال سبن. وقد تلقينا معلومات استخباراتية تروي أن مئات من الإرهابيين من الحركة الإسلامية في أوزبكستان قد قتلوا في أثناء هجمات تحالف الشمال في تشرين الثاني/ نوفمبر."

وقال رامسفيلد: "إن الرئيس كريموف سيكون مسروراً، أيها الجنرال. هل تحرز تقدماً في العراق؟"

كنت أود أن أكون مستعداً استعداداً جيداً للتكرار التالي، وكنت أعرف أن جين وجيف كيمونز كانا يستطيعان استخدام الوقت الذي سأمضيه في منطقة المسؤولية للعمل على المصفوفة. "سيكون لدي شيء ما أعرضه عليك عندما أرجع في 27 كانون الأول/ ديسمبر، سيدي الوزير."

وقال رامسفيلد: "إن الرئيس سيرغب في أن يرى التصور قريباً، أيها الجنرال."

توقفنا في مسقط في عمان، في وقت متأخر من 20 كانون الأول/ديسمبر. وكان لدي كدسة من الإضرابات الملقاة أمامي أرسلت بالناسوخ (بالفاكس) إلى طائرة سبار6، كي أستطيع مراجعة أحدث تكرار على مدى الأيام القليلة القادمة بعد أن زرنا الجند في أفغانستان وحضرنا حفل تنصيب قرضاي.

لقد قام جين والمجموعة القليلة معه من المخططين بعمل جيد، وقد تم وضع التفاصيل الآن للمراحل الأربع المقترحة للحملة، في طريقة مشابهة لتلك التي وضعت لتصوير أفغانستان، والتي أخذتها إلى البيت الأبيض في 21 أيلول/سبتمبر. وأمامنا طريق طويل علينا أن نمشيه قبل أن يصير هذا التصوير خطة، ولكنني كنت واثقاً أن ذلك التصوير سيكون جاهزاً لينظر فيه الرئيس عندما يحين زمن رحلة عودتنا.

هبطنا في ماكديل متأخرين بعد عصر يوم 27 كانون الأول/ديسمبر. كان لدي حوالي عشرين دقيقة لأنظف طاولتي عندما هاتفني بيت بيس ليخبرني أن وزير الدفاع يرغب في مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو مأمون ليستعرض التصوير.

عندما أنهينا اللوحة الأخيرة من لوحات الإيجاز الست والعشرين تبسم رامسفيلد. وقال: "عمل جيد، يا جنرال." وانتظرت من أجل القرار الآخر. "سيرغب الرئيس في رؤية هذا قريباً، ربما غداً. هو في كراوفورد بمناسبة الإجازات." وخمنت أن رامسفيلد سيرغب منا أن نعد مؤتمراً بالاتصال من بعد مصور بالفيديو من ماكديل. ولكنني كنت أعرف أيضاً أن الرئيس كان يحب أن يراني وجهاً لوجه عندما كنا نناقش القضايا المهمة. وسألت: "هل تريد منا أن نبرمج مؤتمراً بالاتصال من بعد مصوراً بالفيديو؟"

وقال رامسفيلد: "قد يرغب في أن تأتي أنت إلى كراوفورد. سوف أعلمك." في ذلك المساء، كنت أشوي شرائح لحم عندما هاتفني رامسفيلد عبر هاتف المفتاح الأحمر المأمون.

وقال: "الرئيس يرغب فعلاً في أن تعمل الإيجاز هناك في كراوفورد غداً. سوف يقابلك في المزرعة في الساعة 8.30 قبل الظهر."

"فهمت، يا سيدي الوزير. سأقابلك هناك."

"لن أكون هناك، يا جنرال. ولكنني سأكون موجوداً من خلال مؤتمر مأمون بالاتصال من بعد مصور بالفيديو."

سيكون أمراً غير مألوف للغاية بالنسبة إلى قائد مقاتل أن يقابل الرئيس من دون أن يكون وزير الدفاع حاضراً. ولكنني كنت أعرف أن الوزير كان سيذهب إلى خلوته الغربية الخاصة قرب تاوس في نيومكسيكو، من أجل الإجازات، ولذلك اغتتمت الفرصة لأمازحه قليلاً. وقلت: "حسناً سيدي الوزير، أنا لن أذهب ما لم تذهب أنت."

وقال رامسفيلد: "هو لم يطلبني. طلبك أنت. البس لباساً غير رسمي، يا جنرال، وقد يتوجب عليك أن تتحدث إلى الصحافة."

وقلت: حسناً، سيدي. ولكنني منزعج جداً. فأنا غير متأكد من أنني سأعمل بدونك بوصفك غطائي الأمني.

ضحكنا كلانا. وقال رامسفيلد: "ستعمل عملاً حسناً."

هبطت طائرة القوات الجوية غلف ستريم جي-5 في مدينة واكو في الساعة 0800. وكنت قد نمت بعد الإقلاع، لأعوض عن النوم الضائع من جراء اختلاف خط الطول، وهذه رحلة جراح الرحلة عن الاضطراب المؤقت في إيقاعات الجسم نتيجة الطيران بسرعة عالية في الطيران النفاث في مناطق توقيتات زمنية مختلفة، بينما عكف جين رينيوارت على مراجعة ملاحظات الإيجاز. طائرة الرئيس العمودية، البحرية رقم واحد، كانت تنتظر بالقرب من طائرة القوات الجوية رقم واحد لتأخذنا في رحلة طيران قصيرة إلى كراوفورد. لقد استمتعت بمنظر سهول تكساس الوسطى وهي تتداح تحتنا. وبعد ملازمة الأرض على مهبط الطائرة العمودية في

براري تشابل رانش، ركبنا في سيارات اس يو في لنذهب إلى مجموعة البيوت المتقلة الرمادية التي تشكل مجمع المكاتب للبيت الأبيض الغربي. وعندما كنا نسوق طار سرب من السمان خارجاً من أجمة أشجار صغيرة. فأحسست كأني في البيت.

عندما وصلنا، خطا جورج بوش خارجاً من واحد من هذه المكاتب المسبقة الصنع، وهو يرتدى الجينز، وقميص مربعات، وحذاء له رقبة. كان صباحاً بارداً، وكنت سعيداً أني لبست السترة السوداء ذات الفروة فوق بزتي الخفيفة وهي البزة الصحراوية المموهة. وقال الرئيس وهو يهز يدي بحرارة "تومي، شكراً على مجيئك. أعرف أنك كنت في جولة." وحيا جين رينيوارت. "أيها الجنرال، عظيم أن أراك ثانية. أنتم الناس الذين تعنون عناية جيدة بتومي؟"

وقال جين: "هو الذي يعتني بنا، سيدي الرئيس."

ودخل الرئيس بوش ودخلت أنا إلى منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة في البيت المتقل المزدوج الثاني. وأخذ مقعداً على رأس طاولة البلوط الصغيرة، في مواجهة شاشة بلازما واسعة عند نهاية الغرفة لمؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو. وجلست أنا إلى يمينه. وأول أمر عن العمل كان تقرير عن الحالة في أفغانستان. ثم لمس الرئيس زراً على خزانة سوداء، وفتحت الشاشة إلى مستطيلات منفصلة لأعضاء مجلس الأمن القومي في أماكن أخرى من البلاد.

كان كولن باول، وكوندي رايس، وجورج تيننت، وأندي كارد يجلسون في غرفة الموقف المألوفة المكسوة بالخشب في البيت الأبيض. ونائب الرئيس ديك تشيني، وهو يلبس معطفاً رياضياً برقبة عالية، كان في إجازة في بيته في وايومنغ. وظهر دونالد رامسفيلد مما بدا لي أنه غرفة مكتبه في بيته في المزرعة في تاوس، وقميصه الأبيض مفتوح عند القبة.

وسأل الرئيس: "وما هو جدول الأعمال. يا دون؟"

"سيدي الرئيس، الجنرال فرانكس قد رجع قبل قليل من أفغانستان ويود أن يعلمنا عن الحالة هناك حتى تاريخ اليوم."

واستدار جورج بوش نحوي وتبسم. "تومي، ما هذا الذي أسمعك أنك تتجنب الصواريخ فوق كابول؟"

أوه. هناك شخص ما كان يروي القصص خارج المدرسة. "لا يوجد شيء خطير، سيدي الرئيس، سبق أن أطلقت النار علي من قبل."

وقال الرئيس بوش، وهو يحرك أصبعه من جانب إلى جانب: "يا تومي، لا أريدك أن تذهب لتقتل نفسك. ذلك هو آخر شيء نحتاج إليه. يوجد عمل لك، وهو عمل مهم."

وقلت وأنا أبتسم: "فهمت، سيدي الرئيس." اللوم الأول الذي أتلقيه من رئيس الولايات المتحدة.

واستمر الرئيس: "كيف تسير الأمور في أفغانستان، يا تومي؟"

"حامد قرضاي يرسل احتراماته، سيدي. وكان حفل تنصيبه منظرًا يستحق المشاهدة. قبل شهرين، كانت أفغانستان دولة يرعاها الإرهابيون. واليوم، هناك ستة وعشرون مليون أفغاني يملكون الأمل في المستقبل."

قال جورج بوش: "إنه رجل طيب." ولكن الخفة اختفت من عينيه بعد لحظة، واستبدل بها تركيزاً حاداً. "ما هي المعلومات الاستخبارية عن أسامة بن لادن؟"

"تقارير غير مؤكدة تقول إن أسامة بن لادن شوهد في الجبال البيضاء، سيدي. منطقة تورا بورا بلاد وعرة، لا يمكن الوصول إليها تقريباً في منتصف الشتاء. سوف نستمر في الضغط عليه إذا كان هناك، والرئيس مشرف كلف قواته أن تغلق جانبهم من الحدود."

وبعد أن أنهيت العمل على البنود الموجودة في خلاصة تقريرتي، أخذنا استراحة في حين غادر أعضاء مجلس الأمن القومي ومساعدو وزارة الدفاع، وتركوا خلفهم الرؤساء فقط ليتابعوا المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو. وخرجت أنا في هواء الصباح المنعش لأمدد ساقي المتصلبة، ثم عدت ودخلت منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة مع جين رينيوارت لنسلم تصور القائد الأولي عن العراق.

وسأل رامسفيلد: "كل واحد يمتلك لوحاته للإيجاز؟" سأل وهو يمسك ويرفع إلى الأعلى كدسة من الصفحات المتعددة الألوان كانت قد أرسلت إليهم بالناسوخ (الفاكس) السري المصنف. وفي هذا الوقت كان يعرف الإيجاز مثلما أعرفه أنا. "جيد، تابع يا جنرال فرانكس."

وبدأت: "سيدي الرئيس، خطتنا الحالية للعراق تسمى خطة العمليات 1003، وكانت قد حدثت آخر مرة في 1998. وكما أخبرت الوزير رامسفيلد، فهي أساسياً عاصفة الصحراء 02.

وبعد تلخيص العناصر الرئيسية في الخطة، لخصت القوة الحالية للقوات العسكرية العراقية وحالتها في جاهزية القتال. وقلت، وأنا أشير إلى عمود من الأرقام على شريطة: "في بداية الحملة الجوية في العام 1991، كان لدى العراقيين أكثر من مليون رجل في اللباس العسكري. أما اليوم فلديهم حوالي ثلاثمائة وخمسين ألف رجل. كان لديهم آنذاك ثمان وستون فرقة، واليوم ثلاث وعشرون. ستة آلاف دبابة تقريباً في العام 1991، واليوم يقدر العدد بألفين وستمائة وستين." وتقدمت نزولاً في العمود: 1780 ناقلة جند مدرعة مقارنة مع 4800 في العام 1991. ونزلت مدفعيتهم من 4000 قاذف صواريخ ومدافع إلى حوالي 2700، وهي أصغر ولكنها ما تزال تهديداً خطيراً لقوة مهاجمة.

وسأل نائب الرئيس تشيني: "جنرال فرانكس، أنت وصفت قوة عراقية هي حوالي نصف حجم ما كانت عليه عندما بدأت حرب الخليج. هل هذا يعني أن فعاليتها هي أيضاً نصف ما كانت عليه؟"

منذ 9/11، حضرت أربعة إيجازات رئاسية وأكثر من عشرين مؤتمراً بالاتصال من بعد مصور بالفيديو المأمون مع الرئيس ومع مجلس الأمن القومي. لم يسأل ديك تشيني قطعياً أكثر من سؤال أو سؤالين في إيجاز، ولكنها أسئلة كانت بشكل مستمر تقطع لتصل إلى صميم القضية قيد البحث في أيدينا. وهو دائماً ينشد معلومات

يمكن لها أن تزيد من فهم الرئيس بوش لنقطة مهمة. كان تشيني هو وزير الدفاع في حرب الخليج، وكنت أعرف أن بوش يكن له احتراماً كبيراً.

وأجبت: "سيدي، أصغر لا يعني بالضرورة أضعف. فالحرس الجمهوري على سبيل المثال، قد هبط من عشر فرق إلى ست. ولكن هذه الوحدات مزودة جيداً بالرجال وبالسلح، وهو ما نسميه جاهزية القتال. أربع منها فرق ثقيلة، مع دبابات محدثة طراز تي-72. والعقيدة العسكرية العراقية ربما تصفها بصفة قوة دفاع في العمق حول بغداد."

وعندما أكملت خلاصتي، كان دور الرئيس لي طرح الأسئلة "ماذا ترى في الخطة، يا تومي؟"

"سيدي الرئيس، إنها قديمة العهد. فهي تدعو إلى مستويات من الجند تصل على الأقل إلى أربع مائة ألف، وهو ما يتطلب حشداً للقوة ظاهراً للعيان جداً لمدة ستة شهور. وهذا بالتأكيد يستأصل المفاجأة العملياتية."

وقال الرئيس: "أنا أفهم ذلك."

وتابعت: "سيدي، ليست القوة العسكرية العراقية أصغر فقط مما كانت عليه في العام 1991، فالتقدمات في أسلحتنا الدقيقة والقيادة والسيطرة تجعل قواتنا أقدر بكثير مما كانت عليه في ذلك الوقت، على الرغم من أننا خفضنا القوة العسكرية الإجمالية النهائية منذ نهاية الحرب الباردة."

واجهت أعضاء مجلس الأمن القومي وتابعت تقديم إيجازي. "الرئيس والوزير رامسفيلد قد طلبا من القيادة المركزية أن تطور تصور القائد - خيارات لمواجهة الطوارئ في العراق."

واستدرت إلى اللوحة المسماة التصور المهيمن. "أرجو أن تلاحظوا أن تغيير النظام وإزالة أسلحة الدمار الشامل هما الافتراضان العمليان لهذا التصور."

وكان هناك تتممة موافقة على مدار الحلقة.

وصارت لوحة خطوطي وشرائحي جزءاً رئيسياً من العرض. وقلت: "تبين هذه المصفوفة التآزر بين خطوط العملية. فعلى سبيل المثال، إذا كان لدينا قوات عمليات خاصة متعددة، وعالية المهارات، وحددت أهدافاً لذخيرتنا الموجهة الدقيقة، فإننا سنتحتاج إلى قوات أرضية تقليدية أقل. وذلك درس مهم تعلمناه من أفغانستان".

ومرة أخرى أوماً برؤوسهم المشاركون في المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو.

وتابعت: "وزيادة على ما تقدم، فإن المفاوضات الدبلوماسية الناجحة التي أمّنت لنا إقامة القواعد وترتيب التمرحل في البلاد المجاورة، سوف تسمح لنا بالمزيد من العمليات الجوية والأرضية المتزامنة. وأنا أرى هذه الحملة في أربعة أبعاد، مع كون الزمان، أي، السرعة غير المسبوقة للعملية، عاملاً رئيسياً".

وتتابعت أسئلة الرئيس بوش طوال الإيجاز. وقد سأل عندما أنهيت العرض: "ما هي أهدافك في الجيش العراقي النظامي؟ فنحن لا نريد أن نتسبب في وقوع إصابات غير ضرورية بين العراقيين الذين جندهم صدام حسين ضد إرادتهم".

وأجبت: "سيدي، هذا فقط تصور عند هذه النقطة. لقد حددنا مجموعات أهداف ممكنة، وليست أهدافاً نقاطاً".

وسأل كولن باول: "يا تومي، ما نوع خطوط زمن الانتشار التي في ذهنك؟"

وتفرست في الوجوه على الشاشة. لقد ركز كولن على واحد من أهم عناصر الإيجاز، ولا مفاجأة في ذلك، وقد جاء السؤال من الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة. وأجبت: "بالضبط مثل أفغانستان، لقد قسمنا هذا التصور إلى أربع مراحل".

وعندما رتب جين الصفحات الأربع سميتها:

"المرحلة الأولى- الإعداد. المرحلة الثانية - تشكيل فضاء المعركة. المرحلة الثالثة - العمليات الحاسمة. المرحلة الرابعة - عمليات ما بعد الحرب".

ركزت كوندي رايس على العنصر الإستراتيجي من التصور. وسألت: "ياجنرال فرانكس: خطوط الزمن كلها افتراضية، أليس كذلك؟ أرى أن المراحل تبدأ باليوم-ان (ن)، وهو المشار إليه باسم - قرار رئيس الولايات المتحدة" كانت على حق. خط الزمن التصوري تحرك على طول متسلسلة متصلة مبتدئاً بيوم-ان، وهي اللحظة التي يتخذ فيها الرئيس بوش قرار التحويل بالقيام بالحشد العسكري في المنطقة، وسوف ننذر الجند ونعد لنقلهم من قواعد أمريكية إلى المنطقة. ومن هناك، كانت المتسلسلة تجري إلى اليوم-سي^(*) عندما سيبدأ تدفق القوات، فإلى اليوم-ايه (air، جوية)، وهو بداية العمليات الجوية، ومن هناك إلى اليوم-جي (ground أرضية)، عندما سيتم الشروع بالعمليات الأرضية، وإلى نهاية عمليات القتال الكبيرة وإطلاق المرحلة الرابعة، وهي إعادة البناء.

وعلى اللوحة التي أعدها، كان طول الأسهم التي تربط العلامات القياسية يوحي بمددها الزمنية المقترحة. ولكن كل سهم كان عليه علامة س (اكس) - أيام للتأكيد أن الزمن الحقيقي لم يتقرر بعد. وحتى الآن، كان هناك ببساطة متغيرات عديدة: حجم القوة؟ عمليات متزامنة أم متتالية؟ وهي أكثر تعديداً من أن نقتراح توقياً مع أي درجة من اليقين.

بعد ذلك ناقشت الحالة النهائية لكل مرحلة، وهي الغايات التي يجب إكمالها قبل الانتقال إلى الخطوة التالية. في المرحلة الأولى، تضمنت الحالة النهائية تأسيس "جسر جوي" لنقل القوات إلى داخل المنطقة. وتأمين "المساندة الإقليمية والدولية للعمليات." وعند هذه النقطة، توقع التصور عمليات جوية منفصلة في المرحلة الثانية من أجل تشكيل فضاء المعركة قبل أن يكون بالإمكان بدء العمليات الأرضية. وكان لدي أفكار عن الكيفية التي كان يمكننا بها أن نقصر هذا المدخل

(*) هو اليوم غير المسمى الذي يبدأ فيه انتشار عملية، أو يوشك أن يبدأ. وقد يكون الانتشار تحريك جند أو حمولات شحن أو أنظمة أسلحة أو خليطاً من ذلك. وحرف سي هو فقط المستخدم للدلالة على المبدأ أعلاه. والقيادة العليا أو المقار المسؤولة عن التخطيط هي التي تحدد بدقة معنى يوم-

التقليدي ونبدله، أو كيف يمكن حتى مزجه ليصير عملية جوية-أرضية مشتركة متزامنة، ولكنني لم أكن قد أردت بعد أن أناقش هذه الإمكانيات مع الرؤساء. كنا ما نزال نتحدث عن التصور، لا عن خطة، كان لدي عمل لأعمله مع دون رامسفيلد قبل أن نستطيع الدخول إلى ذلك المستوى من التفاصيل. والحالة النهائية للمرحلة الثالثة حددت غايتين واضحتين جداً: "قوات النظام هزمت أو استسلمت"، و"قادة النظام موتى، أو موقوفون أو مهمشون".

كان مفهوماً أن المرحلة الختامية، المرحلة الرابعة: بعد عمليات الحرب، سوف تدوم لتكون هي المرحلة الطولى: لسنوات، لا لشهور. ولذلك فإن الرسامين العاملين لدى جين رينيوارت قد قسموا السهم العريض الخاص بتلك المرحلة إلى قطاعات، وعلموا مدتها الزمنية بكلمة غير معروف بدلاً من س- أيام. وتضمنت الحالة النهائية للمرحلة الرابعة إقامة شكل تمثيلي من الحكومة في بلد قادر على حماية حدوده الإقليمية وإقامة الأمن الداخلي، بدون أسلحة الدمار الشامل.

وكنيت أعني أن تلك المرحلة الرابعة قد تثبت، في احتمال عال لها، أنها أكثر تحدياً من عمليات القتال الكبيرة. فهذه المرحلة سوف تستفيد فائدة كثيفة من معلوماتنا، ومن خطوط العمليات السياسية- العسكرية والمدنية العسكرية، ومن جملتها جهد المساعدة الإنسانية الضخمة، إضافة إلى "الاستغلال" الشديد للموقع (تحقيق وتحليل) من قبل خبراء أسلحة الدمار الشامل وخبراء الاستخبارات. وإضافة إلى ذلك سيكون حيويًا لنا أن نحصل على الدعم الذي نأمل أن نؤمنه من المجتمع الدولي، ومن المنظمات غير الحكومية.

وكنا نعرف أن صيانة الأمن الداخلي ستكون تحدياً آخر. إن بعثي صدام داموا في السلطة ثلاثة عقود. وهم لن يتخلوا عن تلك السلطة بدون قتال، حتى بعد أن نكون قد دمرنا القوة العسكرية العراقية.

وعندما وصلت إلى نهاية الإيجاز، لخصت الخيارات الثلاثة التي سبق لي أن عرضتها في البداية على رامسفيلد قبل أسابيع خلت، الخيارات القوي، والمخفض والأحادي، ومضامين كل خيار منها.

وشرحت: "حتى في الخيار الأحادي فإن البريطانيين والأستراليين سيكونون معنا. وسوف نبدأ العمليات الأرضية بجند قليل يبلغ مائة ألف، ونستمر في بناء مستويات قوتنا طالما يكون ذلك ضرورياً للنجاح. وسيكون المفتاح هنا هو أن نتابع تدفق القوات إلى أن نكون واثقين أننا نمتلك المعدل الصحيح بين الجند والمهمة."

وأشرت إلى خط الزمن س- أيام. "نحن نريد عمليات أرضية متزامنة من الكويت، والأردن، وتركيا إذا كنا نستطيع الحصول على ذلك. وأنا واثق من محادثاتي مع الكويتيين ومع الملك عبد الله أننا نستطيع أن ننشئ القواعد، ونرتب التمرحل للقوات في الكويت والأردن، ولكنني أقل ثقة بكثير في الأتراك."

ومن هناك، توجهت المحادثة إلى الكيفية التي نستطيع بها أن نبدأ في "تعديل" أي، تخفيض درجة الدفاعات الجوية العراقية عن طريق الرد "بقوة شديدة" على الخروقات العراقية في مناطق حظر الطيران. ولخصت أيضاً اتفاقاً مع الوزير رامسفيلد في موضوع البدء في تحسين البنية التحتية للقيادة المركزية في الخليج، وزيادة حيز التحميل في القواعد الجوية، وشحن التجهيزات المخزنة مسبقاً في مواقع من قطر إلى الكويت، وإكمال مركز قيادتنا القابل للانتشار.

وقلت: "سيدي الرئيس، بعد 9/11، سألت أنت العالم: (هل أنتم معنا أم ضدنا؟) إذا كنا سنجرد صدام حسين من السلاح فسوف يتوجب علينا أن نسأل السؤال نفسه لقادة المنطقة. "وكانت هذه نقطة سبق لي وللوزير رامسفيلد أن ناقشناها قبل الإيجاز. "أنا أملك علاقات شخصية مع العديد من هؤلاء القادة، والوزيران رامسفيلد وباول يملكان علاقات حميمة مع آخرين. وستكون الدبلوماسية خطأ جوهرياً للعمليات."

أنصت الوزير باول باهتمام، ولكنه لم يعلق أي تعليق. وكان واضحاً لي أن وزارة الخارجية سيكون لها دور كبير تلعبه في غضون الأسابيع والشهور القادمة. لم أستطع أن أقرأ صمت كولن - إن كان اهتماماً بشأن إمكانية الحرب مع العراقيين، أو إن كان اهتماماً بشأن فرص وزارته في ترتيب اصطفااف التحالف وكسب المساندة من المجتمع الدولي.

ولاحظت أن الخيارات القوي، والمخفض، والأحادي كانت مستندة إلى درجة التعاون التي سنلقاها من كل بلدان المنطقة. والتحرك قدماً للحصول على المساندة المطلوبة سوف يتطلب قراراً رئاسياً. وبعد أن نكون قد حصلنا على التعاون الإقليمي، فإننا نستطيع أن نبدأ بناء قواتنا وبناء البنية التحتية في طريقة محسوبة مقيسة: نشاط ذرا ووديان، ونوع الغموض الذي سنحتاج إليه للمحافظة على المفاجأة العملياتية في حالة وقوع الحرب مع العراق.

وبعد ذلك، ناولت الرئيس بيدي صفحتين من الافتراضات كنت قد أعدتها، مع قائمة من البنود التي ستحتاج إلى قرارات رئاسية.

والافتراض الأول من بين افتراضاتي هو أن العراق كان يمتلك وكان سيستخدم أسلحة الدمار الشامل، ولذلك فإن قواتنا ستقاتل على وجه الاحتمال في بيئة مسممة. والعمليات الاستخباراتية سوف تحاول أن تؤكد مدى ومواقع برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية وعقيدة النظام في استخدام أسلحة الدمار الشامل، ولكنني بدون البنية التحتية الاستخباراتية البشرية القوية، التي لم نكن نمتلكها، لم أكن واثقاً من أننا كنا سنستطيع أن نستبق استخدام أسلحة الدمار الشامل.

كان هناك جماعات معارضة داخل العراق، ويحتمل أن تدعم العمليات العسكرية لإزاحة صدام. وكان بالإمكان تنميتها من خلال العمليات السرية التي كان يستطيع الرئيس أن يأمر بها.

وتابعت: "سيدي الرئيس، كما هو الحال في أفغانستان، إن إدارة مفاوضات دولية عمل فوق نطاق عمل العسكريين من أجل تأسيس حكومة مؤقتة واسعة القاعدة سيمكن للشعب أن يقبلها بعد أن تكون قد تمت إزالة النظام. ولكن وزارة الخارجية قامت بعمل عظيم في تحد مماثل في أفغانستان. ومؤتمر بون كان قصة نجاح ضخمة، وأعتقد أن عملاً مماثلاً سيكون مطلوباً بالنسبة إلى العراق." عند هذه النقطة، كنت أستطيع أن أقول من لغة جسم دون رامسفيلد إنه كان يفكر بأنني كنت أناقش مواضيع هي خارج خطي، كان غير مرتاح، ولكنه لم يقل شيئاً، وتابعت الكلام.

وقلت، مثلما كان الحال في حرب الخليج، فقد افترضنا أن العراق سيهاجم إسرائيل بالصواريخ لكي يكسب التعاطف في العالم العربي. ولكن إسرائيل في هذه المرة قد تتأثر، فتوسع بذلك النزاع بشكل خطير. فإذا وافق الرئيس، فإننا سنخفض أو نستأصل هذا التهديد عن طريق زيادة الدفاعات الإسرائيلية بصواريخ باتريوت، ومن خلال الاستخدام المخطط تخطيطاً جيداً لقوات العمليات الخاصة لمنع "سلة إطلاق النار" الصاروخية في العراق الغربي: وهي مواقع الإطلاق المحتملة لتشكيلة من الصواريخ التي إما كنا نعرفها أو كنا نظن أن العراق كان يمتلكها.

بدا لي الرئيس مسروراً من شمولية الإيجاز. وقال بعد أن ختمت كلامي: "يا تومي، يا له من عمل." وكدس لوحات إيجازه. وقال لرامسفيلد: "يا دون، استمر في العمل في هذا التصور. إنه موجه في الاتجاه الصحيح."

وقال رامسفيلد: "سنستمر في ذلك، سيدي الرئيس. ولكننا لا نوصي بالحرب أو بتوقيات الحرب، مجرد خطوات تحضيرية حصيفة."

أوماً الرئيس برأسه موافقاً، ثم استدار نحو مدير الاستخبارات المركزية. وقال للمدير تينت: "يا جورج، جماعتك قاموا بعمل عظيم في أفغانستان. ماذا لديك في العراق؟"

وقال تينت: "العراق حالة مختلفة، سيدي. قدرتنا الاستخباراتية البشرية ضئيلة. ولدينا الكثير من الجسور لنعيد بناءها مع جماعات المعارضة. لقد احترقوا احتراقاً سيئاً في الانتفاضات الفاشلة بعد عاصفة الصحراء، ونعاني من مشكلة المصادقية." وامتدح تصورنا الجديد للعراق، وقال إن الوكالة ستدعم القيادة المركزية في كل طريق ممكن.

ثم واجهت كوندي رايس آلة التصوير. "يا جنرال فرانكس، أنت أشرت إلى قوة الحرس الجمهوري. فماذا يحدث إذا دافع صدام عن بغداد بهذه القوات؟"

سؤال جيد. وأجبت: "سنقوم بالكثير من التفكير حول مشكلة بغداد في الأيام

الآتية، وحول تكرير أيضاً. هناك طرق لهزيمة تشكيلات العدو المركزة حول المناطق المبنية بدون الذهاب إلى سبطانة مدفع في مقابل سبطانة مدفع. لا أملك الجواب حتى الآن... ولكنني سأحصل عليه." وأوماً جين رينيوارت، وهو إستراتيجي جوي إلى درجة الامتياز، بالموافقة من الطرف الآخر لطاولة البلوط الصغيرة.

وسأل نائب الرئيس تشيني سؤاله الثاني. "يا تومي، إذا كان هناك صواريخ سكود برؤوس كيماوية أو حيوية رابضة في مناطقنا الخلفية، فكيف سيكون رد فعل حلفائنا؟ هل جندنا مدربون ومجهزون على النحو المناسب؟"

وسجلت ملاحظة. وقلت: "سيدي، نائب الرئيس، بالنسبة إلى أسلحة الدمار الشامل، إذا استخدمها صدام فستكون هي أكبر مشكلة تواجهنا. إنني أفهم سؤالك، ولكن عملنا يعوزه التطوير والنضج عند هذه النقطة إلى الدرجة التي تجعله أقل نضجاً من أن أعطيك إجابة جيدة."

وقبل أن ينتهي المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو خاطبنا الرئيس بوش جميعنا. "يجب أن نبقي متفائلين في أن الدبلوماسية والضغط الدولي سينجحان في نزع أسلحة النظام."

وأومأت الوجوه المرتسمة على الشاشة بالموافقة.

"ولكن إذا لم يكن هذا المدخل ناجحاً، يجب علينا أن نمتلك خيارات أخرى. وهذا هو السبب الذي طالبت من أجله الوزير رامسفيلد وتومي أن يعملوا في هذا التصور. إن أسوأ شيء يمكن أن يحدث لأمريكا سيكون مزيجاً من أسلحة الدمار الشامل والإرهاب. لم يكن هناك مفتشون للأمم المتحدة في العراق منذ 1998. ونحن لا نعرف أيّاً من الأسلحة قد طوروا، ولا نعرف نوايا صدام... ولكننا نعرف فعلاً أنه استخدم أسلحة الدمار الشامل من قبل على الإيرانيين وعلى شعبه."

وتوقف الرئيس.

وتابع. "حماية أمن الولايات المتحدة هي مسؤوليتي. ونحن لا نستطيع أن

نسمح بأن تقع أسلحة الدمار الشامل في أيدي الإرهابيين." وهز رأسه. "أنا لن أسمح لذلك أن يحدث."

لقد عبر بيان الرئيس عن حجة أساسية في الحرب العالمية على الإرهاب، وما قاله الرئيس عبر عن معنى كامل بالنسبة إلي. لقد هوجمت أمريكا قبل أقل من مائة يوم في وقت سابق، وقد هزمنا العدو في مسرح واحد. ولكن البلاد لا تستطيع الآن أن تتسحب إلى الكفاءة الدفاعية وتنتظر لتهاجم ثانية، وهذه المرة، يحتمل تماماً، أن يكون الهجوم بأسلحة أكثر تدميراً بكثير من طائرات مدنية مخطوفة.

وفي الخارج في الصباح الوضاء، البارد استدرت لأقول للرئيس مع السلامة. وقال وهو يبتسم: "هيا، يا تومي. اقفز إلى الشاحنة. فنحن سنذهب لنتحدث إلى الصحافة."

سبوت، كلبة الرئيس الإنجليزية ذات الشعر الناعم الطويل الوثابة (سبرنغر سبانيل) كانت في المقعد الأمامي للشاحنة عندما صعدنا إليها، تبصيص بذنبها القصير. أعطت خدي لعقعة، ثم أراحت ذقنها على كتف جورج بوش وهو يسوق السيارة.

قال الرئيس لكلبته: "أنت بنت جيدة." ثم التفت إلي بابتسامة. وأضاف: "في واشنطنون يسميها بعض المراسلين سبوت. أكثر تبجيلاً، على ما أظن. أما هنا فهي سبوتي. وأنا لا أعرف من الذي يحب هذا المكان أكثر أنا أو سبوتي."

كان الصقيع يحرق الأعشاب عندما ارتفعت الشمس أعلى فأعلى. وفهمت لماذا كان الرئيس ولورا بوش يستمتعان بالهرب من إيقاع واشنطنون المحموم إلى المزرعة.

وقفنا عند المنزل المجدد المعروف باسم بيت الحاكم، محل إقامة الضيوف في المزرعة. كان هناك منصب لمايكروفون يقع على بعد حوالي خمسين يارداً عن الطريق المعبد بالحصباء، وفيه تنتظر وسائل البيت الأبيض الإعلامية المسافرة بآلات تصويرها، وهي تجر جر خطاها في برد كانون الأول/ديسمبر.

قفزت سبوتي من مقصورة الشاحنة معنا وهرولت إلى المنصة. وقفت أنا إلى اليسار وكان الرئيس يحيى وسائل الإعلام، وعندما أمالت سبوتي رأسها على ساقي انحنيت لأربت على رأسها.

وقال الرئيس، وهو يسند ساعديه بارتياح على المنصة: "كما تستطيعون أن تروا. لقد دعوت ضيفاً إلى المزرعة. تومي فرانكس ليس غريباً على تكساس." وذكر خلفيتي في ميدلاند- وخلفية لورا- ثم عاد إلى القضية قيد البحث في أيدينا. "لقد عاد تومي قبل قليل من المسرح الأفغاني." وذكر أننا عقدنا مؤتمراً بالاتصال من بعد مع فريق الأمن القومي، وأني قدمت تحديثاً للمعلومات عن أفغانستان.

لقد تحدثنا عن أمور أكثر من أفغانستان في المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو، طبعاً. ولكن نقاشنا عن الخيارات الطارئة للعراق كان حساساً، وتناول معلومات سرية عالية مقسمة. ومثل هذه المحادثات كان يجب أن تبقى إلى حد ما سرية في واشنطن الميالة للتسريب لشهور قادمة، إذا كان لعلاقاتنا الدبلوماسية المتصلة وإستراتيجيتنا العسكرية أن تنال فرصة من النجاح.

وطلب مني الرئيس أن "أقول بضع كلمات."

لاحظت أنني وكاخي قد أمضينا العطلات مع "حشد كبير من الشباب"- من الجنود، والبحارة، ورجال الطيران، والبحرية- في أفغانستان ودول الخط الأمامي لجنوب شرق آسيا. وكانت لنا الفرصة لحضور حفل تنصيب حامد قرضاي وحكومته الانتقالية. وأضفت "لأول مرة في عقود من الزمان"، فإن أكثر من ستة وعشرين مليون نسمة سوف ينالون فرصة للتمثيل الديمقراطي.

وسأل أحد المراسلين الرئيس بوش إن كان أسامة بن لادن قد "تهرب من مطاردته" في جبال أفغانستان. وأجاب الرئيس بقوة وبوضوح، مشدداً على نجاح عملياتنا بطريقته المعتادة الخالية من التوتر والواقعة. "هذا رجل كان قبل ثلاثة أشهر يسيطر على بلاد. وهو الآن ربما يسيطر على كهف. إنه مطارده هارب."

ورجعت الأسئلة إلى خطتنا العسكرية الطويلة المدى في أفغانستان. متى سوف ننسحب؟ وقال الرئيس: "أنا أتخيل أننا باقون هناك لمدة طويلة من الوقت إلى حد ما. ولكن جدولي الزمني سوف يعده تومي فرانكس." وأضاف أنه قد أعطاني "مهمة محددة تحديداً جيداً... وعندما يقول تومي، (المهمة كاملة، سيدي الرئيس)، عندها نبدأ بإخراج جنودنا."

أجبت على بضعة أسئلة أخرى لم أستعد لها عن العمليات في أفغانستان، ثم تحدث الرئيس مطولاً عن نزع فتيل التوتر العسكري بين الهند وباكستان. وأشار إلى نقطة كان لابد منها عندما امتدح الرئيس مشرف بوصفه "معيناً جداً" في الحرب ضد الطالبان والقاعدة وفي مطاردة بن لادن. وقبل أن يختتم الرئيس المؤتمر الصحفي بنجاح عالج نقطة لا بد منها عندما أخبر الصحافة بالقول: "آمل أن يكون العام 2002 عام سلام، ولكنني واقعي أيضاً."

ثم أعلن أنه كان سوف يقوم "بإعطاء تومي جولة في مزرعتي." ومشينا عائدين إلى بيت الحاكم، حيث وقّع فيه الرئيس على قانون مخصصات الخدمات المسلحة للعام المالي 2002، الذي كان ممدوداً على طاولة المطبخ. وأعطاني واحداً من الأقلام التي استخدمها، ثم جلس إلى طاولة المطبخ ليسجل إذاعته الأسبوعية بالراديو.

وعندما أنهى الإذاعة، أمسك بوش باثنتين من كوكا الحمية من الثلاجة وقال: "هيا لنذهب ونركب في جولة في السيارة، يا تومي." ولا بد أن سبوتي قد ميزت كلمة نركب، لأنها اندفعت تعدو أمامنا إلى الشاحنة.

صلصل منشار السلسلة وأدوات الرئيس الموجودة في حوض الشاحنة الخلفي عندما اهتزنا والسيارة تبتعد عن الطريق المعبد بالحصباء لنسير على مسار أوعر نحو قاع صخري لجدول مائي صغير. وقال وهو يشير إلى الأشجار على طول ضفتي المجرى: "الكثير من شجر البلوط الجميل والدردار هنا، يا تومي. ولكن الشجيرات الصغيرة تمنع نموها، لذلك فأنا أزيل الشجيرات. وأحب هذا النوع من العمل."

كان هناك كومة من الأغصان والورد البري المتشابك على جانب حامل جميل من الخشب الصلب. وعبر جدول، رأيت كوماً من الرماد غسله المطر، من بقايا كوم شجيرات صغيرة كان الرئيس قد أزالها وأحرقها في عطلات عيد الشكر.

وعندما أنهينا الجولة في السيارة، قابلتنا لورا بوش في البيت، وهو على شكل هلال مدهش من كتل حجرية كلسية من طابق واحد احتضن ارتفاعاً خفيفاً إلى جانب بركة صيد سمك من عشرة فدادين. ونزل جين، وفان موني، وجيف هينز من سيارات اس يو في للخدمة السرية التي كانت تسير خلف شاحنة الرئيس من نوع اف-250.

وقالت لورا: "ادخلوا. سأطوف بكم في الداخل."

وقادتنا لورا بوش في جولة على الغرف. واشتملت السباكة على نظام مرشح أرضي صديق للبيئة يعيد تدوير ماء حوض الجلي والاستحمام ليسقي المرجة والحديقة. وشرح لنا الرئيس ذلك بالقول: "يمكن أن تصل هنا إلى الجفاف الحقيقي في الصيف، يا تومي، الماء أثمن من أن يهدر."

كان بيت المزرعة مدفاً ومبرداً معاً بالآبار الجديدة الجيو الحرارية، وهي نظام شرحه الرئيس متحمساً. وكان ذلك نافذة ساحرة في شخصية جورج بوش: قبل ساعة من الآن، كان مستغرقاً بالقضايا المربكة للسلام والحرب. وهو الآن منهمك في شرح كفاية عملية التبادل الحراري الذي استغل فروق درجة الحرارة بين الهواء السطحي والدرجات الاثنتين والستين الثابتة عند قعر فتحات التهوية.

قال: "آمل، يا تومي، أنك باق لتناول الغداء."

ونظرت في ساعتني. كان رامسفيلد يريد أن يرى تكراراً آخر من تصور القائد في غضون عشرة أيام. فإذا غادرت الآن، فسأكون قادراً على برمجة جلسة مع كبار أركان التخطيط في هذا الأصيل. وفي الجولة التالية أريد أن أكون قادراً على أن أعرض على وزير الدفاع وعلى الرئيس خيارات عملية، لا مجرد اختيارات افتراضية. وذلك ما سيستغرق عملاً.

وقلت: "آسف، يا سيدي. لدينا الكثير لنعمله اليوم عند عودتنا إلى تامبا."

وعندما أقلعت طائرة البحرية الأولى عن مهبط الطائرة العمودية، كنت أفكر فيما ينتظر في المستقبل. لم يكن هناك يقين أن أمريكا ستذهب إلى الحرب في العراق. ولكن كان يقينا أننا سوف "نهئ الظروف" في المنطقة، ونحسن البنية التحتية العسكرية التي ستسمح لنا أن نشن حملة حاسمة، إذا أمرنا الرئيس أن نفعل ذلك.

والخطوات التي استعرضتها أنا والوزير رامسفيلد، ثم عرضناها على الرئيس بوش، سوف تسمح لنا أن نضع أساساً كافياً لأي حالات طوارئ، بدون تجاوز العتبة وإلزام البلاد بالحرب. رامسفيلد كان صلباً في أن نرسم خطأ في استعداداتنا لا يضغط على الرئيس. وكانت هذه هي الطريقة التي عمل رامسفيلد بها. كلانا اتبع أوامر الرئيس. لقد وافق جورج بوش على سلسلة من الخطوات الأولية كانت ستبني القدرة العسكرية التي تستطيع نزع سلاح العراق وإزاحة صدام حسين من السلطة. ولكنه لم يأمرنا بالحرب.

جلست في الخلف في المقعد المريح في طائرة البحرية الأولى، أستمع إلى خبط الدوارة المؤلف، وأحس بالاهتزاز الدوار المتميز للطيران في الطائرة العمودية. ذلك ذكرني دائماً بالحرب: الطائرات العمودية من أنواع الهويز واللوتشيز من فيتنام، والبلاك هوكز من عاصفة الصحراء، واتش ام-47 فوق وديان أفغانستان التي أُنْدَبَتْها القنابل بالندوب.

هل سأطير فوق العراق على متن طائرة عمودية في العام القادم؟ لا أمتلك طريقة أعلم بها. ولكنني كنت أعرف أن الشهور التي تنتظر أمامنا ستكون مشغولة: استكمال عمليات القتال الحاسمة في أفغانستان، وإن كنا نستعد لحملة أكبر بكثير قد تكون بانتظارنا في العراق في وقت ما في المستقبل.

وفكرت في: امدد لهم يد العون، والطائرة العمودية تهبط في واكو، ثم ركبنا متن النفاثة التي ستعود بنا إلى تامبا.

عملت حتى وقت متأخر في يوم الجمعة ذاك، ووسعت دائرة الأركان الذين ينغمسون في واجبات المرحلة الأولى. واجتمعنا مرتين في يوم السبت، ولكنني خففت الزخم يوم الأحد بعد الظهر. معظم هؤلاء الضباط لم يأخذ سوى ساعات قليلة فقط خارج المقر لقضاء عيد الميلاد، وعلى هذا المعدل، لن يكون لدينا الكثير من الوقت للعام الجديد. ولذلك أرسلتهم إلى بيوتهم مع توجيه التحذير لهم بأنني لا أريد أن أراهم "حتى العام القادم"

كنت أعرف أن رايفل دولونغ، وجين رينيوارت، وجيف كيمونز سوف يتسللون عائدين إلى مكاتبهم. وكنت أنوي أن أذهب وأضبط الخيارات التي كنا نطورها لتكون جاهزة في التكرار التالي مع الوزير رامسفيلد. لم أكن قد حصلت على يوم إجازة منذ 9/11، ولم أكن أنوي أخذ يوم إلى أن أكون راضياً مقتنعاً بأن لدينا خيارات قابلة للتصديق بشأن العراق تقدم للرئيس.

لقد أمضيت قائداً عاماً للقيادة المركزية مدة ثمانية عشر شهراً تقريباً. ومدة نوبة الواجب في منصب القائد العام كانت عادة سنتين، ولذلك فقد بقي لدي حوالي ستة أشهر لأعمل هذا العمل على الوجه الصحيح. وكنت عازماً على الاستفادة من كل دقيقة فيها.

وكنت أنا وكاثي مشغولين في واحدة من محادثاتنا "نتنظر ونرى" في أثناء الرحلة الأخيرة في منطقة المسؤولية. عندما ينتهي هذا العمل فأنا سأكون مهتماً بأي وظيفة بموجب القانون العاشر قد يعرضها علي دون رامسفيلد. كنت مقاتل حرب. ومساري الوظيفي العسكري سينتهي في الصيف القادم.

ولكن وزير الدفاع اتصل في صباح يوم الاثنين في 31 شهر كانون الأول/ديسمبر وقال: "لقد تحدثت مع الرئيس قبل قليل. نريدك أن تبقى مستمراً في القيادة المركزية لمدة عام آخر. ماذا ترى؟"

"شكراً، سيدي الوزير. أحب أن أناقش الأمر مع كاثي. سوف أرجع إليك في غضون يومين."

وقالت لي في ذلك المساء: "يا تومي، لقد ساندت دائماً أي شيء تريد أن تعمله."

وصلني مقسم هاتف وزارة الدفاع مع رامسفيلد في خلوته في تاوس، "سوف نتشرف بالخدمة عاماً آخر، سيدي الوزير."

وعندما وضعت الهاتف، أدركت أن ظهوري القيادي مع الرئيس في كراوفورد كان "امتحاناتي الشفهية" للعام الثالث في قيادة القيادة المركزية.

إذا ذهبت أمريكا إلى الحرب في العراق، فمن المحتمل أن ذلك سيكون في فترة استلامي للحراسة.

في يوم الاثنين 7 كانون الثاني/يناير 2002، اجتمعت دائرة التخطيط الداخلية في غرفة الاجتماعات الواسعة لمنشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة. ولأغراض عمل داخلية، سيكون تصور القائد هو الأساس لخطة جديدة: خطة عمليات V 1003، وتعديل 1003 التي سبق أن هذبناها من خلال ثلاثة تكرارات مع وزير الدفاع.

وكان الموضوع الرئيس للنقاش ما أسميته تصور البداية المتولد، وهو مسودة من أجل "توليد" الحضور الضروري أرضاً، وجواً، وبحراً في المنطقة، والذي سيُقدّرنا، عند صدور أوامر الرئيس، أن نشرع بالعمليات العسكرية الحاسمة للوفاء بهدف الحالة النهائية المتصلة بتغيير النظام. نحن نحتاج إلى هيكل عمل لنشر القوة، والبداية المتولدة كانت هي الخطوة الأولى نحو تحديد ذلك الهيكل.

ومع تقدم التخطيط طوال الشهور القادمة، فسوف نحدد التفصيلات من أجل تدفق القوات، على الرغم من أن هذه التفصيلات كانت دائماً معتمدة على نوع الخيار الذي نعتزم أن ننفذه: القوي أو المخفض أو الأحادي. وهل سنكون قادرين على وضع جند في تركيا، والأردن، والمملكة العربية السعودية، والكويت، ودول الخليج؟ وهل سيسمح لنا حلفاؤنا في الناتو أن ننشئ القواعد ونرتب التمرحل؟ وكم هدفاً جويًا حيويًا أساسياً كانت متاحة، بالضبط؟ وبدأت لي المتغيرات بلا نهاية.

ومثلها بدأ سيل الأسئلة من وزارة الدفاع. إن أركان مكتب وزير الدفاع والوزير كانوا يجعلوننا مطواعين لهم، نقفز عبر الأطواق كما في السيرك. ما هو الرد الذي ستعتبره القيادة المركزية مناسباً إذا شن العراقيون هجمات بأسلحة الدمار الشامل ونحن في حالة نشر القوات، أو في المراحل المبكرة من المرحلة الثانية، أو ونحن نقرب لنطبق على بغداد؟ ما هي التفصيلات بشأن وضع القواعد، وتعزيزات المطارات والموانئ التي سنحتاج إليها في المنطقة؟ وكيف ستتأثر خطوط توقيتاتنا إذا كان لدينا قوات عمليات خاصة وعناصر استخبارات بشرية داخل العراق لتحديد الأهداف، كما كان لنا بعد 20 تشرين الثاني/ أكتوبر 2001، في أفغانستان؟ وبدأت لي قائمة الأسئلة بلا نهاية. وبعد مغادرة المقر متأخراً في معظم الليالي، كان المديرون عندي يجتمعون في كل صباح في الساعة 0400 للإعداد لمكالمتي الصباحية مع وزير الدفاع.

منذ بداية عملية الحرية الدائمة، صرنا معتادين على طلبات الوزير رامسفيلد. أما الآن فحتى مخططيّ المثابرين صاروا يجدون أن الواابل اليومي من الواجبات والأسئلة بدأ يصل إلى حدود الإزعاج. هؤلاء الضباط الذين كان جين يدعوهم "عقول الخمسين رطلاً كانوا أهم أناس في الأركان. العقيد مايك فيتزجيرالد والعقيد ديف هالفيرسون، في مقدمة المخططين، كانا من أكثر العقداء الذين سبق لي أن عرفتهم إنكاراً للذات وقدرة على القيام بأشق عمل. فإذا كانا يشعران بالانزعاج فمن الأفضل لي أن أعالج المشكلة مواجهة.

استدعيت كل "العقول" معاً في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة في أصيل يوم من أيام كانون الثاني/يناير. كان جزء كبير من تذمرهم ينبع من الضغط الإضافي المتضمن في تقسيم التخطيط للمساعدة على منع التسريبات، هذا من شأنه أن يخرج العمل عن مساره. إن مجموعة صغيرة فقط من كبار ضباط القيادة المركزية هم الذين كانوا يعرفون النواحي المهمة من التصور الذي يتطور، وأربعة منا فقط كانوا يمتلكون الصورة الكاملة. مجموعتنا كانت معزولة بعضها عن بعض،

تجري على جهاز جري ثابت في فراغ. وليس هذا بالأمر الجيد لفريق محكم التماسك.

وقلت، وأنا أقف أمام الغرفة: "حسناً، هذه صفقة أيها الرجال. أنا أعرف أن مكاتب وزير الدفاع - رامسفيلد، وولفوويتز وفيث - يطلبون الكثير. ولكنهم ليسوا العدو. لا تبدووا في التفكير رجال طيبون- رجال أشرار. نحن جميعنا في جانب واحد."

كانوا يستطيعون أن يروا أنني كنت جاداً.

وتابعت "سوف أقلق بشأن مكتب وزير الدفاع، بشأنهم كلهم- ومن جملتهم دوغ فيث، الذي يكتسب من حولنا هنا سمعة بوصفه أغبي زفت ...". رجل على ظهر البسيطة. إن واجبكم هو أن تجعلوني أنا أشعر أنني مرتاح ومطمئن. انظروا، نحن جميعاً محترفون. دعونا نكسب راتبنا بحق."

قد يكون أن نتبادل الشكوى بين أنفسنا حول عبء العمل، ولكننا لن نكون غير مخلصي الولاء لرئيس عملنا.

واستمرت التكرارات. وكما يمكن لممارس اليوغا أن يكون قد قالها، فإن الأيام الطويلة والليالي كانت مثل ليالي وأيام ما بعد 9/11 التي كنت أحس أنني سبق لي أن رأيتها من قبل(*) طوال الوقت ثانية. وعلى الرغم من أنها كانت مؤلمة، فإن العملية جاءت بالتقدم.

أراد الوزير رامسفيلد أن يعرف خططنا للطوارئ في الحالة التي يقدم فيها صدام حسين على استفزازنا من خلال مبرر صريح للحرب: مهاجمة الأكراد، أو، وهو الأكبر احتمالاً، إسقاط طائرة للتحالف في منطقتي حظر الطيران.

هذا ما جعلني أعيد التفكير في جميع خيارات الرد الثابتة لدينا، ومن جملتها خطة بادغر (حيوان الغرير)، وهي ردنا المعين إذا أسقطت الدفاعات الجوية للعدو

(*) تعبير في علم النفس عن توهم رؤية شيء في السابق والإنسان يخبره لأول مرة.

واحدة من طائراتنا. وأدت إعادة التفكير هذه إلى ثلاثة مستويات للرد: أحمر، وأبيض، وأزرق. الأحمر، وهو أقلها حركية، سوف يتكون من ضربة فورية بصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي على أهداف دفاع جوي عراقية مهمة. واشتمل الأبيض على ضربات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي موسعة وضربات جوية على طول ثمانية وأربعين ساعة. وسوف يستدعي الأزرق عمليات جوية متبوعة بعمليات أرضية، لتأسيس جيب أرضي داخل العراق يجري توسيعه بالنشر السريع لقوات المتابعة.

بدأ بعض المخططين يسمي هذا خيار "بداية الركض" (*)، وتبنت أنا هذا التعبير في مناقشاتي مع الوزير.

وفي إحدى مكالماتنا في مؤتمرنا، أخبرت رامسفيلد: "سيدي الوزير، هناك طريقتان فقط للذهاب إلى الحرب. إما أن يبدأها العدو وفق برنامج المخطط، أو أن نبدأها نحن وفق برنامجنا. ونظراً إلى أننا لا نمتلك قراراً للذهاب إلى الحرب بموجب خط توقيتنا، فنحن نحتاج إلى خيارات في الحالة التي يبدأ فيها صدام حرباً بموجب خط توقيته. وأنا أحب فكرة "بداية الركض" بوصفها خياراً. نحن نستمر في بناء قواتنا وبنيتنا التحتية في المنطقة لدعم الدبلوماسية. وإذا اتخذ الرئيس قراراً بأن يهاجم، فسنبدأ بما لدينا في المكان ونتابع، طالما يكون ذلك ضرورياً، وبحجم القوة الضرورية."

قال رامسفيلد: "أنا أفهم ذلك، ولكننا نحتاج إلى دراسة واقعية للتوقيت. ما هي خطوط التوقيتات المختلفة؟ كم طول المدة التي ستدومها كل مرحلة وفق ما تخطط؟ قلت: "نعمل فيها."

وقال: "جيد. دعنا نجعلها 1 شباط/فبراير."

وفكرت عندما أغلقنا الهاتف، يا إلهي، ذلك في الأسبوع القادم.

(*) تعبير من الرياضة، وهو بدء تسابق الركض الذي يكون فيه المتسابقون بالركض قد وصلوا إلى كامل عزيمتهم قبل أن يعبروا خط البداية.

واستدرت إلى جين ورايفل دولونغ: "آمل يا شباب أن يكون لديكم الكثير من القهوة في مكاتبكم. لأن لدينا بعض الليالي الطويلة القادمة، وأنا لن أشارككم قهوتي."

كنت أعمل من خلال مجموعة من التقديرات في مساء يوم الثلاثاء 29 كانون الثاني/ يناير، عندما دخل إلى مكتبي جيف هينز، وقال وهو يمشي إلى جهاز التلفاز "جنرال، أردت مني أن أذكرك بشأن حالة الاتحاد."

وقلت: "شكراً، يا بحري" قلتها وأنا أدون ملاحظة أخيرة عندما ضبط الجهاز على محطة سي ان ان. وكنت سأفتح ذهاباً وإياباً بين محطة سي بي اس ومحطة فوكس بعد الخطاب لأرى أي نوع من التفسير تطبقه شبكات الأخبار على كلمات الرئيس.

عندما تكلم جورج بوش بدا لي واثقاً ومصمماً.

قال الرئيس: "تقابلنا آخر مرة في ساعة صدمة ومعاناة. وفي أربعة أشهر قصيرة قامت أمتنا بتعزيزية الضحايا، وبدأت بإعادة بناء نيويورك ووزارة الدفاع، وحشدت تحالفاً كبيراً أسر، واعتقل، وخلص العالم من آلاف الإرهابيين، ودمر معسكرات تدريب الإرهابيين في أفغانستان، وأنقذ شعباً من الموت جوعاً، وحرر بلاداً من الاضطهاد الوحشي."

كان التصفيق عالياً من جانبي صفوف المقاعد

وفكرت في، أربعة أشهر قصيرة، وهي أطول 120 يوماً وليلة في حياتي.

ولكن بوش أضاف ولمزيد من التصفيق: "وقادة الإرهابيين الذين حثوا أتباعهم على أن يضحوا بحياتهم يهربون للنجاة بأرواحهم هم."

وأوماً إلى غرفة المجلس في الشرفة العليا مقدماً القائد الانتقالي لأفغانستان، الرئيس قرضاي، أمام تصفيق حاد بارز.

ومع استمرار خطابه، التفت الرئيس إلى موضوع أسلحة الدمار الشامل والدول المارقة، وهي القضايا التي شغلت تفكيري كل يوم. تحدثت عن كوريا الشمالية

وإيران، نظامان اثنان موصوفان بأنهما راعيا الإرهاب وكانا يسعيان لامتلاك أسلحة الدمار الشامل.

بعدئذ تحول بوش إلى العراق، وقد راقبت البداية غير الرسمية للجهد الدبلوماسي الذي يبذله الرئيس لنزع أسلحة صدام حسين.

وقال: "يستمر العراق في استعراض عداوته نحو أمريكا وفي دعم الإرهاب. وقد خطط النظام العراقي لتطوير الجمرة الخبيثة، وغاز الأعصاب، والأسلحة النووية طوال أكثر من عقد من الزمان. هذا نظام سبق له أن استخدم الغاز السام ليقتل آلافاً من مواطنيه، تاركاً جثث الأمهات متراكمة فوق أطفالهن الموتى." وكانت غرفة المجلس ساكنة سكوناً مطلقاً. "هذا نظام وافق على التفتيشات الدولية، ثم قام بعد ذلك بطرد المفتشين. هذا نظام يمتلك شيئاً ما يخبئه عن العالم المتمدن."

توقف الرئيس قليلاً، ثم تحدث ببطء، مشدداً على كلماته. "دول مثل هذه، وحلفاؤهم من الإرهابيين، تشكل محور شر، وتتسلح لتهدد سلام العالم. وبالسعي إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل، فإن هذه الأنظمة تشكل خطراً مقلقاً ومتنامياً."

وقال مشدداً، وبعد أن عانت الولايات المتحدة من هجوم إرهابي واحد مدمر، يجب عليها أن تكون مستعدة للعمل لمنع هجمات أخرى. "إن أمريكا ستفعل ما هو ضروري لضمان أمن أمتنا." وتابع بالقول: "سوف نكون متروّين، ومع ذلك فالزمن ليس في جانبنا. وأنا لن أنتظر الحوادث، بينما تتجمع المخاطر. وأنا لن أقف جانباً، والخطر الوشيك يدنو أقرب فأقرب. إن الولايات المتحدة لن تسمح لأخطر أنظمة العالم بتهديدنا بأكثر أسلحة العالم تدميراً."

ووقف كلا الجانبين ليقدموا تصفيقاً رناناً.

"حربنا على الإرهاب بدأت إلى حد كبير، ولكنها بدأت فقط. قد لا تنتهي هذه الحملة في نوبتنا في الحراسة، ومع ذلك يجب أن تشن ولسوف تشن وفق ساعتنا."

ورجعت في تفكيري إلى نقاش كان لي مع طوني زيني قبل أكثر من عامين. العراق هو المشكلة التي لن تغيب في أي وقت قريباً.

ورنت كلمات الرئيس في أذني: الحرب التي ستشن وفق ساعتنا. لقد كنت قبل مدة قليلة قد مددت نوبة حراستي في القيادة المركزية لعام ثالث. وبدت وكأن المشكلة العراقية ستواجه قريباً بالنزاع المباشر.

كان إيجاز اشباط/فبراير للوزير رامسفيلد يسير سيراً حسناً. وعدلنا تصور البداية المتولد لكي تدوم العمليات ابتداء من بداية المرحلة الأولى وإلى نهاية المرحلة الثالثة حسب ما هو مخطط لها الآن حوالي أربعة أشهر فقط.

وقلت وأنا أقلب اللوحة التالية: "ها هو في ما يلي خط توقيتنا". إذا أخذنا بالاعتبار العمل الموجود من قبل وهو في تقدم في المنطقة، فسوف نكمل الوضع المسبق للتجهيزات وتحديثات المطارات، والموانئ، والبنية التحتية العسكرية الأخرى في غضون أشهر قليلة.

"عندما تكون المرحلة الأولى قد اكتملت، نستطيع أن نتدفق بثبات طوال الستين يوماً التالية، وفي الوقت نفسه نستمر في دفعات النشاط لنعطي تصديقاً لخداعنا. وفي أثناء الستين يوماً سوف نزيد الضربات الحركية في مناطق حظر الطيران لإضعاف الدفاعات الجوية العراقية المتكاملة. وإذا كنا نستطيع أن نطور جبهة شمالية في تركيا، مع وجود وحدات تقليدية أخرى تتمرحل من الكويت، وقوات عمليات خاصة تتمرحل في الأردن وفي المملكة العربية السعودية، فسوف نرى مستوى جند لقوة أرضية تبلغ تقريباً 160.000."

والتفت إلى اللوحة التالية. "إذا قرر الرئيس أن يهاجم، فإن اليوم- إيه، يوم بدء العمليات الجوية سوف يبدأ المرحلة الثانية، وهي مرحلة تركيز على الجو لحوالي ثلاثة أسابيع، وهذا يتوقف على الوقت من العام، وعلى الطقس. وسوف نستخدم في معظمها الذخائر الدقيقة، ولكن العواصف الرملية الفصلية الموسمية التي

تثيرها ربح الشمال سوف تؤثر على أنظمة الليزر للدلالة على الأهداف وعلى طيران الاستطلاع".

وكانت اللوحة التالية هي المرحلة الثالثة: العمليات القتالية الحاسمة. وتابعت: "سوف نبدأ في اليوم-جي، عندما تقوم القوات الأرضية بالهجوم. ويمكن أن تدوم إلى مائة وخمسة وثلاثين يوماً، ومرة أخرى فهذا يتوقف على الوقت من العام وعلى الأساليب التعبوية الدفاعية التي يستخدمها العراقيون."

ثم استدرت لأكشف عن اللوحة التالية: المرحلة الرابعة: عمليات ما بعد الحرب. "وفي الوقت الذي تتقدم فيه عمليات الاستقرار، فإن مستويات القوة سوف تستمر بالنمو، ربما إلى أن تصل إلى مائتين وخمسين ألفاً من الجند، أو إلى أن نكون واثقين من أننا حققنا أهدافنا للحالة النهائية."

وسأل رامسفيلد: "وكل هذا قد تم التشديد عليه في الاستعدادات للمرحلة الأولى وفي كونها استكملت؟"

"نعم سيدي. إذا أطلق صدام حسين حرباً اليوم، قبل أن تنتهي المرحلة الأولى- فإننا سنكون قادرين على بدء العمليات الأرضية في حوالي خمسة وأربعين يوماً بعد بداية العمليات الجوية. وعند تلك النقطة سيكون قد صار لدينا في المكان قوة من حوالي مائة وخمسة آلاف من الجند: فرقة ثقيلة معززة من الجيش، وفوج خيالة مدرع، وقوة حملة مشاة بحرية، ومعظم موجوداتنا الجوية. نستطيع أن ننطلق، وسوف تتدفق بقية القوات للداخل خلفها. أنا لا أحب مثل هذا المدخل التتابعي، سيدي الوزير. ولكنه ممكن التنفيذ."

وحتى عندما انتقلت عبر لوحاتي، وعلى الرغم من ذلك، فإن عقلي كان يقلب إلى لوحة أخرى، إلى المزيد من نقاشٍ خاصٍ خططت أن أجريه مع دون رامسفيلد في الساعة التالية. فمنذ عملية الخداع الناجحة لفرقة الخيالة الأولى في أثناء عاصفة الصحراء، كنت أعتقد أن الخداع العملياتي الذي يتم تصويره بشكل جيد

وينفذ تنفيذاً ناجحاً سينطلي على العسكريين العراقيين وعلى قادة نظامه. لقد كانت استخباراتهم مركزة تركيزاً كاملاً تقريباً على الأمن الداخلي: اضطهاد الأكراد والشيعية واستباق محاولات الانقلاب، وليس على قتال الحرب.

وكان لدي مورد خفي حساس جداً إلى الدرجة التي تجعلني أريد مناقشته مع الوزير رامسفيلد فقط وجهاً لوجه. فالعديد من رؤساء الدول العربية، الذين كانت لي معهم علاقات حميمة، قد قدموا معلومات قيمة مستتدة إلى صلاتهم الشخصية مع صدام حسين. وكنت أعرف أن هؤلاء القادة كانوا قنوات لا تقدر بثمن نستطيع من خلالها أن نمرر المعلومات، والأغاليط المتعمدة، إلى النظام العراقي.

وانتقلت، وأنا أختتم الإيجاز، إلى واحدة من اللوحات النهائية: بداية الركض. وشرحت: "هذا توقيت بديل آخر نقوم بفحصه. إذا كنا على بعد كافٍ في استعداداتنا في المنطقة، فإننا نستطيع حسب ما هو متصور أن نضغط الحملة الجوية إلى النقطة التي ستكون فيها العمليات الجوية والأرضية، المسبوقة بعمل كثيف للقوات الخاصة، متزامنة في الواقع. ونستطيع أن نشن العمليات في الوقت الذي تكون فيه قوات المتابعة ما تزال تنتشر."

لقد كان هذا تصوراً ثورياً، بعيداً خارج صندوق العقيدة التقليدية. ولكنني كنت مستقلاً طوال حياتي. عندما لا تقوم العقيدة الموجودة بتنفيذ العمل، فإنني أحاول أن أجد طريقة أخرى لتنفيذه، سواء كان ذلك يعني تركيب شبكة راديو على طريقة روب غولد بيرغ على الطائرة العمودية من نوع رايفن اتش-23 في فيتنام، أو وضع أجهزة لاسلكية راديوية من نوع موجة المواطن في مدافع الهاوتزر في فوج الخيالة المدرع الثاني، أو بناء مركز توجيه النيران المتنقل توك-ايه-توي في وحدة المدفعية 2-78، أو تعليم رجال المدفعية أن يصيبوا الأهداف المتحركة في فورت هود. وكانت تعني أيضاً أنني كنت مراراً في خارج التيار العام المحافظ للجيش.

كانت عاصفة الصحراء قد أعادت تعزيز قناعاتي بأن سرعة المناورة والمفاجأة التعبوية كانتا أعظم مضاعفين للقوة في الحرب. في العراق الجنوبي، كانت القوات

الأمريكية والبريطانية قد ضربت بقوة على الجناحين الضعيفين للحرس الجمهوري العراقي، وهي تناور من خلال عاصفة رملية تعمي لكي تفاجئ العدو. الأسافين المتحركة بسرعة بقوة كتيبة قد اشتبكت مع ألوية عراقية متخندقة وهزمتها. لم تكن التقانة وحدها هي التي اكتسحت الحرس الجمهوري في ميادين المعركة مثل 73 شرقاً وحافة المدينة، ولكنه أثر السرعة. في العديد من نقاط تماسنا الأولية، كان العراقيون أكثر عدداً من قواتنا المهاجمة. وكان ذلك مثلما هو في الفيزياء بالضبط، فإن آثار الكتلة تزداد مع السرعة.

كنت أعرف أن قواتنا العسكرية سوف تكسر إرادة الجيش العراقي، وأننا سوف نعمل ذلك بسرعة غير مسبوقة. إن حجم قوة هجومنا كان أقل أهمية من السرعة ومن مرونة مناورته. إن بداية الركض سوف تتضمن مخاطرة، ولكنها لن تكون مقامرة.

وسنعمل نحن كل شيء ممكن لنقل هذه المخاطرة إلى الحد الأدنى. فسيكون أساسياً لنا أن نسيطر على صحاري العراق الغربية، وذلك لأن هذه الصحاري هي المكان الذي يريد صدام أن ينصب فيه قاذفات الصواريخ. إن مفتشي الأسلحة من الأمم المتحدة، ومجتمعنا الاستخباراتي، قدروا أن العراق إما أن يكون قد استبقى سراً صواريخ بالستية ميدانية، أو أن يكون قد طور أنظمة أقصر مدى من مثل صاروخ أبابيل-100 لتعمل على أمداء أبعد من 150 كيلومتراً المسموح بها بموجب قرارات مجلس الأمن.

وشددت: "إذا نجح العراقيون بضرب تل أبيب أو الرياض بالرؤوس الحربية الكيماوية أو الحيوية، فسيكون ذلك مشوشاً إستراتيجياً، مشابهاً لما رأيناه في العام 1991، ولكنه على ما يحتمل سيكون أسوأ من ذي قبل بكثير." إذا كان لإسرائيل أن تتأثر، وبكلمات أخرى، فإن الحرب يمكن أن تتحول إلى نزاع ديني في عيون العالم العربي. ومن المحتمل أن يتداعى تصميم حلفائنا السعوديين، وسوف تُلفظ بقوة من مركزنا الحيوي غير الظاهر، مركز القوات الجوية المشتركة الموجود في قاعدة

الأمير سلطان الجوية وقواعد قوات العمليات الخاصة وقواعد البحث والإنقاذ القتالي في مواقع أخرى من المملكة.

ولكنني كنت واثقاً من أننا كنا نستطيع أن نسيطر بالقوة على الصحراء العراقية الغربية باستخدام قوات العمليات الخاصة المتصلة بطيران الضربات الجوية الذي يستخدم الذخائر الموجهة بدقة، مثلما كنا قد فعلنا في أفغانستان. وأخبرت رامسفيلد: "مع حلول الوقت الذي نمتلك فيه قوة أرضية في مكانها في الكويت وتركيا، فسوف نكون قد امتلأنا رجال وحدات مهام خاصة كافين متمرقلين في الأردن وفي المملكة العربية السعودية لنحركهم إلى داخل العراق ونسيطر على نسبة 25 بالمائة من الأراضي الغربية من العراق".

وذكرني رامسفيلد: "تذكر، هناك توازن دقيق بين الاستعدادات الكاملة وبين إطلاق زناد الحرب. والرئيس لم يقرر بعد أن يذهب إلى الحرب".
 "أنا أفهم ذلك، سيدي الوزير."

قدمت إيجازاً للرئيس ولجلس الأمن القومي في أصيل يوم الخميس 7 شباط/فبراير، في غرفة الموقف في البيت الأبيض. ومثلما عملت بالضبط في أثناء المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو في كانون الأول/ديسمبر من تكساس، فقد قدمت تقريراً عن الموقف في أفغانستان، ملخصاً فيه خططنا للعمليات التعرضية لتدمير بقية معاقل القاعدة في الجبال الواقعة جنوب كابول.

وقلت: "سيكون الثلج قد ذاب عن الممرات الجبلية قريباً، وسوف نذهب نحن إليها من عدة اتجاهات على الأرض بينما نقوم بشكل متزامن بإدخال قوات اقتحام جوي إلى الأهداف".

وبينت النواحي الرئيسية لمخطط المناورة على خريطة تعبوية. "سوف نستخدم عناصر من الفرقة العاشرة الجبلية وعناصر من الفرقة 101 المحمولة جواً، وقوات عمليات خاصة من التحالف، ومن جملتهم ألمان وأستراليون، وحلفاؤنا الأفغان. وسوف أزود الوزير رامسفيلد بأحدث المعلومات عندما تتكشف العملية".

وسأل الرئيس بوش: "هل هو موجود هنا، يا تومي؟" كل واحد من الحاضرين كان يعرف من كان هو: إنه ابن لادن.

وقلت: "جماعة الاستخبارات يعتقدون أن هناك احتمالاً. والرئيس مشرف لا يعتقد أنه في باكستان. والحقيقة، يا سيدي الرئيس، هي أنني غير متأكد. فهو ليس على جهاز إرسال لاسلكي، وأنا لم أر تقارير موثوقة عن مكان وجود أسامة بن لادن. وحلقت بإبهامي مع السبابة وصنعت دائرة علامة صفر.

وتابعت: "هذه بلاد وعرة، يتعذر الوصول إليها. وقد اختبأ المجاهدون من السوفييت في هذه الجبال لسنوات. وهذا هو السبب الذي يجعل حلفاءنا الأفغان أساسيين. فهم يعرفون كل كهف وكل نفق."

وسأل الرئيس: "أي أسئلة أخرى عن أفغانستان، لتومي؟" لم يكن هناك أي سؤال.

والتفت إلى العراق.

أعلنت، وأنا أعرض لوحة التوقيعات، أننا قد خفضنا المدة القصوى المرسومة للمراحل من الأولى إلى الثالثة إلى 225 يوماً؛ ومن جملتها ثلاثة أشهر "تكوين القوات" في المنطقة، ومرحلة جوية وقوات عمليات خاصة مشتركة مدتها ستة أسابيع (وفي أثناء هذه المدة سوف نستولي على حقول الزيت الجنوبية العراقية ونحميها من التخريب)، وما يصل إلى تسعين يوماً من عمليات القتال الحاسمة.

من الناحية المثالية، طبعاً، فإن المرحلة الثالثة: عمليات القتال الحاسمة، لن تحتاج إلى ثلاثة أشهر كاملة من الحرب التقليدية، والتي تتلاكم فيها الدبابات الأمريكية مع الحرس الجمهوري. لقد خططنا أن نسيطر على الفضاء الجوي العراقي من البداية. وإذا قامت حفنة من الطائرات القتالية الصالحة للطيران والتي ما تزال قادرة على الطيران، بتحدي مقاتلات التحالف، فهي ستعيش حوالي يوم. وإذا بقيت في جدرانها الحاجزة الإسمنتية المسلحة، فسوف ندمرها بالذخائر

الدقيقة التوجيه. وسيكون على التشكيلات الأرضية للعدو أن تخوض الصراع مع الكتلة المدمرة المشتركة المكونة من دروعنا، ومدفيعتنا، ومشاتنا الآلية، والتي تقوم بالناورة بسرعة، وكلها تستخدم خلطتها الخاصة القاتلة من الذخائر الدقيقة طويلة المدى، إضافة إلى قاذفاتنا الثقيلة والضربات الجوية.

ولكن إذا كان العراقيون سيضعون دباباتهم ومدفيعتهم في القرى وأحياء المدن، قرب المساجد، والمدارس والمستشفيات، كما كنا نعرف أنهم ليسوا فوق هذا المستوى، فيجب عندئذ أن نتخذ إجراءات لتجنب إصابات المدنيين. لقد كانت مشكلة تعبوية، مشكلة سوف نعالجها باستخدام المزيج نفسه المكون من استطلاع عصر المعلومات وتحديد الهدف، وهو ما أتقناه في جبال وصحارى أفغانستان، ولكن ذلك سيستغرق وقتاً. نحن نستطيع أن نحدد وندمر عربات مدرعة منفردة وقطع مدفعية بدون إحداث تدمير عال جانبي غير مقبول، وذلك بالضبط مثلما استخدمنا طائرات برديتر لتحديد الأهداف للقاذفات لتقوم بإسقاط مقذوفاتها من وحدات القنابل الموجهة، وذخائر الهجوم المباشر المشتركة في مدن مثل قندهار وجلال آباد.

وبدا لي ممكناً أن جندنا سيقاتلون فوق ميدان معركة ملوث بالعوامل الكيماوية أو الحيوية. وهذا سيبطئ سير الأمور بوضوح، وخصوصاً إذا كانت قوات التحالف ملزمة أن تلبس الأقنعة، والقفازات وبزات الحماية من نوع بزات الوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة في حرارة الصيف القاسية. تلك كانت، طبعاً، هي أسوأ حالة: المرحلة الثالثة يمكن أن تستغرق فيها حتى تسعين يوماً.

أما خططنا لمكافحة المقاومة من القوات غير النظامية فكانت خارج مدى هذا الإيجاز. ولكن مخططي في القيادة المركزية كانوا يدرسون تلك المشكلة كذلك. وأشارت معلوماتنا الاستخبارية أن تشكيلات مثل الأمن الخاص والحرس الجمهوري الخاص قد تلقت تدريباً في الحرب غير التقليدية. وكان هؤلاء هم الموالين القبليين لصدام، والمتطرفين البعثيين السنة أصحاب الامتيازات ممن تلطخت أيديهم بالدم، والذين لا يمكن أن يتوقعوا إلا القليل من الرحمة من الشيعة

والأكراد الذين ارتكب أولئك بحقهم المجازر طوال سنوات. وبعضهم، كما كنا نعرف، كان يفضل أن يموت على أن يستسلم. وعن طريق تدفق القوات التي تملك الخبرات الصحيحة لمواجهة المقاومة المسلحة وسحقها، حتى بعد أن تكون المرحلة الثالثة قد اكتملت، فقد كنا عزمنا على أن نحتوي المقاومة في ذلك الاعتبار.

كنت أعرف أننا سنربح القتال، ولكننا لم نكن نريد أن ندمر العراق في العملية. نحن لا نريد أن نكرر أداء المارشالين السوفيتيين جوكوف(*) وكونيف(**)، وهما يحيطان ببرلين ويقصفاً الأنقاض لتتحول إلى قطع أصغر لتدمير المدافعين. ولا يريد التحالف، في هذه المسألة، تكرار أداء الملازم تومي فرانكس على طول قناة كنه دوا، وهو يطلب عشرات مهام الرمي والضربات الجوية لدفع العدو إلى خارج المباني في ضواحي سايفون.

إن الحملة التي تخيلتها ستكون في الحقيقة "ثورة في الحرب"، إذا استخدمنا تعبيراً مبتدلاً تقاذفه المحترفون والهواة من الإستراتيجيين منذ أن شن الجيش الألماني حربه الصاعقة في العام 1939. نحن سوف نستخدم التجديدات التي تسترعي الانتباه والتي تخيلها المفكرون البعيدين النظر، ومن جملتهم المفكرون الذين عملت معهم في قوة مهام مناورات لويزيانا، قبل سنوات مضت. وسوف ندير مناورة سريعة مرنة، مقرونة مع قوة نيران دقيقة قاتلة.

وشرحت: "إن الجاهزية القتالية للقوات العسكرية العراقية تذبذبت خلال العام، ويتوقف ذلك على مرحلة دورة تدريبهم." وعرضت هذه الاعتبارات التوقيفية بالنوع نفسه من لوحات "أضواء المرور" الأحمر والأصفر والأخضر التي سبق لي أن

(*) جورج جوكوف (١٨٩٦ - ١٩٧٤م) رئيس أركان الجيش الروسي في الحرب العالمية الثانية، وجه الهجوم المعاكس ضد الألمان في ستالينغراد، ولينينغراد واحتل برلين ١٩٤٥م، وقبل استسلام النازيين، وهو من أبطال الاتحاد السوفيتي.

(**) إيفان كونيف (١٨٩٧ - ١٩٧٣م) مارشال سوفيتي، استعاد أوكرانيا وجنوب بولندا من الألمان وسيليسيا وتشيكوسلافيا وتشارك في احتلال برلين. وشغل منصب قائد القوات البرية السوفيتية وقائد قوات حلف وارسو وغير ذلك.

استخدمتها في إيجازاتي في أفغانستان. الضوء الأحمر كان يشير إلى أخطر مدة - قف، لا تتقدم. والأصفر كان يعني تقدم بحذر. وكان الأخضر يؤشر إلى الظروف الأمثل: تقدم بثقة.

كان جيش صدام عادة يجري تدريب الوحدات الكبيرة من مطلع شهر أيار/مايو إلى أواخر أيلول/سبتمبر. في هذه الأشهر، كنا نستطيع أن نفترض أن التشكيلات من مثل الحرس الجمهوري وفرق الجيش النظامي الجيدة ستكون كاملة الملاك وحسنة التجهيز بالأسلحة والذخائر. وستكون قيادتهم وسيطرتهم أيضاً في أفضل كفاءتها في أثناء تلك الأشهر من الصيف. بالنسبة إلينا كان ذلك سيناريو خط أحمر.

في شهري تشرين الأول و تشرين الثاني/أكتوبر ونوفمبر، كانت الوحدات العراقية الكبيرة ستبدأ بالاسترخاء، ولكن جاهزيتها القتالية ستستمر في البقاء عالية. الضوء الأصفر.

أما من شهر كانون الأول/ديسمبر وإلى شهر شباط/فبراير، فكانت القوات العسكرية العراقية تقليدياً تدير تدريباً لمستوى السرية وتدريباً فردياً. وكانت دباباتها تتحرك إلى ميادين الرماية، عندما لا تكون موضوعة تحت الصيانة. والجنود يحضرون دروساً في مراكز التدريب بعيداً عن قواعدهم البيئية. الضوء الأخضر.

والطقس أيضاً كان عاملاً. ونظراً إلى أن جندنا سيقاثلون على الأرجح في בזات الوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة لحمايتهم ضد الأسلحة الكيماوية والحيوية، فإن حرارة الصحراء في النهار في وسط الصيف، والتي يمكن أن تصل إلى 130 درجة فهرنهايت، شكلت ضوءاً أصفر. والعواصف الرملية في مطالع الربيع كانت عائقاً آخر ينبغي تجنبه إذا كان ذلك ممكناً مطلقاً.

وقلت: "لذلك، سيدي الرئيس. فإن التوقيت العملياتي الأمثل سيكون من كانون الأول/ديسمبر إلى منتصف آذار/مارس."

لقد قدمت إيجازاً إلى مجلس الأمن القومي على هذا المستوى من التفصيل لأنني أردت أن أطلع فيهم التعقيد الذي تتصف به عملية قرارنا من منظور عسكري محض. وفي أثناء المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو قبل أسبوع، كان الوزير رامسفيلد قد رمى واحدة من قنابله البلاغية، متعجباً إن كنا سنقدر بشكل معقول على أن نبدأ حملة في نيسان/أبريل 2002، في أقل من ثلاثة أشهر، إذا لزم. ولكن انتشارنا يستغرق ثلاثة أشهر، وهذا ما سيضعنا في أيار/مايو. وأنا في الحقيقة، لم أكن أريد أن أبدأ العملية الأرضية بعد 1 نيسان/أبريل من أي عام قد يكون علينا أن نقاتل فيه.

وأملت أن هذا الإيجاز سوف يُسكت التفكير الذي يرى أن قرار العملية في العراق سيكون مسألة سهلة تتطلب جنداً قليلين نسبياً. وبعض الموظفين في وزارة الدفاع كانوا قد اقترحوا بأن فرقة ثقيلة واحدة مع مساندة جوية ضخمة كانت تستطيع أن تفتح عنوة باباً ستسير من خلاله جماعات المعارضة العراقية المنفية منتصرة لتحرر بلادها. هذا الخط من التفكير كان غير معقول، وكنت أريد أن أستأصله بأسرع ما يمكن.

لم يسبق لأحد من هؤلاء "الإستراتيجيين" أن أرسل جنداً ضد الدبابات تي-72 العراقية. أما أنا فأرسلت. وإذا أمرني الرئيس أن أذهب إلى الحرب، فقد كنت أريد أن أذهب في الزمان وفي الطريقة التي تعطي عسكرينا أفضل فرصة لينجزوا مهمتهم بسرعة، وبأقل إصابات ممكنة.

وعلى لوحة أخرى، شرحت منطقتين مظلمتين. النصف السفلي من اللوحة أشار إلى الاستعدادات العسكرية للمرحلة الأولى، ومن جملة ذلك تحديثات التجهيزات للجيش، وللوقوة الجوية، وللوحدات البحرية التي كانت ستتتشر أولاً، إضافة إلى تواريخ الاستكمال المقدرة للتوسيعات والتحسينات الجارية للبنية التحتية للموانئ والقواعد في المنطقة. والنصف العلوي من اللوحة أظهر التوقيت الممكن للجهود الدبلوماسية التي سيتوجب القيام بها بصفتها جزءاً آخر من المرحلة الأولى.

سيكون أساسياً لنا أن نربط انتشاراتنا وأعمالنا العملية مع أحداث إستراتيجية من مثل اجتماعات الأمم المتحدة، والزيارات الدولية، وفترات الأعياد. وهذا سيكون سهلاً نسبياً، ولكنه مهم جداً.

وشرحت: "لدي رحلات مبرمجة للاجتماع مع كبار القادة في المنطقة، وأستطيع بذلك أن أضع بعض الأعمال التحضيرية. ولكن سيتعين على الوزير باول والوزير رامسفيلد أن ينظما أوركسترا العمل الدبلوماسي الجاد الصعب. كلا الوزيرين أوماً برأسه، أما الرئيس فابتسم.

وأضاف آندي كارد: "سيدي الرئيس، سيكون لدينا انتخابات لمجلس الشيوخ في تشرين الثاني/ نوفمبر. ويتعين دراسة ذلك أيضاً في مناقشة التوقيت."

وقاطع جورج بوش الكلام بسرعة وبحدة: "هذا ليس له اعتبار قطعياً، إذا كنا سنذهب إلى الحرب، فسيكون ذلك لأن أمن أمريكا يتطلب ذلك. لن يكون للتوقيت أي علاقة مع الانتخابات لمجلس الشيوخ أو الاستطلاعات." كنت أعرف أن الرئيس كان يكن الاحترام لكارد، ولكنه كان يرسل رسالة إلى فريق الأمن القومي: أولوياته كانت واضحة.

ومثل بقية أعضاء مجلس الأمن القومي، كان الوزيران باول ورامسفيلد يراقبان هذا التبادل الحاد بصمت. وأحسست بوجود توتر بين دونالد رامسفيلد وكولن باول. وما جاء ذلك التوتر مفاجأة لأي واحد عرفهما كليهما: فهذان موظفان عامان لامعان، متفانيان في الخدمة، وهما شخصيتان تمتلكان الإرادة والقوة والذات الملائمة لرتبتيهما الوزارية. عاملان لا يكلان من العمل، ويمتلكان رؤيتين إستراتيجيتين مختلفتين. لقد كانا "موهوبين" كما وصفهما كتاب الافتتاحيات في الغالب، مع قواعد متساوية من الخبرة ولكنها مختلفة اختلافاً كاملاً.

كولن باول رأى أمريكا بوصفها الأمة الأولى بين متساوين في عائلة الأمم الحرة. وأعتقد أنه رأى مهمة أمريكا في العالم خلق شبكات عمل دولية لتخفيف

التوترات في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا، ومحاربة نقص المناعة/والإيدز والفقر، وتعزيز حقوق الإنسان، وكبح تهريب المخدرات، وتخفيض حواجز التجارة، وطبعاً، محاربة الإرهاب العالمي. ولكنه أيضاً وضع أسهماً كبيرة في منظمات دولية مثل الأمم المتحدة والناتو، والمشاركات مثل تلك التي شكلت اتفاقية أوسلو لحل النزاع العربي الإسرائيلي العنيد.

ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد أيضاً كان قد فكر من خلال طيف من أولويات الأمن الدولي قبل 9/11. ولكن، ومنذ ذلك الحين، فإن كسب الحرب العالمية على الإرهاب وتطوير وتحويل وزارة الدفاع صاراً، بحق، موضع تركيزه الرئيسي. وعندما أعلن الرئيس بوش إلى أمم العالم بأنها إما أن تكون معنا أو ضدنا في هذا الصراع، وافق دونالد رامسفيلد بدون تحفظ. ومثل مقاتل حرب باردة لجبهة جديدة، كان رامسفيلد مستعداً راغباً في أن "يدفع أي ثمن، ويتحمل أي عبء" كي "يدعم أي صديق، ويعارض أي عدو"، ليضمن بقاء أمريكا.

رامسفيلد آمن بالسياسة الواقعية. كان مستعداً أن يطير نصف الطريق حول العالم ليجلس في اجتماع لا يغادره حتى ينال ما جاء من أجله مع الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف، وهو الذي كان سجله في حقوق الإنسان ملطخاً على أحسن الأحوال، لكي يؤمن القاعدة الجوية في خارشي خانيباد الحيوية للعمليات الأمريكية في أفغانستان. ويحتمل أن رامسفيلد كان سيتصافح مع الشيطان إذا كان ذلك قد عزز غاياتنا في الحرب على الإرهاب.

والصدع الذي نما في نهاية المطاف بين وزارتي الخارجية والدفاع على سياستنا بشأن العراق كان قد تم تصويره بوصفه ناجماً عن عداوة شخصية بين الوزيرين في الوزارة. ذلك تبسيط شديد. الرجلان رأيا العالم فعلاً على نحو مختلف، ولكن، في رأيي، كان التقاطع والتطابق في مسؤولياتهما، مقروناً بشخصيات مرؤوسيهما، هو السبب الحقيقي للاحتكاك في العلاقات اليومية بين الخارجية والدفاع.

وزارة الخارجية، وهي المسؤولة عن العلاقات الدولية والدبلوماسية، ترسل السفراء إلى الأمم المتحدة وإلى معظم الأمم المستقلة على ظهر البسيطة. وفي يوم معين، يستخدم كولن باول هذه الشبكة ليدفع قدماً بسياسات الولايات المتحدة التي راوحت بين حقوق الإنسان والمصالح التجارية. وعلى نحو مشابه، فإن وزارة الدفاع لديها ضباط عسكريون كبار في كل بلد عملياً، وهم يعملون مع السفراء في قضايا الأمن والقضايا العسكرية. وبدا كأن كل وزارة كانت أخطبوطاً، يصل بأذرعه حول العالم. وفي العديد من الحالات، فإن القرارات والأهداف العسكرية تؤثر في قدرة السفير على أن يقوم بعمله، وبشكل مشابه، فإن أولويات سفرائنا تؤثر بانتظام على العمل الذي يقوم به العسكريون.

وكذلك، فإن كلتا هاتين الوزارتين بيروقراطية ضخمة. وكل واحدة منهما تأتي مكتملة مع مئات من الشخصيات، والعديد من هذه الشخصيات يتصارعون من أجل السلطة، ويتصيدون بسناراتهم ليضمنوا أن يسير أي قرار محدد عن طريقهم. وطوال العام الماضي رأيت احتكاكاً كبيراً يتطور بين الوزارتين. وفي العديد من الحالات كانت وزارة الخارجية تنظر إلى وزارة الدفاع بوصفها مجموعة من الصقور، وهم ينادون بالعمل العسكري بدون اعتبار للعواقب الإقليمية أو الدولية. وكانت وزارة الدفاع تنظر إلى وزارة الخارجية بوصفها مجموعة من البيروقراطيين، المغرمين بعقد الاجتماعات وكتابة الأوراق، ولكنهم بطيئون في العمل في المسائل المهمة. وربما كانت الحقيقة موجودة بين القطبين، ولكن شيئاً واحداً كان مؤكداً: كانت الثقة بين الوزارتين غير كافية.

وازداد فقدان الثقة ذاك من نائب وزير الدفاع بول وولفويتز، ونائب وزير الخارجية ريتش أرميتاج، ودوغ فيث، مساعد وزير الدفاع للسياسات، والأعضاء الكبار من موظفيهم. لا تخطئ، فهؤلاء الرجال خدموا بلادهم بحماسة فياضة. دونالد رامسفيلد وكولن باول كانا موالين لهؤلاء المعاونين، ووجهات النظر التي طوروها والنقاط التي عرضوها طوال التخطيط للحرب ستجعل ذلك يبدو واضحاً

جداً. ولكن الالتزام العميق وغير المرن من هؤلاء المستشارين، في العديد من الحالات، بأفكارهم الخاصة كان التزاماً مصدعاً ومقسماً، عندما كانوا يسعون إلى التأثير على رؤسائهم، وفي النهاية على جورج بوش، بما يخص السياسة نحو العراق. في مناسبات عديدة جداً إلى حد بعيد تقاتلت بيروقراطية واشنطن مثل قطط في كيس. وأنا أعتقد أن استماعاً أفضل، ومزيداً من المرونة الفكرية، ومزيداً من الرغبة في التعلم والحلول الوسطية كان يمكن أن تخدم رؤسائهم، وتخدم القائد العام، وتخدم بلادنا خدمة أفضل.

في لوحة الإيجاز الأخيرة، وصفت وضع "قوة أمثل" على حدود العراق. ولكنني كنت أعني مزيجاً من الجند، والطائرات، والسفن التي كانت ستضيف وزناً لضغطنا الدبلوماسي، وتخدم بصفتها قلب الحملة الحاسمة في الوقت نفسه. وقد شددت، على أن نمط انتشاري المقترح، كان يستطيع أن يحقق هذه الغاية بدون استفزاز صدام إلى القيام برد فعل تجانبه الحكمة.

التحق رامسفيلد بالنقاش، لاعباً بذلك دور محامي الشيطان. هل سيتعين على القيادة المركزية أن تنتظر إلى كانون الأول/ديسمبر لتطلق عمليات حاسمة؟ كنت أعرف أن وزير الدفاع يريدني أنؤكد لمجلس الأمن القومي أكثر التوقيتات ملائمة لعملية كبيرة ممكنة. وقلت: "سيدي الوزير، نحن نستطيع أن ننشر وننفذ في أي وقت يأمرنا فيه الرئيس بأن نفعل ذلك."

وسأل الرئيس بوش، وهو دائماً متنبه للصلة بين أسلحة الدمار الشامل والإرهاب: "هل نستطيع أن نذهب أبكر، إذا كان ضرورياً؟"

وأجبت: "نستطيع سيدي الرئيس. ولكن ذلك سيكون قبيحاً. عملية أطول، متتابعة بإصابات أعلى من الجانبين. وربما مع تدمير للبنية التحتية العراقية أكبر إلى حد ضخم مما إذا أدركنا نوع العملية التي وصفتها.

قال رامسفيلد، وهو يتحدث بالدقة المتشابكة التي كان يوفرها للبيانات المهمة: "سيدي الرئيس، الجنرال فرانكس يعمل على عملية أكثر تزامناً قد تكسر بالضبط

المقاومة العراقية في مدة أقصر، بشكل مهم، من تسعين يوماً للقتال الأرضي الرئيسي.

اخترت ألا أسهب. ففي الأسبوع الماضي، كنت أنا قد فتحت باب الكلام مع رامسفيلد عن فكرة عملية حاسمة من "خمس جبهات"، والتي ستدمج اقتحامات متزامنة من الكويت وتركيا، بقوات عمليات خاصة لتحتل بسرعة "سلال سكود" الموجودة في الصحراء الغربية، و"جبهة" معلومات مشتركة مع عمليات نفسية، مصممة لتفتيت عزيمة القوات العسكرية العراقية، وجبهة نيران عملياتية تستهدف بغداد ودفاعات حرسها الجمهوري.

وأضاف رامسفيلد: "نحن في مرحلة التفكير، المبكر في هذا".

وأوماً برأسه جورج بوش وأنهى الإيجاز. "عمل عظيم، يا تومي. استمر في المحافظة عليه. سوف نفعل ما سيتوجب علينا أن نفعله لحماية أمريكا".

كان مكيف الهواء في مركز العمليات المشتركة يزأر، وجميع المقصورات مشغولة برجالها، والإليكترونيات المقدسة تضخ كثيراً من الحرارة.

جلست في محطة القائد، في التوهج الخافت للغرفة، أشاهد الصورة الجوية والأرضية في أفغانستان على الشاشات البلازمية. كان الوقت قبل الفجر في تامبا في يوم الخميس 7 آذار/ مارس 2002. فطوال خمسة أيام، كانت قوات التحالف محبوسة في القتال على السلاسل الجبلية العالية والمضائق الجبلية في منطقتي بكتيا وخوست. منذ خمسة أشهر إلى اليوم بعد أن بدأت الحرب، شكلت عملية أناكوندا(*) أول اشتباك كبير لقواتنا التقليدية في أفغانستان. ومزجت العملية المشاة الخفيفة من الفرقة الجبلية العاشرة والفرقة 101 المحمولة جواً، وقوات خاصة أمريكية وقوات عمليات خاصة بريطانية، وأسترالية، وألمانية، ودنمركية، وكندية، إضافة إلى جند أفغان من الباشتون والبانجشيريين.

(*) أناكوندا: أفعى من جنوب أمريكا من فصيلة البواء. وهي من أقوى وأضخم الأفاعي في العالم، وتقتل فريستها باعصارها وخنقها في لفاتها وهي غير سامة.

وكما عني اسم العملية فمهمة الأناكوندا كانت هي التطويق والاعتصار حتى الإبادة لقوة من القاعدة والطالبان قدرت أعدادها بما يصل إلى ألفين من العرب، والأفغان، والشيشان، والأوزبك، والباكستانيين المسلحين تسليحاً جيداً. وكان العدو من الباقين الذين هربوا من هجوم التحالف الذي سبق أن حرر معظم أفغانستان في شهر تشرين الثاني وكانون الأول/نوفمبر وديسمبر. وكثيرون من هؤلاء الإرهابيين كانوا قد دُفعوا إلى الجنوب من تورا بورا إلى وادي شاهي كوت الشديد الانحدار، والمحاط بسلسلة جبال ثلجية عالية فوقه، وكانت المنطقة مليئة بالخنادق، والاستحكامات، وحفر الهاون، إضافة إلى الكهوف والأنفاق التي سبق أن استخدمها مقاتلون مثلهم طوال سنوات.

وبخلاف الإرهابيين الذين سبق أن قتلوا أو أسروا، أو الذين نجحوا في الانسلاخ من خلال قوات الحواجز الباكستانية وقوات التحالف على الحدود الأفغانية الباكستانية، فإن قوات القلب الصلب من القاعدة وطالبان في وادي شاهي كوت كانت مصممة على ما يبدو أن تتمسك وتقاوم.

وكان قائد قوات الجيش، القيادة المركزية، الفريق بي. تي ميكولاشيك، وقائد الفرقة الجبلية العاشرة اللواء فرانكلين "بستر" هيجينباك قد اقترحا تنظيف شاهي كوت، ووافقت أنا على ذلك. وستكون العملية حاسمة: جهد موحد مركز قاتل. وقد أخبرتهم: "فكروا مشتركين. فكروا فكرياً بالاعتماد المشترك بين الخدمات."

لقد كنت أدفع بأهمية الحرب المشتركة إلى هذا الفريق منذ إيجاز القادة في أواخر شباط/فبراير، قبل أن تكون عملية أناكوندا قد برمجت لتبدأ. ووصلة المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو المأمونة وصلت القيادة المركزية بمركز العمليات الجوية في المملكة العربية السعودية، وبالمقر المتقدم لميكولاشيك في الكويت، ومع جمع من المشاركين الآخرين: بستر هيجينباك، والعميد غاري هاريل، والعقيد جون مولهولند الذي قاد القوات الخاصة في فيتنام، واللواء ديل ديلي الذي كانت تقع

على عاتق وحدات المهام الخاصة الموجودة تحت قيادته مهمة القبض على قيادة القاعدة أو قتلها.

استمعت عندما كان ميكولاشيك والقادة في أفغانستان يعرضون خطة ممتازة كانت تستفيد استفادة جيدة من المشاة الخفيفة التقليدية، وقوات الأفغان، والقوات الخاصة، ووحدات المهام الخاصة من التحالف. وقام الفريق من القوات الجوية بز موسلي، قائد العنصر الجوي في القيادة المركزية، بالإسهام بخطة جوية شاملة، ومن جملتها استطلاع بالمركبات الجوية بدون طيار من نوع بريديتر، والمقاتلات القاذفات، وطيران المساندة القريبة من نوع ايه-10.

وفكرت وأنا أستعرض الخطة بأنها مؤثرة جداً. ولكنها ليست صحيحة تماماً. كانت هذه الخطط قابلة جداً للتصديق، ولكنها لم تكن منسقة تنسيقاً كاملاً. وذكرتي بعاصفة الصحراء، إنها خليط من عمليات الخدمات "مزلة التعارض"، وليست جهداً مشتركاً حقيقة.

وقلت: "أنا أحبها، ولكني أريدكم أيها الرجال أن يُقابل كل واحد من الآخر بطريقة شخصية. الكثير من الأجزاء المتحركة هنا. ضعوها معاً مثل ساعة."

وكنتم أنظر إلى بعض الضباط الجنرالات غير المستريحين على تلك الشاشات في المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو. ولكن الطبيعة الأم كانت إلى جانبنا. ففي بداية المؤتمر ذكر بستر هيجينباك إن الطقس السيئ قد يؤخر تاريخ البداية المرسومة في 27 شباط/فبراير إلى عدة أيام. وكانت هذه هي المرة التي كنت فيها شاكرًا للطقس السيئ. هؤلاء القادة، وهم أصدقائي، وأركانهم استخدموا تلك الأيام الإضافية لفائدة كبيرة، ربطوا فيها المهام الأرضية والجوية ربطاً محكماً في خطة جديدة معدلة، هي حقاً عملية مشتركة.

وكان ذلك شيئاً جيداً، لأن قواتنا واجهت مقاومة معادية عنيدة في أثناء الأيام الثلاثة الأولى من العملية. في وقت مبكر من 2 آذار/مارس قادت زمر القوات

الخاصة قافلةً من حوالي أربعمئة مقاتل باشتوني نظموا حديثاً ، قادتها إلى وادي شاهي كوت، وهي المرحلة الأولى لعملية المطرقة والسندان. وكانت مهمتهم هي الهجوم على طول سلسلة الجبال الغربية وإجبار العدو على الدخول في مناطق تقتيل حيث ستكون عدة سرايا من جند الفرقة الجبلية العاشرة وقوات العمليات الخاصة قائمة بسد مواقع على الجوانب الجنوبية والشرقية من الوادي.

وكما يحدث في الغالب مثل ذلك في الحرب، فإن التفاصيل الموزونة بعناية للخطة لا تعيش بعد أول تماس مع العدو. وكما قلت دائماً، في أي خطة حرب يحصل العدو على صوت. وفي ذلك الصباح ألقى القاعدة بصوتها بالهاونات، وبوابل من قذائف آر بي جي، ونيران الرشاشات الثقيلة، وكلها من مواقع مخفية ومحصنة. ولتزداد العملية تعقيداً، فإن الجند الأفغان الداخلين من الشمال تم تحديدهم خطأ بوصفهم جنداً أعداء، وهوجموا من مساندة جوية صديقة.

وعندما حدث هذا بدأت المشاة الخفيفة من الفرقة الجبلية العاشرة وزمر قوات العمليات الخاصة بإدخالاتهم إلى مواقع في الممرات الثلجية التي قد تستخدم قواعد للهروب إلى داخل باكستان. ودافع العدو بشراسة عن مناطق الإنزال على طول سلسلة الجبال المكسوة بغابات الصنوبر. الطائرات العمودية أم اتش-47 شينوك ضربت بقذائف آر بي جي ونيران الرشاشات.

وكانت وحدات البحرية البرماجية، والقبعات الخضراء، والمغاوير النخبة، وخيالة الجبلية العاشرة يتلقون خسائر. وكانت أناكوندا تتحول إلى جحيم من القتال.

الطائرات العمودية المسلحة من نوع أباتشي من الفرقة 101 المحمولة جواً اشتبكت مع العدو على مدى قريب على سفوح الجبال الشديدة الانحدار، وقتلت العشرات، ولكنها تعاني من خسائر بين الطيارين وإعطاب للطائرات. وقام المسؤول عندي عن الإمداد والتموين، ديني جاكسون، بتنظيم جسر جوي من الطائرات العمودية المسلحة الإضافية، بينما شاركت البحرية من قندهار في القتال بطائرات سوبر كوبرا لتوفر المساندة بالطائرات العمودية المسلحة لنشر المشاة الخفيفة. وقام طيران ثابت الأجنحة بقصف مواقع القاعدة وكأنه سير ناقل حركة فعلي.

قاتل العدو بتصميم عنيف. وصار واضحاً في اليوم الثالث أن القاعدة عازمت على أن تكسب هذه المعركة أو أن تموت في المكان. وكانوا راغبين في الاشتباك مع قوات التحالف في التحام قريب بدلاً من معاناة القصف بالقنابل الدقيقة من طائرات غير مرئية، مثلما تلقوا في الأسابيع الماضية حول جلال أباد وقندهار.

عندما راقبت المعركة من مركز العمليات المشتركة، أظهرت الصورة الجوية سيلاً ثابتاً من المقاتلات القاذفات تعمل على الدائرة المتقلصة لمقاومة العدو على رأس الوادي وفي الكهوف على المنحدرات الشرقية والغربية. طائرات إيه-10 وورث هوغ كانت تضرب للقاعدة حفر الهاون، والاستحكامات، وكانت تدور ذهاباً وإياباً من القاعدة الجوية في باغرام. وطائرات بي-52 من ديبغو غارسيا كانت تدور عالية فوق المكان، وتسقط خيوطاً من ذخائر الهجوم المباشر المشتركة على مواقع العدو المحصنة. وكانت الطائرات العمودية الهجومية تضرب استحكامات القاعدة بمدافع سلسلية(*) عيار 30 ملم وبالصواريخ.

لقد وقفت القاعدة وقفتها المقاومة في ما كانوا يعتبرونه حصناً منيعاً لا يهاجم. وعندما حاول جند الاقتحام الجوي السوفيتي أن يستولوا على هذه المنطقة في الثمانينيات من 1980 تكبدوا مئات من القتلى والجرحى. ولم يهزموا العدو.

أما عملية أناكوندا فجاءت بنتيجة مختلفة. في هذه المرة كانت القاعدة والطالبان هم الذين تكبدوا الخسائر الثقيلة. كان التحالف يجتاح هذا المعقل الأخير، ويقفل الكهوف والأنفاق، والعدو في داخلها، بشحنات التدمير القوية، ويدمر مخابئ ضخمة للمعدات. كان شبابنا من رجال المشاة، وطياري القتال، وجند قوات العمليات الخاصة، يقتلون مئات من مقاتلي العدو المسلحين أفضل تسليح، ولديهم أعلى دافع، وكان العديدون منهم محاربين قدماء قوتهم المعركة في القتال في الشيشان والبلقان. لن يبقوا أحياء ليقاتلوا ثانية.

(*) نوع من الرشاشات أو المدافع الذاتية التي تستخدم مصدراً خارجياً للطاقة هو محرك لتدوير السلاح بدلاً من الارتداد. المحرك يسوق السلسلة وهذه تزلق مجموعة الترياس للخلف وللأمام للتلقيم، والرمي، ونزع الخرطوشات وقذفها.

وعندما اتخذت طريقي خارجاً من منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة وهي بلا نوافذ، أدركت أننا نكسب معركة حاسمة. قبل أن تنتهي عملية أناكوندا ستكون قد دمرت آخر قوات متماسكة مسلحة تسليحاً جيداً للعدو في أفغانستان.

طوال الأسابيع القادمة، كان هناك الكثير من روايات الصحافة المثيرة المؤثرة عن المعركة. العديد منها أشار إلى شجاعة جنودنا، ومهارتهم، وجلدهم، ولكن روايات أخرى وصفت "انهيارات" وأخطاء فاحشة كانت على ما يفترضون مسؤولة عن خسائر التحالف. قتل لنا ثمانية جنود خيالة في المعركة، وجرح اثنان وثمانون، من أصل 2027 جندياً اشتبكوا في أثناء العملية التي دامت أسبوعين. وكان من المستحيل حساب خسائر العدو بدقة، فالعديدون منهم نسفوا فتمزقوا إرباً، وآخرون أقفل عليهم في داخل الكهوف بالانهيارات الصخرية التي أطلقتها قواتنا بالشحنات المتفجرة، ولكن تقدير المعلومات الاستخبارية الأخيرة يرى أن مئات من جنود العدو قد قتلوا.

والأكثر أهمية، هو أن آخر ملجأ للقاعدة في أفغانستان قد تم تدميره. ولن يعاد بناؤه ثانية أبداً.

أنا بكيث بعد تلك المعركة، فقد كنت أجلت عواطفني إلى أن أستطيع تحملها، وذلك مثلما كنت قد رأيت إيريك أنتيلا يفعل قبل العديد من السنوات. فكرت في الزوجات، والأطفال، والأمهات، والآباء الذين كانوا يحزنون على فقد من يحبون، وحزنت معهم. ولكنني أيضاً احتفلت بحياة هؤلاء الأبطال الشباب.

عندما كنت في باغرام بعد اثني عشر يوماً، أدبَس القلوب القرمزية على صدور الشباب الشجعان من الفرقة الجبلية العاشرة وخيالة الفرقة 101 المحمولة جواً، سميت عملية أناكوندا "نجاحاً تاماً ومطلقاً". وردت الصحافة رداً سلبياً. وقد سألت: كيف تكون أي معركة نجاحاً عندما يكون أمريكيون قد قتلوا أو جرحوا فيها؟

عندما غادرت باغرام وطرت فوق تلال أفغانستان البنية المليئة بالندوب، فكرت في أسئلة المراسلين، وفي تكاليف الحرب. عندما تطلق نيران الأسلحة يموت الناس، على كلا الجانبين. وتذكرت أول مرة قرأت فيها حول العملية هسكي، وهي عملية تموز/يوليو من العام 1943 لغزو الحلفاء لجزيرة صقلية. مئات من الأمريكيين والبريطانيين من قوات المظليين والجند المحمولة على الطائرات الشراعية قتلوا عندما قامت القوات البحرية الصديقة البعيدة عن الشاطئ بالرمي خطأ على الطائرات الشراعية ووسائل نقلها. عندما أطلقت طائرات السحب تلك الطائرات الشراعية قبل مسافة قصيرة من مناطق إسقاطها، فأدى ذلك إلى سقوطها وتحطمها في البحر الأبيض المتوسط. خسائرنا لم توقفنا في العام 1943. لقد كنا مشتبكين في حرب البقاء القومي، وبقيت أمريكا محفوظة.

أنا أستطيع فقط أن أمل أن هذا الجيل الجديد من المراسلين سوف يصل يوماً ما إلى فهم طبيعة الحرب: حقائق القتال، والوجه القبيح للمعركة. وذلك لأن أمريكا كانت مشتبكة مرة أخرى في صراع من أجل البقاء.



الفصل العاشر

الخطّة

رامشتاين، ألمانيا

21 آذار/مارس، 2002

أظلمت الشاشة، وأضاءت أنوار غرفة الاجتماع، ووقفت أنا على رأس الطاولة. كان الوقت في أواخر أصيل يوم الخميس 21 آذار/مارس، 2002، في نهاية يوم طويل اشتغلنا فيه بخيارات العراق مع قادة عناصر القيادة المركزية في مركز إعداد المحاربين التابع للناو عبر الطريق السريع من قاعدة رامشتاين الجوية. في خارج الغرفة، كانت منحدرات التلال من أرض السار قد بدأت تتبرعم لتتحول إلى خضرة الربيع. أما غرفة المؤتمر التي كانت معقمة، وبلا نوافذ فكان يمكن أن تكون في خط الاستواء أو في القطب الجنوبي.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي جلس فيها قادتي لقوات الأرض، والجو والبحرية، والعمليات الخاصة مع مديري أركاني ومعني لمناقشة شكل ومجال عملية عسكرية ممكنة لإزالة نظام صدام حسين.

لقد عمل جين رينيوارت وجيف كيمونز عملاً بارعاً في تلخيص التكرار الحالي من تصور القائد. سبعة خطوط للعمليات، وتسع شرائح تمثل مراكز الثقل العراقية.

لخصت مناقشاتي مع الرئيس ومجلس الأمن القومي في كراوفورد وفي البيت الأبيض: إذا أمر الرئيس القيادة المركزية بالحرب، فإن العملية لن تكون استثنافاً وتكراراً لعاصفة الصحراء. سوف نذهب إلى داخل العراق سريعين وأشداء، لا بطيئين متثاقلين، منطلقين بأفضل تزامن ممكن من أكبر عدد من البلدان يستطيع المفاوضون بالجزرة- والعصا الأمريكية أن يقدموه لنا.

وقلت: "يأمل الرئيس ألا تكون الحرب ضرورية. ويعتقد مجلس الأمن القومي أن الدبلوماسية الثنائية والدولية قد تعمل. " وهززت رأسي. كان يجب على هؤلاء الضباط أن يفهموا الطبيعة الحقيقية لمسؤوليتنا. " القيادة المدنية سوف تفاوض، في الأمم المتحدة ومع رؤساء الدول والوزراء حول العالم. بالنسبة إليهم، التخطيط العسكري خطوة حصيفة. وواجبنا نحن أن نعمل ذلك التخطيط. " وتركتهم يستوعبون كلماتي.

وقلت: "يا رجال، يوجد في البيت لص." وفهموا جميعهم تعبير القوات الخاصة: أنت لا تقلب في فراشك وترجع للنوم عندما يكون هناك واغل دخيل في الدور السفلي من البيت يحمل مسدساً. كانت هذه مهمة عاجلة، مهمة سوف تتطلب تركيزهم الكامل. "نحن نحتاج إلى تخطيط صلد كالصخر، تخطيط مشترك لتنفيذ مشترك."

ونظرت حول طاولة الاجتماع. كنا نلبس ملابس مدنية "أوروبية-عادية" لأسباب أمنية، ولكن كل واحد منا حمل معه بطاقة اسم صغيرة على معطفه أو كنزته الرياضية. وقلت: "أرى الجيش، والأسطول، والقوات الجوية، وسلاح مشاة البحرية على بطاقات أسمائكم. ولكن البطاقات التي أريد أن أراها ستقرأ قوات مشتركة: جميع الخدمات تعمل معاً كأنها واحدة.

"هناك في مقاطعة باكتيا في الماضي القريب كان الجنود، وقوات البحرية البرماجية، وملاحو القوات الجوية، وطيارو كوبرا البحرية، ورجال وحدات المهام الخاصة بقيادة بيرت كوللاند وديل ديلي يقاتلون، ويموتون، ويقتلون القاعدة. لم تكن هناك حملات أرضية، أو حملات جوية، أو حملات قوات خاصة. كانت هناك خطة متكاملة واحدة، وقاتل جماعتنا بوصفهم قوة مشتركة."

واجتذب ذلك نظرة رضا من قادة العناصر.

وقلت لهم: "إذا تعين علينا أن نقاتل في العراق، فسوف نفعل ذلك فريقاً

مشاركاً. لن نأخذ أوامر من رؤساء الخدمات في واشنطن. أنا سأخذ أوامري من وزير الدفاع... وأنتم ستأخذون أوامركم مني. لا وقت للرعاية الضيقة من الخدمات."

ورفعت يدي. "نقطة أخيرة. ما ناقشناه اليوم لا يتجاوز الأشخاص الموجودين في هذه الغرفة. هذه القيادة لا تسرب. نحن عسكريون محترفون، لا مجموعة من التافهين... النفعيين."

كنت أستطيع أن أرى أن رسالتي قد تسجلت.

وقلت: "حسناً، هيا نذهب لنشرب البيرة ونأكل بعض شرائح شنييتسل (*).

واعتقدت أن الجلسة سارت سيراً حسناً. وعرف القادة الواجب الصعب الذي ينتظر أمامنا. واعتقدت أنهم فهموا مشاعري حول قتال الحرب المشتركة... والتسريبات.

ولكن في صباح يوم في مطالع شهر أيار/مايو وكنت قد رجعت إلى تامبا، أحضر لي مديري للعلاقات العامة العميد البحري كريغ كوكلي، نسخة من قصة جريدة لوس أنجيلوس تايمز بقلم وليام آركن، وهي قصة كانت محملة بتفاصيل متسرية حول اجتماع رامشتاين وتخطيطنا للعراق. وبحسب مصادر آركن في البنتاغون والتي لم يذكر اسمها، كان التخطيط "مفرطاً بالتبسيط وقصير النظر". وانتقد آركن أيضاً عملية التخطيط المتكررة (التي كانت قد "برزت في شباط/فبراير" حسب ما كتب) مشيراً إلى مسؤولين كبار في وزارة الدفاع، ومدنيين لا يرتبطون بأي خدمة مفردة. "ومصادر وزارة الدفاع غير المعروفة اتهمت القيادة المركزية بالعجز الفاضح، وعدم الكفاية الإستراتيجية، وبتجاهل "العناصر الناجحة" من عاصفة الصحراء، والحملة الجوية على كوسوفو، والعمليات في أفغانستان. واحتوت القصة على أسرار عالية من المعلومات المقسمة، ومن جملتها خيارات من أجل القيام بعمليات أرضية وجوية متزامنة من اتجاهات عديدة.

(*) شرائح لحم رقيقة من العجل أو الضأن. تغمس بمزيج من الدقيق والبيض والحليب ثم تقلى.

وأخبرت كريغ كوكلي: "هذا سيكون مضحكاً، لولا كل هذه الإحالات إلى "الأسرار العليا في خطوة بولو." خطوة بولو، كانت الاسم الرمزي للتخطيط المقسم الحساس.

كان واضحاً أن شخصاً ما كان معي في رامشتاين قد روى محتوى اجتماعنا إلى عضو غير مسمى أو أعضاء من مجتمع وزارة الدفاع، وأن ذلك الشخص سرب أحشائه للخارج، صاباً هجومه على خيارات التخطيط التي كنا نطورها، وهي خيارات لم تتلاءم على ما يبدو مع آرائه. وقالت المقالة: "إن خطة العراق التي بدأت تبرز لم تُستحضر أبداً إلى (غرفة القيادة) رسمياً، لمناقشتها بين رؤساء الخدمات كلها." وفكرت أن هذا هراء... مطلق. ففي 29 آذار/مارس، قدمنا إيجازاً لرؤساء الخدمات، في غرفة القيادة. وقد رأينا الكمية العادية من الرعاية التي قدمتها الخدمات وهي غير مطلوبة، ولكن ديك مايرز بقي ممسكاً بالزمام مع الرؤساء، وكانت جلسة مثمرة.

وما كنت لأترك غضبي من هذا الذي حدث يتدخل بعلمي، طبعاً. ولكني سوف أجعل وزير الدفاع يعرف ما كنت أرى في هؤلاء المسربين في وزارة الدفاع، الذين كانوا يعرضون أبناء أمريكا وبناتها للخطر.

وقلت لرامسفيلد في أصيل اليوم التالي: "سيدي الوزير، إذا كنت أبدو غاضباً فذلك لأنني غاضب فعلاً." وذكرته فقط بكمية المواد المقسمة التي ظهرت في قصة آركن. "أنا أود أن يعرض على آلة كشف الكذب كل واحد يعمل في مكتب وزير الدفاع وفي هيئة رؤساء الأركان المشتركة، ويعرف التفاصيل عن عملية تخطيطنا، وأن يلاحق إذا اكتشف أنه قد سرب معلومات أسرار عالية."

وجعلني رامسفيلد أبرد. وقال: "إنه أمر لا يصدق."

"سيدي الوزير، إن واشنطنون دي. سي هي الوعاء الوحيد على هذا الكوكب الذي يسيل تسربه من أعلى."

"سوف أنظر فيها، يا جنرال."

طوال الأيام القليلة التالية عقد رامسفيلد اجتماعات "تعالوا إلى المسيح" مع رؤساء الخدمات وأركان مكتب وزير الدفاع، وناقشت أنا إحباطي من التسريب مع أركان القيادة المركزية ومع عناصره. تباطأت التسريبات بعد ذلك. وعلى الرغم من أن بعض "القطرات" استمرت بالتسريب، ولكنها لم تكن مضرّة أبداً مثل المعلومات التي قدمها ابن ح... للمراسل ليخدم نفسه.

كانت غرفة الموقف في البيت الأبيض باردة برودة تبعث على السرور بعد حرارة آب/أغسطس المرهقة في قلب المدينة واشنطن. وكان كولن باول وجورج تيننت قد وصلا كلاهما قبل قليل، بعد أن كانت ذروة المرور الكثيف قد أمسكتها كليهما. وكل ياقات قمصاننا كانت رطبة من التعرق.

وألقى أحدهم ملاحظة بارعة عندما كان باول يأخذ مكانه إلى جانب الرئيس: "إن البريطانيين ما يزالون يصنفون واشنطن بصفته موقعاً مدارياً شديداً المشقة."

وقد جئت أنا وجين رينيوارت إلى البيت الأبيض في يوم الاثنين الأول هذا في شهر آب/أغسطس لتقديم إيجاز للرئيس وللمجلس الأمن القومي عن آخر نسخة مما صار يعرف باسم خطة العمليات 1003 V، فهي لم تبق تصوراً، وهي الآن خطة مكتملة النضج. وسوف نلخص التقدم الذي أحرزناه منذ اجتماعنا في كامب ديفيد في شهر أيار/مايو، عندما عرضت ووصفت أنا سلسلة من الخيارات العسكرية لإزاحة صدام حسين من السلطة.

في اجتماع أيار/مايو ذاك، وفي واحد من أفصح العروض التي سبق لي أن سمعتها مطلقاً، بسط كولن باول قضيته وبين فيها أن العالم اليوم كان مختلفاً إلى حد بعيد عما كان عليه في المدة 1990-1991، عندما تم تشكيل التحالف لإزاحة صدام من الكويت. وحاجاً بأنه لن يكون من السهل بناء تحالف كبير، واصطفاف إجماع في الأمم المتحدة لصالح العمليات العسكرية. عرض كولن لم يكن سلبياً،

ولا إيجابياً، كان ببساطة بياناً للواقع كما رآه. وعندما كنت أنصت، تأثرت بتوازن ما كنت أسمع. وزير الخارجية كان يصدر تحذيراً: هذا لن يكون سهلاً. ولكن لم يكن هناك حاجة، ولا اعتصار أيدي. في عدة نقاط في أثناء المناقشة أوماً الرئيس ونائب الرئيس تشيني برأسيهما بالموافقة. وقال باول: "لا أعرف إن كنا نستطيع أن نحصل على كل الدعم الدولي الذي نحتاج إليه أم لا. ولكننا سنحاول." أنا كنت موافقاً على أن الأمم المتحدة ستكون صعبة، ولكنني كنت أفكر أنا نفسي بجدية بشأن حاجتنا التحالفية، وفي رأيي أن الأمم الموجودة في منطقة القيادة المركزية سوف توفر كل الدعم المطلوب، إذا لم يكن كل الدعم المرغوب.

بين منتصف أيار/مايو وأواخر تموز/يوليو، قمت بثلاث رحلات إلى منطقة المسؤولية، وكنت أركز فيها على تحسينات البنية التحتية وبناء قواتنا. واجتمعت مع القادة في قطر، وعمان، والإمارات العربية المتحدة، والبحرين، والأردن. وكالمعتاد دائماً، زرت جندنا في أفغانستان.

تولى الفريق دان ماكنيل، قائد الفيلق الثامن عشر المحمول جواً، القيادة لقوة المهام 180، قوة تحالفنا، وأسس مقره في القاعدة الجوية في باغرام. وكنت قد خدمت مع دان في كوريا في أثناء التسعينيات من 1990، وكان محارباً قديماً محنكاً، ولقد سرنني أن يكون معنا في فريقنا.

وشدد الرئيس بوش على اهتمامه بأن نديم الزخم في أفغانستان، ولو نفذنا الخطة V 1003 في العراق. وأنا وافقت، وأخبرته: "سيدي الرئيس، سوف نستمر في التركيز على أفغانستان، لأن عملياتنا هناك من الناحية الإستراتيجية ستكون هي (جناح) العراق. وبعد أن كنت قد ناقشت هذا مع الوزير رامسفيلد، اتفقنا على أن مستوى قوة الولايات المتحدة سيبقى في حدود 9.500 جندي ما لم يكن هناك سبب للتغيير، وعند هذه النقطة سوف نناقش ذلك المستوى. كان دان ماكنيل هو بالضبط الرجل الذي نحتاج إليه على الأرض، ليحافظ على الضغط على أسامة بن لادن وبقايا القاعدة. ومع تحركنا نحو الحرب مع العراق، التحق دان بالفريق، وصار

عضواً في القيادة المركزية، وحضر كل جلسة للتخطيط وكل إيجاز. وبعد أن كنت قدمته للرئيس مشرف ولحامد قرضاي، أقام هو علاقات لا تعوض معهما ومع الآخرين من القادة الإقليميين. وبسبب من جهوده، فإن مهمتنا في أفغانستان لم تعان من شيء.

الآن، والرئيس وأعضاء مجلس الأمن القومي يستمعون، أعلنت التقدم الذي أحرزناه في الخطة.

وقلت: "سيدي الرئيس، إذا اتخذ قرار لتنفيذ عملية عسكرية في العراق، فلن يكون علينا أن نذهب إليها وحيدين. نحن نمتلك موافقات مؤقتة للدخول، والطيران فوق البلاد، وإقامة القواعد، وترتيب التمرحل عبر كل الخليج."

كانت الغرفة هادئة. لقد سبق لي أن ناقشت مع رؤساء الدول الإقليمية ومع وزراء دفاعهم تحديث القواعد التي استخدمناها بشكل رتيب للتدريب ولترتيب تمرحل القوات للعمليات في أفغانستان. وبشكل خاص، أخبرتهم أننا كنا نحسن البنية التحتية ووضع القوات تحسباً للحالة التي قد يصير فيها من الضروري نزع سلاح العراق بالقوة. وكانت الكويت دائماً مشاركة، وكانت هي مرساتنا. ولدينا الآن التزام الملك عبد الله ملك الأردن وقادة دول الخليج للسماح بالتمرحل، والقواعد، والطيران فوق البلاد، وذلك للقوات البحرية، ولطيران القصف والاستطلاع، ولصهاريج إعادة التزود بالوقود، ولقوات العمليات الخاصة، في عدد من المواقع الإستراتيجية القريبة من العراق.

ومنح أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، الإذن بوضع الطيران المقاتل في العُديد، وبنقل مركز قيادتنا القابل للانتشار إلى معسكر السيلية حالما ينتهي على يد مقاولينا في فلوريدا.

وذُكرت الأمير بأنني في أول لقاء لنا بعد أن صرت قائد القيادة المركزية، كنت

قد سألته ماذا أستطيع أن أفعل له؟

وكان هو قد رد مع ابتسامة: "أرسل لي عشرة آلاف جندي أمريكي".
وفي أحدث رحلة لي إلى قطر، حققت له طلبه. وقلت له: "قد أكون تأخرت
لسنتين، ولكنك ستحصل على جندك الأمريكيين".
أنصت كولن باول بانتباه عندما امتدحت السفراء الأمريكيين في المنطقة على
مساعدهم في تحقيق النتائج التي كنت أصفها. وتبسم وأرجع الفضل لدبلوماسيه
على كل ما أنجزوه.

وقال: "ناس جيدون".

وقلت: "سيدي الرئيس، كما سبق أن أعلمت الوزير رامسفيلد، فإن كل قائد
إقليمي يفهم أننا ندير تخطيطاً طارئاً، وأنت لم تتخذ قراراً للذهاب إلى الحرب".
وأوماً رامسفيلد برأسه.

وقلت للرئيس: "ومع تطابق (دورات) حاملة الطائرات، ومع زيادة انتشارات
(التدريب) كذلك لكتائب فرقة المشاة الثالثة إلى الكويت، ومع زيادة عدد الطائرات
التي نمتلكها في عملية مراقبة الجنوب، نكون قريبين من امتلاك قوة تستطيع أن
تتفد الخيارات الأحمر، أو الأبيض، أو الأصفر، إذا صار ذلك ضرورياً".

منذ 9/11، كان أعضاء مجلس الأمن القومي قد استوعبوا الكثير من المعلومات
العسكرية التفصيلية. ولكنهم كانوا سيتلقون منها المزيد الكثير.

وتابعت: "فرقة المشاة الثالثة هي وحدة مشاة آلية مع دروع ومدفعية مرتبطة
ارتباطاً عضوياً فيها وتمتلك سنوات من خبرة في الصحراء وهي تناوب في دوران
الوئتها في الكويت. ولا يبدو منذراً منبهاً للعراقيين أن وحدات تلك الفرقة تصل إلى
ميادين تدريب الكويت ومعها قواذف إضافية من نظام قذف الصواريخ المتعددة
وطائرات عمودية هجومية. ببساطة، استخباراتهم ليست متقدمة بما فيه الكفاية
لتعي وتلاحظ مثل هذه التغيرات المتزايدة".

وقال الرئيس: "أفهم تماماً"

وقلت وأنا أنظر في ملاحظاتي: "لقد طيرنا أكثر من أربعة آلاف طلعة فوق العراق منذ كانون الثاني/يناير، واستهدفت الدفاعات الجوية العراقية طائراتنا أو خرقت مناطق حظر الطيران اثنتين وخمسين مرة. وذلك ضعف معدل العام الماضي."

وسألت كوندي رايس: "هل سيكون منطقياً مفهوماً أن نخفض مخاطرتنا بتقليل عدد الطلعات؟"

وأجبتها: "يا كوندي، عند نقطة ما ربما سيكون مفهوماً أن نقلل الطلعات، ولكن ليس بعد. نريد أن نستمر باستخدام خيارات الرد لتخفيض نظام الدفاع الجوي المتكامل العراقي. إذا وصل الأمر مطلقاً إلى الحرب، فسنريد لنظامهم الدفاعي الجوي المتكامل أن يكون في أضعف حال ممكن له."

أظهرت اللوحات التالية ذراً وأودية في تدفق قواتنا. وقلت: "في غضون شهر، ستكون لدينا عناصر المقدمة لقوة بداية الركض في مكانها."

وسأل دونالد رامسفيلد: "ولكن هذه الخطوات لا تأخذنا إلى ما وراء نقطة اللاعودة؟"

"لا، يا سيدي الوزير."

واللوحة التالية كانت معنونة: التوقيت المعدل. وقلت: "مع التعزيزات الحالية للقواعد وللبنية التحتية تمت مراجعة المدة المتوقعة للمراحل الثلاث الأولى للعملية الكلية إلى خط التوقيت 45-90-90."

وبكلمات أخرى، نستطيع أن نبدأ العمليات بنشر قواتنا في الوقت الذي نطلق فيه حملة جوية وقوات عمليات خاصة لتشكيل فضاء المعركة؛ وجميع ذلك سوف يستغرق حوالي خمسة وأربعين يوماً. وفي أثناء ذلك الوقت، سوف نستهدف المواقع العراقية المشتبه بوجود أسلحة الدمار الشامل فيها، وتشكيلات الحرس الجمهوري، وإنشاءات القيادة والسيطرة، ونمنع استخدامهم للصواريخ الباليستية في المسرح.

وستبدأ القوات الأرضية بالوصول وتتحرك من خلال مناطق تمرحلهما، في الكويت ومن الممكن في تركيا، إلى داخل العراق، وسوف تستمر عملياتها القتالية الأولى طوال التسعين يوماً التالية. وسوف تدار بعدئذ "عملياتنا التعرضية الحاسمة" طوال مدة أقصاها ثلاثة أشهر كي "نستكمل تدمير النظام". وأضافت "من الواضح أن هذا الخط 45-90-90 سوف تتلوه المرحلة الرابعة وهي أطول بكثير. ولست أعرف كم ستطول".

"ونسُميها بداية الركض لأن الوحدات التي تصل المسرح لن تنتظر لتصل قوات المتابعة اللاحقة، ولكنها بدل ذلك ستتحرك قدماً بشكل مباشر نحو أهدافها". وسأل ديك تشيني: "يا جنرال فرانكس، هل ستبقى الأهداف الكبيرة لبداية الركض من دون تغيير؟"

وكان الجواب نعم. "فإن كلا من الهدف الإستراتيجي المتعلق بتغيير النظام، وأهدافنا العملية المتعلقة بتأمين حقول الزيت والبنية التحتية للماء تبقى من دون تغيير، في الوقت الذي نمنع فيه صدام من استخدام الصواريخ الطويلة المدى، وأسلحة الدمار الشامل".

لوحتي التالية حملت عنوان: تصور هجين. مزيج من خيارَي التصور المولد وبداية الركض. ومثل بقية التصورات التي نظرنا فيها كان للتصور الهجين أربع مراحل. الانتشار الأولي في المرحلة الأولى منها سوف يتسارع إلى درجة كبيرة بواسطة جسر جوي ضخّم، يستخدم الأسطول الجوي الاحتياطي المدني لنزيد قدراتنا العسكرية في النقل. عشرات الآلاف من الجند سينقلون إلى منطقة الحرب في أسبوع. وفي أقل من أسبوعين بعد ذلك سوف يقترنون مع تجهيزاتهم، التي ستكون مشحونة عن طريق البحر. وهذا البناء لقواتنا سوف تحميه مظلة جوية قتالية من ثمانمائة طائرة قصف على متن حاملات الطائرات ومن القواعد الأرضية في جميع أنحاء الخليج. وفي المرحلة الثانية، سوف نطلق عمليات جوية وقوات عمليات خاصة إلى داخل العراق لمدة حوالي أسبوعين لتدمير مجموعات الأهداف

الرئيسية وإقامة الظروف اللازمة لنشر وحدات ثقيلة. وبعدئذ سوف تطلق الوحدات الثقيلة عملياتها في المرحلة الثالثة، التي يمكن أن تدوم حتى تسعين يوماً، وسوف تستكمل تدمير القوات العسكرية العراقية.

وشرحت: "إن التصور الهجين تتابعي قليلاً، ونحن نفضل العمليات المتزامنة من أكبر عدد ممكن من الاتجاهات. ولكن قيمة التصور هي أنه يعطي الرئيس خيار الانتظار لبناء القوات... أو أن يهاجم في وقت أبكر إذا اختار"

وأضفت: "إذا استخدمنا الأسطول الجوي الاحتياطي المدني، سيدي الرئيس، فستكون بالتأكيد لحظة نموذجية لمحنة سي إن إن. ولكنها لن تلزم البلاد بالحرب. سنكون قد كشفنا مواردنا ونوايانا، ولكننا لم نبدأ بعد بإطلاق النار."

فكر الرئيس بوش في هذه الخطة. ثم قال: "جيد، نحن لسنا ذاهبين إلى الحرب ما لم يتوجب علينا."

وتابعت: "إن نشرنا سريعاً للقوة يعزز قدرتنا العسكرية على حدود العراق، ويساعد أيضاً في تنظيم الضغط الدبلوماسي على نظام صدام."

كان أعضاء مجلس الأمن القومي يتأملون لوحة التصور الهجين باستغراق، وكنت أريد أن أتأكد من أنهم فهموا مرونة النموذج. وشرحت للرئيس: "هذا ليس محفوراً في الحجر، هناك الكثير من التنوعات الممكنة. ولكن الفكرة الأساسية هي أننا بعد أن نكون قد امتلكننا البنية التحتية المطلوبة في المكان، نستطيع أن نوسع مستوى جندنا بشكل سريع جداً، وننتقل إلى العمليات الحركية في أي نقطة من اختيارك، وأن ندفع قوات المتابعة خلف وحدات المقدمة."

وأوماً الرئيس برأسه ثانية.

والتفت إلى لوحة مخاطر إستراتيجية. "مثلاً ناقشنا، فإن صدام حسين يستطيع أن يزيل التزامن عن هجومنا عن طريق إطلاق صواريخ على جيرانه. ويمكن أن تكون الكويت، والمملكة العربية السعودية، والأردن، وإسرائيل أهدافاً له، مع كون إسرائيل هي أخطر الجميع علينا من منظور إستراتيجي."

وشرحت أنها ستكون خطوة حصيفة، لمواجهة هذا التهديد، أن ننشر صواريخ باتريوت بي ايه سي-3 في المنطقة. وهذه النسخة المحدثة للباتريوت تقدم حماية كبيرة من صواريخ سكود وغيرها من الصواريخ البالستية في المسرح، وتستطيع صواريخ الباتريوت أن تعزز الصاروخ الجديد أرو 2 المضاد للصواريخ البالستية في المسرح، وهو الصاروخ الذي كان الإسرائيليون يضعونه في الميدان. "إذا نشرنا صواريخ بي ايه سي-3 الآن، سيدي الرئيس، فإننا نستطيع أن نخفف إن لم نستأصل المشكلة."

كان الرئيس ينصت بانتباه. "يا تومي، كيف تتعامل مع مشكلة بغداد."

"القلعة بغداد" كانت مبعث اهتمام مستمر بين القيادة المدنية، وكنت أجتمع وأتساور مع كبار أركانني في المسألة طوال أسابيع. التصوير من أعلى ومعلومات الاستخبارات الإليكترونية أكدت أن فرق الحرس الجمهوري ووحدات الحرس الجمهوري الخاص التي كانت متمركزة في بغداد وحولها هي عرضة للهجوم الجوي بالذخائر الموجهة الدقيقة. ونحن كنا نعمل على ما دعوته الاقتراب: "من الداخل- إلى الخارج": فبدل المهاجمة من خارج النطاق الدفاعي الموجود حول العاصمة، فإننا سوف ندمر العدو الموجود داخل النطاق بهجوم جوي لا هوادة فيه، يعمل من المركز متجهاً نحو الخارج. وكلما كانت مواقع الحرس الجمهوري أكثر تجمعاً، صارت أكثر تعرضاً وانكشافاً. والمهاجمة في داخل بغداد وحولها تكتسب منفعة مضافة أخرى وهي جعل المدينة "غير مضيافة" للقوات التي تبحث عن مكان تختبئ فيه. وكما قال لي إيرك أنتيلا قبل ثلاثين عاماً، "لا تسبح الجرذان أبداً نحو سفينة تفرق."

ولكن التصور كان يحتاج إلى مزيد من العمل، ولذلك فقد أعطيت الرئيس جواباً حذراً. "أنا متفائل بأننا سنمتلك حلاً عملياً للمشكلة قريباً، سيدي الرئيس. وسوف أحضره إلى الوزير رامسفيلد حالما نمتلك شيئاً صلباً."

ومثل "التحديات" التي فرضتها على نفسي في بطاقتي اليومية من قياس ثلاثة في خمسة، فإن هذه الغرفة قدمت أسئلة تستثير العقل ولا تعاني من قلة:

"ماذا لو سد العراقيون خطوط أنابيب النفط إلى الأردن، وسورية، وتركيا؟"

"هل الجبهة الشمالية من تركيا إمكانية حقيقية؟"

"ماذا يحدث إذا استخدم صدام أسلحة الدمار الشامل على جندنا؟"

"أيحتمل أن ينسف البنية التحتية المائية؟"

وجميعها أسئلة جيدة، وناقشنا كل سؤال بدوره. ما من سؤال منها سيجاب عليه إجابة كاملة في هذه الجلسة، ولكن الآن وبعد أن صار العديد من المسائل موضوعاً على الطاولة، فإن الرؤساء سوف يتفكرون ويقترحون حلولاً ممكنة في الشهر القادم. كان هذا جمعاً مفكراً من اللاعبين: وأنا أحسست بمزيد من عمل الفريق بينهم جميعاً بأكثر مما ستقر به وسائل إعلامنا القومية مطلقاً.

وعندما تباطأ النقاش، قدمت مجموعة من المشكلات الصعبة تحت عنوان منفرد: النجاح الكارثي.

إذا "انكسرت" المقاومة العراقية فعلاً بسرعة، كما كنت أظنه ممكناً، أو إذا أطاح انقلاب عسكري بنظام صدام حسين عند انطلاق الحملة، أو تطورت انتفاضات مبكرة بين الشيعة والأكراد، فماذا سنفعل؟

قال دونالد رامسفيلد: "سوف نتابع العملية لاستعادة وصيانة النظام إلى أن يستطيع العراقيون أن يحكموا أنفسهم".

ووافق أعضاء مجلس الأمن القومي على قلب رجل واحد.

وقدّمت إيجازاً للغرفة عن التهديد، مبدئياً كالمعتاد بالأساسيات. واستخدمت صور مباني النظام المهمة في قلب بغداد ومركزها، ومن جملتها مقر حزب البعث ومركز قيادة المخابرات وهي منظمة أمن خاصة، وشرحت كيف أن تدمير هذه البنى سوف يعمي ويشل حلقة القيادة الداخلية لصدام.

وقلت: "نحن نعرف أين هم، ونحن نعرف من يعمل هناك." وسيكون قتل قادة النظام وتدمير جهاز القيادة والسيطرة أولوية. ولن يكون هذا مثل البحث عن الملا

عمر في جحر من قوالب اللبن أو مجمعات طوب الإسمنت والرماد في قندهار. ستكون أسلحتنا المختارة هي صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، وذخيرة الهجوم المباشر المشتركة، وكل ما هو متوافر من الذخائر الموجهة الدقيقة التي نسميها بمختصرات تضم الحروف الأولى من أسمائها. وهذه الأهداف تقع قريباً من مباني الشقق الخاصة بذوي الدخل العالي والبيوت الخاصة، والكثير منها تعود ملكيته إلى قادة النظام ومحبيه. ولكن النخبة السياسية والتعليمية للعراق، من الأطباء، والمهندسين، والمديرين الذين ستدعو الحاجة إليهم لإعادة بناء بلدهم، تسكن أيضاً في هذه الأحياء.

أكدت لمجلس الأمن القومي: أن "خبراء التهديد في القيادة المركزية يعملون بجد في هذه المشكلة. ومجموعة الأهداف في شريحة قيادة النظام هي جوزة قاسية. ولكننا سنكسرهما."

وكانت لوحتي الأخيرة، على وجه الإمكان، هي أهم اللوحات: عمليات الاستقرار في المرحلة الرابعة.

وشرحت قائلاً: "إن التصور المولد وبداية الركض والتصور الهجين كلها تنظر إلى المرحلة الثالثة وقد انتهت بوجود عدد من الجند في العراق أقصاه مائتان وخمسون ألف جندي. وسيكون علينا أن نقيم جيشاً عراقياً جديداً، وننشئ شرطة تشمل خليطاً ممثلاً قبلياً، ودينياً، وعرقياً. وسوف يستغرق ذلك وقتاً.

"ومشاريع بناء حسنة التصميم وجيدة التمويل لوضع الأعداد الكبيرة من العراقيين في العمل ولمواجهة حاجات المجتمع بسرعة، ومواجهة التوقعات، ستكون هي المفاتيح لنجاحنا في المرحلة الرابعة."

وقال دون رامسفيلد: "وسنرغب في جعل العراقيين في موقع المسؤولية عن العراق بأسرع ما يمكن." وعند سماع كلماته أومأت الرؤوس حول الطاولة بالموافقة.

وقلت: "عند نقطة ما، نستطيع أن نبدأ في تخفيض وسحب قواتنا. وسنرغب في استبقاء نواة قوة من خمسين ألف رجل على الأقل، ويجب أن تتوازي تخفيضات

جندنا مع نشر قوات أمن عراقية ممثلة ومحترفة. وستكون إستراتيجية خروجنا مربوطة مع الحكم الفعال من العراقيين، وليس مع خط توقيت."

ورأيت المزيد من إيماء الرؤوس حول الطاولة. وعندئذ ربت كوندي رايس على ساعتها. كنا قد تجاوزنا الوقت.

شكرني الرئيس بوش بحرارة عندما وصل الاجتماع إلى ختامه. وقال "نراك قريباً."

وكولن باول كان ودوداً وهو يصافحني عند مغادرة الغرفة. ولكن كان من الواضح أن شيئاً ما كان يدور في ذهنه.

لم يكن علي أن أنتظر طويلاً لأكتشف ماذا كان ذلك. ففي يوم الخميس 5 أيلول/سبتمبر، اليوم السابق لليوم الذي خططت فيه للطيران إلى واشنطن من أجل إيجاز آخر لمجلس الأمن القومي عن العراق، لتتبعه مناقشات نهاية الأسبوع في كامب ديفيد، اتصل بي كولن في تامبا.

وقال، وهو دائماً جنتلمان: "يا توم، أنا آسف لمقاطعتك لأنني أعرف كم أنت مشغول. ولكن أود أن تسمع هذا مني مباشرة."

كان لدى كولن مخاوف. لقد كان من جيل من الجنرالات الذين اعتقدوا أن القوة العسكرية الكاسحة كانت موجودة في قوة الجند: الأعداد المطلقة للجنود والدبابات على الأرض. وبصفته رئيساً لهيئة رؤساء الأركان المشتركة في أثناء عاصفة الصحراء، فقد كان الجنرال كولن باول قد رأى عدد القوات الأرضية للتحالف يرتفع إلى أكثر من خمسمائة ألف. وفي الحقيقة فإن مبدأ القوة الكاسحة كان يشار إليه أحياناً بوصفه "عقيدة باول".

أكن الكثير من الاحترام لكولن باول، وإن كنت قد توصلت إلى الاعتقاد بأن أيام الحشود بقوة نصف مليون جندي قد انتهت.

وقال: "سوف أقوم بنقد خطتك هناك في كامب ديفيد، لدي مشكلات مع

حجم القوة ومساندة تلك القوة، مع الأخذ بالاعتبار مثل هذه الخطوط الطويلة للاتصالات."

وفكرت، حسناً. إنه أمين بما فيه الكفاية لدرجة يضع معها بطاقاته على الطاولة. لدينا اختلافات أساسية في التفكير الإستراتيجي، هذا معقول ومنصف. على الأقل كان يعطيني إنذاراً، بدلاً من مهاجمتي وأنا غير متبته أمام مجلس الأمن القومي، والرئيس. وقلت: "شكراً لك، سيدي الوزير. سأعمل أفضل ما أستطيع لأجيب على اهتماماتك."

جلست لحظة على طاولتي. كان كولن باول الدبلوماسي القائد للعالم الحر. ولكنه لم يبق لابساً للملابس الجيش الخضر. لقد اكتسب حقه في إبداء رأيه، ولكنه قد ترك المسؤولية عن إدارة العمليات العسكرية عندما تقاعد وهو رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة في العام 1993.

تناولت المفتاح الأحمر وكلمت دون رامسفيلد. وقلت: "أنا أقدر مكالمته. ولكني أردت أن أقول له إن العسكرية قد تغيرت منذ أن غادرها."

ضحك رامسفيلد في نفسه. "تستطيع أن تقول ذلك، يا توم. ولكن كن هادئاً تماماً واحترافياً. أجب على تعليقاته، نقطة نقطة. إذا كان لدى كولن شكوك، فأنا أريد منه أن يضعها على الطاولة أمام الرئيس ومجلس الأمن القومي. وإلا، فسنبدو وكأننا نفرض رأينا من دون مراعاة غيرنا."

قدمت الإيجاز لمجلس الأمن القومي، ناقصاً الرئيس بوش، في غرفة الموقف في البيت الأبيض في صباح 6 أيلول/سبتمبر، ووصفت لهم ما سأناقشه مع الرئيس في اليوم التالي في كامب ديفيد.

بعد الاجتماع، قال رامسفيلد على غير توقع: "سوف نركب إلى كامب ديفيد مع نائب الرئيس تشيني في طائرته العمودية. وسأوصلك إلى مهبط الطائرة العمودية عند المرصد."

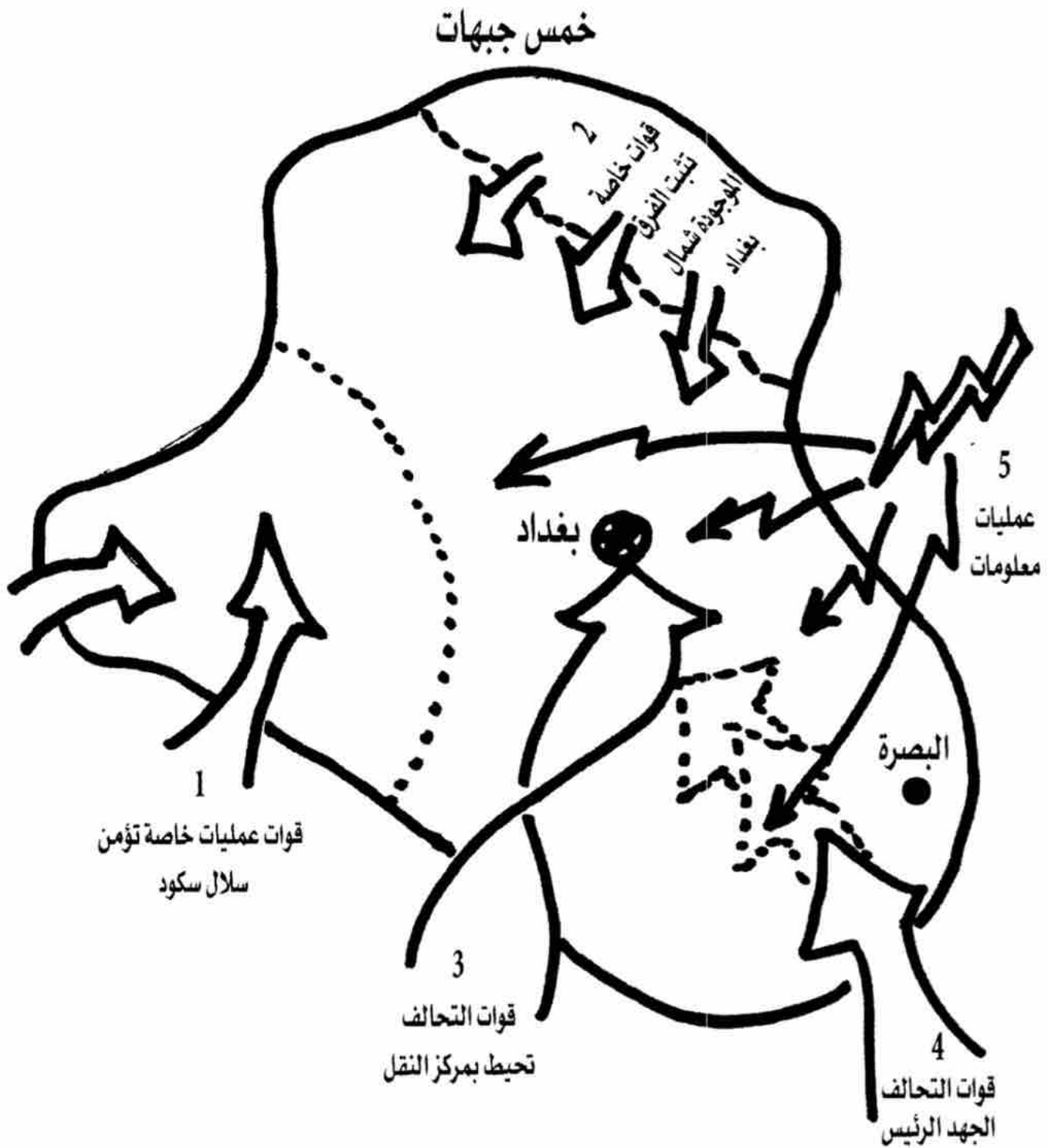
ويقع مكان إقامة نائب الرئيس على أرض مرصد البحرية في شارع ماساتشوسيتس الأعلى. وعند مهبط الطائرة العمودية صعدنا على متن الطائرة العمودية البحرية رقم 2 للطيران إلى كامب ديفيد. كانت رحلة طيران تبعث على السرور، غرب- الشمال الغربي من المنطقة، فوق المرور الكثيف للطريق الدائري وإلى تلال تقع عند سفوح المرتفعات الأبالاشية في ميريلاند.

الإجراءات التي تطبق على الضيوف الذين يقيمون ليلة واحدة في كامب ديفيد مثيرة للاهتمام. فقد أخذ موظفو البيت الأبيض حقائبنا، وخُصص لكل واحد منا سيارة غولف ومعها خريطة صغيرة مغلفة بطبقة رقيقة شفافة محملة على لوحة أجهزة القياس، وتشير الخريطة إلى الطريق المؤدي إلى مقصوراتنا. كامب ديفيد منطقة متموجة، كثيفة الأشجار، وفيها مسارات ضيقة، ومنحنية معبدة بطبقة سوداء من الزفت، وهي ليست أفضل طرق معلمة على الخريطة في العالم. فمِنذ أيامي التي كنت فيها ضابطاً مرشحاً للمدفعية في فورت سيل، كنت أفتخر بالقراءة الصحيحة للخريطة. ولكنني من المؤكد أنني سأضل الطريق في محاولة اتباعي خطوط الشكل المبين للطريق الذاهب من مهبط الطائرة العمودية إلى مقصورتي.

ومازحت الشابة القديرة من الخدمة السرية التي دلتني في نهاية المطاف إلى مقصورتي وقلت لها: "لا تخبري الرئيس."

في نقاش صباح يوم السبت، أثار كولن باول اهتماماته. وتحدث بهدوء، وأدب، وهو الدبلوماسي دائماً، وتساءل عن نسب القوة الصديقة إلى المعادية، وبين النقطة بقوة إلى حد ما وهي أن التحالف سوف يكون لديه خطوط إمداد "طويلة للغاية". وقال: "هذه مسائل يتعين علينا أن ندرسها."

شكرته على أفكاره، واستخدمت خريطة مفصلة لتقديم التصور عن خمس جبهات عملياتية متزامنة. وقلت: "إننا ننتقل إلى رؤية إستراتيجية وعملياتية جديدة، سيدي الوزير."



مخطط إجمالي مبكر لتصور خمس جبهات وهو الذي صار الأساس لعملية حرية العراق

وتابعت، وكولن باول ينصت بانتباه. "باستخدام الكتلة العسكرية المتزامنة في زمن واحد على النقاط الحيوية، بدل محاولة دفع تقدم تقليدي عريض بطيء، فإننا بذلك نخرج العدو عن توازنه. لقد رأينا ذلك في أفغانستان، في مناورة سريعة،

ومندفعة. هذا ينشئ زخماً. نحن نضع قواتنا عميقاً في داخل أرض العدو، ونتحرك بسرعة عالية إلى الدرجة التي لن يمتلك معها العراقيون الوقت ليقوموا برد الفعل. وفي النهاية عندما سيتحركون، سيكونون قد صاروا أهدافاً لنيران العنصر الجوي ولنيران المدفعية الدقيقة. السرعة والزخم هما المفتاحان الحيويان." لم يناقش كولن باول الإيجاز الذي قدمته، ولم يسأل أي أسئلة عملية أخرى. لم أعرف إن كنت أَرْضِيت تساؤلاته عن مخاوفه. ولكن الأمر المهم هو أنه فرض النقاش التفصيلي أمام فريق الأمن القومي، ومن جملتهم الرئيس. نظر رامسفيلد حوله في الغرفة المكسوة بخشب الصنوبر عندما كانت الجلسة تصل إلى ختامها، وشكرني على العرض. وقال: "أريدكم جميعاً أن تكونوا مرتاحين مع هذه الخطة."

وعندما غادرت كامب ديفيد شعرت بالارتياح نحو العمل الذي فعلناه.

عدنا جين رينيوارت وأنا إلى ماكديل في وقت متأخر من يوم الثلاثاء، 10 أيلول/سبتمبر.

في اليوم السابق، كنا قد قدمنا إيجازاً لديك مايرز ولرؤساء الخدمات في غرفة القيادة. وفي مجملها كانت جلسة جيدة، ربما لأن ديك كان يعمل بجهد لبناء الإجماع، ولأن دون رامسفيلد أيضاً أعلن للجميع بأنه كان يتوقع من هيئة الرؤساء المشتركة أن تكون مشتركة. وعلى الرغم من أن رؤساء الخدمات كانوا ما يزالون يجدون صعوبة في التفكير خارج حدود خدماتهم الفردية، وخصوصاً عندما وصل الأمر إلى شراء أنظمة الأسلحة والحفاظ على "ملاكاتهم النهائية"، المخولة لهم، فإن التذكير المتكرر لهم من رامسفيلد وديك مايرز كان يجبرهم رويداً رويداً على بناء الدفاع القومي "التحويلي" الذي تخيله دونالد رامسفيلد.

وكانت إحدى النتائج الإيجابية التي ترتبت على رحلاتي إلى غرفة القيادة في ذلك الصيف هي أن الخدمات كانت تبحث في موازاناتها لتستخرج وتقدم التمويل

اللازم لتحديث إقامة القواعد والبنية التحتية في المنطقة. وبالنسبة إلى أربع نجوم يحرسون أرصدتهم بغيرة، كان هذا تمريناً ساراً مثل السرور الذي تبعته قنوات الجذر المتعددة في لب الأسنان! ونتيجة لذلك، وعلى الرغم من كل شيء، حصلت القيادة المركزية على حيز تحميل جديد في القواعد الجوية في عمان، وقطر، والكويت. وزدنا عدد قوات الجيش في المنطقة. وحصلت قوات العمليات الخاصة على طائرات عمودية محدثة. وزادت البحرية إيقاع دخول وخروج حاملة الطائرات وقاذفات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي إلى الخليج وشمال بحر العرب.

ونظراً إلى أن تخطيطنا دعا إلى أن تقوم أكثرية قوات التحالف الأرضي بالتمرحل من خلال الكويت، فإن هذه الأمة الصغيرة للغاية أعدت فجأة لتصير واحدة من أكبر القواعد الأمريكية في العالم. وكانت الموانئ البحرية، وخطوط نفط الوقود، والقدرات المائية الإضافية، وهو اعتبار كبير في الخليج الذي لا مفر فيه عملياً، والإنشاءات الأساسية للمعسكرات، كانت كلها قيد العمل والتقدم.

وفي آخر زيارة لي إلى الرياض، تأكدت من أن السعوديين لم يكونوا راغبين في استضافة تحالف عاصفة صحراء أخرى. ولا هم، من جهة أخرى، بالذين سيخلقون أزمة دبلوماسية عن طريق إصدار الأمر إلى وحدات التحالف العسكرية التي كانت تعمل من قبل في المملكة بضرورة المغادرة. وكان هذا يعني أننا كنا نستطيع أن نستمر في تشغيل مركز العمليات الجوية المشتركة في قاعدة الأمير سلطان الجوية، ونستطيع، وهو أمر غير معروف لوسائل الإعلام، أن ندير البحث والإنقاذ القتالي وعمل الاستطلاع للعمليات الخاصة من قواعد جوية صغيرة شمال طريق خط التابلاين، قرب حدود صحراء العراق الغربية. إذا كنا نستطيع أن نحافظ على هذين الموقعين الهامين شغالين، ونستمر في تطيير صهاريج إعادة التزود بالوقود وطائرات الاستطلاع من قاعدة الأمير سلطان الجوية فإن المملكة العربية السعودية بذلك تكون قد قدمت إسهاماً مهماً في تحرير العراق، من دون أن تعرض مركزها للخطر في العالم الإسلامي الواسع.

مع اكتمال معظم عمل الأركان على كلا الخيارين "المولد" و "بداية الركض" صارت الخطة الهجينة V 1003 هي محط تركيز انتباهنا. وكانت تتطور وتصير أغنى بالتفاصيل في كل يوم، بقيام خبراء التهديد في القيادة المركزية بتتقية المعلومات الاستخباراتية ووصولهم إلى تقديرات جديدة عن نظام المعركة العراقي. ولم تكن مفاجأة أن ستاً من فرق الحرس الجمهوري قد تلقت أضخم مخصصات من الوقود، والذخائر، وقطع الغيار. وعلى الرغم من أن الاستخبارات البشرية عن هذه الوحدات كانت قليلة سطحية فإن الاستخبارات الفنية أظهرت أنها أقوى الفرق في القوات العسكرية العراقية، وأفضلها تجهيزاً، ومستويات جاهزيتها كانت أعلى من 90 بالمائة. وعندما انتقلت فرق الحرس الجمهوري من ميدان التدريب إلى واجبات المعسكر، كانت على ما يبدو في الأرجح تتولى مسك الخط الدفاعي الرئيسي عند ضواحي بغداد.

وقلت لجيف كيمونز، ونحن نستعرض آخر صور الأقمار، للفرقة المدرعة من الحرس الجمهوري المسماة النداء، وهي تنتقل راجعة إلى معسكرها الدفاعي المحروس دائرياً بالدروع، وإلى قواعد الصيانة في جنوب بغداد: "أنت تعرف أن الرجال في تلك الوحدة لم يتعرضوا أبداً للتهديد الدقيق".

وقال جيف: "ولن يستمتعوا بتعرضهم الأول".

وفي الحقيقة، أن التحديثات التي أدخلناها في أنظمتنا للنيران غير المباشرة المتمركزة على الأرض، منذ عاصفة الصحراء، قد حولت مدفعيتنا، من المتوسطة المدى وطويلة المدى، إلى أسلحة تتصدى لكل أنواع الطقس وهي ستكون مكماً عظيماً للذخائر الموجهة التي يلقيها عنصر الطيران.

وقدرت، أن أفضل شيء يستطيع الحرس الجمهوري أن يفعله من أجلنا، هو أن يحفر ويتخذ حول بغداد ويشكل دفاعاً ثابتاً، على الأسلوب السوفيتي من "حلقة من الفولاذ". وما إن تبدأ الحركة، فإنهم عندئذ لن يملكوا الوقت اللازم لتجنب قوتنا النارية الدقيقة عن طريق التفرق والانتشار. وإذا نجحوا في الانتشار للخارج، فإنهم

سوف يفقدون التماسك ويفقدون تأثير قوتهم النارية المتكتلة. دبابتهم تي-72 قد تم تحديثها بمناظير حرارية، وتطلق هذه الدبابات تشكيلة من الصواريخ الروسية الموجهة بالسلك. ولكننا كنا نسبقها بجيل واحد على الأقل في المعدات الدقيقة، ونتقدم عليها بقفزة كمية في تعبئة مناورة الأسلحة المشتركة والعمليات المشتركة. وفي الحقيقة، فإن القوات العسكرية لم تكن تملك عملياً خصائص مشتركة، وكانت قوتهم الجوية صغيرة وقديمة، وطائراتهم العمودية المسلحة لن تبلغ أي شيء سوى أن تكون أهدافاً لطائرات اف-16 واف/ايه-18.

بقيت أسلحة الدمار الشامل هي البطاقة الخفية لدى العدو. وكنا نستطيع أن ندافع عن جندنا، ولكننا لن نستطيع أبداً أن نستبق استخدام النظام لأسلحة الدمار الشامل، لأن المعلومات الاستخبارية المتوافرة عن التهديد لم تكن معلومات تصلح للعمل بموجبها: كنا نعرف أن العراقيين امتلكوا أسلحة الدمار الشامل، ولكننا لم نعرف أين كان يجري إخفاؤها. إذا سبق لنا بالمطلق أن احتجنا إلى الاستخبارات البشرية فنحن الآن إليها أحوج. كنت أعرف أن جورج تيننت سيفعل أفضل ما يستطيع مع العملاء الذين كانوا لديه، ولكن لم يكن هناك الوقت الكافي للتعويض عن عقود من الأضرار التي لحقت بقدرات أمريكا الجاسوسية. لقد كان صن تزو محقاً اليوم مثلما كان منذ 2500 عام: الجواسيس مفيدون في كل مكان.

وعندما درسنا الصور الملتقطة حديثاً للعدو، كانت الخطة الهجينة V 1003 تتطور إلى أن تكون خطة حرب عملية وستكون قريباً جاهزة إذا أمرنا الرئيس أن نقاتل. وكل فريق مسهم في خطة العمليات عرفها باسم مختلف، لتخفيض المخاطرة بالتسرب إلى الحد الأدنى. في أوروبا، على سبيل المثال، كان فريق من الفيلق الخامس للجيش يضع خطة التحديات التعبوية والإدارة والإمداد لإطلاق هجوم الجهد الرئيسي من الحدود الكويتية إلى بغداد، وكانوا يسمون تمرينهم: "النصر الوشيك".

ساعدنا عمل لاعبي الحرب في الفيلق الخامس على أن نقدر العوامل الحيوية

في الزمن والمسافة، وهما اللحم والبطاطا، الأجزاء الأساسية، للمخططين التعبويين. على أي سرعة وإلى أي مسافة كان اللواء المدرع يستطيع أن يتقدم على طول شبكة الطرق المعبدة لوادي الفرات، أو عبر الصحراء المفتوحة بعيداً إلى الغرب، إذا أخذت بالاعتبار المستويات المتنوعة لمقاومة العدو؟ وعلى درجة مساوية من الأهمية، على أي سرعة وإلى أي بعد كانت تستطيع تشكيلات معينة من الجيش العراقي أن تتحرك، تحت الهجوم الجوي المستمر، لمواجهة تقدمنا؟ في خريف عام 2002، كانت هذه أسئلة نظرية. ولكن كان يجب علي أن أفترض أن ألعاب الحرب الحاسوبية هذه سوف تصير طرق دبابات في تربة العراق المغبرة في وقت ما من المستقبل، وربما في المستقبل القريب.

وكانت تتشكل في ذهني صورة: الجيش، وسلاح مشاة البحرية، وكتائب الدروع البريطانية تتحرك إلى الشمال بالسرعة القصوى، متوجهة لتتلاقى على مراكز الثقل للنظام العراقي وهما: البصرة في الجنوب، وبغداد في مركز البلاد. وكما كان من عادة أبي أن يقول عندما كان يعالج مشكلة تنظيف الأرض: "أنت تقتل الجذور، يا تومي ري، والشجرة ستسقط."

وفي اجتماع تشاوري سابق للقيادة المركزية مع مرؤوسي من القادة، كنت قد ذكرتهم بالمبدأ التعبوي الأساسي: السرعة تقتل... العدو.

إن الجنرال جورج باتون، وهو واحد من أكثر قادة أمريكا الميدانيين تجديداً، كان قد أدرك أهمية سرعة المناورة في أثناء اختراقه وهجومه التعرضي المؤثر المثير عبر فرنسا الوسطى في عام 1944. لقد استخدم هذا المبدأ نفسه ليحول الجيش الثالث الأمريكي شمالاً، بزاوية 90 درجة عن محور تقدمه، إلى خاصرة القوة العارمة الألمانية في معركة النتوء، لقد فهم باتون أن الهدف النهائي في أي حملة هو مركز ثقل العدو. وفي الحقيقة، كانت المرة الوحيدة التي أعيق فيها جيش باتون هي عندما وضع حصاره على الحامية الألمانية في متر التي كانت محصنة تحصيناً كثيفاً. إن الحرب العالمية الثانية قد أعطتنا حكمة رجل الدبابات الغنية بالألوان لمبدأ المناورة هذا، وتقول: "جر الحمار وتجنب"، تحرك بسرعة مع الدوران حول المانع.

بعد سنة واحدة ويوم واحد من هجمات 9/11 على أمريكا التحقت أنا ببقية العالم في ضبط تلفازي على صورة قاعة الاجتماعات العامة للأمم المتحدة. كانت القاعة مليئة لأقصى سعتها، وبعض المندوبين يرتدون ملابسهم القومية المميزة: أثواب فضفاضة، وعمائم، وتشكيلة من أغطية الرأس الإسلامية. وكان الجمهور لآخر شخص فيه تقريباً كئيباً عابساً، على كل حال، وقد اجتمع هذا الجمهور ليستمع إلى خطاب الرئيس بوش.

في كلمات فصيحة للغاية، استحضر الرئيس الهجمات الإرهابية في 9/11. ومع ذلك، وعلى الرغم من نجاح حملتنا في أفغانستان، فقد قال الرئيس إن العالم ما يزال "يواجه التحدي اليوم من مجموعات خارجة عن القانون ومن أنظمة لا تقبل أي قانون للأخلاق ولا حد لطموحاتها العنيفة".

وحول الرئيس تركيزه بسرعة على العراق. واستعرض تحدي صدام حسين لسلسلة من قرارات الأمم المتحدة التي كان يرجع تاريخها إلى وقف إطلاق النار في حرب الخليج، وهي القرارات التي طالبت العراق بأن يقدم تفسيراً وأن يدمر أسلحته للتدمير الشامل، وأن يوقف الإساءات لحقوق الإنسان ضد مواطنيه، وأن يقبل حكم القانون الدولي المعترف به.

واستشهد بعدئذ بتقرير من الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان وجد أن العراق قد أخضع "عشرات الآلاف من الخصوم السياسيين والمواطنين العاديين" إلى السجن التعسفي والإعدام المتسرع بعد محاكمة شكلية. واستشهد أيضاً بقرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة التي طلبت من العراق أن يتخلى عن الإرهاب، ولكن صدام حسين كان قد تحدى تلك القرارات باستمرار، وتآمر على اغتيال القادة الإقليميين وآوى إرهابي القاعدة المعروف عنهم أنهم هربوا من أفغانستان.

وبالنسبة إلى أسلحة الدمار الشامل، قال الرئيس إن العراق قد طرد مفتشي الأمم المتحدة، ولكن ليس قبل أن يكونوا قد اكتشفوا دليلاً مخيفاً عن البرنامج المستمر للنظام في أسلحة الدمار الشامل.

وأخبر الرئيس بوش الاجتماع العام: "من العام 1991 إلى العام 1995 قال النظام العراقي إنه لم يكن يملك أسلحة حيوية." ولكنه لاحظ أنه بعد مروق مسؤول أسلحة عراقي كبير، انكشف هذا بوصفه كذبة. فنظام صدام بعدئذ: "أقر بإنتاج عشرات الآلاف من اللترات من الجمرة الخبيثة ومن غيرها من العوامل الحيوية القاتلة لاستعمالها مع الرؤوس الحربية لصواريخ سكود، والقنابل الجوية، وخزانات الرش بالطائرات."

وتوقف جورج بوش بغرض التوكيد .

وشدد الرئيس: "يعتقد مفتشو الأمم المتحدة أن العراق قد أنتج ما بين ضعفين إلى أربعة أضعاف من الكمية التي صرح عنها من العوامل الحيوية. وأنه قد فشل في إعطاء تفسير عن أكثر من ثلاثة أطنان متريّة من المواد التي كان يمكن أن تستخدم لإنتاج أسلحة حيوية."

واستمر بوش بتقديم كشف بالتحدي العراقي لقرارات الأمم المتحدة، ومن جملتها طرد مفتشي الأمم المتحدة في العام 1998. وفي سلسلة من الفقرات المتقطعة التي تضرب ضرباً شديداً، وكل فقرة فيها تبتدئ بتعبير: "إذا كان النظام العراقي يرغب بالسلام..." دعا بوش صدام حسين وحكومته إلى الانصياع لقرارات مجلس الأمن كلها وأن يوقف تجارته المحظورة بالزيت، التي حولت الأرصدة عن الشعب في تحد للعقوبات الصادرة من الأمم المتحدة.

"وأنهاى الرئيس كلمته بالقول: يمكن للأحداث أن تتحول في واحد من طريقتين. إذا فشل المجتمع الدولي بالعمل، فإن الشعب العراقي سوف يستمر في العيش في خضوع وحشي، وسوف يستمر نظام صدام في تهديد الاستقرار في الشرق الأوسط."

ولكن إذا وفى المجتمع الدولي بمسؤولياته، "فإن شعب العراق يستطيع أن يتخلص من أسرهِ." وفي يوم ما " أن يلتحق بأفغانستان ديمقراطية وبفلسطين

ديمقراطية، ملهماً إصلاحات في كل العالم الإسلامي." وأثار موضوع الشرق الأوسط المتغير، الذي تستطيع فيه الحكومة الأمنية ويستطيع الاحترام للنساء "والتقليد الإسلامي العظيم في التعليم، أن تقتصر."

وتكلم الرئيس بوش ببطء وترو، ودعا المجتمع الدولي إلى العمل. "نحن لا نستطيع أن نتحى جانباً لا نفعل شيئاً بينما المخاطر تحتشد. يجب علينا أن نقف من أجل أمننا، ومن أجل الحقوق الدائمة للإنسانية وآمالها. إن الولايات المتحدة بتراتها، وباختيارها سوف تقف تلك الوقفة. وأنتم، أيها المبعوثون إلى الأمم المتحدة، تمتلكون القوة، لتقفوا تلك الوقفة."

كان التصفيق بلا حماسة، وبقي الكثير من المبعوثين بلا حركة. أطفأت التلفاز قبل أن تستطيع شبكة الأخبار أن تردد أصداء وتقرع الأجراس بأرائها حول ما قاله الرئيس. في رأيي، لم يكن يهم كيف كان رد فعل الجمعية العامة أو رد فعل وسائل الإعلام على خطاب جورج بوش. أما هو فكان يرمي القفاز، واضعاً العالم من دون إنذار بأن الولايات المتحدة سوف "تقف من أجل أمننا."

ووجدت أن تشديد الرئيس على إساءات العراق لحقوق الإنسان، وعلى مخاطر احتمال وجود أسلحة الدمار الشامل لديه، كان تشديداً متساوياً على الدرجة نفسها من الإقناع. وباستثناء كوريا الشمالية، ليس هناك دولة معاصرة أخرى عاملت مواطنيها بوحشية منهجية بمثل هذه الشراسة، وإن الفظاعات التي ارتكبتها مفارز الإعدام لدى صدام حسين تضعها في صنف واحد مع مليشيات الهوتو في رواندا والخمير الحمر في كامبوديا.

وكان تحذير مفتشي الأمم المتحدة بأن العراق قد فشل في إعطاء تفسير عن آلاف اللترات من الجمرة الخبيثة الموضوعة في أسلحة، وأطنان من المواد الوسيطة الكيماوية، تحذيراً منذراً مخيفاً بشكل خاص. عندما توليت قيادة القيادة المركزية، قدمت لي وكالة الاستخبارات المركزية إيجازاً عن الأسلحة العراقية الحيوية، وقد وصفوها بأنها يحتمل أن تكون أخطر جانب من برنامج صدام لأسلحة الدمار

الشامل. فمن السهل إخفاء جراثيم الجمرة الخبيثة ونقلها. ومزرعة جراثيم صغيرة من نسلها يمكن أن تتحول إلى ترسانة حيوية قوية باستخدام بضع مئات فقط من كيلوغرامات الوسط الذي يتم فيه التكاثر.

وقبل سنتين، كان جورج تينت قد شهد أمام مجلس الشيوخ أن القاعدة كانت نشيطة في السعي إلى الحصول على الأسلحة الكيماوية. ولم يثر التحذير الكثير من الاهتمام في وسائل الإعلام إلى أن وجدت قوات التحالف في أفغانستان شريطاً مصوراً بالفيديو للقاعدة يبين مجموعة من الكلاب يجري تعريضها للغاز في غرفة موصدة. وعند أول نفخة من بخار أبيض مصفر وصلت إلى الحيوانات المربوطة بالسلاسل فإنها بدأت تعاني من تشنجات، وانهارت وأرجلها تنتفض بعنف، وماتت في غضون ثوان. وبعد أشهر قليلة وجدنا تلك الغرفة لتجريب الغاز في معسكر القاعدة في ديورانتا قرب جلال آباد.

لقد قتل العديد من قادة القاعدة في أفغانستان، بينما سعى آخرون للحصول على ملاذ لهم في العراق. وكان السؤال: هل كان الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل قد اجتمعا من قبل؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فكم سيطول الوقت قبل أن يجتمعا؟ لم أكن أعرف الجواب. ولكنني كنت مهتماً بالسؤال، وهو سؤال ما ظننت أن بنية استخباراتنا المرقعة كانت تستطيع أن تجيب عنه من دون وضع جند على الأرض.

في أثناء الوقت الذي كنت أسافر فيه في منطقة المسؤولية في أيلول/سبتمبر، نشر مجلس الأمن القومي بيانه عن إستراتيجية الأمن القومي، التي عبرت عن عقيدة الاستباق الجديدة للإدارة. وكان الرئيس قد أوضح هذا التصور لأول مرة في خطابه الذي ألقاه في تخرج ويست بوينت في شهر حزيران/يونيو. وبعد أن صارت الآن سياسة ناضجة، فقد بينت أن الولايات المتحدة، بوصفها أمة ذات سيادة، كانت تمتلك الحق في أن توظف استخداماً توقعياً للقوة لاستباق تهديد موجه إلى أمنها.

وعلى الفور خمنت وسائل الإعلام أن الحرب مع العراق كانت لا بد منها، وأنها وشيكة.

كنت أعرف معرفة أفضل، ولكنني أدركت أيضاً، وأنا أقرأ بيان مجلس الأمن القومي في المقصورة الموصدة بلا نوافذ من الطائرة سبار 06، أن الرئيس بوش قد استعد واقعياً للقتال، واضعاً العالم في حالة إنذار بأن أمريكا سوف تتصرف تصرفاً حاسماً في الدفاع عن نفسها.

وأدركت، أننا لو كنا نمتلك مثل هذه الإستراتيجية في مكانها في سنوات أبكر، لربما كنا قد أعطينا السلطة لإزاحة طالبان من السلطة، وتدمير القاعدة في أفغانستان، قبل الهجمات الإرهابية في 9/11.

في أواخر أيلول/سبتمبر رجعت إلى الخليج. وكانت إحدى أول محطات وقوفي في قطر، وفيها قابلت الشيخ حمد، الأمير، في قصر الديوان الأميري الأنيق المطل بواجهته على البحر. وتركزت المحادثة تقريباً على العراق حصراً فقط.

وقال الأمير: "صدام لا يمكن أن يوثق به أبداً." وعدل كوفيته البيضاء ومسّد شاربه. "يا جنرال فرانكس، إنكم تملكون الفرصة لإنقاذ الشعب العراقي."

وأجبت: "سيدي، لم يختار الرئيس بوش بعد مسار الحرب. ولكنه إذا اختار، فنحن سنكون جاهزين."

وبعدئذ زرت القادة في الأردن، واليمن، وباكستان، وتركيا. وزرت جند التحالف في أفغانستان، وفيها حدثت دان ماكنيل معلوماتي عن عملياته على طول حدود باكستان. كان برويز مشرف متعاوناً، وجندنا مستمرين بالضغط على القاعدة. لم نر أي تقارير عن أسامة بن لادن، ولكنني كنت مقتنعاً بأن التحالف كان يدفع بأقصى قوة ممكنة لتحديد موقعه.

اجتمعت مع الملك عبد الله الثاني في قصر البركة في عمان. وتبسم وهو يمد نفسه ليصافحني عبر طاولة خشب الورد المزخرفة.

وقال مماًزحاً: "هل أحضرت معك أي شواية من تكساس؟ أنت تعد دائماً، ولكنك لم تسلم أبداً. أذيتني في تامبا. فأنا أحب تلك الشواية."

مرة أخرى، تأثرت بانفتاح الملك وصدقه. فمئذ موت والده، الملك حسين، عمل عبد الله على تحسين موقف الأردن نحو الغرب، على الرغم من أن أغلبية سكان الأردن فلسطينيون، والضعيفة التي لا تنتهي من الانتفاضة. لقد بقي الأردن متوازناً بين تهديد العراق وبين النزاع العربي الإسرائيلي المتفجر. والآن كنت سأطلب منه أن يدعم تحالفاً قد يكون مطلوباً لنزع سلاح العراق وإطاحة نظام صدام.

وعندما كنت أقابله، كان هناك قرار أنجلو-أمريكي مشترك يدعو العراق إلى قبول تفتيشات صارمة، غير مقيدة على الأسلحة، من هيئة مراقبة، وتحقق، وتفتيش من الأمم المتحدة، وكان يجري التداول بالقرار تحت نقاش ساخن في مجلس الأمن. وكان الرئيس بوش ورئيس الوزراء طوني بليز يطلبان قراراً له أسنان، قراراً سيخضع العراق "لعواقب خطيرة" إذا لم يقبل الانصياع.

وفي 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2002، تبنى مجلس الأمن في الأمم المتحدة أخيراً القرار رقم 1441، والذي اعترف بـ "التهديد الذي يفرضه عدم خضوع العراق لقرارات المجلس وتكاثر أسلحة الدمار الشامل والصواريخ الطويلة المدى على السلام والأمن الدوليين". وكرر القرار "العواقب الخطيرة" التي سوف يواجهها العراق إذا هو لم يتعاون تعاوناً كاملاً مع مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة، الذين بدؤوا يصلون إلى بغداد في أواخر ذلك الشهر.

وكان بوش من قبل قد كسب تفويضاً كاسحاً من مجلس الشيوخ ليستخدم القوة ضد العراق إذا استمر في تحدي المجتمع الدولي. وفي هذا اليوم في عمان، كنت أراهن أن القوة ستكون مطلوبة.

قال الملك: "أيها الجنرال، يجب علي أن أحمي مصالح أمتي. ولكنني أؤكد لك أن تلك المصالح تتطابق مع مصالح أمريكا. وأنتم تستطيعون الاعتماد على الأردن."

وأجبتة: "يا صاحب الجلالة، ونحن لن ننسى صداقة الأردن".

في ذلك اليوم عرفت أنني في حضرة صديق، وأنه سيكون هناك جبهة غربية إذا ذهبنا إلى الحرب في العراق.

كان القصر الرئاسي في صنعاء أقل فخامة من قصر عبد الله، قصر البركة. ولكن الرئيس علي عبد الله صالح كان على الدرجة نفسها من الترحيب تماماً. فصالح، بعد الهجوم على كول، وخصوصاً منذ 9/11، حوّل سياسات اليمن الخارجية بعيداً عن الدول العربية الراديكالية نحو الغرب. ولكنه حافظ على خط اتصاله مع ليبيا وسورية مفتوحة... ومع صدام حسين.

لصالح قسمات بدوية صارمة وشارب مهذب، ولكنه ليس بدلات من شارع بوند(*)). كان يمكن أن يكون مديراً تنفيذياً رئيسياً أو مصرفياً ناجحاً، وهو الأمر الذي، كما افترض، كان يصف بعض واجباته. وفي أثناء زيارتي الأخيرة إلى صنعاء قال لي: "أنا أتكلم بشكل متكرر مع صدام. وهو يسأل دائماً عن الجنرال فرانكس".

وقلت مع ابتسامة: "أمل أن تخبره بأني جندي عظيم وينبغي أن يثق بي".

وفتح الرئيس يديه، وهو إيماء عربية بالموافقة. "طبعاً، أيها الجنرال. ماذا غير ذلك سأخبر الرئيس صدام؟"

ورشفت قهوتي اليمنية القوية الرائحة منتظراً منه أن يتابع.

وقال: "أنت تعرف يا جنرال فرانكس، أن من الأفضل لك أن تكون حريصاً إذا كنت تعتزم أن تهاجم العراق. صدام يمتلك قوات قوية جداً".

كانت لعبتنا المعقدة في تقدم. كنت أعرف أن صالحاً وصداماً كانا ذات مرة قريبين، وهكذا فإن مضيفي كان يوصل رسالة دكتاتور العراق قياماً بالواجب. ولكنني كنت أعتقد أيضاً أن صالحاً كان حريصاً على تحسين العلاقات مع الغرب. وكان سيتصرف بصفته قناة اتصال لصدام.

(*) شارع بوند في ويسمنستر في لندن، في إنكلترا، والشارع مشهور بمحلات الأزياء.

وقلت له: "أنا أدرك ذلك سيدي الرئيس. قواته قوية جداً. ولكن خدماته الاستخباراتية ليست جيدة جداً. وهكذا، فإذا وصل الأمر إلى الحرب، فربما سأهاجم من الغرب."

وأوماً برأسه ولكنه لم يتكلم.

وأضفت: "وربما، سأهاجم أيضاً من تركيا. فكللا الأردنيين والأتراك أصدقاءنا، وأنت تعرف".

وابتسم ورشف قهوته. وانتظر بصمت.

وبعد لحظة، تكلم الرئيس صالح. "هل لديك أي رسالة تريدني أن أوصلها إلى صدام؟"

لقد كنت من قبل أن يعرض قد عوّمت أهم رسالة لي، ولكن لا يمكن أن يؤدي أن أحدها بتعبير عن العزم. "أرجو أن تبلغه بأنك تعرفني معرفة جيدة جداً، وأني رجل جاد. على صدام أن يتعاون مع الأمم المتحدة فوراً إذا كان حقيقة يحب بلاده."

عندما كانت طائرة سبار 06 ترتفع مبتعدة فوق تلال اليمن الصخرية بلون المغرة، كنت أعرف أن الرئيس صالح ربما كان يتحدث مع صدام في هاتف مأمون من العصر السوفيتي. علي عبد الله صالح كان صديقاً... عادياً نوعاً ما. كنت أعرف أنه سيوصل بإخلاص إلى صدام، رفيقه القديم، المعلومات التي عرضتها.

إذا كنا سنمتلك ميزة المفاجأة العملياتية، والتي ستكون حيوية إذا ذهبنا إلى الحرب، فسيكون الخداع مفتاحاً لذلك.

وعلي صالح سيكون أداة واحدة قيمة في خلق ذلك الخداع.

كان اجتماعي في أنقرة، في تركيا، مع الجنرال حلمي أوزكوك، قائد القوات المسلحة التركية، مشيراً للاهتمام، وإن كان أقل إنتاجية من الاجتماعات التي عقدتها مع معارفي في مكان آخر من المنطقة.

كان الجنرال ضابطاً محترفاً تماماً، طلق اللسان بالإنجليزية، مع سنوات من

الخبرة في الناتو. وكان جزءاً من قوات عسكرية تركية جديدة تخلت عن دورها التقليدي في التدخل السياسي من خلال الانقلاب العسكري. واليوم هو يستقبل جنرالين أمريكيين بأربع نجوم في مفاوضات عالية المخاطر. وكما هو الحال دائماً في تركيا، مع ذلك، كان الجو تحت السيطرة، وغير مباشر.

وزميلي في الاجتماع كان ضابطاً عالي الرتبة عاملاً في الناتو هو الجنرال في القوات الجوية جو رالستون، القائد الأعلى للحلفاء في أوروبا. ومن الناحية الفنية، كنت أنا في منطقة جو، فتركيا كانت جزءاً من القيادة الأوروبية، ولكنه كان هناك لأسباب أكثر من الأسباب البروتوكولية. كنت أريد الوصول إلى العراق الشمالي لأمرحل فرقة المشاة الرابعة، وهي الصورة المرآوية، الصورة عيناها، لفرقة المشاة الثالثة التي سوف تكون رأس الحربة لعمليات الهجوم الأرضي من الجنوب. وكان جو هناك لمساعدتي في أن أعقد الصفقة.

أخذت زمام المبادرة في مناقشة الحالة بالنسبة إلى التعاون التركي. وأنصت الجنرال أوزكوك بصبر.

وعندما انتهيت زم شفتيه بانزعاج. وقال بشكل رسمي: "يا جنرال فرانكس، ويا جنرال رالستون، نقاطكم تبدو مقنعة. صدام حسين تهديد لاستقرار هذه المنطقة. ولكن يجب علينا أن ننتظر إلى ما بعد انتخابات الأسبوع التالي لنفتح حكومتنا الجديدة."

أحسست أن الجنرال، وهو رجل علماني استمتع بكأس من الخمر، لم يكن مشجعاً متحمساً للإدارة الإسلامية التي كان من المستيقن تقريباً أنها سوف تتسلم السلطة في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر. ولكن هذه الأيام كانت جديدة في تركيا. فإذا كان طلب البلاد للالتحاق بالاتحاد الأوروبي يمتلك أي فرصة للنجاح، فقد كان الجنرال يعلم أن على القوات العسكرية المسلحة أن تمتنع عن التدخل في السياسة.

وكان الوزير رامسفيلد خول جو وخولني أن نُحلّي الصفقة بالإشارة إلى عون اقتصادي ممكن كانت البلاد تحتاج إليه حاجة كبيرة. ولكن الجنرال لم يكن في موقع يؤهله لنقل السؤال. "أنا لا أستطيع أن أعد بأن الحكومة الجديدة سوف توافق، ولو كانت حججكم مقنعة."

وتعاطفت مع الجنرال. ومهما قررت حكومته الجديدة، فقد كنت متفائلاً أن تركيا سوف تستمر في منحنا إقامة القواعد للتحالف لطيران الاستطلاع يو-2 فوق العراق، إضافة إلى عمليات طيران القتال من القاعدة الجوية في أنجرليك. وبقيت متفائلاً في أن تركيا سوف تسمح أيضاً للقوات الخاصة للتحالف بالتمرحل في أراضيها، شريطة ألا تعمل عملياتها علانية، حتى وإن لم يسمح لنا بأن نمرحل قوة تقليدية كبيرة هناك. وسيكون هذا الترتيب مشابهاً للترتيب الذي عملناه مع الرئيس كريموف في أوزبكستان في أثناء العمليات في أفغانستان.

وعندما كنا نستعد لمغادرة مكتب الجنرال، شكرنا على مجيئنا. وقال: "دعونا نأمل أن الحرب يمكن تجنبها."

وأجبت: "طبعاً، سيدي. لا أحد يكره الحرب مثل الجندي."

في يوم الجمعة، 22 تشرين الثاني/نوفمبر، كنت أستعد لرحلة أخرى. وستأخذني هذه الرحلة من القرن الإفريقي إلى قيرغيزيا، عبر 160 درجة من خط الطول، وعشر مناطق توقيت. وكنت أتطلع بأمل إلى الرحلة لأنني كنت سأقضي عيد الشكر مع الجند في أفغانستان. ولكن كان لدي تحفظ واحد: في الشهور الأخيرة، صار دونالد رامسفيلد صعب الإرضاء بشكل حاسم في كل مرة كنت فيها بعيداً في رحلة تمتد طويلاً في منطقة المسؤولية.

وقال لي ديك مايرز: "يا توم، إذا كان يظن أنك هناك تأكل مُقَلَّ عنزات في خيمة شيخ ما، فهو قد بدأ يسأل.(أين فرانكس) أريد أن أتحدث مع الجنرال فرانكس."

ومزحت: "يا ديك. هناك اختراع جديد اسمه الهاتف".

ونصحني: "حسناً، يا توم، ابق على اتصال فقط. إنك تجعله يشعر شعوراً طيباً، وهو يحب أن يعرف أين تكون؟ وماذا تفعل؟"

وقلت: "تستطيع أن تكون على ثقة، يا ديك، وشكراً على هذه الیقظة".

وقبل أن أغادر إلى البحرين، قدمت إيجازاً للوزير عن حاجتنا المطلوبة من القوة واعتبارات التوقيت للخطة الهجينة V1003. إن الوحدات العسكرية مكونة من الناس ومن التجهيزات معاً. وكان الزمن مطلوباً لإعداد هذين العنصرين معاً. ومنذ الحرب العالمية الأولى، فإن تقليد "الأمر الإنذاري" أو "أمر التأهب" قد صار ممأسساً. والقيادة المركزية لم تصدر أمر تأهب لجندها. لقد قدمنا طلبات رسمية إلى الوزير، ورامسفيلد، من خلال رئيس الهيئة، سوف يحدد الوحدات والمهمة للخدمات وللقيادة العامين الآخرين ليقدموا القوات.

وأرسلت طلب القيادة المركزية الرسمي لنشر قوة "ما قبل اليوم ان" وهم الجند الذين سوف يضعهم الرئيس في المنطقة قبل مدة طويلة من اتخاذ أي قرار للذهاب إلى الحرب. وهذا النشر الابتدائي سوف يحدث بصفته سلسلة من تمارين التدريب وتعزيزات القوة، ونتيجة للمعارضة العراقية المتزايدة في مناطق حظر الطيران.

وعلى الرغم من أن هذا النشر كان هو المرحلة الأولى فقط من نشر أكبر بكثير، فإن الطلب كان ضخماً: بلغ العدد 128.000 عسكري، وبحار، ورجل جو، ورجل مشاة بحرية. وسيكونون في الخليج مع حلول 15 شباط/فبراير 2003.

وطلبت أيضاً في هذا الوقت أن تتم زيادة قوة ما قبل اليوم ان، ابتداء من يوم ان، بإضافة وحدات مهام خاصة وأفراد إضافيين من البحرية والقوات الجوية، لرفع مجمل عدد القوة إلى أكثر من 200.000 قبل اليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية. ونظراً إلى أن الخطة الهجينة استعانت بكل من الخطة المولدة وبداية الركض، فقد طلبت أن تقوم وزارة الدفاع أيضاً، بإصدار التأهب للفرقة 101 المحمولة جواً

(الاقتحام الجوي)، إضافة إلى وحدات المتابعة المساندة وقوات عمليات خاصة، ويتعين أن تكون جاهزة للنشر في موعد لا يتجاوز 20 آذار/مارس 2003.

وكان هذا سيرفع مجمل عدد القوة إلى 210.000 جندي في المسرح الذي سيصير هو مسرح عمليات العراق.

سألني رامسفيلد: "هل أنت راض بهيكل القوة هذا، يا توم؟" وكان قد بدأ يناديني باسم توم عندما بدأت أنا وكاثي نذهب لتناول العشاء مع آل رامسفيلد في كانون الثاني/يناير 2002. كانت كاثي تناديني دائماً باسم توم، وقبل مرور وقت طويل بدأ دون رامسفيلد يناديني بذلك الاسم، أيضاً.

كان رامسفيلد يحب أن يأكل في مطاعم واشنطن: في جانب الوقت المبكر، لا في جانب الوقت المتأخر حسب الأسلوب الرائج في الموضة، لأمر واحد، وهو أنه كان يستيقظ مبكراً مثلي، ولأمر آخر، وهو أن تناول الطعام قبل الجمهور الحديث المتبع للموضة الذي يملأ مطاعم سوشي كو أو بالم يُبقي السياح على مسافة مأمونة كذلك.

وعلى كل حال، فالوزير وأنا لنا ذوق مختلف فعلاً في الطعام. في إحدى الليالي، في أولد إبييت غريل قرب البيت الأبيض طلبت كبد عجل مع لحم خنزير مملح ومدخن بالبصل، وهي وجبة من الطفولة من أيامي في أوكلاهوما، في تكساس، لأن الكبد كانت رخيصة دائماً.

وقلت: "هذا عظيم، سيدي الوزير. يجب فعلاً أن تجرب بعضاً منه." وقال وهو ينهي اثني عشرية الثانية من محارات بلو بوينت^(*): "لا شكراً، سأبقى مواصلاً مع هذه."

تلك الليلة مددت يدي إلى قائمة الحساب، ولكنه أخذها من النادل. فقلت له: "خلها، يا سيدي. دعني أشتري وجبة من أجل التغيير."

(*) اسم جزيرة عند نيويورك ينسب لها المحار.

وهز رامسفيلد رأسه. وقال وهو يناول بطاقة ائتمانه: "لن يكون صحيحاً. يجب على المرؤوسين ألا يدفعوا. ثم ابتسم. "وإضافة إلى ذلك، فأنا أملك من المال أكثر مما تملك."

تلك الليالي في الخارج بصحبة دون وجويس رامسفيلد قد وطدت رباطاً من الثقة والصداقة التي قدر لها أن تنمو بيننا.

في أثناء النهار، طبعاً، كنا كلنا مشغولين. وألقيت نظرة ثانية على طلب نشر القوات الذي هو من الأسرار العليا قبل أن أسلمه إلى وزير الدفاع. وقلت: "سيدي الوزير، نريد قوة دائمة قابلة للتصديق، قوة ستعطي وزناً لدبلوماسيتنا. وهذا هو أفضل ما تستطيع عقول جين رينيوارت من عيار خمسين رطلاً أن تنتجه. وأعتقد أنهم قاموا بعمل رائع. وسأذهب إلى الحرب بهيكل القوة هذا."

"قد يتوجب عليك أن تفعل، يا توم."

غادرنا متوجهين إلى منطقة المسؤولية بعد ساعتين، وفي هذه الرحلة كان يتعين علي أن أعرف مدير الاتصالات الإستراتيجية الجديد معي. كان جيم ويلكنسون شاباً تكسانياً لامعاً حلو المعشر، وهو ضابط احتياط بحري معار من البيت الأبيض، حيث كان يعالج العلاقات العامة للرئيس بوش. وكنت قد طلبت من دونالد رامسفيلد ومساعدته للعلاقات العامة، توري كلارك، رجلاً ماهراً في العلاقات العامة مع تقدم بناء القوات لعملية كبيرة ممكنة في العراق.

وسبق أن أخبرت الوزير: "أنا لا أتعامل جيداً مع وسائل الإعلام. ذلك أقرب لأسلوب نورمان شوارتسكوف. وأحتاج إلى شخص ما له معرفة بالصحافة ليساعدني في الإبحار في الشلال." وتبسم الوزير... وبعد أسبوعين كان معي جيم ويلكنسون.

وبدا لي جيم مثل توم سوير(*) تقريباً، من دون عمود الصيد. ولكنه برهن على

(*) اسم الشخصية الرئيسية في رواية الكاتب الأمريكي مارك توين (١٨٣٥ - ١٩١٠م) التي تحمل عنوان: مغامرات توم سوير، وتحثني بحياة الصبا والفتوة في مدينة على نهر الميسيسيبي.

أنه واحد من أدهى معالجي الصحافة الذين كان يمكن لي أن آمل في الحصول عليه. لقد وصل إلى تامبا محملاً بنابض مضغوط مع خطة لامعة للعلاقات مع الوسائل كان قد صاغها هو وتوري كلارك.

وهي ورامسفيلد دبرا شيئاً ما مبدعاً من أجل تغطية العملية من وسائل الإعلام المطبوعة والإلكترونية، إذا ذهبنا إلى الحرب. وعندما سمعت تعبير "الوسائل الإعلامية الثابتة" مع الوحدات العسكرية بدا لي أنه مفهوم خطر. فتعيين كتاب جرائد ومجلات ومراسلي إذاعات مع الوحدات المقاتلة كان يمكن أن يطرح مشكلات: المواصلات، والمساندة، والمسؤولية. وكان هناك مخاوف بشأن الأمن العملياتي، في هذا العصر، عصر الهواتف بالأقمار وآلات تصوير الفيديو بالإنترنت. ولكن عندما قدمت لي توري وجيم إيجازاً عن تفاصيل البرنامج، رأيت ذلك رابحاً. إن أحد الأسباب التي جعلت تغطية الصحافة في أفغانستان محملة بالأخطاء ومتوسطة المستوى، ومضادة للعسكريين في أغلب الأحيان في انحيازها، هو أن الصحافيين قد استبعدوا من عمليات القتال. وبدلاً من ذلك، كان عليهم أن يعتمدوا على المسربين ليحصلوا على قصصهم، من أنواع المسربين المسؤولين عن الطائرات العمودية المسلحة الست عشرة من نوع آيه سي-130 التي كانت تُعد الهدف جيكو.

ومن ناحية أخرى، إذا كانت وسائل الإعلام تعيش فعلاً وتمشي مع الجند، فإنها ستخبر الحرب وتعانيها من منظور الجندي أو العسكري البحري. وقلت: "على الأقل فإنهم سيحصلون على حقائقهم مباشرة. وإلى جانب ذلك، فالشعب الأمريكي يستحق أن يرى احترافية أبنائه وبناته في البزة العسكرية."

إحدى النواحي التي جعلت مشروع تثبيت وسائل الإعلام مع الوحدات العسكرية ينجح في استمالة القادة هي الدورة التي كانت لمدة أسبوع في تدريب الطوارئ العسكري المشترك لوسائل الإعلام التي عقدتها وزارة الدفاع في قاعدة سلاح مشاة البحرية في كوانتيكو، في فيرجينيا. وأعلن عنه بصفة معسكر تدريب

للمستجدين سيعلم المراسلين كيف يبقون أحياء في القتال، وكيف لا يتحولون إلى عبء على الوحدات التي عينوا ليعملوا معها. والتدريب نفسه صار حدثاً إعلامياً، مع رقباء مشاة البحرية وضباط صف الجيش في البزة الصحراوية المموهة وخوذات كيفلار يُجهدون مجموعات من الصحافيين بحجم حضيرة حتى يتصببوا عرقاً وهم يصعدون عبر الورود الجبلية الشائكة في كاردياك هيل. وكان هناك هجمات وهمية بالغاز وقنابل دخان، وكمائين مع "المعتدين" تطلق صليات تصم الأذان من طلقات خلبية من رشاشات ام-60.

قال لي جيم ويلكنسون إن شركة ال. ال. بين تقوم بعمل تجاري كبير. فلديك هناك باعة الصحف وهم جالسون حول محلات ناثن في شارع ام يقارنون مزايا نعال الأحذية ذات عوارض التقوية وبنطلونات ذات جيوب التحميل.

عندما أعلن عن المشروع، اشتكى بعض قادة كتائب الجيش وألويته من احتمال القيام بعمل "حضانة" لرعاية مجموعة من المراسلين. ولكن عندما انتشر الكلام عن أن سلاح مشاة البحرية، وربما كان هذا السلاح هو أفضل فرع عسكري يميل إلى العلاقات العامة، كان يسعى إلى الحصول على "مراسلين مثبتين" التحق الجيش بالتنافس من أجل الحصول على أفضل المراسلين للوسائل المطلوبة وللإذاعات.

ومع تكشف العملية، صار واضحاً أن عدم الثقة والعداوة الموجودتين تقليدياً بين العسكريين ووسائل الإعلام قد بدأت بالانكسار. لقد سمعت تقارير تقول إن الصحافيين الذين انتقلوا إلى كامب بندلتون، وفورت ستيوارت، وفورت براغ كانوا قد بدؤوا من قبل ذلك يتحدثون بإعجاب عن "مجموعتي". وهذه الروح نفسها كانت تنتشر على متن السفن وفي قواعد الطيران حيث تم تعيين المراسلين الثابتين. كانت هناك روح معينة تتطور هي روح إيرني بايل^(*)، وكان المراسلون يرتبطون مع الجنود ومشاة البحرية، فالجند يعلمون "صحافيتهم" كيف يسخنون كيس الوجبات الجاهزة

(*) إيرني بايل (١٩٠٠ - ١٩٤٥م) صحفي أمريكي اشتهر بقصصه عن الجنود الأمريكيين في الجبهات الأوروبية والإفريقية في الحرب العالمية الثانية.

للأكل على كتلة المحرك في عربة همفي وأفضل طريق لمعالجة التفتطات. وتصورت المعادل المعاصر للرقيب المعلم كيتل أو العريف سام لونغ وهو يبين لخريجي مدرسة الصحافة في كولومبيا المواد الأساسية التي ينبغي أن يحملها في حقيبة الظهر.

في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، أعلمتني توري، بأنه سيكون هناك ما يصل إلى ستمائة مراسل معين معترف بهم في القيادة. وقالت لي: "إذا قمنا بهذه العملية، أيها الجنرال، فإن تغطية هذه الحرب ستكون أفضل تغطية في التاريخ".

في أثناء ركوبنا الطائرة ونحن ذاهبون إلى منطقة المسؤولية، أخبرت جيم ويلكنسون بفضاظة وهمية أن مراقبة هذا الحشد من المراسلين ستكون مسؤوليته. وقلت له: "أنا لا أعطي أدنى اهتمام لما تفعله بهم. أبقيهم فقط خارج شعري، لئلا يزعجونني".

ولم يبق جيم متأثراً بالصحافيين من نوعية النجوم بأكثر مما كان متأثراً بجنرالات أربع نجوم. وهذا كان أحد الأسباب التي أحببته من أجلها، إضافة إلى حقيقة أنه كان تكسانياً يستمتع بالبيرة الباردة من حين إلى آخر. ولكنه تكهن أننا كنا سنتفق اتفاقاً حسناً تماماً. وقال لي: "أنت ستتعلم أن تحب وسائل الإعلام، أيها الجنرال". ولم أحبها قط، ولكني تعلمت أن أثق في جيم ويلكنسون.

مركز العمليات المشتركة في مركز القيادة القابل للنشر الخاص بالقيادة المركزية في قطر كان في مقطورة مضاعفة السعة، وطولها مساو تقريباً لطول المنشأة الدائمة في تامبا، ولكنها أضيق بكثير. ومركز العمليات المشتركة هذا يمتلك لمسة صناعية أكبر، ففيه أنابيب تكييف الهواء وحزم كبلات الألياف البصرية المكشوفة فوق الرؤوس. ومثل مركز العمليات المشتركة في ماكديل، فإن مركز العمليات المشتركة هنا، وهو "ملجأ" مستطيل مختوم ضمن اتساع يرجع صدى مستودع أخضر ضخم في معسكر مثل السيلية، كان مضاء إضاءة خفيفة وهادئة على نحو غريب، على الرغم من أنها كانت تؤوي خلية من أربعة وثمانين ضابطاً وضابط صف قديماً يعملون ويشغلون مقصورات حواسيبهم وشبكات هواتفهم.

وأعلن عقيد نحيل من ورشة ضباط ركن الاتصالات ومدير الاتصالات العميد الجنرال دينس موران: "دعونا نشغل مفتاح روميو تانغو أربعة-سنة للتدقيق مرة أخرى باللمس". وهو تدقيق أخير للتحقق من سلامة أعقد نظام اتصال عسكري عالمي في التاريخ.

كانت الدوائر السوداء ترسم حول عيني موران الغائرتين، مثل البقية الباقية منا، كان يعيش على الكافئين والأدريالين. وبالقرب تبدو للعيان بطاقة معايدة وتحية (عيد ميلاد سعيد) عدلها شخص ما لتناسب المهمة القريبة: شطب هذا الشخص المغرم بالمزاح كلمة "عيد الميلاد" وكتب بالقلم الرصاص رسالة جديدة: "أم سعيدة لكل ألعاب الحرب".

كان تمرين النظرة الداخلية 03 واحداً من تمارين التشبيهات والمحاكاة التي تفوق في تفاصيلها وإتقانها أي تمرين سبق لأي قيادة مقاتلة أن أدارته. وقد ثبت أنه تجربة قيمة، وإن كانت مرهقة، لخطة العمليات الهجينة V 1003.

كان التمرين "تمرين حجارة" وهو تعبير يجد أصله في الحرب الأهلية، عندما كان الضباط يضعون حجارة على الأرض لتمثل مواقع القوات الصديقة والعدو. وبدلاً من قطع الحجارة، استخدمنا ملصقات تشبيه ومحاكاة محوسبة لتجربة خطتنا من حيث قابليتها للتطبيق العملي. وطوال أربعة أيام وليال قمنا بتشبيه ومحاكاة المراحل الأولى من المرحلة الثالثة، وكانت الكتائب والألوية من فرقة المشاة الثالثة وقوة حملة مشاة البحرية الأولى تعبر الحافة الرقمية للحدود العراقية، في الوقت الذي كانت فيه صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي الإلكتروني ورزم القصف الإلكتروني من السفينتين الأمريكيتين نيميتز وكي تي هوك تقصف مجموعة أهداف قيادة النظام في بغداد الرقمية وحولها.

صورة الحرب المتكشفة على الشاشات البلازمية الواسعة أعطتنا متابعة "القوة الزرقاء" التفصيلية، وهو منظر فوق شاملي يكشف تقدم وحدتنا ضد تجميعات وتغييرات في نظام مقاومة معادية مبرمجة سلفاً. وكان هذا هو إسهام عصر

المعلومات لعلم الحرب. أما الخبرة المتراكمة طوال عقود لدى أركان القيادة المركزية فقدمت فن الحرب.

كنت متعباً مثل أي فرد آخر، ولكنني كنت مسروراً بالتمرين. فقد سمحت أعمال التشبيه والمحاكاة لقادة عناصري ولي أن نقاتل حملة واقعية بشكل حيوي، ولكنها بلا دماء. وكما كان متوقعاً، برزت مشكلات: مشكلات اتصالات تتصل بعرض نطاق الترددات، والأوامر التي أسيئ تفسيرها، وقضايا التوقيت والمسافة، وخطوط الاتصال بين عناصر القوة المشتركة. واستمرت بنود القائمة.

القول المأثور القديم من فورت مونرو الذي يقول إن "السلام جسيم" هو قول مناسب، ولكنه لم يكن أكثر مناسبة منه الآن. ومثله كانت الحكمة القائلة "تدرب تدريباً شاقاً تقاتل قتالاً سهلاً". كنا نضرب ونسقط الحواف الخشنة لخطة معقدة جداً. ونحصل على بعض عقد الأصابع المكشوفة في أثناء العملية.

ولكن التمرين كان يسلم البضاعة، قد وفى بما هو متوقع منه. وبحسب الرطانة العسكرية، فإن هذا التشبيه والمحاكاة المعقدة كانت "تصدق" على الافتراضات الإستراتيجية التي بنيناها في الخطة الهجينة V 1003.

كانت خطة معقدة. فهجومنا الأرضي سوف يتقدم على طول طريقين رئيسيين للتقدم من الجنوب، وفي كل طريق عدة محاور. قوات الجيش، وتقودها فرقة المشاة الثالثة، سوف تهاجم باتجاه خطوط المسير غرب نهر الفرات في قوس طويل ينحني ابتداءً من خطوط المغادرة في الكويت إلى أن يصل إلى بغداد. وقوة حملة مشاة البحرية الأولى، وهي مقسمة إلى زمر قتالية بمستوى أفواج معززة، سوف تتبع شبكة الطرق على طول نهر دجلة، أبعد إلى الشرق. والجيش والبحرية سوف يعاودان الارتباط ليقوما بتدمير أي وحدات باقية من الحرس الجمهوري في جنوب العاصمة. وسوف تتقدم فرقة المشاة الرابعة جنوباً من مناطق التمرحل في تركيا، شريطة أن نستطيع إقناع الأتراك ليعيروننا أراضيهم لبضعة أشهر. وستقوم قوة أرضية بريطانية بحجم فرقة وأكثر بالدوران حول محور بالاتجاه الشمالي الشرقي

من الكويت وتعزل مدينة البصرة، وتشكل بذلك طوقاً حامياً حول حقول الزيت الجنوبية. وتقوم قوات العمليات الخاصة الأمريكية، والبريطانية، والأسترالية بالسيطرة على صحراء العراق الغربية، وتمنع بذلك النظام من حرية العمل في إطلاق صواريخ بعيدة المدى نحو الأردن وإسرائيل.

بدت لي الخطة على الورق أنها هجوم ضد عدو يتفوق عددياً ولديه قوة هجوم صغيرة نسبياً. هل كنت أغري القدر بتحدي حكمة كلية الحرب التي تقول إن القوة المهاجمة يجب أن تمتلك ميزة عددية 3 إلى واحد على المدافع المتخندق؟ "لا شيء من هذا" كما قد يقول أصدقائي البريطانيون. في ميدان معركة القرن الحادي والعشرين، سوف تشتق القوة من كتلة قوة النيران الفعالة، وليس ببساطة من عدد الأحمية العسكرية أو جنازير الدبابات الموجودة على الأرض.

إن قواتنا الأرضية، وهي مدعومة بقوة جوية كاسحة، سوف تتحرك بسرعة وبعمق إلى المؤخرة العراقية بحيث أن عامل الوقت والمسافة سوف يحولان دون المناورة الدفاعية للعدو. وهذا العدو البطيء في رد الفعل سوف يثبّت في المكان بجهد مشترك من المدفعية، والإسناد الجوي، والطائرات العمودية الهجومية.

ولا جدال في أن خطوط اتصالنا ستكون طويلة ومكشوفة في بعض الأماكن، وممتدة لأكثر من ثلاثمائة ميل من حدود الكويت إلى ضواحي بغداد. ولكن الهدف كان تدمير إرادة القتال عند القوات العسكرية العراقية. وإن نموذجاً لهجوم أوسع، وأبطأ، ومنهجي، ومستند إلى الاستنزاف كان يستطيع أن يهزم العدو بالتفصيل، ويمكن أن تكون خطوط اتصالنا محمية حماية أفضل بمثل هذه القوة. ولكن الوقت الذي سيستغرقه تمرحله وإطلاق مثل هذه القوة العارمة سيترك لصدام خيارات إستراتيجية كثيرة: كان يستطيع أن يستفيد من الوقت ليهدم البنية التحتية للعراق في الماء أو النفط، أو أن يطلق صواريخ ضد جيرانه، أو أن يستخدم أسلحة الدمار الشامل ضد جندنا، وسجل مساره كان يوحي بأنه لن يفكر مرتين في أي واحد من هذه الخيارات.

لا، إن سرعة المناورة ستكون أهم موجوداتنا. إذا استطاعت وحداتنا المدرعة التقدم بالسرعة الكاملة وأن تحافظ على تلك السرعة لأيام وليال مستمرة بلا انقطاع، فإنها بذلك ستمتلك المبادرة، وسوف يكتسح زخمنا قدرة العراق على رد الفعل، تعبويًا وإستراتيجيًا. نحن لن نستخدم قوة كاسحة. بدلاً من ذلك، سوف نستخدم "كتلة تأثير" كاسحة من قوة أصغر. السرعة سوف تمثل كتلة بحد ذاتها.

في واحد من المراحل المحمولة خارج مركز القيادة الرئيسي في قطر خربش أحدهم على جدار بلاستيكي أخضر: "فرانكس مدمن السرعة." وقد أخذت قلم حبر ناشف وكتبت: "بالتأكيد"، ثم ألصقت توقيعي مثل جون هانكوك^(*): تومي آر. فرانكس، جنرال، الولايات المتحدة الأمريكية، القائد.

أقنعتني نتائج لعبة حربنا أننا كنا نستطيع فعلاً دمج عدة مراحل من الحملة إلى أن تكون في جهد مفرد، ومتزامن، سوف يستغرق وقتاً أقل بكثير من المائة والثمانين يوماً التي تخيلتها. وصارت النتيجة كالتالي: "5-11-16-125" خمسة أيام لتمرکز آخر جسر جوي بعد أن يكون الرئيس قد اتخذ قراراً لإطلاق العملية، وأحد عشر يوماً لتدفق آخر قطع من "قوة البداية" وستة عشر يوماً من الهجمات الجوية والعمليات الخاصة ضد الأهداف الحيوية، وما مجموعه 125 يوماً لاستكمال تدمير القوات العراقية وإزاحة النظام.

وكانت هذه ثورة حقيقية في الحرب.

وقد أحسست بالرضا الكبير من الاشتراك الذي رأيته يتطور في الفريق في القيادة المركزية. كان لدينا رجال ونساء في مركز العمليات المشتركة في السيلية، وفي معسكر الدوحة في الكويت، وفي مركز العمليات الجوية المشتركة في المملكة العربية السعودية، وعلى السفن في الخليج، وفي القواعد الأمامية لعمليات وحدات العمليات الخاصة، وفي الخلف في تامبا، وكلهم عملوا مثل فريق موحد. كان

(*) جون هانكوك: (١٧٣٧ - ١٧٩٣) وطني أمريكي كان رئيساً للمجلس القاري (١٧٧٥ - ١٧٧٧)، وكان أول موقع على إعلان الاستقلال الأمريكي، وصار حاكم ماساشوسيتس عدة مرات.

يستطيع رائد من الجيش أن يُرحل طلباً للمساندة الجوية القريبة من نقيب من البحرية على الأرض إلى رف من المقاتلات القاذفات اف-16 من القوات الجوية. وكان يستطيع ضابط صف قديم من القوات الجوية في القيادة الفضائية في الولايات المتحدة في كولورادو أن يخدم متطلبات الزمرة-ايه، أ من القوات الخاصة من تغطية الاستطلاع بالأقمار. وكانت سفن الأسطول تستطيع أن تطلق صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي على أهداف حددها مشغل فرع أرضي من وكالة الاستخبارات المركزية.

أخبرت العصابة في مركز العمليات المشتركة: "لقد أحببتها من المكان الذي أجلس فيه، بدأت أنتم أيها الرجال تبدو لي مقاتلي حرب حقيقيين متشاركين بين الوكالات".

بعد العودة من منطقة المسؤولية صرت أتردد بين مقار القيادة المركزية في تامبا، ووزارة الدفاع، والبيت الأبيض، وكامب ديفيد. والآن بعد أن صار التصور الهجين هو خطة العمليات 1003 V فقد تحولت المسألة كلها مسألة للضبط الدقيق. وأسبوعاً بعد أسبوع تصارعنا مع "ماذا لو؟": درسنا طوارئ متنوعة مثل فقدان تركيا، وفقدان القواعد المتقدمة للعمليات المتصلة بالعمليات الخاصة في الأردن، وفقدان قواعد في المملكة العربية السعودية، وبغداد القلعة، واستخدام العراقيين لأسلحة الدمار الشامل.

وبصفتي القائد العسكري، فقد كان جزءاً من عملي أن أثبت الثقة. وذلك ما لم يكن صعباً، لأنني أنا نفسي كنت واثقاً.

ولكن كثيرين في واشنطن كانوا قلقين. فمفتشو الأمم المتحدة، الذين كانوا قد عادوا إلى العراق في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، كانوا يواجهون مزيجاً من التعاون ومن التدخل الصارخ. وعندما أصدر العراقيون ما كان في الظاهر تصريحاً "كاملاً ونهائياً" عن أسلحة الدمار الشامل وكان بسماكة تعادل عشرة كتب دليل هاتف في مانهاتن، ادعى نائب رئيس مجلس الوزراء طارق عزيز أن ذلك التصريح برهن على

أن بلاده لا تمتلك أسلحة تدمير شامل، وذلك على الرغم من حقيقة كون الوثيقة أساساً مجموعة من الأوراق التي سبق أن حكم عليها بأنها كاذبة في التسعينيات من 1990 من مفتشي الأمم المتحدة أنفسهم الذين قدم العراق لهم هذا التصريح. وبالنسبة إلى نظام صدام حسين كان الوقت ينفد.

ليس منا أحد أراد أن يندفع مسارعاً إلى الحرب إذا كانت الدبلوماسية ربما ما تزال قادرة على العمل. ولكننا كنا نريد فعلاً أن نبني قوة عسكرية في المنطقة لنضيف العضلات إلى الدبلوماسية. وكان هذا يشتمل على مخاطرة معينة. فحتى الآن، لم يقم أحد في واشنطن بتسريب التفاصيل المحددة عن تخطيطنا. فالافتتاحيات، والصفحات المقابلة للافتتاحيات كانت تناقش في الصحف ميزات العمل العسكري الاستباقي، ولكن لم تكن هناك أي معارضة مسموعة الصوت لأسلوب اقترابنا في هذا الميدان لا في مجلس الشيوخ ولا في وسائل الإعلام. ومع تزايد انغلاق نافذة الدبلوماسية، كان مئات من المراسلين ومندوبي الإعلام قد عُينوا من قبل وثبتوا في وحدات التحالف العسكرية أو هم ينتظرون التعيين.

مستوى قوتنا في المسرح كان يتصاعد. وبحلول منتصف كانون الثاني/يناير بدا لي محتملاً أن الرئيس سوف يكلف الأمة بالحرب: عاجلاً غير آجل.

اجتمعت مع الملك عبد الله الثاني ملك الأردن في بيته في عمان في أصيل يوم الخميس 23 كانون الثاني/يناير، 2003. وقال لي: "يا جنرال، أعتقد أن العراقيين يخبئون أسلحة كيماوية وحيوية، وهذا من مصادر استخباراتية موثوقة."

الأردنيون كانوا يمتلكون فعلاً مصادر استخباراتية موثوقة في العراق. وأنا وثقت بهم، ووثقت بحكم الملك. ولم أكن أحس بالمفاجأة مما روت مصادره. لقد أمضيت أياماً وليالي طوال اثني عشر عاماً مضت وأنا أقلق بشأن برنامج أسلحة الدمار الشامل لدى صدام، وبشأن الأثر الذي يمكن أن يكون لمثل هذه الأسلحة على جندنا، أو على بلادي. شكرت الملك، وغادرت بيته، وقادت السيارة إلى الفندق، وذهبت مباشرة إلى غرفة الاتصالات لأمرر المعلومات التي أعطيتها إلى الوزير رامسفيلد.

بعد أربعة أيام، في يوم الاثنين 27 كانون الثاني/يناير، كنت أطيّر من باكستان لأعيد التزود بالوقود في كريت عندما جاءني منسق رحلتي المقدم في القوات الجوية ماني شافيز، وربت على كتفي وأبلغني: "رياح معترضة بسرعة خمس وثلاثين عقدة على خليج سودا، يا جنرال. ويبدو لي أننا سيتعين علينا أن نتوجه إلى القاهرة."

وقلت: "تبا لها." فوصولي غير المعلن إلى مصر سوف يتسبب في حركة سريعة في السفارة وربما في مكتب الرئيس حسني مبارك. "ليس قراراً صعباً، يا ماني. إما أن نتحطم على سفوح الجبال اليونانية أو نتوجه إلى القاهرة." كان حسني مبارك ودوداً مثلما هو دائماً. ولكن من الواضح أنه كان مهتماً ببنائنا العسكري وبالتوتر في العراق.

ومال مقترباً مني وتكلم بلغة إنجليزية مفهومة فوراً ولكنها بلهجته. وقال وهو يختار كلماته بعناية، مثلما كان قد فعل الملك عبد الله، "يا جنرال فرانكس، يجب عليك أن تكون حذراً جداً جداً. لقد تحدثنا مع صدام حسين. إنه رجل مجنون. وهو يملك أسلحة تدمير شامل، أسلحة حيوية بالفعل، وسوف يستخدمها على جندكم." بعد ساعة، وفي غرفة الاتصالات في السفارة، مررت هذه الرسالة إلى دون رامسفيلد.

طوال تخطيطنا للخطة V1003 ناقشنا المرحلة الرابعة، "اليوم الذي يلي." عراق ما بعد الحرب يمكن أن يتشكل على غرار اليابان وألمانيا في ما بعد الحرب العالمية الثانية. وقد درسنا الحجج المواتية والمنافية بخصوص وجود كبار ضباط من الجيش الأمريكي ومن سلاح مشاة البحرية ومن القادة العسكريين البريطانيين يعملون مع شيوخ القبائل العراقية في كل أنحاء البلاد. ودرسنا قابلية التطبيق والجدوى من حكومة انتقالية في العراق تتشكل بمساندة دولية، وفق خطوط إدارة حامد قرضاي في أفغانستان.

وكما في أفغانستان، فقد كنت أعرف أن المساعدة الإنسانية وإعادة الإعمار، مقرونة بالأمن، ستكون هي الأولويات العليا حالما تنتهي عمليات القتال الكبيرة. وكانت افتراضاتنا التخطيطية بأننا سنوجه الحكومة العراقية الانتقالية في بناء قوات عسكرية وقوات أمن شبه عسكرية مأخوذة من أفضل وحدات الجيش النظامي المهزوم. وهذه الوحدات سوف تخدم جنباً إلى جنب مع قوات التحالف لاستعادة النظام ولتمنع الصدامات بين الفئات الدينية والعرقية، وذلك تماماً مثل تحالف الشمال وجماعات المعارضة الباشتونية المناوئة للطالبان التي كانت تشكل جيشاً وطنياً أفغانياً جديداً.

إن إعادة الإعمار، الذي يتضمن حشداً من مشاريع الأشغال العامة على أسلوب الصفقة الجديدة^(*)، سوف يكون مطلوباً لتوظيف أعداد من العراقيين لإعطاء زخم قفزة البداية لبناء "عراق جديد". ومع قوات أمن منضبطة، تتحدث اللغة العربية وتتعاون مع قوات التحالف العسكرية، سيكون المسرح قد أعد لمرحلة الإعمار في كل أنحاء الأمة. وسيكون لدى أرباب الأسر وظائف، وأجور معيشة لتغذية عائلاتهم، وفرصة لإرسال أطفالهم إلى المدرسة، بدلاً من وضعهم في سوق عمالة الأطفال. وسيكون للعراقيين مصلحة في مستقبل عراق حر.

لم يكن هناك شك في أن المرحلة الرابعة ستكون فترة حاسمة. فبعد أن نكون قد ربحنا الحرب، سيتوجب علينا أن نوّمن السلام. وتأمين السلام لن يكون سهلاً في بلاد كانت قد اغتصبت وذبح فيها البشر طوال أكثر من ثلاثة عقود تحت حكم صدام حسين. وكانت هناك انقسامات عميقة بين السنة والشيعة، وبين الأكراد والعرب، وبين من يملكون ومن لا يملكون، وسيكون من العسير قهر المنافسات القبلية التقليدية في المنطقة. سوف تستغرق وقتاً، وربما يكون الوقت سنوات. وستكون التكلفة عالية بالتأكيد في المال وفي الأنفس كما هو متصور.

(*) البرامج السياسية التي هدفت إلى تعزيز استعادة الانتعاش الاقتصادي والإصلاح الاجتماعي في أثناء فترة حكم الرئيس الأمريكي فرانكلين دي. روزفلت في الثلاثينات من ١٩٣٠م.

وما كان هناك أدنى ريب في الأعمال التي ستكون مطلوبة. فالقادة العسكريون للتحالف عبر كل العراق سوف يقدمون الخبرة العملية للشؤون المدنية، ومساعدة الحكم، والأمن، والمساعدة الإنسانية لملايين العراقيين. وقواتنا التقليدية وزمر قواتنا الخاصة كانت تمتلك القدرة والخبرة العملية لإنجاز هذه المهام، وعقول جين رينيوارت زنة خمسين رطلاً كانت قد قامت بعمل رائع في تحديد وتوفير الموارد اللازمة لوحدات التحالف لعمل ذلك الواجب.

ومع الأخذ بعين الاعتبار أن الغاية الرئيسة لسياستنا هي تأسيس حكومة تمثيلية في العراق، فسيكون، مع ذلك، ضرورياً أن نؤسس سيطرة مدنية عبر البلاد بأسرع ما يمكن. وكانت الأسئلة المطروحة هي: كم المدة التي ستكون ضرورية لدوام الحكم العسكري في العراق؟ وكم هي السرعة التي يستطيع بها العراقيون أن يتسلموا الحكم؟ وما هو الشكل الذي يجب أن تأخذه "السلطة المؤقتة"؟ كانت هذه أسئلة صعبة، ولم يكن هناك أي وصفة سهلة للإجابات.

في ناحية، قد تدعو الحاجة إلى قوات عسكرية أكبر من قوات التحالف وإلى الحكم العسكري للبقاء في البلاد لسنوات، من أجل المحافظة على الأمن. ومن ناحية أخرى، فإن العراقيين قد يطالبون ببلادهم بأنهم لهم، وهم قد يرحبون بالتحرير وينظمون أنفسهم بسرعة للسيطرة على العراق من دون مساعدة التحالف.

وسيطرت هذه المشكلات على ساعات وأيام من المناقشات والحوار بين مخططي القيادة المركزية ومسؤولي واشنطن. لو كان بالإمكان تحديد قائد حقيقي ينال الإجماع، نوع من حامد قرضاي عراقي، عندئذ قد تكون الحكومة التمثيلية ممكنة في الأمد القصير. الفئات الأكثرية والأقلية سوف تكون ممثلة، وسيصير العراق نموذجاً للعالم العربي الإسلامي. ولكن أين نجد القائد الذي يحوز الإجماع؟

كثيرون في واشنطن اعتبروا أحمد شلبي خياراً محتملاً. وقد صعد شلبي إلى البروز بعد أن أقر مجلس الشيوخ، ووقع الرئيس بل كلينتون، قانون تحرير

العراق في العام 1998. وصرح هذا التشريع أنه سيكون من "سياسة الولايات المتحدة أن تسعى إلى إزاحة نظام صدام حسين من السلطة في العراق وأن تحل محله حكومة ديمقراطية." ووجه القانون الرئيس إلى تعيين منظمة معارضة عراقية مناسبة أو أكثر من منظمة لتلقي مساعدة. وكان المجلس الوطني العراقي، وهو مظلة شلبي، ويقود بالدرجة الرئيسية منفذين مناوئين لصدام، قد عين ليكون هذه المجموعة المعارضة المعنية.

ولكن لشلبي منتقصوه المتحمسون، في كل من وزارة الخارجية وفي وكالة الاستخبارات المركزية. وقد استشهدوا بالآثار التي تتعقبه عن التعاملات المالية المشبوهة طوال مدة من الزمن دامت لسنوات في الشرق الأوسط، وشككوا في أنه أدام الاتصالات الوثيقة التي زعمها له داخل العراق، وخصوصاً لأنه لم يعيش في البلاد لمدة تتوف على ثلاثين عاماً. ومن طرق عدة، عانى الشلبي مصير القادة المنفيين المهاجرين الآخرين، بدءاً من الروس البيض في باريس العشرينيات من 1920 وإلى ديغوليي فرنسا الحرة في إنجلترا في أثناء الحرب العالمية الثانية: فبغض النظر عن مدى الإخلاص الذي كان يرغب فيه في تحرير وطنه، فهو لم يبق، وبشكل سيئ، على اتصال مع ما يلزم للقيام بذلك. وقد قابلت الشلبي مرة واحدة فقط، وفي الوقت الذي كنت فيه متأثراً بإخلاصه، فقد كنت خائب الأمل برأيه الواضح بأهميته الشخصية، وبرأيه المبين بأنه كان يستطيع "بسهولة" أن يجمع العراق حول نفسه. فهو قد يكون رجلاً طيباً، ولكنني كنت أعرف ما يكفي حول الصعوبات التي كان يواجهها العراق إلى درجة تجعلني أرى الشلبي ساذجاً.

والعديد من القادة في المنطقة كانوا ضد الشلبي برأي موحد بوصفه من الخارج، إنه قائد، غندور "غوشي" (*) ولن يكون قادراً أبداً على أن يوحد الفئات العرقية والدينية. وفي واشنطن، ارتسمت خطوط المعركة. مع عدم وجود قرصاني

(*) غوشي شركة راقية للملابس واللوازم الشخصية والعطور، والغندور هو الناعم الحسن الشباب. انظر المعجم الوسيط.

عراقي بارز بوضوح استمر الحوار بين وزارتي الخارجية والدفاع. وفي هذا الوقت كانت أمريكا تقترب أكثر من الحرب. وسوف يتعين تحديد قيادة العراق الجديدة على عجل وفي اللحظة، حتى في الوقت الذي كان فيه التحرير العسكري قيد العمل والتقدم. ربما سيتقدم جنرال عراقي، أو سيتقدم شخصية من النخبة المتعلمة.

وعلى أي حال انتهت المسألة، فإن السلطة المؤقتة، طبعاً، ستكون مطلوبة. وعندما كنت أقرأ قصص الصحف، وأ شاهد قنوات التلفاز الإخبارية وهم يشدون على أيديهم في إمكانية أن أقوم بالخدمة بصفة ما سموه "ماك آرثر العراق" كنت أوازن بين إيجابيات وسلبيات مثل هذا الاحتلال:

- تحسين الأمن... تحت سيطرة شخص ينظر إليه على أنه محتل غاشم.
- تحسين الكفاية في الأمد القريب... لنكون السبب في ظهور اعتماد التبعية في الأمد الأطول.

- تحسين القدرة على صرف تمويل إعادة الإعمار... مع القدرة المتناقصة على الحصول على مثل هذا التمويل من مجلس الشيوخ الأمريكي أو المجتمع الدولي.
- لم أستطع أن أرى أي حل كئس مناسب لهذه المشكلة المعقدة جداً. إن السيطرة المدنية على الحكومة كان منذ مدة طويلة قيمة من القيم الأمريكية. فالكيفية التي ننتقل من خلالها بالعراق قُدماً باستخدام هذا النموذج الأمريكي المميز كانت مسألة إشكالية. ولكن شيئاً واحداً كان مؤكداً، على كل حال، وهو: أن المرحلة الرابعة سوف تتطلب قيادة مدنية. فبالإضافة إلى الأحذية العسكرية الموجودة على الأرض، فإننا سنحتاج إلى أحذية مدنية رسمية، نحتاج إلى مئات، وربما آلاف من المدنيين من أمريكا ومن المجتمع الدولي، من المستشارين الحكوميين إلى المستثمرين الراغبين.

والمفتاح إلى كل هذا، طبعاً، هو الأمن. ولكن الأمن لن يكون ممكناً في العراق من دون إعادة إعمار فوري ومن دون عمل مدني.

بعد ذلك، وفي بعد عصر ساخن في فلوريدا، اتصل بي دون رامسفيلد. وقال

لي: "يا توم، هل تعرف جاي غارنر؟".

وأجبت دون رامسفيلد: "نعم سيدي الوزير. وأنا أحبه. جنرال عظيم من الجيش." وكررت على مسامع رامسفيلد إحدى قصصي المفضلة عن الفريق جاي غارنر: فهو عندما تقاعد، سأله مراسل إن كان سيغير أي شيء بشأن حياته لو كان له أن يعيشها ثانية. فأجابه جاي: "بالتأكيد، سأغير الكثير من الأشياء، ولكنني سأزوج المرأة نفسها، وسألتحق بجيش الولايات المتحدة."

وقال رامسفيلد: "جيد، وأنا أحبه أيضاً. كيف سيعمل بصفة رجلنا الكبير المسؤول عن الاحتلال العراقي وإعادة الإعمار؟"

وقلت له: "سيكون عظيماً." لقد كان غارنر فعالاً جداً في منع كارثة إنسانية بين أكراد شمال العراق بعد عاصفة الصحراء في العام 1991. وقلت لرامسفيلد: "عمل ضخم. ولكن جاي يستطيع أن يعمل إذا كنت تثق به أنت... وإذا كان يستطيع أن يحصل على الدعم الصحيح من كل وكالة من حكومة الولايات المتحدة. وذلك سوف يشتمل على مستويات من التمويل لم يسبق أن سمع بها منذ الحرب العالمية الثانية." وقال رامسفيلد: "سيكون مرؤوسك. ولكنه سيكون رجلي في العراق."

"ذلك سيعمل، ولكن سيتعين علينا أن نقاتل مشكلة كل بيروقراطي داخل طريق الحزام الدائري ويزفت... معه إذا رأي بوصفه رجل واشنطن بدلاً من رؤيته رجل تومي فرانكس."

وقال الوزير: "أنت القائد. وهو سيعمل لك."

وطول الأسابيع القادمة، سوف نجتمع أنا وجاي غارنر، وهو سيبنى فريقاً من الاختصاصيين والخبراء من كل أنحاء حكومة الولايات المتحدة، وينشر الفريق إلى الكويت، وينشئ صلات مع قادتنا على الأرض، ويستعد لدخول العراق في أعقاب جندنا المهاجمين.

وقد أمضى جاي وفريقه ساعات لا تحصى مع أركان القيادة المركزية والمخططين الرئيسيين في الأركان المشتركة وفي مكتب وزير الدفاع، يشكلون

العمليات والإجراءات التي ستضع اختصاصي الشؤون المدنية في الجيش الأمريكي في كل مقاطعة في العراق. وستقوم قوات التحالف بتأمين حماية هذه الزمر، التي ستعمل مع العراقيين لبناء الحكم المحلي في كل مركز سكاني كبير. وسوف يمثل العراقيون المحليون كل المصالح العرقية والقبلية والدينية في البلاد في تأسيس قيادة وطنية. وسيطلق جاي ومقار قيادته عمليات في بغداد، تتشارك في موقعها مع قائد التحالف الموجود في الموقع وسوف ينظم الوزارات التنظيم اللازم: وزارة النفط، والدفاع، والشرطة، والخزانة وهكذا، لتوفير "السلطة المؤقتة" في أثناء الانتقال إلى حكومة عراقية جديدة.

ولكن التحدي كان مثبطاً للهمة، وكان واضحاً أن هناك خطوات عملية معينة كانت مطلوبة حالما يزال نظام صدام:

- تأمين التمويل الضخم للاحتياجات الفورية للشعب العراقي.
- استئجار عشرات الآلاف من الجنود العراقيين السابقين، وكلهم بحاجة إلى المال للعناية بعائلاتهم.
- تحديد قيادة سياسية تكون موثوقة من العراقيين، وقادرة على مساندة قوة احتلال عسكرية والحلول مكانها في نهاية الأمر.
- تنفيذ سياسة اجتثاث البعث التي لم تكن صعبة المعالجة، وهي في الأساس تحرم الطبقة الوسطى المتعلمة العراقية من حق التصويت.
- تكييف التوقعات الأمريكية بأن العملية ستكون سريعة وغير مؤلمة.

إن التحالف العسكري سيحرر العراق، وقيم الشروط اللازمة للسلطة المدنية لتقييم حكومة مؤقتة مدعومة من قوات الاستقرار من التحالف، ويوفر الأمن إلى أن يستطيع العراق أن يضع في الميدان قوات أمنه الخاصة، وهو مدخل حصيف لمشكلة معقدة.

وإن ترشيح جاي غارنر كان خطوة جيدة، ولكنها كانت خطوة أولى فقط.

وستكون واشنطنون مسؤولة عن توفير السياسة، وتوفير الموارد الكافية، كما كنت آمل، وذلك لكسب قلوب وعقول الشعب العراقي: في الوظائف، وشبكات الطاقة الكهربائية، والبنية التحتية للماء، والمدارس، والمستشفيات، والوعد بالرفاهية. وإن ثروة العراق النفطية ستكون مشتركة للشعب العراقي الذي لم يخبر إلا إساءة المعاملة، والتضحية، والفقر المدقع طوال أكثر من ثلاثين عاماً.

واعتمدت الخطة على أمرين محتومين متساويين: الأمن والعمل المدني. وإذا حققنا هذين الأمرين معاً فسيستطيع العراق عندها فقط أن يتحول إلى مثال لسلطة الحكومة التمثيلية.

كنت سعيداً لأننا وصلنا أخيراً في تكرار الإجازات إلى المرحلة التي كانت تبرز فيها خطة، لا مجرد تصور قائد؛ لأمر واحد، وهو أننا كنا قادرين أخيراً على أن نتحرك إلى ما بعد البيئة الافتراضية التي كنا نعمل فيها طوال شهور خلت، ونبدأ في نشر السفن، والطائرات، والجند.

ولأمر آخر، فقد سبق لي حتى الآن أن أمضيت أكثر مما كنت أحب وأنا أتجنب قضية "خطة حرب" في تعاملاتي مع الصحافة.

وفي واحد من المؤتمرات الصحافية في تامبا، والذي عقد في 21 أيار/مايو 2002، سألتني مراسل حول مستوى القوة الضروري لغزو ناجح للعراق. وكنت قد أجبتة: "رئيسي لم يطلب مني حتى الآن أن أستجمع خطة لفعل ذلك". وكانت هذه هي الحقيقة. في شهر أيار/مايو 2002، كنا نعرض على الرئيس خيارات، لا خطة.

ما كنت أستطيع أن أطلب من الجيش أن يصوغ ويصدر أوامر انتشار ويحرك التجهيزات استناداً إلى تصور. كانت الخطة أداة مختلفة تماماً. التصور كان نظرية. والخطة شيء نستطيع أن ننفذه.

في شهر أيار/مايو 2002، كنا ما نزال نناقش نظرية، ولم أكن أملك أي وثيقة قابلة للتنفيذ في مقري. الآن أنهينا V1003. كنا نمتلك خطة.

في يوم الاثنين، 3 شباط/فبراير 2003، تسلمت ما طال انتظاري له، وهو تقرير المفتش لوزارة الدفاع، وكان صدوره منتظراً منذ شهر تشرين الأول/أكتوبر 2002. نبع هذا التقرير في الأصل من شكوى من ضابط ساخط كان يخدم في مجموعة أركانتي قدمها في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2002.

في مركز ادعاءاته كانت مسألة تتصل بزواجتي، بكاثي. وبشكل محدد، شكا الضابط من أنني سمحت لمرؤوسيّ في وقت الواجب الرسمي أن يقدموا خدمات شخصية لكاثي، وأنني قد خرقت الأنظمة العسكرية بسماحي لكاثي بأن تطير على طائرة حكومية، والأكثر جدية عنده، هو أنني خرقت الأنظمة الأمنية لوزارة الدفاع بإعطائي كاثي حق الوصول غير المرخص به إلى المعلومات السرية المصنفة.

وكنّ أعتقد أن التهم غير معقولة. ولكنني أدركت أيضاً الإمكانية الخطرة لها في إقلاق القيادة في وقت النشاط العاجل في كل من أفغانستان والخليج العربي. وحالما طفت الادعاءات إلى السطح تحدثت مع دونالد رامسفيلد.

"سيدي الوزير، لا أعتقد أن هناك أي شيء بخصوص هذا، ولكنني أرى أن كل تهمة منها يجب أن يتم التحقيق فيها تحقيقاً كاملاً. فإذا كنت قد ارتكبت أي أخطاء فسوف أعترف بها. ومن المهم أن يكون التحقيق مفتوحاً وكاملاً."

وكان رامسفيلد قد قال لي: "سوف نجعل المفتش العام يعمل فيها. ولكنني لا أريدك أن تتحول عن المسألة الرئيسية."

وقلت له: "دعوا الضربات تسقط حيثما تسقط. فلدي عمل مهم أعمله."

كان ذلك في شهر تشرين الأول/أكتوبر، ومنذ ذلك الحين دارت عجلات البيروقراطية وطحنت طحناً بطيئاً. وكنّ أعرف من خبرتي الخاصة عندما كنت رائداً شاباً أحقق في سلوك ضابط جنرال أن هذا المستوى من التحقيق كان يجب أن يتحرك بسرعة أكبر. ولكن لم يكن لي سيطرة على العملية.

عندما صدر التقرير فعلاً، كان شاملاً جداً. ولم يجد المفتش العام أي مادة

للزعم بأن أركاني كانوا قد قدموا خدمات شخصية لكاثي، وبالنسبة إلى مرافقتها لي في الرحلات إلى منطقة المسؤولية، لم يلاحظ التقرير ارتكاب أي خطأ في ذلك.

وكانت أخطر تهمة هي أنني قد سمحت لها بأن ترى وثائق أسرار عالية على ظهر الطائرة. وهذا في الحقيقة لم يكن صحيحاً، ولكني لم أكن أستطيع أن أبرهن على أنني لم أناقش مثل هذه الوثائق مع أركاني بينما هي حاضرة في غرفة الاجتماعات في الطائرة. وعندما أثرت المسألة في العام 2002، وقعت كاثي "اتفاقية الإفشاء سهواً" التي كانت تمنعها من إفشاء أي معلومات أو أسرار تكون قد سمعتها من دون قصد المتحدث. وهذا الاتفاق مقروناً مع حقيقة كونها قد حصلت على تصريح أمني سري لمدة أكثر من سنتين، أرضاني وأرضى دونالد رامسفيلد.

في أول رحلة لي إلى واشنطن بعدما كان تقرير المفتش العام قد أعلن، ناقشت المسألة مع الوزير.

قال لي: "كلما ازدادت السلطة والصلاحيات التي يمتلكها المرء، يتوجب عليه أن يزداد حرصاً. وتذكر أن الإدراكات الحسية تؤخذ بالحسبان".

وأجبت: "فهمت، يا سيدي".

وبذلك، تابعت التقدم لأؤدي واجبي.

في يوم الأربعاء، 5 شباط/فبراير 2003، قدم كولن باول لمجلس الأمن في الأمم المتحدة عرضه الذي طال انتظاره عن تهديد أسلحة الدمار الشامل العراقية. وقد استعد لهذا الحدث بدراسة تقارير العملاء، وبالتصوير الفوقي، وباعتراضات الاتصالات، و"مجموعة" فنية أخرى كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد جمعتها له ليستعرضها. وكان باول أيضاً قد استغرق في قراءة التقارير الضخمة لمفتشي الأمم المتحدة أنفسهم عن الأسلحة، وهم الذين قرروا أن العراق لم يقدم تعليلاً لكميات

ضخمة من الأسلحة الحيوية والمركبات الوسيطة لغاز الأعصاب من مثل السارين وفي اكس(*)).

وعندما كان العالم يشاهد، قدّم كولن باول، وكان مدير الاستخبارات المركزية جورج تينت يجلس خلفه، القضية إلى مجلس الأمن، وهي أن نظام صدام حسين في أحسن الأحوال قد خدع عن عمد مفتشي الأسلحة من الأمم المتحدة من العام 1991، وهو ما يزال يفعل ذلك.

واستخدم وزير الخارجية تسجيلات اعتراض الاتصالات التي ناقش فيها الضباط العراقيون العسكريون وضباط المنظمة الأمنية تخيئة "الذخيرة الممنوعة" عن المفتشين. وعرض صور استطلاع الأقمار لمواقع صناعية مشبوهة ومختبرات أسلحة حيوية متقلة مشبوهة.

واستشهد بصلات قائمة بين حكومة صدام حسين ومجموعة أنصار الإسلام الإرهابية المتحالفة مع القاعدة، والتي كان يقودها أبو مصعب الزرقاوي.

وشدد الوزير على أن "الطموح والكرهية كافيان ليجمعا العراق والقاعدة معاً". وسأل كولن، نظراً إلى أن صدام "مصمم على المحافظة على أسلحته للدمار الشامل... وصنع المزيد، هل يجب علينا أن نقبل المخاطرة بأنه يوماً ما لن يستخدم هذه الأسلحة في وقت وفي مكان من اختياره، في وقت يكون فيه العالم في وضع أضعف بكثير من أن يرد؟ إن الولايات المتحدة لن تغامر في التعرض للخطر ولا تستطيع أن تقبل المخاطرة بالشعب الأمريكي".

بعض أعضاء مجلس الأمن وافقوا على ما وجده. أما فرنسا، وألمانيا، وروسيا فلم توافق.

(*) في اكس (VX) غاز أعصاب أشد فتكاً من غاز السارين ولكنه أقل تبخراً. ويقتل خلال دقائق إذا استنشق أو لامس الجلد، وتحتاج الوقاية منه إلى ملابس خاصة وأقنعة. ويلوث الأرض التي أطلق فيها لعدة أيام. وقد أدى انطلاق هذا الغاز خطأ في يوتاه في ١٩٦٨م إلى قتل آلاف من رؤوس الغنم على بعد ٦٤ كم من مكان تسربه. أعد لأول مرة في الخمسينيات من ١٩٥٠م ليكون مبيد حشرات ثم صنفته الحكومة الأمريكية مع الأسرار.

وعندما تحدث الوزير فكرت في أن هذا العرض قوي، ونحن لا نستطيع أبداً أن نترك مصير أطفالنا وأحفادنا للصدفة. وفعل ذلك سيكون غلطة، ذات أبعاد خطيرة.

كان جون أبي زيد قائداً لامعاً وله سجل قوي في القيادة القتالية. كان يعرف المنطقة معرفة جيدة ويتكلم العربية. وبوجوده بصفة نائب في المقدمة في قطر، ووجود رايفل دولونغ ليدير القيادة المركزية الرئيسية في تامبا بصفة نائب في المؤخرة، كنت أنا قادراً على الانتقال في كل أنحاء المنطقة، لإدامة الاتصال مع القادة الرئيسيين، بينما أتحرك جيئة وذهاباً إلى واشنطنون بانتظام للاجتماع وللتشاور مع دونالد رامسفيلد ومع الرئيس.

في يوم الأربعاء، في 5 آذار/مارس، عقدت آخر اجتماع سابق للحرب بشأن العراق مع الرئيس ومع فريق الأمن القومي في البيت الأبيض. كانت قوات التحالف البرية، والبحرية، والجوية، وقوات العمليات الخاصة في المنطقة تتنامى بسرعة، وهي الآن في مجملها وصلت إلى أكثر من مائتي ألف جندي. وكانت وحدات قتال ومساندة إضافية أمريكية وبريطانية تقدر بستين ألف جندي في طريقها إلى الخليج.

وبحلول الأسبوع الثالث من آذار/مارس، سيكون العدد الإجمالي لقوتنا من كل العناصر، ومن جملتها حلفاؤنا في الكويت من تحالف دول الخليج، قد وصل 292.000 جندي. ومن هؤلاء، سيكون هناك 170.000 تقريباً من الجنود ومشاة البحرية معينين تحت قيادة عنصر القوات المشتركة الأرضية.

وأبلغت الرئيس: "سيدي الرئيس، إن كل تحسينات البنية الأساسية الحيوية قد استكملت، والقوة المطلوبة هي الآن في المكان في المسرح."

وكان جورج بوش مركز الانتباه، وجاداً جداً. "وأين نحن مع تركيا؟"

كانت تركيا إحدى اهتماماتنا الكبيرة القليلة المتبقية، فالحكومة التركية الجديدة في الواقع، رفضت السماح بالمرور لفرقة المشاة الرابعة عبر أراضيهم إلى

العراق. ولكننا أعطينا الموافقة على الطيران عبر الأجواء التركية من حاملات الطائرات في البحر الأبيض المتوسط، وهناك مفاوضات تستند إلى رزمة عون متعدد البلايين من الدولارات ما تزال جارية.

وشرحت: "إن فرقة المشاة الرابعة، مع كل تجهيزاتها المحمولة على سبعة وثلاثين سفينة موجودة في البحر الأبيض المتوسط، سيدي. فإذا غير الأتراك رأيهم فسوف نُنزل الفرقة ونكون على حدود العراق الشمالية في غضون عشرة أيام. وإذا لم يغيروا، فسوف نعبّر قناة السويس وننزل الفرقة في الكويت، وربما يكون ذلك بعد الشروع بالأعمال الحربية."

إن إحصار تلك الوحدات القتالية كان سيرفع قوة عنصرنا البري بزيادة 15.000 عسكري. ولكن الرئيس، ورامسفيلد، وأنا ناقشنا وظيفة أخرى مساوية في الأهمية لفرقة المشاة الرابعة: وهي، أن نخدم حجر زاوية في خطتنا للخداع. ففي الوقت الذي بقيت فيه الفرقة جاهزة في المتوسط لتثبيت وحدات العدو في الشمال، كنا نمرر معلومات إلى النظام العراقي من خلال قنوات سرية تفيد بأن لدينا ترتيبات سرية مع الأتراك، الذين سيفتحون موانئهم للفرقة، في آخر لحظة. وكان الاستطلاع قد أشار إلى أن ما يقارب الثلاث عشرة فرقة عراقية كانت ما تزال باقية شمال بغداد: وربما يكون صدام على ما يبدو قد بلع الطعم.

بعدئذ، شرحت تقسيم الزمن لمراحل عمليات القتال. لقد كشفت آخر الصور الجوية من الأقمار عن معوق قليل للسرعة من قوات الجيش النظامي العراقي بين حدود الكويت والمدن الواقعة جنوب بغداد، حيث كان دفاع صدام قد بُني بالعمق بالحرس الجمهوري. وموضع قوة العدو هذه كان بالضبط مثلما تكهن به مخططونا في الاستخبارات: إذا نجح عمل خداعنا، فسوف نكون جاهزين للبدء في عمليات قريبة من التزامن جواً، وبراً، وعمليات قوات عمليات خاصة عند صدور الأمر من الرئيس.

وختمت بالقول: "سيدي الرئيس، أود أن أحصل على إنذار قبل ثمانية وأربعين ساعة إذا قررت أن تنفذ هذه العملية: فذلك سوف يعطيني الزمن لتوصيل رجال وحدات المهام الخاصة إلى داخل العراق الغربي لإغلاق سلال سكود."

وناقش رامسفيلد، وتشيني، وباول، والرئيس أمر إعطاء صدام حسين إنذاراً نهائياً واحداً. إما أنه سيغادر العراق طوعاً، مع ولديه عدي وقصي اللذين كانا خليفتي والدهما الدكتاتور، وإلا فإن التحالف سوف يدخل ويزيحههم عن السلطة.

وكرر الرئيس: "ثمانية وأربعون ساعة. يومان. حسناً، يا تومي. سيكون لك الإنذار إذا وصلت الأمور إلى ذلك."

لم أكن أمتلك الوقت لأمر عبر تامبا قبل التوجه عائداً إلى القيادة المركزية في المقدمة في قطر. ولكنني تكلمت مع كاثيري، وجاكي، وأحفادي في الهاتف.

وأخبرت كاثيري وسيارة وزارة الدفاع من نوع سيدان تدرج صعوداً إلى طائرة سبار 06 على المنحدر في أندروز.

ذهبت أصابعي إلى خاتم الزواج الذي كانت كاثيري قد أعطتني إياه منذ وقت طويل، وأحسست بدمعة تعبر وجهي. وسحبت إنجيلاً صغيراً وعلماً أمريكياً متجعداً من جيب بزتي العسكرية. كان العلم من جاكي أعطتني إياه عندما ذهبت إلى درع الصحراء في العام 1990. وبعد تلك الحرب أعدته لها تذكراً، ولكنها الآن قد أرسلته إلي ثانية تفاؤلاً بالخط. وكان الإنجيل هدية من جد كاثيري لوالدها، جيممي إليس، الذي أحببته مثل جد ووالد كبير لم يكن لي أبداً، حتى وفاته في العام 1994.

فتحت الإنجيل على النص المفضل عندي، أفيسوس 6: 11-17. "أدرك درع الله الكاملة... وتمسك بموقفك... مرتدياً حزام الحقيقة الثابت... ودرك الصدر من حق الله... واستخدم الإيمان ترساً لك... وجرّد سيف الروح الذي هو كلمة الله." كم مرة رجعت إلى هذه الصفحة؟ وكم من المرات الأخرى في الأيام القادمة، سأستنهض إيماني ليكون مصدر قوة؟

جلست وحيداً في مكتبي في المقر المسبق الصنع قرب مركز العمليات المشتركة في المستودع في معسكر السيلية، أشاهد التلفاز عندما كان جورج بوش يخاطب الأمة والعالم. كان الوقت قبل الفجر في يوم الثلاثاء، في 18 آذار/مارس 2003، في قطر، وهو ذروة ساعات الاستماع في المساء في يوم الاثنين ليلاً في الولايات المتحدة.

تتبع الرئيس تاريخ النظام العراقي: "تاريخ العدوان المتهور." ثم أصدر الإنذار النهائي الذي سبق لنا أن ناقشناه قبل أسبوعين في البيت الأبيض.

وقال بوش: "يجب على صدام حسين وابنيه أن يغادروا العراق في غضون ثمانية وأربعين ساعة. وإن رفضهم سوف يؤدي إلى نزاع عسكري، يبدأ في وقت من اختيارنا."

كانت الساعة تجري. وكنت على وشك أن أقود الجند مرة أخرى في معركة. ولكنني في هذه المرة لن أركب ناقلة جنود مدرعة عبر الغابة في فيتنام، أو عربة همشي عبر قيعان الحصباء من وادي الباطن. أنا سأراقب المعركة على شاشات البلازما الواسعة، بعيداً عن جلجلة المدافع، وعصف القنابل، وصيحات الجرحى. وسأكون من الناحية الجسمية المادية آمناً، ولكنني سأشارك جنودي في الأعياد، والبهجة، والمخاوف.

كان مؤتمرنا بالاتصال من بعد المصور بالفيديو قبل الحرب يصل إلى نهايته في أصيل يوم الأربعاء في 19 آذار/مارس، 2003.

وقلت وأنا أواجه جورج بوش عبر الوصلة الآمنة للمؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو: "سيدي الرئيس، هذه القوة جاهزة. يوم بدء العملية، وساعة الصفر هي 2100 في هذه الليلة بتوقيت العراق، الساعة 1800 بتوقيت غرينتش المتوسط، والساعة 1300 بتوقيت الساحل الشرقي."

وأشار الرئيس بوش برأسه إلى أعضاء مجلس الأمن القومي الجالسين معه في واشنطن، ثم التفت نحوي.

"حسناً، من أجل السلام في العالم والأمن لبلادنا ولبقية العالم الحر..." ثم توقف، ومستشاروه ينصتون باهتمام... ومن أجل حرية الشعب العراقي، اعتباراً من هذه اللحظة، سأعطي الوزير رامسفيلد الأمر الضروري لتنفيذ عملية حرية العراق."

وأضاف الرئيس وصوته حازم: "تومي، بارك الله في الجند."

وأجبت "سيدي الرئيس، بارك الله في أمريكا."

وأدبت أنا التحية، ورد القائد العام التحية بمثلها.





نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل الحادي عشر

عملية حرية العراق

المقر الأمامي للقيادة المركزية

19 آذار/مارس 2003 اليوم ي

الطائرة سي-40 الجديدة من القوات الجوية، وهي بوينغ 737 معدلة، كانت أكثر فاعلية وتوفيراً للراحة من طائرة سبار 06 القديمة من العام 1962 التي حملتني جيئةً وذهاباً عبر الكرة الأرضية منذ شهر تموز/يوليو 2000. والطائرة سي-40 لم تكن تمتلك قدرة النفثة القديمة على إعادة التزود بالوقود في أثناء الطيران، ولكن جناح الاتصالات فيها كان على أعلى مستوى متقدم من التطور. وللطائرة الجديدة نوافذ، وهي أشياء موضع ترحيب تبعث على الراحة في زمن الليالي الطويلة والنوم القليل.

أقلعنا متسلقين بميل حاد مبتعدين عن قاعدة الأمير سلطان الجوية إلى أن علونا إلى ارتفاعنا الذي نطير فيه وهو 31.000 قدم. ومن مقعدي في الجانب الأيسر ظهرت لي صحراء شبه جزيرة العرب تحت نظري بُنية خالية. في غضون ساعة سأكون قد رجعت إلى مقر القيادة في القيادة المركزية داخل المبنى 217، وهو مستودع يرجع إلى القرن في معسكر السيلية، في قطر.

معاوني، الرائد البحري كريس غوديك، واسمه "غرينش" بالنسبة إلينا جميعاً، نحن الذين عملنا معه، ظهر وهو يحمل بعض الرسائل راجعاً من مركز الاتصالات الأمامي. وانحنى لينظر إلى خارج النافذة. وقال: "يوم عظيم للخروج للطيران، ياسيدي."

كان غرينش طياراً يتقلد أوسمة تزيينه من أجنحة الطيار من سلاح مشاة البحرية موجودة على بزته الصحراوية المموهة. لقد طار في طائرة انترودر ايه-6

في عاصفة الصحراء، وكنت أعرف أنه كان يفضل الآن أن يقوم بالاستعداد وارتداء ملابسه لمهمة قتال في هذا الأصيل. كنت أفهم كيف كان يشعر: إن قسماً مني كان يريد أن يكون هناك على الحافة في الكويت، يدقق الطلقات في مخازن بندقيتي ام-16. ولكنّ كلانا كان له عمل مختلف يعمل به.

وأخيراً كان لدينا اسم لخطتنا: فخطة العمليات الهجينة V 1003 أطلق عليها رسمياً اسم عملية حرية العراق. لقد كان ذلك قرار الرئيس، وأنا أحببته. ولم تكن الغاية من هذه الحملة هي الفتح ولا الزيت، بل هي الحرية لستة وعشرين مليون عراقي، ومن أجل العالم، الحرية من تهديد أسلحة الدمار الشامل لئلا تقع في أيدي الإرهابيين.

وبلغ عدد التحالف الذي تم تجميعه لكسب هذه الحرب حوالي 290.000 من العسكر، والبحارة، ورجال الجو، ومشاة البحرية، ورجال حرس الشواطئ، ورجال وحدات المهام الخاصة من أمريكا، والمملكة المتحدة، وأستراليا، وأوروبا. وفي المجمل، اشتملت القوة على رجال ونساء من ثلاث وعشرين أمة، ومع قيام حلفائنا من الخليج العربي بتوفير المناطق الأساسية للتمرحل، والقواعد الجوية، والموانئ، إضافة إلى الأمن البحري وقوة الحماية الحيوية "لذيلنا" الطويل في الإمداد والتموين.

وعندما تحركنا نحو الاستقرار واستونيا، امتدت حدود المملكة العربية السعودية، والأردن، والعراق للشمال الغربي إلى الأفق. وقام عدة آلاف من عسكر القوات الخاصة وخيالة المهام الخاصة، وكثيرون منهم كانوا محاربين قدماء من القتال في أفغانستان، والتحق بهم رجال وحدات مهام خاصة بريطانيون وأستراليون من الخدمة الجوية الخاصة كانوا في قواعد في الأردن وفي شمالي المملكة العربية السعودية، قاموا كلهم بالإعداد للهجوم في داخل العراق الغربي. وسوف تمثل عملية حرية العراق أضخم تشكيل قتالي من رجال وحدات المهام الخاصة في التاريخ.

وكانت مهمتهم الأولى، التي ستبدأ في غضون أقل من أربع ساعات، هي تدمير مراكز الرصد البصري للعدو على طول الحدود الغربية للعراق. ورجال وحدات المهام الخاصة سوف يرشدون بالليزر إلى البنى الحجرية الضخمة والأبراج الفولاذية الأصغر من تلك. وستقوم الطائرات العمودية لیتل بیردز (الطيور الصغيرة) إيه اتش-6 (وهي نسخ حديثة من طائرات لوتشيز ذا رد بارون (سمك البارون الأحمر) التي سبق لي أن طرت فيها في فيتنام) والطائرات العمودية الدفاعية المسلحة المخترقة ام اتش-60، والمقاتلات القاذفات من القوات الجوية بإزالة هذه الأهداف بصواريخ هيلفير وبقنابل زنة 500 رطل.

هذه الضربات سوف تؤدي دوراً حيوياً في الأيام القادمة: سوف تعمي العدو. وباستئصال القدرة العراقية على المراقبة، ستقوم مئات من زمر القوات الخاصة في طائرات عمودية وعربات لكل التضاريس بالتحشد عبر الحدود في الليل، والاستيلاء والسيطرة على مواقع إطلاق الصواريخ المحتملة، وهي المشهورة باسم "سلاسل سكود"، ومعها سلسلة من المهابط في صحراء العراق الغربية. وكنت أريد أول طلاقات في هذه الحرب أن تطلق في الغرب. وعلى الرغم من أن الاستخبارات العراقية كانت من مستوى متوسط في أحسن أحوالها، فإن بغداد سوف تعلم بالتأكيد خلال ساعات أن قواتنا كانت تسبر حدودهم مع الأردن.

وكنيت قد قلت لغاري هاريل وديل ديلي في أثناء اجتماعنا الأخير قبل بضعة أيام: "أريد تأثيراً كالتماوج. سوف نزيل الأبراج التسعة المواجهة للأردن أولاً، ونستأصل الأربعة والعشرين برجاً الموجودة على طول الحدود السعودية الغربية بعد عدة ساعات."

وعندما تضرب خيالة ديل من وحدات المهام الخاصة أول مراكز الرصد البصري وتعبر الحدود، سوف تتسلل وحدات غاري من قوات العمليات الخاصة من التحالف إلى غرب العراق. وفي الوقت نفسه، فإن قوات أخرى ورجال المهام الخاصة من وكالة الاستخبارات المركزية سوف يخترقون جنوبي العراق من الكويت

للاتصال مع "أصدقاء" في المستنقعات الجنوبية، التي يسيطر عليها الشيعة. وستكون الأهداف هي تأمين مواقع عبور النهر والسدود الحيوية في خزانات العراق الحيوية، لمنع التخريب الذي كان يمكن أن يفرق قطاعات واسعة من وديان النهر.

حدقت إلى الشمال الآن، نحو الكويت. غداً ليلاً، ستقوم المدفعية والطائرات العمودية المسلحة أباتشي من قوات الفريق ديفيد ماككيرنان، من القوات المشتركة من قيادة العنصر الأرضي، بتدمير أبراج الرصد الموجودة على الحدود الكويتية إلى الشمال تماماً من جنود فرقة المشاة الثالثة، ومشاة البحرية من قوة حملة مشاة البحرية الأولى، ورجال المشاة والدبابات من الفرقة المدرعة الأولى البريطانية، وهم تقريباً 170.000 من الجند في مجملهم، والذين تمركزوا في مواقعهم قبل الاقتحام، جاهزين لاختراق حافة الحدود إلى داخل جنوب شرق العراق.

ولم يكن نشاط قوات العمليات الخاصة في الغرب هو بداية المرحلة الحركية الأولى من عملية حرية العراق فقط، بل كانت أيضاً جزءاً من خطة خداع معقدة. فقد كان هناك قيد العمل والتقدم جهد إستراتيجي صلب مقسم طوال شهور يغذي نظام صدام حسين بالمعلومات المغلوطة. ونظراً إلى حساسية الخداع، فإن قلة منا فقط في حكومة الولايات المتحدة كانوا على علم به.

وفي مركز عملية الخداع كلها كان هناك رجل سميناه "أحمق كذبة ابريل"، وهو ضابط عسكري أمريكي كان قد فاتحه شخص فاعل في المخابرات العراقية مديرية الاستخبارات الأجنبية، كان يعمل تحت غطاء عمله بصفته دبلوماسياً. قام العراقي، الذي أشرنا إليه باسم "العقيد"، بتجنيد ابريل ليكون عميلاً مزدوجاً. وقام الضابط، وهو غير معروف للمخابرات، بالاتصال بسلسلة قيادته خلال ساعات من المفاتيح الأولى للعراقي.

كان جيف كيمونز، مدير استخباراتي، قد قابلني في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة في ماكديل بعد يومين. وقال لي جيف: "قد نمتلك الفرصة للتأثير

في السلوك العراقي. لا نعرف ارتفاع المستوى الذي يبلغه العراقي، ولكننا سنجعل أحقق كذبة ابريل يعمل معه، وسنرى إلى أين سيأخذنا.

وقلت له: "يمكن لهذا أن يكون ضخماً، يا جيف. ابق متصلاً مع الناس الذين يعالجون ابريل وأبقني على اطلاع."

بعد مدة قصيرة من ذلك، بدأ أحقق كذبة ابريل سلسلة من الاجتماعات السرية مع العقيد، وسلمه نسخاً من خرائط قديمة وملاحق حقيقية من الخطة القديمة 1003، وكلها معلمة بكلمة أسرار عالية/ خطوة بولو.

ومقابل كل شريحة من الوثائق، كان العقيد يدفع عدة آلاف من الدولارات. وفي نهاية كل اجتماع سري، كان الأمريكي يعلن أنه كان يستطيع أن يقدم أجزاء أكثر حساسية حتى من خطة الحرب لدى القيادة المركزية.

وطوال عدة أسابيع في أواخر العام 2002 ومطالع العام 2003، باع أحقق كذبة ابريل للعراقيين معلومات عملياتية مفصلة، كلها أصلية مقنعة، ومعظمها أنتجته خلية الخداع في القيادة المركزية.

وعقدة القصة التي بعناها لهم سارت كما يلي: كان التحالف يخطط لبناء جزء فقط من قواته الأرضية في الكويت، بينما هو يعد اقتحاماً كبيراً منقولاً جواً إلى داخل شمال العراق من فوق تكريت إلى حقول الزيت حول مدينة كركوك. وقوات الاقتحام الجوي المنقولة بالطائرات العمودية سوف تعزز عندئذ المظليين. بعد ذلك، بعد أن تكون عدة مهابط قد أمنت فإن طائرات النقل سي-17 سوف تسلم الدبابات وعربات برادلي لتلتحق بهم. وهذه القوة المدرعة الصغيرة سوف تعزز بعدئذ بفرقة المشاة الرابعة، التي ستسمح لها الحكومة التركية، في آخر دقيقة ممكنة، لتمر عبر تركيا وتكتسح طريقها إلى جنوب بغداد.

وكان القصد من عمل أحقق كذبة ابريل هو خلق شكوك في صفوف القيادة العراقية بخصوص أين؟ ومتى؟ وبحجم أي قوة سوف يشن التحالف هجومه؟ فإذا

نجح الخداع، فسوف يحتفظ صدام حسين بأفضل جزء من الثلاث عشرة فرقة المعادية شمال بغداد للدفاع ضد فرقة المشاة الرابعة إلى أن يكون الوقت قد فات لاستخدام فرقه تلك لمواجهة الهجوم الرئيسي للتحالف القادم من الكويت.

علاقة أحرق كذبة ابريل مع العقيد بلغت ذروتها في تسليم مخطط تفصيلي لمناطق إسقاط الفرقة الثانية والثمانين المنقولة جواً بالقرب من تكريت وكركوك، قبل أقل من أسبوعين من بداية عملية حرية العراق.

لم أكن أعرف في 19 آذار/مارس إن كان الخداع ناجحاً. ولكنني عرفت أن صور استطلاعنا قد أخبرتنا: أنه على الرغم من بنائنا الكبير للقوات في الكويت إلى الجنوب، فإن فرق حرس صدام الجمهوري وفرق الجيش النظامي لم تتحرك بشكل كبير من مواقعها الشمالية، وكانت بلا شك تنتظر اقتحاماً هناك لن يأتي.

عندما عدلنا ستار النافذة ضد الشمس حددت أنا وغرينش في آخر خطوط توقيتات الهجوم التي كان جين رينيوارت قد أرسلها إلى الطائرة من خلال الناسوخ (فاكس) المرمّز. على عرض قمة الصفحة سار عمود يتتبع الأيام الأربعة الأولى من العملية: يوم -ي (يوم بدء العملية)، ي+1، ي+2، ي+3. وبدأ كل يوم في الساعة 2400 (منتصف الليل) بالتوقيت العراقي. وساعة الصفر، واليوم-ي، بداية العمليات الحربية، كانت في الساعة 2100 في هذه الليلة، 19 آذار/مارس.

درست هذه المراجعة الأخيرة بإمعان خاص، لأنها مثلت تحولاً عن خط التوقيتات الذي كنت قد أرسلته إلى الوزير رامسفيلد في وقت سابق في الأسبوع. وما تزال الأهداف المحددة ليوم 19 آذار/مارس تشتمل على تدمير مراكز الرصد البصري في العراق الغربي وإدخال وحدات المهام الخاصة. في ي+1، غداً، 20 آذار/مارس، سوف يبدأ الاستطلاع الجوي للطرق ولحقول الألغام والاستطلاع الأرضي لمسالك الاقتحام إلى داخل العراق الجنوبي وفق الجدول في الساعة 02000 وبعد ساعتين سيقوم رجال وحدات المهام الخاصة، ومن جملتهم مغاوير بولنديون، بالاستيلاء على منصات الغاز والزيوت البعيدة عن الشاطئ والمحطة الرئيسية

لتحميل الزيت في الفاو على حدود العراق - إيران عند رأس الخليج العربي. كل ذلك لم يكن قد تغير.

ولكن في خط التوقيات الأصلي، كان الهجوم الأرضي الرئيسي للتحالف قد تجدد ليكون في الساعة 0600، في يوم الجمعة، في 21 آذار/مارس، ي+2. وفي هذه المراجعة النهائية، تم تقديم ذلك الاقتحام ثمانى ساعات ونصف، إلى الساعة 2130 من 20 آذار/مارس، ي+1. فبدلاً من عبور النقاط المقطوعة في حافة الحدود عندما يطلع الفجر، متبوعاً فوراً بتشكيلات مناورة كبيرة، فإن وحدات مشاة البحرية ووحدات استطلاع الجيش الأرضية سوف تهاجم في الليلة السابقة.

وقد عدلت التوقيت بسبب بعض المعلومات الاستخبارية التي تلقيتها قبل اثني عشرة ساعة، وكانت معلومات أهم من أن تهمل. فعندما كنت أستعد لأغادر المقر في ذلك الصباح لأطير إلى المملكة العربية السعودية لزيارة بز موسلي وعنصرنا الجوي، دخل إلى غرفة الحرب جيف كيمونز مع عدد من المحللين معه.

وأخبرني جيف: "حصلنا على بعض المادة المثيرة للاهتمام هنا، يا جنرال."

كنا نراقب حقول الزيت العراقية الجنوبية بعناية طوال أسابيع لتحديد أي محاولة من النظام لتدمير مجمع الرميلة. في صور الاستطلاع والأقمار التي أراني جيف في هذا الصباح، كان احتراق التوهجات الصغيرة العادية عند مواسير التنفيس المصممة لتخفيف فرط ضغط الغاز قد استبدل وحلت محله نيران واضحة في فوهة البئر. وقد تم إشعال ستة آبار.

وقال لي جيف: "يا جنرال، هذه ليست احتراقات بسبب الصيانة. بعض السنة اللهب ترمي إلى مسافة تصل إلى ثلاثمائة قدم. لا نمتلك أي تأكيد حتى الآن عن مشكلة أكثر اتساعاً، وأنت رأيت التقارير القادمة من بعض مصادرها القبلية الشيعية: سيارات سكك حديدية مملوءة بمواد التدمير كانت تتحرك إلى الرميلة."

كان هناك 454 فوهة بئر عاملة في ذلك الامتداد من الصحراء، وهناك 609 فوهات أخرى مغلقة في الاحتياط. هذا الحقل كان يمثل مستقبل الشعب العراقي.

وسيؤدي تدميره إلى تقويض استرداد العراق لعافيته من بعد عقود من إساءة الدكتاتورية البعثية.

لم أنس أبداً كابوس منظر حقول زيت الكويت وهي ملتهبة في أفق الصحراء في العام 1991، وكان قد أشعلها المخربون العراقيون المنسحبون. وأفادت تقارير الاستخبارات أن العراقيين على الأرجح لن يبدؤوا تخريباً "جوهرياً" إلى أن يكونوا على ثقة من أن الحرب قد بدأت. والإشارة المؤكدة التي توقعها العراقيون هي بدء حملة جوية على غرار عاصفة الصحراء، وهي ما تسمى عمليات "الصدمة والرعب" الجوية التي وعدت وسائل الإعلام بأنها "ستسبق بالتأكيد أي حملة أرضية".

وقلت له: "إذا كانت هذه هي الحالة الأسوأ، يا جيف، وهم يمدون الأسلاك في الحقل للتدمير، فكم نملك من الزمن لننقذ الآبار؟"

"يحتمل أن يكون معنا ثمان وأربعون ساعة، يا جنرال. هذه مساحة واسعة جداً، ولكن إذا كان العراقيون جادين، فهم يستطيعون أن يحدثوا ضرراً كبيراً جداً بعد أن يبدؤوا".

يومان. إن تأمين سلامة حقول الزيت في الرميلة كان أول هدف لقوة حملة مشاة البحرية الأولى للفريق جيم كونواي. هل يستطيع مشاة البحرية أن ينفذوا في وقت أبكر؟ إنقاذ بترول العراق، والبنية التحتية المائية التي كانت تسند زراعة البلاد، من التخريب البعثي العنيد كانت غايات عملياتية كبيرة للحملة.

دعوت إلى اجتماع هاتفي فوري مع جيف، والمحللين عنده ومعه ديف ماككيرنان. لقد كنت أعظم من إنجيل المرونة طوال شهور. والآن سوف نرى إن كانت عظامي قد أنتجت أي مهتدين.

وقلت: "يا ديفيد، أعرف أنك رأيت صور الاستطلاع عن الرميلة. أرجح تخمين لدى كيمونز هو أن الوقت ينفد منا. هل من الممكن أن توصل مشاة بحرية جيم كونواي إلى الآبار قبل يوم من الموعد المخطط لها؟".

قال ماككيرنان: "سوف نتدبرها. إذا كان يمكن عملها، فمشاة البحرية يستطيعون عملها."

كان ماككيرنان ضابط دروع محنك. فبرتبة مقدم في أثناء عاصفة الصحراء، أدار مركز القيادة التعبوي للفيلق السابع، الذي نسق عمليات ست فرق أمريكية وبريطانية. كان بارعاً، ولا يتعب، ولا يخاف، وكان مرناً، وهو صديق وضابط مثالي ليقود القوات الأرضية للتحالف.

وقلت له وأنا أعلق الهاتف: "أشكرك لكونك على مثل هذا الذي أنت عليه من الطيب."

وفكرت، إن هذا اليوم سيكون جحيماً، وأنا أتوجه إلى طائرة سبار 06 الجديدة، في طريقي إلى المملكة العربية السعودية للتشاور مع بز موسلي قبل مؤتمري بالاتصال من بعد المصور بالفيديو مع الرئيس لاحقاً في ذلك الأصيل.

وقلت له عندما قابلني على الطائرة: "يا بز، تلك البقعة الصلعاء الموجودة في قمة رأسك هي أكبر حتى من حجمها عندما رأيتك في الأسبوع الماضي." وتبسم موسلي.

راجعنا خط التوقيتات بالنسبة إلى قيادة بز، قيادة عنصر القوات الجوية المشتركة، التي اشتملت على ثلاثة أجنحة من حملة القوات الجوية على قواعد أرضية، وخمسة أجنحة جوية بحرية على حاملات الطائرات في الخليج والبحر الأبيض المتوسط. وكان مجهزاً لينفذ اليوم ايه، بدء العمليات الجوية، في الساعة 2100 في 21 آذار/مارس. وكما توقعت أنا، كانت هناك عوامل كثيرة جداً يعتمد أحدها على الآخر تدخل في جانب العمليات الجوية لهذه الحملة، ومنها، إخماد دفاعات العدو وتخصيص طيران بحث وإنقاذ قتالي وصهاريج إعادة تزويد بالوقود، وهي أكثر من أن تسمح بتحويل بداية اليوم ايه، بدء العمليات الجوية، عند هذه النقطة.

عندما أخبرته بأني طلبت من ديف ماككيرنان أن ينظر في تحريك مشاة البحرية إلى حقول الزيت في وقت أبكر، فكر بز لحظة وقال: "يا رئيس، نستطيع أن نسرع وقتنا إذا أردتنا أن نفعل. ستكون عملية بنت كل... صعبة، ولكننا نستطيع أن نفعلها. وإذا كنت تطلب رأيي المهني، فأنا مع ذلك، أعتقد أن علينا أن نبقي مع توقيتنا المخطط بالنسبة إلى العملية الجوية الكبيرة. من الأفضل أن نعطي رجال ديفيد مساندة جوية قريبة هي أقرب مما سبق لهم أن حلموا به سابقاً عندما يهاجمون، ولكن نمتنع عن مهاجمة مجموعات أهداف القدرة الجوية الإستراتيجية إلى أن يأتي اليوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية، المجدول."

ونظرت إلى بز. وفكرت في أن هذا أفضل رجل جو حي. إنه صديقي. لقد وثقت به وسلمته حياتي. إذا قال إننا نستطيع تنفيذ يوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، قبل يوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية، ومع ذلك نحقق أهدافنا، فسوف نفعلها.

"حسناً، يا بز. سوف نحاول أن نذهب مبكرين بالعمليات الأرضية."

"تسلمت ذلك، يا جنرال. نستطيع أن نساعد في جعلها تحدث."

وهكذا فإن بدء العمليات الجوية سوف يبدأ مثلما تمت جدولته في الأصل: الساعة 2100 في 21 آذار/مارس. إذا استطاع ديف ماككيرنان وجيم كونواي أن يتدبرا ذلك وينجحا به، فإن قواتنا الأرضية، مع ذلك، سوف تحصل على قفزة على الجدول، وتصل حقل زيت الرميطة في الوقت المناسب وتتقذه. وهذا ختم قراراً كان يأتي طوال الوقت: سوف نبدأ اليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، قبل أربع وعشرين ساعة تقريباً من اليوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية.

في أثناء شهور من التخطيط، كان طول العمليات الجوية في الإعداد للهجوم الأرضي يتناقص باستمرار. قبل شهرين، كنا خططنا ستة عشر يوماً وليلة من العمليات الجوية وعمليات قوات العمليات الخاصة "لتشكيل فضاء المعركة" قبل أن

تقوم أول دروع التحالف بعبور حافة الحدود . والآن ستكون دباباتنا وعربات برادلي قد دخلت عميقاً من قبل في داخل العراق عندما سيقوم رجال بز موسلي، رجال الجو، بتوجيه ضربة قاضية ممكنة للنظام في بغداد في ليلة يوم الجمعة، في 21 آذار/مارس.

كنت أعرف أن الإستراتيجيين الجالسين على الأرائك، ومن الذين بدأ الأركان يسمونهم "جنرالات التلفاز" وهم ضباط متقاعدون يعملون في شبكات الأخبار، قد يجدون خطأ في قراري. ولكنني كنت أعرف أيضاً أنه كان صحيحاً. اعتراضات الاتصالات قد كشفت أن العراقيين لن يدمروا حقول الزيت بأسرع مما يكون ضرورياً، لأنهم كانوا يكسبون حوالي خمسين مليون دولار يومياً من تلك الآبار من خلال برنامج الأمم المتحدة النفط في مقابل الغذاء. ولكنني كنت متيقناً أن صدام سوف يأمر بالتخريب عندما تكشف العمليات الجوية ضد أهداف قيادة النظام أن الحرب قد بدأت.

لهذا كان واجباً ملزماً أن نستولي على تلك الآبار إذا استطعنا. ولكن إنقاذ حقل الرميعة سيكون واحداً فقط من مكاسب تنفيذ اليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، قبل اليوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية. فبالعمل بأسلوب لن يتوقعه العراقيون أبداً، سوف نحقق مفاجأة عملياتية، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أننا قد نشرنا 290.000 تقريباً من أفراد العناصر الأرضية، والجوية، والبحرية في المنطقة.

وعندما أخبرت دون رامسفيلد أننا كنا ندرس أن نحرك قدماً توقيت اليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، فإنه قبل التغيير فوراً. وقال: "أنت القائد، يا توم. وعليك أن تقرر، أن تبادر، وأن تجري المكالمة."

كنت أعرف أن الوزير كان يثق بي. ولكنني اتخذت أيضاً بعض الإجراءات للإبقاء على وزارة الدفاع هادئة. في 17 آذار/مارس، قبل يومين من يوم ي، يوم بدء العملية، أرسلت بالناسوخ (الفاكس) "رسالة اهتمام" إلى نائب رامسفيلد، بول

وولفوويتز. وعلى الرغم من أنني صفت الرسالة بتعايير مؤدبة، فقد كان مضمونها فضلاً: حافظوا على واشنطنون مركزة الاهتمام على السياسة والإستراتيجية. دعوا لي وحدي جحيم إدارة الحرب.

لقد تعرضت عملية الحرية الدائمة في أفغانستان لانتقادات توافه الأمور من رؤساء الخدمات والأركان المشتركة، وأنا لا أنوي أن أرى تكرار مثل هذا الانشقاق في العراق. كان بول وولفوويتز صديقاً، وكنت أعرف أنه كان سينشر الكلمة في الحلقة ئي من وزارة الدفاع، بأن تومي فرانكس ليس مستعداً ليقبل الهجوم من الكلاب الصغيرة (الشيواوا) في الوقت الذي يحاول فيه أن ينسق ما انتهى إلى أن يكون أعقد عملية عسكرية مشتركة بين الخدمات في التاريخ وأتمها تكاملاً.

ومذكرتي إلى وولفوويتز وضعت وزارة الدفاع في تحذير. لقد كتبت: "إن حضور رؤساء الخدمات في اجتماعي اليومي المأمون بالاتصال من بعد المصور بالفيديو مع الوزير ليس مساعداً. فهم لا يمتلكون خلفية مشتركة كافية أو فهماً كافياً ليكونوا مفيدین عملياتياً."

وقالت الرسالة: "أنا أفهم قدرات القوة، وسوف أستخدمها لتحقيق أفضل فائدة." وقد أصدرت تحذيراً بشأن تسريب خطتنا إلى وسائل الإعلام. "إن تسريبات المعلومات السرية وآراء الحكماء ليكون ذلك "همزاً" لي لأعمل أكثر، وأفضل، وأسرع لن تحفزني."

ونقطتي كانت بسيطة: في الوقت الذي ننفذ فيه في القيادة المركزية خطة الحرب، يجب على واشنطنون أن تركز على "قضايا مستوى السياسة." وكان هناك الكثير منها لتركيز الانتباه عليه، وكما لخصتها:

أنا مهتم بشأن:

- الآليات العملية لنظام المكافأة عن تقديم المعلومات عن أسلحة الدمار الشامل وقادة النظام المختبئين.

● خطة وظيفية وسياسة للدفع إلى الوحدات العسكرية العراقية لكي يمكن فوراً اختيارهم ووضعهم في العمل للتحالف في إعادة الإعمار. (وأردت أنا أن أرى تلك القوات المعادية المهزومة باقية في وحدات منسجمة يقودها ضباطها الخاصون بها، ويدفع لها مزيج من المعونة الإنسانية من الطعام والنقد).

● إنهاء "القائمة السوداء" لمجرمي الحرب المتهمين في النظام وتقرير ما سيكون عليه موقفهم القانوني.

في رأيي، كانت هذه من بين الواجبات الإستراتيجية التي كانت واشنطنون تحتاج إلى معالجتها.

وكان ما استحث اهتمامي، في جزء منه، هو تاريخ أمريكا الحديث في القتال في الحرب. ففي أثناء حرب فيتنام قام وزير الدفاع روبرت ماكنمارا وأطفاله الأذكىء مراراً متكررة باختيار أهداف قصف منفردة ووافقوا على مناورات بحجم كتيبة. ذلك لن يحدث في العراق. وكنت أعرف أن الرئيس ودون رامسفيلد سوف يدعماني، ولهذا شعرت بالحرية لأمرر الرسالة إلى البيروقراطية تحتها: أنتم تتبهنون لليوم الذي يلي العملية وأنا سأنتبه ليوم العملية.

لقد كنت محظوظاً بوجود أفضل قادة للعناصر وأفضل أركان مقاتلة سبق لأي جنرال بأربع نجوم أن أخذها إلى الحرب في أي وقت. وكنت واثقاً في أن الحملة التي كانت توشك أن تبدأ سوف تهزم العدو بسرعة تاريخية. كانت واشنطنون بحاجة إلى أن تكون جاهزة للاحتلال وإعادة الإعمار، لأن العمليات القتالية قد تنتهي تماماً بأسرع مما كان يستطيع أحد أن يتخيل. وفي الإيجازات التي قدمتها لمجلس الأمن القومي، أشار رامسفيلد وأشارت أنا إلى ذلك الاحتمال باسم "النجاح الكارثي".

وفي نهاية مذكرتي، ذكرت وولفوويتز بالبوصلة الأخلاقية التي سترشدني في الأيام التي تنتظرنا: "أنا أحمل علماً أمريكياً وإنجيلاً في جيبتي، وأنا ألبس رابط زواج في يدي اليسرى. إنني أفهم المهمة والسياق الإستراتيجي الذي سيتم إنجاز المهمة في داخله. ولن أكون تجريبياً إلا عندما أوجه إلى أن أفعل ذلك فقط."

حالما أصدر الرئيس أمر التنفيذ، اتصلت مع ديفيد ماككيرنان، وأخبرني ديفيد: "يا جنرال، أنا تكلمت مع جيم كونواي. مشاته البحرية يتحركون إلى خط البدء الآن. وسوف يهاجمون إلى داخل حقول الزيت مبتدئين باستطلاع أرضي غداً ليلاً، وفق خط التوقيتات الجديد الذي طلبته أنت."

بعد أشهر من عمل الأركان، انتهى التخطيط.

كنا ما نزال على ارتفاع الطيران بأفضل سرعة اقتصادية للوقود، وكان لمعان الخليج العربي يزحف عبر الأفق الشرقي. حددت في الصحراء الشاسعة تحت نظري، وفكرت في نهري العراق التوأمين العظيمين، دجلة والفرات، وهما يصبان في دلتا مستنقعة اعتقد بعض علماء الآثار أنها كانت موقع جنة عدن حسب ما جاء في الإنجيل.

وفكرت في الوادي الطويل المتلوي بين دجلة والفرات، بين النهرين، مهد الحضارة، وموقع أقدم آثار الزراعة التي كانت علامة على انبلاج فجر الثورة في العصر الحجري الحديث. قبل ثلاثة عشر ألف سنة، عاش هنا الصيادون جامعو الطعام في هذا الوادي، وتعلموا أن يزرعوا الشيلم. لقد قادت الزراعة إلى أول مستوطنات دائمة للإنسانية، وعلى مر الحقب من الآلاف من السنين تحولت تلك المستوطنات إلى المدن- الدول المتقدمة في الهلال الخصيب. ها هنا كان المكان الذي نشأت فيه إمبراطوريات وسقطت إمبراطوريات عبر التاريخ الإنساني.

وقريباً ستقوم ألوية فرقة المشاة الثالثة والفرقة 101 المنقولة جواً بالاستيلاء على أول أهدافها التعبوية، قرب خرائب أور وبابل القديمتين. وهذه الأراضي، التي أبدعت عليها العربات الحربية، والأسلحة البرونزية قبل آلاف السنين، كانت توشك أن تعاني وتخبر صراع أسلحة آخر غير عادي... وكذلك، سأعانيه وأخبره أنا، كما أدركت.

عندما بدأت طائرة سبار 06 باقترابها، فكرت في مشهد مماثل كنت قد شهدته قبل أكثر من ثلاثين عاماً: تلك الطائرة القديمة كونتيننتال النفثة المستأجرة المملوءة بالعسكريين القادمين إلى بين هوا، وهي تنزل عبر الليل فوق بحر الصين الجنوبي نحو ظلام فيتنام الأحلك.

حرية العراق مثلت رحلتي الرابعة إلى الحرب. حملت معي ذكرى كل لحظة كانت قد مضت من قبل: النزول من تلك الحافلة في أصيل حار من آب/أغسطس في فورت ليونارد وود، في ميسوري. إراحة قدمي في ذلك الحذاء العسكري بعد أن أراني الرقيب المعلم كيتل حيلة العسكري القديم في تمديد جلد الحذاء. والعريف سام لونغ وهو يعلمني الفك الميداني للأسلحة وإعادة تركيبها في تلك المهاجع المضطربة الحرارة في فورت ديفينز. وكنت آمل أن يكون لدى الخيالة الذين يُسرجون معداتهم للحرب في هذه الليلة رقباء معلمون خاصون مثل الرقيب المعلم كيتل ومثل العريف سام لونغ. وكنت آمل أن يكون لديهم قادة مثل المقدم إيرك أنتيلا.

كنت أعرف أننا قد فعلنا كل شيء لهذه العملية. وقد اخترت وساعدت على إعداد قيادة هي من أقدر القيادات على العمل الصعب وأكثرها موهبة في زمن الحرب، أقدر من كل ما سبق أن رأيت. إن قادة عناصر القيادة المركزية، وضباط الأعلام كانوا متعددي المواهب، ومرنين، ومكرسين حياتهم للمهمة ولشعبهم.

الخطة التي كنا نطلقها كانت خطة معقدة ولكنها مرنة. وعندما غير التماس مع العدو تفاصيلها كما هو متوقع لا محالة، وكما حدث في كل خطة وضعت لحملة عسكرية في التاريخ، فإن جندنا وقادتهم سوف يتلاءمون مع المستجدات.

شبابنا سيقومون بواجباتهم بشجاعة، ومهارة، وشرف. الجنود الأفراد سوف يتقدمون للأمام ليقودوا عندما يسقط رقباءهم جرحى أو موتى. الملازمون يتولون مكان النقباء الذين يسقطون. الطبابة سوف تندفع في مواجهة نيران العدو لإنقاذ رفاقهم. أنا رأيت مثل هذه البطولة في حقول الرز وفي غابات فيتنام، ورأيتها ثانية على الحصباء الدامية لوادي الباطن. لقد كان ذلك تراثا، إنه تقليد وجد جذوره في تشوزن ريزيرفوار^(*) في التلال المتجمدة في كوريا، وفي الرمال السوداء من آيوو

(*) معركة تشوزين ريزيرفوار كانت في الحرب الكورية في ١٩٥٠م، بين قوات الأمم المتحدة بقيادة الولايات المتحدة وبين الصين. وفي هذه المعركة تراجعت فرقة مشاة البحرية السابعة، وفرقة المشاة الرابعة مع قوات أخرى بريطانية أمام الجيش التاسع الصيني. وانتهت المعركة بنصر صيني صعب وبتكلفة عالية. وكانت المعركة في طقس ثلجي بارد للغاية أسهم في مضاعفة الإصابات.

جيما، وجذوع الشجر المتشظية بالقذائف من غابة آرغون(*)... والعودة القهقري طول الطريق إلى الحصى الجليدي من ترينتون حيث استطاع جنود واشنطن الخشنون القاريون هزيمة أفضل جنود محترفين من الإمبراطورية البريطانية.

ابتداء من الليلة، سيقوم خيالة أمريكيون، وبريطانيون، وأستراليون، وبولنديون، وتشيكويون، وإيطاليون، وإسبانيون، بعمل واجباتهم كلهم. ونحن الذين سنسود.

سوف يجرّد هذا التحالف نظام صدام حسين من الأسلحة، وسوف يحرر العراق. وسوف نتخذ كل احتياطات لتقليل الموت والمعاناة إلى الحد الأدنى. سوف نستهدي بكلمات ونستون تشرشل: تربح المعارك بالتقتيل والمناورة. وكلما كان القائد أعظم أسهم في المناورة أكثر، وقل ما يطلبه في التقتيل. "وسنضع ثقتنا في المناورة. ارتطم جهاز الهبوط والعجلات نازلاً. وارتفع الامتداد الإسمنتي لقاعدة العديد الجوية ليستقبلنا، وليستقبلنا معه تحدي حرية العراق.

في حوالي الساعة 1800، قبل ثلاثة ساعات من انطلاق العمليات الخاصة، مشيت راجعاً إلى المقر الأمامي. كان للمبنى من الداخل منظر مصنع للتقانة العالية محاط بمعسكر لاجئين. واحد من ستة وعشرين مستودعا أخضر متطابقة في مجمع مستطيل الشكل طوله ميل، وكان في العرض والارتفاع مثل منتجات شركة هوم دبو. وبدلاً من ألواح الخشب، وتركيبات السباكة، والمعدات، على كل حال، كانت الأرضية مغطاة بعشرات من "الملاجئ" من أحجام مختلفة. بعضها، مثل مركز العمليات المشتركة، يشبه البيوت النقلة المزدوجة العرض بلا نوافذ. وأخرى، بحجم مقطورات المخيممين، احتوت على مكاتب ضباط ارتباط العناصر واختصاصي التخطيط.

ومجالات جين رينيوارت وجيف كيمونز كانت صناديق بجدران ألومينيوم بلا معالم، مملوءة بمقصورات الحاسوب وشاشات البلازما، وكل واحدة منها معلم

(*) منطقة هضاب وغابات شمال شرق فرنسا كانت ذات أهمية استراتيجية وفيها حدثت عملية أمريكية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م بقيادة الجنرال بيرشينغ ودحر فيها الجيش الألماني.

بلافتة لامعة تقول "ممنوع الدخول" باللغتين الإنجليزية والعربية. ومنشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة في القيادة المركزية الأمامية، محروسة بحراس مسلحين على مدار الساعة ويتم الدخول إليها من خلال باب واحد بقنطرة، وكان هيكلاً من ألومينيوم بنيّ أخذ معظم الطرف الغربي للمبنى.

وكان مكتبي مفرد العرض مسبق الصنع في المربع الشمالي الشرقي من المستودع، وأجلس إلى جانب حيز متطابق مماثل يشغله الفريق جون أبي زيد، وهو نائب في المقدمة، وأرتبط مع سلسلة من المكاتب التي تؤوي ضابطي التنفيذ، والنقيب فان موني، وغرينش غوديك، ورئيس رقباء القيادة دوايت براون، وأركان المساندة الإدارية المشتركة. وكانت غرفة اجتماعات القيادة، وفيها حوامل لمحطات فيديو الاتصال من بعد واتصالات اس تي يو-111 المتلائمة، تقع في ملجأ مجاور. ووقفت بالقرب من ذلك غرفتي الصغيرة للحرب، وهي مجهزة بشاشات البلازما وبالاتصالات المأمونة. وكان هناك مجمع مكتبي آخر مزود بأسرة، وحمامات للاستحمام، ومطابخ صغيرة، وكان يقع في الطرف الأقصى من المبنى، ولكن استخدامه كان قليلاً، فقد كنت أفضل أن أبقى قريباً إلى العمل، وذلك في مركز العمليات المشتركة، وخلية دمج الاستخبارات، ومنشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة.

بين امتداد المنشآت المسبقة الصنع كانت هناك صفوف من الخيام النسيجية الخفيفة الوزن الملونة بلون الصحراء، وكلها تحت سقف مستودع كان قد أقيم بعوارض متصالبة، وقنوات وأسلاك تهوية. وكانت الخيام على أعلى مستوى تقني حديث، فهي مؤطرة من الخارج، وحيزاتها مكيفة الهواء، وذكرتي بمعارض الاستعراض الخارجي في معرض الولاية هناك في الجنوب الغربي. كان يعمل في الموقع نحو ستمائة من الضباط، والرقباء، وضباط صف البحرية، والمقاولين المدنيين، والفنيين الإليكترونيين، والاختصاصيين الإداريين، وأركان المساندة، وكانوا يعملون بنوبات تطول اثنتي عشرة إلى ست عشرة ساعة على مدار الساعة.

ومعظمهم كان ينام في المستودعات الأخرى المنتشرة عبر المجمع، عندما كانوا يجدون لحظة للنوم.

المقر، وهو المبنى رقم 217، كان مركز الأعصاب التقاني لعملية حرية العراق، وكان يبدو في بعض الأوقات كأنه مُسلَّك بالأسلاك على نحو معقد كالدماع الإنساني. على طول جانبي كل ممر سارت قنوات حماية أنبوبية لآلاف الأميال من كبلات الطاقة والألياف البصرية التي تربط الملاجئ. وكان كل المجمع مكيفاً ليبرد عند درجة 85 فهرنهايت، وذلك عن طريق معمل صناعي لتكييف الهواء خارج المبنى، وكل مكان مسبق الصنع وخيمة في داخل المستودع لها نظام تكييف الهواء الفردي الخاص بها، متصل بمعامل أصغر على طول مجاري هواء مرنة.

المبنى رقم 217، بقناته - الميغا (المليون)، ووصلات الصوت والبيانات المرمزة عن طريق القمر، ووسائلها المتعددة المأمونة لعقد المؤتمرات بالاتصال من بعد المصورة بالفيديو، كان يستخدم عرض نطاق ترددات مكافئاً للذي تستخدمه مدينة أمريكية كبيرة. كنت أستطيع أن أصل إلى الوزير رامسفيلد، ورئيس هيئة الأركان المشتركة ديك مايرز، ورايفل دولونغ، أو الرئيس، في ثوانٍ من خلال وصلة صوتٍ أو فيديو مأمونة. ووصلتني مقصورة صوت بمفتاح أحمر مع رؤساء الخدمات ومع قادة عناصري عند لمسة زر. وكنا نتصل بالصوت وبالفيديو معاً في أوقات محددة طوال أربعة وعشرين ساعة في اليوم.

وكانت جواهر التاج في هذا المقر "الشبكي - المركزي" أنظمة تتبّع القوة الزرقاء والقوة الحمراء. وكل ملجأ مهم في المقر كان مجهزاً بشاشات بلازما للعرض، ويتتبع الأركان عليها مواقع تشكيلات التحالف "الزرقاء" الصديقة، نزولاً حتى سرية دبابات أو طائرة مفردة. وواقعياً كانت كل عربة وكل طائرة تحمل جهازاً مرسلاً ومستجيباً للنظام العالمي لتحديد الموقع، وهو جهاز يرسل بيانات مرمزة عن إحداثياتها، واتجاهها، وسرعتها عن طريق قمر إلى مقر كل عنصر، وإلى المقر الرئيسي للقيادة المركزية في تامبا، وإلى وزارة الدفاع، وإلى مقرنا في قطر.

وعلى شاشات القوة الزرقاء، كانت مواقع القوة الصديقة تبدو مثل صناديق زرقاء ساطعة صغيرة. وعنصر القوة الأرضية في هذا النظام، وهو قيادة المعركة للقوة (21)، من لواء وتحت ذلك، كان ثمة فرعية من العمل الذي تم في أواسط التسعينيات من 1990، وقامت به قوة مهام المناورات في لويزيانا. وفي العروض الكبيرة المقياس، ظهرت الوحدات المتحشدة في مناطق التجمع الخاصة بها قبل الاقتحام مثل لطخة زرقاء صلبة. ولكنني، عن طريق النقر على صناديق البيانات الموجودة على الشاشة المركزة بصورة متزايدة، كنت أستطيع أن أكبر وأقرب على وحدات أصغر فأصغر، ابتداءً من الفيلق، فالفرقة، فاللواء، نزولاً طوال الطريق إلى فصيلة استطلاع خيالة مدرعة مفردة في عربات برادلي.

وعلى شاشات القوات الحمراء، تمثلت تشكيلات العدو في صناديق حمراء مشابهة. لم يكن لدينا أجهزة مرسلات مستجيبة للنظام العالمي لتحديد المواقع على طائرات العراق، طبعاً، أو على دبابات لواء مدرع في فرقة المدينة في الحرس الجمهوري. ولكننا امتلكن وسائل أخرى لتحديد مواقع العدو وترتيب المعركة. فقد كانت قدرتنا الاستطلاعية تغطي نطاقاً واسعاً من الطيف الإليكترو مغناطيسي. وكذلك فإن التصوير البصري من المركبات الجوية من دون طيار ومن طيران الاستكشاف على ارتفاع متوسط وعال، والذي كان يتمثل في صور حية بالفيديو وبالصور الرقمية معاً، قد تعزز بالتغطية بالأقمار. ولقد زودتنا أجهزة الإحساس الموجودة على متن هذه المنصات لا بالصور النهارية وحسب، بل زودتنا كذلك بقدرة كشف تحت الأشعة الحمراء التي كانت تستطيع أن تحدد الحرارة المنبعثة من محركات العربات... أو من جسم إنسان. وكان المسح الراداري الاصطناعي بفتحة المسح والموجود على متن الطائرات والأقمار يستطيع أن يكشف شكل العربات المدرعة، أو الشاحنات، أو قطع المدفعية. وكانت طائرات الاستطلاع لنظام المراقبة المشتركة لرادارات مهاجمة الأهداف قادرة على تحديد العربات المتحركة في أي طقس أو أي حالة من الإضاءة.

واكتسحت كذلك، تشكيلة واسعة من أجهزة الإحساس الإلكتروني البث اللاسلكي والراداري للعدو، والمحادثات الهاتفية الخليوية والقمرية، وخطوط الاتصالات الأرضية وخطوط بث البيانات، وحتى نظام البريد الإلكتروني العراقي تم اكتساحه.

وفي الأشهر الأخيرة، تم بناء شبكة استخبارات بشرية في داخل العراق، ولم تكن شبكة صلبة، ولكنها عمل مختلط من رجال المهام الخاصة من وكالة الاستخبارات المركزية صممت لتساعد في ملء الفراغات في صورتنا الاستخباراتية.

هذه الكتلة من الصور، ومن البيانات الإلكترونية، ومن تقارير العملاء، "كل مصادر الاستخبارات" كانت تختلط وتحلل في خلية الاندماج التابعة لجيف كيمونز ضابط ركن الاستخبارات بالقرب من مركز العمليات المشتركة. لقد كان هنا هو المكان الذي يتم فيه تحميل الصناديق الصغيرة الرقمية للقوة الحمراء على قاعدة بياناتنا عن العدو. هذه "الصورة" للعدو كانت أفضل صورة سبق لأي قائد قد حصل عليها في زمن الحرب، ولكن كانت هناك مدة معينة من الزمان مطلوبة للتحليل وللتتبع. فلو أن كتيبة مدفعية في الفرقة 51 العراقية بالقرب من البصرة تحركت لبضعة كيلومترات ليلاً، على سبيل المثال، وتوزعت بين المجمعات المحوطة بالجدران المعتادة في المنطقة، فإن مَسْغَل ضابط ركن الاستخبارات يستغرق عدة ساعات لتحديد موقعها الجديد وليعيد وضع الأيقونة الحمراء للوحدة في موقعها الجديد في قاعدة البيانات. وعندما كنت أنظر إلى رقعة الشطرنج أو الداما الخاصة بتتبع القوة الحمراء، كنت أعرف أنني أنظر إلى تشكيلات العدو التي كانت دقيقة من الناحية التاريخية، ولكنها ليست حديثة إلى آخر دقيقة.

كان ممكناً من الناحية الفنية أن نرى عروضاً لمنظر مختلط تكون فيه المواقع النسبية للإيقونات الحمراء والزرقاء متراكبة على الشاشة نفسها. ولكنني كنت أفضل أن أشاهد الموقف على شاشتين متجاورتين، متذكراً أن التشكيل الصديق كان

دقيقاً في الزمن الحقيقي، بينما كان تشكيل العدو قد تقادم. وكما ذكرت نفسي مرة تلو مرة، يجب على القائد ألا يسمح لنفسه أن "يعرف أكثر مما يعرف".

إن تتبع القوة الزرقاء والحمراء قدم صورة دقيقة، تطورية، قريبة من الزمن الحقيقي لترتيب القوة على المستوى العملياتي: كم المسافة التي تقدمت فيها سرايانا، وكتائبنا، وألويتنا نحو أهدافها، نهاراً، أو ليلاً، وفي أي طقس؟ وهذا المستوى غير المسبوق من الوعي أعطى فريقنا الثقة لممارسة درجة جديدة من المرونة. وعندما أصدرت حکمي بأن القوات العسكرية العراقية لم تكن في موقع يمكنها من القيام برد فعل على هجومنا المبكر على حقول الزيت، لم يكن الحكم تظاهراً بالشجاعة. فمع وجود جين رينيوارت وجيف كيمونز معي لنعمل جميعاً في حساب قدرات المسافة والزمن لتشكيلات العدو الكبيرة الموجودة في أقرب مواقع للحدود مع الكويت، كانت المسألة مسألة حساب بسيط: فقواتنا البحرية بحركيتها وقوة نيرانها المتفوقة، كانت تستطيع أن تصل إلى حقول الزيت قبل أن تمتلك وحدات العدو الموجودة في جنوب العراق أي فرصة لاعتراضها.

بعد توقيع الأمر المجزأ المعدل، في القيادة المركزية 09 009، موجهاً إلى البدء المبكر لليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، تفرست في آخر مجموعة من منشورات عمليات الحرب النفسية التي كان قد أنتجها جماعة جين رينيوارت. كان أحد اهتماماتنا الرئيسية هو أن العراقيين قد يحاولون استباق هجومنا بشن ضربات من أسلحة الدمار الشامل ضد قطاعاتنا المحتشدة، وكنت أريد من جهود عمليات حربنا النفسية أن تثني العراقيين عن ممارسة خيارات أسلحة الدمار الشامل التي كنت معتقداً أنهم امتلكوها. لقد تولى رينيوارت وفريقه مهمة إنشاء هذه المنشورات، التي مزجت صوراً معقدة مع نص عربي واضح وجيز. وطوال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، كانت طائرات التحالف التي تطير في مسارات عملية مراقبة الجنوب في منطقة حظر الطيران ترمي مئات الآلاف منها على المواقع العراقية.

كانت الرسالة التي تضمنتها هذه المنشورات قوية وواضحة. أظهرت إحدى المنشورات صورة مركبة لأرض المعركة، وفيها قامت قطعات التحالف المسلحة تسليحاً ثقیلاً والمحمية بأقنعة الغاز وببدلات الوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة بمهاجمة الجنود العراقيين غير المحميين، وهم يختنقون ويسقطون في ضباب من الغاز السام الذي أطلقته قواتهم العسكرية العراقية. وأظهر المنشور صورة فعلية لأم كردية ميتة وهي تمسك برضيعها الميت، من ضحايا غاز الأعصاب الذي سبق لصدام أن استخدمه ضد مواطنيه هو في العام 1988. وكان النص العربي الأحمر في المقدمة يقول: "لا أحد يستفيد من استخدام أسلحة الدمار الشامل." وحمل المنشور على ظهره تحذيراً "أي وحدة تختار استخدام أسلحة الدمار الشامل سوف تواجه انتقاماً سريعاً وحاداً من قوات التحالف. وسوف يعتبر قادة الوحدة مسؤولين إذا استخدمت أسلحة الدمار الشامل."

وأنتج معمل عمليات الحرب النفسية أيضاً سلسلة من المنشورات هدفت إلى منع تخريب حقول الزيت العراقية. وأظهرت واجهة المنشور النموذجي حقل زيت مصون صيانة جيدة ومنتجاً بشكل واضح مع مصفاة نفط مجاورة ومحطة ضخ للزيت. وعرض ظهر المنشور منشأة مشابهة، وألسنة اللهب تلتهم المعدات المسودة المنصهرة. وتقول: "لانتباه القوات العراقية العسكرية والأمنية، لا تدمروا حقول الزيت العراقية، فإذا دمرت صناعة الزيت فسوف تدمر معيشتكم!"

سألني جين زينيوارت: "ما رأيك يا سيدي؟"

فتحت ونظرت في آخر المنشورات. "دعونا نستمر في رمي هذه المنشورات، وكلما رمينا منها أكثر كان أفضل. لأمر واحد، إذا أقنعت هذه الرسائل ولو بضعة عراقيين ليفكروا مرتين، فإنها ستكون مستحقة للعناء. ولأمر آخر، ففي كل مرة يلتقط جندي عراقي واحداً من المنشورات، فإنه يحصل على مفكرة تقول: إن دفاعات العدو لا تستطيع أن تمنعنا من الطيران فوق أي مكان نختاره. وفي المكان الذي يوجد فيه اليوم منشورات، فقد يكون فيه قنابل في الغد."

عندما كنت أنتظر بداية الأعمال الحربية، قررت أن ألتهم وجبة سريعة في قاعة الطعام. كنت أحاول، حيثما يكون ممكناً، أن أتناول عشائي مع الجند، وفي هذه الليلة، أخبرني دوايت براون أنهم كانوا يقدمون شرحات دجاج مقلية مع قشدة مرق اللحم وخبز الذرة الصفراء.

كان براون يشاركني ذوقي بالنسبة إلى طعام البيت هناك والموسيقى الريفية، وكان هذا واحداً من الأسباب التي جعلته يبقى معي منذ أيامي في الجيش الثالث. والسبب الآخر هو أن براون كان أفضل رجل متطوع عالي الرتبة سبق لي أن خدمت معه.

ولكن كل خيال أكلت معه عندئذ في تلك الليلة، مشاركاً في أسلوب طبخ البيت ومتبادلاً النكات المبتذلة، كان خيالا استثنائياً.

كان العشاء جيداً، ولكن التكتيت لم يدم طويلاً.

لقد رجعت إلى غرفة الحرب وكنت فيها في الساعة 2045، قبل خمس عشرة دقيقة من أول تدمير لمراكز الرصد البصري حسب ما كان مخططاً له أن يبدأ.

حالما أظهر فيديو الأشعة تحت الحمراء من طائرة بريديتر أول مجموعة من الأبراج وهي تسقط بصمت في غمامة من الشرر من ضربة صاروخ هيلفير، أطفأت لوحة العرض والتفت إلى مشكلة ملحة كانت قد بدأت قبل أربع وعشرين ساعة.

كنت أجلس على الطاولة نفسها في الثلاثاء ليلاً، عندما ناولني جيف كيمونز وجين رينيوات تقريراً استخباراتياً ومطبوعات رقمية لتصوير فوقي، وقال لي جيف: "معلومات استخباراتية بشرية مثيرة للاهتمام خارجة من بغداد، سيدي. تروي مصادر وكالة الاستخبارات الأمريكية أنهم قد يحققون فهماً لاجتماع يعقده صدام وولده في اليوم التالي أو ما يقاربه."

"وكم تبلغ الثقة بها؟"

"المصادر مصنفة بأنها موثوقة، يا جنرال. ولكننا لا نعرف حتى الآن أين سيتم هذا (الاجتماع الممكن)".

جاء التقرير من عميلين موثوقين في شبكة جديدة كانت قد بنتها الوكالة في بغداد. إذا حصلنا فعلاً على موقع مثل هذا الاجتماع، فإننا بالتأكيد سنطارده هذه "الأهداف عالية القيمة". وهذا ما يمكن أن يكون ضربة قطع الرأس حقيقة. فقتل صدام حسين وولديه سوف يجعل النظام عاجزاً مقعداً.

كان ولدا صدام وريثيه، وكانا يشغلان مراكز عسكرية قوية. فقصي حسين، الولد الأكبر^(*)، كان قائد الحرس الجمهوري الخاص، ومنظمة الأمن الداخلي، وتشكيلات الحرس الجمهوري القتالية. وابنه الأصغر عدي^x، كان مرهوباً ومصاباً بخلل عقلي ومتسلطاً بنفسه هو، وكان يقود فدائيي صدام، وهي قوات غير نظامية بلغ عددها 40.000 تقريباً.

معلومات وكالة الاستخبارات المركزية كانت مثيرة للاهتمام، ولكننا لم نكن نستطيع عمل أي شيء من دون تحديد الموقع.

وأخبرني جين رينيوارت "أنهم يعملون على ترتيبها". وكان الظن القوي هو أن الاجتماع سيتم في مجمع يقع في القسم الجنوبي من المدينة يسمى دورة المزارع، وهي أرض على ضفة النهر تعود ملكيتها إلى ساجدة زوجة صدام.

فحصت صور القمر المأخوذة للمجمع المحوط بجدار: فيللا فاخرة، ومرآب، وعدد من المباني الخارجية غير المتميزة. وقلت: "إن المشكلة هي أن إنذار الرئيس النهائي يعطي صدام ثمانياً وأربعين ساعة ليفادر العراق وهذه المدة لا تنتهي إلا الساعة 0400، في اليوم الذي يأتي بعد غد. الرئيس أعطى صدام حسين ثمانياً وأربعين ساعة، وأنا أعرف جورج دبليو. بوش معرفة كافية لأعرف أنه لن يطلق طلقة إلى أن تنقضي تلك المدة. ضع مطلق النار في البحرية في سلالهم لإطلاق صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، واطلب من اختصاصيي التهديد أن يجدوا حلاً لإطلاق النار على ذلك الهدف وعلى المواقع الممكنة الأخرى. ولكن لا تتوقعوا الإذن بإطلاق النار إلى أن تكون مدة الإنذار قد انتهت."

(*) هكذا في الأصل.

عندما كتبت بطاقة اليوم الثاني من قياس ثلاثة في خمسة قبل أن أذهب إلى النوم في تلك الليلة، في جانب الفرص طبعت كلمتين: "قطع رأس النظام". كان ذلك في مساء يوم الثلاثاء.

الليلة هي الأربعاء، اليوم ي، يوم بدء العملية. ومع كون المعلومات الاستخباراتية المتطورة عن مزارع الدورة ما تزال غير دقيقة إلى درجة تجعلها غير صالحة للعمل بموجبها، فقد التفتُ راجعاً إلى العمليات الخاصة الجارية.

التحق بي جين وجون أبي زيد في غرفة الحرب بعد وقت قصير من الساعة 2130 لمراقبة القتال. وشاهدنا معاً متتبع القوة الزرقاء وما تبثه طائرة البريدتر في الوقت الذي قامت به الطائرات العمودية المسلحة من فوج طيران العمليات الخاصة 160 بتدمير مراكز الرصد البصري، الواحد بعد الآخر. وقد عدت في تفكيري إلى أبراج الرصد تلك وهي تتمزق في عصف من مقذوفات عيار 155 ملم موجهة بالليزر قرب وادي الباطن قبل ثلاثة عشر عاماً، وكنت على يقين من أن العراقيين الذين كانوا يشغلون أهدافنا هذه الليلة قد ضربوا بسرعة كبيرة إلى درجة جعلت العديد من المراكز الأمامية لا تملك حتى الوقت لتتصل بأجهزة اللاسلكي طلباً للمساعدة.

ولكنني متأكد بشكل مساو أن بعض مراكز الرصد هذه قد أبلغت، وقبل مضي وقت طويل سوف يعرف صدام أن لديه مشكلة على الحدود الأردنية.

وأكد ديل ديلي من قاعدته في المملكة العربية السعودية أن "الزمر في حركة نشيطة".

وأبلغني غاري هاريل من مركز قيادته عبر المجمع في قطر: "التسلل في حركة وتقدم".

ربما أكون قد سجلت أربع ساعات من النوم غير المتقطع في الساعات الثماني والأربعين الماضية. في ما هو أقل من حالة طوارئ كبيرة، ليس هناك من سبب بالنسبة إلي يجعلني أبقي في غرفة الحرب طوال مدة فعالية هذه الليلة. كنا نسير

حسب الخطة، ولم أكن أنوي التدخل بعمل أفضل رجال وحدات مهام خاصة سبق لي أن عرفتهم.

وقلت لغاري وديل: "حظ سعيد هذه الليلة."

وقلت لجين: "أنا ذاهب لآوي إلى الفراش. حاول أنت نفسك أن تحصل على بعض النوم."

رجعت إلى غرفتي، وتمددت أمام فلم سينمائي قديم عنوانه: كانت تضع شريطاً أصفر. لابد أنني شاهدته خمس مرات في عروض السينما في ميدلاند. جون وين بدور العسكري الخيال العجوز المكسور، وعلى ما كنت عليه من إرهاق، كنت أستطيع أن أشارك في ذلك. ولكنني نمت قبل أن تسرج فصيلة الخيالة خيلها وتغادر القلعة.

أيقظتني رنة المفتاح الأحمر الموجود بجانب سريري والتي جاءت مثل الطلقة. كان المتكلم ديك مايرز. وقال: "يا توم، أنا في البيت الأبيض مع الرئيس، والوزير رامسفيلد وجورج تينت. هل أنت على علم بالهدف الذي برز في مزارع الدورة؟"

كنت مستيقظاً يقظة كاملة، العظم متعب ولكنه يقظ.

وقلت له: "بدأنا نرتب العمل له في الليلة الماضية."

وتابع ديك: "هل تستطيع أن تضرب الليلة؟"

قذفت الهاتف في الهواء وأنا أشد حذائي العسكري.

وقلت: "إن صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي تغزل يا ديك. ويجب علي أن أجمع مع جين رينيوارت وتيم كيتنغ، قائد عنصرنا البحري، على نوافذ الإطلاق، ووقت الطيران، ولكنني لا أرى مشكلة. وبالمناسبة كم مدى الثقة بالمعلومات الاستخبارية؟"

"جورج تينت يعتقد أنها جيدة، يا توم."

"سأعود لك بأسرع ما أستطيع."

أكمل جيف، وجين، وتيم كيتنغ اختيار الذخائر في أقل من ساعة: رزمة من أربعة وعشرين صاروخاً من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي موجهة لهدفها في مجمع مزارع الدورة، وستة عشر صاروخاً أخرى على مواقع القيادة والسيطرة في النظام في داخل المدينة. وكانت هذه الأهداف الإضافية أهدافاً قيمة من ناحيتين: لقد كنا نخطط أن نضربها في اليوم إيه، يوم بدء العمليات الجوية، على كل حال، ثم إن قيامنا بنشر الضربات في كل الجهات قليلاً في هذه الليلة قد يقدم بعض الغطاء للعملاء الذين حددوا لنا مزارع الدورة.

وعندما راجعت نقاط الهدف، اتصل ديك مايرز ثانية من البيت الأبيض.

"يا توم، حصلنا على بعض المعلومات الدقيقة إلى درجة كبيرة عن التسديد إلى الهدف. يقول أحد المصادر إن الموقع يشتمل على نقطة قوية، وهي منعة مصفحة بالإسمنت المسلح المضاعف. إن صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي لن تعمل الواجب ضد هذا الهدف. هل نستطيع أن نثقبه ونضع متفجراً هوائياً عليه؟"

وقلت له: "لا مجال للزفت ... قطعياً"

كلانا كان يفهم أن القاذفة المقاتلة ستيلث اف-117 هي الطائرة الوحيدة التي كانت في المسرح والقادرة على قصف هدف على هذا القرب من بغداد قبل تدمير الدفاعات الجوية المدنية. طائرات اف-117 كانت واقعياً غير مرئية للرادار، وكانت غير مرئية للمراقبين الأرضيين في أثناء الطيران ليلاً على ارتفاع عال. أما في النهار، فهي رغم ذلك، تصير أهدافاً بطيئة نسبياً، وبلا دفاع. وبحسب الطقس وبيانات الإضاءة، فإن الشمس ستشرق فوق بغداد الساعة 0609 حسب التوقيت العراقي في هذا الصباح. ولكن أول شفق، وهو الوقت الذي تصير فيه الطائرة مرئية من الأرض، فسيكون أبكر من وقت الشروق بنصف ساعة. وذلك كان يعني أننا إذا استخدمنا طائرات اف-117، فسوف يتوجب عليها أن تكون بعيدة بعداً كافياً عن منطقة بغداد للاشتباك بالصواريخ مع حلول الساعة 0530 على الأقل.

ومن المؤكد أن هذا كان خط توقيت قصير على نحو سيئ، وليست هذه أسهل مشكلة عملياتية سبق لي أن عالجتها.

وأخبرت ديك: "سأعمل على ترتيبها مع بز. "ورد بز موسلي بطريقة نموذجية: "نحن نعمل فيها، يا رئيس."

كان أحد الاعتبارات الجوهرية هو أن علينا أن ننشئ "ممرًا" من خلال الدفاعات الجوية العراقية من الكويت ذهاباً طول الطريق إلى الهدف عن طريق ضرب مدافع العدو المضادة للطيران، وصواريخ سطح-جو، والرادارات قبل أن تطير اف-117 بمهمتها. فذلك سيوفر درجة إضافية من الحماية. ولكن فتح الممر سوف ينبه العدو بأن هناك ضربة قادمة. وطوال اثني عشر عاماً تقريباً من عمليات مراقبة الجنوب تعلم العراقيون أنماطنا العملياتية بالضبط مثلما تعلمنا أنماطهم. فهذه المسألة ليست عملاً بسيطاً.

وكانت هناك اعتبارات أخرى كذلك. إن إدخال قوات العمليات الخاصة كان قد بدأ وهو في تقدم. وقد طمسنا بالأسود الطائرات العمودية ام اتش-53 بيف لو وام اتش-60 دي ايه بي التي تطير منخفضة وسريعة لتجنب النيران الأرضية. حتى ونحن نعرف المسالك المخططة لدخولهم ولخروجهم، فإن طياري العمليات الخاصة ينعمون بالبقاء لكونهم لا يمكن التنبؤ بوجودهم. وآخر شيء كنا نريده هو أن نرى واحدة من طائراتنا بيف لو مدمرة من السماء بقنبلة من واحدة من طائراتنا اف-16 أسقطتها لفتح ممر جوي للطائرة اف-117 القادمة.

وبدأت جولة اتصالات مع غاري هاريل وديل ديلي لإعطائهم تحذيرات من أنه قد يكون هناك نشاط جوي غير متوقع.

قال لي غاري بطريقته الوجيزة "لا داعي للقلق".

وكذلك ديل لم ير أي مشكلة، وأضاف: "ولكن لدينا فقدان لطائرة علينا أن نبذل

عنه، سيدي."

إحدى طائراتنا العمودية عانت من انخفاض التيار الكهربائي في الغبار في الوقت الذي كانت فيه تنزل خيالة المهام الخاصة وضباط الوكالة الميدانيين بالقرب من مدينة الناصرية الحيوية على نهر الفرات. الدوار الرئيسي من الطائرة العمودية ضرب الأرض على زاوية، وتدحرجت الطائرة العمودية الكبيرة على جانبها. ركاب الطائرة والملاحون اهتزوا وقلقوا، ولكنهم لم يصابوا إصابات سيئة. أقاموا حولهم نطاقاً دفاعياً، وأزالوا التجهيزات السرية من الطائرة، وتابعوا المهمة. كانت الحاجة تدعو إلى هؤلاء الخيالة لمسح جسري الطريق الرئيسي عبر النهر، وأن "ينتظروا بين الأعشاب" ليعملوا بدور مراقبي قتال جوي في حال حاول العدو أن يعزز أو يدمر الجسور. فقد كان كل من فرقة المشاة الثالثة وقوة حملة مشاة البحرية الأولى بحاجة إلى جسور سليمة ليعبروا الفرات وهم في طريقهم إلى بغداد.

وقال ديك: "سوف نستخدم طائرة اف-16 لتدمير الطائرة العمودية المعطوبة، ومواصلة المهمة."

فقد طائرة لم يكن شيئاً جيداً. ولكن العدو أيضاً يحصل في الحرب على صوت. ويسود فيها قانون ميرفي(*) الذي ينص على أن: أي شيء يمكن أن يصير إلى الفشل سيصير إلى الفشل. وقلت لغاري وديل: "عمل جيد، يا رجال، قودوا قدماً."

في وسط هذه الاتصالات وصل إلي بز ثانية، وشرح: هذا ما لدينا، أيها الجنرال. لدينا طائرات اف-117 نايت هوك وحشوات تفجير المنعات المصفحة زنة 2000 رطل لوحدة القنابل الموجهة المعززة، والطيارون في قطر في العُديد. وكل ما علي الآن أن أعمله هو أن أجعل الجميع يقتربون معاً، وأوفر مهمة مخططة، وأطيرها جميعاً إلى بغداد... قبل أن تطلع الشمس."

(*) ينسب هذا القول إلى مهندس تطوير باسم إدوارد ميرفي، وكثيرون يشكون بوجود مثل هذا الشخص، وللقول أسماء أخرى مثل قانون سود، وقانون فينغيل وله صيغ أخرى.

وقلت مبتسماً "حسناً يا بز"، وكانت أفكاري تغزل، بالسرعة التي غزلت بها في 9/11 على سطح فندق كايدون. "ما هي احتمالات نجاح المهمة بطائرة واحدة؟"

ولم يتردد بز: "طائرة مفردة تعطينا احتمال 0.5".

ومرة أخرى فكرت قبل أن أتكلم. وفي العادة أنا متفائل بنصف الكأس المملآن، ولكن في هذه الليلة لا يمكن أن تكون هناك أي مخاطرة بالفشل. "وماذا تأخذ لنحصل على مائة بالمائة، طائرتين؟"

"احتمال النجاح يزداد إلى 1.0 يا جنرال".

وقلت: "طائرتان، اعملها، يا بز".

"تبلغت، يا رئيس، طائرتان من نوع نايت هوك في الطريق".

وقدم جين التعقيد الذي يلي. "إن ضرب أهداف القيادة من المحتمل أن يطلق رد فعل قوي، حتى لو قتلنا فعلاً أولاد الك...."

كنت أعرف بدقة ما الذي كان يعنيه. طوال اليومين الماضيين كنا نستقبل معلومات استخباراتية عاجلة متزايدة تبلغنا أن وحدات الحرس الجمهوري في بغداد قد تحركت للجنوب إلى مدينة الكوت، وصرف لهم غاز الخردل وعنصر أعصاب غير معروف. وكانت تقارير أخرى لاحظت أن أباييل-100 وهي قاذفات الصواريخ البالستية في المسرح كانت تتحرك في كل اتجاه بشكل لا يمكن التكهّن به. الأسلحة الكيماوية وصواريخ بالستية للمسرح ليست مزيجاً جيداً. إذا كانت نخب الحرس الجمهوري التي كانت تحرس أسلحة الدمار الشامل العراقية قد تسلمت ذخائرها وكانت في طريقها لتتصل بمطلق الصواريخ، فنحن ننظر إلى إمكانية قوية من هجمات الغاز على مناطق التمرحل المكتظة في الكويت. ووضعت قواتنا هناك في حالة عالية من الإنذار. وضربة قطع الرأس المخطط لها على مزارع الدورة قد تكون هي الحادثة التي تطلق الزناد.

وقلت لضابط استخباراتي: "يا جيف، دعنا نهذب وننقي الأهداف الإضافية

لصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. إذا كنا سنضرب مزارع الدورة فإننا سنرغب أيضاً في إنزال بعض الأضرار الجدية في قوات استخباراتهم وأمنهم."

كنت على المفتاح الأحمر مرة أخرى عندما دخل غرينش عبر الباب. "سيدي، رئيس الخدمات كان يحاول الوصول إليك من البيت الأبيض."

وفكرت تباً لهذا. وللحظة تمنيت لو كنت أمتلك تلكا السماعتين اللتين سبق لي أن ركبتهما قبل خمسة وثلاثين عاماً في تلك الطائرة العمودية الصغيرة فوق قناة كنه دوا في جنوب سايفون.

"أنا هنا يا ديك. نحن نحاول أن نعمل سلطة فراخ من ذراق الدجاج."

وبداً "لا تغضب مني، يا توم"

"لم يسبق أن غضبت منك يا ديك، أنت أخي."

وقال: "كنت أتحدث مباشرة مع قائد عنصرك الجوي. حاولت أن أصل إليك أولاً، ولكنك كنت مرتبطاً بالهاتف. لدينا هنا وقت عصيب حرج."

"ليس مهماً، يا ديك." رسالتي بالناسوخ (الفاكس) إلى وولفوويتز قد فعلت ما كنت أردته، إنها تطارد الناس في الحلقة ئي وداخل مكتب وزير الدفاع لتزيحهم من بين الأقدام. ولكن ديك مايرز لم يكن من المتدخلين المتطفلين، كان هو مرساتي الصلبة في المبنى، أي، وزارة الدفاع. لم يسبق أبداً أن أخرجته من الحلقة. "كيف عمل بزة؟"

"إنه يحاول أن يجعل المهمة تحدث، يا توم. تبدو الأمور جيدة حتى الآن."

"نعم، طائرتان من نوع 117، وسوف نضيف بضعة أهداف إلى قائمة صواريخ هوك للهجوم الأرضي كذلك. وقد نضربهم كذلك بخطاف أيمن وطعنة يسرى."

"تبلغت يا توم، ولكننا نريد ضربتكم المذهلة المرعبة، لا زمن للقرارات الرديئة الزفت... نريد أن نضرب هذه الأهداف، ولكن الرئيس لا يريد أن يفقد طيارين جيدين مقابل لا شيء."

"الوقت فوق الهدف يجب ألا يتجاوز الساعة 0530 بتوقيت العراق، يا ديك، مع الإقلاع من العديد في وقت لا يتجاوز الساعة 0330 سيكون لديهما رحلة لمدة ساعتين قادمتين نحو الهدف مع إعادة تزود بالوقود في الجو مرة واحدة. أنا محتاج إلى قرار الرئيس بحلول الساعة 0315، لكي تستطيع النفاثتان أن تبدأ تشغيل محركاتهما وتنطلقا. "ونظرت إلى الأرقام النابضة في الساعة على الجدار وكانت: 0227 "لدينا أقل من ساعة من أجل أحد الأمرين: أذهب -لا- أذهب، يا ديك. " "أتفهم، يا توم. سوف نرجع لك."

ديك مايرز فهم ذلك، طبعاً. فقد سبق له أن طار عشرات المهام القتالية فوق فيتنام الشمالية عندما كان طياراً شاباً. كان يعرف حقائق الحرب الواقعية. كنت سعيداً بأن الرئيس ووزير الدفاع لديهما ديك هناك في المكتب البيضاوي.

عاد بز وأبلغني في الساعة 0259، "طائرتان مسلحتان بالأسلحة المختارة. والطياران تلقيا الإيجاز اللازم. وهما يجلسان في الطائرة. لا أحد يفرح بهذا التوقيت، ولكنك تعرف رجال ستيلث هؤلاء. فهم سيطيرون إلى بوابات جهنم لضرب هدف جيد."

لقد قاتلت في نفسي إغراء السؤال عن اسمي هذين الطيارين لطائرتي اف-117. فعلى الرغم من أن احتمال نجاح الضربة هو -، 1، فإن طائرتيهما معرضتان لخطر الانكشاف والتحديد في أثناء خروجهما بعد شروق الشمس. كان هناك احتمال صدف لا يستهان به بأن واحداً من هذين الشابين المقاتلين قد لا يرجع إلى الوطن.

الأرقام على ساعة الجدار نقرت على الساعة 0312، وتهدت أنا ونظرت إلى جين. "إن الوقت يتأخر، يا ضابط ركن العمليات."

كنت أستطيع أن أتصور المنظر في المكتب البيضاوي: الرئيس وهو محاط بمستشاريه، يوازن بين الحجج المؤيدة والحجج المناقضة. جورج بوش سبق أن طار

في مقاتلات. وكان يفهم آليات تخطيط المهمة والتفويض. وكان يعرف كيف يتخذ قراراً.

ورن المفتاح الأحمر. كان ديك مايرز "المهمة هي الذهاب، يا توم. أرجو أن تنفذ." "تسلمتها." وكلمت بز موسلي. وقلت له: "أطلق المهمة يا بز، حظ جيد للجميع." وانطلقت كلتا الطائرتين بنجاح في الساعة 0338.

والآن ينبغي أن نقوم بتنسيق التابع النهائي لصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. مضى الوقت في وهج الفلوريسنت الذي لا يومض في غرفة الحرب. فأحد النواحي في مهمة ستيلث هي أن الطائرة لم تكن ترسل بيانات متتبع القوة الزرقاء. والحالة الوحيدة التي تلقيناها عن الطائرة المتجهة نحو الهدف كانت هي التحقق من أن الطائرتين قد أعادتا التزود بالوقود عند الطائرات الصهريج المخصصة لهما.

أبلغني تيم كيتنغ من البحرين أن سفن السطح والغواصات في شمال الخليج العربي قد أطلقت رشقاتها من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي حسب البرنامج المخطط ابتداء من الساعة 0439 وستضرب الصواريخ أهدافها في غضون دقائق من إطلاق قذائف ستيلث من وحدات القنابل الموجهة المعززة-27 المدمرة للمنوعات المصفحة.

واستمرت شاشات البلازما بإظهار عمليات إدخال وحدات المهام الخاصة في الغرب وفي الجنوب، وعلى منصات الزيت الموجودة قبالة الشاطئ تماماً بعيداً من شبه جزيرة الفاو.

وأبلغني رينيوات أن "البولنديين قد أمنوا هدفهم في منصات الغاز والزيت. لا إصابات في القوات الصديقة، مقاومة العدو خفيفة."

تلك كانت أخباراً طيبة. فتخريب المنصات المتعددة الأنواع الموجودة قبالة الشاطئ لتحميل الزيت وإنتاجه كان سيشل صناعة النفط العراقية، ويتسبب في كارثة بيئية ستقرم ما جرى من شركة أكسيون فالديز من اندلاق الزيت في ألاسكا.

ومع ذلك، كان من الصعب استيعاب الأخبار الطيبة مع كون مهمة ستيلث ما تزال قيد العمل.

لم أكن أملك من الوقت ما ألوي فيه مفاصل أصابعي، وعلى كل حال. وفي غضون بضع دقائق كان دون رامسفيلد على الخط. كان الرئيس يدرس عمل مؤتمر صحفي حالما تكون ضريبة مزارع الدورة قد انتهت. وقال: "ضع قبعتك، قبعة كاتب الخطابات، يا توم، فنحن بحاجة إلى مدخلاتك. ما رأيك؟"

وقلت له: "بغداد مليئة بالمراسلين الأجانب، سيدي الوزير. وسيكون هناك قنابل وصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي تضرب بالضبط إلى الجنوب على طول النهر وبعض الصواريخ تضرب في المدينة نفسها. نحن ننظر إلى لحظة سي إن إن حقيقية."

"إذن فأنت توصي بأن يلقي الرئيس خطاباً؟" كان رامسفيلد عميق التفكير، ويختار كلماته بعناية. "وبيان الرئيس لن يتدخل بعملياتك؟"

لن يحتاج العراقيون إلى سي إن إن لتخبرهم أن الحركة قد بدأت. وقلت لرامسفيلد: "سيدي، أنا أوصي بأن يلقي الرئيس خطاباً."

وقال رامسفيلد: "حسنًا، يا توم. ضع قبعتك، قبعة صائغ الكلام."

وتابعنا المسير عبر مبحث صياغة ملاحظات الرئيس. وشدد رامسفيلد: "نحن لا نريد أن نعرض للخطر أمنك العملياتي بأي شكل."

عندما كنت أستمع إلى صياغة مسودة الخطاب، حاولت أن أوازن بين أمن الجند في مقابل التأثير الذي سيكون لكلمات الرئيس على جمهور المستمعين الدوليين، لم نكن نريد للرئيس بوش أن يتحدث بطريقة تظهر جيدة لأمريكا ولحلفائنا، ولكنها تتهاود بخطتنا بإهمال غير مقصود.

وأز صوت ناسوخ (فاكس) مأمون على جانب الطاولة، وطبع المسودة شبه النهائية للكلمات التي قد اخترناها.

"إخواني المواطنون، في هذه الساعة، تكون القوات الأمريكية والتحالف في المراحل الأولى من عمليات عسكرية لنزع سلاح العراق، ولتحرير شعبها وللدفاع عن العالم من خطر جسيم."

بدت لي تلك المقدمة صحيحة تقريباً. والإشارة إلى "مراحل أولى" كان مهماً بوجه خاص. وأخبرت رامسفيلد: "نحن لا نريد أن نترك العدو يظن أن هذه الضربة هي إزعاج ضئيل آخر من ضربات صوراخ توماهوك للهجوم الأرضي وتنتهي بالحظ. ولكننا لا نريد العراقيين أيضاً أن يبدووا بالاستعداد ليوم جي، يوم بدء الهجمات الأرضية، اعتباراً من هذه اللحظة تماماً."

وقال البيان بعد عدة سطور لاحقة: "وهذه هي المراحل الافتتاحية لما سيكون حملة عريضة ومنسقة." وقلت لرامسفيلد: "ذلك جيد، سيدي الوزير. إنها تعني ضمناً أنه سيكون هناك عملية جوية طويلة. ولكن لدى العدو مفاجأة قادمة له." وقرأت بقية النص. كان صلياً. "أنا أوافق على الصياغة، سيدي."

في الساعة 0541 كنت أفتح متنقلاً بين قنوات التلفزة الفضائية. وحسب البرنامج تماماً، روى مراسل على شرفة فندق فلسطين في بغداد "انفجارات ثقيلة" جنوب المدينة، وفي الضواحي الغربية. وكما هو متوقع، شقت الدفاعات الجوية العراقية السماء عند الفجر بالطلقات الخطاطة والصواريخ المضادة للطيران.

كان ضوء النهار قد لاح في بغداد. ونحن لم نسمع بعد من طياري طائرتي ستيلث.

عندما جاء تقرير الضربة فعلاً، فإنه حمل بعض دراما الهجوم. الطائرتان اف-117، رمزا النداء رام 01 ورام 02، اقتربتا من مزارع الدورة من كلا الجانبين من مسار طيران بيضاوي نازل، واحدة من الشرق، وأخرى من الغرب. وكانت الشمس فوق الأفق تقريباً. ولكن سطحاً من السحاب حجبها عن المراقبة الأرضية، وحجب عنهما كذلك مجمع الهدف.

في آخر لحظة، وجد الطياران فتحة في السحب أعطتهما ست ثوانٍ للتعرف على الأهداف بصرياً ولإسقاط قنابلهما. ولكن نقاط التسديد كانت قريبة للغاية، والأسلحة الجديدة الموجهة بالنظام العالمي لتحديد الموقع، والتي لم يسبق أبداً أن استخدمت في القتال، كانت دقيقة للغاية إلى الدرجة التي شكلت معها القنابل عنقوداً وكادت تتصادم وهي تسقط.

كانت القنابل مجهزة بصمامة تخرق عميقاً قبل أن تنفجر و"تكسر" الملجأ المحصن تحت المباني الفارحة على ضفاف نهر دجلة حيث يعتقد أن صداماً وولديه كانوا يجتمعون.

عندما كان الطياران يتسلقان راجعين عبر السحاب، رأيا قنابلهما تنفجر، وشاهدا بعدئذ منظر ضربة صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي وهي قادمة عبر المجمع في تتابع من العصفات النارية.

كلتا الطائرتين عادت سالمة إلى العديد بعد ضوء النهار بمدة.

أخبرني جيف كيمونز على الهاتف وأنا أخرج من الاستحمام: "نحن نعمل في تقدير خسائر المعركة وتقارير الوكالة، الآن، يا جنرال."

ومع كل نواحي تقدمنا في التقانة، ما يزال تقدير خسائر المعركة مشكلة تعاودنا بشكل متكرر. ففي ما هو أقل من تقارير رؤية العين من موقع الهدف، كان يجب علينا أن نعتمد على التصوير. فإذا حددت مركبة جوية من دون طيار من نوع البريديتر فضيلة من ست دبابات عراقية نصف مختبئة في بستان نخيل، على سبيل المثال، فإنها تستطيع بذلك أن تحدد هدفاً لضربة جوية. بعد أن ينقشع الدخان. قد تكشف البريديتر أو صورة القمر أن دبابتين أو ثلاثاً قد دمرت بوضوح. واعتراض الاتصالات قد يعكس أنه ليس هناك مرور اتصالات لاسلكية من واحدة من الدبابات. ومع عدم وجود حركة من الدبابات التي لم تصب بضربة واضحة، سيكون من السهل أن نستنتج أن الدبابات الست كلها صارت خارج المعركة. ولكن كيف

نستطيع أن نعرف بالتأكيد؟ هل يجب على اختصاصي التهديد لدى جيف كيمونز وجين رينيوارت أن يشطبوا كل فصيلة الدروع العراقية من قائمتهم، أو هل يجب على طياري بز موسلي أن يعودوا لضرب الدبابات التي لم نتأكد من تدميرها؟

لقد كانت مشكلة، كنت أعرف، أنها ستزعجنا في الأيام والليالي القادمة. من تقدير خسائر المعركة في مزارع الدورة، لم نعرف إلا القليل. كان صدام إما حياً أو ميتاً، مجروحاً أو معافى. سوف نكتشف في نهاية الأمر، وفي الوقت الحالي سيكون هناك العديد من الأهداف الأخرى التي "تبرز" لضربها. في أرض المعركة، تكون تقارير الاستخبارات عن مثل هذه الأهداف دقيقة في بعض الأحيان، وغير دقيقة في أحيان أخرى. ولكننا لن نرغب أبداً في فقدان فرصة لقطع رأس النظام وإنهاء الحرب مبكراً.

وفكرت، لا تقلق حول أمور لا تستطيع أن تضبطها. كان الصباح ينشق عن يوم الخميس، 20 آذار/مارس، وكان عندنا حرب نخوضها ونقاتلها.

قبل أن تبدأ العمليات، عملت بشدة مع الأركان ومع قادة العناصر لنتأكد من أننا نمتلك الاتصال المستمر والوصول من أحدنا إلى الآخر بعد أن تكون السرعة المحمومة للقتال الحربي قد انطلقت، كنا نحتاج إلى "إيقاع" اتصالات يكون من شأنه أن يضمن التشاور المشترك من دون التدخل الذي لا حاجة إليه، لا إلى الأعلى في سلسلة القيادة ولا إلى الأدنى فيها. أنا سأكون القائد، الذي يصدر التوجيه وأستحث عند الضرورة، ولكنني لن أقود الخيالة نزولاً في "الأعشاب"، مثل بعض أفكار هوليود عن قائد كبير يحرك دبائيس تفرز في كل اتجاه على خريطة عملياتية. الحروب لا تعمل بتلك الطريقة اليوم، ولست متأكداً من أنها سبق أن عملت بها.

مع الوعي بالموقف بهذا الشكل غير المسبوق والذي نمتلك الوصول إليه، سيكون من المغري لي أن أحرك تشكيلات صغيرة. ولكنني سوف أقاوم هذا الإغراء. إن منظمة عسكرية مثل هذا التحالف هي أكبر وأكثر تعقيداً بالنسبة إلى رجل واحد

ليواجهها على المستوى التعبوي. سأقود قتال الحرب، ولكنني سأفعل ذلك من خلال مرؤوسي. سيكون هناك أوقات أعطي فيها أوامر لهؤلاء المرؤوسين، وكنت أتوقع منهم أن يطيعوا تلك الأوامر. ولكنني لن أقول للواء بيوفورد "بيوف" بلاونت قائد فرقة المشاة الثالثة، أو للفريق جيم كونواي قائد قوة حملة مشاة البحرية أين؟ وكيف أريد من إحدى فصائلهم أو سرايهم أن تقوم بهجوم؟ لم أكن أحتاج إلى القول، ذلك كان واجبهم، وكانوا يعرفون كيف يقومون به.

ولكنني، على كل حال، سأبقى على علم جيد بالموقف التعبوي، وذلك كي أستطيع اتخاذ قرارات عملياتية.

وكذلك، كان علي أن "أغذي الوحش" في واشنطن، محافظاً على دون رامسفيلد، وديك مايرز، والرئيس على علم كامل ودقيق بشأن التقدم الذي تحرزه، الحملة والمشكلات التي تجدها. وهذا ما سيكون مهماً بشكل مضاعف لأن وسائل الإعلام مثبتة التعيين مع قواتنا. والمراسلون الذين يكتبون قصصهم من وحدات المناورة لن يمتلكوا الوصول إلى متبع القوة الزرقاء. وبالنسبة إلى العديدين، فإن منظورهم سيكون محدوداً بمنطقة العمليات المحددة لسرية أو لكثيبة. وما قد يبدو لأحدهم بأنه أزمة كبيرة سيكون في الغالب خلاً صغيراً بالنسبة إلى مجمل قوة التحالف.

ولكنني كنت أعرف أن العصاة الموجودة داخل الطريق الدائري سيقومون بالتصفح العرضي للقنوات الفضائية من البداية في هذه الحملة، وهم يحاولون اختراق الضباب والاحتكاك من خلال قنوات مثل فوكس وسي إن إن - دع عنك الجزيرة.

وهكذا، فلن أقود قوات التحالف قيادة فعالة، في الوقت الذي أفي فيه بمسؤولياتي نحو السلطات المدنية، التي تقع على بعد سبعة آلاف ميل، وفي ثماني مناطق توقيت بعيداً عن القتال، أسست إيقاعاً للمعركة تكون من: برمجة مؤتمرات بالاتصال من بعد مصورة بالفيديو، وتحديثات للمعلومات، واستعراضات للمعلومات

الاستخباراتية، ومعها، حرفياً، مئات من النشاطات اليومية الأخرى المنسقة، والتي شغلت وقت الأركان ووقتي من يوم ي، يوم بدء العمليات، إلى نهاية الحملة.

وفي الأسبوع السابق، بدأت كذلك برنامجاً شخصياً منضبطاً أعطي ليومي شكلاً وتركيزاً. فبعد الاستيقاظ في الساعة 0400، كنت أتصل مع مركز العمليات المشتركة على الخط الساخن لأحصل على تحديث معلومات. ثم أمشي على جهاز رياضة المشي لمدة نصف ساعة مراقباً في أثناء ذلك التلفاز الأمريكي والدولي. وبعد الاستحمام وأكل بيضتين أو ثلاث بيضات مسلوقة سلقاً خفيفاً، كنت آخذ سيارتي من نوع فورد إكسبيديشن إلى المبنى 217، مع قرص مضغوط يعزف على ستريو أغاني نيل ماك كوي.

ضريبة مزارع الدورة مزقت هذا النمط. ولكن بحلول الساعة 0720 من يوم الخميس، 20 آذار/مارس وهو ي 1+، واليوم الكامل الأول من عملية حرية العراق كنت قد عدت إلى البرنامج نفسه. كان يومي العملي يبدأ بقراءة البرقيات والرسائل القادمة من مكتب وزير الدفاع، ومن ديك مايرز، ومن السفارات الموجودة في المنطقة، ومن رايفل دولونغ في الخلف في المقر الرئيسي للقيادة المركزية، ومن قادة العناصر. وكان ذلك يستغرق مني ساعة لأنجز العمل في هذا الكدس من الأوراق.

وفي الساعة 0800، عندما أنهى الأوراق، يتقاطر أركانني الرئيسيون داخلين إلى مكنتي: وهو ملجأ بلا نوافذ مثل البقية، مزود بقدرة مأمونة لعقد مؤتمر الاتصال من بعد المصور بالفيديو وبأربع شاشات بلازمية معلقة على جدار واحد. ولدي طاولة مكتب عند نهاية طاولة اجتماعات على شكل T وعليها خمسة كراسي في كل جانب. كان جون أبي زيد يجلس على النهاية القصوى، في مواجهتي، ورئيس أركاننا الجنرال في الجيش ستيف ويتكومب كان يجلس إلى يساره، واصطف المديرون على كلا الجانبين من الطاولة.

بعد استعراض سريع لعمليات التحالف الأرضية، والجوية، والبحرية من جين رينيوارت، التفت إلى جيم كيمونز: "ماذا لديك لنا يا ضابط ركن الاستخبارات؟"

وقال جيف: "هذا ما لدينا حتى الآن عن ضربة قيادة النظام، وتأتي التقارير نتفاً وقليلًا قليلًا. وتبين التقديرات الأولية لخسائر المعركة وتبين الصور مباني مهدامة، وأضرار النيران، ومجموعة محترقة من سيارات أمنية، وهي نوع السيارات المرتبطة بحراسات صدام حسين وابنيه. ويروي عميل أن صدام قد سحب من الحطام، وهو مصاب بشكل سيئ، وربما يكون ما يزال حياً. وكان وجهه مغطى بقناع أوكسجين عندما رفعته النقالة إلى سيارة الإسعاف."

وقلت: "دعونا لا نقضم ذلك حتى الموت. الضربة انتهت. وسوف نكتشف في نهاية الأمر ماذا حدث. وأنتم تعرفون مشاعري عن التقارير الأولى للكشافة..."

وقال جون أبي زيد: "هي دائماً على خطأ." لقد سمعوا موعظتي عن هذا الموضوع من قبل.

طبعاً، وكما علمنا لاحقاً، كتب لصدام ولولديه البقاء بعد ضربة مزارع الدورة. ولكنها كانت تستحق العناء: فهم لن يشعروا ثانية بالأمن بين أكثر مستشاريهم ثقة. من الذي كشف وجودهم في ذلك الموقع؟ إما أن يكون هناك جواسيس قريبين منهم، أو أن نظام استطلاع التحالف كان متقدماً تقدماً كافياً ليقضي تحركاتهم. هل وجهنا تركيزنا على هواتفهم الخليوية المرمزة؟ هل كانت أقمارنا تقتفي أثر توقيعات الحرارة الفريدة الخاصة بسياراتهم من الفضاء؟ خلاصة القول، كنا نستبقيهم يخمنون.

الطياران الشجاعان رام 01 ورام 02، ومعهما اختصاصيو التهديد لدى بز موسلي، الذين نفذوا الضربة وفقاً لمعلومات استخباراتية في الزمن الحقيقي وعلى درجة عالية للتعرض للضياح، قد أظهروا لصدام، ولعدي، ولقصي حسين أنه لا يوجد مكان آمن للاختباء فيه. تقودون سيارة، أو تتحدثون في هاتف، أو ترسلون بريداً إلكترونياً، أو تكتبون ملاحظة... مهما تفعلوا فالتحالف يراقبكم.

في الساعة 0900، انتقلنا إلى غرف الاجتماعات من أجل مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو مع قادة العناصر في مقارهم في منطقة المسؤولية، ومع مقار

المساندة في كل أنحاء العالم. وعلى الرغم من أن الوقت كان بعد منتصف الليل في الساحل الشرقي، و"الليل العام" للقيادة المركزية في تامبا، فإن المناوبات الليلية في الأركان المشتركة في وزارة الدفاع، وقيادة النقل، ومركز عمليات وكالة الاستخبارات المركزية، والقيادة الأوروبية في ألمانيا، والتي لم تكن تملك انفصلاً جدياً عن منطقة التوقيت، كانوا كلهم في الحلقة.

كل ضابط ركن رئيسي كان يصف النشاطات الرئيسية الجارية في منطقة مسؤوليته: ديني جاكسون في الإمداد والتموين، والعميد البحري جيم "روكي" روب في التخطيط، وجيم ويلكنسون في العلاقات العامة. العميد الجنرال فينس بروكس، "موجز" عملياتنا، كان يكتب الملاحظات، وهي التي كنا نستخدمها لنشكل العرض الذي سنقدمه لاحقاً في مركز وسائل الإعلام. كان فينس ضابطاً شاباً لامعاً، وكان هو الذي سيكون صوت عملية حرية العراق. لقد عرفته طوال سنوات، وعمل لي في كوريا وفي الجيش الثالث، وسيكون متفوقاً في هذا الدور كذلك. في هذا اليوم، اليوم الأول من العملية، استمع باهتمام عندما كان قادة العناصر يقدمون تحديثاتهم للمعلومات.

وقدم غاري هاريل، الذي كان لديه معظم الأحذية العسكرية على الأرض عند هذه النقطة، تقريراً محكماً موجزاً. زمر المهام الخاصة قد دخلت إلى العديد من المواقع عبر الصحراء الغربية. لقد قطعوا، "حرّموا" باللغة العسكرية، الطريق الرئيسي الذي ربط العراق مع الأردن، وسيطروا على نسبة الـ 25 بالمائة الغربية من العراق. وقوة مهام قوة العمليات الخاصة في الشمال أقامت ارتباطاً مع قوات حرب العصابات البشمركة الكردية ونُشروا على طول الخط الأخضر الذي يفصل المنطقة الكردية ذات الحكم الذاتي عن بقية العراق، وهو ما يساعد في تثبيت فرق العدو في الشمال.

كان العراقيون قد أصيبوا بالعمى، وهم يتخبطون... ولم نكن قد دخلنا في الحرب إلا حوالي اثنتي عشرة ساعة فقط. وسوف يطلق ديفيد ماككيرنان اليوم

جي، يوم بدء العمليات الأرضية، في هذه الليلة، مع انطلاق يوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية، غداً.

وقلت لهم: "حسنًا. أنتم جميعاً تقومون بعمل عظيم. دعونا ننفذ الخطة مثلما سبق أن لعبناها لعبة حرب. اعملوا المهمة، واحموا القوات."

ومع تقدم اليوم الأول من الحرب، استعرضت خطط الهجوم الأخير مع ديفيد ماككيرنان وركن العنصر الأرضي في مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو.

أعطى قائد الفيلق الخامس، الفريق وليام "سكوت" والس، وجيم كونواي إيجازين دقيقين، كاملين: وكانت قوة وحداتهما من الجند وتجهيزاتها، وبيانات جرد الإمداد كلها جيدة. وكانت تشكيلاتهما في مناطق التجمع قبل الاقتحام قرب حافة الحدود. وحالما تكون المدفعية، ونظام قذف الصواريخ المتعددة، والطائرات العمودية المسلحة قد دمرت ما تبقى من مراكز الرصد البصري العراقية، فإن المهندسين المقاتلين سوف يجرفون بالجرافات الآلية ممرات عبر الجدران العالية من الرمل والحصباء.

وسوف يتحرك، عندئذ، رجال دباباتنا، وخيالة مشاتنا الآلية إلى الأمام، مستخدمين وحدات جسور فولاذية قابلة للانطواء لتجسير الخنادق العميقة المضادة للدبابات الموجودة على الجانب العراقي من الحدود. وفي غضون الأربع والعشرين ساعة القادمة، سوف تتقدم آلاف من العربات المجنزرة والمدولية شمالاً عبر تلك الاختراقات التي تمت في حافة الحدود وفوق الخنادق المجسرة.

قادة تلك القوات كانوا يجمعون بين عقود من التدريب الصارم وخبرة القيادة. ومعظمهم كان قد خدم في عاصفة الصحراء أو في دول البلقان. لقد ناوروا بالوحدات من خلال تمارين تدريبية في الكويت ومن خلال المناورات الميدانية التي كانت بلا نهاية في الحرب الباردة في ألمانيا وفي جبال كوريا. كانوا يعرفون طرق تقدمهم، وخطوط المراحل، والأهداف الخاصة بهم، ولكنهم كانوا يعرفون أيضاً من

خبرتهم المباشرة أن قانون ميرفي كان دائماً موضع التأثير، وجاهزاً ليسبب المشكلات.

وقلت لهم: "أنتم جميعاً تعرفون أفكارى عن إيقاع المعركة. تذكروا: السرعة والزخم." لم يسبق لي أن رأيت موقفاً ستكون فيه السرعة أكثر حسماً من هذا الموقف. إن ترسانة صدام حسين من الصواريخ البالستية، والصواريخ ذات المدى الأقصر، والمدفعية كانت ترسانة مؤثرة، وقد أخبرتنا استخباراتنا أن من المحتمل أن تكون بعض تلك الترسانة مسلحة بالرؤوس الحربية الكيماوية أو الحيوية. وقد أشارت كل مصادر الاستخبارات أن الحرس الجمهوري وجند عمليات الأمن الخاصة المنتشرة حول بغداد كانت تمتلك أسلحة تدمير شامل، وكنا نتوقع منهم أن يستخدموا هذه الأسلحة عندما نغلق الأنشطة حول العاصمة، ما لم نصل إلى العاصمة قبل أن يكون العراقيون قد استعدوا. إن سرعة تقدمنا لن تقتل العدو وحسب، بل هي ستقذ أرواح التحالف كذلك.

كان هذا مبدأً عملياً مهماً: فبقيام وحدتنا بالضرب بشدة وبسرعة، فإنها سوف تمزق بذلك قدرة العراقيين على الرد بفعالية. إن قائد لواء مدرع عراقي قد يعلم أن عربات برادلي لكشافة خيالتنا قد اخترقت محيطه الخارجي الدفاعي. ولكن إلى أن يحين الوقت الذي يستطيع فيه هو أن يناور بدباباته ومدفعيته ليقوم بالهجوم المعاكس، سنكون نحن قد وضعنا دباباتنا في الهجوم في شكل أسافين بمستوى الكتيبة في منطقة عملياته، مدمرة كل دبابة عراقية أو مدفع في طريقها. وفوق رؤوسهم، ستقوم الطائرات العمودية الهجومية والضربات الجوية بقتل كل عربة تتحرك.

وذكرتهم: "المفتاح هو السرعة، أيها الرجال. نحن سوف نربح هذا القتال، وسوف نربحه عن طريق الوصول إلى داخل دائرة قرار العدو. تذكروا: السرعة تقتل... العدو."

مضى الصباح الأول من الحرب بسرعة في الخلية الضخمة التي تعج في المبنى

0217. وكانت تعمل حولي زمر تركز نفسها لكل علم أو تخصص يخطر في الخيال وله علاقة بالقتال الحربي الحديث: الاستخبارات، والاتصالات، والطقس، والعلاقات العامة، والسياسي- العسكري، والتخطيط، والإمداد والتموين (مع كل تخصصاتها الفرعية)، والنقل، والشؤون المدنية، والمساعدة الإنسانية، والعمليات النفسية، "حوالي ألف من أقرب أصدقائك"، كما قال غرينش مازحاً.

في حوالي منتصف النهار، ومض رمز في خريطة الحاسوب من جانب لآخر من طاولتي. إن بطارية باتريوت من قيادة الدفاع الجوي والصاروخي، القيادة الثانية والثلاثين من الجيش، قد أطلقت من فورها صاروخاً ليشترك مع صاروخ بالستي عراقي للمسرح. وبنقرة على الفأرة، كنت قادراً على أن أقرب وأركز على البطارية، التي كانت بالقرب من منطقة التجمع التعبوية للفرقة 101 المنقولة جواً في شمال غرب الكويت، وهي أرض قفر لا تضاريس فيها بالقرب من حافة الحدود. وفي ومضة من بعض عناصر قليلة من الصورة على الشاشة، دمر صاروخ باتريوت بنجاح الرأس الحربي المعادي وهو في الجو عالياً.

الساعة الرقمية قالت إن الوقت هو الساعة 01224. وتوقعت أن العراقيين لن يستغرقوا طويلاً لينتقموا عن الليلة الماضية.

ورن هاتفي. وسألني جيف كيمونز: "هل أنت مطلع على الاشتباك مع الصاروخ البالستي لمسرح العمليات في الكويت، يا جنرال؟ ذلك الصاروخ كان أبابيل-100 من سلة إطلاق جنوب البصرة."

إن صاروخ باتريوت بي ايه سي-3 انطلق من واحدة من سبع وعشرين بطارية متمركزة في الكويت، والبحرين، وقطر، والمملكة العربية السعودية، والأردن، ودمر الصاروخ العراقي. لقد كان الباتريوت فعالاً ضد الصواريخ البالستية لمسرح العمليات. وكان لدينا قاذفات متمركزة لتحرس قواعد التحالف وحشود الجند من الصواريخ القادمة خلال معظم مسرح العمليات. لم يكن لدي أي فكرة عن كون الرأس الحربي لأبابيل-100 رأساً تقليدياً أو سلاح تدمير شامل، وإذا أخذنا

بالاعتبار تدمير سلاح العدو بسرعة فوق صوتية، فإننا قد لا نعرف أبداً. وكانت النقطة هي أن رأساً حريبياً يندفع نازلاً مباشرة نحو منطقة تجمع مكتظة بأربعة آلاف عسكري ومائة طائرة عمودية من بلاك هوك، وأباتشي قد تم تحييده.

وكان التقرير الأولي عن الاشتباك، والذي تلقيناه بعد بضع دقائق، قد أكد ما حدث، إن المدمرة إيجيس من الأسطول الأمريكي في شمال الخليج، والسفينة هيغنز الأمريكية، كشفت الصاروخ الباليستي لمسرح العمليات بعد ثانيتين من إطلاقه. وبعد أن أومضت بإنذار إلى مركز عمليات الدفاع الجوي في معسكر الدوحة الموجود في الكويت، قامت رادارات البطارية د، من الكتيبة الخامسة من مدفعية الدفاع الجوي الثانية والخمسين- بتتبع الصاروخ وهو ينزل خارجاً من الجو. عملت حواسيبنا حلاً لإطلاق النار في خلال أربع عشرة ثانية، وتم إطلاق صاروخي باتريوت، ودمرا الرأس الحربي عالياً فوق أرض الصحراء.

وقلت لجف "واحد مقابل لا شيء. إننا نستطيع أن نتوقع المزيد."

واتصلت مع بز موسلي: "هل تستطيع أن تقوم ببعض التصيد للصواريخ؟"

"لدي طائرات اف 16 في الجو الآن مباشرة، يا رئيس. سوف نجدهم."

في ذلك الأصيل أطلق العراقيون أربعة صواريخ أخرى على قواتنا في الكويت. صواريخنا الباتريوت دمرت اثنين، والصاروخان الآخران سقطا في الصحراء الفارغة أو الخليج ولم يجر الاشتباك معهما.

في الساعة 1435، أبلغنا بز أن مقاتلاته القاذفة قد حددت موقع قاذفين متنقلين لأبabil-100 ودمرتهم.

وقلت له: "عمل جيد، يا بز. إنك لا تستخدم كل وحداتك للقنابل العنقودية، أليس كذلك؟" وحدات القنابل العنقودية، وهي التي أطلقت مئات من القنابل الصغيرة القاتلة، كانت هي الأسلحة المختارة ضد القاذفات المتنقلة للصواريخ.

"احتاج الموقف إلى اثنتين فقط، يا جنرال. ونحن نمتلك الكثير."

على بطاقة ذلك الصباح من قياس ثلاثة في خمسة، بدأت قائمة التحديات "بتهديد أسلحة الدمار الشامل" مثلما فعلت طوال الأسبوع الماضي، وسوف أستمّر بفعل ذلك طوال الأيام والليالي القادمة.

ومثلما أمّلت، كان دون رامسفيلد وديك مايرز الوجهين الوحيدين المرئيين عندما نقرت الصورة وفتحت من أجل مؤتمرنّا المبرمج بالاتصال من بعد المصور بالفيديو. كانت الساعة 1500، و 0700 في وزارة الدفاع.

وأبلغته: "سيدي الوزير، نحن حسب الخطة. قواتنا للعمليات الخاصة تسيطر على أهدافها الأولية في الصحراء الغربية."

وأشرت، باستخدام خريطة رقمية، إلى مواقع زمر قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة في الغرب، والتي كانت من قبل قد أسست قواعد عمل متقدمة في خمسة مواقع داخل العراق. وقلت: "جند الجنرال هاريل قد أحاطت بمطار اتش 2 وبالطريق العام لمدينة الرطبة." وتابع في وصف أحداث الثماني عشرة ساعة الماضية. وأضفت: "جند ديف ماككيرنان ومشاة البحرية مجهزة للتحرك إلى حقول الزيت الجنوبية في هذه الليلة. وطبعاً، نحن نمتلك السيطرة الجوية في فضاء المعركة."

وسألني رامسفيلد: "ما هي خططك لفرقة المشاة الرابعة، يا توم؟"

وقلت له: "أريد أن أحتفظ بالسفن في البحر الأبيض المتوسط مدة أطول، سيدي. الأرصفة في الكويت ما تزال مكتظة. وسوف تستغرق القافلة البحرية للفرقة الرابعة ستة أيام فقط لتصل إلى الكويت بعد أن تستلم أمر الحركة، وليس هناك أي معنى بالنسبة إليهم للجلوس في المرسى في الميناء. إن الفرقة تخدم غرضاً أفضل بصفقتها قوة خداع."

وقال دون رامسفيلد: "أنت تقرر، ذلك طلبك، يا توم."

وسألت الجنرال مايرز: "يا ديك، هل تستطيع أن تحافظ على قيادة النقل وعلى

الأسطول من الانفجار غضباً بسبب هذا الموقف؟ إننا بدأنا من قبل الآن نحصل على بعض تعابير التذمر. إنهم يريدون هذه السفن أن تفرغ حمولتها وتتحرك."

وافق مايرز على أن يقوم بالتدخل. وقال رامسفيلد في نهاية المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو: "كل واحد في واشنطن يقف خلفك، يا توم."

بدأت لي الأيام العشرة التي جاءت من جهنم وكأنها منذ عمر. ومهما حدث في هذه العملية، فقد كنت أعرف أنه لن يكون هناك أي مكالمات من الوزير يقول فيها: "لا أرى أي حركة، يا جنرال فرانكس"، وذلك مثلما كان يحدث في أثناء تلك الأيام الأولى في أفغانستان. لم يكن يوجد متتبع للقوة الزرقاء في مكتب دون رامسفيلد، وإنما كان هناك تلفاز. وكان من المستحيل أن تغيب عنه حركة جند التحالف وهو يشاهده.

قبل أن أنام في ليلة الخميس، أمرت بإصدار بيان إلى قواتنا التي توشك أن تدخل في القتال. وفي صياغة مسودة الرسالة، حاولت أن أضع نفسي في مكان رام بحري، أو خيال يهتز بعنف على طول الطريق في عربة برادلي، أو بحار يعمل في الظلام، وسطح الطيران الخطر للسفينة الأمريكية نيميتتر، أو رجل جو في حجرة طيار لطائرة إيه-10 تدرج عبر جداول من الطلقات الخطاطة لتضرب رتل دبابات معادياً.

وبدأت الرسالة: "أيها الرجال والنساء في عملية حرية العراق،"

إن رئيس الولايات المتحدة، قائدنا العام، بالاتفاق مع قيادة شركائنا في التحالف قد أمر بالبدا بالعمليات القتالية. أهدافنا واضحة. سوف ننزع سلاح العراق ونزيع النظام الذي رفض نزع سلاحه سلمياً. وسوف نحرر الشعب العراقي من مستبد يستخدم التعذيب، والقتل، والتجويع، والإرهاب أدوات للاضطهاد. وسوف نجلب الطعام، والأدوية، والمساعدة الإنسانية الأخرى للعراقيين المحتاجين. وسوف نعتني بحماية المدنيين الأبرياء وبالبنية التحتية التي تسندهم، وسوف نساعد الشعب العراقي على أن يبدأ من جديد في بناء مستقبل يخصه مع حكومة من اختياره.

إنكم تحظون بأعلى ثقتي الشخصية وبثقة قائدكم العام. أنتم الآن في موقف الخطر. وواجبنا لن يكون سهلاً، ولكننا نقاتل في سبيل قضية عادلة والنتيجة ليست موضع شك. إنني فخور بكم، بكل ما فعلتم وبكل ما ستحققونه في الأيام القادمة. سوف نقوم جميعنا بعمل واجبنا. بارك الله في كل واحد منكم، وبهذا التحالف، وبالولايات المتحدة الأمريكية.

في الساعة 0634 بتوقيت العراق، يوم الجمعة، 21 آذار/مارس ي+2، يوم بدء العملية+2. جلست في غرفة الحرب، أشاهد المستطيل من أيقونات القوة الزرقاء على الشاشات البلازمية وهي تتقدم شمالاً ابتداءً من الخط الأسود الغامق الذي يعلم الحدود الكويتية مع العراق.

بعد غروب الشمس في الليلة الماضية، قام سلاح الهندسة بخرق حافة الحدود، وقطع حواجز السياج، ووضع المهندسون جسورهم القابلة للحمل فوق الخنادق المضادة للدبابات. وقبل ذلك كانت وحدات الاستطلاع في عربات برادلي، والعربات الخفيفة المدرعة الخاصة بمشاة البحرية قد توغلت داخل العراق لمسافة عشرين كيلو متراً.

لقد بدأ اليوم جي، يوم بدء المرحلة الأرضية من الحملة.

وأبلغني ديفيد ماككيرنان في مكالة المؤتمر من معسكر الدوحة الموجود في الكويت أن "واحدة من وحدات استطلاع قوة حملة مشاة البحرية وكشافة خيالة بوف بلاونت قد عبروا خطوط البدء الخاصة بهم في الساعة 2100 في الليلة الماضية، وأن مشاة البحرية وخيالة الفيلق الخامس كانوا خلفهم مباشرة وأنهم يتحركون بسرعة، يا جنرال."

وكنا، أبي زيد، وجين رينيوارت، وأنا ندرس الرموز الزرقاء الواضحة. وأشار متتبع القوة الحمراء أن الفرقة الآلية العراقية الحادية والخمسين، وهي قوة من الجيش النظامي المجهزة بدبابات تي-55 وتي-62، ورتبها مملوءة من المجندين السنة والشيعة، كانت منتشرة عبر حقول زيت الرميعة. ولكن آخر صور لم تُظهر إلا رأسي بئرين إضافيين مشتعلين فقط، لم يبدأ بعد تخريب كبير.

وبعد أن تم تدمير مراكز الرصد البصري على طول الحدود الكويتية العراقية، لن يكون العراقيون قادرين على تقدير حجم أو تركيب قوة التحالف المتحركة نحو الشمال بأقصى سرعة لها. والانطلاق المبكر حقق على الأقل درجة ما من المفاجأة العملياتية.

ولاستغلال تلك المفاجأة، كانت تجري عملية حرب إلكترونية صلبة تدخلت في العديد من القنوات العراقية العسكرية اللاسلكية، ولكن ليس فيها كلها، بينما تركنا بعض الوصلات لكي نستطيع أن نتنصت عليها. وكانت طائراتنا ومدفيعيتنا بعيدة المدى تضرب العقد الحيوية لاتصالات العدو، ومحطات الإعادة اللاسلكية، ولوحات المفاتيح التعبوية، والمقار المناطقية لوحدات مختارة من الجيش النظامي.

وتابع ماككيرنان: "لا نملك إلا قوة صغيرة للعناية بالمخزون في حقول الزيت. ولكن مشاة بحرية جيم كونواي يتحركون بسرعة. ومع أي حظ فإنهم سيستولون على الرميطة سليمة."

في غضون ساعات سوف تكتسح وحدات المقدمة من مشاة البحرية حقول الرميطة وتدخلها.

ومع الضوء الأول من يوم جي، يوم بدء المرحلة الأرضية، تكون زمر قتال من مستوى لواء من فرقة المشاة الثالثة وزمر قتال من مستوى فوج من مشاة البحرية قد بدأت الاقتحام الرئيسي شمالاً نحو بغداد. وكانت زمر القتال هذه تشكيلات سريعة الانتقال، ومكتفية ذاتياً وجمعت الدروع، والمشاة الآلية، والمدفعية، ومتوسط قوتها خمسة آلاف من الجند في كل زمرة منها. وكانت ستتقدم على طول مسالك منفصلة، ولكنها سوف تتصل معاً عندما تدعو الحاجة إلى حشد القوة النارية ضد الدفاعات المركزة للعدو.

والزمرة الثانية من زمر القتال من مستوى لواء من فرقة المشاة الثالثة، وهي تشكيل دبابات ثقيل التدريب، تتبعها عربات برادلي من سرية الخيالة الثالثة، فوج الخيالة السابع (3-7خيالة). وكان هدفهم الأول قاعدة تلليل الجوية. ومن هناك سوف يسرع الجند شمالاً إلى الناصرية، لتستولي هذه الوحدات على جسر الطريق العام القائم على نهر الفرات وتمسك به من أجل مشاة البحرية.

وزمرة واحدة من زمر القتال من مستوى فوج مشاة البحرية كانت مهيأة للاستيلاء على حقول الزيت الجنوبية، وزمرة أخرى كانت تتحرك قدماً لتتسلم

الجسر من فرقة المشاة الثالثة. ومن هناك سيقوم مشاة البحرية بالاستيلاء على جسور أخرى على نهر الفرات وعلى قناة صدام.

وستصير هذه الجسور هي البوابة التي تعبر منها قوة حملة مشاة البحرية إلى قلب ما بين النهرين، وهو المكان الذي تصادمت عليه الجيوش طوال آلاف الأعوام، وسوف تتقدم زمر مشاة البحرية، زمر القتال من مستوى فوج قُدماً على الطريقين العامين رقم 1 ورقم 7 عبر مدن مزارع الشيعية، مع البقاء إلى الغرب من فرق الجيش العراقي النظامي الستة المتخندقة في مواقع دفاعية مثل "الدرج" تقع شمالي البصرة بالضبط. وفي نهاية المطاف ستقوم قوة حملة مشاة البحرية بعبور نهر دجلة وتتقدم شمالاً على الطريق العام رقم 6 إلى الجانب الشرقي من بغداد.

إن نجاح عملية مشاة البحرية سوف يعتمد في جزء كبير منه على تثبيت هذه الفرق الست في مكانها. فإذا تمسك العدو بعناد بمواقعه، فسوف يقصف من طيران التحالف، نهراً وليلاً. فإذا خرجوا من استحكاماتهم وخطوط الخنادق، فإن العنصر الجوي من بز موسلي وزمر مشاة البحرية، زمر الجو - الأرض سوف تدمر تلك الفرق في العراء.

وفي الوقت الذي يقوم فيه مشاة البحرية والفيلق الخامس من الجيش بالتحرك نحو بغداد، فإن الفرقة المدرعة الأولى البريطانية سوف تتعطف بشكل حاد إلى الشمال الشرقي لتعزل البصرة، وهي ثاني أكبر مدينة عراقية. وقد قدرت الاستخبارات أن الأغلبية الساحقة من سكان البصرة البالغة حوالي مليون نسمة من الشيعة سوف تبقى حيادية، فلا هي تساعد ولا هي تعيق، بينما يعالج البريطانيون القيادة البعثية للحامية.

وأبلغني ماككيرنان: "حتى الآن، كانت مقاومة العدو متفرقة وخفيفة نسبياً. وتشكيلات الجيش السابقة في المقدمة واجهت بعض وحدات الدروع المنظمة تنظيمياً ضعيفاً ووحدات جند راجلة. بعض منها سيقاتل. وبعضها استسلم. وكثير منهما هجر مواقعه على ما يبدو وذاب وتلاشى. ونحن لا نتوقع أي قتال كبير في الساعات القليلة التالية."

وكان بز موسلي في الحلقة كذلك. وسألته: "هل تعطي هؤلاء الخيالة ومشاة البحرية الكثير من المساندة الجوية، يا بز؟"

وقال: "من المؤكد أننا نفعل، يا جنرال. قد طيرنا أكثر من مائتي طلعة في الساعتين الأوليين، والإيقاع يتصاعد. وسوف يكون يوماً مشغولاً. والمجموعة الإستراتيجية لم تبدأ بعد."

وأضاف ماككيرنان: "رجال الطيران كانوا وما زالوا يعملون لنا عملاً عظيماً، يا جنرال." لقد كان ديفيد ماككيرنان ضابطاً من أكثر الضباط استقامة، وأكثر جدية من الذين سبق لي أن قابلتهم في السنوات الثماني والثلاثين بصفتي عسكرياً. وكنت أعرف أنه كان سيخبرني لو أن المساندة الجوية لم تكن وفق المستويات العالية لبز موسلي.

إن المساندة الجوية القريبة ستكون مفتاحاً حيوياً للعملية. فمنذ التخطيط لعملية أناكوندا في العام السابق في أفغانستان، كنت أقدم المواعظ لقادة العناصر حول أهمية وصل عمليات الأرض والجو في كل واحدٍ متماسك. فإذا احتاج عسكري أو جندي بحرية النيران على هدف، يجب أن يكون قادراً على دعوة المساندة من طيران القصف أو الطائرات العمودية المسلحة، أو المدفعية بسهولة متساوية.

وإذا استطاعت طائرة بريديتر أو غلوبال هوك أن تحدد موقع دروع عراقية، فإن تلك البيانات يجب أن تتساب تلقائياً إلى عناصر الأرض والجو، وذلك لتستطيع كل قوتنا النيرانية، جواً وأرضاً معاً، أن تنصب عليها.

وقلت وأنا أختتم المكالمة: "حسناً. إن الأشياء سوف تصبح أكثر استعجالاً محموماً. وأنا أريد منكم أيها الرجال أن تأكلوا بالشوكة نفسها. قاتلوا بشكل مشترك."

وقال بز: "فهمت، يا رئيس."

وقال ديفيد: "نعم، سيدي."

وفكرت أنه سيكون جيداً أن أخفف الضغط عن ديفيد قليلاً في بداية الحملة. ولكنني كنت أعرف أنه لن يكون من السهل أن أجعله يضحك على نكتة من نكاتي الباردة.

قلت: "هيه، يا بز. مد يدك لتصل إلى ذلك الهاتف الجميل الذي لديك مع كل الأزرار وصافح يد أخيك التوأم ديفيد."

وقال بز: "هاي، ديفيد."

ورد ديفيد: "جميل أن أتعرف بك يا بز." كنت أستطيع تقريباً أن أسمعه يبتسم. بعد ساعة، أرسل لي ديني جاكسون، ضابطي الرئيسي للإمداد والتموين، مجموعة جديدة من تحديثات الموقف من قيادة المساندة في الكويت. كان يبرز هناك قلق جديد: ازدحام في الميناء التجاري الرئيسي في الشعبية، وفي منفذ الحاويات في الشويخ، وفي أرصفة القاعدة البحرية في مدينة الكويت. وكان جماعة ديني يعملون كالسحر، فهم يخرجون الشحنات من السفن فإلى خطوط المواصلات : على شبكة الطرق عبر الكويت إلى العراق. ولكن كان هناك حد لما كانوا يستطيعون عمله. ففي أثناء عملية عاصفة الصحراء، تمتع التحالف باستخدام الموانئ التجارية الكبيرة الأربعة الموجودة على سواحل المملكة العربية السعودية في الخليج وفي البحر الأحمر. وأما في عملية حرية العراق، فنحن لم نملك تلك المنشآت.

لقد قام ديني جاكسون، وهو يعمل مع قيادة النقل، ووحدات التحالف لمساندة الميناء، ومع الحكومة الكويتية، بعمل مدهش، وهو جعل قوة برية من 170.000 جندي جاهزة وعاملة، ومزودة بعربات، وأسلحة، وذخائر، ووقود، وطعام، وماء، ومئات الآلاف من الأطنان من الإمدادات الأخرى، في أقل من ثلاثة أشهر. وقد عملوا ذلك في "تموجات" للمحافظة على الخداع العملياتي الكلي.

كانت الفرقة 101 المنقولة جواً الآن تنزل آخر تجهيزاتها وتقف جاهزة للقتال في مناطق تجمعها. وفي الوقت نفسه، كان فوج الخيالة المدرع الثاني، وهو تشكيل

يساوي تقريباً حجم فرقة مدرعة في الحرب العالمية الثانية، في طريقه قادماً من الولايات المتحدة. وبكون هذه الوحدة وفرقة المشاة الرابعة متوقعة الوصول والنزول في الأسابيع القادمة، فسيكون هناك المزيد من التراكم في الأرصفة. ولذلك كان الاستيلاء على الموانئ العراقية في أم القصر ورفع الألغام منها أولوية بالنسبة إلى القوات البريطانية وقوة حملة مشاة البحرية.

وحتى مع كل هذا الذي يجري، فإن بعض الضباط في وزارة الدفاع، وجنرالات التلفاز، كانوا يشكون من أن التحالف لم يمتلك قطعاً كافية على الأرض لبدء الحرب. هؤلاء "الإستراتيجيون" كانوا يريدون كما هو واضح عودة إلى عاصفة الصحراء، أي 560.000 جندي وحملة جوية منفصلة، ومطولة، قبل شن عملية أرضية بفرق ثقيلة متعددة على جبهة عريضة. وكنت فكرت، أن قوة عاصفة الصحراء لم تكن كاملة تماماً في حماية حقول زيت الكويت.

إن بناء قوة بحجم قوة عاصفة الصحراء في الكويت كان سيستغرق شهوراً من الجهد، وهو جهد مكشوف جداً، وكان سيضحي بالعنصر الحيوي من المفاجأة العملياتية التي نتمتع بها الآن. فلو حاولنا أن نضغط اثنتي عشرة فرقة أو ثلاث عشرة فرقة، ونحشرها جنباً إلى جنب عبر الحدود الضيقة من شمال الكويت، لما استطعنا أبداً أن نخدع العدو ونقوده إلى التفكير بأن الجهد الرئيسي كان سيأتي من الشمال والغرب.

ولو تمت التضحية بالمفاجأة العملياتية، فإنني كنت أظن، أن العراقيين كانوا سيعيدون تمركز حرسهم الجمهوري ووحدات الجيش النظامي، متسببين في قتال استنزاف كان سيكلف آلاف الأرواح.

وكان هناك عامل آخر: إن قوة تحالف محتشدة بكثافة في شمال الكويت كانت ستقدم هدفاً مغرياً للمدفعية العراقية وللصواريخ العراقية، المسلحة بمقذوفات تقليدية أو بأسلحة تدمير شامل. لقد تجنبنا تلك المشكلة عن طريق تمرير الوحدات المقاتلة عبر معسكرات التمرحل الكويتية واحدة بعد أخرى. فالفرقة 101 المنقولة

جواً، على سبيل المثال، كانت تستعد وتتزود للقتال في المعسكرات التي كانت فرقة المشاة الثالثة قد أخلتها قريباً، وعندما ستصل فرقة المشاة الرابعة في نهاية الأمر إلى الكويت، فسوف تستخدم المنشآت نفسها.

وكانت المساندة قضية أخرى. فوحدات جنودنا الأرضية، اليوم، تعمل وهي "أنحف وأصغر" مما كانت عليه في حروب الماضي. وحتى مع ذلك، فكما زادت وحدات الجند المقاتلة التي نخصصها للعراق، تضخمت قوة المساندة التي ستلزم لتوفر لهذه القوات الوقود، والطعام، والذخيرة، والعناية الطبية، وغير ذلك. كانت الكويت بشكل أساسي هي منطقة التمرحل الوحيدة... ولذلك، فهناك عدد محدد فقط من الجند يمكن للكويت أن تستوعبه.

وكانت الأرض اعتباراً آخر مهماً. فنمط الأنهار، والقنوات، والأهوار، والبحيرات في العراق الجنوبي والأوسط قد حدد مسالك الاقتراب من الكويت إلى بغداد. وكان هناك عدة نقاط اختناق تقليدية، وهي ممرات ضيقة من الأرض القابلة للعبور، والتي سيكون على القوات المتقدمة التشاور والاتفاق عليها وهي في طريقها إلى العاصمة. وكانت فجوة كربلاء الضيقة، الواقعة بين تلك المدينة في وادي الفرات وبين عائق بحيرة الرزازة إلى الغرب، واحدة من هذه التضاريس. وفي محور تقدم قوة حملة مشاة البحرية الأولى إلى الشرق، كان هناك عوائق طبيعية مشابهة، وعلى وجه الخصوص المكان الذي يعبر فيه الطريق العام رقم 7 نهر دجلة ليلتقي بالطريق العام رقم 6 في الكويت.

إن مجرد الأعداد: من الجند، والدبابات، وعربات المشاة القتالية، والمدفعية، لن تغير الإملاءات التي تفرضها تلك الأرض بشكل لا يقبل التغيير. كان هناك عدد محدود فقط من المسالك المؤدية إلى بغداد، وكانت بغداد هي العاصمة التي كان التحالف متوجهاً نحوها.

كانت العاصمة هي مركز الثقل للنظام البعثي، وطالما بقي جند صدام حسين مستمرين في السيطرة على المدينة فهو لن يتخلى عن السلطة أبداً. ولذلك، كان

يجب على قوات التحالف أن تتقدم إلى بغداد بسرعة كبيرة، مع تجاوز تشكيلات العدو وتثبيتها في أماكنها، بحيث ستكون العاصمة معزولة قبل أن تستطيع الفرق العراقية أن تتراجع وتحول المدينة المسترخية إلى "قلعة" مثلما كان الكثيرون يخافون من حدوث ذلك. وهذه المهمة لن تتحقق بحشد فرق الدروع أو المشاة الآلية، مصطفى على مسافة أميال ومنتظرة حتى يلج الخيط في سم إبرة فجوة كريلاء أو عبور نهر دجلة على جسور عائمة.

وكما سبق لي أن قدمت إيجازاً للرئيس وللمجلس الأمن القومي: "إن قوة التحالف في أثناء القتال الحاسم سوف تستمد من كتلة قوة النيران الفعالة، وليس فقط من مجرد أعداد الأحذية العسكرية أو جنازير الدبابات على الأرض."

عملية عاصفة الصحراء عرفت الجمهور على فكرة "الأسلحة الذكية"، في شكل تلك الصور المدهشة بالفيديو للقنابل الموجهة بالليزر وهي تدمر الجسور ومباني الوزارات. ولكن جزءاً صغيراً فقط من الأسلحة الجوية التي أسقطت في عاصفة الصحراء كانت ذخائر دقيقة التوجيه. أما في هذه الحملة فإن 70 بالمائة من القنابل التي أسقطناها هي ذخائر دقيقة التوجيه، والكثير منها ذخائر الهجوم المباشر المشتركة التي أهلكت الطالبان والقاعدة في جبال أفغانستان وكهوفها.

إن ميزتنا التقانية أعطتنا كل أداة كنا نحتاج إليها لنغتزم المفاجأة العملياتية. إن فصيلة استطلاع مشاة بحرية وهي تهدر على طول ضفاف القناة في عربات مدرعة خفيفة بثمانية دواليب، كانت تستطيع أن تحدد بالليزر كتيبة من دبابات تي 72- وتطلب إنزال عاصفة من قنابل وحدات القنابل الموجهة -12 على تلك الدبابات. وإن قوة عمليات خاصة من الخيالة مختبئة في بيت مزارع تستطيع أن تبث إحداثيات بطارية مدفعية عراقية مخفية، وأن تشاهد بعد لحظات سداً من صواريخ نظام إطلاق الصواريخ المتعددة وهو يتفجر فوق العدو. وإن رقيباً في فرقة المشاة الثالثة في عربة برادلي كان يسيطر على قوة نيران أكبر من قوة نيران كتيبة مدرعة في عاصفة الصحراء. وإن المركبة الجوية من دون طيار بريديتر وهي تطير عميقاً

في مؤخرة العدو، كانت تستطيع أن تثبت نقاط تسديد بالنظام العالمي لتحديد المواقع من أجل توجيه ضربات بذخائر الهجوم الأرضي المباشر الدقيقة.

كانت هذه هي مضاعفات القوة التي جعلت من الممكن لهذه الحرب أن تكون حقاً حرباً مشتركة.

وكنْتُ أعرف أن أي كمية من الكلام ما كانت تستطيع أن تقنع النصائح الإستراتيجية غير المرغوبة بأن القوة التي سنحركها إلى داخل العراق كانت كافية لتحقيق المهمة. إن السرعة، والمرونة، والشجاعة، وقوة القوات المشتركة للمحاربين الشباب الذين يواجهون العدو في هذه الليلة ستكون هي كل المناقشة التي كنت بحاجة إليها.

بعد منتصف الليل، كتبت بطاقة تحديات وفرص اليوم التالي. كان التحدي الأول مرة أخرى ينص على: "تهديد أسلحة الدمار الشامل".

ومع وجود التشكيلات العراقية الكبيرة ثابتة في أماكنها على ما يبدو، ولم تقم برد فعل حتى الآن على هجومنا، فإن الفرصة الأولى تنص على: "استغل الميزة العملياتية".



الفصل الثاني عشر

حملة لا كفيرها من الحملات

المقر الأمامي للقيادة المركزية

21 آذار/مارس 2003، يوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية الكبيرة

الأسابيع الثلاثة الأولى من العملية كانت وقت تركيز شديد، وتقويم وقرار مستمرين، وإجهاد، وإعياء، وإحباط، ثم ابتهاج في نهاية الأمر. وكلنا عملنا بنوم قليل، وشربنا الكثير جداً من القهوة، وكنا نواصل عملنا بجرعات منتظمة من الأدرينالين.

وطول مسار عملية حرية العراق احتفظ فان موني بسجل تفصيلي أرخ فيه ودون كل واحد من مئات الاجتماعات التي حضرتها وآلاف المحادثات التي أجريتها مع الأركان، ومع قادة العناصر، ووزارة الدفاع، والبيت الأبيض. وصارت ملاحظاته جزءاً من التاريخ الضخم المصنف السري للقيادة المركزية، والتي تضمنت أيضاً مرور الرسائل التي عبرت من خلال القيادة الأمامية والمقر الرئيسي. وعندما كانت ذكرياتي تبدو غير واضحة أو غير مكتملة، كان هذا السجل المزامن الذي لا يقدر بثمن، يملأ الثغرات.

وفي بعض النواحي منها، فإن هذه الأيام الطويلة والمشغولة جداً ذكرتنا بالأسابيع التي تلت 9/11 مباشرة، عندما خططنا ونفذنا عملية الحرية الدائمة. ولكن المسؤوليات المعقدة لقيادة التحالف في عملية حرية العراق فاقت أي شيء سبق أن خبرته بوصفي ضابطاً عسكرياً.

بعد أن يتم زج القوة في الحرب فإن التحديات ونقاط اتخاذ القرارات لا تتوقف أبداً.

جلس جين رينيوارت إلى جانبي في غرفة الحرب. وكانت الساعة 2115 في 21 آذار/مارس. وكان جون أبي زيد في كرسيه في النهاية القصوى من الطاولة. وكانت سماعة الهاتف المأمون مفتوحة مع بز موسلي في مركز العمليات الجوية المشتركة. لقد بدأ يوم ايه، يوم العمليات الجوية الكبيرة، وهو ما دعت وسائل الإعلام "الصدمة والرعب".

وأظهرت، الصورة الجوية، على واحدة من شاشات البلازما، مئات من الأيقونات المتعددة الألوان تتدفق عبر الخريطة الرقمية نحو بغداد، وهي طيران القصف الجوي وصهاريجه المساندة، وأجهزة تشويش الحرب الإلكترونية، وقوات العمليات الخاصة للبحث والإنقاذ القتالي.

وقلت: "وقت العرض، يا بز."

ورد بز: "وسيكون عرضاً جيداً أيضاً، أيها الرئيس."

إن صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي المنطلقة من سفن السطح الأمريكية والبريطانية ومن الغواصات الموجودة في الخليج العربي، وصواريخ كروز المنطلقة تقليدياً من الجو والمطلقة من القاذفات بي-52 وهي تقترب من قواعد موجودة في بريطانيا العظمى وفي المحيط الهندي، ستكون هي أول ذخائر تضرب الأهداف الموجودة في مركز بغداد.

وكان لدى جين قائمة بنقاط التسديد الفردية في حاسوبه المحضون (اللاب توب)، والذي كان على الخط المباشر مع مركز العمليات الجوية المشتركة ومع خلية الاندماج لضابط ركن الاستخبارات.

وقال: "إنها تبدأ، يا جنرال، وهو يؤشر برأسه إلى الرموز الظاهرة على الشاشة.

واستخدمت مفتاح التلفاز من بعد لأغبر المحطات من سي ان ان إلى فوكس إلى الجزيرة.

ومع وميض الأيقونات على حاسوب جين، مسحت آلة تصوير سي ان ان منطقة المباني المجمع لقيادة النظام والقصور الرئاسية عند المنعطف الحاد لنهر دجلة مقابل فندق فلسطين.

وانشقت صورة سي ان ان عن كرات ضخمة من النار، وعصفات برتقالية دخانية نشرت موجات صادمة متوهجة وانعكست كأنها في مرآة على سطح النهر الأسود المنبسط. ومشت سلسلة من الانفجارات عبر المجمعات الحكومية مع تساقط صواريخ كروز لتضرب أهدافها.

وتنقلت عبر القنوات الفضائية، مستمعاً إلى التعليقات الهائجة للمراسلين.

"... لا يصدق. إن العصفات تهز جدران الفندق..."

"... نوع مختلف من الانفجار الآن... أكبر، وأعلى..."

"... الجزيرة تروي أن (كل بغداد تحترق)" أعلن ذلك مراسل بريطاني منقطع الأنفاس.

وروى جون أبي زيد، الذي كان يتكلم العربية قريباً من الطلاقة، وكان يشاهد تغطية الجزيرة: "إنهم يقولون إن السنة اللهب تلتهم كل العاصمة."

وأقسم جيم ويلكنسون بالقول: "...أهمهم"، وهذا تعليق قوي من شاب مسيحي طيب من شرق تكساس.

وهز جين رينيوارت رأسه، وقال وهو يشير إلى الشاشة: "ذلك هراء...، يا جنرال. الأضواء ما تزال مشتعلة. لقد أصبنا نقاط تسديدنا بالضبط. ذلك هو ما يحترق."

عندما كنا نراقب صواريخ كروز تضرب أهدافها بدقة لا تكاد تصدق، بقيت الشوارع العريضة والطرق في بغداد مضيئة بأضواء الشوارع ميلاً بعد ميل. وزارة الدفاع والمباني المختارة من مجمع قصر العباسيين اختفت في كرات من النار، ولكن النوافذ في مباني الشقق المجاورة بقيت مضاءة. وفي الشوارع على طول النهر، كانت

إشارات المرور تومض بالأخضر، والأصفر، والأحمر، مثلما كانت تومض في أي يوم آخر.

لقد قررت أن أترك شبكة الطاقة الكهربائية من دون المس بها بعد مناقشات مع الوزير رامسفيلد ومع الرئيس. وكان للقرار معنى، عملياتياً وإستراتيجياً. وكان الرئيس قد قال لي في شباط/فبراير: "إذا كان علينا أن نذهب إلى الحرب، يا تومي، فلسنا ذاهبين لتدمير العراق. نحن ذاهبون لتحرير البلد من نظام صدام حسين."

وهكذا ففي بناء مجموعات أهدافنا استبعدنا معامل الطاقة، ومحطات المحولات، والأبراج المعدنية وخطوط نقل الطاقة. وهذا سيسمح لبعض الوحدات العراقية العسكرية أن تعمل على نحو أكثر فاعلية، ولكن أهمية المحافظة على البنية التحتية رجحت في وزنها على أي ضرر تعبوي آني. إن كل مركز من الحرس الجمهوري أو مركز قيادة لمنظمة الأمن الخاصة، و"العقد الحيوية" في نظام الدفاع الجوي المتكامل، كان يملك مولداته الكهربائية الخاصة، وهكذا، فإن قصف شبكة الطاقة لن يؤثر على هذه الوحدات. ولكن قطع الطاقة عبر العراق سوف يكون له أثر على أكثر من مائة مستشفى، وخصوصاً في الشمال الكردي والجنوب الشيعي، حيث كان النظام بخيلاً في الإمداد بمولدات المساندة للمؤسسات غير العسكرية.

أحد نتائج هذا القرار كان هو المنظر الذي رأيناه هذه الليلة على شاشات التلفزة: مشهد أضواء المرور تومض وأضواء الشوارع تلمع على طريق عريض، فارغ، عندما انهار مبنى مقر الحرس الجمهوري المكون من طوابق متعددة ليتحول إلى كوم الحطام الذي يتصاعد منه الدخان.

وقال رينيوارت: "مقر القيادة الدولية لحزب البعث... على وشك... الآن." وانفجر مبنى متعدد الطوابق من الزجاج والإسمنت المسلح يقع على الضفة الغربية وانهار تحت وطأة أربعة انفجارات متتابة.

... والقصر الرئاسي الجديد." وموجة متسلسلة أخرى من كرات النار التي انعكس توهجها في نهر دجلة. وارتجل مراسل تلفزيوني بشكل مؤثر: "هذا صدمة. وإن مجرد القوة في هذا القصف مرعب."

ومرة أخرى كانت السماء فوق بغداد شبكة من الطلقات الخطاطة اللامعة الحلقية المضادة للطيران والذيل الدخاني من حين لآخر لصاروخ اس ايه-2 او اس ايه-6.

قد تكون صواريخ السطح الجو هذه جعلت قادة النظام يشعرون بالارتياح، ولكنها لا تشكل غير تهديد ضئيل لطيراننا القاصف الذي يقوم بالقصف متلاحقاً فوق بغداد من جهاتها الأربع. كان العراقيون يطلقون صواريخهم سام غير موجهة، "قذفيًا" لأنهم إذا فعلوا واحداً من راداراتهم لتوجيه النيران، فإن الانفاثات من نوع وايلد ويزل (ابن عرس البري) التي كانت تدور حول منطقة اشتباك الصواريخ الخاصة بالمدينة سوف تطلق صواريخ هارم فوق الصوتية التي تستقر في الموقع وتدمره مع من فيه من سدنته.

بعد ست وأربعين دقيقة من هجمات صواريخ كروز التي رأت أكثر من 300 صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي وصواريخ كروز المنطلقة تقليدياً من الجو وهي تضرب بغداد والأهداف الموجودة في الضواحي المحيطة، وصلت فوقها الموجهة الأولى من الطيران. وقاد القصف طائرات اف-117 المنطلقة من قاعدة العديد وقاذفات ستيلث ب-2 التي كانت قد طارت من قاعدة وايتمان للقوات الجوية في ميسوري. وكان الطيران غير مرئي من الرادار، ولذلك عمل مباشرة فوق الطلقات الخطاطة المنطلقة من المضادات العراقية للطيران، وذلك قبل مدة طويلة من ارتفاع القمر المتضائل فوق جبال إيران الواقعة إلى الشرق.

انفجر المزيد من منشآت النظام الواقعة على طول نهر دجلة الملتوي عندما وجدت ذخائر الهجوم المباشر المشتركة المنطلقة من طائرات ستيلث أهدافها. وقال جين: "وهناك انفجر مقر المخابرات، لقد فقدت إدارة الاستخبارات الآن قيادتها وسيطرتها."

شاهدت الصورة الجوية عندما قامت رزم مساندة للإخماد الجوي من طائرات اف-15 بإخلاء منطقة الاشتباك الصاروخي في بغداد. كانت تتسحب مؤقتاً، تاركة السماء لطائرات اف-117 وبّي-2. ولم تكن هذه الطائرات تبث ولا حتى بيانات تعريف مرمّزة. ولذلك فنحن لم نكن نملك أي طريقة لنقل تقدمها على الخريطة غير تغطية التلفزة للانفجارات على الأهداف المختارة بدقة، أي، مراكز قيادة الطوارئ للاستخبارات العسكرية العراقية، والفلل الفاخرة لكبار القادة البعثيين، ولوحة شطرنجية من محطات الاتصالات التي يعتمد عليها الدفاع الجوي العراقي لتكامل نيرانه. وبعد هذه الليلة، سيكون نظام الدفاع الجوي المتكامل العراقي قد انخفض إلى بضعة مدافع مضادة للطيران تطلق نيرانها من خلال "مسددة معدنية". وحرك جين إلى الأسفل عدة صفحات من محتويات شاشة الحاسوب ودقق في الساعة الرقمية الموجودة على جدار غرفة الحرب وقال: "أهداف خاصة تقترب، يا جنرال".

ومن دون أن تكون معروفة لا للعراقيين ولا لمراسلي التلفزة الدوليين في شرفات فندقهم، فإن طائراتنا من نوع ستيلث كانت تلقي قنابل موجهة بالنظام العالمي لتحديد المواقع على نقاط أهداف معينة "عالية القيمة". والعديد من هذه القنابل كان مجهزةً بصمامة لينفجر بعد بضعة أجزاء من ألف من الثانية من اختراقه هيكل المبنى لتخفيض ضرر العصف على المباني المدنية المحيطة. وكان التوجيه لهذه الذخائر دقيقاً إلى درجة أن مثل هذه القنبلة، التي تسقط من ارتفاع ستة وعشرين ألف قدم، لها "خطأ دائري محتمل" يصل إلى أقل من مترين، أي حوالي ستة أقدام. كانت أهداف هذه القنابل هي مكاتب وبيوت كبار قادة البعث وضباط منظمة الأمن الخاصة والحرس الجمهوري الخاص. فقد كانت اعتراضات الاتصالات ومعلومات مصادر استخباراتنا البشرية الضعيفة قد أشارت إلى أن هؤلاء القادة كان يحتمل أن ينتظروا الهجمات الجوية الكثيفة للتحالف في بيوتهم، التي كانت منتشرة بشكل واسع في كل حي المنصور الغني. ولم يكن مستيقناً إن كانت هذه المعلومات

الاستخباراتية صحيحة. ولكن تدمير هذه الأهداف بأسلحة تسقط من سماء الليل السوداء سيجعل هؤلاء القادة الرئيسيين عصبين، وكلما صاروا أكثر عصبية، صاروا أقل فاعلية في السيطرة على القوات العسكرية العراقية.

لقد عمل رجالنا الجويون كل شيء ممكن للحد من إصابات المدنيين. وفي العديد من الحالات، قصفنا مباني النظام والمباني العسكرية في الليل عندما كنا نعرف أن المباني لم تكن مشغولة. وفي بعض المناسبات أسقطنا مناشير فعلاً نحذر الناس فيها ليتجنبوا مباني معينة. وكان لهذا فائدة مضاعفة: إنها خفضت الإصابات بشكل كبير، بينما في الوقت نفسه مزقت المحاولة الأولى للنظام لاتخاذ موقف "العمل كالمعتاد" نحو عملياتنا الجوية. فاستخدام التهديد الدقيق وأساليب القصف الحذرة للغاية، مقرونة مع "التسليح" المحافظ إلى أكبر حد، أي، اختيار الذخيرة، سمح لنا باستئصال جهاز القيادة والسيطرة التي كانت للنظام من دون التسبب بإصابات غير ضرورية للمدنيين. ومرة أخرى، فإن عنصر الخوف المنتشر بين هؤلاء من السفاحين البعثيين الذين كانوا مسؤولين عن مجازر العديدين جداً من آلاف الناس الأبرياء، سوف يكون على درجة الأهمية نفسها تماماً مثل الأهداف الفعلية التي دمرناها.

وتغيرت الصورة الجوية مرة أخرى. كانت الأيقونات الآن تتدفق نحو سلسلتي جبال وواد شديد الانحدار في العراق البعيد في الشمال الشرقي، على الحدود مع إيران تماماً. كانت هذه هي معسكرات أنصار الإسلام الإرهابيين، وفيها كان قائد القاعدة أبو مصعب الزرقاوي قد درب أتباعه على استخدام الأسلحة الكيماوية والحيوية. ولكن هذه الضربة كانت أكثر من مجرد تحطيم آخر تحدثه صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. فبعدها مباشرة ستقوم قوات خاصة ورجال وحدات المهام الخاصة، وهم يقودون مقاتلي البشمركة الأكراد بالانقضاض على المعسكرات وجمع الأدلة، وأخذ أسرى، وقتل كل الذين يقاومون.

كنت قد أخبرت دون رامسفيلد، في أثناء عملية الحرية الدائمة، بأنني لم أكن

أنوي أن أمضي الكثير من الوقت أمام التلفزة: أعرض انتصارات التحالف وأروي صور فيديو للقنابل الذكية. وهذا الأمر كان مضاعفاً بالنسبة إلى عملية حرية العراق. وكانت الأيام الأولى من العملية ستقدم فرصاً غير مسبقة للتفاخر بترسانة التحالف من التقانة العالية. ولكنني كنت أعرف العالم العربي الإسلامي معرفة كافية جداً الآن لأدرك أن مثل هذا الموقف المتعالي سوف ينظر إليه، من وسائل الإعلام العربية ومن الشارع العربي، على أنه تتمرّ على المنطقة كلها.

واعتقدت كذلك أن المرحلة الرابعة، وهي مرحلة إعادة الإعمار، ستدوم لأشهر إن لم تكن لسنوات أطول من الزمن الذي استغرقه تدمير تشكيلات كبيرة، متماسكة للعدو. كنت أود أن أكون مستجيباً لوسائل الإعلام، ولكنني كنت أنوي أن أنظم خطواتي للمسافة الطويلة.

وقد استسلمت فعلاً للي الذراع الموجه لي من جيم ويلكنسون في 22 آذار/مارس، عندما وافقت على أن أتحدث إلى ألف ومائة مراسل اجتمعوا في مركز الصحافة في معسكر السيلية.

وعندما خطوت إلى المسرح المستقبلي للإيجاز، كان يرافقني عدد من زملائي الضباط من التحالف، من البريطانيين، والأستراليين، والقوة العسكرية الأوروبية. وافتتحت الكلام بملاحظة القول إن صلواتنا "تذهب إلى عائلات أولئك الذين قاموا حتى الآن بتقديم التضحية القصوى".

وبعد إعادة بيان غايات التحالف في عملية حرية العراق، وهي إنهاء دكتاتورية صدام حسين ونزع سلاح نظامه القاسي، وصفت طبيعة القتال.

وقلت: "إن هذه الحملة ستكون حملة لا كغيرها من أي حملات أخرى في التاريخ. إنها حملة تتميز بالصدمة، وبالمفاجأة، وبالمرونة، وباستخدام الذخائر الدقيقة وفق معدل لم يسبق أن شوهد من قبل. وباستخدام القوة الكاسحة..."

"وتُقدّم خطتنا هذه القوات عبر عرض العراق وعمقه، وفي بعض الحالات بشكل متزامن وفي بعض الحالات بشكل متتابع".

شرحت تتابع عمليات القتال، بدءاً من يوم ي، يوم بدء القتال، إلى يوم جي، يوم بدء المرحلة الأرضية، إلى اليوم إيه، يوم بدء العمليات الجوية الكبيرة، وأضفت أننا سوف نتابع ضرب الأهداف التي تظهر في الوقت الذي نصل فيه وصلاً قريباً العمليات الأرضية بالعمليات الجوية.

وفي أثناء فترة السؤال والجواب التي تلت، سألتني مراسل من محطة راديو واشنطن دي. سي: "ما هي أكبر مفاجأة" واجهتها حتى الآن.

وقلت: "فعلاً، عندما استيقظت هذا الصباح ونظرت إلى حاسوبى وأدركت أن زوجتي قد أرسلت لي بطاقة "ذكرى سعيدة" ... نسيت أن أرسل لها بطاقة."

استقبلت تلك المفاجأة بالضحك حتى من ممثلي الجزيرة العباسيين، الذين كانوا يجلسون في مجموعة مع زملائهم العرب. طبعاً، كنت فعلاً قد رتبت تقديم الورد إلى كاثي في بيتنا في تامبا. ولكنني كنت تعلمت مع السنين أن من المفيد أحياناً أن تعمل من خلف واجهة تنتقد فيها ذاتك.

"هل تستطيع أن تعطيني منظراً أثبت لتلك الصورة؟" كان هذا جيف كيمونز يطلب من مشغل بريدتر القوات الجوية في مركز العمليات الجوية المشتركة في المملكة العربية السعودية.

كانت الساعة تشير إلى 0710 من يوم الأحد، 23 آذار/مارس.

وكنا، جون أبي زيد والعديد من مديري الأركان وأنا، نشاهد صور فيديو مرسله من مركبة جوية من دون طيار تطير على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق السماوة، وهي مدينة على نهر الفرات تقع على بعد ما يقارب مائة كيلو متر غرب مدينة الناصرية.

وقال جيف كيمونز: "هذا أمر شاذ جداً، يا جنرال."

وأضاف جين: "يبدو أن طائرة عمودية بلاك هوك سقطت."

وأظهرت التغذية الراجعة من البريديتر خمس شاحنات صغيرة مغبرة بيضاء

تويوتا، وعلى ظهر كل واحدة منها رشاش ثقيل، وهي مزدحمة برجال بملابسهم المدنية مسلحين ببنادق كلاشينكوف وبقاذفات آر بي جي، وهي تسرع متجهة جنوباً من خلال دروب محفرة نحو الطريق العام الذي يتحلق حول الضواحي الجنوبية من السماوة. وقفزت دراجة نارية لها عربة جانبية تحمل ما ظهر وكأنه بندقية عديمة الارتداد عيار 75 ملم، خارجة من مجمع مبان مسور بجدار والتحقت بالقوة المهاجمة. أمامهم على الطريق العام، كان هناك رتل من دبابات أبرامز وبرادلي من الزمرة الأولى من القتال من مستوى لواء من فرقة المشاة الثالثة، وكان يتحرك بثبات غرباً، وكل عربة مجنزرة تسير على مسافة فاصلة مناسبة لتعطي رماة المدافع أقصى قوس لنيران حماية الجانبين. كم مرة سافرت أنا في مجنزرة ارتباط للمدفعية في قوافل مشابهة، ورايتي، راية كرات من أجل الملكة، معلقة ترفرف في النسيمات البليلة؟

وتابعت الشاحنات الصغيرة مسيرها تشق طريقها عبر الدروب، مقترية من رتلنا المدرع.

وكان سكوت والاس، قائد الفيلق الخامس، يعمل على الاستيلاء على جسور الطرق العامة الحيوية على نهر الفرات، وهي كلها كانت تقريباً قرب المدن، ويحاول في الوقت نفسه عزل وتخطي المناطق الحضرية في السباق نحو الشمال الغربي إلى بغداد. ولكن ثبت، على كل حال، أن هذا كان صعباً في السماوة وفي الناصرية.

وفي كلتا هاتين المدينتين الصغيرتين، كانت قوات التحالف في دبابات، وناقلات جند مدرعة، وطائرات عمودية مسلحة، قد سحقت المقاومة الأولية التي أبدتها وحدات الجيش النظامي. بعض الجنود العراقيين قاتلوا، وآخرون استسلموا، وعديدون هربوا. أما الآن فإن عدواً مختلفاً قد ظهر من دخان أرض المعركة، إنه عدو لم نكن قد توقعنا أن يقاتلنا على هذا البعد في الجنوب.

بين عشية وضحاها، قامت إدارة جيف ضابط ركن الاستخبارات بتحليل سريع ولكنه كامل لهذا التهديد، الذي كان قد ظهر في اليوم الفائت في الناصرية وفي

طرق الاقتراب إلى البصرة. وقد لخص عمل ورشة الاستخبارات ما كنا قد تعلمناه عن القوات غير النظامية التي كانت تعمل في وطن الشيعة من الجنوب. وكانوا يعرفون في مجموعتهم باسم الفدائيين، وهؤلاء المقاتلون غير التقليديين اشتملوا على فدائيي صدام، "شهداء صدام"، وهم مجموعة سيئة التدريب ولكنها من الموالين المتعصبين للنظام، وفدائيي القدس، وهم ميليشيا البعث المحلية يقودها قادة الحزب وأعضاء ميليشيا حزب البعث القومي، وعلى متطوعين يعرفون باسم "أسود صدام" وهم مجموعة من أبناء السنة في عمر الثمانية عشر عاماً أو أقل كانوا قد تلقوا تدريباً عسكرياً أساسياً.

وسألت: "ما هو إجمالي قوتهم، يا جيف؟"

فقال: "حسنًا، يا جنرال، مثلما تقول أنت في الغالب (ذلك سؤال ممتاز. وأنا أتمنى لو كنت أملك له جواباً ممتازاً.) نحن نعمل في الأرقام."

وناولنا نسخاً من آخر التقديرات. وفي تخطيطنا العملياتي الأخير، توقعنا أنه قد يكون هنا ما يناهز أربعين ألفاً من هؤلاء المجندين غير النظاميين من نوع الفدائيين ليقاتلوا حرباً في المناطق الحضرية في بغداد. ولكن لم يسبق لي عند أي نقطة أن فكرت في أن هذه القوات كانت ستنتقل إلى الجنوب لتقاتل قتال عصابات.

إن فقداننا للاستخبارات البشرية الموثوقة هو الذي أعطانا هذه المفاجأة الكريهة: فنحن لم نتلق أي إنذار عن أن صدام كان قد أرسل هذه القوات شبه العسكرية من بغداد. وكان محللونا قد رأوا صوراً استطلاعية لشاحنات صغيرة وأحواض التحميل فيها مغطاة بنسيج الكتان، ولحافلات مدنية محملة بركاب ينتقلون جنوباً، ولكن هذا لم يثر أي اهتمام. وأخذ هذا المرور بوصفه تجارة عادية.

وأول إشارات حصلنا عليها عن وجود المقاتلين غير النظاميين في هذه المدن الجنوبية جاءت من رجال وحدات المهام الخاصة الذين أدخلناهم إلى داخل المدن، ابتداءً من يوم ي، يوم بدء العملية.

وفي المساء السابق كشفت مجموعة من المجندين الشيعة المستسلمين أن أسلحة الفدائيين المفضلة كانت الشاحنات الصغيرة المسلحة، مثل الشاحنات المندفعة بسرعة نحو قافلتنا الآن مباشرة. وهم سموها "الفنية" واستخدموا بذلك الكلمة الإنجليزية التي سبق أن استخدمها أمراء الحرب الصوماليون في مطالع التسعينيات من 1990 لوصف شاحنات الرشاشات المرتجلة التي سيطرت على شوارع مقديشو.

وعلى كل حال، كان هناك فرق كبير بين النزاع في الصومال وبين عملية حرية العراق. كان الفنيون يستطيعون إيذاء قافلة من عربات همفي والشاحنات غير المدرعة "رقيقة الهيكل". ولكن الشاحنة الصغيرة المفتوحة التي تركب عليها رشاشاً من عيار 7.12 ملم تكون فعالة تقريباً مثل فعالية دبابة الخيل التي تعض الفرس عندما تهاجم دبابة ام-1 أو عربة برادلي.

وقال جيف: "نحن الآن نقدر وجود ألفين إلى أربعة آلاف من الفدائيين في الناصرية والسماعة. وتزداد أعدادهم كلما اتجهت شمالاً. وهناك على ما يحتمل ما يصل إلى أربعين ألفاً من هؤلاء المقاتلين شبه العسكريين في المدن الواقعة على طول الطريق العام رقم 8، ومن جملتها النجف."

وقلت وأنا أتفرس في تقرير جيف: "ابن الك.... العدو يحصل فعلاً على صوت."

وقال جين: "إن سكوت والاس يؤكد أن غير النظاميين غير فاعلين ضد الدروع، سيدي. ولكنهم سوف يشكلون مشكلة لشاحنات القوافل على طول خطوط مواصلاتنا."

وكان ديفيد ماككيرنان وسكوت والاس قد احتاطا من أجل أمن الطريق، وذلك باستخدام المشاة الخفيفة من الفرقة 82 المنقولة جواً لحماية شاحناتنا. ولكن ذلك سيستغرق وقتاً للحصول على أولئك الجند في المكان المطلوب.

شاهدنا عرض طائرة البريديتر عندما كانت الشاحنات الصغيرة تقترب من الشارع العام رقم 8 عند طرف المدينة. وقال جين: "من المؤكد أن هؤلاء الرجال سيحصلون على مفاجأة، يا جنرال."

وعندما انفصلت أول شاحنات فنية عن البيوت الطينية متحررة منها ومواجهة الطريق العام، أدارت دبابات أبرامز وبرادلي أبراجها لتستهدف الشاحنات. ولم نستطع أن نسمع عصف نيران المدافع، ولكننا رأينا أول شاحنة صغيرة تترنج وتهتز تحت وطأة طلقات رشاش عيار 0.50. وكان المقاتلون الموتى ملقون على جانبي الشاحنة، ولكن الرجل الموجود على رشاش الشاحنة الفنية استمر في إطلاق النار. وقام واحد ممن بقوا أحياء بجانبه في حوض التحميل من الشاحنة بإطلاق ارببي جي، ولكن العصف الخلفي المنطلق من أنبوب الصاروخ أشعل النار برجل مجروح سقط إلى القرب من الباب الخلفي. والرأس الحربي من ارببي جي لم يطر بعيداً بما فيه الكفاية ليسلح نفسه قبل أن ينط من دون إحداث أي أذى عن الدرع السميك لإحدى دباباتنا من نوع أبرامز.

وعندما فتحت برادلي النار من مدفعها السلسلة من عيار 25 ملم، اختفت الشاحنة الفنية هي ومن فيها من السدنة في غيمة من القطع المدخنة.

ومع ذلك كان العدو يهاجم. ففي منتصف الطريق من طول الرتل، حاولت شاحنة فنية أخرى ونجحت في الاصطدام ببرادلي. وتسلق خمسة مقاتلين أعداء على هيكل برادلي وأطلقوا النار من بنادق الاقتحام التي معهم على كتل المراقبة الزجاجية المدرعة الموجودة في فتحات مغلقة بأزرار. وقام الخيال القائد لبرادلي بإدارة برجه فأوقع اثنين من الأعداء بسبطانة مدفع السلسلة. وبعدئذ استدارت برادلي بشدة لليمين، وقامت الدبابة التي تمشي خلفها باكتساح الهيكل بطلقات من عيار 7.62 ملم أطلقتها من رشاشها الخارجي الذي يعمل من بعد، رشاشها "متحد المحور".

وعلى الرغم من المجزرة الأحادية الجانب استمرت الشاحنات الفنية بالمجيء، والإسراع نحو الرتل المدرع عبر الطين الجاف على جانبي الطريق. وتم تدمير اثنتين من الشاحنات الثلاث الصغيرة المتبقية قبل أن تصلا إلى الطريق العام. وآخر شاحنة اصطدمت مع دبابة أبرامز، وقفز الفدائيون الذين بقوا أحياء على الدبابة. ولكن مرة أخرى قتلت العربات المدرعة الأخرى الأعداء بنيران الرشاشات. وسقطت جثث الفدائيين على الطريق، وفي المسار على طول خط تقدم الدروع.

لقد انتهى الكمين في أقل من عشر دقائق. والدبابات وعربات برادلي من الزمرة الأولى، زمرة القتال من مستوى لواء، قلما غيرت خطواتها الواسعة.

طوال الساعات الأربع والعشرين الشديدة التالية، تتبع اختصاصيو جيف كيمونز بالاستطلاع وفريق عمليات جين رينيوارت تحركات الفدائيين، واستخدموا التصوير الفوقى من مركبات جوية من دون طيار ومن طيران مأهول. وكانت قواتنا الأرضية والطائرات العمودية الهجومية تشتبك مع غير النظاميين وتصددهم عائدين إلى المدن.

وفي الحال ظهر لنا نمط: سيقوم الفدائيون بمهاجمة قوافلنا، ثم يقوم من بقي حياً من الأعداء بالتجمع في المدن داخل مجتمعات مسورة بالجدران، وهي عادة تحيط بمبان حديثة من طابقين. وكشفت صور الأقمار التي أخذت للبصرة، وللسماء، وللناصرية أن هذه المجتمعات كانت إما مقرات لحزب البعث المحلي أو مكاتب مصلحة الاستخبارات، أي، المخابرات.

أحضر لي جين وجيف الصور وتقارير المحللين في خلية الدمج. وقال جيف كيمونز وهو يدرس صورة استطلاع للسماء: "إنهم يجتمعون في هذه المواقع."

وقال جين: "في كل مرة، سيدي"

وقلت: "اتصل مع بز موسلي. ومرر إلى جماعته إحداثيات هذه الأهداف حسب النظام العالمي لتحديد المواقع. ذخيرة دقيقة التوجيه فقط. واضربوهم عندما تكون تجمعاتهم أكثر ما تكون."

وقام رجال الجو، رجال بز موسلي بقتل الفدائيين فعلا، نهاراً وليلاً. ولم يتعلم العدو أبداً. وفي الأيام التالية، عندما كانت الفرقة البريطانية المدرعة الأولى، وأفواج قوة حملة مشاة البحرية الأولى، وألوية الفرقة المدرعة الثالثة تدخل مدينة بعد مدينة كانوا سيجدون مكاتب حزب البعث ومكاتب المخابرات وقد تحولت إلى أكوام من الإسمنت المسلح، مختلطة مع هياكل السيارات الفنية المحترقة.

ولكن الفدائيين استمروا في القتال بشراسة، يهاجمون وهم يخرجون من ملاجئ المدن على طول الأنهار، ويطلقون النار بضراوة على أرتالنا المدرعة. وكان العسكر ومشاة البحرية يحصدونهم بالمدافع، والرشاشات، والبنادق، وحتى بالمسدسات. وقامت، في الغالب، الطائرات العمودية المسلحة، بتدمير السيارات الفنية قبل أن تصل إلى قوات التحالف المتحركة على مسالك التقدم.

وصارت أساليب العدو التعبوية أكثر بعداً حتى عن المألوف وأكثر وحشية. بعضهم كان يتقدم وهو يرفع الأعلام البيضاء، وكأنهم كانوا جنوداً عراقيين نظاميين يستسلمون. وعندما يصلون إلى القرب من قوات التحالف، كانت الأعلام البيضاء تسقط ويفتح هؤلاء المقاتلون شبه العسكريين النار. وفشلت هجماتهم، وبقيت جثث قتلى العدو ملقاة مبعثرة على طول الطرق.

ولجأ الفدائيون أيضاً إلى حشد النساء والأطفال أمام شاحناتهم الفنية المتقدمة ليكونوا دروعاً بشرية. وعلى الرغم من أن قواتنا كانت قريبة من الإنهاك من الأيام الطويلة من القتال، فقد بذلوا كل جهد ممكن لاختيار أهدافهم بأدق شكل ممكن، وذلك باستخدام المناظير الحرارية للتسديد على التوقيع الأكثر حرارة وهو توقيع الشاحنات الفنية. ومع ذلك، فبعض هؤلاء المدنيين قتلوا وجرحوا ووقعوا ضحايا بشكل قاس على أيدي أبناء بلدهم.

واستغرقت قوات التحالف الأرضية والجوية عدة أيام لتتكيف مع كل الأساليب التعبوية للفدائيين. ولكننا تكيفنا معها فعلاً.

وعلى نحو متباطئ، انخفضت شدة الهجمات. وعندما كانت في انخفاض، كنت أفكر في تعصب هؤلاء المقاتلين، وفقدانهم للقيادة الفعالة. فعلى الرغم من الإصابات التي تسببوا بها بين قواتنا والدروع البشرية، والانقطاع المؤقت في مسالك إمدادنا، فقد أدركت أن الاشتباك مع هذا العدو المتعصب وقتله على طول الطرق العامة الجنوبية كان أفضل لنا من مقاتلة أربعين ألفاً منهم في شوارع بغداد.

وحرصنا أساليبنا التعبوية لطريقة معالجتنا للفدائيين باعتبارها سرّاً عملياتياً. ولم يقيم جيم ويلكنسون وفينس بروكس بتقديم أي إيجاز للصحافة.

وأما المراسلون الملحقون الثابتون في الوحدات الذين يغطون الحرب فهم لم يكونوا يمتلكون متتبع القوة الزرقاء ليساعدهم على فهم النجاح العريض لجندنا واستيعابه. ولم يكونوا قادرين على مشاهدة التقدم المستمر للتحالف، مع وجود وحدات تسرع قدماً إلى أهدافها وتعبّر خطوط المراحل قبل أيام من جدول خطتها.

واشكى جيم ويلكنسون في أحد الأيام وقال: "بالمسيح، يا جنرال، إن الجمهور سيظن أننا لا حول لنا في مواجهة هجمات هؤلاء الفدائيين. ألا نستطيع أن نعرض للجمهور بعض صور الفيديو لذخائر الهجوم المباشر المشتركة وهي تدمر مقرات البعث في مدينتين من هذه المدن."

وأجبتّه: "نحن نستطيع أن نفعل ذلك، يا جيم. ولكننا لن نفعل." وبدا جيم وكأنه الطفل الذي لم يحصل على الدراجة الجديدة التي كان قد وعد بها في عيد الميلاد. ربما كان جيم ويلكنسون هو أفضل مدير علاقات عامة سبق لي أن رأيته. فهو خبير في إبقاء وسائل الإعلام مطلعة من دون تعريض الأمن العملياتي للخطر. وكنت أعرف إلى أي حد قد بدأ عمله يصير محبطاً؛ فنحن كنا نكسب الحرب، ولكنه لا يكاد يستطيع أن يقول أي شيء عن ذلك.

وتابعت الكلام معه: "سأقول لك لماذا يكون ذلك فكرة سيئة. فأولاً، نحن لا نريد أن نكشف مصادر أساليبنا التعبوية." وهنا أوماً جيم برأسه إشارة إلى قبوله لهذا المنطق.

ثم قلت: "وثانياً، فأنت وفينس عرضتما، في هذين اليومين الأولين، بعض صور الفيديو للذخائر دقيقة التوجيه وهي تضرب نقاط التسديد، وكان ذلك هو العمل الصحيح الذي فعله. ولكن تلفزيون الجزيرة وتلفزيون العربية سوف يأكلاننا أحياء في الشارع العربي إذا فعلنا ذلك في كل يوم، وإذا غدينا وسائل الإعلام بوجبة منتظمة من وحدات القنابل الموجهة وذخائر الهجوم الأرضي المشتركة وهي تتسف الدبابات وتقتل العراقيين. العدو يعرف أننا نرفضه في دبره. وفي خلال أسبوع أو ما يقاربه، سيعرف العالم كله ذلك."

كان جيم ويلكنسون يحاول بصعوبة أن يكون صبوراً وقال: "فهمتها، يا جنرال." بعد أن خطفت طاساً من الحساء مع الفلفل باللحم على طاولتي، كنت قد بدأت من فوري إيجاز القائد من أجل المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو المبرمج بعد الغداء مع الوزير رامسفيلد عندما رن هاتف المفتاح الأحمر. كان المتكلم ديفيد ماككيرنان.

وسألته: "ما الأخبار، يا أخي؟"

وقال: "لدي موقف تعبوي للتبليغ عنه، سيدي"

"استمر."

وتابع: "يا جنرال، لدينا عدة جنود قتلى في المعركة وعلى الأقل اثنا عشر مفقوداً في المعركة من وحدة مساندة الفيلق الخامس التي وقعت في الكمين هذا الصباح في الناصرية."

قتلى في المعركة، ومفقودون في المعركة. أخبار سيئة.

حدقت في الخريطة.

الناصرية، منذ أن وصلها مشاة البحرية في اليوم ي + 3، اليوم الثالث بعد بدء الأعمال الحربية، فإنهم قد وقعوا في مفرمة لحمة من كمائن الفدائيين عندما حاولت زمرة القتال من مستوى لواء أن تقوي رؤوس جسورها. ودققت في متبع القوة الزرقاء، وماذا كانت وحدة الجيش تعمل هناك؟

وقلت: "فهمت، يا ديفيد. وما هي التفاصيل؟"

قال: "ما تزال غير مكتملة، سيدي. وها هو الذي تأكدنا منه. كانت هذه الوحدة 507، وهي سرية صيانة لكتيبة باتريوت تسير قافلة شاحنات على طول طريق الإمداد الرئيسي. في وقت ما حوالي الساعة 0700، أخطأت السيارة همفي القائدة موقعاً ثابتاً محدداً بالنظام العالمي لتحديد الموقع. وبذلك فإن الشاحنات وعربات الهمفي انسأقت خلفها مباشرة إلى داخل الناصرية. ووقعوا في كمين داخل المدينة." "ما مدى السوء، يا ديفيد؟"

"لقد قام مشاة البحرية الموجودون على أحد الجسور بإنقاذ بعض من بقي حياً. وهؤلاء الخيالة قالوا إنهم فقدوا معظم عناصرهم، قتلى في المعركة أو مأسورين. ونحن نقدر على الأقل أن عشرة قتلوا في المعركة، وأن اثني عشر فقدوا في المعركة. والذين بقوا على قيد الحياة يصفون القوات التي واجهتهم بأنها قوات مختلطة من الفدائيين ومن بعض النظاميين. بل إنهم وقعوا على دبابة مختبئة في ما ظهر لهم وكأنه ساحة مدرسة.

وهزرت رأسي. تقرير آخر حتى الآن عن وضع العراقيين للأسلحة في المدارس والمساجد.

وقلت: "شكراً يا ديفيد. اطلبني عندما يكون لديك المزيد من التفاصيل."

وقلت لفان موني: اطلب لي ديل ديلي والوكالة. عندنا بعض الأبناء مأسورون في الناصرية، وإنقاذ الرهائن هو مهمة الخطة العملياتية للخدمة المشتركة ولوكالة الاستخبارات المركزية.

جواسيس الوكالة في جنوب العراق كانوا مصدراً ضئيلاً، ولكننا كنا نمتلك العديد من الزمر من قوات العمليات الخاصة وضباط القوة الأرضية للوكالة في المنطقة. وقلت: "انشر الخبر. نحن نريد أولئك الخيالة أن يرجعوا بأسرع وقت ممكن." كان هذا تحولاً سيئاً للحوادث، وكنت أعرف أن وسائل الإعلام ستهاجم

بشدة. وقلت لجيم ويلكنسون: "تريث هنا. سيكون علينا أن نحضّر بعض النقاط للحديث مع وسائل الإعلام."

لم يكن لدي أي فكرة عن مدى السرعة أو مدى السلبية التي ستغطي فيها وسائل الإعلام الكمين وكيف ستكون نتيجة ذلك.

وعندما جاء جيم ويلكنسون إلى مكتبي بعد ذلك في ذاك الأصيل، بدا لي وكأن ابتسامته قد اختفت إلى الأبد. وقال: "لقد بثت الجزيرة قبل قليل شريطاً مصوراً لجنودنا من الكمين. سيدي." وضغط جيم بضعة أزرار من مفتاح تلفزيوني من بعد، وانفتحت إحدى الشاشات على دارة مركز الصحافة الداخلي.

وفركت عيني وانحنيت إلى الأمام لأشاهد.

وقال جيم: "ليس حسناً، يا جنرال."

كان ذلك القول تلطيفاً. فشريط الصور غير الواضح أظهر صفّاً من الجنود الموتى في بزاتهم العسكرية الصحراوية المموهة الملطخة بالدم، وهم ملقون على الأرضية الإسمنتية لغرفة ليس فيها ما يميزها، ودارت آلة التصوير عبر وجوههم. وبدوا شباباً. والعديدون منهم أصيبوا بجروح بليغة في الجذع أو الأطراف، وهو ما ظهر أنه نتيجة لنيران بندقية قريبة المدى أو لشظية. وكان واضحاً أن اثنين منهم قد أطلقت عليهما النار في الرأس.

وتمتت: "تباً." إن شبكات الأخبار في الولايات المتحدة سوف تعرض هذا الشريط، وبعض عائلات هؤلاء الجنود سيرون أبناءهم موتى قبل أن يكون لدى الجيش وقت لإشعار هذه العائلات بذلك.

وقفزت الصورة إلى غرفة أخرى ذات جدران بيضاء مغبرة. ورأيت ركن طاولة. ربما كان مكتباً عسكرياً أو لمليشيا بعثية. ستة جنود، وكانت من بينهم شابة سوداء عرفت نفسها باسم "شوشانا"، جلست وهي مستندة إلى الجدار. عديدون من الجنود نطقوا باسمهم الأول فقط، عندما كان المراسل العربي يقذف الميكروفون في وجوههم. واحد منهم أعطى اسمه الكامل، بيتر سي. ميللر، وذكر أنه من كانساس.

وفكرت، إنه شاب ماهر. فإن عائلته على الأقل سوف تعرف أنه كان حياً. وإعطاء اسمه للمراسل قد يعطيه بعض إجراء الحماية، ففي تلك النقطة، على الأقل، كان يمكن البرهنة أنه كان ما يزال حياً ومعافى.

حالما انتهيت مع جيم كنت سأتصل مع ديك مايرز وأتحدث مع الوزير. وباستثناء التخطيط لعملية إنقاذ مع ديل ديلي، فلن يكون لدي الكثير الذي أبلغ عنه. بعض جند الصيانة المتعبين، وهم في القتال لأول مرة، سلكوا منعطفاً خطأ ودخلوا في عش دبابير الفدائيين.

وقلت: "شكراً يا جيم."

الاتصال مع رامسفيلد كان قصيراً ومباشراً، ومن دون أي اتهام مضاد. وأبلغته: "إننا نقوم الآن بتطوير خطة عملية الخدمة المشتركة، سيدي الوزير. فإذا استطعنا أن نحدد الموقع، فسوف ندخل هناك ونسترجع أولئك الأبناء." "وماذا نستطيع أن نعمل لنساعد من هذا الطرف؟"

"لا شيء، سيدي الوزير. لقد فعلتم كل شيء عندما وضعتم خطة عملية الخدمة المشتركة ورجال المهام الخاصة من وكالة الاستخبارات المركزية تحت سيطرتنا. إننا نمتلك ما نحتاج إليه."

وقال رامسفيلد: "سنكون جاهزين للمساعدة، يا توم."

أخبرت فان موني أن يجهز في غرفة الحرب من أجل تقديم إيجاز عن العملية الكبيرة المنتظرة في تلك الليلة، وهي هجوم عميق ستقوم به الطائرات العمودية المسلحة أباتشي من فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر، وتطير من النقطة الجوية المتقدمة للتزود بالوقود في الصحراء المفتوحة جنوبي النجف.

وكانت مهمة فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر هي تدمير المدفعية والدروع التابعة لفرقة المدينة من الحرس الجمهوري شمال فجوة كربلاء الضيقة. وكانت وحدات فرقة المدينة هذه هي أقوى قوة عراقية جاهزة تعترض بين الفيلق الخامس المتقدم وبين بغداد.

لقد راجعت الخطط المعدة لهذا الهجوم عدة مرات. وكانت عقيدة الجيش التي تطورت من مفاهيم معركة الجو الأرض في الثمانينيات من 1980 كانت تدعو إلى أن تقوم طائرات الأباتشي المسلحة بصواريخ هيلفير ومدافع آلية من عيار 30 ملم بالضرب عميقاً في داخل أرض العدو لتدمير التشكيلات المدرعة ومدفيعيتها المساندة.

وكانت مهمة هذه الليلة ضربة عميقة تقليدية.

والتحق مديرو الأركان الرئيسيون مع جون أبي زيد ومعي في غرفة الحرب لنستمع إلى أركان قيادة العنصر الأرضي للقوات المشتركة وهم يستعرضون تفاصيل المهمة، مثلما فعلوا تماماً في أثناء تدريباتنا وتطبيقاتنا التجريبية في شهر كانون الثاني/يناير.

وصنفت العملية عند مستوى خطر متوسط، ولكنها كانت تملك إمكانية العائد العالي إذا استطاعت الطائرات العمودية المسلحة أن تشل فرقة المدينة بضربة واحدة سريعة قوية فعالة.

عقيدة الضربة العميقة كانت تعتمد على الإخماد الكامل لدفاعات العدو الجوية، وهو أسلوب تعبوي آخر كان قد نضج من تخطيط معركة الجو الأرض. وكان ديف ماككيرنان وسكوت والاس قد عملا بجهد لتحديد صواريخ الدفاع الجوي الثابتة والمتحركة ومواقع المضادات للطيران على طول مسالك تسلل فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر. وستطير طائرات الأباتشي سريعة ومنخفضة لتقلل إلى أدنى حد تعرضها للنيران العراقية الأرضية.

وكان سكوت والاس راضياً عن الخطة، ومثله في الرضا كان ديفيد ماككيرنان. وبدأت لنا حزمة إخماد دفاعات العدو الجوية حزمة قوية: فمدفعية الفيلق سوف تطلق اثنين وثلاثين من نظام صواريخ الجيش التعبوية طويلة المدى، وكل صاروخ منها مسلح بـ 950 قنبلة، وسوف تشبع مواقع المضادات للطائرات التي

تم تحديدها . وكان لدى بز موسلي عدة طلعات من الطائرات النفاثة الجاهزة لتضرب أي دفاعات جوية تظهر من جانب العدو .

وسألت "هل هناك أي قضايا نحتاج إلى أن نعرف عنها، يا ديفيد؟"

وقال ديفيد: "إن الفيلق يعمل لحل آخر المشكلات مع الوقود . وهم يقولون إنهم سيكونون جاهزين للذهاب برغم ما قد يبدو من عوائق."

وقلت: "حظاً سعيداً، لكم جميعاً . سوف نستعرض نتائج الضربة غداً في وقت مبكر."

ناولتُ كتاب مخطط العملية المصنّف السري إلى غرينش ليقفل عليه، ثم وقفت وتمطيت . وأخيراً كان دَيْنُ النوم المتراكم قد لحق بحملي من الكافئين . وقلت لفان موني: "أحتاج إلى ثلاث ساعات غير منقطعة من النوم . وأكثر إذا لم يكن هناك دوامة أخرى."

وعندما كنت أدقق في آخر فيض من الرسائل بالضبط قبل أن أنام، استدعي، مع ذلك، جين رينيوارت من غرفة الحرب . وعاد بعد بضع دقائق لاحقاً .

"إننا نتلقى تحديثاً عن حالة الطقس من مركز العمليات الجوية المشتركة، يا جنرال."

المزيد من الأخبار السيئة؟ كنت أتعجب، ومشغل الاتصال يضبط المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو مع خلية الأرصاد الجوية في مركز الطقس في قاعدة الأمير سلطان الجوية .

وقال رائد من القوات الجوية: "هذه هي الصورة الإجمالية، سيدي." وما تبع ذلك كان عشر دقائق من أشأم توقعات الطقس التي سبق لي أن جلست لأسمعها كلها .

منخفض جوي كبير كان يتعمق فوق دول البلقان . ونظام ضغط منخفض، وهو عاصفة، شديدة، وأشبه بإعصار صغير، امتدت لتغطس جنوباً إلى البحر الأبيض

المتوسط الشرقي- وتقف. ثم إن جبهة قوية باردة تقطع عرض المنطقة مثل منجل عملاق، وتجلب معها رياحاً عاصفة هوجاء من غرب الجنوب الغربي، وعواصف رملية... وهبوب الغبار.

أدركت، وأنا أنظر إلى خريطة الطقس، ما الذي كنا نواجهه: إن هذه العاصفة تحمل كل الخصائص المميزة لعاصفة رملية تقليدية من ربح الشمال. وعندما أغلقت عيونى، رأيت ذلك الجدار من الغبار البنى الذى كان قد اكتسح جنوب العراق والكويت فى أثناء عملية عاصفة الصحراء.

وقلت: "سؤالان، يا رائد. لا- اجعلهما ثلاثة. متى ستضرب؟ وما مدى السوء الذى ستبلغه؟ وكم المدة التى ستدومها؟"

ونظر الضابط إلى لوحة مفاتيح حاسوبه وقال: "سنرى الرياح تزداد حوالى الساعة 1800 بالتوقيت المحلى غداً، سيدى. وسوف تبلغ الذروة بعصفات تبلغ سرعتها خمسين عقدة مع آخر ليلة الغد. وحمل الغبار سيكون كبيراً. ونماذجنا تفترض ظروف صفر-صفر". وفكرت فى صفر لقابلية الرؤية، وصفر لسقف الرؤية.

"وكم المدة التى ستدومها؟"

"النماذج الحالية تفترض اثنتين وسبعين ساعة من الظروف الهامشية، سيدى. وكانت عينا الشاب تحمل نظرة مضطربة، نظرة لا تطلقوا النار على الرسول. وقلت له: "شكراً، يا ابنى."

ومن طرف الطاولة تمتم أحدهم: "أم كل العواصف الرملية. ولكن أحداً لم يضحك.

هزنى هاتف المقر الموجود بجانب سريرى فأيقظنى من النوم. كانت الساعة قد تخطت 0320 بقليل الآن. وللحظة من فقدان الاتجاه، لم أستطع أن أتذكر أين كنت.

قال جين: "أخبار سيئة عن الضربة العميقة من فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر."

"سأكون هناك حالاً."

أخبار سيئة كان تعبيراً ملطفاً.

وأبلغ جين: "إنها نوع من عملية كان يمكن، وكان يُفضل، وكان يجب، وإدخال لو في الموقف يا جنرال."

كان ميرفي في الخارج يرمي مفاتيحه، مفاتيح الربط، مرة ثانية في هذه الليلة. فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر تأخر في وصوله إلى نقطة إعادة التزود بالوقود قرب المواقع الأمامية للفرقة الثالثة. ولم يكن هناك وقود كاف، وهكذا كان يجب استبعاد بعض الطائرات العمودية المسلحة من الهجوم من أجل تقسيم وتخصيص الوقود المتوافر. وعندما وصلت طائرات الأباتشي، وجدت أن منطقة تمرحلتها مغطاة بغبار ناعم مسحوق عميق بارتفاع الكاحل، وتحول هذا طبعاً إلى غطاء يعمي عندما كانت عشرات من أرياش الدوارات تضرب الهواء. فكانت ظروف إعادة التزود بالوقود صعبة، لئلا نبالغ.

وعندما كان خط الطائرات العمودية الذي بلغ طوله ميلاً، ومعه شاحنات الصيانة، وصهاريج الوقود، واقفاً في غيمة الغبار، مرت مجموعة من العراقيين المدنيين، بعضهم كان بلا شك من الفدائيين، عبر المنطقة، وكانت تبدو من خلال الغبار وهي تحقق، ثم اختفت بالسرعة ذاتها تماماً. هؤلاء المتطفلون رأوا ستاً وثلاثين طائرة أباتشي مسلحة، ومحملة بالصواريخ، وتتزود بالوقود لتقوم بمهمة. لقد كان هناك اتجاه واحد فقط يطيرون نحوه، وهو شمالاً نحو تشكيلات العدو فوق فجوة كربلاء.

وكان هناك المزيد. لدى حركة الفوج، وهي التقدم بوثبات، من الكويت، فإن بعض أجهزة الاتصالات الأساسية تركت في الخلف نتيجة إهمال غير مقصود. ومن

دون الأجهزة الناقصة لم يكن ضابط استخبارات فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر قادراً أن يرتبط مع معمل استخبارات الفيلق. وبعد مكالمات محمومة عبر جهاز اللاسلكي في الأقمار، نجح العقيد بل وولف، قائد الفوج، في أن يعيد برمجة نيران إخماد الدفاعات المضادة للطيران لدى العدو في آخر لحظة لتكون منسقة بشكل أفضل مع تأخر وقت الانطلاق. ولكن بدلاً من المغادرة إلى الهدف قبل منتصف الليل، لم تبدأ طائرات الأباتشي بالارتفاع إلى أن صارت الساعة 0115.

نيران إخماد دفاعات العدو المضادة للطيران التي أعيدت برمجتها مع صورايخ الجيش التعبوية انطلقت وفق الجدول المعد. ولكن المقاتلات القاذفات التي تقوم بالدوريات لم تتلق أبداً تغيير البرنامج وذلك بسبب ضعف الاتصالات، وعادت إلى قواعدها قبل أن تكون الطائرات العمودية المسلحة قد غادرت بالفعل للقيام بالهجوم.

وعندما عبرت الأرتال الطويلة من الأباتشي التي تطير سريعة ومنخفضة، نهر الفرات، واجهت مفاجأة كريهة أخرى. في أثناء التدريب للمهمة، كان الطيارون قد خططوا ليسلكوا مسالك فيها انعطافات حادة لتجنب القرى والبلدات الموجودة على خرائطهم التعبوية. ولكن ما لم يظهر على هذه الخرائط هو شبكة البيوت الريفية الموزعة بالتساوي والمجمعات الزراعية الكبيرة، وكانت كلها مضاءة إضاءة باهرة.

ولم يكن الطيارون قد تهيؤوا لمواجهة شدة هذه الإضاءة الأرضية، التي كان لها نتيجتان سلبيتان. الأولى، هي أن الأضواء الباهرة للمجمعات المسورة بجدران طينية، والتي انتشرت من دون انقطاع طوال كل الطريق إلى الشمال الشرقي إلى توهج المدينة الساطع لبغداد، قد وصلت بنظارات الطيارين للرؤية الليلية إلى حدها الأقصى، فجعلتها بلا فائدة. والنتيجة الثانية، وهي مساوية في الخطورة تماماً، هي أن الإضاءة أنارت الأشكال الطويلة السوداء للأباتشي من الأسفل وهي في طريقها مسرعة إلى الشمال، على ارتفاع مائة قدم فقط فوق الأرض.

وحالما دخلت الطائرات العمودية المسلحة المتقدمة تقريباً في هذا الريف المليء بالمزارع، ومضت كتل كاملة من الأضواء لعدة ثوان، ثم لمعت ثانية، وكان ذلك إشارة لمئات، وربما لآلاف من الجنود العراقيين والفدائيين المختبئين في المظلات الطينية وبساتين النخيل. وبعد ذلك بقليل، واجه الطيارون واقعياً جداراً صلباً من نيران الأسلحة الصغيرة، وصفحات متحركة من الطلقات الخطاطة الصفراء، والحمراء، والبيضاء. كان العدو يطلق كل شيء امتلكه، بدءاً من بنادق الصيد التي تعمل بالمغلاق وحتى ايه كي-47 والرشاشات والمدافع الآلية. وأصيب الأباتشي الواحدة بعد الأخرى. والعديد من سدنتها جرحوا.

بعض الطائرات أجبرت على إنهاء العملية، ولكن بعضها الآخر تابع قدماً على مسلك بطول خمسين ميلاً ملاحياً إلى المواقع التي تتخندق فيها فرقة المدينة من الحرس الجمهوري. وطارت الأباتشي عبر كمائن متكررة من الأسلحة الصغيرة والأسلحة الآلية. بعض الملاحين كانوا محظوظين، تلقوا مبدئياً بضعة ثقوب من رصاصات أسلحة صغيرة. ومع ذلك، فمع استمرار الطائرات العمودية المسلحة في مسارها، تراكمت أعطاب المعركة.

الأباتشي طائرة صلبة، مدرعة تدريباً جيداً، ولكنها لم تكن مصممة لمثل هذا النوع من العقوبة. وفي قنوات البث اللاسلكي المأمون، كان الطيارون يطلقون تحذيرات، ويبلغون عن "نيران غزيرة" ويشيرون إلى العطب الذي عانت منه طائرتهم.

وفي النهاية فإن وحدة واحدة فقط من وحدات فوج الأباتشي وصلت هدفها، وهو واحة كانت تتخندق فيها ثلاثون دبابة تي-72 للحرس الجمهوري. ولكن النيران الأرضية هناك كانت شديدة جداً إلى درجة كان معها على الطائرة أن تتسحب قبل أن تطلق صاروخاً واحداً.

كانت ثلاثون طائرة أباتشي قد انطلقت من نقطة إعادة التزود بالوقود. تسع وعشرون منها نجحت بالعودة مع درجة ما من أعطاب المعركة. ولكن واحدة من

الأباتشي أصيبت في أجهزة حركة السوائل (الهيدرولية). وقامت بهبوط صعب في أرض العدو. ملاحاها الاثنان وكلاهما نائب ضابط أقدم رون يونغ، وديفيد وليامز، أخذاً أسيرين.

ولم تصب دبابة واحدة أو قطعة مدفعية واحدة من فرقة المدينة بأي عطب في الهجوم.

وقلت: "حسناً، فهمت. تحدث معي غداً عن الأساليب التعبوية الجديدة التي نعتزم أن نستخدمها لنكون قادرين على استخدام الأباتشي في هذه البيئة." وفكرت، لقد كانت بركة أننا لم نخسر الكتيبة كاملة.

من الواضح، أن بعض العمل كان ينتظرنا إذا كنا سنتلاءم مع أساليب العدو التعبوية. فالأباتشي ما تزال واحدة من أعظم القتلة في ميدان المعركة، لقد كنت فخوراً بالملاحين، وما زلت أملك الثقة بقادتهم. وكان واجبنا الآن هو أن نفكر في المشكلة. قبل أن يتم كسب هذه الحرب، فنحن سنحتاج إلى تلك الطائرات المسلحة.

وتلقائياً تقريباً نظرت إلى الشاشة إلى متبع القوة الزرقاء. كانت فرقة المشاة الثالثة تتحرك متجاوزة النجف، وتناور على طول الطريق العام رقم 9 نحو فجوة كربلاء. وكانت المستطيلات الحمراء لألوية فرقة المدينة ما تزال مكدسة مثل الطوب على عرض الطرق العامة التي تؤدي إلى بغداد. وكان مشاة البحرية يخوضون قتالاً في الناصرية، مجبرين على تنظيف متاهة من الشوارع الضيقة من الفدائيين مجموعة مجموعة من الأبنية.

فكرت في الساعات الأربع والعشرين الماضية، في الفدائيين، وفي جنود الصيانة الذين قتلوا، وجرحوا، وأسروا. والآن هذه الكارثة مع طائرات الأباتشي. ولم أكن أستطيع أن أنسى توقعات الطقس. ففي غضون أربع وعشرين ساعة قد لا يكون لدينا طائرات عمودية ولا طائرات بريديتر في الجو.

والعدو، وصديقه ميرفي، لم يكونا الوحيدين اللذين حصلا على صوت الطبيعة الأم كانت تصطف لتأخذ دورها.

كنت محتاجاً إلى حمام ساخن وإلى المزيد من القهوة. كان هناك يوم طويل أمامنا، وربما يوم أطول منه بعد ذلك. ولكنني قبل أن أغادر غرفة الحرب ألقيت نظرة نهائية طويلة على موقف قواتنا. كان جند التحالف ما يزالون يتدفقون إلى داخل العراق، وهم يتحركون بأشكال متلوية كالأفعى على الخطوط الطويلة للمتقدم الذي تمثل رأس الحربة فيه الجنود ومشاة البحرية. فنحن سنواجهه، على وجه التأكيد، فترة صعبة، ولكن لا يخامرني أدنى شك بالنتيجة.

نحن سنريح هذا القتال.

مع هدير نظام التكييف في غرفة المؤتمرات، كان على رقيب الاتصالات أن يرفع الصوت في مؤتمر الاتصال من بعد المصور بالفيديو. وكنت أستطيع أن أذوق الغبار على حافة فنجان قهوتي. كان الوقت بعد الظهر من 25 آذار/مارس في قطر، في الصباح الباكر في واشنطن.

جلس الرئيس بوش على رأس الطاولة في غرفة الموقف في البيت الأبيض، وكان محاطاً بأعضاء مجلس الأمن القومي. وبدأ الرئيس مرتاحاً. وكان نائب الرئيس تشيني هادئاً، متفكراً. وظهر دون رامسفيلد وديك مايرز متعبين. أما جورج تيننت فكان مسترخياً يلوك سيجاراً لم يشعلها.

وتابعت، وأنا أعمل من خلال جدول أعمال: "... حقول الزيت آمنة، سيدي الرئيس. والاطفائيون من بوتس وكوتس^(*) يقومون بإطفاء النيران في رأس البئر." وأضاف الرئيس: "أولئك شباب تكساس الطيبون، يا تومي."

وقلت: "كن واثقاً، يا سيدي. كان هناك تسع نيران فقط. وقد نزع رجال وحدتنا للمهام الخاصة ومشاة البحرية فتيل شحنات التدمير قبل أن يكون هناك أضرار أخرى. واستولى مغاوير الأسطول البرماجيون (بر، ماء، جو) والمغاوير البولنديون على المنصات القائمة في البحر قبالة الشاطئ وعلى الأنبوب المتعدد الكبير. وكلها كانت مجهزة بالأسلاك للتدمير أيضاً".

(*) شركة متخصصة بمعالجة الطوارئ في آبار النفط والغاز وصناعة تجهيزاتها وخدماتها.

وأضاف دون رامسفيلد: "سيدي الرئيس، إن عمل التحالف لم ينقذ حقول زيت العراق الجنوبية فقط، بل منع أيضاً ما كان يحتمل أن تكون أخطر كارثة بيئية في الأزمنة الحديثة. فلو نسفوا ذلك الأنبوب المتعدد في شبه جزيرة الفاو، لاستغرق تنظيف الخليج سنوات."

وأضفت "البريطانيون عزلوا البصرة وهم يتعاملون مع الفدائيين. وفي الجو نحن نتابع استخدام الذخائر الدقيقة التوجيه ضد تشكيلات الحرس الجمهوري وبأثر جيد. الفيلق الخامس وقوة حملة مشاة البحرية الأولى تعاود التزود بالوقود، وتعيد التزود بالإمدادات، وتدفع بالكشافة قدماً لتستمر بالتقدم. وحصلت قوات ديفيد ماككيرنان على لواء من الفرقة الثانية والثمانين لتأمين خطوط مواصلاتنا في الغرب. الفرقة 101 سوف تنقض جواً في الشمال على مراحل حالما يسمح الطقس."

وقال الرئيس بوش: "يا تومي، كل واحد هنا فخور بك وبالجند. البلاد خلفك. إذا احتجت إلى أي شيء مطلقاً، خذ الهاتف وكلم دون رامسفيلد." ومزح رامسفيلد: "لا تقل له ذلك، يا سيدي."

وتغير أسلوب الرئيس. وقال: "يبدو الأمر وكأننا وصلنا إلى نهاية الخيط مع تركيا. لا شيء في استطاعتنا أن نعمله سيقنعهم للسماح لجندنا أن يعبروا بلادهم."

"سيدي الرئيس، أود أن أحتفظ بفرقة المشاة الرابعة هناك أربعاً وعشرين ساعة أخرى. خداعنا متماسك. جعلنا إحدى عشرة فرقة عراقية تبقى ثابتة في الشمال. وأريد أن أبقياها هنا إلى أن يتمكن رجال الجو مع بز موسلي من تخفيض فعاليتها."

وقال الرئيس: "حسناً، يا تومي. ذلك طلبك. هل ستبدأ بتحريكهم غداً؟" "نعم سيدي. وسوف يبدأون بالتزير في الكويت في غضون حوالي تسعة أيام. وستكون الأرصفة فارغة بحلول ذلك الوقت."

وقال دون رامسفيلد شيئاً لم أستطع أن أسمعه، وأوماً له الرئيس. وسأل الرئيس: "هل تغيرت خططك بالنسبة إلى اللواء 173 المنقول جواً؟" كانت الخطة تدعو إلى قيام ألف تقريباً من قوات المظليين من اللواء 173 المنقول جواً، المتمركز في إيطاليا، بالقفز فوق آبار الزيت في باشور في شمال شرق العراق، وهي منطقة تقع تحت سيطرة مليشيا البشمركة الكردية وقواتنا الخاصة. وهؤلاء الجند المنقولون جواً كان مبرمجاً لهم أن يوفرُوا الأمن لفرقة المشاة الرابعة المتقدمة من تركيا.

وعزمت الآن على أن استخدم هؤلاء الجند لتأسيس رأس جسر جوي في باشور، حيث نستطيع أن ننزل عربات مدرعة لنقوي وجود قوات العمليات الخاصة في الشمال. وكان هذا يفي بغايتين، فالانقضاض المنقول جواً سوف يتابع خداع أحقق كذبة ابريل بأننا خططنا جبهة ثانية في الشمال، وبتقوية زمرة العمليات الخاصة في تلك المنطقة، كنا نستطيع أن نكرر نوع العمليات التي سبق أن أدناها بفاعلية كبيرة مع تحالف الشمال في أفغانستان.

"نعم. سيدي الرئيس. اللواء 173 ما يزال مخططاً له أنه سينزل بالمظلات في باشور. ولكننا الآن سنستخدمهم لتقوية قوات العمليات الخاصة لوضع المزيد من الضغط على الوحدات العراقية الشمالية."

وعندما انتهت من اختصاري قال الرئيس: "حسناً، يا تومي."

وأضفت: "إن العمليات الخاصة البحرية ومشاة البحرية البريطانيين، وفي غضون يوم أو يومين، سيفتحون ميناء أم قصر. وسوف ننزل إمدادات المساعدة الإنسانية قريباً."

ومال جورج بوش إلى الأمام. محدقاً في آلة التصوير وسأل: "كيف حال الجند، يا تومي؟ ما هي مغنوياتهم؟"

"سيدي، وسائل الإعلام الملحقة بالوحدات تعطي مؤشراً جيداً تماماً. الجند

متعبون ولكنهم مركزون. لم يفقدوا عزمهم. وهم يتعاملون مع الإصابات بشكل جيد، ويقاتلون بالفاعلية التي تتوقعها، سيدي الرئيس."

وجلس بوش للخلف. وقال: "تومي، أود أن أشكر، وأشكر قيادتك، وكل الجند على هذا الجهد العظيم. وتابع هذا العمل الجيد."

جاءت العاصفة الرملية الكبيرة أسوأ حتى مما كان متوقعاً. فالغبار البني الضارب للحمرة شكل قبة عالية في الصحراء الغربية ودَرَجَتُ القبة فوق العراق الجنوبي... وفوق 170.000 من جند التحالف. وهبطت القدرة على الرؤية إلى عشرة أمتار أو أقل. ومنعت الطائرات العمودية من الطيران وبقيت على الأرض، وضربت أجزاءها الدوارة ضد الرياح المحملة بالرمل في الوقت الذي يأخذ الغبار الناعم طريقه، وهو مع ذلك كاشط، إلى مقصورات الإليكترونيات القابلة للعطب. وبقيت طائرات بريديتر مربوطة إلى المساند الفولاذية الخاصة بإطلاقها. وزحفت القوافل قدماً بتناقل، والسائقون المنهكون يوجهون مقود السيارات كالعميان بلا رؤية نحو نقاط ثابتة محددة بالنظام العالمي لتحديد المواقع. وهطل المطر بقوة من خلال الغبار الأحمر، محيلاً الجو إلى وحل، وجاعلاً القدرة على الرؤية أسوأ مما كانت عليه قبل المطر.

وتباطأت وحدات مناورتنا في البداية للتصدي لهذا التحدي ثم وقفت وقوفاً كاملاً. وتابع الفدائيون الهجوم، يميلون باندفاع خارجين من غبار العاصفة في سياراتهم الفنية، ولكن عربات الجنود برادلي، وعربات مشاة البحرية خفيفة الدرع كانت تملك مناظير حرارية قادرة على اختراق جدار الرمل البرتقالي. فعندما كان الفدائيون يهاجمون، كانت محركات سياراتهم والسبطنات الحارة لرشاشاتهم تتوهج بشكل ساطع. بعض الفدائيين اخترق وأوقع إصابات. ومعظمهم مات في دوامة الغبار، بالتأكيد نفسه مثلما مات رفاقهم في ضوء الشمس الساطعة في الأيام السابقة.

واستمرت قوافلنا الطويلة للإمداد والتموين بالزحف قدماً، واتصلت في نهاية

المطاف مع وحدات الدروع والمشاة التي نجحت هي بدورها في الزحف إلى الأمام في أثناء فترات الهدوء في العاصفة الرملية.

ومع استمرار الخيالة بالتقدم ببطء فإن الكشافة وزمر استطلاع قوات العمليات الخاصة تسلت أكثر فأكثر في المواقع العراقية، محددة الإحداثيات الدقيقة حسب النظام العالمي لتحديد المواقع لدروع العدو ولمدفعيته. مدافع الهاوتزر ذاتية الدفع من نوع بالادين أطلقت النار ليلاً ونهاراً، وكأن سدنة المدافع لم يكونوا واعين بأن أسوأ ريح شمالية في التاريخ الحديث كانت تهب عاصفة. وكان كل مدفع يعمل مستقلاً، ويستخدم نظاماً ملاحياً حسب النظام العالمي لتحديد المواقع مركباً على ظهره ويستخدم حاسوباً لحساب نقاط التسديد التي تبعد أميالاً عن مواقع رميه.

وعندما قرأت التقارير عن مهام الرماية هذه، عدت بالتفكير إلى أجهزة الراديو لموجة المواطن التي اشتريناها لسدنة بطارية مدافع الهاوتزر القديمة في بيروت. الأزمنة تغيرت.

وعندما ارتفعت شدة العاصفة الرملية، ووقفت عملياً الحركة على أرض المعركة، جاء جين رينيوارت لرؤيتي قبل تجمع أركاننا في الصباح.

وقال: "كنت أتحدث مع بز موسلي، يا جنرال.. ونحن..."

ورفعت يدي وقلت: "لا تخبرني، يا جين، سيكون هناك انقلاب في القوات الجوية. قصري محاصر."

وقال جين: "ليس بعد، يا رئيس. كنا في الحقيقة نناقش كيفية استغلال هذا الطقس الزفت... السيئ."

جين دعا جيف كيمونز، ومد كلاهما كدسة من صور الاستطلاع على طاولة المؤتمرات.

وقال جين، وهو يشير إلى الكتل البرتقالية لفرقتي الحرس الجمهوري المدنية

وحمورابي المنتشرتين والممتدتين جنوب بغداد: "نحن نستطيع أن نستخدم العاصفة الرملية لتدمير تشكيلات الحرس الجمهوري".

وشرح جيف: "لقد بدؤوا بالمانورة قليلاً عندما اندفع كشافة استطلاع فرقة المشاة الثالثة شمال النجف. ثم هبت العاصفة الرملية، وقرروا ألا يتحركوا لأننا ظهرنا وكأننا عاجزون عن التقدم".

وسألت: "ومن أين حصلوا على تلك الفكرة".

وأشار جين إلى التلفاز على الجدار، ضابط متقاعد يتحدث مستفيضاً: "نحن نرى ما يدعوها العسكريون "وقفة". لقد توقف التحالف لإعادة التسليح وإعادة التجهيز، إنهم نوعاً ما قد أنهكوا واستنفدوا الطاقة...".

وقال جيف: "إن تشكيلات العدو لم تتحرك طوال ست عشرة ساعة. إنهم يلبُدون في الأرض. والشيوخ لا يرون شراً، ولا يسمعون شراً...(*)".

وقاطعته: "اطلب بز". ما كان جين وجيف يقترحانه هو أسلوب تعبوي قد يريح هذه الحرب، في وقت كان العديدون يصفونه بأنه "أهلك ساعاتنا".

وقال بز موسلي: "العقول العظيمة تفكر تفكيراً متشابهاً نحن جميعاً منكبون عليها".

ومع حلول الساعة 2000 ستكون طائرات بي-52، وبي-1، وتشكيلة كاملة من القوات الجوية، والمقاتلات القاذفة من البحرية، والأسطول محلبة تطير فوق القبة الترابية من العاصفة الرملية، لتلقي قنابل دقيقة التوجيه من خلال طقس تصل فيه القدرة على الرؤية إلى الصفر ويصل فيه السقف إلى الصفر.

لقد كنت واثقاً أننا كنا ننظر إلى نهاية المقاومة العراقية المنظمة.

جلست وحيداً في مكتبي أشاهد الصورة الجوية. طيران القصف من كل الأحجام كان يتحرك فوق منطقة تقتيل منحنية واسعة امتدت من الكوت في وادي

(*) والتكلمة، ولا يقولون شراً. الحكمة المشهورة عن القروذ الثلاثة.

دجلة في الشرق إلى فجوة كربلاء في الغرب. واستمرت الرمال تعصف. وكانت وحدات الحرس الجمهوري تلبد في الأرض، وقد دمرت في مكانها، من دبابة وإلى عربة قتال للمشاة سوفيتية التصميم، وإلى قطعة مدفعية. وكان القصف الذي دام من ليلة 25 آذار/مارس مستمراً إلى صباح 27 آذار/مارس كان واحداً من أعنف القصف وأفعله، في تاريخ الحرب.

ولكن أحداً في الصحافة الدولية لم يفهم ما كان يحدث. وكل المراسلين الملحقين كانوا مع الوحدات الأرضية، ما عدا بعضهم الذين كانوا مع السفن. ولم يكن هناك مراسلون يطيطرون في حجلات الطيارين في طائراتنا القاصفة أو يجلسون في خلايا التهديد في مركز العمليات الجوية المشتركة.

قال جيم ويلكنسون وهو يشير إلى مركز الصحافة في الطرف الأقصى من معسكر السيلية: "أنا أتلقي الهزيمة هناك، يجب علي أن أخبر هؤلاء المراسلين شيئاً. إنهم يقصون القصص عن أننا خسرنا الحرب."

وقلت له: "جيد. ما كان يمكن لنا أن نطلب خداعاً أفضل من هذا."

وقال جيم: "تباً. يا جنرال. يجب أن نخبرهم شيئاً ما."

وقلت له: "أخبرهم بأننا نتجاوز الطقس العاصف بالتركيز على الأسلحة التي تطلق نيرانها جواً. فذلك سوف يعطيهم شيئاً ما يفكرون فيه. وأما العدو فهو يعرف من قبل ما نفعله به."

في وقت لاحق من تلك الليلة، وكانت العاصفة الرملية ما تزال تحتدم ثائرة، رجع جيم إلى مكنتي: كان وجهه قد بدأ يأخذ تهماً غاضباً.

وقال: "يا جنرال، أنت تخبرنا دائماً بألا نتورط في التفاصيل، ولكن ماذا يفترض بي أن أعمل حيال هؤلاء ... أمهم جنرالات التلفزة؟"

وقلت: "صحافة حرة، يا جيم. السلطة الرابعة وكل ما يتصل بذلك. إن المراسلين الملحقين بالوحدات يقومون بعمل جيد، ويوصلون قصة الجند إلى الخارج

إلى الناس. وبعض السادة المتقاعدين يتحدثون على التلفزة يستمتعون بخمس عشرة دقيقة من الشهرة. وسيكون مثيراً للاهتمام إن كانت شبكات التلفزة ستأخذهم ثانية لإخبارهم أنهم كانوا على خطأ، وعلى قبول الهزيمة المذلة في غضون أسبوع أو اثنين.

جلس جيم منهكاً أمام طاولتي وناولني كدسة من المواد المسحوبة من نيكسيس وغوغل من تعليقات الاختصاصيين العسكريين في التلفزة. وقال وهو يشير إلى مقطع علم عليه: "تحقق من هذا الشخص".

كان هناك اسم لشخص عالم تبعه وصف: "المقدم، المتقاعد... كبير مخططي حرب". وبدأت أرى من أين كان يأتي الإحباط إلى جيم.

وقال: "ليس مخطط حرب وحسب، يا جنرال. إنه كبير مخططين للحرب".

وتفرست في بقية المقتطفات، وهزرت رأسي، وضحكت في سري، واستندت للخلف في كرسي. وكنت أعرف عدداً من هؤلاء "الخبراء"، وكثيرون منهم كانوا في عملهم محللين للتلفزة أفضل منهم عندما كانوا ضباطاً عسكريين. والتعليقات السلبية كانت متوقعة. هجوم التحالف قد "أعيق"، "أوقف"، "أخرج" في وجه المقاومة الصلبة وتزايد الإصابات. وغضب جين رينيوارت جداً لدرجة جعلته يتوقف عن مشاهدة التلفاز.

ألقيت نظرة على متبوع القوة الزرقاء، ثم استحضرت آخر خلاصة للعمليات على حاسوبي. وعلى الرغم من ريح الشمال فإن الخيالة 3-7 واللواء القائد من فرقة المشاة الثالثة قد اكتسحوا عبر أرض العدو بأسرع مما فعلت أي قوة مدرعة في التاريخ، كانت أسرع من فيلق رومل الإفريقي أو الجيش الثالث لجورج باتون. لقد هاجموا وتقدموا 251 ميلاً في ستة أيام، وهي ثلثا الطريق إلى بغداد، وكانوا يقاتلون عبر كمائن مستمرة تقريباً من الفدائيين. وكانت فرقة المشاة الثالثة الآن تستعد للاندياع عبر ثغرة كربلاء إلى العاصمة، مركز الثقل لصدام.

إصابات التحالف، وكل إصابة هي مأساة لأحباب العسكري، أو مشاة البحرية أو رجل الجو، كانت أقل بكثير مما كان متوقعاً. وخسائر العدو، وخصوصاً بين الفدائيين الانتحاريين كانت تجعل العدو يترنح. وطبعاً، العنصر الجوي عند بز موسلي يضرب العدو على مدار الساعة.

ومع ذلك فأكثر من بضعة علماء تلفازيين كانوا جاهزين للتصريح بأن الحملة قد خسرت، وأن الخطة تعاني من عيوب لا سبيل إلى إصلاحها. وكان جنرال بأربع نجوم محدد بعينه يسوق العربية وآخرون يتسلقون بصعوبة ليصلوا إلى ظهر العربية.

وقلت: "هنا ظاهرة مثيرة للاهتمام، يا جيم. لديك متقاعد بأربع نجوم يتحدث أمام الجمهور عن أساليب تعبوية على مستوى الفصيلة والسرية، بينما روادك ومقدموك المتقاعدون يزدادون تعبيراً وفصاحة عن إستراتيجية التحالف."

وقال جيم وهو يجمع مطبوعاته: "أنت على حق، يا جنرال. وعلى كل حال، في هذا الوقت، عندي ألف ومائة مراسل وهم ثائرون هناك في مركز الصحافة. يعتقدون أنهم تذوقوا الدم، ويريدون أن يكونوا حاضرين في لحظة النصر."

وقلت: "منظور تاريخي يا جيم. ماري، زوجة لينكولن سمّت مراسلي الحرب الأهلية (صحافة مص الدماء) بسبب هجماتهم على الرئيس. هؤلاء المراسلون أنفسهم غنوا مدائح في لينكولن بعد أبوماتوكس.*"

وقال جيم وقد ابتسم أخيراً: "أنت لست وسيماً مثل أبي لينكولن، يا رئيس. ولكن أذنك كبيرة مثل أذنيه تماماً."

ورميت عليه مشبك ورق. "أخرج للجحيم من هنا. اذهب واسفح بعض ذلك الدم الجلف من تكساس الشرقية في مركز الصحافة."

كانت الساعة 0921، في 27 آذار/مارس. وكان قد بدأ مؤتمر الصباح بالاتصال من بعد المصور بالفيديو مع قادة العناصر في الساعة 0900. وكان ديفيد ماككيرنان

(*) مدينة في فرجينيا. لساكن فيها الجنرال روبرت ئي. لي قائد قوات الكونفدرالية للجنرال بوليسييس اس. غرانت قائد قوات الاتحاد في ١٨٦٥ منهياً بذلك الحرب الأهلية الأمريكية.

ينتقل عبر تحديث تقويم المعركة عن الأربع والعشرين ساعة السابقة. كانت الشمال تهب مستفدة نفسها، وكان جنودنا يتقدمون بسرعة أكبر. وأكمل ديفيد خلاصته عن تحركات فرقة المشاة الثالثة.

"والزمرة الثانية من زمر القتال من مستوى لواء، كانت في تماس ثقيل مع الفدائيين الراكبين والراجلين بالقرب من النجف..."

وفجأة، كانت تغذية الصوت من معسكر الدوحة، في الكويت، قد اكتُسِحت بإعوال عميق من صوتٍ عملاقٍ لإنذار الصواريخ، تتردد أصداؤه في كل مقر ديفيد. ومد ديفيد يده بهدوء وسحب قناعه الواقي الأسود من نوع ام-40 من الجعبة المحزومة إلى وركه. ونادى بصوت يفوق حدة صوت صفارة الإنذار المتصاعدة المعولة: "كل واحد يضع قناعه."

وقال جون أبي زيد: "إنذار من صواريخ بالستية في المسرح."

وأضاف جين رينيوارت: "واحد آخر قادم."

كانت قاذفات الصواريخ العراقية المتحركة من نوع أبابيل-100 ومن نوع الصمود، وهي صواريخ بالستية لمسرح العمليات في شمال البصرة، مازالت تضرب الكويت طوال أسبوع. وفي كل مرة كشفت فيه رادارات صواريخ الباتريوت صاروخاً قادماً كانت صفارة الإنذار تتطلق، وكان الجند يلبسون تجهيزات حمايتهم ضد الأسلحة السامة أو الحيوية.

"آسف يا سيدي" قالها ديفيد وهو ينظر باتجاه آلة تصوير فيديو مؤتمر الاتصال من بعد، وهو يبدو مثل نوع من وحش الفضاء من السلسلة القديمة من بك روجرز. (*) "هل مازلتم تستطيعون السمع -".

وضاع صوته المكبوت في دوي مفرقع هز جدران مقر قيادة العنصر الأرضي للقوات المشتركة.

(*) الشخصية الرئيسية في رواية: آرمجيدون ٢٤١٩، بقلم كاتب الخيال العلمي الأمريكي فيليب فرانسيس ناولان (١٨٨٨-١٩٤٠)، وصدرت في ١٩٢٨، وأخرجت للمسرح، وللسينما، وللإذاعة، وللأقلام المتحركة.

قال جيف كيمونز: "إطلاق باتريوت."

دوي آخر. وقلت أنا "اثان من باتريوت. لابد أنهم حددوا موقع الصاروخ القادم."

كانت توجد بطارية باتريوت مضادة للصواريخ الباليستية في مسرح العمليات من الجهة الثانية تماماً من الطريق من مقر ديفيد. وما كان يمكن لهم أن يطلقوا صاروخين إلا إذا كانوا قد حصلوا على متابعة أوتوماتيه قوية بالرادار لرأس حربي معاد.

وانتظرنا. كان هناك بعض الاضطراب في معسكر الدوحة، ولكن معظم الأركان المرئيين على الشاشة استمروا بالعمل في مقصورات حواسيبهم، ويلبسون خوذاتهم الكيفلار(*) وأقنعتهم.

قوات الجيش، القيادة المركزية كانوا مستمرين في استخدام ذلك المقر لعدة سنوات. والعراقيون لم يكونوا يمتلكون أفضل الاستخبارات العسكرية، ولكنهم كانوا يستطيعون تحديد إحداثيات ذلك المبنى. وصواريخهم الجديدة، الصواريخ الباليستية لمسرح المعركة، بعد أن تكون قد حدثت بتقانة السوق السوداء، كانت قادرة بالتأكيد على إصابة نقطة تسديد بضخامة مقر قيادة العنصر الأرضي للقوات المشتركة.

ثم انفجار آخر، صواريخ الباتريوت اعترضت الصاروخ العراقي. وحتى لو لم يكن ذلك الرأس الحربي محتويًا على غاز سام، فإن أثر عدة مئات من الكيلوغرامات من المواد شديدة الانفجار كان كفيلاً أن يدمر ماككيرنان وأركانه.

عندما انتهى المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو، تحدثت مع بز موسلي. "هل لديك أي شي عن ذلك الإطلاق الأخير من الصواريخ الباليستية للمسرح؟"

وقال: "رجال الرادار في قيادة الدفاع الجوي حصلوا على إحداثيات الإطلاق في خلال دقيقتين من الاعتراض. سلة الإطلاق نفسها، من صاروخ الصمود شمالي البصرة. ولدينا نفايات فوقه."

(*) مادة من الألياف الاصطناعية أقوى من الفولاذ بخمس مرات.

بعد عشر دقائق تلقيت مكالمة من موسلي.

قال: "هيه، يا رئيس. لقد تلقينا في الحال تقرير القصف من الطيارين. ضرب قاذف واحد لصواريخ الصمود."

بز كان محقاً بالفخر برجاله الجويين. مع الحظ كانت الرسالة تنتشر بين سدة الصواريخ العراقية: أنت تطلق، أنت تموت.

قال لي جيم: "إن ميرفي يركب ثانية، يا جنرال."

كان الوقت بعد الفجر تماماً في يوم الجمعة، 28 آذار/مارس. وكنت وحيداً في مكتبي، أقرأ في البرقيات والرسائل. وكان جيم يعرف أنني كنت أحاول الاحتفاظ بالصباحات الباكرة لنفسه، ولذلك عرفت أنه كان بالتأكيد يمتلك شيئاً ما مهماً.

سلمني وثيقة مطبوعة مستخرجة من قصة في جريدة نيويورك تايمز بقلم المراسل جيم دواير، الذي كان ملحقاً مع الفرقة 101 المنقولة جواً.

والعنوان الرئيس يقول: "قائد خليجي يرى طريقاً أطول."

وهز جيم رأسه. إن بضعة مراسلين كمنوا لسكوت والاس عندما ظهر بشكل غير متوقع ليزور الجنرال بيتروس في مركز قيادة الفرقة 101.

وتفرست في القصة. وبدا سكوت والاس هو نفسه المعهود بأمانته وصراحته المباشرة. ولكن المقالة حملت بالتأكيد وجهة نظر سلبية. وكان جيم قد علّم على المقاطع ذات العلاقة. وقرأت المقطعين ببطء لأتأكد من أنني لم أغفل أي شيء.

قال الجنرال والاس: العدو الذي نقاتله مختلف قليلاً عن العدو الذي لعبنا لعبة الحرب ضده، وذلك بسبب هذه القوات شبه العسكرية. كنا نعرف أنهم كانوا هنا، ولكننا لم نعرف كيف كانوا سيقاتلون...

وقال الجنرال والاس: "يتعين علي أن أعطي أفضل حكمي العسكري، مع الأخذ بالحسبان الطقس، وخطوط المواصلات الطويلة، ومع الأخذ بالحسبان أن علينا أن نضم خط إمدادنا وتمويننا الطويل ليلحق بنا. يجب علينا أن نأخذ هذه الوقفة.

نحن ما نزال نقاتل العدو في كل ليلة. ونحن نقوم بعمل أشياء للإبقاء عليه يعمل وفق إيقاع هو أعلى من أي إيقاع كنا نعمل وفقه."

وقرأت القصة ثانية. إن المقتطفات من سكوت عكست بالأساس معلومات صحيحة من منظور قائد فيلق، ولكن المقالة كانت متشائمة تشاؤماً متميزاً. وقلت: "ليست قصة مسعفة، يا جيم."

وقال: "كارثة شديدة، يا جنرال. وما يؤخذ منها هو أننا قد أُعِقْنَا وأننا لم نخطط هذه العملية تخطيطاً ذا قيمة."

"ليس أي من هذين القولين صحيحاً، يا جيم، وأنت تعرف ذلك."

"سيدي، أنا أعرف ذلك. وأنت تعرف ذلك. وكل التحالف، ومن جملتهم الجنرال والاس يعرف ذلك." ولوح يديه في إحباط. "ولكن التصور في وسائل الإعلام يصير واقعاً. وكان هاتفني مستمراً في الرنين ولا لوم عليه طوال الساعة الأخيرة. وكل واحد كان يريد مقابلتك بخصوص تعليقات والاس."

تذكرت المقابلة غير الحكيمة التي أعطيتها لهذين المراسلين الواغلين اللذين وجداني في منطقة الاجتماع الحصان في 1990 في الأيام الأولى من درع الصحراء. وقلت لجيم: "اثبت على الحقيقة العملية. سأتصل مع ديفيد ماككيرنان عن هذا الموضوع."

وعندما تحدثت مع ماككيرنان أكد لي أنه قد تحدث مع سكوت والاس وأن والاس سوف "يراقب ممره الخاص" بعناية في المستقبل.

وقلت: "هذا جيد بما فيه الكفاية بالنسبة إلي. سكوت قائد رائع. أخبره أنني أحبه وأثق به."

بعد عشرين دقيقة، رجع جيم إلى مكنتي.

وقلت: "ما الأمر الآن؟"

وأمسك جيم بمفتاح التلفاز من بعد وفتح دائرة مركز الصحافة. شريط آخر من الجزيرة كان مجمداً على الشاشة.

وعندما ضغط زر التشغيل، حلق في آلة التصوير طياران من الجيش وكانا نحيلين مكتئبين يلبسان بزات قتال مغبرة ومبقعة بالعرق، وكانا يجيبان الأسئلة الموجهة لهما من محقق عربي.

وقال جيم: "الرجلان من فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر، وهما ملاحا الأباتشي الأسيران: رون يونغ، وديفيد وليامز."

وأجاب الأسيران بتردد عن الأسئلة، وحاولا ألا يعطيا أي معلومات يمكن أن يكون لها قيمة دعائية.

وفكرت، على الأقل هما حيان.

وقال جيم: "هذا ليس كل شيء، يا سيدي." ثم قدم الشريط للأمام بسرعة. "تحقق من هذا."

كان وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف، المعروف عند الصحافة العالمية استهزاءً باسم "بوب بغداد" (*)، يقف أمام حطام يتصاعد من الدخان لعدة حوانيت ومحلات في السوق في العاصمة. وادعى أن: "القاذفات الجوية للمجرم بوش ضربت هذا السوق." وبحسب أقوال الصحاف فإن "مئات" من المدنيين الأبرياء قتلوا أو جرحوا.

وقلت: "لو لم يكن الصحاف حزيناً بهذا الشكل، لكان سيبدو مضحكاً."

وشرح جيم: "لقد تحققت من الأمر مع مركز العمليات الجوية المشتركة. ونحن نعتقد أن ذلك كان صاروخاً عراقياً، ربما من نوع اس ايه-2 وقد أطلقوه هم قبل ليلتين، وهو غير موجه. وما يذهب إلى الأعلى، يعود فعلاً إلى الأسفل. لقد ضرب السوق قبل الفجر. لم يكن هناك أحد في الشارع."

(*) ربما كان ذلك تشبيهاً للصحاف بمقدم برامج وممثل أمريكي كان له بعض الصفات والتصرفات الغريبة الشاذة، ولعله ببلي بوب.

وقلت: "وهكذا، ليس لدينا أي مشكلة".

"قد يكون لدينا، سيدي." وناولني جيم المزيد من الوثائق المطبوعة المستخرجة، مجموعة من الصحف العربية من كل أنحاء الشرق الأوسط. وكان هناك بوب بغداد في السوق المحترق. "جميع العناوين الرئيسية تعرض ذلك السطر: "مئات من الموتى والجرحى".

وظهرت صورة من التلفاز العراقي تظهر طياري الأباتشي الأسيرين قرب صورة الصحف. وفي الشارع العربي، سيكون من السهل على الناس أن يربطوا صورة الطيارين الأمريكيين الأسيرين بالزعم أن القنابل الأمريكية قد قتلت المئات من الناس الأبرياء.

"اكتب بياناً، يا جيم. يجب أن نقدم القصة الصحيحة."

وقال: "أنا أعمل فيها، يا سيدي. ولكن أصدقاءنا في محطة بي بي سي قد بدؤوا من قبل يتبنون رواية بوب بغداد."

وكما يمكن لدونالد رامسفيلد أن يقول: "هذا ليس مسعفاً جداً."

كان هذا الصباح يتحول إلى صباح آخر غير سار.

أدركت أثر الأخبار السيئة الحديثة عندما دخلت مكتبي من أجل اجتماع الأركان في ذلك الصباح. وفي العادة، يتنافس جين رينيوارت وجيم ويلكنسون لإعطاء أفضل تعليق مضحك أو تعليق متهمك. ولكن ليس اليوم. وبدأ لي كل واحد من الموجودين على الطاولة وكأنه قد جلس قبل قليل في مجلس عزاء جنازة.

وسألت: "ما الخبر، يا رجال؟"

هز رينيوارت رأسه. "من الصعب اليوم نوعاً ما الابتسام هذا الصباح، يا جنرال. الفدائيون يسببون لنا المتاعب في خطوط الاتصال. مشاة البحرية مشتبهون مع المزيد من الفدائيين في الطريق العام رقم 1 والطريق رقم 07 وذيول الإمداد والتموين لا تلحق لتتصل مع وحدات الحركة والمناورة."

وأضاف جيف كيمونز "لدينا مشكلة مع الحدود السورية. ففقد البعثيين وعائلاتهم يهربون إلى سورية في قوافل من سيارات المرسيدس وسيارات اس يو في. والله يعلم ما الذي يحملونه."

وقلت لهم: "فهمتها، الجرذان والسفن الغارقة. يحتمل أنهم يأخذون معظم العملة الصعبة وكل ذهب العراق معهم. دعونا نتصل مع غاري هاريل وديل ديلي ليطيروا إلى الحدود ويقابلوا بعض هذه العائلات."

وأضاف جيف: "ويا سيدي، قد نحصل على بعض الأهداف المثيرة للاهتمام. فالصور الفوقية تشير إلى قوافل حافلات مدنية مليئة بالمقاتلين الأجانب القادمين إلى العراق من سورية. عرب من جميع الأنحاء. وربما حتى بعض الشيشان. هؤلاء لاعبون سيئون، ولكن سيكون من الصعب استهدافهم في أثناء ركوبهم في حافلات ركاب مدنيين."

وفكرت في تعليق آخر على سورية. إنها شوكة دائمة في خاصرتنا. ليسوا أعداءنا، ولكنهم بالتأكيد ليسوا أصدقاءنا، فالسوريون كانوا يسمحون بمرور عبر الحدود إلى العراق ومن العراق. وقلت لجين رينيوارت: "اتصل مع هاريل وديل ليطورا على الأقل سائر طيران على طول تلك الحدود."

وأجاب جين: "حسناً، يا رئيس."

توقفت المحادثات حول الطاولة توقفاً تاماً، وساد صمت كئيب. وفكرت لحظة. هذا الموقف لم يكن موقفاً جيداً.

وقلت: "حسناً. استمعوا. أنتم أيها الرجال متعبون. ونحن نتلقى الرفس على قفانا... من وسائل الإعلام. وكل واحد من إستراتيجيي الأرائك في الحلقة ئي إلى غرفة الأخبار في سي بي اس في بودانك، في إيدهو يروي بأن لدينا مشكلات كبيرة. الفدائيون ما يزالون نشيطين. والهجوم الرئيسي نحو بغداد تباطأ مع الطقس."

بضعة إيماءات بالموافقة.

ورفعت يدي. "ولكن لا شيء من هذا الزفت ... يهم. نحن نسير حسب الخطة. وفي الحقيقة نحن سابقون نسير قبل الخطة. ونقوم بقتل الفدائيين نهائياً وليلاً. وقتالنا لهم في الطرقات العامة أفضل من قتالهم في بغداد. وتقدير الخسائر في المعركة لا يساوي شيئاً، ولكننا نعرف فعلاً أن الحرس الجمهوري يتلقى مجتمعا الرفس على قفاه... من الجو. والفيلق الخامس مسدد ومعبأ لبغداد. ومشاة البحرية سوف يتجاوزون المصاعب. ووسائل الإعلام حرباوات. وعندما تتحسن الأمور، ستتظاهر بالمحبة وبالصدافة."

لم أكن متأكداً من أن مناقشتي قد أثرت.

وأضفت: "انظروا. مضى ونحن في القتال على الأرض مدة أكثر بقليل من أسبوع. هذه أيام مبكرة، يا رجال، مبكرة. الحروب تستغرق وقتاً. لقد قلت دائماً إن العدو يحصل على صوت، وهو الآن عند مكان الاقتراع تماماً. الحرب العالمية الثانية دامت أربع سنوات بالنسبة إلى الأمريكيين، وست سنوات بالنسبة إلى البريطانيين. وسيكون هناك أيام سيئة وأخرى جيدة. ولكننا لا نستطيع أن نفقد إيماننا. إذا نحن توقفنا عن الثقة، فإن الجند سيتوقفون عن الثقة. وبعدئذ سوف نقع نحن في الاضطراب. دعوني أنا الذي أقلق بشأن الصحافة والقضايا الإستراتيجية. نحن سنريح هذا القتال."

ورأيت بضعة تعابير أكثر إشراقاً من ذي قبل قد بدأت تبدد الوجوم الكئيب. "هذا ليس معقداً، أيها الإخوة. هذا يعتبر في جوهره بمنزلة شيء واحد: يجب أن تثقوا."

ورن المفتاح الأحمر. وقالت ساعتى إن الوقت كان 0305 أي يوم هذا؟ حسناً-1 نيسان/إبريل. من الأفضل ألا يكون هذا فكرة شخص ما عن نكتة لأحمق كذبة إبريل.

وهمهمت: "نعم".

ورد فان موني بيلغني "رسالة من ديل ديلي، سيدي. لقد وجدوا المسافر".

أخبار جيدة. "المسافر" كان هو المرأة الجندية المتطوعة التي تتبع الوكالة أثرها إلى مستشفى صدام في قلب مدينة الناصرية. وقدم عراقي صديق في المستشفى تفاصيل عن موقعها الصحيح.

أبلغني فان بما كان معروفاً حتى ذلك الحين. قام رجال وحدات المهام الخاصة، وحدات ديل يساندهم مشاة البحرية بالقتال عبر كمائن الفدائيين وهاجموا المستشفى. ولم يصب أي من قوات التحالف في عملية الإنقاذ. وأضاف فان: "يوجد شريط فيديو بالعملية سيدي".

واستلقيت على ظهري في الفراش، أشعر أنني نمت جيداً داخل رأسي. "سوف أرى الأركان في الساعة 0700، يا فان".

"نعم، سيدي".

وقلت: "... هيه، ما اسم تلك الجندية".

"لينش، سيدي. جندي درجة أولى جيسيك لينش".

كان جيم ويلكنسون تواقاً إلى بث شريط الفيديو المصور بالرؤية الليلية عن إنقاذ جيسيك لينش إلى العالم.

وقال: "إنها أخبار عظيمة للغاية، يا جنرال. بصريات مذهلة".

وقلت: "ليست فكرة جيدة يا جيم". وكنت على وشك أخذ دراجة أخرى من تحت شجرة جيم لعيد الميلاد.

وبدأت: "هذه هي الصفقة. لقد حصلنا على أسير حرب واحد استرجعناه حياً. ولكن هناك سبعة آخرون. وقد يكون هناك المزيد قبل أن تنتهي هذه العملية. زيادة على ذلك أن علينا أن نحافظ على لهجة متساوية. فنحن لا نعيق الكرة في منطقة النهاية".

"المراسلون يعرفون من قبل شيئاً ما عن عملية الإنقاذ، سيدي. سوف يصرخون طلباً للحقائق في إيجاز الصباح."

وفكرت لحظة. وقلت: "حسناً. دعهم يثيروا المسألة. إذا طلبوا شريط الفيديو فانشره. ولكن لا تجنح أنت إلى هذا. وفي الوقت نفسه اتصل بالتلفزة وطمئن عائلات أسرى الحرب الآخرين بأننا نعمل كل شيء نستطيعه لتحرير أحبابهم.

قام جيم بعمله. وحصلت الصحافة على قصتها. ولكن بعد أن تم الإخلاء الطبي للجندية درجة أولى جيسكا لينش وضعت آلة العلاقات العامة في أوروبا والولايات مغزلها هي على العملية. وعندما حان الوقت الذي انتهوا فيه، كانت تلك الجندية الشابة التي تحملت الكثير من الألم والمعاناة قد صارت بطلة القتال، وصار إنقاذها مادة تصنع الأفلام منه. وذكرتي هذه القصة البطولية بالحقيقة التي يقولها المثل القديم: في نهاية اليوم لا تكون الأشياء أبداً سيئة أو جيدة، مثلما بدت لأول مرة.

اتصل الضابط المناوب من خلية الدمج في وقت متأخر من أصيل يوم 1 نيسان/إبريل. "يا جنرال، ضابط ركن الاستخبارات يرجو أن تلتحق به هنا إذا كنت فارغاً لدقيقة."

شيء ما طرأ. كان من عادة جيف كيمونز أن يحضر أي تقرير معلومات استخبارية عادية يريد أن أراه إلى مكتبي.

قال جيف وهو يناولني خلاصة من صفحة مفردة من الأسرار العليا: "يقول ديفيد إن قوة حملة مشاة البحرية الأولى والبريطانيين قد أكدوا هذا نزولاً حتى مستوى السرية تماماً، سيدي."

"شكراً." وقرأت الصفحة بعناية. هذا له مغزى مهم. إن مشاة البحرية وهم يخرجون الفدائيين من الثكنات في السماوة وجدوا حظائر بأبواب فولاذية مقفولة وفيها أطنان من الذخائر، والعديد من صناديق الشحن مختومة بطبعة حروف مفرغة باسم وحدات الحرس الجمهوري الخاص.

واكتشف مشاة البحرية أيضاً أكثر من ثلاثمائة من بزات وأقنعة الحماية الكيماوية والبيولوجية. ولم يكن هذا بعض حملٍ منسي أو تجهيزات زائدة من حرب الخليج منذ اثنتي عشرة سنة مضت. كانت هذه تجهيزات جديدة تماماً، وآخر ما بلغه التقدم العلمي، ولم يسبق أن استخدمت أبداً، وهي كافية لتجهيز سرية معززة مخصصة للعمل بالأسلحة السامة من مثل غاز الأعصاب. وعلى الدرجة نفسها من المغزى والأهمية، وجد مشاة البحرية عدة مئات من محاقن الزُّرْق الميدانية، مليئة بترياق غاز الأعصاب المعروف باسم الأتروبين. وفي الساحة الموجودة خلف الحظيرة كان يوجد عربتان مجهزتان تجهيزاً كاملاً للتطهير الميداني، وخزاناهما الرشاشان العاليان الضغط كانا معبئين بمحلول منظف. هؤلاء العراقيون كانوا مستعدين للعمل في بيئة أسلحة الدمار الشامل.

كان العراقيون يعرفون أن قوات التحالف لم تجهز أي قوة منها بالأسلحة الكيماوية. إن الولايات المتحدة وكل شركائها قد تخلوا عن استخدام مثل هذه الأسلحة وكانت الولايات المتحدة تدمر المخزونات التي كانت متبقية من السبعينيات من 1970. وكانت القوات العسكرية لصدام حسين تستعد لتحمي نفسها لا من أسلحة الدمار الشامل الخاصة بنا بل من الأسلحة الخاصة بهم.

وناولني جيف صفحة ثانية. الجند البريطانيون العاملون حول البصرة قد وجدوا مخبأً مشابهاً من الأقنعة وبزات الحماية. واستخرجوا من تحت الأرض حاويات لتجهيزات تدريب ميدانية للحرب الكيماوية، ومن جملتها أجهزة إنذار لجهاز إحساس الغاز السام ومشابهات تحاكي محاقن الأتروبين.

مزيد من الأدلة التي تشير إلى الاستنتاج نفسه: كان العراقيون مستعدين للقتال بالأسلحة الكيماوية، ربما غاز في إكس وغاز الأعصاب السارين، وهما العاملان نفساهما اللذان استخدمتا بمثل هذا الأثر القاتل على الجند الإيرانيين وعلى قروبيهم من الأكراد في الثمانينيات من 1980.

وقلت: "شكراً، يا جيف. هذان تقريران شاملان، ولكن من المؤكد كالجحيم أنها أخبار ليست طيبة."

وقال جيف: "لا أعتقد أن الوقت سيطول قبل أن يقصف الجند بالكيماوي." "أخشى أن تكون على حق."

ولم يكن علينا أن ننتظر طويلاً قبل الأزمة التالية عن أسلحة الدمار الشامل. في أصيل يوم 2 نيسان/إبريل، كنا جون أبي زيد وأنا نناقش الخطط العملية للمرحلة الأخيرة في بغداد عندما دخل جيف كيمونز إلى مكنتي.

قال جيف: "آسف على المقاطعة، يا جنرال. هذا الاعتراض للاتصالات قد وصل الآن." وناولني ورقة مطبوعة من الأسرار العليا.

استخباراتنا في الإشارة اعترضت رسالة صوتية من قائد فرقة المدينة من الحرس الجمهوري، يُرَحَّل أوامر إلى ألويته الموزعة فوق ثغرة كربلاء. وكانت الرسالة بسيطة، ومخيفة: "الدم. الدم. الدم."

وقال جيف: "قد يكون هذا هو أمر التخويل بالبدء باستخدام أسلحة الدمار الشامل، سيدي."

رفعت المفتاح الأحمر وكلمت ديفيد ماككيرنان. "يا ديفيد ماككيرنان، جيف سيرسل لك بالناسوخ (الفاكس) اعتراضاً من استخبارات الإشارة من قائد فرقة المدينة. نحن على وشك أن ندخل في موضوع أسلحة الدمار الشامل قريباً فعلياً."

وقال ديفيد بلهجته الهادئة المعتادة: "فهمت، يا جنرال. لقد وجهت كل خيال يقع ضمن مدى النيران غير المباشرة للحرس الجمهوري بأن يحتفظ بتجهيزاته الخاصة بالوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة، بالقرب منه."

كنت أعرف أن ارتداء بزات الوضع الوقائي المكيف حسب المهمة في حر شهر نيسان/إبريل المتصاعد كان مشقة. ولكننا لم نكن نستطيع أن نخاطر بفقدان آلاف من العسكر ومشاة البحرية لهجوم كثيف مفاجئ بغاز الأعصاب عندما تقترب قواتنا وتطبق على بغداد.

لم أعرف في 2 نيسان/إبريل متى كانت قواتنا ستُضرب بالأسلحة الكيماوية والحيوية، ولكنني كنت متأكداً أن ذلك سيكون قريباً. لقد أعد العراقيون أنفسهم للقتال في بيئة أسلحة الدمار الشامل، وسبق للنظام أن استخدم الأسلحة الكيماوية من قبل، وكانت المؤشرات تدل على أنهم كانوا يمتلكون أسلحة الدمار الشامل... ونحن كنا نتقدم نحو عاصمتهم. إن أفضل فرصة لنا كانت في أن نسرّع القتال، وأن نتحرك بسرعة أعلى حتى من سرعتنا التي تحركنا بها في الأيام الاثني عشر السابقة.

أسرعت نحو الشمال أيقونة مفردة على متبّع القوة الزرقاء، في حدود أميال قليلة من مطار صدام الدولي في الضواحي الجنوبية الغربية من بغداد. كانت الساعة 1014 من يوم الجمعة، في 4 نيسان/إبريل.

قاتلت فرقة المشاة الثالثة مدعومة بضربة عميقة ناجحة من الطائرات العمودية الأباتشي المسلحة واخترقت عبر ثغرة كربلاء. واكتسحت قوات المهام المدرعة من الفرقة الثالثة بقايا فرقة المدينة ونَحَّت جانباً الفدائيين المساعدين.

والآن كانت هناك قطعة مدرعة منفردة بحجم سرية من وحدة الخيالة 3-7 تسرع على الطريق العام رقم 8، وهي على وشك أن تتعطف على الطريق السريع إلى المطار.

وقلت لجين: "أولئك الرجال تائهون في المقدمة، أمل أنهم يعرفون أين هم".
والتقطت المفتاح الأحمر وتحدثت مع ماككيرنان وقلت: "هيه، ديفيد هل تراقب تلك السرية من الخيالة، من الخيالة 3-7 مندفعة مثل خفاش خارج من الجحيم؟"
وقال ديفيد وكان في الواقع يضحك بصوت خافت: "يا جنرال، افتح الميدان على شاشة المتبّع لديك فرضة أو فرضتين. هؤلاء الخيالة الكشافة متبوعون بنحو ستة آلاف أو سبعة آلاف من رفاقهم الجيدين وهم خلفهم بنصف ساعة".
نقرت فأرة الحاسوب، سلّم لا نهاية له من الأيقونات: رأس مقدمة فرقة المشاة

الثالثة، كان يدرج على الطريق العام، على بعد نحو عشرين كيلومتراً خلف كشافة الخيالة، كما قال ديفيد بالضبط.

وقلت، وأنا أشعر بابتسامة تنتشر عبر وجهي: "هذا عظيم".

وقال غرينش: "تحقق من وولتر روجرز في سي ان ان".

كان المراسل الملحق بالوحدة يهتز في عربة برادلي، ويقدم نقلاً حياً بالفيديو الهاتف. وفي عناصر الصورة المشوشة في خلفية شريط التصوير، رأيت الطرق العامة المتعددة المسارات والجسور المنصوبة فوق الطرق من ضواحي بغداد... والهياكل المسودة لدبابات الحرس الجمهوري تي-72 والعربات المقاتلة السوفيتية الصنع.

وشرح ديفيد ماككيرنان من خلال مؤتمر الاتصال من بعد المصور بالفيديو وقال: "أود أن أعطيك تحديثاً عن موقفنا حول بغداد".

كنت أستطيع أن أرى على الخريطة أن الأولوية وقوات المهام من فرقة المشاة الثالثة كانت منتشرة حول الضواحي الغربية والجنوبية لبغداد، مع وجود أكثف الحشد في المطار الدولي. ولكن واحداً من الأولوية كان متركزاً على طول الطريق العام رقم 8 على بعد عدة أميال للجنوب.

كان الوقت متأخراً من ليلة الجمعة، في 4 نيسان/إبريل. لقد أمضينا الساعة الأخيرة ونحن نناقش أفضل طريقة لتكسير مقاومة النظام المنظمة في العاصمة.

أردت أن تكون الدبابات الأمريكية في المدينة في اليوم التالي. وهذا ما سيكون أكثر من مجرد إظهار للقوة. في الحقيقة، كان قصدي هو أن أسبر دفاعات العدو لأرى إن كانت أي وحدة من وحدات الحرس الجمهوري المتماسكة قد هربت إلى المدينة بعد القصف الذي تعرضت له في جنوب بغداد.

"تبدو لي أنها ستكون مثل (محاكاة الرعد)". قلت هذا وأنا أستذكر عمليات الاستطلاع بالقوة تحت ذلك الاسم، والتي سبق لي أن رأيتها في جسر واي في

فيتنام في العام 1968. وفكرت في أن بعض الأشياء حول فيتنام تستحق التذكر. و"محاكاة الرعد" كانت عبارة عن وحدة من الدروع والمشاة الآلية تسير بسرعة عالية عبر منطقة مبنية مثل مدينة. وكان القصد هو إما القبض على العدو وهو غير محترس أو اكتساحه بقوة.

قال ديفيد: "فهمت، يا سيدي. (محاكاة الرعد) هي كذلك."

وقلت له: "أبقني على اطلاع."

راودني إغراء بأن أنزل إلى لوحات الخرائط مع ضباط بيوف بلاونت للمساعدة في رسم أساليبهم التعبوية، ولكن فرقة المشاة الثالثة قد أثبتت قدرتها على أن تقاتل في كل أنواع الأرض، من الصحراء إلى المدينة. فدباباتهم، وعرباتهم البرادلي قد ضربت واخترقت عبر دفاعات العدو في الصحراء، وفي العديد من البلدات والمدن في مسيرها الطويل على الطريق العام رقم 1 والطريق العام رقم 8.

وسائل الإعلام الملحقة بالوحدات كانت في الغالب أقرب إلى مؤخرة الوحدات القائدة للمناورة والحركة، والكثير من هذا القتال كان قد حدث ليلاً. ولهذا لم يكن الجمهور على وعي بشدة المعارك ومجال المعارك التي خاضها هؤلاء الجنود. ولكن ثلاثاً من المعارك في ثغرة كربلاء وفوقها كانت معارك حادة وهي في شراسة القتال الأرضي مثل معارك الحرب العالمية الثانية. وإذا كانت هناك أي وحدة في الجيش الأمريكي تستطيع أن تعالج المهمة فقد كانت هي فرقة المشاة الثالثة.

في الساعة 0629 من الصباح التالي، كنت وحيداً في غرفة الحرب. وكانت كتيبة من قوة مهام على وشك أن تعبر خط مغادرتها على الطريق العام رقم 8 لتقود دباباتها شمالاً إلى بغداد المركزية. والتحق بي جون أبي زيد وجين رينيوارت، وراقبنا الأيقونات وهي تتحرك صاعدة في الطريق العام عبر الضواحي الممتدة بلا تنظيم إلى المدينة.

بوب بغداد، وهو وزير الإعلام العراقي، كان يخبر المراسلين في مركز

الصحافة في فندق فلسطين أن الأمريكيين معرقلون عن التقدم في الجنوب. وادعى "أنهم ليسوا قرب بغداد. ولكن إذا اقتربوا فسوف نذبهم"

وفتح جين القنوات إلى أن وجد بثاً تلفازياً متقطعاً من مراسل ملحق بالوحدات مع قوة مهام 1-64 من الدروع، مع تسع وعشرين دبابة أبرامز وأربع عشرة عربية برادلي. وكانت فرقة المشاة الثالثة أيضاً تمتلك مركبة جوية من دون طيار من نوع هنتر تتابع العمل، ولذلك كنا نتلقى أحياناً تغذية من شريط صور فيديو فوقي مضطرب وحُبِيبِي كذلك.

وكان الرتل المسرع من الدبابات وعربات البرادلي واقعاً تحت نيران تنطلق من أسلحة خفيفة، ورشاشات، وقاذف ار بي جي. ومع ذلك لاحظنا شيئاً مفاجئاً. لم يكن هناك أي دبابات للعدو يمكن رؤيتها.

وقلت: "هناك سيارة فنية."

وقال جين: "كان هناك سيارة فنية، سيدي، إن الشاحنة اختفت في سحابة من الدخان عندما دمرتها برادلي بمدفعها السلسلة من عيار 25 ملم.

واستمر القتال بعيداً إلى الشمال على طول الطريق العام. وكان مشاة الحرس الجمهوري العراقي يقاتلون في تشكيلات صغيرة، غير منظمة، وكان الفدائيون يحتشدون على طول الطريق. وبدا لنا أن كل واحد منهم كان يحمل ار بي جي، وسجل عدد منهم إصابات في دباباتنا وعرباتنا من البرادلي. ولكن قوة المهام اندفعت إلى الأمام، وقاتلت عبر سلسلة من الكمائن الحادة الدموية. وأعطوا أفضل بكثير مما أخذوا.

بعد حوالي ساعتين ونصف تقريباً، درجت قوة المهام، وكانت الآن قد خسرت عدة عربات قد أعطيت بقاذف ار بي جي، إلى مواقع الفرقة بالقرب من المطار.

هؤلاء الخيالة يمتلكون الشجاعة، والعقل.

وقال جون أبي زيد: "لن يكون هناك بغداد القلعة."

وفكرت في أننا سنعرف بالتأكيد في خلال يوم أو بعض يوم.

وكما تحدثنا، كانت زمر القتال من مستوى فوج من قوة حملة مشاة البحرية الأولى، تغلق الكماشة على الربع الجنوبي الشرقي من المدينة. وقد قاتل مشاة البحرية معارك حادة مع بقايا وحدات الحرس الجمهوري التي بقيت على قيد الحياة بعد الهجمات الجوية القاسية.

وواجهوا أيضاً عدة مئات من المقاتلين الأجانب من مصر، والسودان، وسورية، وليبيا من الذين كان يجري تدريبهم من طرف النظام في معسكر جنوب بغداد. وقد قاتل هؤلاء المتطوعون الأجانب بشراسة انتحارية، ولكنهم لم يقاتلوا بشكل جيد. وقتلهم مشاة البحرية جميعهم.

ضبطت المنظر على متتبع القوة الزرقاء الخاص بي إلى الركن الشمالي الشرقي من العراق، منطقة الاستقلال الذاتي الكردي. قبل ساعات كان هنا بضع أيقونات قليلة فقط تُعلم وجود زمر القوات الخاصة وحلفائهم البشمركة، والآن توجد رموز جديدة تمثل الوحدات من اللواء 173 المنقول جواً، إضافة إلى المزيد من القوات الخاصة لمعونة التطوير الرسمية.

واتصل غاري هاريل من مقر قيادته. وقال: "قمنا قبل قليل بقتال جيد، سيدي. كان هناك ثلاث زمر قوات خاصة ونحو ثمانين من البشمركة. استولوا على تقاطع طرق اللواء 173 ثم أوقفوا سرية آلية من الجيش النظامي."

وسألته "دبابات؟"

"فصيلة من دبابات تي-55 مع قليل من العربات المقاتلة للمشاة من صنع الاتحاد السوفيتي وعلى الأقل مدفع مضاد للطيران من عيار 75 ملم. أولاد الح 000 جاؤوا بشكل استسلام مزيف، ثم فتحوا النار. وقام رجالنا بسحقهم."

بالنسبة إلى غاري هاريل كانت مثل تلك العملية عملاً رتيباً. ولكني تعجبت كيف تمكن هؤلاء الخيالة من إنجازها؟ "هل كان معهم طيران؟"

وقال غاري: "لا، يا سيدي. ولكن كان معهم مجموعة من الصواريخ المضادة للدروع من نوع جافلن".

وصاروخ جافلن هذا كان آخر جيل من السلاح المضاد للدروع الذي يطلق من الكتف ومن نوع "أطلق وأمس". كان من حسن الحظ أن القبعات الخضراء امتلكوا تلك الصواريخ.

وكنيت أيضاً محظوظاً بأن يكون معي مثل هؤلاء الخيالة الشجعان المبدعين. كنا نريح هذه الحرب، وكان ذلك بسبب الرجال والنساء الذين يخوضون قتالها.

كان هناك رسم انطباعي لبرجي مركز التجارة العالمي ملصقاً على كتلة رأس الطائرة العمودية ام اتش-53 للعمليات الخاصة. وجلست أنا على مقعد معلق على الجانب الأيسر، أشاهد الصحراء وهي تبهر وتتمر بسرعة 160 عقدة، كنا مستقرين تماماً على متنها، ومتجهين نحو مقر الفرقة المدرعة الأولى البريطانية بالقرب من البصرة.

كانت الساعة 1000 تقريباً من يوم 7 نيسان/إبريل، وكنت أقوم بأول زيارة لي للجنود في العراق. وستكون الوقفة الأولى مع البريطانيين، ثم سأتوجه إلى مشاة البحرية، وصعوداً مع نهر الفرات إلى الفرقة 101 المنقولة جواً.

رئيس ملاحي الطائرة العمودية الجالس عند الرشاش في ميمنة الطائرة استمع إلى رسالة في سماعتي رأسه، ثم رفع أصبع سبابته وهو في القفاز.

وصاح: "دقيقة واحدة"

وكان هناك بطانية كيفلار سميكة رمادية ضد الشظايا مفروشة على أرض الطائرة العمودية، وكنا نجلس جميعنا على سترات مضادة لنيران مضادات الطيران. كان الفدائيون ما يزالون ناشطين في هذه المنطقة، وطائر كبير مثل هذه الطائرة قدم هدفاً جيداً.

وهبطنا في سحابة من الرمل الخشن، وتقدم إلى الأمام قائد الفرقة، اللواء

روبن برمز، وهو يرتدي البزة الموهة الصحراوية البريطانية المخططة المميزة باللون البني الضارب للصفرة، وأدى تحية خاطفة شديدة.

وقال: "طيب منك، يا جنرال، أن تأتي."

كانت الحرارة تشوي في منطقة الهبوط، وليست بعيدة الشبه عن بهووك في الفصل الجاف. وكنت أستطيع أن أستمّ دخان الديزل. وأحاطت بمنطقة الهبوط حلقة من دبابات تشالنجر وعربات قتال المشاة من نوع وورير.

وكان روبن برمز، وهو الوفي للأصول، قد أعد الشاي في خيمة قيادته، في فجاجين صينية حقيقية وصحونها، وصحون صغيرة من الشطائر المفتوحة الوجه مع "البسكويت"، وهي كلمة الإنجليز للكعك الخفيف.

عرض علي برمز موقفه التعبوي على خريطة على طاولة كبيرة. لقد فتحت الفرقة إلى أم قصر. وأبلغني روبن برمز أن "الإمدادات الإنسانية تتدفق، سيدي". وسألته: "كيف الأمن يا روبن؟"

"جيد في النهار، يا جنرال. وغير مأمون قليلاً في الليل. ولكن السكان المحليين بدؤوا يتغيرون. وأشار إلى خريطة تفصيلية للبصرة الكبيرة. "إنهم يذهبون ويدخلون مكاتب حزب البعث ويمزقونها ويبدو الأمر وكأنه نهب ولكنه في الواقع انتقام." وذلك النوع من العنف العفوي الفوري كان ينتشر في كل أنحاء العراق عندما انهار النظام.

وقلت له: "حسناً. يا روبن، يبدو أننا نكسب الحرب. ولكن عنفاً مثل ذلك سوف يبقينا هنا لمدة."

وقال روبن: "أنت على حق، يا سيدي. وسنكون هنا معاً. ولكن عندما تبدأ المملكة المتحدة بتدوير جندها فإن شعبنا في لندن يخطط لاستعراض النصر. والجند يقدرّون ذلك النوع من العمل."

وقلت: "كن على ثقة." البريطانيون كانوا يستحقون ذلك، ومثلهم أيضاً الأمريكيون.

بعد ساعتين هبطنا في مقر الفريق جيم كونواي في قوة حملة مشاة البحرية الأولى قرب الناصرية. وبدلاً عن الشاي والكعك الخفيف أكلنا وجبات جاهزة للأكل. وكنت أحمل جراباً للشواء في الهواء الطلق مع الفاصولياء على النمط الغربي. ولم يكن غداء مطعم في جوني في ميدلاند... ولكن كان أمراً عظيماً أن أكون مع مشاة البحرية.

كان إيجاز جيم كونواي قاطعاً وكاملاً. وقال: "تعلمنا شيئاً واحداً في هذا القتال، يا جنرال فرانكس، وهو أن العدو، سواء أكان من الجيش النظامي أم من الفدائيين، قد وضع بشكل ثابت مراكز قيادته، وأسلحته الثقيلة، ومستودعات الذخيرة في المدارس، والمستشفيات، والمساجد."

"إن الأمر هو نفسه في كل أنحاء البلاد، يا جيم."

وعندما غادرنا الخيمة، قفزت إلى ظهر عربية همقي لأهني مشاة البحرية. وقلت والعربة متجهة إلى الأمام: "في حياتي كلها، لم أر أبداً أي شيء مثلكم. إنكم تهتمون بالمهمة. وتهتمون أحدكم بالآخر. وتتصرفون كما يليق بمشاة البحرية. لن أخطب خطاباً طويلاً هنا. ولكنني أريد أن تعرفوا فقط أنني لو كان لي ولد لأردت أن يكون من مشاة البحرية."

وبذلك، نزلت عن العربة وبدأت أصافح الأيدي. أنا دائماً أحب أن أقترّب من الجند بشكل شخصي، ولكن كان لي اليوم قصد آخر. أردت أن أنظر في عيونهم، لأقدر مستوى إجهادهم الجسدي والنفسي. كنت أعرف من فيتنام ومن عاصفة الصحراء أن الجند المتعبين يستطيعون أن يستمروا في القتال، وأن يعتنوا بأنفسهم، وأن ينجزوا المهمة. فالرجال الشباب والنساء الشابات في البزة العسكرية مرنون للغاية. ولكنهم يصلون فعلاً إلى نقطة من الإعياء. والجند المصابون بالإعياء لا يبقون قادرين على القيام بالقتال.

صافحت الأيدي، ووقفت للصور، ورويت بعض النكات السخيفة. هؤلاء مشاة البحرية كانوا متعبين، ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى الإعياء.

بعد الطيران إلى النجف، سقنا همشي جسمها من كيفلار، "جسم صلب" لنزور
الفرقة 101 المنقولة جواً. في طريقنا من المهبط إلى الزيارة القصيرة، مررنا على
مجموعة نظامية من السيارات، والدراجات، والتاكسيات، والحافلات المحطمة. وكان
هناك رجال يضغطون على الزمور ويبتسمون، ويشيرون بإشارات النصر 7، وكان
هناك أطفال يلوحون بالأعلام العراقية. لقد كان من الصعب أن نصدق أن هذه
المدينة كانت مسرحاً لقتال شرس قبل أقل من عشرة أيام خلت.

قابلنا قائد الفرقة، اللواء ديفيد بيتروس، وقابلنا في مدرسة مثقبة بالرصاص.
وأعطى إيجازاً مختصراً، ويشبه كثيراً ما قاله جيم كونواي: المدارس، والمستشفيات،
والمساجد، كلها استخدمت مخابئ أسلحة ومراكز قيادة.

وقال: "نحن نجمع أطناناً من العتاد والذخيرة، سيدي. يحتمل مئات من
الأطنان."

وقادني رقيب أول صلب يعلك تبغاً إلى كومة كبيرة من الكلاشينكوفات، وقاذف
ار بي جي، ورشاشات كان الخيالة قد دمروها قبل أن يستطيع السكان المحليون أن
يجمعوها لتكون نفاية معدنية.

وفكرت في أن هذه البلاد كلها مستودع أسلحة واحد كبير. لابد أن هناك آلاف
من مواقع تخزين الذخيرة. وسوف يستغرق الأمر سنوات لتفريغها كلها.

وسألت بيتروس عن أسرى الحرب من العدو. "ليس لدينا الكثير منهم، سيدي.
معظمهم خلع اللباس الرسمي وذهب إلى البيت فقط."

وكنْتُ أعرف أن ذلك سيشكل مشكلة أمام مكتب جاي غارنر لإعادة الإعمار
والمعونة الإنسانية. فإن وضع الجنود العراقيين في العمل بأسرع ما يمكن سيكون هو
مفتاح الاستقرار.

وسيكون على جاي أن يجعل هذا الأمر أولوية قبل أن يجد هؤلاء الجنود
السابقون طريقاً أخرى، غير قانونية، لكسب المال.

في يوم الأربعاء في 9 نيسان/ إبريل غصت غرفة المؤتمر بالأركان. كانت الغرفة قد صارت غرفة وقوف فقط، واستمروا بالتكديس فيها.

كنا نشاهد محطة سي إن إن عندما قامت العربية الهندسية الضخمة، الملطخة بالطين بالزحف إلى الأمام بين صفوف حشد من العراقيين المحيطين بالتمثال الضخم لصدام حسين في ميدان الفردوس في بغداد.

بعض الجمهور حاول إطاحة التمثال بشد الحبال المربوطة بعنق الدكتاتور. وبعد صراع طويل، رأوا أن المهمة مستحيلة. وتقدم مشاة البحرية ليقدموا المساعدة، باستخدام سلسلة على عمود العربية. ولم يطل الوقت لخلع وإهالة أطنان من البرونز.

وعندما كان الأولاد والرجال يضربون رأس التمثال بقاع أحذيتهم، وهي الإهانة الإسلامية القصوى، كانت العصابة في غرفة المؤتمر تهتف ابتهاجاً.

وسائل الإعلام ستروي أن الحرب كُسبت. وأن المعارك الكبيرة انتهت. ولكن ليس الحرب.

وقلت لدونالد رامسفيلد في نهاية المؤتمر المبرمج بالاتصال من بعد المصور بالفيديو "سيدي الوزير، كنا نتحدث عن توقيت المرحلة الرابعة. إن البريطانيين سيقومون استعراض النصر عندما تعود أول وحداتهم القتالية من الخليج. ولكن جنودنا لا يعودون حتى الآن إلى الوطن. وأنا أود أن أقرر طريقاً للاعتراف بتضحيتهم وخدمتهم. هناك الكثير من العمل الذي ينبغي إنجازه هناك، ولكن عمليات القتال الكبيرة قد انتهت." وكنت أريد من الوزير، أو الرئيس، أن يعترف علناً بهذه الحقيقة للجند.

وكان هناك سبب آخر لإصدار بيان علني حول نهاية المرحلة الثالثة. فقد كان بعض أعضاء التحالف الذين لم يرغبوا في المشاركة في القتال، ولكنهم قالوا إنهم سيقدمون المساعدة بعد أن تنتهي تلك المرحلة. وأخبرت رامسفيلد: "أنا أود أن أرى بعضهم وقد بدؤوا بإحضار جندهم الخاصين بإعادة الإعمار والمعونة الإنسانية."

"ما الذي يدور في ذهنك، يا توم؟"

"سيكون من الطيب إذا استطاع الرئيس أن يعترف بنجاح العمليات القتالية الكبيرة، سيدي الوزير." وحاولت أن أجد الكلمات المناسبة. "لقد أنجز الجند كل مهمة كلفوا بها. ولم يسبق أن كان هناك عمليات قتالية على مستوى نجاح عملية حرية العراق."

وقال دون رامسفيلد: "سأتحدث مع الرئيس."

عواقب غير مقصودة.

لقد كنت ممتناً في الأول من أيار/مايو لكلمات الرئيس. وما عرفت إلا القليل عن النقد الذي كان سيواجهه لأنه فعل ما كنت أوصيت به.

كان الوقت متأخراً. وتابع الأركان نوباتهم في الكهف المرجع للأصدقاء في المبنى 0217 وركني للتخطيط، مدير التخطيط روكي روب قد عاد قبل مدة قليلة من الكويت، وكان قد تشاور فيها مع جاي غارنر حول التقدم في مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية.

ولم يتشجع روكي. وبعده جمل وجيزة لخص ما ساوره من أمور مقلقة حول حالة المرحلة الرابعة، العمليات بعد الأعمال الحربية.

مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية ينقصه الموظفون، ومعه أقل من مائتي ضابط وخبير فني على الأرض.

وينقصهم التمويل بشكل سيئ، ومهمتهم ليست واضحة لكل واحد في الفريق. ووصل أخيراً أحمد شلبي ومجلسه الوطني إلى العراق. ولكن الشعب العراقي لم "يهب" ليتولى السيطرة على "بلاده" مثلما كان الشلبي قد تكهن. ولا وجدت البيئة التي لا تدحض المدفع المدخن، المسلح بأسلحة الدمار الشامل.

وقال روب: "إن جاي غارنر ذاهب إلى هذا الموقف وهو معاق إعاقة سيئة. إن منظمته في الخلف. ولم يجمعوا الدعم المالي والموارد التي يحتاجون إليها. وجاي

لا يملك دفتر الشيكات المفتوح نوعاً ما الذي سيحتاج إليه ليعيد فوراً استئجار مئات الآلاف من العراقيين الذين أخرجوا من العمل من قبل التحالف. " وفكرت أن هذه نقطة أساسية. عندما ألقى هذا العدد من قوات العراق المسلحة أسلحته وببساطة ذهب إلى البيت، فإن ذلك جعل عمل مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية أصعب بكثير، وجعله مكلفاً.

قبل أن تبدأ الحرب، أمضى غارنر أسابيع وهو يمشي في ممرات واشنطن، بكل تواضع، وقبعته في يده. كان يحتاج إلى الناس وإلى المال. ولكنه لم يكن يستطيع أن يقترح إلا حالة افتراضية: إذا ذهبت الولايات المتحدة إلى الحرب، هل تستطيع وزاراتكم أن تقدم...؟

ما من بيروقراطي متمرس يستطيع أن يرفض طلباً افتراضياً. فهم سيفنون بالطلب، بموارد افتراضية، وبوعود غامضة لا تكلف وزاراتهم شيئاً من حيث الأموال أو الموظفين.

ولكن الحالة على الأرض اليوم كانت حقيقية، وليست افتراضية.

حزب البعث كان قد أشبع بعناصره المؤسسات العراقية - وليس قوات الأمن وحدها طبعاً، بل الوزارات أيضاً التي سيطرت على الطاقة الكهربائية، وإنتاج الزيت، والصحة العامة، والتعليم، والاتصالات، أشبعها إلى الدرجة التي انكسر معها الهيكل العظمي التنظيمي للبلد مع انهيار النظام.

عشرات الآلاف من رجال الشرطة اختفوا من مدن وبلدات البلاد، خائفين من انتقام المواطنين.

وبدلاً من الاستسلام في وحدات متماسكة، وهو ما كان سيسمح لنا بوضع الجند في العمل في إعادة الإعمار، فإن الجيش قد "ذاب". وأكثر من مائتين وخمسين ألف عسكري سابق هم الآن عاطلون، ويبحثون عن طريقة ما لإطعام عائلاتهم.

في الأشهر التي أدت إلى الحرب، كان صدام حسين قد أوقع مجزرة في السجناء السياسيين، ثم فرغ سجونهم من المجرمين العامين: اللصوص، والنهابين، والخاطفين، والمغتصبين، والقتلة. وقدر العدد بخمسين ألفاً من هؤلاء المجرمين وهم الآن يتجولون في البلاد مثل الذئاب.

كانت القيادة المركزية تمتلك العديد من القدرات: المهارات والتجهيزات الهندسية، والزمر الطبية، والاختصاصيين بالشؤون المدنية الذين يتحدثون اللغة العربية. ولكننا لم نكن نمتلك المال ولا مجموعة شاملة من القرارات السياسية التي كانت تأخذ بالحسبان كل ناحية من إعادة البناء، والعمل المدني، والحكم.

بعد أن استمعت إلى تقرير روب، عرفت أنه كان من الضروري التحرك بسرعة لتسريع أعمال مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية: لتحديد عراقيين لإقامة حكومة انتقالية، ولتمويل استئجار عراقيين عاطلين، ولتوضيح سياسة "استئصال البعث"، ليصير من الممكن للطبقة الوسطى المتعلمة أن تشارك في بناء العراق الجديد. وسوف نحتاج إلى التحويل بالتمويل لصرف مبالغ ضخمة من المال: من الدنانير العراقية، أو الدولارات الأمريكية، أو اليورو، فذلك لا يهم.

وكما سبق أن قلت طوال جلساتنا للتخطيط، فإن العمل المدني والأمن مرتبطان: ارتباطاً لا فكاك له. وكان هناك اعتقاد سائد يقول إن العمل المدني لن يكون ممكناً في العراق من دون الأمن. وأود أنا أن أتابع فأحاجج بأن ليس من المستطاع أن يكون هناك أمن من دون العمل المدني.

وفكرت في القول: إن من الحمق توفير البنس لتخسر جنيهاً. نحن سنصرف اليوم دولارات... أو دماً في الغد. وكنت أعرف أن جورج دبليو بوش ودون رامسفيلد وافقوا معي. وستكون الحيلة في الحصول على بيروقراطية دولية تتحرك بسرعة.

وقلت لرئيس الخدمات لاحقاً في ذلك اليوم نفسه: "يا ديك، نريد مؤتمراً لكبار المانحين، تستضيفه واشنطن، لتنسيق الدعم، والمال والجند، بأسرع وقت ممكن."

ورد علي ديك: "البريطانيون يعملون لعقد مؤتمر الآن، يا توم. وسأرى ماذا نستطيع أن نعمل."

في 5 انيسان/إبريل عقد غارنر، وأعضاء من موظفيه في مكتبه الصغير لإعادة الإعمار والمعونة الإنسانية، ومبعوث البيت الأبيض زالماني خليل زاد محادثات مع بعثة من ثمانين عضواً من قادة الجماعات العراقية القبلية، والدينية، والعرقية في خرائب أور، المدينة السومرية التي تبعد بضع كيلومترات عن الناصرية. وقامت وحدات العمل المدني في الفيلق الخامس بنصب خيمة بيضاء كبيرة مفتوحة الجوانب بالقرب من متاريس الطوب المندثرة للزقورة، التي كانت قد صارت، من مدة سابقة، من الأوابد القديمة عندما كان النبي إبراهيم (عليه السلام) صبياً في المدينة.

كان خليل زاد، وهو أمريكي- أفغاني يتحدث العربية ومسؤول كبير سابق في وزارة الدفاع، هو المتحدث الرئيسي. وأبلغ العراقيين المجتمعين، باللغة الإنجليزية، أن الولايات المتحدة وشركاءها في التحالف "ليس لها أي مصلحة، مطلقاً أي مصلحة في حكم العراق. نحن نريد منكم أن تؤسسوا أنتم نظامكم الديمقراطي الخاص بكم المستند إلى التقاليد والقيم العراقية.

وأضاف جاي جارنر متفائلاً: "إن عراقاً حراً ديمقراطياً سيبدأ في هذا اليوم." ولاحظ أنه كان ذا مغزى أن يجري عقد أول اجتماع عن مستقبل العراق في الموقع القديم لمدينة أور. "فأي مكان أفضل من مكان ميلاد الحضارة يمكن أن يكون لديكم لبدء عراق حر."

ولكن الوفود التي مثلت مجتمعات السنة، والشيعة، والأكراد إضافة إلى العديد من الجماعات المعارضة في المنفى، استقبلت هذه البيانات بحذر كئيب. وكان آلاف الشيعة يتظاهرون في شوارع الناصرية يطلبون الحكم الذاتي فوراً ويهتفون، "لا لأمريكا ولا لصدام!"

في موقع المؤتمر، كان ممثلو جماعة شيعية في المنفى ما تزال قواعدها في إيران، يطالبون بالإنشاء الفوري لحكومة انتقالية "ديمقراطية"، حكومة لا بد لها أن تضع تلقائياً الأغلبية الشيعية في موقع مهيمن. فبعد عقود من القمع الوحشي من الأقلية البعثية السنية لصادم، كان هؤلاء الشيعة أكثر اهتماماً بالانتقام منهم بالتآلف البناء. لقد تجنبوا البعثة السنية، وكانوا فاترين فتوراً فقط نحو الممثلين الأكراد.

والأكراد من ناحيتهم، كانوا معارضين بصلابة لأي دولة مستقبلية موحدة يمكن لها أن تعتدي على منطقتهم الكردية الغنية منطقة الاستقلال الذاتي في الشمال الشرقي. وزيادة على ذلك، فإن الأكراد قدموا في الاجتماع جدول أعمالهم لتوسيع حدود هذه المنطقة لتشتمل على مدينة كركوك وآبار زيتها المجاورة.

قائد واحد من المنفى، وهو حاتم مخلص، ناشد المبعوثين ودعاهم إلى أن يضعوا جانباً الارتياح العرقي التقليدي والديني وأن يركزوا جهودهم على مشكلات إعادة بناء الأمن واستعادة المنافع العامة، التي حاول المقاتلون البعثيون المتعصبون أن يخربوها.

والغالبية من قادة القبائل استمعت، ولكنها لم تقل إلا القليل. كانوا حذرين، ويراقبون، وغير مستيقنين من المعنى الذي تعنيه هذه الحرية المفاجئة لهم ولشعبهم. وقد لخص هوشيار زيباري، وهو ممثل كردي كبير، مزاج الارتياح المتبادل والقلق بين زملائه المبعوثين. وقال: "ما يزالون عصبيين. لا يصدقون حتى الآن أن صدام ذهب".

وعندما كنت أقرأ تقرير جيم ويلكنسون عن الاجتماع تذكرت الشهور من الشجار والطعن في الظهر التي حدثت في مؤتمر فرساي للسلام في العام 1919 بين الفئات العرقية والدينية التي خرجت من الإمبراطوريتين المهزومتين العثمانية والنمساوية الهنغارية. يجب علينا أن نكون صبورين.

ولكن التقدم كان جارياً. فقد رأينا أول اجتماع تمثيلي في العراق في أكثر من ثلاثين عاماً. وقد زرعت بذلك بذور الديمقراطية. كان جاي غارنر وفريقه في العراق، وبدؤوا ينظمون الوزارات الوطنية للمساعدة في إدارة البلاد. وكان ديك مايرز ودون رامسفيلد يحققان بعض النجاح في توسيع التحالف في العراق. والتخطيط جارٍ لإعادة بناء القوات العسكرية العراقية وقوة الشرطة. وفتحت المستشفيات والمدارس، ويجري استعادة الطاقة الكهربائية.

وفكرت في أن هذا كله أخبار طيبة. والمهمة الفورية أمامنا هي أن نخفف التوقعات غير المعقولة، توقعاتنا وتوقعات العراقيين، بأن هذا سيكون سريعاً وسهلاً.

كان يوم الأربعاء، 16 نيسان/إبريل، أي بعد أربعة أسابيع من يوم-ي، يوم بدء العملية.

في ذلك الصباح كنت قد خولت القيام بتوزيع "رسالة حرية إلى الشعب العراقي" والتي تنص في جزء منها:

السلام عليكم.

أنا الجنرال تومي ار. فرانكس، قائد قوات التحالف، أعلن فيما يلي أن:

قوات التحالف في العراق جاءت بصفة محررين، لا غزاة. لقد جئنا لنستأصل نظاماً قمعياً عدوانياً رفض أن ينصاع لقرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة التي تطلب منه تدمير أسلحة الدمار الشامل.

إن التحالف ملتزم بمساعدة شعب العراق ليشفى من جراحه، ويبنى حكومته التمثيلية الخاصة به، ويصير شعباً حراً مستقلاً ويستعيد مكاناً محترماً في العالم. وسوف نضمن أن يكون زيت العراق محمياً بوصفه ذخراً وطنياً للشعب العراقي. العراق وما يملك هو ملك الشعب العراقي وأن التحالف لا يقيم أي ادعاء بالملكية بقوة السلاح.

هل سينجح العراق؟ لا أعرف. ولكنني كنت أعرف أن ستة وعشرين مليون عراقي تقريباً هم الآن، بسبب ما فعله جندنا يمتلكون الفرصة لبناء أمة جديدة.

وصلت إلى بغداد قبل الظهر تماماً. وكان ديفيد ماككيرنان يستضيف اجتماعاً لقادة العناصر في واحد من قصور صدام المزخرفة، غربي بغداد. كان قد ضرب بشدة قليلاً، وكانت تحيات من قليل من ضربات التحالف المسددة تسديداً جيداً، ولكنه كان مع ذلك قابلاً للسكن فيه. وهذا اللقاء معاً لم يكن لقاء النصر بقدر ما كان فرصة لي لأشكر قادتي على عمل قاموا به بشكل رائع.

سحبنا بعض الأرائك الحديثة لتشكيل نصف دائرة وتابعنا الغداء في عظمة: وجبة جاهزة للأكل وماء في القوارير.

وكما سبق لي أن أعلمت وسائل الإعلام في قطر في 22 آذار/مارس، كانت هذه الحملة في الحقيقة فريدة في التاريخ العسكري. ولكن الرأي العام العالمي لم يكن واعياً تماماً، بسبب سرعتها غير المسبوقة، بالقتال الوحشي الذي وقع. ولا كان العالم أيضاً واعياً للمهارة والتصميم الذي أبداه رجال الجو في التحالف، وهم الذين فعلوا الكثير جداً لجعل الحرس الجمهوري العراقي عاجزاً عن العمل.

ولكنني كنت أعرف إلى أي مستوى ممتاز وصل أداء الجند، ورجال الجو وقادة عناصري. وفكرت في التعليق المشهور من القائد الروماني لوسيوس بولوس:

يجب على القادة أن يتلقوا النصيحة بالدرجة الرئيسية من أشخاص عرفوا بالموهبة، من أولئك الذين اتخذوا من فن الحرب دراستهم الخاصة، ومن أولئك الذين هم حاضرون في مسرح العمل، الذين يرون العدو، والذين يرون المنافع التي تقدمها الفرص السانحة، والذين هم، مثل أناس يركبون السفينة نفسها، متقاسمون للخطر.

هؤلاء الرجال الملتفون من حولي في هذا القصر الذي يرجع الأصدقاء والذي خربته القنابل كانوا رجالاً قُدُّوا من القماش الذي وصفه لوسيوس بولوس. لقد تقاسموا الخطر.

نحن ربحنا معارك عديدة.

مقاومة العدو الكبيرة سحقته. ولكن البلاد كانت ما تزال مليئة بآلاف البعثيين المتعصبين، وبالجند الميالين للثأر من الحرس الجمهوري المدمر، ومن عملاء المخابرات السابقين، إضافة إلى المقاتلين الأجانب الذين كانوا ما يزالون يجدون طريقاً لهم إلى داخل العراق.

ومع ذلك، وعلى الأقل لهذه الساعات القليلة، كنا، نحن رفاق السلاح، قادرين على الاستمتاع بصحبة أحدها للآخرين، تحت ظروف الاسترخاء النسبي. لم أكن أستطيع أن أتذكر الشعور بمثل هذا الفخر والمحبة لأناس خدمت معهم منذ أن غادرت فيتنام.

داعبت بز موسلي بأنه بدا أكثر صلماً حتى مما كان قبل شهر. وأخبرت الأدميرال تيم كتنغ بعض النكت المكرورة المجددة عن البحارة في بار. وحاولت، عبثاً أن أجعل ديفيد ماككيرنان يهتم ببعض المقاطع من أغنية ناشفيل من المطرب نيل ماك كوي.

في هذا المبنى الفني، وهو قسم من مشروع صدام حسين "الزيت في مقابل القصور" كما قلت مازحاً، تبادلنا أفكاراً عن الأمم والبيروقراطيين الذين ساعدوا وشجعوا النظام المستبد على حساب الشعب العراقي.

ولكن ما تذكرته بأوضح الوضوح هو أنني كنت أجلس بموازاة جدار منحني في فناء القصر، أدخن سيجاراً.

وحاولت، وأنا أتفكر في هنري الخامس لشكسبير، أن أنشد تلك الكلمات المشهورة عن "عصبة من الإخوان".(*)

ولكن الدموع انهمرت قبل الكلمات.

(*) والمقصود قول شكسبير: من هذا اليوم إلى نهاية العالم، نحن الذين سنذكر فيه، نحن القلة، نحن القلة السعيدة، نحن عصبة من الإخوان. فاليوم إن من يضحي معي بدمه، سيكون أخي.

في أواخر نيسان/إبريل، اتصلت بالوزير رامسفيلد وقلت: "سيدي الوزير، كاثي وأنا قررنا أن نتقاعد في هذا الصيف".

وقال رامسفيلد: "سأحصل على صوت في هذا". وانتظرت ضحكته الخافتة.

وقلت: "نحن عند نقطة واضحة من (تغيير المهمة)، وهو الانتقال من قتال كبير إلى عمليات ما بعد الأعمال الحربية. وهذه المرحلة سوف تستمر لعدة سنوات، وأنا لا أستطيع أن أرى نفسي في هذا العمل طوال تلك المدة".

لن يكون صواباً مني أن أبقى في القيادة لعام آخر لأترك القيادة المركزية في نصف الطريق فقط عبر المرحلة الرابعة الطويلة والمعقدة.

وقال رامسفيلد: "سأعود إليك".

في مطالع أيار/مايو اتصل دون رامسفيلد وعرض علي منصب رئيس أركان الجيش، الذي صار شاغراً حديثاً.

ولم يكن علي أن أفكر طويلاً قبل أن أجيب. وقلت: "سيدي، أنا أشكرك على هذه المجاملة. ولكن علي أن أرفض. فأنا مقاتل حرب، لا مدير. ولن أعمل جيداً في مجتمع القانون العاشر".

تلك كانت بداية محادثة دامت، متقطعة، طوال الأسابيع العديدة القادمة. وناقشنا، دون رامسفيلد وأنا بيروقراطية واشنطن، وعمل رئيس أركان الجيش، والمرحلة الرابعة في العراق، وشؤون أحفادنا.

وكانت المرحلة الرابعة في الحقيقة تدور مثلما توقعت، لا مثلما أملتُ، ولكن مثلما توقعت. وعلى الرغم من التخريب، كان يعاد بناء البنية التحتية ببطء. وكان الشيعة، والسنة، والأكراد يتصارعون من أجل المناصب الرئيسية في "العراق الجديد". وأعداد متزايدة من الجند الدوليين كانت تلتحق بالتحالف، وكان البولنديون يؤسسون منطقة عمليات بحجم فرقة في الجنوب. وكان دون رامسفيلد ورؤساء الخدمات يفكرون في مسائل مستويات الجند والتجهيزات التي ستبقى في العراق في المستقبل المنظور.

ومن ناحية أخرى، كان الأمر يستغرق وقتاً أطول مما أراده أي واحد منا لتنظيم بيروقراطيتنا نحن والمجتمع الدولي ليوثر التمويل الكافي لمشاريع إعادة الإعمار العراقية المطلوبة. ولكن دون رامسفيلد كان يدفع، وجاي غارنر كان يدفع، وأنا كنت أدفع، وكنا جميعاً نحزر تقدماً، ولكن ذلك كان يستغرق وقتاً طويلاً جداً.

ومع الإعلان عن أن السفير جيري بريمر سيحل محل جاي ويرأس السلطة المؤقتة للتحالف، ويعمل مباشرة للرئيس، كنت مقتنعاً أننا كنا على وشك أن نستحضر المستوى المناسب من الانتباه والسلطة للمهمة. لقد عمل جاي عملاً كبيراً لرفع مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية وإدارته، وحين الوقت الآن لنرفع الرهان لمستوى سفير. وكنا نحتاج إلى المال، وكنا نحتاج إلى القوة المؤثرة.

في أعقاب مغادرة جاي غارنر، حاول بعضهم أن يدعي أنه قد طرد. ولكن ذلك لم يكن هو القضية. لقد فهم كل واحد داخل التحالف أن تعيينه كان مؤقتاً، مع التشديد على مواجهة الأزمة الإنسانية التي لم تظهر. لقد عزم البيت الأبيض على تعيين مبعوث رئاسي حالما يكون ذلك ممكناً. إن تدريب جاي غارنر وخبرته أعدته ليجعل الكرة تتدحرج في العراق. ولقد فعل ذلك. والآن سيكون على بريمر أن يستحضر مجموعة من المهارات المختلفة والأكمل إلى بيئة أكثر تسيّساً.

في ما يقرب من نهاية أيار/مايو اتصل دون رامسفيلد. "حسناً يا توم، إذا كنت تريد أن تتقاعد فساءوافق على ذلك. ولكننا سنفتقدك."

وقلت: "شكراً، سيدي. أنا أوصي بجون أبي زيد أن يحل محلي."

بعد يومين أعلنت وزارة الدفاع تقاعدي.

في 5 حزيران/يونيو قام الرئيس بوش والسفير جيري بريمر بزيارة مقرنا في قطر. وكان بريمر قد تسلم قبل قليل السلطة المؤقتة للتحالف، وأحضر معه فريقاً مدنياً جديداً أكبر، والكثير من المال: عدة بلايين من الدولارات وإمكانية الحصول على المزيد الكثير.

عندما اجتمعت مع جيري والرئيس ذلك الصباح، تأثرت بعمق الالتزام الذي استحضره كلا الرجلين للمهمة القريبة. وعندما وقفنا وتحدثنا في جناح جورج بوش في فندق ريتز-كارلتون في الدوحة، كان من الواضح لي أن بريمر كان يعرف أن الأمر سيستغرق عاماً لمجرد تحديد حكومة انتقالية للعراق، ولم يظهر الرئيس أي قلق حول الآفاق الطويلة للوقت التي ينتظر أمامنا. فنحن ستمكث طول الوقت الذي ستستغرقه المهمة وسنعمل ما كان يجب علينا أن نفعله.

وأخبرنا جورج بوش بالقول: "نحن ملتزمون للعراق طوال المسافة الطويلة". وكنا نعرف أن جيوب البعثيين والجهاديين ستسبب اضطراباً للتحالف، وللعراقيين، في كل خطوة من الطريق. وسيقوم جيري بريمر "بالقتال عبر المشكلة" كما كان عادتنا أن نقول في ميدلاند.

سوف تؤسس زمر مناطقية في كل واحدة من المناطق (المحافظات) العراقية الثماني عشرة، وهو النموذج الذي أثبت أنه ناجح في أفغانستان. وسوف تدار أعمال إعادة الإعمار بهذه الزمر في المناطق الريفية، مثلما هو في بغداد تماماً. وسوف تقوم قوات التحالف بتوفير الأمن عاملة لذلك مع الشرطة العراقية ومع الجيش العراقي الجديد. وسيصير التحالف أكثر "دولية" مع قيام بلاد إضافية بنشر جندها من أجل عمليات المرحلة الرابعة: وهي بولندا، وإيطاليا، وأوكرانيا، واليابان، وتسعة بلدان أخرى.

وبقيت مفاتيح النجاح النهائي هي نفسها: المشاركة من العراقيين أنفسهم، وبناء قوات الأمن العراقية، وقوات عسكرية عراقية، وعمل مدني عريض القاعدة لمواجهة الاحتياجات، والتوقعات، من ستة وعشرين مليون نسمة كانوا قد تعرضوا للترويع والإيذاء طوال أكثر من ثلاثة عقود. مهمة مرعبة، وهي تتطلب قدرة على التكيف والمرونة، وهما الفضيلتان اللتان جعلتنا نربح في المراحل الثلاث الأولى.

وعندما انتهى الاجتماع كنت واثقاً بخطة المرحلة الرابعة، وباللاعبين.

احتفال تغيير القيادة في القيادة المركزية، وهو من الناحية العملية آخر يوم لي في الجيش، تم في تامبا في يوم الاثنين في 7 تموز/يوليو. جون أبي زيد، وهو الرجل الذي سيحمل الآن على كاهله عبء القيادة، ورئيس رقباء القيادة دوايت براون، جلسا إلى جانبي.

وكان الوزير رامسفيلد، وهو المتحدث البارز، كريماً في ثأئه على المدة التي توليت فيها منصب قائد القيادة المركزية، والثاء على العمل الذي قام به الجند منذ 9/11.

وقال: "يا له من امتياز خاص أن أكون قادراً على تحية الرجال والنساء في القيادة المركزية من الولايات المتحدة. فمن القرن الإفريقي إلى جبال أفغانستان وحرارة العراق، يخدم جند هذه القيادة قضية الحرية بتفان وتميز. إننا نشكر كل واحد منكم على كل ما فعلتم لبلادكم."

وفي ذهني كنت أرى الشباب من خيالة الفرقة الجبلية العاشرة وهم يصعدون بصعوبة السلاسل الثلجية الشديدة الانحدار في أفغانستان في وادي شاهي كوت تحت نيران الهاون وقاذف ار بي جي. وتصورت أشرطة صور الفيديو من طائرة بريديتر لقوة حملة مشاة البحرية الأولى وهي تطلق النار فوق رؤوس الدروع البشرية الخائفة، وتنسف الفدائيين من سياراتهم الفنية في الناصرية وفي الكوت. ورأيت مرة أخرى الشجاعة العنيدة لرجال الدبابات في أول دخول إلى بغداد في محاكاة الرعد، وهم ينزلون من دباباتهم من نوع أبرامز ليربطوا عمود سحب إلى عربة برادلي معطوبة، ونيران الكلاشنيكوف والرشاشات التي تشق ثقوباً من الطرق الإسمنتية حولهم.

التفاني والتميز حقيقة.

وتابع الوزير رامسفيلد القول: عندما تأتي الحرب، فإنك تبحث عن صفات خاصة معينة في الناس الذين ستعمل معهم. والجنرال توم فرانكس يجسد هذه

الصفات: القوة، والخبرة، والعقل الحاد، والطاقة، والشرف، وروح الدعابة والولاء العميق لجنده ولبلاده. توم فرانكس هو في الحقيقة الجندي الجندي...

"بعد الهجمات في 11 أيلول/سبتمبر، رد الجنرال فرانكس وفريقه. وهم طوروا بسرعة خطة لمجموعة جديدة من التحديات، وقاد بعدئذ بمهارة قوات التحالف في إطاحة نظام طالبان في معقلهم الوعر المغلق بالأرض من كل جانب. وفي هذا العام مرة أخرى، صنع توم فرانكس خطة حرب إبداعية. ومرة أخرى، قاد هو وفريقه قوات التحالف بشكل لامع، وشقوا طريقهم بالقتال إلى عتبة باب النظام في بغداد في خلال أسابيع.

وحتى مع عدد القوات الكبير والمتنامي على الحدود العراقية، حقق الجنرال فرانكس شيئاً كان يبدو مستحيلاً: وهو المفاجأة التعبوية. تلك المفاجأة، والسرعة والمرونة في خطته، ساعدت على إزاحة نظام وحشي في أقل من شهر، من دون خسائر ضخمة في الحياة المدنية، ومن دون عشرات الآلاف من اللاجئين الهاربين من بلادهم، ومن دون أن تضرب العراق جيرانها بصواريخ سكود، ومن دون تدمير الطرق، والجسور، والسدود وحقول الزيت. إنجازات جديدة بالإشادة...

توم فرانكس وفريقه يقفون بوصفهم أكثر مقاتلي الحرب تشاركاً، في أمتنا، وفي العالم كله في الحقيقة. إن الفريق الذي عمل في عملية حرية العراق طور قتالاً حربياً مشتركاً في طرق سوف تغير الكيفية التي تتدرب فيها قواتنا وتقاتل فيها للعديد من السنوات القادمة. وهكذا فإن الجنرال فرانكس قد يكون الآن مغادراً للخدمة، ولكن سيكون لخدمته أثر باق على القوات المسلحة للولايات المتحدة لعقود عديدة.

"يا جنرال توم فرانكس، لك احترامي. ولك صداقتي. ونتمنى لك ولكاثي الرائعة أفضل الحياة في السنوات القادمة."

ورددت بالامتنان لدون رامسفيلد.

"سيدي الوزير، شكراً لقيادتك، وشكراً لصداقتك، وشكراً لأخلاقياتك، وشكراً للاهتمام..."

وأمسكت نفسي ضد العواطف التي شعرت بها تغمرنني.

وقلت: "إلى كاثيري فرانكس" وأنا أحاول أن أبحث عن عينيها في صفوف الجمهور: هذا اليوم هو اليوم الذي أجعل نفسي فيه رجلاً صادقاً، فقد كنت قد أخبرت زوجتي قبل أربعة وثلاثين عاماً أنني كنت سأترك جيش الولايات المتحدة... يا كاثيري، شكراً لحبك، ولمساندتك. وكما قال الوزير رامسفيلد، شكراً لخدمتك لهذه الأمة. إن الرجل لا يمتلك كنزاً أعظم من الأسرة. وأنت الأفضل. وأنا إنسان محظوظ.

وقلت، وأنا أنفعل مع اللحظة: "هذا اليوم وقت عصيب بالنسبة إلي. عندما استيقظت هذا الصباح كان لدي طائرة نفاثة بوينغ للأعمال، والعديد من الأعوان، والعديد من السيارات سيدان، والآن، أنا قلق كيف سأصل إلى البيت". ولكن لدي رسالة جادة كنت أريد أن أوصلها إلى جمهوري المستمع.

قبل اثنين وعشرين شهراً، واجهت الولايات المتحدة، وفي الحقيقة واجه العالم الحر، الشر وجهاً لوجه. وفي ذلك اليوم توصلنا إلى أن ندرك قابليتنا للعطب، وتوصل العالم إلى أن يدرك أمريكا، ولها موقف.

"إن أمتنا قد تغيرت. لقد تباركنا بقيادة تبرز الشخصية والشجاعة الأخلاقية، وعمق العزم الذي نادراً ما رؤي مثله. إننا نرى في بلادنا اليوم الدليل على قيمة جوهرية كانت، في رأيي، نائمة طوال زمن وهي: الوطنية. الوطنية الدائمة العميقة من أولئك الذين يحبون العلم، ومن أولئك الذين يلوحون بالعلم..."

ونحن نرى الحب، ونحن نرى التقدير، ونحن نرى الرعاية. ونحن نرى المساندة لرجالنا ولنسائنا في بزاتهم العسكرية، رجال ينكرون ذواتهم ونساء ينكرن ذواتهن، وهم يواصلون اليوم الاستجابة للنداء. إننا نحزن لفقد أولئك الذين أعطوا أرواحهم في سبيل قضية الحرية...

وقد سبق أن قلت حديثاً إن أمريكا تقف عند انعطافة في التاريخ، إن وراءنا مائتين وخمسة وعشرين عاماً ونيافاً، ونحن نسأل أنفسنا، ما الذي ستأتي به مائتان وخمسة وعشرون عاماً تالية؟

إننا نذكر في كل يوم بفقد الشجعان والشجاعات الذين يخدمون في حرب عالمية على الإرهاب بأن الحرية ليست مجانية.

وإنني كثيراً ما سئلت من أعضاء وسائل الإعلام، هل الجائزة التي نبحث عنها في الحرب العالمية على الإرهاب تستحق الثمن الذي يتوجب علينا أن ندفعه في مقابلها؟ وقد أجبت، وسوف أواصل الإجابة، كونوا واثقين. وذلك لأن الجائزة التي نبحث عنها في هذا الوقت من التاريخ هي طريقة حياة...

"الحرية تستحق ما تأخذه مهما يكن. وأنا أتكهن، أن أجيال المستقبل، سوف تواصل دفع الثمن من أجل الحرية. في هذه التجربة الرائعة، هذه التجربة العظيمة التي نسميها. الديمقراطية."

وعندما تولى جون القيادة، غادرت المسرح، وعانقت كاشي، وجاكي، وأحفادي. وعندما مشيت نحو المخرج أعطاني دون رامسفيلد ظرفاً يحتوي على خطاب مكتوب بخط اليد من الرئيس جورج دبليو. بوش:

عزيزي تومي،

تهاني على تقاعدك من جيش الولايات المتحدة. لقد خدمت أمتنا بتميز ومستوى عال.

إن أمتنا قد امتحنت طوال السنتين الماضيتين. لقد هوجمنا من قتلة قساة ظنوا أننا كنا سنجنبن. لقد كانوا على خطأ. كان عندنا رجل اسمه فرانكس يتحمل المسؤولية.

لقد قدت، يا تومي، جندك في معركتين كبيرتين في الحرب على الإرهاب. لقد سدنا في أفغانستان وفي العراق لأنك قدت جنداً شجعاناً بإستراتيجية سليمة.

إن أمتنا ممتنة لخدمتك. ولقد كان امتيازاً لي أن أخدم معك. أنت رجل طيب.
وأفضل تحياتي إلى كاثي.

المخلص

جورج بوش

.. رجل طيب... وطوال ثمانية وثلاثين عاماً جندي أمريكي فخور



الخاتمة

منعطفات في التاريخ

تامبا : فلوريدا

صيف 2004

شعرت أن من الغريب أن أظهر بطاقة هويتي الشخصية، هوية عضو متقاعد من وزارة الدفاع عند البوابة الرئيسية لقاعدة القوات الجوية في ماكديل. كنت معتاداً أن أدرج عبر البوابة مباشرة. ولكن عاماً قد مضى منذ أن كنت جنرالاً بأربع نجوم أقود القيادة المركزية.

معظم الحراس يعرفونني، ولكن ظروف التهديد تتطلب منهم أن يقوموا "بتحقيق إيجابي" بمقارنة وجهي مع الصورة. فالحرب العالمية على الإرهاب مستمرة. والأمن الشديد عادة ضرورية من الانضباط.

طيور البلشون الأبيض تقف عند حافة البركة قرب خط الطيران، طيور مهيبة تتحرك برشاقة، ولكن لها صوتاً كالنعيق أجش. وعندما مررت بجانبها تذكرت بوم أثينا الصغير الرمادي الذي نعق عبر سطح فندق كايدون في 11 أيلول/سبتمبر 2001، وهي أول ليلة من هذه الحرب الطويلة. ثلاث سنوات مرت تقريباً منذ ذلك المساء من أيلول/سبتمبر في اليونان.

لقد ربحنا معارك مهمة... ومع ذلك فالحرب أبعد من أن تكون قد انتهت.

أنا متوجه إلى مكتب التاريخ من القيادة المركزية، وهي منشأة آمنة تضم آلاف الصفحات من الرسائل السرية، ونسخاً عن مؤتمرات الاتصال من بعد المصورة بالفيديو، والأوامر العملياتية، وتقارير ما بعد المعركة. كنت قد استعرضتها في أثناء كتابة هذا الكتاب.

سقت سيارتي من جانب الحظائر التي كانت تصان فيها طائرة سبار 06

القديمة. وعلى اليسار منها، قرية التحالف المكونة من البيوت المتنقلة المزدوجة والتي تغطي مساحة تساوي حجم عدة مجموعات من العمارات السكنية في مدينة. وكانت أعلام الأمم الممثلة في القرية حقلاً من الألوان في النسمة البليلة ومنها: الإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية، وباكستان، واليمن، ومصر، والمملكة المتحدة، وفرنسا، وألمانيا، وأستراليا، والدانمرك، وكندا، وأوزبكستان...

كانت شابة من الطيران في البزة الصحراوية المموهة تعبر منطقة وقوف السيارات، وهي تحمل كدسة من الرسائل إلى القرية. وقالت "صباح الخير، يا جنرال."

"إنه بالتأكيد كذلك، يا رقيب." وكنت أنظر إلى صفوف الأعلام "وكم عدد البلاد التي معنا هناك الآن؟"

وقالت: "خمسة وستون بلداً، سيدي."

أوسع تحالف في التاريخ. وهؤلاء بعض فقط من أكثر من مائة وثلاثين بلداً اتحدت معاً لتقاتل الإرهاب، وبعضها تقدم مساندة عسكرية مباشرة، وبعضها المساندة المالية، وبعضها الآن يساندون الصراع دبلوماسياً كذلك. والعديد من الأمم، مثل تلك الممثلة هنا في تامبا، قد قامت بدورها علناً. وآخرون فضلوا ألا يعلنوا عن مساعدتهم، ولكنهم يساعدون بطريقة حيوية، وخصوصاً بالمعلومات الاستخبارية، التي تكون دائماً سلعة نادرة.

ولكن واحداً وعشرين بلداً، متنوعة كتتوع اليابان وأوكرانيا، وألمانيا وفرنسا، يحتفظون بأكثر من ثمانية عشر ألف جندي في منطقة مسؤولية القيادة المركزية. وبعضهم نشر قوات في أفغانستان وبعضهم في العراق، وبعضهم في كلا البلدين. وفي هذا اليوم يؤدون أيضاً المعونة الإنسانية ويديرون مهام حفظ السلام. لقد مات أبناؤهم وبناتهم إلى جانب الأمريكيين والبريطانيين والأستراليين الذين تحملوا عبء القتال. جند العمليات الخاصة البولنديون عملوا مع قوات البحرية الأمريكية

البرماجية للاستيلاء على منافذ الزيت في شبه جزيرة الفاو، وأنقذوا بذلك الموارد الطبيعية للعراق من التخريب ومنعوا وقوع كارثة بيئية غير مسبوقة. والجنود الفرنسيون، والكنديون، والعديدون جداً من الآخرين، قاتلوا إلى جانبنا في أفغانستان.

أتذكر ذلك الأصيل من أيلول/سبتمبر 2001 عندما أخبرت العقيد مايكل هيز "لدي عمل لك" وهو عمل يبني أول ركن من هذه القرية. ومنذ ذلك التاريخ عمل أركان القيادة المركزية مع زملاء موهوبين وذوي طاقة في وزارة الدفاع ووزارة الخارجية لتوسيع التحالف.

في رحلاتي التي نافت على الثلاثين زيارة إلى المنطقة أبحث عن شركاء، استخدمت الكثير من الجزر والقليل من العصي. وشربت مئات الفناجين من الشاي، والقليل من أقذاح الفودكا. وأستذكر كلمات تشرشل: الشيء الوحيد الذي يعتبر أسوأ من العمل مع الحلفاء هو العمل بدونهم. "كان تشرشل يكافح ليحتفظ بالحلف غير المحتمل للحرب العالمية الثانية، إنني أستغرق بالتأمل عندما أراقب الأعلام المتعددة الألوان تخفق في نسمة البحر من الخليج إلى المكسيك. وبالنسبة إلي كانت المساعدة في تشكيل هذا التحالف شرفاً لي.

وكان يستحق احتمال الحرق. فالغاوير الألمان قاتلوا إلى جانب نظرائهم الدانيماركين، والأستراليين، والبريطانيين، إضافة إلى رجال وحدات ديل ديلي، رجال وحدات المهام الخاصة على السلاسل الجبلية الثلجية فوق وادي شاهي كوت في أفغانستان في أثناء عملية أناكوندا. وعلى الرغم من أن العالم عرف القليل عن دور باكستان العسكري في المعركة، فإن برويز مشرف كان وفياً لكلمته، وهو باق على ذلك إلى هذا اليوم. فجنود الفيلق الحادي عشر الباكستاني المتصفون بالصلابة والمتمرسون بالمعارك قتلوا أو أسروا مئات من إرهابيي القاعدة الذين هربوا من القتال. وهم يواصلون اصطيد الإرهابيين إلى هذا اليوم في جبال وزيرستان، بينما تقوم قوات الأمن الباكستانية بملاحقتهم في المدن. والاعتقالات الحديثة لإرهابيي

القاعدة تمثل فقط آخر نجاح في الحملة المستمرة. عندما أعلن الرئيس بوش أن أمم العالم ستكون إما معنا أو ضدنا، فهمت باكستان ذلك.

العالم تحرك فعلاً عبر منعطف في التاريخ في أيلول/سبتمبر 2001. لن تحارب الديمقراطيات وحدها ثانية أبداً. إن هذا التحالف يمثل طريقة الحرب في المستقبل.

عندما غادرت القاعدة، سقت سيارتي صاعداً في شارع بيشور في طريقي إلى البيت لأصطحب كاثيري في رحلة طيران بعد العصر إلى كاليفورنيا، حيث سأحدث إلى جمهور مشترك عن مستقبل أمريكا في عصر الإرهاب الدولي.

وزمرت سيارة، ثم أخرى. وأنا أرى الوطنيين في شارع بيشور، يلوحون الأعلام عند الركن، مثلما يلوحون في كل يوم جمعة منذ أيلول/سبتمبر 2001. وضغطت على الزمور ولوحت. تامبا مدينة وطنية، وهذا هو واحد من الأسباب التي جعلتنا كاثيري وأنا نقرر أن نستقر فيها. في أثناء السنوات الثلاث التي قضيتها في القيادة المركزية، صرنا نحب الخليج الفريد في المدينة من الاستنارة المتعددة الأعراق والصدقة الريفية البيئية البسيطة. تامبا هي بوتقة انصهار أمريكية نموذجية. لقد بدأت بصفتها جيباً كوبياً وإيطالياً لصنع السيجار وتطورت إلى مركز مصرفي دولي، وأكبر ميناء على الخليج، وواحدة من أنشط عواصم الرياضة في الأمة، مع بطل كرة القدم، تامبا باي بوكاير والحاملين الحاليين لكأس ستانلي للهوكي، ذا لايتنغ.

إحدى مصادفات الحياة، هي أننا نسكن على بعد بضعة أبواب من نورمان شوارتسكوف. وأنا أراه من حين لآخر في المدينة، وعلى الرغم من عملية في الركبة، فهو يمتلك القامة المستقيمة للجندي. إنه واحد من أبطال أمريكا العظماء. نحن لا نتفق دائماً على الإستراتيجية العسكرية، فهو قد قاتل حربه بطريقته، وأنا قاتلت عملية مختلفة. ولكن كلانا فخور بخدمته. وكلانا يحب بلده.

أنا أفكر في أمريكا، في الولايات المتحدة الأمريكية، عندما كانت النفثة تمر

فوق مزارع ألاباما الخضراء المقسمة كرقعة الشطرنج وفوق الماء المتلألئ في لوزيانا. على هذه السرعة، وعند هذا الارتفاع تبدو الشمس ثابتة. كم مرة جلست على متن الطائرة سبار 06 أتحدث مع الملاحين في رحلات طيران لا نهاية لها في أوقات الأصيل ونحن عائدون من خطوط الطول الشرقية من منطقة المسؤولية!! في خلال هذه السنوات الثلاث من القيادة أتيح لي أن أعرف مدناً لم تكن قد ظهرت أبداً في كتبتي الجغرافية في المدرسة الثانوية ومنها: جيبوتي، وهي عند مدخل البحر الأحمر، وأسمرة، في الأراضي الجبلية من إريتريا، والرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، وعشق آباد في تركمانستان، وإسلام آباد، مع الجدار الثلجي من جبال هندوكوش يلمع من بعيد، ومسقط، عاصمة عمان على الماء الأزرق الصافي من بحر العرب. والعديد، العديد غيرها.

الأخبار في هذا اليوم تسيطر عليها قصص جاءت من العراق. فتحت توجيه الأمم المتحدة، وبعد شهور من الجدل الصاخب والمفاوضات توصل القادة المتباينون من مجتمعات العراق الشيعية، والسنية، والكردية في النهاية إلى إخراج قادة مؤقتين هم الذين سيقودون أمة ذات سيادة إلى الانتخابات الديمقراطية في العام القادم. ويجب ألا نغفل عن أن هذا التمرين الناجح في الحكومة التمثيلية حدث في غمرة حملة وحشية من العنف موجهة لا ضد قوات التحالف فقط بل ضد العراقيين أيضاً وبشكل متزايد.

منذ ذلك الأصيل في نيسان/إبريل 2003 عندما جلست أنا وقادة عناصري في قصر صدام، مات مئات من جند التحالف: من الأمريكيين، والبريطانيين، والإسبان، والإيطاليين، والأوكرانيين، إضافة إلى خبراء الأمم المتحدة لإعادة الإعمار والعاملين في المعونة الدولية الإنسانية، مع آلاف العراقيين الأبرياء. لقد قتلوا بأيدي مجرمين سمّتهم الصحافة مجتمعين باسم "متمردين". بل إن بعضهم أشار إليهم بصفة "مقاومة". ولكن هذا العصابات المسلحة لا تكاد تكون مثل مقاتلي المقاومة التي رأيناها في المقاومة الفرنسية السرية في الحرب العالمية الثانية.

كثيرون من الشباب العنيفين الموجودين في شوارع العراق وعلى طرقه العامة، الذين يزرعون الألغام، ومصائد المغفلين، ويطلقون ربي جي على قوافل الشاحنات، ويسقطون قنابل الهاون على مراكز الشرطة، ويقودون سيارات مقبلة انتحارية، ويغتالون رجال الدين وعمال المعونة، هم من بقايا البعثيين الذين لوث الدم أيديهم من قبل ويواجهون مستقبلاً متجهماً في عراق حر.

والعراق بعد سقوط صدام حسين وولديه صار مغناطيساً يجتذب الجهاديين والإرهابيين. وحتى وقت قريب، تدفقوا عبر حدود العراق مع سورية وإيران، وهي حدود تسمح بالتسرب. ولكن قوات الأمن العراقية الآن بعد أن تم تجديد حيويتها، وبعد أن دربتها قوات التحالف العسكرية، تقوم ببطء بإغلاق تلك الحدود لمنع التسرب.

وهذا لا يعني أن العنف سينتهي عندما يتم أسر أو قتل آخر بعثي متعصب أو جهادي أجنبي. مئات الآلاف من العراقيين، من أعضاء قوات صدام العسكرية، إضافة إلى البيروقراطيين البعثيين من المستوى الأدنى أو المتوسط، هم الآن خارج العمل. ومن دون أعمال، ومن ثم من دون أمل لهم في أن يكونوا قادرين على العناية بأسرهم، فإنهم قد تحولوا إلى "شباب غاضب" يجب على الحكومة العراقية الجديدة أن تتعامل معهم. وعندما يكون هناك عمل، وهو الفرصة العملية للبناء من أجل حياة أفضل، فإن السلام سيأتي بعد ذلك.

من المؤكد أن الفوضى سوف تستمر لبعض الوقت الذي تتولى فيه الحكومة الانتقالية المؤقتة مقاليد السلطة على أمة ذات سيادة. وبالنسبة إلى البعثيين، فإن هذا هو ما سيكون الناقوس الذي يدق لإعلان موت آمالهم في السيطرة. وأما بالنسبة إلى الجهاديين، فإن العراق المتعدد الأعراق والذي يسمح فيه التسامح الديني بحرية العقيدة للشيعية والسنّة، سوف يهزم آمالهم المظلمة كذلك.

في المستقبل القريب سوف نستمر في رؤية العنف، والكثير منه سوف يسدّد نحو جند التحالف. وسيكون قادة العراق الجدد، بدءاً من أعضاء الوزارة أو ضباط

القوات المسلحة والعسكر، إلى المسؤولين في الشرطة، نزولاً في كل الطريق إلى معلمي المدارس وعمال حقول الزيت، سيكونون باستمرار أهدافاً للتخويف. وسيكون الخبراء الفنيون الدوليون، والعاملون في المعونة الإنسانية، ورجال الأعمال الأجانب الباحثون عن الفرص في العراق الجديد هم أيضاً على أجهزة تسديد المغتالين.

في هذه الشهور الصعبة، سوف تمتحن عزيمة الولايات المتحدة امتحاناً مؤلماً. فوسائل الإعلام الإخبارية، التي قام مراسلوها الملحقون بالوحدات العسكرية بعمل رائع في أثناء عمليات القتال الكبيرة من عملية حرية العراق، سوف تركز تركيزاً مقتصرأً على الإصابات فقط. وكلنا جميعاً، وخصوصاً أولئك الذين ارتدوا بزة أمّتا، سوف نحزن في كل مرة نسمع فيها عن شاب قتل أو شابة قتلت في انفجار انتحاري أو في هجوم هاون، أو في لغم على جانب الطريق. وهذا الوهج الذي لا يلين من تسليط الضوء الإعلامي على الإصابات سوف يستمر في إخفاء إنجازات التحالف منذ إزالة النظام البعثي.

ولكن الرجل والمرأة في شوارع مدنها في أمريكا يعرفون الحقيقة. إن قوات التحالف قد أنشأت آلافاً من المدارس أو أعادت بناءها، والعديد منها كان الحرس الجمهوري والفدائيون قد استخدموها مستودعات للأسلحة ومراكز للقيادة. وهذا النمط نفسه هو الذي يسود بالنسبة إلى المستوصفات الريفية ومستشفيات المدن التي تضررت بالحرب أو أهملت بسببها. وفي هذا اليوم، شكراً إلى حد كبير للتحالف وللمحترفين الطبيين العراقيين الذين تعاونوا بشجاعة مع سلطة التحالف المؤقتة، فإن الرعاية الطبية في العراق تفوق إلى حد بعيد الرعاية التي كانت متوافرة تحت حكم البعث.

وكان هناك تقدم مستمر في نواح أخرى كذلك. فعلى الرغم من العنف المتواصل، فالطاقة الكهربائية المتوافرة اليوم هي أكبر مما كان موجوداً منها قبل عملية حرية العراق. وصناعة الزيت العراقية التي طال إهمالها، وهي دم الحياة لاقتصاد الأمة، يجري اليوم تحديثها ببطء ولكن بثبات. وعلى الرغم من التخريب

المتواصل، تخطى العراق الآن الإنتاج السابق على الحرب، واقتصاد زيت البلاد على الطريق ليصير مسهماً كبيراً في إنتاج الطاقة في العالم مرة أخرى.

نعم، أمريكا تعرف الحقيقة، وذلك لأن أبناءها وبناتها هم الذين ساعدوا العراق على التحرك قدماً. وفي الواقع، فإن كل أسيرة أمريكية قد لامسها التأثير بهؤلاء الرجال الرائعين والنساء الرائعات الذين يرتدون البزة العسكرية. وهناك قصة ملهمة هنا، وسيقصها المؤرخون. وحتى ذلك الحين، نستطيع أن نتوقع أن تكون عناويننا الرئيسية محكومة بالاغتيالات، والقنابل الانتحارية، والإصابات في صفوف التحالف. وفي بعض المناسبات، ولكننا نأمل ألا يكون ذلك غالباً، سيكون هناك ما هو أسوأ، وذلك من مثل الفصل المخزي الذي حدث في الأشهر الأولى من العام 2004، عندما تم الكشف عن الجرائم التي ارتكبت في سجن أبو غريب. هذه الانتهاكات لا يمكن أن تغتفر أبداً. إن ملايين الرجال والنساء لبسوا بزة القوات العسكرية لأمريكا بشرف ورحمة. وكما سبق أن قيل كثيراً، لا يحتاج الأمر إلا لقلة قليلة لتلطيخ سمعة الجميع. ذلك أمر يؤسف له، ولكنه صحيح.

لقد رأيت جنوداً يعطون آخر زوج جرابات لأسرى العدو الذين كانوا يحتاجون إليها. ورأيت الدموع في عيون خيالة يساعدون المدنيين الجرحى، وهي نتيجة لا مناص منها للحرب. مثل هذه الإنسانية ليست استثناء، إنها القاعدة. أنا فخور بمئات الآلاف من الأمريكيين الذين يخدمون بلادهم في أماكن وتحت ظروف لا يستطيع معظمنا أن يتخيلها.

وبالنسبة إلى القلة التي تلوث خدمة الكثرة، فإن نظام عدالتنا الجنائية، العسكري منه والمدني معاً، سوف يعمل واجبه. ولكن المحزن أن صور الكلاب والسجناء العراة قد احتلت مكان صور أبشع منها هي صور مقابر العراق الجماعية. في سياق ثقافته وسكانه، فإن التعذيب والمجازر التي ارتكبتها نظام صدام حسين البعثي طوال عقود قاربت فظاعات الحرب العالمية الثانية، وغولاغ السوفييت، وكمبوديا تحت حكم الخمير روج، والبلقان، وحقول القتل في رواندا. هناك دليل على

أن 290.000 على الأقل من الأبرياء العراقيين من الرجال والنساء والأطفال قد قتلوا بناء على أوامر صدام وولديه. ويحتمل أن يكون العدد أكبر من ذلك بكثير، ولكنه لن يعرف أبداً على وجه اليقين.

نعم، إن أمريكا ستحمل على كاهلها عار إساءات أبو غريب. ولكن أمريكا تستطيع أن تفتخر بحقيقة أخرى وهي أن جرائم نظام صدام حسين قد وصلت إلى نهايتها.

سوف تبقى قوات التحالف هدفاً عاماً، لأنها جيش أجنبي على أرض العراق. ومع ذلك فليس هناك قائد عراقي له مصداقية طلب منا أن نغادر البلاد. أعداء التقدم المتجاوزون لحقوق الآخرين فقط هم الذين يسعون إلى إجبار التحالف على الخروج من العراق. إنهم يسعون إلى النصر من خلال "أثر مدريد"، ويحرضون على الشقاق والتشطي في صفوف التحالف عن طريق إيقاع إصابات في أعضائها إفرادياً. فعندما قام الإرهابيون المنتسبون إلى القاعدة بقتل مئات من المسافرين في القطارات في عاصمة إسبانيا، انتخب المقترعون في التصويت حكومة جديدة تسير على منصة وعدت بأن تسحب الجند الإسباني من العراق. وأتوقع أن يؤكد المستقبل أن هذا القرار كان قراراً غير حكيم.

الإرهابيون في العراق على وجه العموم، وفي جميع أنحاء العالم، سوف يواصلون مهاجمة قواتنا في المكان الذي تكون فيه أكثر ما تكون عرضة للهجوم. ومع كل رجل يقتل أو يجرح أو مع كل امرأة تقتل أو تجرح ومع كل أزمة، ومع كل تحقيق، فإن لعبة لوم واشنطون سوف تمتد لبضع فرص أخرى. بوش يجب أن يطرد، ورامسفيلد يسرح. أنا أتعجب باستمرار من التفكير الضحل الذي يستند إليه مثل هذا التعليق.

الأمور تفشل وتضل الطريق في الحرب. ولو كانت الحرب سهلة ومريحة لكان هناك الكثير جداً من الحروب. الأمريكيون يخوضون الحروب عندما نكون مهددين فقط. وأنا لا أريدها أن تكون على أي طريقة أخرى.

عندما أتأمل في خبرتي طوال العقد الماضي، أتمنى لو أن بعض الأشياء فعلت على نحو مختلف. أتمنى لو أن دون رامسفيلد وكولن باول أجبرا وزارتي الدفاع والخارجية على العمل معاً بشكل أوثق. وأتمنى لو كان هناك نسخة عراقية من مؤتمر بون، لاختيار قائد ومنحه الشرعية على الطريقة نفسها التي تم بها اختيار حامد قرضاي لأفغانستان. وأتمنى لو أن المجتمع الدولي أدخل المزيد من المال وبسرعة أكبر إلى العراق، وأن القوات العسكرية العراقية لم "تحل وتبعد" عندما تحرك جندنا إلى بغداد. أتمنى لو أن هؤلاء الشباب الغاضبين قد التزموا بدلاً من ذلك ببناء العراق الجديد. وأتمنى لو أن الرئيس كلينتون لم ينسحب من الصومال في 1993 عندما عانينا من إصابات في أزقة مقديشو. وأتمنى لو أن مجلس الشيوخ لم يدمر القدرة الاستخباراتية البشرية لأمريكا بعد الحرب الباردة.

في الأيام العصيبة في ما بعد الحرب، طلب مني بعضهم أن ألقى اللوم، أو أشير إلى الأطراف المذنبة، أو أندد بالذنوب المرئية. وقد قلت، وسأواصل القول إن هناك ما يكفي من اللوم ليرضي الطلب. نحن نعيش في مجتمع ديمقراطي، وبلد حر. ونحن نختار قادتنا من أجل حصافتهم المثبتة، ونتوقع منهم أن يستخدموا تلك الحصافة.

وعندما أذكر نفسي أين كنت في 11 أيلول/سبتمبر 2001، أتذكر كيف شعرت، وأتذكر عمق قلقي على أسرتي وبلادي. أمريكا تمر عبر منعطف في التاريخ، إن المستقبل لن يبدو مثل الماضي. لقد رأينا ممارسة الصحافة غير العادية في أثناء زمن غير عادي.

وأنا لم أتفق مع كل قرار اتخذ في السنوات الثلاث الماضية، مثلما لم أتفق مع العديد من القرارات التي اتخذت من قبل. وجدت خطأ في أسلوب دون رامسفيلد الإداري المركزي، وجدت خطأ في التناول غير العملي للأمور لدى دوغ فيث. وغضبت من التكبر الفكري من بعضهم في هذه الإدارة، مثلما كنت غضبت من الظاهرة نفسها في إدارة كلينتون. وكثيراً ما كنت محبطاً من الآراء الضيقة لرؤساء الخدمة في بزارتهم.

ولكنني لم أشك أبداً في ولاء أو في دافع أي من هؤلاء الرجال. لقد استخدموا حصافتهم في وجه قرارات صعبة، مستندة إلى المعلومات المتيسرة.

لو كان علينا أن نعود ونعملها كلها ثانية، مسلحين بما نعرف في هذا اليوم، فإنني متأكد من أن بعض القرارات سيكون مختلفاً.

ولكنني مع ذلك، لست متأكداً من أن جميع القرارات المختلفة ستكون أفضل.

شكراً للقرارات التي اتخذها قادة أمريكا، فشعبا أفغانستان والعراق، وهما أكثر من خمسين مليوناً من الرجال والنساء والأطفال، هم أحرار في هذا اليوم. والإرهابيون لا يخططون بعد اليوم لضربات ضد أمريكا من ملاذات في هذين البلدين. والبلدان المارقة في كل أنحاء العالم قد تلقت إشعاراً بذلك. ونحن لا نحتاج إلى الاعتذار عن هذه النجاحات. وسوف يسجل التاريخ أن إستراتيجية أمريكا لقتال الإرهاب كانت إستراتيجية جيدة، وأن الخطة التي وضعت من أجل عملية حرية العراق كانت خطة جيدة، وأن تنفيذ تلك الخطة على أيدي شبابنا وشاباتنا في القوات العسكرية كان تنفيذاً منقطع النظير في الامتياز لا يدانيه أي شيء في حوليات تاريخ الحرب.

وكثيراً ما أسأل، ما الذي وجدته أكثر إثارة للمفاجأة في أثناء مدة خدمتي في القيادة المركزية. وفي كل حالة أجيب: غياب أسلحة الدمار الشامل المجهزة في أسلحة للرمي.

لقد ذهبنا إلى الحرب لإزالة هذه الأسلحة. ويقول بعضهم الآن إننا وقعنا ضحية فكر غرر بنا لنعتقد أنها موجودة، ولذلك فنحن كنا على خطأ في إطاحة نظام صدام حسين وتحرير العراق.

أنا لا أوافق. ويميل النقاد إلى تجاهل شهادة الدكتور ديفيد كيب في مجلس الشيوخ في شهر كانون الثاني/يناير 2004، وهو خبير الأسلحة الذي قاد مجموعة الولايات المتحدة لمسح العراق والتي جابت البلد بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل لمدة ستة أشهر، ابتداء من شهر حزيران/يونيو 2003.

وقال كبي للجنة الشيوخ: "دعوني أبدأ بالقول، إننا كنا جميعنا تقريباً على خطأ، وأنا بالتأكيد أضع نفسي في الجملة هنا. "وشدد في القول": لقد كان رأيي هو أن أفضل دليل كنت قد رأيته هو أن العراق امتلك فعلاً أسلحة تدمير شامل".

ويجب أن أشير أيضاً إلى أن العديد من الحكومات التي اختارت ألا تساند هذه الحرب، ومنهم بالتأكيد الرئيس الفرنسي جاك شيراك، كما أتذكر في شهر نيسان/إبريل من العام الماضي، أشارت إلى امتلاك العراق أسلحة تدمير شامل.

"والألمان اعتقدوا بالتأكيد، حسب إدارة استخباراتهم، بأنه كان يوجد هنا أسلحة تدمير شامل".

وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر 2003، قدمت مجموعة كبي لمسح العراق تقريرها عن موجوداتهم الأولية. أكد تقريرهم أن برامج صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل "امتدت لمدة أكثر من عقدين، وشملت آلاف الناس، وبلايين الدولارات". وهذه البرامج "كانت محمية عن عمد بالأمن وبعمليات الخداع التي استمرت حتى إلى ما بعد نهاية عملية حرية العراق. "وحتى عندما دخلت قوات التحالف بغداد، كان الضباط العراقيون يدمرون السجلات والتجهيزات المرتبطة بالأسلحة الكيماوية والحيوية.

"بعض العاملين في أسلحة الدمار الشامل عبروا الحدود في فترة ما قبل الصراع وفي أثنائه ويمكن أن يكونوا قد أخذوا الأدلة وأخذوا المواد المتعلقة بالأسلحة".

لقد وجدت مجموعة مسح العراق "شبكة مختبرات سرية وبيوتاً آمنة داخل إدارة الاستخبارات العراقية" وهي التي خبأت بنجاح تجهيزات ومواد البحث في الأسلحة الكيماوية والحيوية عن مفتشي الأمم المتحدة في الأشهر الأولى من العام 2003. ووجدت المجموعة أيضاً دليلاً عن بحث جديد في عوامل الحرب الجرثومية المميتة.

واكتشفت مجموعة كيميائية كذلك العديد من المنشآت الصناعية "مزدوجة الاستخدام" التي كانت قد أعدت خصيصاً لاستئناف إنتاج الأسلحة الكيميائية.

والحقيقة، أن قوات التحالف العسكرية وهي تفتش المواقع المحتملة لأسلحة الدمار الشامل وجدت أطناناً من الكيماويات الوسيطة مخزنة على انفراد منفصلة عن المخزونات التجارية، وكأنها موضوعة لتكون جاهزة للإنتاج السريع.

تقرير كيميائي عالٍ وبوضوح لي: ففي الوقت الذي قد لا نكون وجدنا أكداً من أسلحة الدمار الشامل، فإن ما كشفه التحالف كان مكافئاً لاكتشاف مسدس مفكك ملقى على الطاولة إلى جانب صوانٍ من الطلقات المرتبة ترتيباً أنيقاً.

وإن أي إنسان ما يزال مرتاباً إن كان نظام صدام حسين شكل تهديداً للأمن الدولي في هذا العصر، عصر الإرهاب الدولي، سيعمل عملاً حسناً إن قرأ آلاف الصفحات من الدلائل التي قدمتها مجموعة مسح العراق.

وحتى مع كون مجموعة كيميائية لمسح العراق لم تجد أكداً، فإن كيميائي أكد أن إطلاحة صدام حسين كان نصراً بناءً على أي عدد من الأسس.

قال كيميائي: "أنا أعتقد أن العالم مع اختفاء صدام حسين وإزاحته صار أكثر أمناً. وأعتقد أننا عندما نمتلك السجل الكامل، فإنكم سوف تكتشفون أن [العراق] بعد العام، 1998 صار نظاماً فاسداً فساداً كاملاً. الأفراد يخرجون من أجل حمايتهم الخاصة، وفي عالم نعرف فيه أن آخرين يبحثون عن أسلحة دمار شامل، فإن الاحتمال عند نقطة معينة في المستقبل لبائع ولمشتري أن يلتقيا كان احتمالاً سيجعل العراق بلداً أكثر خطراً بكثير."

وتستمر الاكتشافات: مقذوف مدفعية من عيار 155 ملم مليء بأربعة لترات من غاز السارين، غاز الأعصاب، وجد في بغداد في شهر أيار/مايو 2004، وذلك يبرهن بالتأكيد أن صدام حسين كان يكذب عندما ادعى أنه كان قد دمر كل ذخيرة في أكداً. عندما وجدت هذه القذيفة، في أداة تفجير مرتجلة على قارعة الطريق،

قللت وسائل الإعلام الإخبارية من أهمية هذا الاكتشاف، مدعية أن القذيفة كانت ببساطة بقية "منسية" من حرب العراق مع إيران في الثمانينات من 1980.

ومع ذلك، يظهر لي أن من المهم أن ندرك أهمية سلاح مثل هذا. الحرس الجمهوري الخاص، والحرس الجمهوري، وقوات الأمن الداخلي كانت تعرف بسيطرتها المحكمة على توزيع الذخائر الكيماوية والحيوية. وذلك يترك استنتاجين فقط: إما أن قذيفة غاز السارين غير المتفجرة التي وجدت في بغداد كانت قد أبعدت على أيدي مرتدين خونة أو إرهابيين من كدس تحت السيطرة، أو أنها كانت ذخيرة من مخبأ أكبر لدى النظام. وفي كل حالة من الحالتين، فإن اكتشاف مقذوف غاز الأعصاب في حالة جيدة، وهو مملوء بعوامل قابلة للحياة، يفقد الصدقية لمزاعم النظام التي كانت دائماً موضع ارتياب والتي تزعم أن كل أمثال هذه الأسلحة، أسلحة الدمار الشامل، قد تم تدميرها.

وفوجئت بأن أسلحة الدمار الشامل لم تستخدم ضد جندنا. وفوجئت بأننا لم نجد أكداً من مثل هذه الأسلحة في العراق. ولكنني في المقابل راض من الحقيقة الواقعة وهي أن نظاماً استخدم أسلحة الدمار الشامل لقتل الآلاف من شعبه لن يجد الفرصة أبداً لاستخدامها في أمريكا.

لو سمحت الولايات المتحدة للبعث العراقي أن يسهل الاتصال بين أسلحة الإرهاب الشامل وبين الإرهابيين من أمثال أبو مصعب الزرقاوي لكان هذا أمراً لا يغتفر لها. إن عشرات الآلاف من أوساط الأمريكيين الذين قابلتهم طوال السنوات الماضية أقنعوني بأن الأغلبية من إخواني المواطنين يفهمون ذلك المبدأ ويوافقون عليه.

إنني أتذكر الفيلسوف البريطاني من القرن الثامن عشر إدموند بيرك الذي ذكرنا بأن "الشيء الوحيد الضروري لتحقيق انتصار الشر هو ألا يفعل الرجال الطيبون شيئاً".

يجب على الولايات المتحدة أن تساعد على بناء حكومة عراقية ذات سيادة وتمثيل للجميع. ولكن العمل الواجب أمامنا ضخم. وسوف يستغرق الأمر سنوات قبل أن تتحول صناعة زيت العراق التي أعيد بناؤها إلى حجر الزاوية للربحية. في المرحلة الانتقالية، يجب على التحالف، مع المساعدة من المجتمع الدولي، أن يستمر في منح وإقراض مبالغ ضخمة من المال لإعادة بناء البنى التحتية المادية والإنسانية. صدام والبعثيون نهبوا ثروة العراق للكسب الشخصي. وعلينا الآن أن نساعد شعب العراق إلى أن تستطيع البلاد أن تدفع بطريقتها الخاصة. وإن الفشل في عمل ذلك سيكون قصر نظر إلى درجة مؤسفة. أمريكا مخولة السلطة في مستقبل العراق. وإن ضمان نجاح ديمقراطية عراقية في مركز الشرق الأوسط يعدُّ بربحٍ كبير على استثمارنا.

إن التحالف وشعب العراق يحققون تقدماً، وذلك على الرغم من العرض اليومي من العناوين الرئيسية السلبية. وبعد انتخابات الرئاسة الأمريكية في العام 2004، عندما سيكون 35 بالمائة من القوات العراقية العسكرية ومن قوات الأمن قد تدرب ونشر في الميدان، فإن مستوى العنف وعدد الإصابات سوف يتناقص على الأرجح. إن جاذبية "أثر مدريد" في أمريكا سوف يفقد بريقه لبقية البعثيين ذوي الخط المتشدد ولالإرهابيين، وسوف يبدأ العراقيون أنفسهم بالإحساس ببركات الحرية.

ومنذ شهر إبريل/نيسان 2003، طرت فوق القطع المتنوعة من قنوات الري في قلب أراضي ما بين النهرين. ونظرت إلى هرم الزقورة في مدينة أور، وإلى جدران بابل التي أعيد بناؤها. هذه أرض كان الزمان فيها تقليدياً يقاس بالقرون، وبالألفيات، لا بالعقود - ولا بالشهور بالتأكيد.

ومع ذلك، وللتناقض، فإن الشعب العراقي يتحرق شوقاً إلى التقدم بعد هزيمة النظام العراقي. فالعديدون قضوا حياتهم كلها تحت القمع القاسي، وتوقعوا من التحالف الذي قاده الأمريكيون، واكتسح قوات صدام العسكرية المتباهية وأزاحها جانباً بسهولة كبيرة، أن يعيد بناء بلادهم بسرعة وسهولة مساويتين.

بعد عام من الآن، سيكون العراق بلداً مختلفاً. وتقدمنا المستمر الثابت في أفغانستان هو عامل واحد من العوامل التي تمنحني الثقة بأن العراق سيكون قادراً على أن يوفر لنفسه الأمن في السنوات القادمة.

إن الحالة الأمنية في أفغانستان أبعد من أن تكون كاملة، ولكن الأفغان في الوقت نفسه نشروا في الميدان جيشاً وطنياً وقوات لتطبيق القانون ضرورية لتسمح لبلاد حرة أن تتطور وتزدهر. ومثل البعثيين في العراق، فإن بقايا الطالبان، ومقاتلي القاعدة الأحياء في الجبهة الجبلية الوعرة من جنوب شرق أفغانستان، يعارضون بعنف قيام بلد موحد، ناجح، متعدد الأعراق. ومثل البعثيين أيضاً، فلا الطالبان الذين وصلوا إلى طريق مسدود ولا العربان الإرهابيون الذي بقوا على قيد الحياة قادرون على الأرجح أن يُصلِحوا ويعملوا مع حكومة حامد قرضاي لبناء بلد جديد.

سوف يتوجب سحقهم. وإلى أن يتم استكمال تلك المهمة، سوف تدعو الحاجة إلى وجود قوات التحالف في أفغانستان وفي العراق. في شهر أيلول/سبتمبر في العام 2001، عندما أخذت التصور العملياتي إلى البيت الأبيض للحصول على موافقة الرئيس عليه، توقعت أن تدوم المرحلة الرابعة إلى مدة تطول إلى خمسة أعوام. وكان ذلك منذ ثلاث سنوات. ومن منظوري، فنحن ما نزال على خط التوقيتات ذلك في أفغانستان، ونستطيع أن نتوقع الزمن نفسه في العراق.

وفي الحقيقة، يكشف التاريخ أن الحروب تنتهي في الغالب إلى فوضى، وهي فوضى تستمر لسنوات بعد أن تكون آخر قذيفة من دبابة أو مقذوف من مدفعية قد قذفت. وقد لاحظ حديثاً المؤرخ العسكري البريطاني المشهور جون كيغان أن الحربين العالميتين اللتين وقعتا في القرن العشرين، وانتهتا في هدنة أو استسلام، تبعتهما عقود من العنف المضطرب. وبعد الحرب العالمية الأولى، أشعل انهيار الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية الهنغارية شرارة حروب أهلية في أوروبا الوسطى والشرقية، وفي البلقان، وآسيا الصغرى، دامت طوال سنوات. وبعد هزيمة النازيين في شهر أيار/مايو 1945، اشتعلت الحرب الأهلية في البلقان. وعندما

انتهت الحرب العالمية الثانية في المحيط الهادئ، استمرت الثورات المناهضة للاستعمار بعد الاحتلال الياباني لجنوب شرق آسيا طوال عقد من الزمان.

وفي هذا اليوم، ولأننا ببساطة نقاتل بذخائر الهجوم المباشر المشتركة، وبالمركبات الجوية من دون طيار، وبمتبع القوة الزرقاء، وبالاتصالات عبر الأقمار، فإن هذا لا يعني أن العواطف الإنسانية من الكبرياء، والطمع، والغيرة، وكراهية الأجانب قد أخدمت. هذه الخصائص الإنسانية السلبية منتشرة لسوء الحظ في كل من العراق وأفغانستان معاً. سوف تستغرق سنوات، ولكن السلام والرفاهية سوف يظهران في نهاية المطاف.

إن إحدى الميزات للسفر بالنفثة القيادية هي أن إدارة الطيران المدني تحدد في الغالب ارتفاع الطائرات فوق ارتفاع 40.000 قدم. وأنا أستمتع بالمنظور الواسع للأرض من هذا الارتفاع.

عندما نترك العرض الأخضر لدلتا المسيسيبي، تظهر أمامنا حقول القطن الدائرية المروية من تكساس الشمالية. وأتذكر جهاز حفر الآبار الذي كان لوالدي في ستراتفورد هناك وفوق الأفق الشمالي. ومنذ الطفولة كنت معجباً بالري، بسحر اكتشاف الماء الذي يحول الأرض الجافة إلى أرض خضراء. وكنت أفكر، وأنا أراقب أقواس قزح الصغيرة المشكلة من رشاشات الري على بعد أميال تحتنا، في مئات الهكتارات من الصحراء المروية التي رأيتها في هذا الربيع في إسرائيل.

هبطنا كاثي وأنا في تل أبيب في مساء صاف دافئ في شهر آذار/مارس، مسافرين مع أصدقائنا مارتى ونانسي إدلمان. وكانت هذه أول رحلة لنا إلى إسرائيل. وطوال سنوات كنت أقول لأصدقائي العرب إنني لم أكن أملك "تأشيرة إسرائيلية على جواز سفري" وهذه طريقة غير رسمية لأتركهم يعرفون أنني كنت أفهم جانبهم من القصة. أما الآن فأنا أمتلك تلك التأشيرة.

من الطبيعي أنني كنت لوقت طويل محباً للاطلاع على إسرائيل، بصفتي

عسكرياً وبصفتي الضابط العسكري الكبير لبلادي في المنطقة. ومن منظور عسكري احترافي، فإن قوات الدفاع الإسرائيلية وحدة عسكرية ذات مستوى عالمي. ومن حيث المعدلات والنسب، فقد امتلكوا من الضباط ومن ضباط الصف الذين يتمتعون بالخبرة القتالية الناجحة العدد نفسه الذي امتلكته القوات المسلحة الأمريكية. وكان جندهم منضبطين، ومدربين ومجهزين على نحو عال ممتاز.

ولكن وبصفتي مسؤولاً أمريكياً عالياً كنت دائماً محبطاً من أن كلاً من الحكومة الإسرائيلية والسلطة الفلسطينية تحت يأسر عرفات قد قضوا سنوات وهم يتصارعون من أجل الوصول إلى تسوية تسمح لكلا الشعبين أن يعيشا بسلام. والانتفاضة الثانية التي بدأت في أيلول/سبتمبر من العام 2000 ما تزال تتقد وتلتهب منذ ذلك التاريخ، بتكلفة من آلاف الأرواح من الجانبين. ويبقى الصراع الإسرائيلي الفلسطيني صراعاً مثيراً دائماً بين الولايات المتحدة وبين العديد من البلاد الواقعة في منطقة المسؤولية في القيادة المركزية.

ولن أنسى أبداً اليوم الذي زرت فيه الفريق الأول علي بن محيا، رئيس الأركان العامة في المملكة العربية السعودية، لأناقش معه علاقتنا، العسكري مع العسكري. ولكن الفريق المحيا بدل اتباع جدول أعمالنا ناولني نسخة من جريدة محلية تصدر باللغة الإنجليزية. وعلى الصفحة الأولى كانت هناك صورة كبيرة لطفل فلسطيني في الثامنة من عمره وهو خائف أمام جندي إسرائيلي مدجج بالسلاح، وكان الطفل مذعوراً للغاية حتى إنه بلل بنطلونه.

وقال ابن محيا: "يا جنرال فرانكس، سياسات بلدكم لن تتجح أبداً في الشرق الأوسط طالما يجب علينا أن نرى مثل هذه الصور كل يوم."

كان على حق، طبعاً. ولكن من الصحيح بشكل مساو أن سياسات، وآمال، وطموحات الشعب العربي لن تكون مفهومة أبداً في الولايات المتحدة طالما نحن نرى صور الجثث المشوهة لأطفال المدارس الإسرائيليين معلقة في الحطام الأسود لحافلة ركاب في تل أبيب مدمرة بمفجر انتحاري فلسطيني.

في مسيرتي الوظيفية أمضيت عقوداً أتدرب لأقاتل في حروب كان يجري التكهّن بها على مثل هذه النزاعات التي تبدو عسيرة، من مثل: الحرب الباردة في أوروبا، والموقف المتعادل المتوتر في كوريا الشمالية. وكنت اعتقدت فيما مضى أن النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني يقع في مثل هذا النوع من التصنيف.

بعد ذلك أقنعني صديقي مارتي إلمان بأن أزور إسرائيل.

ظاهرياً، من المستبعد أن نكون أنا ومارتي صديقين. فهو محام موهوب من مانهاتن، وديمقراطي ليبرالي، ولم نتحرك أبداً في الدوائر الاجتماعية نفسها. لقد تقابلنا في الربيع من العام 2002 عندما أعطيت جائزة من مؤسسة الشجاع (إنتريد فاونديشن) على ظهر حاملة الطائرات المسحوبة من الخدمة والتي تحمل الاسم نفسه، وهي الآن متحف عسكري تجلس بكبرياء على منصة في وسط المدينة على نهر هدسون في نيويورك. وقد تلقى مارتي جائزة تحية الشجاع (انتريد سليوت) في الحفل نفسه عن خدمته التطوعية الطويلة لأعضاء الخدمة العسكرية الأمريكية وعائلاتهم.

وجدت عمله مثيراً للاهتمام. فانسجمنا معاً فوراً.

كان القصد من رحلتي إلى إسرائيل هو حضور احتفال البدء بجامعة جديدة متعددة الأعراق تبنى على حدود إسرائيل والأردن. وسوف يشكل الشباب الفلسطينيون، والأردنيون، والإسرائيليون الجسم الطلابي، ويتلقون التعليم على يد هيئة تعليم دولية. وترعى هذه المؤسسة جامعتا كورنل وستاندفورد ومؤسسة تجسير الصدع (بريدجنغ ذا ريفت فاونديشن)، وهي المؤسسة التي ينتسب إليها مارتي.

وغاية المؤسسة هي خلق مركز امتياز وإنجاز أكاديمي، يستطيع فيه الجيل التالي في المنطقة أن يتأمل في مستقبله المشترك، وأن يتقابل أحدهم مع الآخر بوصفهم بشراً لا أعداء، وربما يبدؤون ببناء مجتمعات تستطيع أن تعيش بسلام.

اليهود والعرب كلاهما يمتلكون جذوراً عميقة في هذه الأرض القاسية. ونزاعات المائة الأخيرة من السنين قد لا تُسوَّى في مدة حياتنا، ولكن ربما في أحد

الأيام، عندما يتقابل أبناء الطلاب الذين سيدرسون في هذه الجامعة، في اجتماعات لم الشمل، التي تجمع آباءهم مع زملائهم في فصولهم الدراسية، سيكون هناك كراهية أقل وفهماً أكبر.

وكما هو الحال في العالم العربي إلى حد كبير، فإن الشباب الفلسطيني لا تساوره الأوهام. فهم يرون المستقبل بلا أمل. ومع الافتقار إلى القيادة الأخلاقية القوية، ومع تلقي التعليم في الغالب في خلفيات بيئية متطرفة، فإن هؤلاء الشباب يغويهم أولئك الذين يغرسون فيهم ثقافة من التعصب العنيف التي تكرم انتحار الشهيد.

وقد ساند صدام حسين ونظامه هذا الإرهاب عن طريق تقديم 25.000 دولار أمريكي لعائلات كل متفجر انتحاري فلسطيني، وهي أموال كان يمكن أن تستخدم لبناء المدارس والمستشفيات، ولتوفير الأعمال بدلاً من نشر الموت والتدمير.

لقد رأيت نظراء هؤلاء الشباب في الأزقة الضيقة التي تنتمي إلى القرون الوسطى في اليمن وفي مدن الأكواخ في كراتشي، وفي الأميال التي لا نهاية لها من المشاريع الحكومية للإسكان الممتدة إلى الصحراء السعودية من الشوارع العريضة المزروعة بخطوط النخيل في الرياض وجدة. إن هؤلاء الشباب والشابات، وهم يواجهون بطالة مزمنة، ومجتمعات لا مكان فيها للتقدم الذي يستحقونه، ويفريهم رجال الدين المتطرفون الذين خطفوا وشوهوا الجوهر السلمي للإسلام، هم جيش من الإرهابيين المحتملين.

إذا كان لدورة العنف أن توقف، في أي وقت، فسوف يتوجب على قادة إسرائيل القادمين، وقادة فلسطين المستقلة، وقادة بلدان أخرى عديدة جداً في المنطقة، أن يبنوا مستقبلاً منتجاً من أجل "فوج الشباب" هذا، الذي يعاني الحياة لا الاستشهاد، والذي يكافئ الإنجاز والتسامح. وهذا تحد هائل - تحد يرى كثيرون جداً أنه لا يقهر.

ومع ذلك فعندما وقفنا كاثي وأنا في موقع هذه الجامعة الجديدة، في بساتين الزيتون القديمة وفي كروم العنب حيث تلقى الوحي أنبياء أديان العالم الثلاثة التوحيدية(*) الكبرى، وجدت أنا سبباً ذا مغزى للتفاؤل.

نعم، هناك سبب للتفاؤل، على الرغم من العرض اليومي للأخبار السيئة.

في 11 أيلول/سبتمبر 2001، عانت أمريكا أسوأ هجوم منفرد في تاريخ أمتنا. ومنذ ذلك الوقت، تصرفنا تصرفاً حاسماً للدفاع عن أرض وطننا ولهزيمة أنظمة إرهابية وجماعات إرهابية في ما وراء البحار. مقر القاعدة، وهو ملاذها السابق الذي لا يخترق، قد تم تدميره، ومعظم كبار قادتها قتلوا أو أسروا. ومصير أسامة ابن لادن يبقى مجهولاً، ولكنه لم يبق قادراً بعد اليوم على أن يتآمر ويمول هجمات جسورة في الملجأ الآمن من أفغانستان... وفي يوم سوف يتم "إحضاره للعدالة".

وقد خطا المجتمع الدولي، ومن جملته الحكومة السعودية، والأوروبيون خطوات ضخمة في قطع النسيج الذي يعمل في الظل، والمنتشر عبر الأمم، من المساندة المالية التي كانت في الماضي تغذي أكبر الجماعات الإرهابية. واتحدت الأمم معاً لتتقاسم المعلومات الاستخبارية ولتتعاون في عمليات سرية تستهدف الإرهابيين قبل أن يستطيعوا توجيه ضرباتهم.

في 7 أيلول/سبتمبر 2001، كنت قد عبرت عن القلق من أن هجوماً كبيراً على التراب الأمريكي يمكن أن يشعل شرارة خوف عام ينتشر فيعود إلى القانون العسكري. ولكن مخاوفي أثبتت أنها بلا أساس. ويسود في أمريكا حكم القانون، القانون المدني. ووضعت الإدارة ومجلس الشيوخ الخلافات الحزبية جانبا في أعقاب 9/11 وتصرفوا بسرعة لسن القانون الوطني، الذي مهد الطريق لإنشاء وزارة الأمن الوطني ووفر للشعب الأمريكي حماية أفضل مما كان لديه في الماضي. وعندما ينتهي عام الانتخابات هذا، فإنني آمل أننا سنتترك السياسات الحزبية مرة ثانية خلفنا ونركز على تهديد هو من أخطر التهديدات التي سبق لأمريكا أن واجهتها.

(*) هذا كلام غير دقيق ما لا يخفى على القارئ الكريم، عيسى عليه السلام هو فقط الذي تلقى الرسالة في فلسطين.

في شهر آذار/مارس 2004، قدمت شهادة أمام لجنة من الهيئة الوطنية للهجمات الإرهابية، هيئة 9/11، في جلسة مغلقة. وكنت أحب أن أتحدث بصراحة لا تهرب فيها لمناقشة قضايا جوهرية على مستوى سري، ولم أكن بحاجة إلى الدعاية العلنية التي وجدها المسوقون لذواتهم حديثاً في جلسات الاستماع المتلفزة. وسألني واحد من أعضاء اللجنة وقال: "يا جنرال، ماذا كان يمكن أن يُعمل لمنع 9/11".

وطوال الساعات العديدة التي تلت عرضت رأيي الأمين، مبتدئاً بالتفجير الإرهابي لمهاجع قواتنا من مشاة البحرية في بيروت، في لبنان في العام 1983. ومتابعاً إلى هجوم الشاحنة المتفجرة في مركز التجارة العالمي في العام 1993، وتفجير أبراج الخبر في المملكة العربية السعودية في العام 1996، وتفجيرات السفارتين في إفريقيا الشرقية في العام 1998، والهجوم على سفينة الولايات المتحدة كول في عدن في اليمن في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2000. ثم وصفت الخبرة الأمريكية في مقديشو في الصومال، في شهر تشرين الثاني/أكتوبر 1993. وقلت: "إن رأيي هو أن الإرهابيين كانوا يقتلون أمريكيين طوال أكثر من عقدين".

وفي أثناء ذلك الوقت لم نحافظ على الميزانيات والسلطة من أجل جمع المعلومات الاستخباراتية: الاستخبارات البشرية، والتجسس، والجواسيس حسب التصرفات القديمة الجيدة، وهم أحياناً جواسيس موثوقون، لم نحافظ عليها لتبقى على قدرتها على التماسي مع التهديد. وحتى هذا اليوم، فإن وكالة الاستخبارات المركزية لا تمتلك إلا نحو أحد عشر ألف ضابط في هذه الحالة فقط يعملون في كل أنحاء العالم، وهو سجل للخدمة السرية أصغر بكثير مما كان في أثناء الحرب الباردة. ومن المؤكد أن الولايات المتحدة وفرت المال وهي تخفض في ميزانية الاستخبارات البشرية. ولكن الحرية ليست مجانية. ولم يسبق أن كانت.

وقلت لهم، أمريكا ليست هي المسؤولة عن الإرهاب، ليس جورج دبليو. بوش، وليس بل كلينتون، الإرهابيون هم المسؤولون عن الإرهاب.

وبالنسبة إلى الإرهابي، فإن الضعف الوطني، أي، الميل إلى القطع والهرب، يبدو بالضبط مثل الضعف الوطني. والدروس التي حملها الإرهابيون من هذه الهجمات المبكرة على أمريكا كانت بسيطة: إذا قتلت الأمريكيين فإنهم سيخرجون.

تلك كانت الحكمة السائدة بين الإرهابيين، حتى 7 تشرين الأول/أكتوبر، عندما بدأت ذخائر الهجوم المباشر المشتركة تتساقط على مهاجع طالبان في قندهار ومعسكرات القاعدة في ديورانتا. وبعد شهرين، عرف الإرهابيون أنهم لم يبقوا قادرين على ضرب أمريكا مع الإفلات من العقوبة. وفي شهر آذار/مارس 2002، عندما قام الأوروبيون، والأستراليون، وخيالة العمليات الخاصة الأمريكيون والشباب الصلب من المغاوير ورجال المشاة يدأ بيد وهزموا الإرهابيين الباحثين عن ملجأ في السلاسل الثلجية فوق وادي شاهي كوت، عندها تعلمت القاعدة أنهم كانوا يقاتلون تحالفاً وليس أمة منفردة.

وأنا أسأل مراراً: "هل تعتقد أن الثمن الذي تدفعه أمريكا بالدم بالحرب على الإرهاب هو ثمن مبرر؟"

وأنا أجيب دائماً: "طبعاً. وأنا لا أختلف عن أي رجل في حبي لجنودي، ومازلت أعتبر نفسي جندياً. ولكنه كان ضرورياً في الأغلب في تاريخ أمتنا أن تقاتل من أجل حرياتنا، ولم يكن ذلك في السابق أكثر ضرورة أبداً منه في هذا اليوم. ويبدو لي أن مقاتلة الإرهاب له علاقة مع أطفالنا ومع أحفادنا أكثر من علاقته بنا."

في أعقاب النصر العسكري للتحالف في العراق، تم تعلم درس آخر: وهو أن أمريكا سوف تلتزم باستخدام قواتها العسكرية بشكل حاسم لحماية نفسها ولحماية أمن العالم. وانتشرت الرسالة سريعاً.

وكانت إحدى العلامات المبكرة للتقدم هي ذلك التحول الكامل من الرئيس معمر القذافي رئيس ليبيا. لقد أقر القذافي، وهو خصم طويل الأمد نحو أمريكا،

في أواخر العام 2003 أن نظامه كان قد صرف مئات ملايين الدولارات في تطوير أسلحة الدمار الشامل، ودعا المجتمع الدولي إلى التدخل وسلّم ما لديه من مشاريع أسلحة الدمار الشامل. وهناك أولئك الذين يعتقدون أنه تصرف بإخلاص وأمانة، في نهاية مفاوضات سرية طويلة المدة، قد يكون ذلك كذلك. ولكنني أود أن أفترض أن منظر دبابات أبرامز وهي تدرج عبر قلب بغداد، في أقل من شهر بعد بدء عبورها خط البدء في الكويت، قد يكون أعطى القذافي حافزاً قليلاً. وإذا كانت صور سي ان ان للدروع الأمريكية وهي في بغداد لم تكن مقنعة إقناعاً كافياً، فإن منظر صدام حسين الوسخ والملتحي وهو يسحب من حفرة في فسحة مزرعة بالقرب من تكريت ربما يكون قد شجع الرئيس القذافي لإعادة النظر في أولوياته. لقد بقي صدام حياً ليواجه نظام العدالة لعراق حر. أما ولداه الوحشيان عدي وقصي فقد قُتلا على أيدي خيالة الفرقة 101 المنقولة جواً بعدما خانهما واحد من زملائهما البعثيين السابقين ليقبض الجائزة المالية من التحالف.

وعملية حرية العراق استحثت عمل مفتشي الأمم المتحدة عن الأسلحة كذلك. والوكالة الدولية للطاقة النووية، وقد شجعتها الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، بدأت تمارس ضغطاً قوياً على الإيرانيين. ولم يبح الماللي الذين يديرون الحكومة في طهران حتى الآن بالطبيعة الحقيقية لمشروع أسلحتهم النووية. ولكن العالم يعرف ماذا يفعلون لأن الوكالة الدولية للطاقة النووية قد أصدرت تقريراً مفصلاً عن مشروعهم لليورانيوم المخصب. وقد أصدرت الوكالة الدولية للطاقة النووية، وبشكل مهم، قراراً يطالب بأن تقوم كوريا الشمالية بإعادة السماح بدخول المفتشين الدوليين للقيام بمسح منشآت الأسلحة النووية لتلك الدولة المارقة.

تميل النفثة الصغيرة وتنزل بضعة آلاف من الأقدام. وبعيداً من ناحية الجناح الأيمن الضيق، تدرج سهول تكساس الوسطى وتظهر خضراء بفضل الأمطار الغزيرة الحديثة، ومع ذلك، فأنا أرى خطأ من أعمدة الغبار البني البعيد، عموداً تلو الآخر.

منظر مألوف: رتل من العربات المدرعة تتحرك مبتعدة مسرعة على طريق وسخ. ومع تشكيل أعمدة الغبار أشكال أهلة على جانبي الطريق، تلتع الشمس وتتعكس عن ريش الدوّار من طائفة عمودية مسلحة قريبة. أنا أعرف الأرض، إنها فورت هود، وأتذكر الأيام الطويلة والليالي التي قضيناها ونحن نحزم فرقة الخيالة الأولى لنشحنها إلى عاصفة الصحراء.

وتلك الدبابات التي تخبط عبر الأشجار الشائكة إلى هذا البعد تحتنا تذكرني بدبابات أبرامز التي أرسلها لواء العقيد راندي هاوس صاعدة في وادي الباطن في شهر شباط/فبراير في العام 1991. ولكن التشابه تشابه سطحي. فالرقباء والملازمون الذين يقودون الدبابات التي أراها في هذا اليوم يتابعون تقدم وحداتهم على شاشات حواسيب مربوطة بشبكة. وهم يتواصلون صوتياً وبالبيانات مع الأنساق العليا على وصلات لاسلكية مأمونة. ورجال الدبابات مدعومون بمدفعية الجيش الصاروخية ومدفعية المقذوفات التي تطلق ذخائر دقيقة التوجيه على إحداثيات وفق النظام العالمي لتحديد المواقع التي يتم تحديدها في الغالب بقوات العمليات الخاصة التي تكون قد دخلت أمام الدروع والمدفعية بوقت متقدم بواسطة المظلات أو بالطائرات العمودية.

وعلى سرعة هذه النفثة، تختفي ميادين الرماية في فورت هود في بضع دقائق. ولكنني رأيت ما يكفي. ففي شهر أو ما يقاربه ستكون تلك المعدات على الرمال الشاوية لمركز التدريب الوطني في فورت إروين، في كاليفورنيا. ولكن الجنود لن يعملوا في إدارة مجرد تمرين للجيش. سيكونون في تدريب مع مشاة البحرية، والقوات الجوية، وطياري هورنيت البحرية، والقبعات الخضراء من فورت براغ. سيكونون في تدريب يصقل مهاراتهم معاً: السرعة، والمرونة، وقوة النيران المشتركة. وجه الحرب الحديثة.

يجري إحداث تحويل للقوات العسكرية الأمريكية. والقالب الذي وضع لذلك التحول كان قد تشكل في جبال أفغانستان وصحاري العراق.

في أثناء تدريب الجند، وهم يأملون ألا يتوجب عليهم ثانية أن يعبروا حافة حدود أخرى مسرعين عبر صحراء أجنبية نحو عاصمة بعيدة، فإنهم سوف يمتلكون منظوراً فريداً عن فعالية عقيدة أمريكا الجديدة عقيدة قتال الحرب المشتركة.

وهذا لسبب هو أننا نعرف الآن من العسكريين العراقيين أنفسهم، ما الذي كانوا يفكرون فيه بشأن عملية حرية العراق. فبعد نهاية المرحلة الثالثة مباشرة في العام 2003، أمر الوزير دونالد رامسفيلد بإجراء استعراض سري عن "دروس العدو المستفادة". وقام الأدميرال إد غيامباستياني من قيادة القوات المشتركة وزمره بمقابلة العشرات من الضباط العراقيين والمسؤولين الحكوميين، الذين كان معظمهم تواقين لقص قصصهم. وكان خمسة عشر من هؤلاء القادة في قائمة القيادة المركزية للمطلوبين الرئيسيين من الخمسة والخمسين الذين رسمت صورهم على ورق الشدة.

وما برز من هذه الاستجابات لاستخلاص المعلومات كان صورة قوات مسلحة مجهزة تجهيزاً جيداً، ولها في الغالب قيادة عسكرية جيدة على مستوى اللواء، والفرقة وحتى على مستوى الفيلق. ولكن المنظور الأوسع كشف عن هيكل قيادة هش، وثقيل في القمة وسلطوي بشكل متصلب.

وكما هي الحال مع معظم القادة الشموليين، فقد كان صدام حسين قلقاً يهجم لا بالدفاع عن بلده، ولكن ببقائه هو. وعاش مرؤوسوه، المدنيون والعسكريون على حد سواء، برعب من العقاب التعسفي.

وقد لخص طارق عزيز نائب رئيس مجلس الوزراء هذه العقلية في ملاحظة واحدة وقالها للفريق الأمريكي: "ليس مسموحاً لك أن ترفع رأسك فوق رأس أي واحد حولك. كان ذلك خطراً جداً."

وعدم رغبة صدام وولديه بقبول الأخبار السيئة كان مناسباً بشكل كامل لحدوث قرارات تشوبها العيوب في سلسلة القيادة. وفي إحدى المناسبات في أواخر العام 2002، وعندما كان التحالف يبني قواته ويحشدتها في المنطقة، امتلك ضابط

كبير عراقي الجسارة ليخبر صدام حسين في أثناء اجتماع مخصص للإستراتيجية بأن الدفاعات الثابتة لعاصفة الصحراء لن تكون فعالة ضد أسلحة الحرب المشتركة، المتعاونة التي يمكن أن تواجهها الدفاعات. وجزءاً لأمانته فقد أعدم ذلك الضابط.

وقد أكد تقرير دروس العدو المستفادة أن صداماً وكبار قادته العسكريين كانوا في الحقيقة واقعين تحت تأثير عملنا الخداعي، واستمروا مقتنعين بأن الهجوم الرئيسي للتحالف لن يأتي من الجبهة الضيقة في الكويت. وكان تحليلهم في جزء منه مستنداً إلى اعتقادهم بأن سلاح مشاة البحرية الأمريكي "لا يقاتل أبداً بعيداً عن البحر". ولذلك، فلا بد أنها كانت مفاجأة مريرة لهم عندما درجت دبابات مشاة البحرية والعربات المدرعة الخفيفة إلى داخل شوارع بغداد وبعدئذ إلى تكريت، على مسافة خمسمائة ميل تقريباً من شواطئ الكويت.

وزيادة على ذلك، فإن القادة العراقيين كانوا على يقين من أن قوات التحالف لن تتقدم إلى مسافة بعيدة أبداً إذا هم شنوا الهجوم من الكويت ولكنهم بدل ذلك سيحاولون الاستيلاء على حقول الزيت الجنوبية لتكون إغراء للمساومة. وكان تحليل العراقيين مستنداً إلى الافتراض بأن قواتهم كانت تستطيع أن توقع خسائر غير مقبولة في صفوف التحالف وعلى الافتراض بأن "الأمريكيين لن يتحملوا الإصابات".

وحتى بعد أن بدأت سفن فرقة المشاة الرابعة بالتحرك جنوباً عبر قناة السويس في أواخر شهر آذار/مارس، فإن جهود الخداع المستمرة من التحالف في العواصم الإقليمية أنتجت أخباراً في وسائل الإعلام العربية تروي أن فرقة المشاة الرابعة سوف تنزل في ميناء العقبة الأردني وتهاجم مباشرة عبر الصحراء الغربية نحو بغداد. والعسكريون العراقيون التقليديون فكروا دائماً أن فرقة المشاة الرابعة الثقيلة يجب أن تكون قوة غزونا الرئيسة. وعملياتنا الخداعية لعبت على ذلك الميل العقلي الثابت.

وفي 2 نيسان/إبريل، حتى عندما كانت فرقة المشاة الثالثة عبر ثغرة كربلاء، أخبر قائد فيلق الحرس الجمهوري مرؤوسيه بأن عمليات التحالف في الجنوب كانت حيلة، وأمرهم بأن يعيدوا التمرکز للدفاع عن بغداد من ذلك التهديد. وقد حاول الحرس الجمهوري أن يعيد تمرکزهم. ولكن عنصر طيران التحالف قصفهم على مدار الساعة.

في الأيام الأولى من الحرب، تحركت قوات التحالف بسرعة وعلى مسالك غير متوقعة إلى درجة لم يكن معها العديد من قادة الفرق العراقيين قد امتلكوا فكرة عما كانت عمله تقدمات الفيلق الخامس وقوة حملة مشاة البحرية الأولى.

وما إن بدأت العمليات الجوية بقذف الذخائر الموجهة بدقة، حتى تقوض هيكل العدو للقيادة والسيطرة. وعندما عانت دبابات منفردة وقطع مدفعية من ضربات مباشرة من ذخائر الهجوم المباشر المشتركة في أثناء ذروة الأيام الثلاثة من العاصفة الرملية، فإن معنويات العراقيين انهارت فجأة. وقد دعا قائد لواء عراقي الذخائر الموجهة بدقة باسم "الرصاص التي تخترق القلب من دون أن تلمس الجسد".

تشبيه مجازي جيد يعبر عن الحملة كلها.

عندما أفكر في السنوات الأربع التاريخية الماضية، أتأمل في الرجال والنساء الذين خدمت معهم، إنهم أبطال، وكل واحد منهم بطل. جون أبي زيد وهو الآن قائد القيادة المركزية، ويرتدي أربع نجوم، وأنا أسمىه الصديق. رايفل دولونغ ودوايت براون متقاعدان، وكلاهما الآن يعيش في تامبا، وأراهما مراراً. تشك وولد هو الآن بأربع نجوم، يخدم في القيادة الأوروبية في ألمانيا، بز موسلي، جنرال آخر بأربع نجوم يخدم في واشنطن. ويللي مور يعمل في وزارة الدفاع مع تيم كيتنغ، الذي تم ترشيحه لنجمة رابعة وسيكون قريباً قائد القيادة الشمالية. ديفيد ماككيرنان ما يزال قائد الجيش الثالث وقوات الجيش في القيادة المركزية. وسكوت والاس هو قائد مركز الأسلحة المشتركة للجيش في فورت ليفينورث في كنساس، ودان ماكنيل، هو الآن جنرال بأربع نجوم، ويقود قوات الجيش في الولايات المتحدة.

تيم كونواي ما يزال يقود قوة حملة مشاة البحرية الأولى. إيرل هيلستون تقاعد في كارولينا الجنوبية. ديل ديلي يعمل في العمليات الخاصة في ماكديل في قاعدة القوات الجوية، وغاري هاريل، وهو الآن جنرال بنجمتين، ويبقى قائد العمليات الخاصة للقيادة المركزية. فان موني، وهو الآن أدميرال بنجمة واحدة، ويعمل في أركان البحرية في وزارة الدفاع، وغرينش جيوديك يعمل بجدة في القيادة المركزية. وجيف كيمونز جنرال بنجمتين في واشنطن. جين رينيوارت، وهو الآن جنرال بثلاث نجوم في هاواي مع قيادة المحيط الهادي. ديني جاكسون تقاعد في تامبا، وروكي روب ذهب إلى أركان البحرية في وزارة الدفاع، وجيم ويلكنسون عاد إلى البيت الأبيض.

بات هيلي و"هانك" ما يزالان يعملان للوكالة. والسفير مارتي تشيشيس، مستشاري السياسي الأول، تقاعد إلى كولورادو. والسفير ديفيد ليت، خلفه، ما يزال يعمل مع جون أبي زيد. العقيد مايكل هيز، الذي تقاعد في الصيف الماضي، يعمل معي في كل يوم.

إنني شاكر لهذه العصابة من الإخوان. لقد أثروا حياتي.

بعد أن ألقيت الخطاب في كاليفورنيا، توقفنا لبضع ساعات في ميدلاند.

أنا أقول: "يجب أن نحصل على البنزين في مكان ما على طول الخط. ويمكن كذلك أن نحصل على بعض ذلك الشواء الجيد، أيضاً."

وانطلقنا، كاثي وأنا عبر شارع بغ سبرنغ من أجل زيارة قصيرة إلى قبور جماعتي في ريستهافن ميموريال بارك. وكان صباحاً صيفياً حاراً في غرب تكساس.

وقطع أرض العائلة متقاربة معاً في الظل الخفيف: أبي، ري، وأمي، لورين، وخالتي ميلدريد وخالي بوب، ودوسي، وبيتي، وجوني ودوري جين. جميعهم هنا، وجميعهم في المتوى الأخير.

وعندما رأيت قبر أبي، ابتسمت، تذكرت شيئاً أخبرني به عندما كنت في العقد الثاني من العمر، أصارع في أزمة منسية منذ مدة طويلة.

وكان قد سألني: "ماذا ترى أنك ستعمل حيالها، يا تومي ري؟"
وقلت له: "لا أعرف. إنها كلها مربكة جداً."

نظر إلي بابتسامة لطيفة. "تذكر هذا يا ولدي. لا تحتاج بالضرورة إلى معرفة أي شيء ليكون لك رأي."

ومنذ ذلك الوقت كنت ما يمكن أن تسميه عنيداً في التشبث برأيي، على الرغم من أنني عندما صرت راشداً، أود أن أعتقد أنني اكتسبت الآراء التي امتلكها.

عندما أعلن صديقي جورج تينت، مدير الاستخبارات المركزية، عزمه على التقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية بعد سبع سنوات من الخدمة القاسية، أطلق إعلانه عاصفة نارية في تأملات وسائل الإعلام.

قال أحد المعلقين: "إنه يريد أن يغادر قبل أن ينشر تقرير 9/11."

وقال عالم آخر: "إنه يسدي معروفاً للرئيس جورج دبليو. بوش."

وقال آخر مع ذلك: "إن فترة توليه المسؤولية في وكالة الاستخبارات المركزية سوف تسجل في التاريخ على أنها فشل ما لم يتم القبض على أسامة بن لادن قبل أن يغادر."

والحقيقة هي أن جورج ووكالته عملوا في عالم من اللايقين. وكان من حقه طبعاً أن يتخلى عن السلطة في أي وقت يشعر فيه أن ذلك التخلي كان هو الأمر الصحيح لصالح نفسه ولبلاده. في يوم ما ربما تتنحى وسائل الإعلام جانباً لمدة طويلة لتتيح له أن يقص قصته الخاصة.

وقد ذكر كولن باول حديثاً أنه كان محبطاً لأن بعض المعلومات الاستخباراتية عن برنامج العراق لأسلحة الدمار الشامل كانت "غير دقيقة وخطأ وفي بعض الحالات مضللة عن عمد." وتلك، طبعاً، هي طبيعة المعلومات الاستخباراتية

البشرية. والمسألة ليست إن كان مصدر معلومات الاستخبارات يقول الحقيقة أم لا، المسألة هي إن كان جورج تينت، وكولن باول، والرئيس جورج دبليو. بوش قد صدّقوا أن المعلومات كانت صحيحة. أعتقد أنهم صدّقوا. وأعرف أنني صدّقت. ولست آسفاً على دوري في تجريد العراق من السلاح وإزاحة نظامه البعثي.

كانت الشمس والغيوم المنتفشة تتبادلان النور والظلال على الأعشاب. والقبور يرين عليها الصمت والهدوء.

وكاثنى تقف معي، مثلما فعلت طوال أكثر من خمسة وثلاثين عاماً. وتحدثنا عن جاكى وباتريك وعن الأحفاد، آن كاترين، وصامويل توماس. وباتريك الآن مقدم، ويخدم مع مستشاري السابق وصديقي الطيب الجنرال المتقاعد غاري لوك.

وجاكى، تمشي على خطى أمها، وقد سجلت في كلية دراسات عليا في جامعة جورج واشنطن. وأن كاثرين، وعمرها الآن سبعة أعوام، تتلقى دروساً في البيانو والتحقّت بفريق سباحة محلي مثلما فعلت أمها عندما كنا نعمل في وزارة الدفاع في أواخر السبعينيات من 1970. وسام، وهو الآن في الرابعة من عمره، يقضي الوقت على "جمبالاين" وهو يعد نفسه لحياة مثل رجل عنكبوت (سبايدرمان).

ونتحدث عن بيتنا الجديد في مزرعة إليس فاملي في أوكلاهوما وعن ونيوود وهوبارت حيث ولدنا. ونتحدث عن أم كاثنى، غينيل، وعن أبيها الدكتور أوتو غارلي الذي مات في العام 1983.

عائلة كاثنى هي عائلتي، جدها جيمي إليس كان هو الجد الوحيد الذي عرفت دائماً، وعمها دون إليس قريب لي مثل أخي. وأخوها جيمس وأختها كارين هما الأخ والأخت اللذان لم يكن لي غيرهما.

وانهمرت الدموع عندما نظرت إلى شاهد قبر أبي: ري دبليو. فرانكس، 1914-1987، محارب في الحرب العالمية الثانية.

وتتمت: "الرجل لم يمتلك أبداً كرسيّاً هزازاً".

وتضغط كاثي على يدي: "ما من ولد كان له أب أفضل أبداً".

وأومات برأسي، وقد غلبتني العاطفة. لقد علمني ذلك الرجل كثيراً: قيمة الحقيقة، والشرف، والواجب، والاحترام، والكرامة... والحب غير المشروط.

تلك المقبرة القديمة تضم قبور العديدين من قدماء المحاربين مثل والدي: رجال قاتلوا في أنزيو(*)، ونورماندي(**)، الذين طاروا في بي-17 في القذائف الألمانية المضادة للطائرات، والذين قاتلوا الكاميكازي(***) اليابانيين ليطردهم من أوكيناوا، والذين نزفوا على ثلوج كوريا وفي حقول الرز في فيتنام. وتضم قبور جنود مثل محارب عاصفة الصحراء الرقيب المعلم دوغ إيكليستون، وهو رجل إنقاذ مظلي من القوات الجوية قتل في كانون الأول/ديسمبر 2001 في مهمة إنقاذ في الأطلسي. نحن ما نزال أمة في حرب. والعالم نفسه، وليس فقط منطقة مسؤوليتي السابقة، هو "جوار خطر".

وعندما غادرنا المقبرة، كنت أفكر في لحظة من فترة أخرى كانت فيها أمريكا موضع امتحان عميق: في ذروة الأزمة الإيرانية للرهائن في العام 1979، عندما كنت شاباً برتبة رائد. وفي إحدى الليالي كنت محبطاً، وقلقاً بعد أن شاهدت أخبار التلفزة تصرح للعالم بأن إرادة أمتي قد "انكسرت" عندها جلست وكتبت قصيدة أسرت مشاعري.

(*) مدينة إيطالية، على البحر التيرني جنوب شرق روما، أنزل فيها الحلفاء قواتهم في العام ١٩٤٤م، في الحرب العالمية الثانية.

(**) منطقة فرنسية كانت شواطئها النقطة المركزية لإنزال الحلفاء في ١٩٤٤م في الحرب العالمية الثانية.

(***) الطيارون اليابانيون الذين كانوا يقومون بهجمات انتحارية بطائراتهم ضد السفن الأمريكية في الحرب العالمية الثانية.

حكاية أرمجدون

في سالف الزمان كانت هناك أرض اسمها الحرة، قراصيا محاطة بالعليق الأقل. وكان الناس هناك في قديم الزمان فخورين بمنّ الحرة، وهو جوهر عجيب يعرف باسم الإرادة.

وكانت الإرادة، على ما يبدو، هي المصونة فوق كل ما عداها في أرض الحرة، لأنها كانت هي الدرع الذي حمى الحرة من العليق الأقل. وكما تقول الحكاية، كانت الإرادة محفوظة في حالة العقل. والوطنيون الحقيقيون للحرة كانوا يعرفون أنه إذا كانت حالة العقل سوف تتردد أبداً، فإن الإرادة سوف تضيع وسوف يلتهمهم جميعاً العليق الأقل.

وهكذا كان ذلك منذ أعوام وأعوام.

بعد خمسة وعشرين عاماً، وبرغم 9/11 والحرب العالمية على الإرهاب، فنحن ما نزال أرضاً اسمها الحرة. ولكن عليق الحسد والإرهاب يهددنا. وأنا أمل أننا لن ننسى أبداً قيمة الإرادة.





نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

شكر وتقدير

عند الإعراب عن الشكر والتقدير، لكل أولئك الذين ما كنت بدون مساعداتهم وإلهامهم لأكتب هذا الكتاب، فإن أول من يخطر في فكري هم أصدقائنا مارتي ونانسي إلمان و"الأبناء" ماثيو وجين، وماجي وبرايان. إن دافع مارتي، وطاقتها، وذكاءها، وإن إخلاص نانسي غير المسبوق للعائلات العسكرية كان له أثر عميق في نفس كاثي ونفسي. وسوف تبقى ممتين لصداقتنا معهم إلى الأبد.

وقد انتهى بحثي عن وكيل أدبي عندما وجدت أفضل وكيل وهو مارفن جوزيفسون، والمؤسس الأسطوري للإدارة الدولية الخلاقة. لقد أرشدني مارفن في خلال عالم جديد. ونهزني عندما كان ذلك ضروريا، وساعدني على العثور على متعاون وناسر، وذكرني مرات عديدة في أثناء مسار الكتابة بأن "أحداً لم يسبق أن قال إن الأمر سيكون سهلاً". شكراً لك يا مارفن.

وجاء المتعاون معي، مالكولم ماكونيل، بالمؤهلات الصحيحة تماماً، فهو صحفي ومؤلف أو مؤلف مشارك لأكثر من عشرين كتاباً، وسبق له أن خدم في الخدمة الخارجية في الشرق الأوسط وفي الخدمة العسكرية. لقد أحببته في اليوم الذي تقابلنا فيه وحظي منذ ذلك الوقت باحترامي وإعجابي. وكان عمله، بمساعدة ومساندة زوجته، كارول، عملاً رائعاً حقاً. شكراً لكما يا مالكولم ويا كارول على عملكما الشاق، وعلى توفركما بإخلاص على هذا المشروع، وعلى مشاركتنا معكم في موهبتكما التي تفوق حد التصديق.

وإن جين فريدمان وجوديث ريغان من هاربركولنز وريغان بوكس هما أنجح ناشرين في العمل التجاري لسبب بسيط، وهو أنهما الأفضل. شكراً، يا جين، لإيمانك بقصتي، وشكراً، يا جوديث، لأنك أبرزتها إلى الحياة. والفريق العامل

في ريغان بوكس كله فريق غير عادي، وليس هناك ناشر أفضل من كال مورغان. فهو وموظفوه جعلوا هذا الجهد قابلاً للعمل. فشكراً للمساندة، وللمهارة الاحترافية، وللهمزات اللطيفة التي كانت توجه إلي عندما كنت أحتاج إليها فقط.

وشكري الخاص أيضاً موجه إلى مايكل هيز وزوجته الرائعة، كيللي. وعمل مايكل في كل صفحة وفي كل فكرة من أجل هذا الكتاب كان "قيمة مضافة". مايكل هيز، وهو معروف أيضاً باسم "مافريك"، كان صديقاً ومؤتماً على الأسرار الشخصية منذ أن خدمنا أولاً معاً في بامبرغ، في ألمانيا في 1981. وهو لم يساعدني على أن أكتب القصة وحسب، بل ساعد على أن أصنعها. يا مايكل، أنا مدين لك. جين هاغلر بايكزيك يعمل مع مايكل ومعني في كل يوم. شكراً على احتمالكم من دون شكوى دخان السيجار، وشكراً لمشورتكم الحكيمة، وشكراً على إبقاء كل شيء في مكتبنا المشغول انشغالا دائماً سائراً باستمرار.

عديدون من الناس ساعدوا بالبحث، وبالمعلومات الخلفية، وبتوكيد الحقائق. لقد كان جين رينيوارت يساوي وزنه ذهباً، فهو أفضل رجل عمليات خاصة سبق لي أن قابلته وهو أفضل صديق كان يمكن لقائد عسكري كبير أن يحظى بصداقته. وشكري أيضاً لجون أبي زيد، ومايكل دولونغ، ومايكل "بز" موسلي، وغاري هاريل، وديل ديلي، وروكي روب، وجيم ويلكينسون، وفان موني، وجون مولهولند، وجيف هينز، وكريس "غرينش" جيوديك، ودان فيتزجيرالد، ودتش هوللاند، ولي آلي، وتشارلز "تشيك" هاتون، ولاري ديريتا، وهوغ شيلتون، ودونالد رامسفيلد، وديك مايزر، وبيتر بيس، ونوردي شوارتز.

كنت محظوظاً برؤساء عظماء، وبمرؤوسين عظماء، وبأصدقاء عظماء طوال مساري الوظيفي. إيريك أنتيلا، وبل باون، وتشارلي غوردون، وآل لاماس، وإد فيرنون، وبل كراوتش، وستيف هيرست، ومارك بيرنز، وجيم نولز، وجون هوداشيك، ونيك كراوسيو، وتشارلي زيب، وجون سيفل، وكال هوسمر، وبيت شوميكر، وغوردون سوليفان، وكارل فوونو، وتغ غرير، ودون مان، وتوم باول، وليون لابورت، ودان ماكنيل

، ووارن إدواردز، وجيم لوفلاس، وهوندو كامبل، وبيللي سولومون، ودوايت براون، وبى.تي.ميكولاشيك، وجونى روجرز، وبيغى بيسنر، وبل كوهن، وتوم شواتز، وتوني زيني، وكيث أليكساندر، ودينى موران، ورستى بلاكمان، وستيف وايتكومب، وشيللي يونغ، وجى "رايت" كامبل، وتيم كيتنغ، وجيم شويتز، وويلي مور، وديف ماككيرنان، وبرت كوللاند، وفرانك ليبوتي، وايرل هيلستون، وديفيد هالفرسون، ومايكل فيتزجيرالد، وساندي ساندستروم، وجون وارنر، وكارل ليفن، وأيك سكيلتون، وبول وولفويتز، وتورى كلارك، ودوغ براون، ومارتى شيشيس، ومايكل كوب، وباربارا فوغن، وجيف هون، وتوني بلير، وجورج تينيت، وديفيد ليت، وكارين بوللارد، وديفيد كينرلي، وإسرائيل فيلانوف، وآل "بنانا بريد مان" وباربارا ديفيس، ومايك كورلي، وجاك سليتون، وجيم سيويل، ولورنس غيلر، ورودي جيولياني، وتي.أو. ستانلي، وجاك كيمب، وبل هيكممان، وتشوك هاميلتون، وأدريان ناش، وحسن تاتاناي، وسارا ماركس، وبيللي وايت، وريتشارد فيشر، وأرنولد وأودري فيشر، وآفي وجويس آراد، وليس هوي، وليزلي هندز، وستيف هولكومب، وجيري روبنسون.

وهناك رجال ليس لهم أسماء أخيرة بسبب طبيعة العمل الذي يقومون به - فلتحفظ السماء لكم مكانا خاصا يا: "كويوت"، وبيتر، وبوب، وتوم، وهانك، وبات، وكيفن، وجيم، وكيث، و"أحمق كذبة إبريل".

وآخرون يخدمون بطريقة أخرى- عظماء من القائمين على الترفيه الذين يعطون بإنكار كبير للذات لجندنا البعيدين جداً عن أرض الوطن والكثيرون منهم صاروا أصدقاء: وين وكات نيوتون، ونيل ماككوي، وروبرت دينيترو، وغاري سينيس، وجودي ميسينا، وآرون تيبين، وبول رودريغوز، وبيللي كريستال، وكيفين سبيسي، وتوبي كيث، وتشارلي دانييل، ولي غرينوود، وهارفي كيتل، وروبن ويليامز، وذا دالاس كاوبوي تشيرليدرز، ودرو كاري، وكيد روك، وليان تويدين، وجاريد فرانزرب،- وآخرون أكثر عدداً من أن أذكرهم.

وجماعة من بلدتنا الجديدة، تامبا: ديك وليندا غريكو، وجورج ستاينبرنر،

وفرانك ميغا، وبل كري، وداني لويس، وجون وليندا لينش، وفينس وليندا نيمولي، وإيدي وكاندي ديبارتولو، ورون كامبل، ومونسينيور لورنس هيغينز، وتيم ماركوم، وفيفيان ريفز، ومالكولم غلازر، وذا بايشور باتريوتس، وديفيد موليتز، وبام أيوريو، وجميع الذين يساعدون في ذكرى القيادة المركزية - آل أوستن، وبل إدواردز، وكريس سوليفان، وبول آفري، وكثيرون آخرون.

وأنا ما زلت محظوظاً بأسرة رائعة- كارمال ولسون، بولين فرانكس بورجيس، ديفيد وديبي فوستر والأطفال جاريد وديفون، وحماتي غينيل كارلي غراي، جيمس وريتا كارلي، والأطفال جاسون وإيرين كارلي، جودي وأندريا كارلي ولسون والابن غاتلين، توم وكارين كارلي ماهر والبنات تارا وكلين، دون وجانيس إليس وعائلتهما، وغاري وتريسي إليس كينكانون والأبناء غرانت وكيد، نيك وجرالين إليس والابنة أليكسا.

ولابنتنا الجميلة، جاكلين فرانكس ماتلوك، وهي زوجة كرسى نفسها للجيش، وسيدة موهوبة جداً، ولزوجها المقدم باتريك ماتلوك، شكراً لكما على الهبة المتمثلة في حفيدنا، آن كاثرين ماتلوك، وصامويل توماس ماتلوك.

ولحب حياتي، كاثرين كارلي فرانكس. زوجتي طوال خمس وثلاثين عاماً- شريكتي وأفضل صديق. وكانت لي "محررة" الكتاب، وهي معلمتي، ومدرستي، وضميري. ومن دون كاثرين ما كان ليكون هناك قصة.

معجم مختصرات

A-10 Warthog ground attack jet

ايه - 10 نفائة هجوم أرضي من نوع ورت هوغ

A-Day Beginning of major air operations

يوم - ايه بداية العمليات الجوية الكبيرة

AA Assembly area

ايه ايه منطقة الاجتماع

AAA Antiaircraft artillery

ايه ايه ايه مدفعية مضادة للطيران

ABCCC Airborne command and control center

ايه بي سي سي سي مركز قيادة وسيطرة محمول جواً

AC-130 Spectre four-engine turboprop gunship

ايه سي-130 طائرة مسلحة بأربعة محركات توربينية من نوع

سبكتر (الشبح)

ACR Armored cavalry regiment

ايه سي ار فوج خيالة مدرع

AD Armored division

ايه دي فرقة مدرعة

ADA Air defense artillery

ايه دي ايه مدفعية دفاع جوي

AK-47,74 AKM 7.62x39mm Soviet-design Kalashnikov assault

rifles

ايه كي-47،74، ايه كي ام بنادق هجومية عيار 7.62 39 ملم من تصميم سوفيتي من نوع كالاشينكوف.

AH-6 Little Bird Special Operations helicopter gunship

ايه اتش - 6 طائرة عمودية مسلحة للعمليات الخاصة من نوع ليتل بيرد (الطائر الصغير)

AH-64 Apache helicopter gunship

ايه اتش - 64 طائرة عمودية مسلحة من نوع أباتشي

ALO Air liaison officer

ايه ال او ضابط ارتباط جوي

AOI Area of Interest

ايه او آي منطقة اهتمام

AOR Area of Responsibility

ايه او ار منطقة المسؤولية

APC Armored personnel carrier

ايه سي حاملة جنود مدرعة

ARCENT Army Forces, Central Command; also

U.S. 3rd Army

آرسنت قوات الجيش، القيادة المركزية، وكذلك، الجيش الثالث للولايات المتحدة

ATACMS Army Tactical Missile System

ايه تي ايه سي ام اس نظام الصواريخ التبعوية للجيش

AWACS Airborne Warning and Control System

أواكس نظام إنذار وسيطرة محمول جواً

B-1 Lancer Strategic bomber

بي - 1 قاذفة إستراتيجية من نوع لانسر

B-2 Stealth bomber

بي - 2 قاذفة من نوع ستيلث

B-52 Stratofortress strategic bomber

بي - 52 قاذفة إستراتيجية من نوع استراتو فورترس

BDA Battle damage assessment

بي دي ايه تقدير أضرار المعركة

BDE Brigade

بي دي تي لواء (تشكيل عسكري)

BDU Battle dress uniform

بي دي يو اللباس الموحد للمعركة

BG Brigadier general

بي جي عميد

Black Hawk UH-60 utility helicopter

بلاك هوك الصقر الأسود يو اتش-60 طائرة عمودية متعددة الأغراض

BMP Soviet-design infantry fighting vehicle

بي ام بي عربة قتال للمشاة تصميم سوفيتي

BN Battalion

بي ان كتية

Bradley M-2 infantry fighting vehicle of M-3

cavalry fighting vehicle

برادلي ام-2 عربة قتال للمشاة من ام-3 عربة قتال للخيالة

C-17 Four-engine jet USAF Cargo plane

سي-17 نفائة بأربع محركات، طائرة شحن من سلاح الطيران

C?1, C41 Command, Control, Communications,

computers, and Intelligence

سي 4 آي، سي 4 آي: قيادة، سيطرة، اتصالات، حاسوب استخبارات

CA Civil affairs

سي ايه الشؤون المدنية

CAOC Combined Air Operations Center

سي ايه أو سي مركز العمليات الجوية المشتركة

CAS Close air support

سي ايه اس إسناد جوي قريب

CAT Crisis Action Team

سي ايه تي فريق عمل للأزمة

CAV Cavalry

سي ايه في خيالة

CD Cavalry division

سي دي فرقة خيالة

CENTAF Central Command, Air Forces

سنتاف (سي ئي ان تي ايه اف) القيادة المركزية، قوات الطيران

CENTCOM Central Command; one of America's

Unified/Joint Commands

سي ئي ان تي سي او ام القيادة المركزية، إحدى القيادات الأمريكية
الموحدة/المشتركة

CEO Chief Executive officer

سي ئي او ضابط تنفيذي رئيس

CEP Circular error probable

سي ئي ?? خطأ دائري محتمل

CEV Combat engineer vehicle

سي ئي في عربة قتال للمهندسين

CFACC Combined Forces Air Component Command

سي اف ايه سي سي قيادة العنصر الجوي لقوات المشتركة

CFLCC Combined Forces Land Component

Command

سي اف ال سي سي قيادة العنصر الأرضي للقوات المشتركة

CFMCC Combined Forces Maritime Component

Command

سي اف ام سي سي قيادة العنصر البحري للقوات المشتركة

CFSOCC Combined Forces Special Operations

Component Command

سي اف اس او سي سي قيادة عنصر القوات الخاصة للقوات المشتركة

CG Commanding general

سي جي الجنرال القائد

CGSC U.S Army Command and General College

سي جي اس سي الكلية العامة والقيادة للجيش في الولايات المتحدة

Chinook CH-47 helicopter

شينوك سي اتش-47 طائرة عمودية

CIA Central Intelligence Agency

سي آي ايه وكالة الاستخبارات المركزية

CINC Commander-in-Chief

سي آي ان سي القائد العام

CINCCENT Commander-in-Chief, Central Command

سي آي ان سي سي ئي ان تي القائد العام، القيادة المركزية

COL Colonel

سي او ال عقيد

COMM Communications

سي او ام ام اتصالات

CONPLAN Contingency plan

سي او ان ال ايه ان خطة طوارئ

CONUS Continental United States

سي او ان يو اس الولايات المتحدة القارية

CP Command post

سي مركز قيادة

CPT Captain

سي تي نقيب

CSAR Combat search and rescue

سي اس ايه ار بحث وإنقاذ قتالي

DCU Desert camouflage uniform

دي سي يو بزة صحراوية مموهة

D-Day Beginning of hostilities

يوم - دي يوم - ي بداية العمليات الحربية

DEROS Date Eligible for Return from Overseas

دي ئي ار او اس تاريخ استحقاق العودة من وراء البحار

DIA Defense Intelligence Agency

دي آي ايه وكالة الاستخبارات الدفاعية

DOD Department of Defense

دي او دي وزارة الدفاع

DPICM Dual-purpose improved conventional munitions

دي بي آي سي ام ذخائر تقليدية محسنة ثنائية الغرض

Dust off GI slang of medical evacuation helicopter

دست اف (اخلاء) لفظة عامية بين الأفراد وتعني الإخلاء الطبي بالطائرة العمودية

ELINT Electronic intelligence

ئي ال آي ان تي استخبارات اليكترونية

EPW Enemy prisoner of war

ئي دبليو أسير حرب عدو

F-16 Falcon fighter bomber

اف - 16 قاذفة مقاتلة من نوع فالكون (الباز)

F-117 Night Hawk Stealth bomber

اف - 117 قاذفة نايت هوك من نوع ستيلث

F/A-18 Naval/Marine fighter bomber

اف/ايه - 18 قاذفة مقاتلة للأسطول/ مشاة البحرية

FAC Forward air controller

اف ايه سي مراقب جوي متقدم

Firefinder Countermortar, counterartillery radar

فاير فايندر (محدد مصدر النيران) هاون مضاد، ورادار مضاد للمدفعية

First Team" Nickname for the 1st cavalry Division"

"الزمرة الأولى" لقب لفرقة الخيالة الأولى

FIST Fire support team

اف آي اس تي فريق نيران المساندة

FISTV Fire support team vehicle; a modified M113 APC

اف آي اس تي في عربة فريق نيران المساندة، حاملة جنود مدرعة ام 113
معدلة

FLIR Forward-looking infrared

اف ال آي ار نظر متقدم بالأشعة تحت الحمراء

FOB Forward operating base

اف او بي قاعدة عمليات متقدمة

FORSCOM U.S. Army Forces Command

اف او ار اس سي او ام قيادة قوات جيش الولايات المتحدة

FRAGO Fragmentary order

اف ار ايه جي او أمر مجزأ

G-2 Intelligence staff officer/section-

division or higher

جي - 2 ضابط ركن الاستخبارات/شعبة - فرقة أو أعلى

G-3 Operations and plans staff officer/section-

division or higher

جي - 3 ضابط ركن الخطط والعمليات/شعبة - فرقة أو أعلى

G-4 Logistics staff officer/section-division or higher

جي - 4 ضابط ركن الإمداد والتموين/شعبة - فرقة أو أعلى

GBU Guided bomb unit

جي بي يو وحدة قنابل موجهة

G-Day Beginning of ground phase of a campaign

يوم - جي بداية المرحلة الأرضية من الحملة

GEN General

جي ئي ان جنرال

GPS Global Positioning System

جي اس النظام العالمي لتحديد الموقع

Grunt GI slang for an infantryman

غرنت (نخر، صوت بأنفه) رطانة عامية عند الأفراد تعني المشاة

HARM High-speed antiradiation missile

اتش ايه ار ام صاروخ عالي السرعة مضاد للإشعاع

HDR Humanitarian daily ration

اتش دي ار وجبة طعام يومية إنسانية

HEAT High-explosive antitank projectile

اتش ئي ايه تي مقذوف مضاد للدروع عالي الانفجار

Hellfire Laser-guided antitank missile

هيلفاير (نار جهنم) صاروخ مضاد للدبابات موجه بالليزر

H-Hour The specific hour at which a particular

operation commences,

الساعة - اتش ساعة الصفر، الساعة المحددة التي تبدأ فيها عملية بعينها

Howitzer An indirect fire cannon

هاوتزر (قذاف، مدفع قوس) مدفع نيران غير مباشرة

HQ Headquarters

اتش كيو مقر

Huey UH-1 Iroquois utility helicopter

هوي يو اتش - 1 طائفة عمودية متعددة الأغراض
من نوع إرو كوا

HUMINT Human intelligence

اتش يو ام آي ان تي استخبارات بشرية

Humvee High-mobility, multipurpose wheeled vehicle

همفي عربة مدولة متعددة الأغراض عالية الحركة

IADS Integrated Air Defense System

آي ايه دي اس نظام دفاع جوي متكامل

ICBM Intercontinental ballistic missile

آي سي بي ام صاروخ باليستي (قذفي) عابر للقارات

ID Infantry division

آي دي فرقة مشاة

INTERNAL LOOK A joint training exercise

انترنال لوك (نظرة داخلية) تمرين تدريب مشترك

J-2 Intelligence staff officer or section at joint

headquarters

جيه -2 ضابط ركن الاستخبارات أو شعبة الاستخبارات

في المقار المشتركة

J-3 Operations staff officer or section at joint

headquarters

جيه -3 ضابط ركن العمليات أو شعبة العمليات في

المقار المشتركة

J-5 Plans staff officer or section at joint

headquarters

جيه -5 ضابط ركن الخطط أو شعبة الخطط في المقار المشتركة

J-6 Communications staff officer or section at

Joint headquarters

جيه -6 ضابط ركن الاتصالات أو شعبة الاتصالات في

المقار المشتركة

JCS Joint Chiefs of Staff

جيه سي اس هيئة الأركان المشتركة

JDAM Joint direct attack munition

جيه دي ايه ام ذخيرة الهجوم المباشر المشتركة

JIC Joint Intelligence Center

جيه آي سي مركز الاستخبارات المشتركة

JOC Joint Operations Center

جيه او سي مركز العمليات المشتركة

JSOTF Joint Special Operations Task Force

جيه اس او تي اف قوة مهام عمليات خاصة مشتركة

JSTARS Joint Surveillance Target Attack Radar

System

جيه اس تي ايه ار اس نظام المراقبة المشتركة لرادار مهاجمة الأهداف

JTF Joint Task Force

جيه تي اف قوة مهام مشتركة

K-2 karshi Khanibad, Uzbekistan

كي 2 خارشى خانيباد، أوزبكستان

KFIA King Fahd International Airport

كي اف آي ايه مطار الملك فهد الدولي

KKMC King Khalid Military City

كي كي ام سي مدينة الملك خالد العسكرية

Klick GI Slang for kilometer

كليك لفظة عامية من الأفراد وتعني كيلومتر

KM Kilometers

كي ام كيلومتر

LAV U.S. Marine Corps light armored vehicle

ال ايه في عربة مدرعة خفيفة لسلاح مشاة البحرية الأمريكي

LCC Land component commander

ال سي سي قائد العنصر الأرضي

LD	Line of departure	ال دي خط البدء
LNO	Liaison officer	ال ان او ضابط ارتباط
LT	Lieutenant	ال تي ملازم
LTC	Lieutenant colonel	ال تي سي مقدم
LTG	Lieutenant General	ال تي جي فريق أول
MIAI	Abrams tank	ام 1 ايه 1 دبابة أبرامز
M-14	7.62 mm Infantry rifle	ام 14 بندقية مشاة عيار 62.7 مم
M-16	5.56 mm infantry rifle	ام 16 بندقية مشاة عيار 56.5 مم
M-60	7.62 mm machinegun	ام 60 رشاش عيار 62.7 مم
M-26	U.S. fragmentation grenade	ام 26 قنبلة متشظية أمريكية
M-109	Paladin 155 mm self-propelled howitzer	

ام 109 مدفع هاويتزر بالادين ذاتي الدفع عيار 155مم

MANPADS Man Portable Air Defense System-a

shoulder-fired missile

مانبادس نظام دفاع جوي محمول من المقاتلين-

صاروخ يحمل على الكتف

MARCENT Marine Forces, Central Command

مارسنت قوات مشاة البحرية، القيادة المركزية

MEB Marine Expeditionary Brigade

ام ئي بي لواء حملة مشاة البحرية

MEF Marine Expeditionary Force

ام ئي اف قوة حملة مشاة البحرية

Mech Mechanized

ام ئي سي اتش آلي (مكانيكي)

MEDEVAC Medical evacuation

ميديفاك إخلاء طبي

METTT Mission, enemy, troops, terrain, and

time available

ام ئي تي تي تي المهمة، العدو، الجند، الأرض، الوقت المتوافر

MEZ Missile engagement zone

ام ئي زد منطقة اشتباك الصواريخ

MG Major general

ام جي لواء

MI Military intelligence

ام آي استخبارات عسكرية

MLRS Multiple Launch Rocket System

ام ال ار اس نظام قذف الصواريخ المتعددة

MM Millimeter

مم ميليمتر

MOPP Mission Oriented Protective Posture

ام او الوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة

MP Military police

ام الشرطة العسكرية

MRE Meals, ready to eat

ام ار ثي وجبات، جاهزة للأكل

MSR Main supply route

ام اس ار طريق رئيسي للإمداد

NATO North Atlantic Treaty Organization

ناتو منظمة معاهدة شمال الأطلسي

NBC Nuclear, biological, chemical

ان بي سي نووي، حيوي، كيميائي

NCO Noncommissioned officer-corporal or sergeant

ان سي او ضباط الصف - عريف أو رقيب

NEO Noncombatant evacuations operations

ان ئي او عمليات إخلاء غير قتالية

NGO Nongovernmental organization

ان جي او منظمات غير حكومية

NSC National Security Council

ان اس سي مجلس الأمن القومي

NTC National Training Center, Fort Irwin, California

ان تي سي مركز التدريب القومي، فورت إروين، كاليفورنيا

NVA North Vietnamese Army

ان في ايه جيش فيتنام الشمالية

OCS Officer Candidate School

او سي اس مدرسة الطلاب المرشحين

OPFOR Opposing force

او اف او ار قوة مقاومة

OPLAN Operations plan

او بلان خطة عمليات

PAC-3 Improved anti-theater ballistic missile

version of Patriot

ايه سي 3 نسخة محسنة من صاروخ باتريوت المضاد

للسواريخ الباليستية في مسرح العمليات

PGM Precision-guided munition

جي ام ذخيرة دقيقة التوجيه

PL Phase line

ال خط المرحلة

Polo Step Classified security compartment

خطوة بولو قسم أمني سري

POW Prisoner of war

أو دبليو أسير حرب

PR Public relations

ار علاقات عامة

PSAB Prince Sultan Air Base, Saudi Arabia

اس ايه قاعدة الأمير سلطان الجوية، المملكة العربية السعودية

PSYOP Psychological operations

اس واي او عمليات نفسية

R&D Research and development

ار و دي البحث والتطوير

REFORGER Return of forces to Germany

ريفورجر (ار ئي اف او ار جي ئي ار) عودة القوات إلى ألمانيا

RPG Rocket-propelled Grenade

ار بي جي قنبلة مقذوفة صاروخياً

S-2 Intelligence staff officer/section-battalion or

brigade level

اس - 2 ضابط ركن استخبارات/شعبة استخبارات- مستوى كتيبة أو لواء.

S-3 Operations and plans officer/section- battalion

or brigade level

اس - 3 ضابط ركن الخطط والعمليات/ شعبة الخطط

والعمليات - مستوى كتيبة أو لواء

S-4 Logistics staff officer/section- battalion or

brigade level

اس - 4 ضابط ركن الإمداد والتموين/ شعبة الإمداد والتموين

مستوى كتيبة أو لواء.

Sabot Armor-piercing tank projectile

سابوت (اس ايه بي او تي) مقذوف دبابة خارق للدروع

Sapper A military engineer; Viet Cong saboteur

سابر مهندس عسكري، مخرب من الفيتكونغ

SATCOM Satellite communications

ساتكوم (اس ايه تي سي او ام) اتصالات بالأقمار

SCIF Special Compartmented Intelligence Facility

اس سي آي اف منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة

Scud Soviet-design ballistic missile

سكود صاروخ باليستي من تصميم سوفيتي

SEAD Suppression of enemy air defenses

اس تي ايه دي إخماد الدفاعات الجوية المعادية

SF Special Forces

اس اف قوات خاصة

Shamal A Middle Eastern seasonal windstorm often associated
with blowing dust and rain

الشمال عاصفة هوائية موسمية في الشرق الأوسط مترافقة
في الغالب بإثارة الغبار وهطول الأمطار

SIGINT Signals intelligence

اس آي جي أي ان تي استخبارات الإشارة

SJA Staff Judge Advocate

اس جيه ايه مستشار عدلي ركن

SMU Special Mission Unit

اس ام يو وحدة مهمة خاصة

SOCENT Special Operations Command Central Command

سوكسنت (اس او سي سي أي ان تي) قيادة العمليات الخاصة للقيادة
المركزية

SOCOM Special Operations Command

سوكوم (اس او سي او ام) قيادة العمليات الخاصة

SOF Special Operations Forces

اس او اف قوات العمليات الخاصة

Spectre Air Force AC-130 aircraft

سبكتر الطائرة ايه سي-130 من سلاح الطيران

T-55, 62, 72 Soviet design main battle tanks

تي -55، 62، 72 الدبابات الرئيسية للمعركة من التصميم السوفيتي

TAA Tactical assembly area

تي ايه ايه منطقة التجمع التعبوية

TAC Tactical command post

تي ايه سي مركز قيادة تعبوي

TBM Tactical ballistic missile

تي بي ام صاروخ باليستي تعبوي

TF Task Force

تي اف قوة مهام

TLAM Tomahawk Land Attack Missile

تي ال ايه ام صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي

TOC Tactical operations center

تي او سي مركز عمليات تعبوية

TOW Tube-launched, optically tracked, wire-guided

anti-tank missile

تو (تي او دبليو) صاروخ مضاد للدبابات يطلق أنبوبياً، ويتابع بصرياً، ويوجه سلكياً.

Track A tracked vehicle-often an armored personnel

carrier

مجنزرة (تراك) عربة مجنزرة - في الغالب حاملة جنود مدرعة

TRADOC U.S. Army Training and Doctrine Command

ترادوك (تي ار ايه دي او سي) قيادة التدريب والعقيدة للجيش في الولايات المتحدة الأمريكية.

UAE United Arab Emirates

يو ايه تي الامارات العربية المتحدة

UAV Unmanned aerial vehicle; remotely piloted vehicle (RPV)

يو ايه في عربة جوية من دون طيار، عربة بطيار مشغل عن بعد (ار في)

UK United Kingdom

يو كي المملكة المتحدة

UN United Nations

يو ان الأمم المتحدة

USAF United States Air Force

يوساف (يو اس ايه ان) سلاح الطيران، الولايات المتحدة

USAREUR U.S. Army Europe

يوسارور (يو اس ايه ار ئي يو ار) جيش أوروبا، الولايات المتحدة

VC Viet Cong

في سي الفيتكونغ

VISOBS Visual observation posts

في آي اس او بي اس مركز رصد بصري

VTC Video Teleconference

في تي سي مؤتمر من بعد مصور بالفيديو

VULCAN 20 mm antiaircraft cannon/gun system

فولكان نظام مدفعي/ مدفع مضاد للطيران عيار 20 ملم

WMD Weapons of mass destruction

دبليو ام دي أسلحة الدمار الشامل

WP White phosphorus

تصوير

دبليو فسفور أبيض

XO Executive officer

أحمد ياسين

أكس او ضابط تنفيذي

ZSU-14.5, 23, 57 mm Soviet-design antiaircraft gun

زد اس يو-14.5، 23، 57 ملم مدفع مضاد للطيران من تصميم سوفيتي





نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

